بيروت

في التاريخ والحضارة والعمران

تأليف

الشيخ طه الولي

دار العلم للملايين



بيروت
AVENUE DE PARIS
A. U. B.
Rue Bliss
Rue Hamra
Rue Jeanne d'Arc
Rue Sadat
Rue Abdel Aziz
Rue Alfred Naccache
Rue Makdissi
Rue Emile Eddé
Rue Baalbeck
Rue Mme Curie
Rue Clemenceau
Rue John Kennedy
Rue Minet el Hosn
Rue Ibn Sina
Rue de Phénicie
Rue Dar el Mraysse
Rue Omar Daouk
Rue Ahmed Chawki
Rue Weygand
Rue de la Marseillaise
Rue Allenby
Rue Foch
Rue Trablos
Av. des Français
Rue de France
Rue Michel Chiha
Banque du Liban
Rue Spears
Rue Emir Béchir
Riad Solh
Rue Maarad
Place des Martyrs
Rue Gouraud
Rue Pasteur
AVENUE DU PRESIDENT CHARLES HELOU
AVENUE DU PORT
Rue Fouad Chehab
Rue de Damas
Rue Monnot
Rue Abdel Wahab el-Inglizi
Rue Achrafieh
Rue Sursock
Rue Mar Mitr
AVENUE DE L'INDEPENDANCE
Hôpital Orthodoxe
Rue de Beyrouth
AVENUE GEN. DE GAULLE
AVENUE DE PARIS
CORN. RAS BEYROUTH
Rue Verdun
BOULEVARD SAEB SALAM
Mazraa
Unesco
Pl. Unesco
AVENUE RAMLET EL BAIDA
AVENUE DE LA REPUBLIQUE
Rue Habib Abi Chahla
Rue Houriat
Rue Ahmed el-Assad
Rue Nicolas Khalil
Rue Nations Unies
CAMILLE CHAMOUN
Rue Stade Municipal
Rue Selim Salam
Pl. Omar Beyhum
RUE OMAR BEYHUM
RUE DE L'AEROPORT
HIPPODROME
AVENUE DU ABDALLAH YAFI
Pl. du Musée
Pl. Palais de Justice
Rue Damas
CORNICHE
PIERRE GEMAYEL
GARE
FLEUVE DE BEYROUTH
FURN EL CHEBBACK
Chebbak
Rue Sabra
Rue Mar Elias
Rue Hôpital Makassed
Rue Toufic Hibri
Rue Hassan Bohsali

بيروت

في التاريخ والحضارة والعمران

تأليف

الشيخ طه الولي

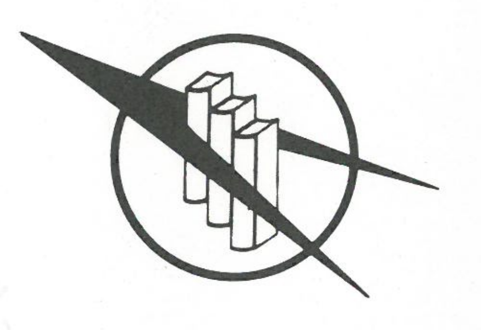
دار العلم للملايين



دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب: ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨٦٣٤٧٤
برقياً: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى

آذار / مارس ١٩٩٣

تصميم الغلاف: رفيف حربلي

أَفْدِيكِ بَيْروتُ مِنْ رَبْعٍ وَمِنْ وَطَنٍ   وَمَعْقِلِ الصِّيدِ أَشْياخاً وَفِتْيانا
بَيْروتُنا اليَوْمَ، مَا كُنَّا لِنَخْذِلَها   وَماؤُها العَذْبُ أَرْوانا وأَحْيانا
فيها الْغَطاريفُ مِنْ عُرْبٍ جحاجِحَةٍ   قَدْ شَيَّدُوا الدَّهْرَ لِلْأَمْجادِ بُنْيانا
فيها الْمَآذِنُ لِلإسْلامِ قد شَمَخَتْ   إلى السَّماءِ لِدينِ اللَّهِ إعلانا
فيها الْمَنابِرُ وَالأَحْرارُ سَادَتُها   قامَتْ عَلى الْحَقِّ آساساً وأَرْكانا
لا زِلْتِ بَيْروتُ ظِئْرَ المَجْدِ مُمْتَنِعاً   تُرْضي العُلا وَكَذاكَ العِلْمَ وَالدِّينا

(*) أبيات نظمها المؤلف في قلعة راشيا الوادي حيث اعتقله الفرنسيون إبان الحرب الكونية الثانية.

فاتحة الكتاب

لماذا ولمن هذا الكتاب

الكتابة عن بيروت اليوم لها نكهة خاصة، ذلك أن هذه المدينة في حاضرها الراهن تعيش مرحلة تاريخية تشهد انتقالها من العصور القديمة إلى العصر الحديث بكل ما يحمل هذا الانتقال من المعاني الحياتية والاجتماعية والحضارية. والبيروتيون الذين أدركوا مدينتهم وهي تدخل في غمار السنوات الأولى من القرن العشرين الميلادي وامتد بهم العمر حتى وصلت بهم سنواتهم إلى الهزيع الأخير من هذا القرن التي أصبحت على مشارف القرن الحادي والعشرين. هؤلاء البيروتيون هم في الواقع يشكلون الجسر البشري الذي مرت عليه بيروت وهي في طريقها من غمرات الماضي العتيق إلى أجواء المستقبل الجديد.

ولعلَّه من حسن حظ هذه المدينة أن تجد من أبنائها ذلك الرعيل الذي عاصرها وهي تمر في مخاض انطلاقها من تحت أقبية أسواقها القديمة وزقاقاتها الضيقة المعتمة إلى شوارعها الجديدة وجاداتها الواسعة. إن ذلك الرعيل إنما هو نموذج لن يتكرر من مجتمع فريد جدير بأن يكون مادة غنية لمن يأخذ نفسه بالكتابة عن مدينة تطورت تطوراً عمودياً ما بين عهديها في القرنين التاسع عشر والعشرين بحيث فرضت نفسها على الاهتمام العالمي الذي عبرت عنه وجسدته المرافق والمؤسسات من مختلف الأقطار في الشرق والغرب وهي ترنو بأبصارها ومطامحها وأطماعها للفوز بموطىء قدم لها في هذه المدينة التي أصبحت في نظرهم جميعاً الفيء الذي يستظلون به لتحقيق ما يصبون إليه من غايات وأغراض، سواء على المستوى الخاص، الشخصي أو على المستوى العام الدولي.

وإذا أردنا تحديد الزمن الذي بدأت به بيروت مخاضها الحضاري الحديث فإنه يمكننا أن نرجع بهذا الزمن إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه وذلك عندما بدأت أوروبة زحفها العسكري الاستعماري وأميركا نشاطها الديني التبشيري، وهذان الأمران توطدا في المجتمع البيروتي عن طريق الحملات العسكرية المتعددة الجنسيات وكذلك عن طريق البعثات، أو ما كان يسمى بالإرساليات التبشيرية المتعددة الجنسيات هي الأخرى.

وجدير بالذكر أن نحرش الحضارة الغربية بأهل هذه المدينة لم يكن وليد المصادقة البحتة، بل هو في الواقع جاء نتيجة تخطيط مدروس قام به دهاقنة الحضارة المذكورة الذين وجدوا في مدينة بيروت بالذات ما يمكنهم من إقامة رأس جسر لهم يتيح لمن يمتلكه أن يعبر عليه في طريقه إلى الشرق العربي كله يتيح لمن يمتلكه أن يعبر عليه في طريقه إلى هذه المنطقة كلها ولهذا فإننا نجد أن أجهزة الغزو الحضاري المتوفرة للغرب آنذاك قد جعلت هذه المدينة نصب عينيها حينما تركت مرافىء وعواصم بلادها متجهة من الغرب إلى الشرق، ولم يطل الزمن الذي احتاجته الحضارة الغربية حتى أصبحت بيروت أو كادت على صورة الغرب ومثاله في كل شأن من شؤونها تقريباً حتى صح فيها قول الشاعر:

ترى الفتى العربي فيها غريب الوجه واليد واللسان

وبيروت هذه اللؤلؤة التي رافقتها أمواج البحر الأبيض المتوسط من حين إنشائها قبل نحو أربعة آلاف سنة على الساحل الشرقي لهذا البحر، برزت رافلة بأبهى حلل الازدهار ومعالم التمدن والتقدم، وأبواب الحياة والعمل فيها مشرعة لكل الذين التمسوا الرفاه والاستقرار والطمأنينة في ربوعها. وما لبثت أن امتدت رقعتها وترامت أرجاؤها وأبعادها حتى غدت أو كادت، بالإضافة إلى كونها عاصمة لبنان تصبح كذلك عاصمة الانطلاق إلى الأحسن والأفضل في الشرق العربي كله. وما إن مد القرن العشرون رواق سنيه على أرضها والمقيمين فوق هذه الأرض حتى تناولتها أقلام الكتّاب والمؤلفين من كل جنس ومن كل حدب وصوب، وازدحمت رفوف المكتبات بآلاف الصفحات التي ملأت مئات الكتب التي تحمل على اختلاف لغات مؤلفيها وهوياتهم القومية والعنصرية عنواناً واحداً وهو اسم «بيروت» فلقد أصبح هذا الاسم القاسم المشترك الذي يلتقي عنده جميع الباحثين في حاضر هذه المنطقة من العالم وكذلك عن مستقبلها. ذلك أن هذه المدينة قد غدت في ميزان المهتمين بالمشرق العربي وأحواله وتحولاته إبرة البوصلة التي تعيّن اتجاه هذا الحاضر والمستقبل الذي يليه.

حتى أواسط القرن الماضي كان تاريخ بيروت قابعاً على استحياء في ثنايا صفحات معدودات تركها لنا مؤلف بيروتي يدعى صالح بن يحيى قبل نحو سبعة قرون أخرجها من دهاليز المخطوطات القديمة راهب يسوعي يدعى الأب لويس شيخو. ولقد بقي كتاب صالح بن يحيى المرجع الوحيد للباحثين في تاريخ هذه المدينة كما كانت عندما صُنف هذا الكتاب في ذلك الزمن السحيق.

وهناك كتاب آخر عنوانه (تاريخ بيروت) ألفه أحمد البيروتي، ولسنا نملك أية معلومات عن أحمد البيروتي هذا، ولا عن كتابة إلا ما ذكره السيد محمد خليل المرادي في كتابه (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر). وإن فقدان هذا الكتاب قد حرمنا من غير شك أن نعرف ما نجهله من حالات بيروت وتحولاتها في أيام المؤلف المذكور، لكي نتمكن من المقابلة بين بيروت ذلك الزمان وبيروت في زماننا.

وإبان الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) كان على رأس ولاية بيروت والٍ عثماني اسمه عزمي بك. ولقد رأى هذا الوالي أن عاصمة ولايته جديرة بأن يتعرف على تاريخها أبناؤها الذين يعيشون فوق دأيمها، وأولئك الذين يقصدونها من خارجها للارتفاق في صادراتها ووارداتها أو إلقاء مراسي طموحاتهم عبر أسواقها ومؤسساتها، فطلب من الأب لويس شيخو اليسوعي، أحد علماء زمانه أن يصنف كتاباً في تاريخ بيروت يصل فيه ما انقطع من أخبارها منذ أيام صالح بن يحيى في أواخر العهد المملوكي إلى العقد الثاني من سنوات القرن العشرين الميلادي، وتسهيلاً لمهمة هذا الراهب فإن الوالي وضع تحت تصرفه رفوف الكتب المخزونة في الجامعتين الأميركية واليسوعية ببيروت، فامتثل شيخو لرغبة الوالي العثماني، وبفضل هذه المبادرة أخرجت المطبعة الكاثوليكية في بيروت آنذاك كتاب «بيروت تاريخها وآثارها» بقلم ذلك الراهب، وهذا الكتاب على صغر حجمه وقلة عدد صفحاته جاء مفيداً في موضوعه وذلك لندرة الكاتبين في هذا الموضوع.

وقبل أن تضع الحرب المذكورة أوزارها نهض كل من محمد بهجت المدير الثاني في المدرسة السلطانية (في بيروت)، ورفيق التميمي مدير مدرسة التجارة بتأليف كتاب مفصل تحت عنوان «ولاية بيروت» بيد أنه من الطريف أن هذا الكتاب الذي جاء في جزءين ضخمين تضمن كل ما يتعلق من معلومات عن المدن التي كانت تتألف ولاية بيروت منها إلا أنه جاء خلواً من أي إشارة تتعلق بمدينة بيروت نفسها. وأغلب الظن أن المؤلفيْن تركا الحديث عن هذه المدينة ليفردا لها جزءاً خاصاً بها لوحدها، إلاّ أن أفول العهد العثماني وهما في غمرة الاهتمام بهذا الموضوع حال دون إعداد الجزء المنتظر، الأمر الذي حرمنا مرجعاً مهماً في تاريخ مدينتنا وهي تنتقل من عهد إلى عهد ومن دولة إلى أخرى.

وابتداءً من العقد الثالث في هذا القرن أصبحت بيروت وتاريخها الحديث مادة مزجاة توالى على كتابتها المؤلفون، من أبنائها وأبناء البلاد العربية والأجنبية، حتى أصبح اسم هذه المدينة يتكرر على عشرات الكتب التي تناولتها من مختلف معطيات كيانها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والديني والقومي.

ولو أردنا أن نحصي الكتب التي صدرت عن بيروت في اللغة العربية وغيرها من اللغات العالمية لضاق بها مجال هذه الصفحات على رحبها وكثرتها، إلا أن هذه الإشارة لا تمنعنا من القول بأن هناك كتاباً تحت عنوان (بيروت مدينة شرقية في هيئة غربية من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩٧٧م) بقلم كاتب ألماني اسمه هلموت روپير (Helmut Ruppert) يعتبر من الدراسات المفيدة التي تناول المؤلف فيها الفترة التي عاشتها بيروت ما بين أواسط القرن الماضي وأواسط القرن الحالي وهي الفترة التي شهدت فيها هذه المدينة الجذابة أضخم حركة تحوُّل وتغيير في تاريخها الطويل كله بحيث أصبحت كما قال مؤلف الكتاب في العنوان الذي وضعه لكتابه «مدينة شرقية في هيئة غربية».

إننا إذ نكتب اليوم «عن بيروت في التاريخ والحضارة والعمران» فإننا نعكس على صفحات كتابنا هذا ما يشدنا إلى هذه المدينة من إيمان أكيد بدورها الفاعل سواء بالنسبة لمحيطها الإقليمي في المشرق العربي أو بالنسبة لمداها البعيد في أرجاء العالم الغربي.

ولعلنا لسنا نجنح إلى المبالغة إذا أكدنا بأن كلمة بيروت تجاوزت في معناها أن تكون اسماً على المدينة التي اختارها لبنان عاصمة له. ذلك أن هذه الكلمة أصبحت علَماً أو قاسماً مشتركاً في أكثر من قطر وأكثر من بلد، لكل ما هو مطلوب من الناس على اختلاف أغراضهم ومشاربهم.

السياسي يجد في محافلها ضالته من أخبار اليوم والغد.

العالم يجد في جامعاتها ومكتباتها ما يروي ظمأه إلى المعرفة.

الطالب يجد في معاهدها وأساتذتها ما يرضي طموحه إلى الثقافة.

الكاتب يجد في أجوائها ما يتنفس به من نسائم الأمن والحرية.

العابد يجد في رحاب بيوت الله المبثوثة في أرجائها ما يصله بربه إذ هو فيها حيث يكون ميمِّماً وجه الله.

اللاهث وراء المال والجاه والغنى يجد في أسواقها ما يستهويه من الآمال والأطماع والثراء.

العدميون.. أولئك الذين نفضوا أيديهم من هموم الدنيا ومتاعبها وأسلموا نزواتهم إلى أهوائهم وأوهامهم فإنهم أيضاً واجدون في هذه المدينة ما يعفيهم ويريحهم من التفكير في حاضرهم ومستقبلهم.

الناس كل الناس، من كل جنس ومن كل لون ومن كل لسان يلهجون باسم بيروت كلما راودتهم نفوسهم بالبحث عن الأرض التي تنتظم فيها خفقات قلوبهم على وقع الراحة والاستقرار والهدوء والاطمئنان.

والحديث عن بيروت يكاد لا يكتمل إلاّ إذا اشتملت كلماته على سطور في بيان المسيرة العلمية لثلة من رواد نهضتها الفكرية الذين تألقت أسماؤهم عبر تاريخها المشرق فوق قمم الأمجاد التي استحقوها بما قدموه للأمة والملة والدين من المصنفات التي تنوعت عناوينها وتعددت صفحاتها في ميادين العلوم الدينية والفنون الأدبية والدراسات التاريخية والتوجيهات الاجتماعية والإرشادات الخلقية.

إن هذه الثلة الكريمة التي رصعنا بأسمائها هذا الكتاب إنما هي في الواقع غيض من فيض لم نُرد بها إلا إعطاء صفحاته نفحة من العبير العلمي الذي طالما كانت مدينة بيروت تضوع به على امتداد تاريخها في مضمار العطاء العلمي المتدفق العدد الذي لا يمكن إحصاؤه ولا حصره من أبنائها المتميزين بآثارهم التي تزدان بها رفوف المكتبات العربية والأجنبية في شتى حقول الثقافة والمعرفة.

ولو أن صفحات هذا الكتاب تتسع للتنويه بكل الأعلام من علماء بيروت على امتداد زمانها في الماضي والحاضر لضاقت هذه الصفحات عن إعطاء كل ذي حق حقه من هؤلاء الأعلام.

وإذْ أنا أكتب هذه الكلمات قرأت لأحد الكتّاب العرب وهو يحاور أحد الصحافيين في مجلة عربية مرموقة الذي سأله عن ثلاث مدن ربطته بها علاقة خاصة، وذكريات فيها فيقول ذلك الكاتب:

بيروت، ثم بيروت، ثم بيروت..

ثم يقول: ألم يك صادقاً ذلك الشاعر الذي قال: «يا ست الدنيا يا بيروت؟».

إني أقول: نعم.. إن بيروت ست الدنيا.

وبعد..

إلى أهل بيروت

إلى أحباب بيروت

إلى جميع الذين، في يوم من الأيام أظلتهم بيروت بسمائها الصافية وأقلتهم فوق أرضها المضيافة ورافقتهم في النهار شمسها الدافئة وسهر معهم في الليل قمرها المنير.

وكذلك إلى أولئك الذين تحلبت أفواههم قرماً ليرووا ظمأهم إلى الدماء في بيروت وتطاولت عيونهم لرؤية النيران تلتهم بيروت واشرأبت نفوسهم طمعاً في نهب بيروت وشرهت سكاكينهم لذبح الضحية بيروت.

إلى هؤلاء كلهم.. أقدم هذه الصفحات عن المدينة الحبيبة «بيروت في التاريخ والحضارة والعمران» بيروت التي لن تموت!..

محمد طه الولي

الفصل الأول

بيروت في التاريخ

بيروت

أقدم أثر ظهرت فيه كلمة «بيروت» هو كتابة هيروغليفية (اللغة الدينية لقدماء المصريين أيام الحكم الفرعوني) منقوشة على ألواح من الآجرّ المشوي، يحتفظ بها المتحف البريطاني في الوقت الحاضر. وهذه الكتابة يرقى عهدها إلى الأسرة الثامنة عشرة من الأسر الفرعونية التي حكمت مصر في العهود القديمة.

كان سلطان هذه الأسرة يشمل كل سورية الطبيعية، وكانت بيروت إحدى مدائنها الساحلية آنذاك، والألواح المذكورة اشتهرت عند المؤرخين باسم «رسائل تل العمارنة».

هذه الرسائل عبارة عن ٣٠٠ آجرّة كانت محفوظة في ملف فرعون مصر أخناتون وأبيه أمنحوتب الثالث، وقد عثرت عليها صدفة فلاحة مصرية في مكان يدعى «تل العمارنة» نسبة إلى عرب بني عمران الذين نزلوا في هذا المكان بعد الفتح الإسلامي في مصر[1].

وجاء في كتاب «بيروت، تاريخها وآثارها» للأب لويس شيخو اليسوعي أن اسم بيروت ورد بلفظ «بيروتا» في الألواح المذكورة. وقد تكرر اسم «بيروت» مع توالي الأحداث العسكرية التي اجتاحت هذه المدينة لا سيما أيام قدماء المصريين الذين دامت سلطتهم في هذه البلاد عدة قرون قبل الميلاد. وكثيراً ما كان المصريون القدماء ينسبون الحديد المستخرج من جبل بيروت إلى المدينة فيقولون «با آن بيريت» أي بضاعة بيروت، وذلك لوجود جبل يحتوي على معدن الحديد بالقرب من بيروت. وهذا ما أشار إليه كل من الإدريسي، والمقدسي، وابن بطوطة الذي قال في رحلته: «إن الحديد يحمل من بيروت إلى مصر».

ويقول الدكتور لورتيه (Dr. Lortet): «كانت بيروت في العهود الوسطى تدعى «بيريتيس» أو «بيروتوس» أو «بيرُووِه» (Berytus-Beroutous-Béroé)[2] وهو اسم أعطي للإلاهة «بيروت» رفيقة «إلجون» أو إلز (Eljon, Els) الذي لُقِّب فيما بعد بـ«أدونيس» إلّه جبيل. ويقول الكاتب المذكور: وكانت الإلاهة «بيروت» أعزّ الآلهة في لبنان، الجبل المقدس.

أما الأب مرتين اليسوعي فيقول في كتابه «تاريخ لبنان» ص ٢١٨ إن الأساطير تذكر أن اثنين من أعيان مملكة جبيل. شاب وفتاة - لما تزوجا انتقلا من بلدتهما جبيل وسكنا في المكان الذي عرف فيما بعد باسم «بيروت» وهو اسم الزوجة. وهذا الكلام يؤكد لنا أن أهل جبيل هم الذين أسسوا مدينة بيروت التي جعلوها مستعمرة لهم. ولكن المؤرخين أو بعضهم على الأقل قالوا: إن بيروت تعني صنوبرة وأصل هذه اللفظة فينيقي - هكذا يقول الأب يوسف حبيقة في كتابه «الدوائر السريانية في سورية ولبنان». بينما يقول الدكتور أنيس فريحة في كتابه «أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها» ورد ذكر بيروت في رسائل تل العمارنه هكذا Bé-ru-ta ورجح الدكتور فريحة أن يكون معنى الاسم صنوبرة.

وخلاصة القول في معنى كلمة بيروت: أن أكثر الذين تكلموا عن بيروت ردّوا اسمها إلى الأصول اللغوية الساميّة، كالفينيقية والآرامية، والآشورية، والسريانية، وقالوا إن معناها في اللغات

---

(١) راجع مجلة «الآثار» لعيسى إسكندر المعلوف ج ٥، ص ٣٦٦، حيث مقال عبد الله مخلص. وراجع كذلك «لبنان في التاريخ» تأليف الدكتور فيليب حتي ترجمة الدكتور أنيس فريحة. ص ٩٨.

(٢) La Syrie d'aujourd'hui-Voyages dans la Phénicie et le Liban et la Judée (1875 - 1880).

المذكورة «شجرة الصنوبر» أو «شجرة السرو»[1].

وفي نفس الاتجاه سار المؤرخ الزحلي المعروف عيسى اسكندر المعلوف حيث يقول: «وفي آثار مصر الفرعونية اسمها (والضمير يرجع إلى بيروت) «باروتو» ويوافق على هذا الرأي عالم الآثار الفرنسي: «ماسبيرو» ومعناها السّرو والصنوبر»[2].

بعد هذه القافلة من الأقوال المنقولة عن المؤرخين الذين عنوا بدراسة بيروت ننتهي إلى التأكيد بأن كلمة بيروت تعني شجر الصنوبر أو السرو وأغلب الظن أن هذه المدينة اكتسبت اسمها من اسم الغابة ـ غابة الصنوبر ـ التي كان إنشاؤها في البدء إلى جوارها»[3].

في السطور السابقة ذكرنا أن بيروت أخذت اسمها ـ افتراضاً ـ من غابة الصنوبر التي بنيت بجوارها لتكون موطناً جديداً لأحد أبناء ملوك جبيل. إلا أن هنري غيز الذي كان قنصلاً لفرنسة في بيروت في أواسط القرن الماضي (التاسع عشر الميلادي) يقول: «ما دمنا نفتقر إلى معلومات مفصلة. فلنكتف الآن بالقول مع المصنفين النصارى إن بيروت أسسها جرسيه (Gersé) المعروف باسم جريس (Geris) ابن كنعان الخامس. أما إذا اتبعنا أقوال المصنفين الوثنيين فتكون «بَرُووه» (Beroé) زوجة أوجيكس (Ogyges) هي التي سمتها بيروتوس (Béroutous)»[4].

أسماء أخرى لمدينة بيروت

تقلب على مدينة بيروت أسماء أخرى نتيجة لظروف سياسية أو عسكرية مرت عليها من ذلك:

١ ـ لاذقية كنعان، أو لأوذيسة الفينقية

ففي عام ١٤٦ قبل الميلاد أُحرقت بيروت نتيجة الحروب التي دارت على أرضها بين ديمتريوس الثاني الملقب بنيكاتور (الغالب) ومنافسه على الحكم إسكندر بالا. وعندما انتصر تريفون المحازب لبالا على ديمتريوس صبّ جام غضبه على بيروت وأعمل فيها النار والدمار، فلما أُعيد بناء المدينة نقلت من مكانها إلى ناحية الجنوب وبنيت عند الخان القديم بين وادي الشويفات ونهر الغدير، ولعل أهل زماننا يمكنهم أن يتأكدوا من مكان بيروت بعد نقلها إلى قرب خلدة من الآثار التي اكتشفت قبل عدة سنوات في منتصف الطريق بين الأوزاعي وخلدة في الوقت الحاضر.

٢ ـ جوليا فيلكس (الرومانية)

في عهد أغسطس أطلق هذا الامبراطور الروماني اسم ابنته جوليا على مدينة بيروت، ومنحها لقب المستعمرة الممتازة، أو المستعمرة السعيدة ومن حينها اشتهرت بيروت باسم: جوليا فيلكس. أي جوليا السعيدة.

٣ ـ دربي

يقول الأب لويس شيخو اليسوعي وهو يتحدث عن بيروت وتاريخها وآثارها: إنه شـاع لبيروت بين السريان خصوصاً اسم: «دربي» كما يرويه برْ بهلول، وبرْ علي في معجمهما. ثم يقول شيخو: ودربي إحدى مدن اليونان[5].

٤ ـ ورديدون

ومن الأسماء التي عرفت بها بيروت على مدى تاريخها في العصر الوسيط (أواخر القرن العاشر الميلادي) «ورديدون» فلقد جاء في كتاب «تاريخ سورية» لجرجي يني: «.. أورد صاحب «سفر الأخبار» نص رسالة بعث بها زامياتس قائد جيوش نيكوفورس فوقا، قيصر القسطنطينية المعروف عند العرب باسم (الشمقمق) إلى الشودشاهان ملك أرمينية يخبره عن استخلاص بعض مدن سورية باسم مولاه.. وقد ورد في تلك الرسالة ذكر بيروت.. باسم «ورديدون»[6].

(١) يقول الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه «أصدق ما كان في تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان» ج ١، ص ٢٠، تحت عنوان «أبرشية بيروت»:
«أحصيت بيروت في عداد أشهر المدن الفينيقية اللبنانية، أسسها الفينيقيون وسموها «بيروتاه» من السريانة ومعناها الصنوبر تكريماً لعشتروت معبودتهم ونظراً إلى غابات الصنوبر المتوفرة في أطرافها منذ أقدم العصور».

(٢) مجلة المشرق مجلد ٢٣، سنة ١٩٢٥، ص ١٢٥.

(٣) بعض المؤرخين يردّ اسم بيروت إلى أصل عبراني وذلك أن بئر كلمة عبرانية وجمعها بهذه اللغة بيروت، رابطين بين هذا المعنى وبين وجود الآبار بكثرة في هذه المدينة. إلا أن العالم الفرنسي رينيه دوسّو (René Dusaud) يشكك في هذا الرأي عبر كتابه Topographie Historique de la Syrie Antique de Médivale (1927-Paris. p 58) حيث يقول: «الانطباع الحاضر لا يؤيد هذا الرأي، وحينما أخذت المدينة بالتطور لوحظ عدم كفاية الآبار الموجودة، نفس الشيء كان في العصر الروماني حيث استعملت الأقنية لجر المياه إلى بيروت».

(٤) عنوان الكتاب بالفرنسية:
Rélation d'un sejour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban par Henri Guise - Paris - 1847.
نقله إلى العربية مارون عبود تحت اسم: بيروت ولبنان منذ قرن ونصف القرن ـ ونشرته وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة.

(٥) بيروت: تاريخها وآثارها ـ للأب لويس شيخو اليسوعي ـ ص ٩.

(٦) تاريخ سورية تأليف جرجي يني ص ٤٣٧.

٥ ـ باروت

هذا الاسم أطلقه على بيروت الصليبيون الذين احتلوا سواحل سورية وبلاد فلسطين في القرن الحادي عشر الميلادي وتاليه القرن الثاني عشر. وآنذاك كانت بيروت وأرباضها في الشمال والجنوب وسفوح جبل لبنان المطل عليها من ناحية الشرق من نصيب الفرنسيين الذين جعلوا منها إمارة خاصة بهم تحت حكم بعض الأسر الفرنسية الإقطاعية التي حولتها إلى دويلة تابعة لمملكة أورشليم تحت اسم «إمارة باروت» وعلى رأسها أمير فرنسي يحمل لقب «صاحب باروت».

يقول الأب لامنس اليسوعي: «في ١٣ أيار ١١١٠ ميلادية تقدم بغدوين (Baudwin) أو غود فروي دو بويون (Godefroi de Bouillon) ثاني ملك على أورشليم (القدس) فانتزع من فاطميّي مصر مدينة بيروت المدعوة إذ ذاك باروت (Barouth).. وكانت غابة الصنوبر أو صنوبر باروت كما يقول المؤرخ غليوم الصوري قد وفرت الخشب لتجهيز آلات الحرب المستعملة في الحصار»[1].

النعوت التي وصفت بها بيروت

أطلق الفينيقيون على بيروت لقب المدينة الإلاهة وأحاطوها بكل مظاهر العبادة التي كانت شائعة في زمانهم وجعلوا لها معبداً باسم «بعلة بيريت» أي ربة الميثاق. ويذكر الأب موترد اليسوعي في مقال له بمجلة المشرق أن هذا المعبد كان يقع حيث تقوم اليوم كاتدرائية الأرمن المقابلة للسراي الكبير من الناحية الجنوبية. وقد عثر في أرض هذا المكان على قطع نقدية فيها صورة الهيكل البيروتي وترجع هذه النقود إلى الإمبراطور السوري أليغابال (إله الجبل) الذي عاش حاكماً من سنة ٢١٧ إلى سنة ٢٢٢ بعد الميلاد.

وتروي الأساطير القديمة أن بيروت عرفت بلقب «بيروت الأبية والمجيدة» لأنها كما يقول الأب لويس شيخو: «لم تكن تستكين مطلقاً لعدوتها صيدا، وكان أهلها ذوي شجاعة فائقة وأنفة، لذلك يسميها كتّاب «السبلّات» بيروت المجيدة والأبية»[2].

ومما وصلنا على لسان الشاعر اليوناني ننوز الذي بهرته بيروت بمكانتها العلمية ومستواها الاجتماعي ومناظرها الخلابة قوله وهو يتغنى بها:

«.. بيرُوْوَه (بيروت) جذر الحياة، ومرضعة المدن، وكوكب لبنان، وميناء النعيم. ذات الجزر الجميلة والخضرة الغنية»[3].

وقد أفادت بيروت من وجود معهد الحقوق الروماني فيها وأصبحت بفضل هذا المعهد تحمل لقب أم الشرائع وروحها. وإن الإمبراطور الروماني جوستنيان حين وضع دستوره المشهور سنة ٤٥٠ م خصها بالتفاتة ملكية سامية وسماها «مرضعة الفقه».

ويقول محمد كرد علي في خططه: إن الإمبراطور المذكور بلغ من تقديره لبيروت أنه أطلق عليها لقب: أم الشرائع وظئر العلوم، وجعل فيها ثالث المؤسسات الجامعية مع جامعة رومية وجامعة القسطنطينية[4].

وعندما تحدث الفيكونت فيليب دي طرازي يوم تأسيس دار الكتب اللبنانية في بيروت سنة ١٩٢٢ قدم لنا بيروت تحت الألقاب التالية: «مدينة الفقه، أم الشرائع، كرسي النِّعم ومرضع الحياة»[5].

موقع بيروت

يقول داود خليل كنعان (توفي سنة ١٨٧٣ م) في كتابه «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت»:

«بيروت موقعها بين صيدا وجبيل على جانب الشمال الغربي من لبنان، في لسان طويل داخل في بحر الروم (المتوسط) ورأس اللسان في طول شرقي ٣٥,٢٨ درجة وعرض شمالي ٣٣,٥٠ درجة»[6].

على أن موقع هذه المدينة لم يكن دائماً واحداً أو في مكان واحد. إن عوامل الطبيعة والظروف الدينية والعسكرية كانت دائماً تحمل بيروت من موقع إلى آخر. ولهذا نجد اسمها يتكرر على مواقع متعددة.

من ذلك:

بيروت العتيقة التي كان موقعها حيث تقوم بلدة بيت مري اليوم. وهناك أكثر من سند تمليك عقاري (طابو) يحمل اسم بيروت العتيقة. وهذه السندات تعتبر من الوثائق العقارية التاريخية الرسمية ويرجع تاريخها إلى القرن الميلادي الماضي

(١) مجلة المشرق المجلد ٣١، تشرين الأول ١٩٣٣، من مقال للأب لامنس.

(٢) بيروت، تاريخها وآثارها ص ١٦.

(٣) مجلة المشرق المجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ م، ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤ من مقال للأب لامنس اليسوعي عنوانه: الحياة في بيروت قبل الاسلام.

(٤) خطط الشام ج ٤، ص ١٢.

(٥) تأسيس دار الكتب الكبرى، طبع في دمشق سنة ١٩٢٣.

(٦) بيروت في التاريخ لإبراهيم نعوم كنعان ط. سنة ١٩٦٣، ص ١٠.

(التاسع عشر) عندما كانت البلاد جزءاً من السلطة العثمانية.

وبيروت العتيقة هذه (بيت مري اليوم) ما تزال تحتفظ بالمعبد الوثني الذي كان بيتاً لإلّه بيروت أيام الفينيقيين وهذا المعبد كان يسمى آنذاك «بعل بيريت» وهو اليوم أنقاض، بنى الرهبان الموارنة فوقه معبداً لهم تحت اسم «دير القلعة».

وهناك بيروت القديمة التي كان موقعها مكان محلة رأس بيروت الحالية. وكانت هذه المدينة منفصلة تماماً عن بيروت (المدينة) التي صنفت في أيامنا باسم: المنطقة الخضراء (أي المخصصة للأسواق التجارية).

وهناك بيروت التي كانت تقوم في محلة خلدة التي انتقل إليها سكان بيروت وبنوا فيها مساكنهم على أثر الزلازل التي خربت مدينتهم الأصلية في أواسط القرن السادس للميلاد.

وهناك أيضاً «بيروت القديمة» التي كانت مساكن البيروتيين فيها قبل شق شوارعها إبان الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) وانتقالهم إلى خارج السور حيث الضواحي التي أصبحت أخيراً جزءاً متكاملاً مع بيروت القديمة.

وجدير بالذكر أن النمو السكاني لمدينة بيروت المتزايد مع توالي السنين يحملنا على التأكيد بأن هذه المدينة ما تزال تتجاوز حدودها التقليدية من سنة إلى أخرى وذلك بسبب دخول ضواحيها السابقة في هذه الحدود بحيث يمكن القول بأن بيروت الحالية باتت تشغل جميع المساحات الأرضية التي كانت معروفة من قبل باسم الضواحي وهي الضواحي التي عرفت في الماضي القريب بأسماء مستقلة إلى جانب اسم بيروت نفسها.

وفي المدة الأخيرة أدخلت الادارات الحكومية البلدات الصغيرة المحاذية للمدينة من جميع جهاتها في تنظيم إداري جديد أُطلق عليه اسم «بيروت الكبرى».

عاشت بيروت في أيام المماليك بعيدة عن أضواء الشهرة، تكاد تكون عديمة الأهمية، لا سيما من الناحية الإدارية، وبصورة خاصة بعد أن بدأ هؤلاء الحكام يعانون احتضار الزوال، وهويت أعلامهم الذهبية في طريق الانطواء عن أجواء البلاد التي دانت لهم حوالى ثلاثة قرون من الزمن بدأت بجلاء الصليبيين وانتهت بزوال سلطانهم هم أنفسهم.

التوزيع الإداري لبلاد الشام قبل عهدها بالعثمانيين

كان العرب ينظمون الوحدات الإدارية في البلاد التي يفتتحونها من خلال الاعتبارات العسكرية حتى يكونوا أقدر على السيطرة عليها والدفاع عنها عند الحاجة. ولذلك نراهم يطلقون على كل وحدة من هذه الوحدات كلمة جند وجمعها أجناد.

وهذه تكون عادة تحت إشراف قائد عسكري هو المرجع الأخير لجميع الموظفين فيها ويدعى: العامل[١] وبالنسبة لسورية ويسميها العرب بلاد الشام، فقد جعلت خمسة أجناد[٢].

الأول: جند فلسطين.

الثاني: جند الأردن.

الثالث: جند دمشق.

الرابع: جند حمص.

الخامس: جند قنسرين.

ونقل القلقشندي عن ابن حوقل أن «للناس في الشام أقوال:

منهم من لا يجعله إلا شاماً واحداً (سورية الطبيعة المؤلفة اليوم من الجمهورية العربية السورية بما فيها لواء إسكندرونة، والجمهورية اللبنانية، والمملكة الأردنية الهاشمية، والأرض السليبة المحتلة فلسطين).

ومنهم من يجعله شامات: فيجعلون بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى حد الأردن شاماً، ويقولون الشام الأعلى.

ويجعلون دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شاماً، ويقع على قرية النبك وما هو على خطها.

ويجعلون سورية وهي حمص وبلادها إلى رحبة مالك بن طوق شاماً. ويجعلون حماه وشيزر من مضافاتها. وثم من يجعل منها حماه دون شيزر، ويجعل قنسرين وبلادها وحلب مما يدخل في هذا الحد إلى جبال الروم وبلاد العواصم والثغور وهي بلاد سيس، فأما عكا وطرابلس وكل ما هو على ساحل البحر فكلما قابل شيء منه شيئاً من الشامات حسب منه.

وعلى هذا التقسيم كانت بيروت تابعة في تلك الأيام لجند دمشق لأنها تقابلها على ساحل البحر وهي فرضة لها كما رأينا من قبل

فترة الاحتلال الصليبي

كانت الأراضي التي أصابها الاحتلال الصليبي محصورة في سواحل بلاد الشام ولم يجرِ الصليبيون على قاعدة مضطردة في تقسيم مناطق نفوذهم، وإنما كانوا يخضعون في هذا التقسيم إلى منطق القوة العسكرية فيما بينهم وإلى الاعتبارات الإقطاعية

(١) العامل، هو الحاكم أو الوالي أو المحافظ بحسب الاصطلاح الحديث.

(٢) ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر، مختصر صبح الأعشى في كتابة الإنشا، تأليف أحمد بن علي القلقشندي المصري المتوفى سنة ٨٢١ هـ. ص ٢٨١ وما بعدها.
طبع وتصحيح محمود سلامة سنة ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦ م.

التي كانت تحكمهم. ولذلك كانت الوحدات الإدارية للساحل في أيامهم تضيق أو تتسع تبعاً للقوة العسكرية والنفوذ الإقطاعي. بيد أن الحيِّز الجغرافي الذي كانوا يشغلونه عرف باسم: الحكومات اللاتينية في الأرض المقدسة[١].

(Les Etats Latins de Terre Sainte)

العهد المملوكي

«... كانت الإدارة في سورية في العهد المملوكي استمراراً للنظام العبيدي والعباسي، تقسم إلى ستة أقسام إدارية عرفت بالنيابات وهي.

١ ـ نيابة دمشق.
٢ ـ نيابة طرابلس.
٣ ـ نيابة حلب.
٤ ـ نيابة حماة
٥ ـ نيابة صفد.
٦ ـ نيابة الكرَك (الأردن).

وفي القرن الخامس عشر للميلاد أضيفت إلى هذه الإدارات الست نيابة أخرى وهي نيابة غزة.

وبيروت كانت في هذا العهد «عملاً» (أي معاملة) رابعاً من الصفقة الشمالية إحدى صفقات دمشق الأربع. ويعرفها القلقشندي[٢] بقوله:

«عمل بيروت وهي مدينة بساحل دمشق على ضفة البحر الرومي، عليها سوران من حجارة، وفيها جبل به معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها ١٢ ميلاً في التكسير تتصل بلبنان».

على أن بيروت لم تكن دائماً تابعة لنيابة بعينها، بل كانت على الغالب تلحق بنيابة القوي من حكام هذه الإدارات. وكثيراً ما تناوب عليها بنو عساف وآل سيفا من الأكراد والتركمان الذين كانت القاهرة المملوكية تكل إليهم أعمال «الدرك» في جبل لبنان وسواحل بلاد الشام، بالإضافة إلى امراء الغرب من البحتريين الذين كانوا يقيمون في جهات عبيه وما حولها من القرى.

أقسام سورية الإدارية في أول العهد العثماني

ولما دالت دولة المماليك، وحل محلها في الشام آل عثمان ملك السلطان سليم خان بن عثمان وأقرّ جان بردي الغزالي على عادته في نيابة الشام وجعل له التحدث على الشام وحماه وحمص وبيروت وصيدا وبيت المقدس ورملة لدّ والكَرك وغير ذلك من الأعمال الشامية والطرابلسية...[٣].

وفي سنة ٩٢٣ هجرية (١٥١٧ م) أعطى «الخنكار» للأمير محمد بن قرقماس الجركسي[٤] النيابة على بيروت وصيدا والتقدمية على بلاد البقاع وما والاهما مما هو في تقدمة الأمير ناصر الدين بن الحنش وما كان زاده للأمير ناصر الدين المذكور من إقطاع الأمرية الكبرى.

وفي هذا العهد قسم القطر السوري إلى أربع إيالات كبرى (تاريخ أبو الفاروق لمراد بك بالتركية) وهي:

١ ـ إيالة دمشق وتحتوي على ألوية دمشق والقدس وغزة وصفد ونابلس وعجلون والبقاع وعكا وتدمر وصيدا وبيروت والكَرك والشوبك.

٢ ـ إيالة طرابلس وهي عبارة عن ألوية طرابلس وحماه وحمص وسلمية وجبلة.

٣ ـ إيالة حلب وهي حلب وأذنة وأكراد كلس والبيره (بيره جك) وعزاز والمعرة وتركمان حلب وعزيز ومنبج والمضيق.

٤ ـ بعض ألوية تحسب من سورية مثل الرقة وسروج وعانة.

ودام الحال في بيروت على هذا المنوال من الإهمال إلى أن آذن القرن السادس عشر على الأفول، فاتخذها الأمير فخر الدين المعني حاضرة للبلاد التي شملها نفوذه، وحاول أين يشيع فيها حرارة النهوض من كبوتها، ولكن إلى حين لم يتجاوز حياته شخصياً.

(١) راجع: Carte des Positions Stratégiques dépendant Les Etats Latins de Terre Sainte. Paul Deschamps.

(٢) ضوء الصبح المسفر للقلقشندي ص ٢٨٩: وكان لدمشق أربع صفقات: الأولى (الساحلية الجبلية) ـ بالقرب من دمشق نفسها. الثانية (القبلية) ـ وتقع قبلي دمشق. الثالثة (الشمالية) ـ وتقع إلى شمالي دمشق. الرابعة (الشرقية) ـ وتقع إلى الشرق من دمشق.

(٣) بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الخامس، ص ٣٨٤، تحقيق محمد مصطفى، طبع جمعية المستشرقين الألمانية.

(٤) ابن طولون، محمد بن علي بن أحمد، قطعة من تاريخ ابن طولون موجودة في مكتبة توبنغن نشرها ريتشارد هارتمان، برلين، الشركة الألمانية لطبع الكتب السياسية والتاريخية ١٩٣٦ م، نشرت بالأصل في رسائل جمعية كونغسبورغ العلمية، السنة الثالثة، العدد الثاني، ص ٨٧ ـ ١٦٩. (ص ١٢١) والخنكار هو لقب السلطان العثماني.

أقسام سورية في أواخر العهد العثماني وبيروت

وسنة ١٢٧٢ هـ أي في أواخر العهد العثماني كانت سورية تقسم إلى إيالتين:

١ ـ دمشق وتشتمل على: دمشق نفسها والغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماه وحمص وبعلبك ومعرة النعمان والبقاع وحاصبيا وراشيا وحوران وجبل الدروز (جبل الريّان ثم جبل بني هلال ثم أخيراً جبل العرب) وحصن الأكراد والقنيطرة وإيكي قبولي.

٢ ـ صيدا وتشتمل على مدينة صيدا نفسها وقائمقاميتي جبل لبنان (الدرزية والنصرانية) وبيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت.

وفي السنين التي عاشتها بيروت خلال الصراع الذي نشب في سبيلها بين أحمد باشا الجزار وأمراء جبل لبنان الشهابيين في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر للميلاد لم يكن أمامها متسع ولا مجال لأن تكتسب أي لقب جديد مما تعودته في السابق من ألقاب المجد والفخار، اللهم إلا إذا اعتبرنا ما نقله «هنري غيز» عن لسان «ميشو» من أن البلدان الإسلامية كانت تعتبر بيروت عاصمة لها في هذه الفترة المضطربة من تاريخها الحديث.

الوضع الإداري لبيروت خلال القرن التاسع عشر

على أثر انسحاب إبراهيم باشا المصري وجيشه من بيروت سنة ١٨٤١ صدر أمر الدولة العلية العثمانية بأن ينقل كرسي الولاية من صيدا إلى مدينة بيروت، وبقيت كذلك حتى عام ١٨٦٤. ففي هذا التاريخ أُعيدت المدينة إلى الارتباط بولاية سورية وجعلت مجرد متصرفية وأُلحقت بها قائمقامية صور وصيدا ومرجعيون. وكان المتصرف فيها يصدر أمر تعيينه من الأستانة بعد اقتراح اسمه من والي سورية نفسه.

بيروت في بدء يقظتها بعد غفوتها الطويلة

لقد رافق العمران في بيروت واتساع مساحتها إلى ما وراء السور منذ أواسط القرن الماضي ارتفاع مكانتها، ليس في نظر الأجانب فقط، بل في نظر أبنائها الذين بدأوا يستعيدون الثقة بأنفسهم، ويشعرون بأن انتماءهم إلى هذه المدينة أمر يدعو إلى الزهو والافتخار، ولقد ساعدهم على هذا الشعور الإقليمي الضيق أن السلطات العثمانية بعد أن استردت المدينة من القوات المصرية التي احتلتها بقيادة إبراهيم باشا المصري التفتت إليها بعناية خاصة وأولتها اهتماماً استثنائياً بعد أن لاحظت أن الدوائر الأجنبية اختارتها لتكون منطلقاً لنشاطاتها المتنوعة، ليس في حدود البلاد السورية فحسب، بل في سائر البلدان العربية المجاورة. إذ أن هذه الدوائر أدركت من تتابع الأحداث أن بيروت لن تبقى طويلاً على ما هي عليه لا من حيث المساحة، ولا من حيث عدد السكان، وكذلك من حيث أهميتها السياسية والاجتماعية وتأثيرها على ما حولها من المناطق، فراحت تنشىء فيها القنصليات العامة(١)، والمؤسسات الثقافية(٢)، والإرساليات الدينية(٣)، والبيوتات التجارية. ولم يمض على هذه المدينة حين من الدهر حتى أصبحت قاعدة موطأً، أو بالأصح رقبة جسر متينة لتسرب النفوذ الأوروبي إلى داخل سورية لا سيما في أوساط الفئات غير الإسلامية من أبناء البلاد.

وبين يدي هذا الوضع الجديد الذي انتهت إليه بيروت فإن السلطات العثمانية في الآستانة أعادت نظرها في التوزيع الإداري للبلاد السورية بكاملها وجعلت من بيروت تختاً (مركزاً) للوزارة بدلاً من صيدا، ومن ذلك الحين ابتدأ السعد يخدم هذه المدينة فازدادت عمراناً بعد أن أوشكت أن تصير قاعاً صفصفاً، وشيدت فيها الأبنية وانتقلت إليها تجارة الأفرنج وعظم شأنها وكثر مجيء المراكب الإفرنجية إليها(٤). ويقول الأب لويس شيخو: فيظهر من هذا ما بلغته بيروت في ذلك العهد من الرقي حتى أصبحت مركزاً لكل سواحل الشام (٥).

التقسيم الإداري لسورية حتى آخر عهدها بالعثمانيين

عندما كان ناشد راشد باشا والياً على ولاية سورية كثر الكلام في حقه، فكتب أهل بيروت يسترحمون بطلب والٍ عليهم وانفصالهم عن ولاية الأحكام الدمشقية(٦). ونتيجة لإلحاحهم على مطلبهم هذا استجاب السلطان عبد الحميد الثاني لرغبتهم

(١) كانت الدول، على مثال فرنسا، أقامت لها قناصل لتروج أمور بلادها وأولهم قنصلا انكلترا والنمسا (بيروت تاريخها وآثارها للأب لويس شيخو).

(٢) و(٣) جاء في كتاب يقظة العرب لجورج أنطونيوس، ترجمة علي حيدر الركابي ص ٢٧ أنه وقعت في هذه الفترة أربعة حوادث تستلزم عناية خاصة:

الأول: عودة الآباء اللعازاريين إلى فتح كلية عينتورة للذكور.

الثاني: نقل مطبعة الإرسالية الأميركية من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٣٤.

الثالث: قيام إبراهيم باشا بتطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي مستوحى من النظام الذي أوجده أبوه في مصر.

والرابع: فتح إيلي سمث وزوجته مدرسة للإناث في بناء خاص بها في بيروت.

(٤) بيروت في التاريخ لإبراهيم كنعان ص ٤٣ نقلاً عن جواهر ياقوت في تاريخ بيروت لداوود كنعان.

(٥) بيروت، تاريخها وآثارها للأب لويس شيخو ص ٩٧.

(٦) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر لعبد الرزاق البيطار، جزء ـ ٣ ـ ص ١٥٧٠.

وأصدر إرادته بأن تفصل بيروت عن ولاية سورية وأن تصبح بالتالي مركزاً لولاية بيروت وتشتمل على المدن الواقعة على ساحل البحر وما يليه أمثال: اللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا وحيفا وطبرية والناصرة ونابلس(١).

وقد كان لإعلان ولاية بيروت صدًى مستحبٌ في نفوس أهل هذه المدينة فانطلقت ألسنة الشعراء البيروتيين في تأريخ هذا الحدث الهام من خلال شكر السلطان عبد الحميد الثاني الذي أنعم به عليهم، فقال قائلهم:

شكراً لسلطاننا عبد الحميد فقد ... أنال بيروت منه غاية الأمل
أعادها من سنى مجلى قريحته ... ولاية جل واليها بسرّ ولي
فقال ثغر الهنا فيما يؤرخه ... بيروت فازت بواليها أجلّ علي(٢)

(١٣٠٥ هـ)

وبقيام ولاية بيروت استقر تقسيم سورية إدارياً حتى نهاية العهد العثماني على الوجه الآتي:

الولاية الأولى: حلب، مساحتها ٣١ ألف ميل مربع سكانها ٢ مليون و٢٠٠ ألف نسمة.

الولاية الثانية: سورية، مساحتها ٣٥٦٠٠ ميل مربع سكانها مليون و١٥٠ ألف نسمة.

الولاية الثالثة: بيروت، مساحتها ١١٦ ألف ميل مربع سكانها ٨٠٠ ألف نسمة

والمتصرفيتان:

١ ـ لبنان ٣ آلاف ميل مربع وسكانه ٤٥٠ ألف نسمة

٢ ـ القدس ٧٧٠٠ ميل مربع وسكانها ٤٠٠ ألف نسمة.

ومساحة سورية بكاملها ٧٠ ألف ميل مربع وسكانها ثلاثة ملايين ونصف المليون نسمة.

(١) نيل الأرب في تاريخ العرب تأليف أديب لحود ص ٤٧، ٤٨.

(٢) الشاعر هو الشيخ عبد القادر القباني البيروتي، ويقصد بـ «علي» الذي اختتم به شعره الوالي علي باشا الذي كان أول والٍ على المدينة سنة ١٨٨٨ م ـ ثمرات الفنون ص ١ عدد ربيع الثاني ١٣٠٥ جـ ٢ ك١ ١٨٨٨.

على أنه من الطريف أن انفصال بيروت عن دمشق في ذلك الحين كانت له آثار متناقضة في كلا البلدين، فبينما رأينا البيروتيين يستقبلون قيام ولاية بيروت بأشعار الحمد والثناء والسرور، فإن أهل دمشق كانوا على عكس ذلك يعلنون استنكارهم لهذا الانفصال المضر بمصلحة اقتصاد ولاية سورية.

وإن والي سورية يومئذٍ واسمه ناشد راشد باشا قد نال منه التأثر حده الأقصى لهذا الانفصال حتى قضى بسببه نحبه.

ألقاب بيروت في تاريخها الحديث

بعد أن أصبحت «بيروت» إحدى آلاف المدن التابعة لتاج آل عثمان الذي كانت أشعته تنفذ إلى أعماق القارات الثلاث: آسيا وأوروبة وإفريقية، أي ثلاثة أركان العالم القديم كما يقول علماء الجغرافيا، فقدت هذه المدينة أهميتها القديمة، وأصبحت بلدة عادية بل ثانوية، وعدد سكانها لا يتجاوز بضعة آلاف نسمة منطوين على أنفسهم داخل سور من حطام العاديات التي صرعتها الزلازل المتعاقبة، يقوى حيناً ويضعف حيناً آخر تبعاً لمطامع بعض حكامها المحليين أو أمراء الجبل اللبناني المجاور لها، الذين كانوا ينظرون إليها كمنفذ بحري ضروري لاتصالاتهم الخارجية أو لتصريف حاصلاتهم الزراعية أو بضائعهم التجارية.

على أنه منذ أواسط القرن التاسع عشر أخذت هذه البلدة العادية تتحرك للخروج من قوقعتها الضيقة نافضة ما خلفته السنون الغابرة على كاهلها المرهق، من رواسب الحوادث والأحداث، منطلقة بعمرانها إلى ظاهر السور الهرم الذي بقي عشرات القرون يحول بينها وبين اتساع رقعتها وامتداد بنيانها. ولا شك في أن هذا التحول الطارىء كان بسبب الظروف الجديدة التي فرضتها المطامع الأوروبية، هذه المطامع التي كانت حروب إبراهيم باشا المصري في هذه المنطقة من الإمبراطورية العثمانية أبرز مظاهرها الملموسة.

ونتيجة لهذه التطورات المتلاحقة التي شهدتها المدينة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخها، فإننا نجد أقلام الكتّاب من رحالين أجانب ومؤرخين محليين، تندفع بمناسبة وغير مناسبة في إعطائها ألقاباً متنوعة، كان هؤلاء وأولئك يستوحونها من طابعها العسكري حيناً، ومن نهضتها العلمية والعمرانية حيناً آخر.

بيروت المربعة

إن أبرز الألقاب التي أُطلقت على بيروت في غضون القرن الماضي هو: «بيروت المربعة» وهو اللقب الذي اكتسبته المدينة في الواقع، من الرحالة الأجانب الذين كانوا يرتادونها آنذاك في طريقهم إلى الديار المقدسة فلسطين لأداء مناسكهم الدينية في الحج إلى الأمكنة التي ولد فيها سيدنا عيسى عليه السلام وشهد نهايته. وقد كان ساكنوها القلائل، لا يجرؤون على تجاوز سورها الذي كان يحيط ببيوتها المكدسة بعضها فوق بعض على غير هندسة ولا نظام، إحاطة السوار بالمعصم. وهذا السور هو الذي اتخذه والي عكا أحمد باشا الجزار مجنّاً يتّقي به مطامع أمراء جبل لبنان ببيروت التي كانت تابعة لولايته الإدارية والعسكرية.

ويقول الكونت دومنيل دو بويسون في هذا الصدد:

«إن من يسرح النظر في ما خلّفه سياح القرن السابق من تصاوير بيروت يأخذه الاندهاش مما يعاينه من الأبنية العسكرية المتعددة، فإن المدينة كانت في غضون القرن التاسع عشر باقية على شبه بلدة محصنة، فكان الناظر إذا أحدق البصر إلى المدينة من مشارقها في جنوبها الغربي، أو من رأس السنطية، يراها محدقة بنطاق من الأسوار القديمة على شكل مربع مستطيل يمتد من الشمال إلى الجنوب، في وسطه مساكن أهلها بموقع جميل، إلا أنها غير متقنة البناء، وهذا ما كانوا يدعونه «بيروت المربعة»[1].

عودة بيروت إلى عالم الألقاب

بعد أن تحقق أمل البيروتيين، وعادت بيروت مركزاً لولاية كبيرة، عادت الأقلام لتتبارى متنافسة في التحدث عنها وعن ميزاتها ومكانة أبنائها، وراح الكتّاب في الشرق والغرب يطلقون عليها ألقاب العظمة والمجد والسؤدد، دون ضابط ولا تحفظ،

(١) تحصينات بيروت العسكرية واستحكاماتها القديمة، ، ترجمة الأب لويس شيخو اليسوعي ص ١.

وأصبحنا نرى اسمها مضافاً لأعذب الصفات والنعوت، سواء في الصحافة الدارجة أو الكتب المصنفة، أو من فوق أعواد المنابر في محافل المحاضرات التاريخية أو المناظرات العلمية، ففي عام ١٩٠٢ ميلادية صدر عدد «الهلال»[1] وفي صفحاته اسم بيروت يزدان بلقبين كريمين هما: «زهرة سورية وزهرة الشرق»، وكأن الكاتب لم يشأ أن يجعل منها زهرة لبلاده فقط، يعبق أريجها داخل حدودها الضيقة، فراح يجعل منها زهرة فواحة بالعطر والشذى على سائر أنحاء الشرق من ساحل الشام عند البحر المتوسط حتى جزر اليابان عند المحيط الهادي.

وفي كتاب كولينيه[2] عن تاريخ معهد الفقه الروماني، حظيت بيروت على صفحات هذا الكتاب العلمي، بلقب ضخم فضفاض هو: «مفتاح الشرق»، ويرى هذا الكاتب الفرنسي أن الرومان لم يختاروا بيروت لإقامة معهدهم لدراسة قوانينهم إلا لأهليتها وأهميتها الجغرافية، هذه الأهمية التي جعلتها جديرة بأن تكون في ذلك الحين، مدخلاً إلى بلاد الشرق كله.

أما الأب لامنس اليسوعي فقد جعل بيروت تسترجع في عهد آل عثمان لقب «الدرة الغالية» الذي اكتسبته عن جدارة واستحقاق في أيام الصليبيين، حين كان لهم في أورشليم (القدس) اللاتينية تاج الحكم وصولجانه. ولكنها في عهدها العثماني، حظيت بهذا اللقب الوهاج على لسان إمبراطور ألمانيا غليوم الثاني الذي قدمها زائراً بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني طيب الله ثراه في أواخر القرن الماضي (١٨٩٨).

ولقد كان لقب «درة تاج آل عثمان» الذي أُطلق على المدينة محل تعليق لا يخلو من الغمز واللمز من قبل بعض الكتّاب المتأخرين أمثال جورجي يني الذي كتب في مجلته «المباحث» يقول:[3]

«إن أول مبشّر أميركي أتى إلى بيروت وسكنها يدعى «بليني فسك» أتاها سنة ١٨٢٣ م وتوفي فيها سنة ١٨٢٥ م فوجد المدينة الملقبة اليوم «بدرة تاج آل عثمان» أُريد بها بيروت، بلدة صغيرة يُحيط بها سور فلا تتعداه، وقياس طولها من الشمال إلى الجنوب ثلاثة آلاف قدم، وعرضها من الشرق إلى الغرب ألف وخمسماية قدم وأن عدد أهلها من خمسة إلى ثمانية آلاف نفس.

«وكانت أسواق البلدة ضيقة ذات اعوجاج وقذارة، ولم تكن نوافذ بيوتها مزججة، والبيت الوحيد الذي كان على نوافذه زجاج هو مسكن المستر «أبوت» قنصل الإنكليز يومئذٍ. وكان البيروتيون يستقون الماء من الآبار، وهذا الماء كان بعضه عذباً والبعض لا يخلو من الملوحة.

«وكان السور المحيط بالبلدة مرتفعاً من صوب البحر وفيه أبراج وتحصينات أُعدت لصد القرصان من اليونان، كما أُعدّ البرج ظاهر السور على بعد قليل من الباب الجنوبي الشرقي لصد من يريد اقتحام المدينة برًّا، وكان هذا البرج عالياً متيناً يبلغ ارتفاعه نحو ٨٠ قدماً». اهـ.

(١) مجلة الهلال الصادرة في مصر لصاحبها جرجي زيدان، ص ٣٨٦، المجلد ١١ سنة ١٩٠٢.

(٢) المشرق مجلد ٣١، ص ٤٨٦، سنة ١٩٣٣.

(٣) مجلة المباحث الطرابلسية، لصاحبها جرجي يني السنة ٣، جزء ٢، ص ٩٩٣، سنة ١٩١١.

المنعطفات الرئيسية في تاريخ بيروت

* بيروت كلمة فينيقية تعني شجرة الصنوبر. وأرجح الظن أن مدينة بيروت أخذت اسمها من هذه الكلمة بسبب وجودها بجوار غابة الصنوبر (الحرج) التي ما تزال حيث كانت عند تأسيس المدينة منذ حوالى أربعة آلاف سنة.

* تقع المدينة على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط عند الدرجة ٣٣,٥٤ من خط العرض والدرجة ٣٥,٢٨ من خط الطول. وهي تقوم على أرض تبدأ مرتفعة من جهة الشرق وتنتهي منخفضة من جهة الغرب، على شكل لسان بري يمتد نحو ٩ كيلومترات في البحر، وتتصل حدودها الشرقية بسفح جبل لبنان الذي يشرف عليها، ويفصل بينها وبين هذا الجبل نهر يحمل اسمها ينبع من لحف الجبل ويصب في البحر عند الحد الشمالي الشرقي من المدينة.

* بناها أهل جبيل (بيبلوس) منذ أربعة آلاف سنة، وما لبثت أن كبرت وعمرت بالسكان وأصبحت مملكة مستقلة على الساحل الذي كان يعرف باسم، «فينيقيا» وعبد أهلها ربًّا خاصاً بها اسمه «بعل بيريت» أي إله بيروت. وضربت باسمها عملة نقدية تحمل رسماً يمثل هذا الإله.

* مرت عليها نفس الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها الساحل الفينيقي كله. وتعاقبت على ترابها جيوش الدول التي اكتسحت هذا الساحل. وفي الصخور المحاذية لنهر الكلب الذي يصب على بعد ٩ كيلومترات من شماليها آثار تلك الدول ابتداء من المصريين القدماء حتى الحلفاء الأوروبيين الذين انتزعوها من العثمانيين سنة ١٩١٨ م ثم الفرنسيين الذين غادروها في ٣١ كانون الأول سنة ١٩٤٦ م.

* تعرضت للدمار والخراب أكثر من مرة، سواء بسبب النكبات الطبيعية أو بسبب الوقائع الحربية التي دارت على أرضها. ففي سنة ١٤٠ ق. م أحرقها تريفون السلوقي (البيزنطي) عندما حاول انتزاعها من خصمه ديمتريوس وتسليمها لأنطيوخوس السادس الذي اشتهر باسم ديونيسيوس، وبقيت على خرابها مدة مائة سنة.

* في هذه الفترة، هجرها سكانها وابتنوا لأنفسهم مدينة أخرى في الجهة الجنوبية منها عند الساحل المقابل لبلدة خلدة الحالية، وأطلقوا على هذه المدينة اسم «لاوذيسة كنعان» وهي التي اكتشفت أطلالها منذ سنوات قليلة.

* عرفت أزهى أيامها في أيام الرومان الذين منحوها لقب «المستعمرة الممتازة» لتشجيع مواطنيهم على الإقامة فيها. وبنوا فيها العديد من الهياكل والمسارح والحمامات، والمؤسسات الحكومية الفخمة. وفي عهدهم اشتهرت مدرسة الحقوق التي أقامها الرومان، وكانت في ذلك العهد مرجعاً لطلاب العلم من الوطنيين والأجانب. وهي المدرسة التي أكسبت المدينة في ذلك الحين لقب «أم الشرائع ومرضعة العلوم».

* في أواسط القرن السادس للميلاد ضربتها سلسلة من الزلازل فأحرقتها، ودمرت مساكنها، وقضت على سكانها إلا القليل منهم الذين عادوا إليها بعد أن تحولت إلى قرية عديمة القيمة.

* بعد حوالى مائة سنة أي عام ٦٣٥ م دخلها العرب بقيادة معاوية بن أبي سفيان في أيام عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين الذي أمر بترميمها وتحصينها بالقلاع لحمايتها من هجمات الروم الذين حاولوا عبثاً استعادتها من العرب.

* عندما ارتقى معاوية سدة الخلافة الإسلامية جلب إليها قوماً من الفرس وأسكنهم فيها مثلما فعل بغيرها من مدن الساحل السوري وبعلبك.

* في أيام العرب، على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ثم

العباسيين، كانت تابعة لدمشق، واتخذها المسلمون في العهود المذكورة رباطاً، أي قاعدة عسكرية، ومنها انطلقت الجيوش العربية التي حملها معاوية بن أبي سفيان على الأسطول الذي فتح به جزيرة قبرص أيام عثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين.

* في أيام أبي جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين ظهر فيها عدد من العلماء البارزين أهمهم عبد الرحمن الأوزاعي المتوفى سنة ٧٧٣ م، وقبره ما يزال موجوداً بالقرب منها عند الجهة الجنوبية على ساحل البحر حيث كانت تقع القرية المندرسة «حنتوس» وهذا القبر كان وما يزال مقصداً للناس الذين يزورونه ويتبركون به.

* في سنة ٩٧٤ م وثب عليها ملك الروم يوحنا زيميسياس المعروف عند العرب باسم «الشمشقيق» ولبث فيها نحو سنة، ثم أخرجته منها القوات المصرية التي أرسلها جوهر الصقلي في أيام العبيديين حكام مصر في ذلك الحين.

* في زمن العبيديين، كانت هذه المدينة تابعة لدمشق المرتبطة رأساً بالقاهرة حاضرة الخلافة العبيدية يومذاك.

* في سنة ١١٠٢، هاجمتها جيوش الصليبيين لكنها امتنعت عليهم وصدتهم، فلما كانت سنة ١١١٠ أعادت هذه الجيوش الكرّة عليها بقيادة بغدوين الأول وتمكنت من احتلالها بعد أن ذُبح أهلها ودُمّرت مساكنها وهُدمت قلاعها. وقد ولى عليها بغدوين حاكماً من قبله يدعى فولك ده غين ومنحه لقب بارون. وفي هذه الفترة أُلحقت المدينة بمملكة القدس اللاتينية.

* في سنة ١١٨٧ هاجمها السلطان صلاح الدين الأيوبي واستخلصها من الصليبيين وولى عليها من قبله حاكماً اسمه سيف الدين علي الهكاري المعروف بابن المشطوب، وجعلها تابعة لدمشق كما كانت في العهود الإسلامية السابقة.

* بعد حوالى عشر سنوات عاد إليها الصليبيون من جديد وانتزعوها من يد حاكمها أسامة الجبلي وهو غير أسامة بن منقذ الكناني الكاتب الشاعر الذي كان أميراً على بلدة سلمية القريبة من مدينتي حمص وحماة في داخل سورية. والقائد الصليبي الذي احتلها يومئذ هو الملك آموري الذي نصب عليها والياً من قبله أحد أفراد عائلة أبلين الإقطاعية الفرنسية.

* في خلال الفترة الثانية من الاحتلال الصليبي جُعلت بيروت إمارة مستقلة باسم «إمارة باروت» وأُطلق على حكامها الفرنج لقب: «سادة باروت» وكان مرجعها مملكة بيت المقدس اللاتينية.

* في سنة ١٢٩١ حاصرها الأمير علم الدين سنجر الشجاعي على رأس الجيش الذي أرسله الملك الأشرف خليل ابن الملك قلاوون الصالحي من سلاطين المماليك الذين خلفوا الدولة الأيوبية في الشرق العربي. وقد تمكن الأمير علم الدين سنجر المذكور من احتلالها بعد أن هزم الصليبيين وأسر روبان آخر حكامهم فيها.

* في أيام المماليك كانت بيروت تابعة، في الغالب لنيابة طرابلس الشام التي كانت مرتبطة رأساً بالقاهرة مقر السلطة المملوكية آنذاك.

* وفي أيام المماليك هاجم بنو الحمراء البقاعيون آل تلحوق الدروز وأجلوهم عن منازلهم في رأس بيروت بالمنطقة التي كانت معروفة باسم «جرن الدب» ثم اشتهرت باسم «محلة الحمراء» بعد أن سكنها بنو الحمراء وشادوا فيها جامعهم «زاوية الحمراء» وقد أُزيل هذا الجامع اليوم والعمل جارٍ على بناء جامع جديد في مكانه.

* في أيام المماليك قام الصليبيون بعدة محاولات لاسترجاع المدينة سنة ١٣٣٤، ولكنهم كانوا دائماً يفشلون.

* نصب المماليك الأمراء البحتريين، سكان عبيه في ذلك الحين، دركاً لحماية بيروت من قرصان الصليبيين الذين كانوا يغيرون عليها بين الحين والآخر. فقام هؤلاء الأمراء بتحصين المدينة وشادوا فيها عدداً من المساجد والقيساريات (البيوت التجارية الكبيرة). وفي أيامهم نشطت سوق الأدب والشعر، وانتهى عهد هؤلاء البحتريين بأفول عهد المماليك على يد السلطان سليم الأول العثماني الذي اكتسح بجيوشه جميع بلاد الشرق العربي يومذاك.

* في سنة ١٥١٦ م تغلب السلطان سليم الأول العثماني على قانصوه الغوري سلطان المماليك وقضى عليه في معركة مرج دابق شمالي حلب، وتابع زحفه حتى احتل جميع البلاد السورية ثم المصرية، ومن ذلك الحين دخلت بيروت في حوزة الدولة العثمانية وكان أول حاكم عثماني فيها محمد بن قرقماز (قرقماز أوغلو) وهو جركسي.

* أقر العثمانيون أمراء العشائر التركمانية التي كانت في البلاد من أيام صلاح الدين الأيوبي للحيلولة دون اتصال الصليبيين ببعض سكان جبل لبنان الذين كانت تجمعهم بهم رابطة الدين وغيره. وكان الأمراء المذكورون تارة من بني عساف وتارة من بني سيفا وامتد حكمهم من حماة في الداخل حتى بيروت في الساحل، وكان مركزهم في غزير بكسروان. وما يزال في بيروت من آثار بني عساف جامع الأمير منصور عساف المعروف باسم «جامع السرايا» الذي بني حوالى سنة ١٥٧٢ م وهو ما يزال

موجوداً وموقعه بمقابل شارع فوش من الجهة الجنوبية بالقرب من سوق سرسق الحالية.

* في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر للميلاد، تغلب الأمير فخر الدين بن معن على الأمير يوسف بن سيفا الذي كان حاكماً على طرابلس الشام وبلاد كسروان ومدينة بيروت وانتزع منه المقاطعة الكسروانية وبيروت وطرد من هذه المدينة الآغا الذي كان متسلماً عليها من طرف ابن سيفا. إلا أن ابن معن إكراماً لأصهاره آل سيفا أعاد ابن سيفا إلى المناطق التي انتزعها منه.

* بعد سنوات قليلة، عاد فخر الدين إلى الاستيلاء على لواء بيروت ومدينتي صيدا وغزير ونصب ولده عليًّا حاكماً على هذه المناطق.

* في أيام فخر الدين المذكور انفتحت بيروت على الأقطار الأوروبية لا سيما إيطالية التي كانت ملجأ لهذا الحاكم عندما هرب من غضب الدولة العثمانية عليه. ولقد اعتنى ابن معن بعمران هذه المدينة وأنشأ فيها البرج الذي عرف فيما بعد باسم «برج الكشاف» لأنه استُعمل مرقباً لاستكشاف المراكب العدوة التي تحاول الإغارة على البلد. وكان هذا البرج يقوم في مكان سينما متروبول الحالية في الجهة الشرقية من الساحة المعروفة اليوم باسم «ساحة البرج» نسبة إلى البرج المذكور. واستقدم فخر الدين من إيطالية اثنين من المهندسين وهما تشيولي وفاني وكلفهما بتنسيق أشجار غابة الصنوبر (الحرج) وتزيين الساحة المقابلة للبرج بالأشجار المثمرة وزخرفتها بالتماثيل الرخامية الجميلة. كما أنشأ حديقة للحيوانات بالأرض التي تقوم فيها سوق سرسق الحالية، وكان البيروتيون يسمون هذه الحديقة «جنينة الوحوش». وفي أيامه ازدهرت التجارة في بيروت وكانت السفن الفرنسية والإيطالية والهولندية تنقل إليها محصولات البلاد الأوروبية وتستبدل بها منتوجات البلاد الشرقية لا سيما الحرير والمنسوجات الوطنية وأنواعاً من الغلات الزراعية الأخرى، على أن فخر الدين أمر بردم مينائها وفعل مثل ذلك في ميناءي صيدا وعكة ليمنع خصومه من دخول هذه المدن. وقد أدى عمله هذا إلى تقهقر هذه البلاد وانحطاط التجارة في جميع السواحل السورية إلى القرن التاسع عشر. وبسبب علاقته الشخصية الودية مع الأوروبيين تمكن هؤلاء من إيفاد البعثات الدينية إلى هذه المدينة وبنوا فيها كثيراً من الأديرة والكنائس.

* في سنة ١٦٣٣ م لحظت الدولة العثمانية على ابن معن بأنه يتصل ببعض الدول الأوروبية لإعطائها فلسطين مقابل دعمه في حركته الانفصالية عن الإمبراطورية العثمانية، فقبضت عليه وحكمت عليه بالإعدام شنقاً حتى الموت.

* بعد موت فخر الدين آلت بيروت إلى الأمير منذر بن سليمان التنوخي من عبيه. وفي عهد هذا الأمير بني الجامع المعروف باسمه في سوق البازركان الذي اشتهر باسم «جامع النوفرة» لوجود بركة ذات نافورة في صحنه. وما يزال هذا الجامع موجوداً حتى اليوم بالقرب من محلة باب إدريس.

* في سنة ١٦٩٧ م انقرضت سلالة بني معن بموت الأمير أحمد آخر أمرائها مسموماً عندما كان بضيافة أخواله الأمراء الشهابيين الذين كانوا يطمعون بالولاية على هذه البلاد. وفي ذلك التاريخ أُعيد إلحاق بيروت بإيالة طرابلس الشام. وفي عهد والي هذه الإيالة قبلان باشا المطرجي نصب عليها حاكم شهابي من أنسباء المعنيين يدعى الأمير بشير بن حسين وهو أول من تولى عليها من الأسرة الشهابية، ثم تعاقب أفراد هذه الأسرة على هذه المدينة وما يليها من جبل لبنان واشتهر منهم الأميران ملحم وأخوه منصور اللذان دفنا في جامع الأمير منذر (النوفرة) تحت القبة، وقد درس القبران اللذان دفن فيهما هذان الأميران فيما بعد واتخذت الغرفة التي كانا فيها للمدرسة التي انشأها الشيخان عبدالله خالد ومحمد الحوت (الكبير) في أواسط القرن الماضي لتعليم أبناء المسلمين.

* في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر شهدت بيروت صراعاً شديداً بين حاكمها الشهابي الأمير يوسف وبين أحد أتباعه أحمد باشا الجزار، عندما كان كل منهما يحاول الاستئثار بها وتعرضت خلال هذا الصراع لاحتلالها من قبل أميرال البحر سينسكوف الروسي الذي كان يقوم بأعمال القرصنة في المياه العثمانية لحساب إمبراطورة روسيا كاترين، فلقد نصب هذا القرصان مدافع في سهلات البرج ليتمكن من ضرب سور المدينة من قرب، ولهذا السبب أطلق الإفرنج على هذه السهلات اسم «ساحة المدافع»، ولكن احتلال الروس انتهى بعد شهور قليلة بعد أن دفعت لهم المدينة غرامة (خُوّة) قدرها ٢٥ ألف ريال بعملة ذلك الزمان. فعاد إليها الجزار وقبض على سيده السابق الأمير يوسف الشهابي بواسطة ابن أخيه الأمير بشير الثاني المشهور بالمالطي، وأعدمه سنة ١٧٩٠ م في مدينة عكة.

* في أيام الجزار مُنع الشهابيون من الإقامة في بيروت، وهُدمت بيوتهم التي كانت فيها، كما مُنع أهل جبل لبنان من السكن في هذه المدينة التي ألحقها الوالي المذكور بمدينة عكة التي اتخذها مركزاً له باسم إيالة عكة. والجزار هو الذي بنى السور الذي كان يحيط ببيروت من كافة أطرافها ومنع الناس من السكن خارجه وبقي هذا المنع سارياً حتى سنة ١٨٣٢ م، ففي هذه السنة اقتحمها إبراهيم باشا المصري وهدم السور وأباح بناء المساكن في خارجه.

* على الرغم من أن الجزار كان مشهوراً بالشدة والقسوة على معارضيه، فإنه كان يوسع في مجالسه لأهل الفكر من العلماء والشعراء والأدباء فاشتهر منهم في ذلك الحين الشيخ عبد اللطيف فتح الله (المفتي) والشيخ أحمد الغر (القاضي) والمعلم اللغوي الشاعر إلياس إده وغيرهم.

* في سنة ١٨٠٤ م توفي أحمد باشا الجزار فخلفه على إيالة عكة سليمان باشا الذي اشتهر بلقب العادل لعدله وتساهله مع المواطنين والأجانب على حد سواء، وبعده وجِّهت الإيالة على عبد الله باشا الذي عزله وأسره إبراهيم باشا عندما قام بحركته الانفصالية ضد الدولة العثمانية.

* في سنة ١٨٣٢ م استولى المصريون على جميع البلاد السورية بعد القضاء على مقاومة عبد الله باشا والي إيالة عكة من قبل العثمانيين. ولما تردد الأمير بشير الثاني في التعاون مع إبراهيم باشا تلقى منه إنذاراً بهدم بيوته ومعاقله وزرع أشجار التين والزيتون مكانها، فما كان من الأمير الشهابي إلا أن خضع لهذا الإنذار ووضع نفسه تحت تصرف ذلك القائد المنتصر وسار في ركابه دون أي تحفظ. فكافأه إبراهيم باشا بأن خوله سلطة تعيين من أراد من أفراد عائلته حكاماً محليين على مدن بيروت وطرابلس وصيدا وصور، على أن القائد المصري ما لبث أن انتزع منه هذه السلطة ونصب على المدن المذكورة حكاماً من جماعته، وكانت بيروت من نصيب سليمان باشا «الفرنساوي» للأمور العسكرية ومحمود نامي بك (الجركسي) للإدارة المدنية، وأُلحقت هذه المدينة بإيالة طرابلس الشام على أن تتولى شؤونها المحلية لجنة من أعيانها دعيت باسم «ديوان المشورة» وكانت هذه اللجنة مؤلفة من اثني عشر عضواً: ستة مسلمون وهم عبد الفتاح حمادة (الإسكندراني الأصل) الذي اشتهر باسم «السيد فتيحة»، وعمر بيه (بيهم) وأحمد العريس، وحسن البربير، وأمين رمضان، وأحمد جلول؛ وستة نصارى وهم جبرائيل حمصي، وبشارة نصر الله، وإلياس منسَّى، وناصيف مطر، ويوسف عيروت، وموسى بسترس، وأُسندت نظارتها إلى عبد الفتاح حمادة.

* بقيت بيروت تحت الحكم المصري من سنة ١٨٣٢ حتى ١٨٤١ م وهي المدة التي بقيت فيها البلاد السورية في حوزة إبراهيم باشا. وفي هذه الفترة عرفت هذه المدينة تطوراً أساسيًّا شمل سائر مرافقها العمرانية والإدارية، ونما عدد سكانها يومئذٍ من ٨ آلاف نسمة إلى ١٥ ألفاً، وذلك بسبب امتداد رقعتها إلى خارج السور الذي أمر ابراهيم باشا بهدمه وسمح للناس ببناء مساكنهم في الضواحي التي أصبحت فيما بعد جزءاً من المدينة نفسها، كما ازدهرت أحوالها التجارية بسبب اختيارها مركزاً للحجر الصحي (الكرنتينا) الذي أجبر جميع القادمين إلى سورية على الخضوع له للتأكد من سلامتهم الصحية وخلوهم من الأمراض المعدية.

* في سنة ١٨٤١ م تمكنت الدولة العثمانية من استعادة سيطرتها على التراب السوري ودخلت جيوشها إلى بيروت بعد أن مهد لها الأسطول الإنكليزي بقيادة الكومودر نابييه الذي ضربها بمدافع أُسطوله وأجبر قائد الحامية المصرية سليمان باشا والمتسلم المدني محمود نامي بك على الانسحاب منها.

* بعد عودة العثمانيين إلى المدينة نقلوا كرسي الإيالة إليها وعينوا عليها والياً من قبلهم اسمه سليم باشا. وفي عهد هذا الوالي ابتدأ السعد يخدم بيروت كما يقول داوود خليل كنعان وازدادت عماراً وسكاناً، وانتقلت إليها تجارة الإفرنج، وعظم شأنها، وكثر مجيء المراكب الأوروبية إليها.

* في سنة ١٨٦٠ م ثارت فتنة طائفية بين الدروز وبين مواطنيهم النصارى في جبل لبنان، فأوفدت الدولة العثمانية فؤاد باشا أحد ساستها الدهاة الذي تمكّن من القضاء على هذه الفتنة بالحكمة والمرونة المقرونتين بالقوة والحزم، ثم قام بإجراء مباحثات سياسية مع مندوبي بعض الدول الأوروبية تناولت أسباب النزاع بين الطائفتين المذكورتين، وأدت هذه المباحثات إلى الاتفاق بين الدولة العثمانية وبين أولئك المندوبين على إعطاء جبل لبنان وضعاً إدارياً خاصاً عن طريق إعلانه متصرفية ممتازة تدار محلياً بموجب ما سمي يومئذٍ بالبروتوكول الذي وضع موضع التنفيذ الفعلي سنة ١٨٦٤ م. وقد جاء في المادة الأولى من هذا البروتوكول:

«يتولى إدارة جبل لبنان متصرف نصراني تنصبه الدولة العلية (العثمانية) ويكون مرجعه الباب العالي رأساً، وهو محتمل العزل، بمعنى أنه لا يستمر في منصبه ما دام حيًّا، ويكون على عهده القيام بجميع خطط الإدارة الإجرائية، متوفراً على حفظ الراحة والنظام في أنحاء الجبل كلها، وأن يحصّل منها التكاليف (الرسوم والضرائب) وبحسب الرخصة التي ينالها من لدن الحضرة الشاهانية (أي السلطان العثماني) ينصب تحت عهده مأموري الإدارة المحلية ويقلّد الحكام القضاء ويعقد المجلس الكبير (أي مجلس الإدارة) ويتولى رئاسته وينفذ الإعلامات القانونية الصادرة عن المحاكم عن القيود التي ستذكر في المادة الثامنة (استثنت هذه المادة المعاملات

والمراسيم الجارية بها العادة في سائر المملكة العثمانية».

وقد اشترط في هذا البروتوكول أن يكون المتصرف من رعايا الدولة العثمانية النصارى غير اللبنانيين. وكان أول من تولى هذا المنصب داوود قرابيت أرتين من عائلة أرمنية كاثوليكية. وكان هذا المتصرف يطمع بأن يحكم جبل لبنان بصورة دائمة فعمل على استرضاء اللبنانيين بأن طلب من اسطمبول ضم مدينة بيروت إلى جبل لبنان لتكون منفذاً له على البحر، وعلق بقاءه في منصبه على تحقيق هذا الطلب، بيد أن اسطمبول رفضت ضم بيروت إلى الجبل وبادرت إلى إقالة داوود باشا من منصبه.

• في نفس السنة التي أُعلن فيها جبل لبنان متصرفية ممتازة، فإن الدولة العثمانية ألغت جميع التقسيمات الإدارية في البلاد السورية مع الإبقاء على الامتيازات اللبنانية، وجعلت سورية الطبيعية كلها ولاية واحدة مركزها مدينة دمشق، وبذلك أُلغيت ولاية بيروت وأُلحقت مدينة بيروت نفسها بلواء صيدا الذي كان يتألف من هاتين المدينتين ومعهما صور وبلاد بشارة(جبل عامل).

• في سنة ١٨٨٨ م التمس أهالي بيروت من السلطان عبد الحميد الثاني الانفصال عن ولاية سورية وإنشاء ولاية مستقلة تكون مدينتهم مركزاً لها. فاستجاب السلطان لهذه الرغبة «نظراً لازدياد أهمية بيروت وحساسيتها» كما جاء في الإرادة السلطانية، وأعلنت ولاية بيروت التي اشتملت يومئذٍ على ألوية بيروت وعكة والبلقاء وطرابلس الشام واللاذقية. وأُسند الحكم فيها إلى علي باشا الذي كان من قبل والياً على ولاية آيدن في تركية.

• في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤ نشبت معركة بحرية بين العمارة العثمانية وبين بعض قطع الأسطول الروسي في البحر الأسود فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على الروسيا التي كانت إلى جانب الحلفاء في حربهم ضد ألمانيا، وفي ١١ تشرين الثاني من نفس السنة أعلن السلطان محمد رشاد الجهاد المقدس ضد الحلفاء بوصفه أمير المؤمنين في العالم، وعين أحمد جمال باشا وزير البحرية والحربية، قائداً أعلى للجيش الهمايوني الرابع لإدارة العمليات العسكرية في جميع البلاد العربية التي كانت تعرف يومذاك باسم «عربستان».

• في ٢٨ تشرين الثاني أذاع أحمد جمال باشا على أهل جبل لبنان بلاغاً دعاهم فيه إلى الإخلاص «لدولتهم العلية» وأعلمهم أن الإدارة العرفية التي اقتضتها ظروف الحرب وشملت جميع أنحاء المملكة العثمانية ستطبق أيضاً على جبل لبنان. وفي وقت لاحق من هذا التاريخ حضر جمال باشا إلى بلدة عاليه بلبنان وألقى على الحشود التي جاءت لاستقباله والترحيب به، كلمة ختمها بقوله «إن الدولة العلية هي أمكم التي ترأف بكم وتنقذكم من الأجانب الذين يأتونكم بحجة حمايتكم والدفاع عن حقوقكم واستقلالكم، ولكنهم في الحقيقة كالعلق يمتصون دماءكم ويقضون على كرامة نفوسكم فلا تصدقوهم ولا تلتفتوا إليهم وأطيعوا أمكم وقوانينها فتعيشوا بسلام وتنعموا بالسعادة والطمأنينة». وبعد هذا الخطاب بأيام قليلة اعتقلت السلطات العثمانية الحكومة اللبنانية المحلية وجميع أعضاء مجلس الإدارة ونقلتهم إلى المنفى في الأناضول ثم استدعى جمال باشا أوهان قيومجيان وأبلغه إعفاءه من منصبه كمتصرف لجبل لبنان وعين مكانه حليم بك رئيس المالية التركي متصرفاً بالوكالة. وكانت هذه الإجراءات إيذاناً بإلغاء الامتيازات اللبنانية وإعادة وضع جبل لبنان من جديد تحت الإشراف المباشر لوالي ولاية بيروت الذي كان يومئذٍ بكر سامي بك. وهكذا بدأت متصرفية جبل لبنان بحاكم أرمني وانتهت بحاكم أرمني أيضاً.

• في سنة ١٩١٥ تقدمت فرقة من الجيش العثماني لأخذ مواقعها الاستراتيجية في جبل لبنان وعند ما وصلت إلى محلة الحازمية قرب بيروت اعترضها قائد الجندرمة اللبنانية (الدرك)، بحجة أن البروتوكول لا يجيز للقوات النظامية التركية التمركز في لبنان، إلا أن قائد الفرقة العثمانية لم يكترث بهذا الاعتراض وأمر جنوده بمتابعة تقدمهم وفقاً للخطة المرسومة. فتابع هؤلاء الجنود مسيرتهم العسكرية إلى المواقع المحددة لهم في جميع المناطق اللبنانية بكل هدوء. وكان الأهالي اللبنانيون يقابلونهم بالهتاف والترحيب ويقدمون لهم الزهور والرياحين.

• في ٢٠ أيلول ١٩١٥ وصل إلى بيروت علي منيف بك وباشر عمله كمتصرف أصيل على جبل لبنان تحت إمرة والي بيروت، وأقام بمحلة زقاق البلاط في هذه المدينة.

• من المفارقات الطريفة أن داوود باشا المتصرف الأول لجبل لبنان كانت أُمنيته العزيزة أن يضم مدينة بيروت إلى الجبل بيد أنه عزل من منصبه لأنه جهر بهذه الأمنية، فلما أُسندت ولاية بيروت إلى بكر سامي بك حاول هذا الوالي بكل جهده أن يضم لبنان إلى بيروت، فلما تمّ هذا الضم بسبب ظروف الحرب نقل من منصبه قبل أن يقطف ثمار جهوده. وكان أحمد جمال باشا وراء هذا النقل لاعتقاده بأن الوالي المذكور كان على علاقة مشبوهة بعملاء الحلفاء في البلاد.

• بعد بكر سامي بك وجهت ولاية بيروت على عزمي بك الذي وصل إلى هذه المدينة يوم ٨ تموز ١٩١٥. ولم يكن هذا الوالي مجهولاً من أبناء هذه البلاد، فلقد عرفوه عن كثب عندما

كان متصرفاً في طرابلس الشام حيث ما يزال أجمل شوارع هذه المدينة وأكبرها يحمل اسمه حتى اليوم.

• بقي عزمي بك في ولاية بيروت من حين تعيينه سنة ١٩١٥ حتى أواخر سنة ١٩١٧م وقد وصف بأنه عمراني نزيه، وإليه يعود الفضل في تنظيم أهم أقسام المدينة من ساحة البرج وباب ادريس إلى ساحل البحر دون أن يهتضم حقوق السكان. ومن آثاره الإنشائية الباقية الكورنيش الذي يحيط اليوم بأكثر أطراف بيروت على موازاة البحر إلى مجرى النهر، فإن تخطيط هذا الكورنيش الجميل بدأ في عهد الوالي المذكور وما يزال العمل جارياً على إتمامه إلى الآن.

وفي أيام عزمي بك وقعت الأحداث السياسية التي أفضت إلى اعتقال بعض السياسيين العرب وإعدامهم بعد إدانتهم بتهمة التواطؤ مع فرنسا والتمهيد لنزولها في سورية واحتلالها.

• في أوائل سنة ١٩١٨م أُعفي أحمد جمال باشا من قيادة الجيش الهمايوني الرابع لأن اسطمبول اعتبرته مسؤولاً عن الفشل الذي مُني به الجيش العثماني في سيناء والحجاز وقسم من فلسطين، وخلفه في مركزه سميّه جمال باشا المرسيني (العربي) الذي اشتهر يومئذٍ باسم جمال الصغير للتفريق بينه وبين سلفه.

• أدت التغييرات في المراكز العسكرية إلى تغييرات مماثلة في المراكز الإدارية، فنقل عزمي بك من ولاية بيروت، وحل مكانه إسماعيل حقي بك مع متصرفية جبل لبنان في ذلك الحين ثم عين في لبنان مكانه تركي آخر اسمه ممتاز بك وهو آخر ولاة الأتراك في الجبل كما كان إسماعيل حقي آخرهم في بيروت.

• في شهر تشرين الثاني ١٩١٨ وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها، وكانت قد ابتدأت في أوائل شهر آب ١٩١٤. كان النصر في هذه الحرب الضروس إلى جانب الحلفاء الذين استطاعوا التغلب على ألمانيا وحليفتها الدولة العثمانية بعد صراع مميت دام أربع سنوات وأربعة شهور تقريباً شهد العالم خلالها أفظع أنواع الهول والجوع والموت والدمار.

• وقبيل فجر يوم الثلاثاء، فاتح تشرين الأول ١٩١٨م، تحرك الأمير محمد سعيد الجزائري حفيد البطل الجزائري الأمير عبد القادر الحسيني، منتهزاً فرصة انحساب الأتراك من دمشق وأعلن نفسه رئيساً للحكومة العربية باسم الشريف حسين بن علي أمير مكة المكرمة الذي استصنعته الدولة الإنكليزية للثورة على الحكم العثماني في بلاد العرب، وأرسل الأمير محمد سعيد الجزائري المذكور إلى رؤساء البلديات في داخل سورية وساحلها برقيات متماثلة تتضمن النص التالي «بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف. طمنوا العموم وأعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية. اسفكوا الدم ولكن بعدل».

وعندما تسلم عمر بك الداعوق رئيس بلدية بيروت آنذاك هذه البرقية، وكان الليل قد انتصف، اتصل فوراً بوالي بيروت إسماعيل حقي بك وأطلعه على ما جاء في البرقية واتفق الطرفان على أن يغادر الوالي ومعاونوه الأتراك مدينة بيروت بعد بيان موجز أعلن فيه إسماعيل حقي بك انتهاء الحكم العثماني في هذه البلاد وإعفاء الموظفين المحليين من مسؤولياتهم تجاه الدولة العثمانية. وبعد ساعات قليلة استقل المسؤولون الأتراك العربات التي حملتهم إلى بلادهم تاركين البلد في عهدة رئيس بلديتها عمر بك الداعوق.

وبخروج المسؤولين الأتراك من بيروت في ذلك اليوم أسدل الستار على الحكم العثماني في هذه البلاد، وغابت راية الهلال من سمائنا بعد أن ظلت تخفق فيها أربعمائة سنة وسنتين بالتمام والكمال. فقد دخل العثمانيون إلى بيروت سنة ١٥١٦ م في عهد السلطان سليم الأول وغادروها سنة ١٩١٨ في عهد السلطان محمد رشاد. وكان أول ولاتهم في هذه المدينة محمد بن قرقماز (محمد قرقماز أوغلو) الجركسي، وآخرهم إسماعيل حقي بك التركي وما يزال سيف هذا الأخير محفوظاً في المتحف الوطني ببيروت حتى اليوم.

• عندما تم جلاء الأتراك عن آخرهم من بيروت، تسلم عمر بك الداعوق السلطة الفعلية في المدينة، وألّف حكومة محلية من أعضاء المجلس البلدي ومديري المصالح الحكومية وأسند مديرية الأمن العام إلى أحمد مختار بك بيهم وكلف سليم بك الطيارة والخواجا جان فريج بمعاونة أحمد مختار بك بيهم في حفظ الأمن بالمدينة.

• في نفس الوقت أذاع عمر بك الداعوق على المواطنين في بيروت بلاغاً موجزاً طلب فيه إليهم الامتناع عن الإخلال بالأمن أو القيام بالتظاهرات، كما حذرهم من التعرض للأتراك الذين بقوا مع عائلاتهم في المدينة. وفيما يلي نص البلاغ المذكور:

«١ ـ على الأهلين والموظفين ورجال الدرك والشرطة متابعة أشغالهم ووظائفهم بتمام السكينة والهدوء بكل نشاط واستقامة ويحتم على الأهلين أن لا يتداخلوا فيما لا يعنيهم وأن لا يتعدى بعضهم على بعض.

٢ ـ ممنوع قطعياً حمل السلاح والخروج إلى

الطرقات ليلاً بعد الثانية بعد الغروب (حسب التوقيت العربي الزوالي).

٣ - إذا حدث تعدٍّ على أحد، فعليه حالاً أن يخبر أقرب مخفر للبوليس.

٤ - إذا وقعت أقل مغدورية (ظلم) أو مخالفة أو تماهل بالوظيفة على الأهالي من قبل أيٍّ كان، فعليه إعلامي حالاً.

٥ - كل من يتجرأ على مخالفة هذه الأوامر، يجازى بأشد الجزاء بلا شفقة ولا رحمة وكل من يتجاسر على سلب الأمن العام يحاكم على الفور ويُعدم شنقاً أو رمياً بالرصاص.

٦ - المظاهرات والتجمع وإلقاء الخطب ممنوع.

٧ - بما أن الأتراك وعيالهم وسائر الغرباء هم بمثابة وديعة عندنا، فيجب على كل فرد تمام الاعتناء برفاهيتهم وراحتهم كما تقتضيه الشهامة العربية».

* بعد جلاء العثمانيين عن البلاد شعر أهل بيروت بهزة أرضية أثارت الخوف والرعب، وقد فسّر الناس هذه الظاهرة الطبيعية بأنها تعبير عن غضب العناية الإلّهية لزوال دولة الخلافة الإسلامية وانهزام جيوشها أمام الحلفاء النصارى. ومما زاد في الوساوس والقلق ظهور طيارتين إنكليزيتين في سماء بيروت ضربتا المرفأ بالقنابل فذعر الناس والتمسوا النجاة بالهرب إلى خارج البلد.

* في ٤ تشرين الأول عند الساعة الرابعة بعد الظهر احتشد البيروتيون في ساحة القشلة العسكرية التي تحولت فيما بعد إلى مقر لرياسة الحكومة اللبنانية للاحتفال برفع العلم العربي على سارية القشلة مكان العلم العثماني، وقد تولت رفعه يومئذٍ الآنسة فاطمة المحمصاني شقيقة محمد ومحمود المحمصاني اللذين أُعدما سنة ١٩١٦ بتهمة التآمر على الدولة العثمانية لصالح الحلفاء. وكان هذا العلم يتألف من زاوية حمراء على شكل مثلث تلتصق به ثلاث خطوط متوازية، الأسود فالأخضر فالأبيض وهذه الألوان الأربعة اختارها أعضاء المنتدى الأدبي الذي أنشأه الشبان العرب في اسطمبول ودام من سنة ١٩٠٩ حتى ١٩١١م وقد استوحى الشبان المذكورون هذه الألوان لتكون رمزاً للحركة العربية القومية من بيت قاله صفي الدين الحلي أحد الشعراء العرب في أواخر العهد العباسي وهذا البيت هو:

بيض صنائعنا سود وقائعنا   خضر مرابعنا حمر مواضينا

وكان شريف مكة السلطان حسين بن علي قد أقرَّ هذا العلم رمزاً للثورة التي أعلنها بالاتفاق مع الحلفاء على الدولة العثمانية سنة ١٩١٦ م، ونشرت جريدة القبلة التي كانت تنطق بلسان الشريف حسين أن اللون الأسود يرمز إلى راية العقاب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يرفعها في غزواته ضد كفار قريش، واتخذها العباسيون شعاراً لهم في حركتهم ضد الأمويين، وأن اللونين الأبيض والأخضر من شعارات العرب في العهود القديمة، وأن اللون الأحمر هو شعار أشراف مكة المكرمة من أيام أبي نُميّ بركات الزيني الذي كان أميراً على الأراضي المقدسة في الحجاز عندما انتزع العثمانيون الشرق العربي من المماليك في أيام السلطان سليم الأول العثماني خلال العقد الثاني من القرن السادس عشر للميلاد.

والذي جرى في بيروت حصل مثله في جميع أنحاء البلاد السورية، داخلاً وساحلاً، بما في ذلك جبل لبنان الذي كان يتولى إدارته يومئذٍ حبيب باشا السعد الذي عينه الكونت دي مارتل المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان رئيساً للجمهورية اللبنانية في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٤ بعد إقالة الرئيس السابق شارل دباس. فإن حبيب باشا السعد عندما تلقى برقية دمشق بإعلان الحكم العربي في البلاد، بادر إلى إعلان ولاء جبل لبنان للحكم الجديد في اجتماع عقده مع أعيان اللبنانيين في بعبدا حيث أقسم يمين الطاعة للشريف حسين بن علي ورفع العلم العربي فوق سراي الحكومة هناك.

* لم يبق الأمير محمد سعيد الجزائري في رأس حكومة دمشق غير أيام معدودة انتهت بدخول الشريف فيصل بن الحسين إلى دمشق على رأس الفرقة العربية التي شكلها البريطانيون بإشراف أحد جواسيسهم الكولونيل لورنس. فلقد قام لورنس المذكور بإقالة الأمير الجزائري وعين مكانه رضا باشا الركابي الذي أرسل إلى بيروت شكري باشا الأيوبي على رأس مائة جندي ليكون حاكماً عاماً على بيروت ولبنان ومعه جميل بك الألشي رئيس أركان حرب له، وكان ذلك يعني أن الحكومة العربية الجديدة اعتبرت البلاد السورية كلها وحدة سياسية كاملة ولبنان جزء منها دون أي امتياز أو استثناء.

* أثار تصرف دمشق سلطات الحلفاء فأرسل هؤلاء أربع بوارج إنكليزية وفرنسية رابطت في مرفأ بيروت يوم ٦ تشرين الأول. وفي ٨ منه نزل بحارة هذه البوارج إلى قلب المدينة وكان معهم الكولونيل دي بياباب الفرنسي الذي عينه الجنرال اللنبي حاكماً على «أراضي العدو المحتلة» في بيروت ولبنان وذلك تنفيذاً للاتفاق بين الإنكليز والفرنسيين على اقتسام سورية بموجب

المعاهدة التي أبرموها فيما بينهم خلال الحرب بمعزل عن الشريف حسين بن علي وهي المعاهدة التي اشتهرت باتفاق سايكس - بيكو الذي قضى بجعل هذه البلاد منطقتين: شمالية لفرنسا وجنوبية لإنكلترا!

* أول قرار اتخذه الكولونيل دي بياباب فور نزوله إلى بيروت ومباشرة سلطاته هو الأمر بإنزال العلم العربي عن هذه المدينة وكذلك عن سراي بعبدا وسائر المدن الساحلية التي أصبحت اليوم جزءاً من الجمهورية اللبنانية.

والذي حدث في بيروت في ذلك الحين، أن دي بياباب أرسل من قبله ضابطين، أحدهما إنكليزي والآخر فرنسي قابلا شكري باشا الأيوبي في مكتبه بالسراي الكبير وطلبا إليه إنزال العلم العربي ورفع العلم الفرنسي، فما كان من الحاكم العربي إلا أن وضع مسدسه على الطاولة أمام هذين الضابطين وخاطبهما قائلاً «المسدس أمامكم وفي مقدور أحدكما قتلي إذا أراد ولكني لا أنزل العلم العربي» فلما علم الجنرال اللنبي بما حصل، خابر الشريف فيصل كي يتدبر الأمر مع عامله شكري باشا ويسحبه من بيروت لإنهاء هذه الأزمة. بيد أن فيصل لم يستجب لهذا الطلب، فكلف اللنبي عندئذٍ بعض الجنود الإنكليز بإنزال العلم والناس نيام، وتم ذلك في ليل ١٠ - ١١ تشرين الأول «دون حوادث وبكل احترام» كما يقول الجنرال كلايتون في مذكراته.

وعندما بلغ فيصل ما فعله الجنود الإنكليز، استاء جدًا وأرسل إلى الجنرال اللنبي برقية احتجاج شديدة اللهجة قال له فيها: «الراية التي كنتم بالأمس أخبرتموني أنها حليفة راية الحكومة البريطانية العظمى.. إن هذه الراية رفعت من طرف أمة اختارتها لنفسها، والتحقت بأبناء جلدتها وجنسها، وطلبت منا إرسال حاكم إليها دون أي مجبر، كما كان يفعل أهل اللاذقية وطرابلس. إن أهالي ساحل سورية أرادوا وفعلاً انضموا إلى إخوانهم العرب، فهل من العدل والإنصاف حرمانهم من أمانيهم؟ ولكوني عربيًا، ولأني نائب هنا عن والدي صاحب الراية المهانة من جانب حلفائه، أطلب إعادة شرف تلك الراية بإرجاعها كما كانت وأطلب تحقيق أماني بيروت».

غير أن اللنبي أهمل هذه البرقية ولم يعر التفاتاً لاحتجاج فيصل. وهكذا طويت الراية العربية وغابت عن سماء بيروت، وهي ما تزال غائبة حتى الآن، وتلاشى الحلم القومي الجميل الذي راود خواطر البيروتيين أجيالاً طويلة وكلفهم أضاحي عزيزة، وخلال أيام معدودة لم تبلغ الأسبوع وئد استقلال البلاد في المهد، وأصبحت بيروت وجبل لبنان وسائر المدن السورية تحت نير الحكم الفرنسي المباشر الذي اتخذ بعد قليل صفة الانتداب، وهي الصفة التي استعملها الاستعمار الغربي لتبرير اغتصابه للأوطان العربية المسلوخة عن الإمبراطورية العثمانية بحجة أن هذه الأوطان «لا تزال غير قادرة على الوقوف منفردة في معترك الحياة!» كما نصت المادة ٢٢ من القرار الذي أصدرته عصبة الأمم في مؤتمر السلام الذي عقدته الدول المنتصرة في باريس يوم ٨ كانون الثاني ١٩١٩.

* لاقى العلم العربي الذي رفعه حبيب باشا السعد في بعبدا نفس المصير الذي لاقاه العلم العربي في بيروت، وانفرد العلم الفرنسي لوحده في سماء الأراضي التي أُعلن فيها الكيان اللبناني فيما بعد.

* في اليوم التالي لإنزال العلم العربي أصدر الجنرال اللنبي، بوصفه القائد الأعلى للجيوش الحليفة في «أراضي العدو المحتلة» قراراً بتسمية جورج بيكو حاكماً على سورية ولبنان تحت اسم «المفوض السامي لحكومة الجمهورية الفرنسية في الشرق» وكان بيكو قنصلاً لفرنسا في بيروت قبيل الحرب العالمية الأولى وهو الطرف الفرنسي في الاتفاقية التي كان طرفها الإنكليزي مارك سايكس واشتهرت باسم «اتفاقية سايكس - بيكو» التي قضت بتجزئة سورية الطبيعية إلى دويلات إقليمية وطائفية بعد تقسيمها إلى منطقتين حمراء وزرقاء، جُعلت الأولى من نصيب إنكلترة لأجل تمكينها من تحقيق الوعد الذي قطعه اللورد بلفور أحد وزرائها للزعيم اليهودي وايزمن بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وجُعلت المنطقة الثانية من نصيب فرنسة لأجل تمكينها من توسيع متصرفية جبل لبنان على حساب ولاية بيروت وتحويل هذه المتصرفية إلى كيان لبناني ذي طابع خاص،وذلك تنفيذاً للوعد الذي أعطاه كليمنصو رئيس وزراء فرنسا للزعيم الماروني البطريرك إلياس الحويك عندما قابله في شهر آب ١٩١٩ في باخرة حربية فرنسية على رأس وفد من الأساقفة والعلمانيين اللبنانيين.

* في ٩ نيسان ١٩١٩ وصل جورج بيكو إلى بيروت حيث باشر منصبه كمفوض سام للجمهورية الفرنسية في الشرق، فوجد البلاد تتحفز للثورة ضد الأوضاع التي فرضها الحلفاء خلافاً لإرادة السكان، حتى إنه شخصياً تعرض للاغتيال عندما قام في شهر آب ١٩١٩ بزيارة شيخ عقل الدروز في بلدة بعقلين بالشوف الأعلى من جبل لبنان، إلا أن الرصاص أخطأه وأصاب الأميرال مورنه الذي كان يرافقه في هذه الزيارة كما أصاب أحد الحرس من الجنود الفرنسيين الذين كانوا معهما.

* في ٨ تشرين الأول من نفس السنة، وصل إلى بيروت الجنرال غورو الذي عُيّن خلفاً لبيكو، لأن هذا الأخير عجز عن ضبط الأمن في البلاد المضطربة. وكان تعيين غورو نذير شؤم

وبلاء على الوطن السوري وأهله. فإن هذا القائد العسكري الشرس كان قد فقد إحدى ذراعيه في معركة غاليبولي عندما حاول الحلفاء اختراق بوغاز الدردنيل في تركية لاحتلال اسطمبول عاصمة الخلافة العثمانية وردّوا خائبين. فلما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء، وجد هذا القائد في تعيينه حاكماً على هذه البلاد أن الفرصة سانحة أمامه لينفس عن أحقاده الخبيثة وتحقيق مطامع فرنسا العدوانية ضد الأمة العربية. على أن مهمة غورو الاستعمارية لم تكن سهلة لأن الأهالي بمختلف طوائفهم ومذاهبهم الدينية قاوموا الاحتلال الأجنبي ووقفوا صفًّا واحداً للدفاع عن حريتهم ووحدة وطنهم. فلجأت السلطة الفرنسية إلى إرهاب الناس عن طريق اعتقال زعمائهم الوطنيين، ولمّا أصرّ خطباء المساجد في بيروت على الدعاء للشريف حسين بن علي في صلاة الجمعة باعتباره أمير المؤمنين قبض على عدد منهم وسجنوا في جزيرة أرواد المواجهة لبلدة طرطوس على الساحل السوري. ولم يكن حظ مجلس إدارة جبل لبنان في ذلك الحين خيراً من حظ مواطنيهم في المدن الساحلية. ففي ١٠ تموز ١٩٢٠ وضع أعضاء هذا المجلس، وغالبهم نصارى، مضبطة طالبوا فيها برفع المظالم التي كان يفرضها عليهم القومندان لابرو الذي عينه غورو متصرفاً على الجبل، واحترام استقلالهم ضمن إطار التفاهم وحسن الصلات الأخوية بين شطري الوطن الواحد سورية ولبنان، وقد اتفق أصحاب هذه المضبطة على إبلاغ مضمونها إلى الشريف فيصل في دمشق وقرروا السفر إلى فرنسا لتسليمها للمسؤولين الفرنسيين دون أن يطلعوا غورو على عملهم ونياتهم، ولكن غورو كان يتنطس أخبارهم بواسطة أحد جواسيسه الذي دسه بينهم فلما عزموا على السفر إلى فرنسا بادر إلى اعتقالهم وأمر بمصادرة أموالهم وحجز ممتلكاتهم ونفاهم إلى جزيرة كورسيكا القريبة من الساحل الفرنسي.

* بعد أن كبت غورو أصوات الأحرار في بيروت وألغى مجلس الإدارة في جبل لبنان، انصرف إلى اختلاق المبررات الوهمية للانقضاض على سورية الداخلية من أجل تقويض ما تبقى فيها من معالم الحرية ومظاهر الاستقلال بالقضاء على حكم الشريف فيصل بن الحسين الذي نودي به ملكاً دستوريًا من قبل جميع مدن سورية بأجزائها الطبيعية، ساحلاً وداخلاً، في الاجتماع الذي حضره ممثلون عنها في مدينة دمشق وأصدروا بياناً قالوا فيه:

«إن الأمة العربية، في الوطن والمهاجر، يا سمو الأمير المعظم، لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي، ولم تُرِقْ دم شهدائها الأحرار وتثر على الحكومة التركية إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات كيان مستقل ومدنية خالدة وقومية خاصة، لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها.. في هذا السبيل واستناداً إلى العهود والوعود والمبادىء السامية التي صرح بها الحلفاء الكرام، قد اجتمعنا بصفتنا ممثلي الأمة السورية في جميع اتحاد القطر السوري وقررنا بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية، التي منها فلسطين، بحدودها الطبيعية، استقلالاً تاماً لا شائبة فيه، مبنيًا على الأساس المدني النيابي، وحفظ حق الأقلية، ورفض المزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطناً قوميًا لليهود أو محل هجرة لهم. وقد اخترنا بإجماع الرأي سموكم ملكاً دستورياً على البلاد السورية..».

وكان من بين الذين وقعوا هذا البيان التاريخي ممثلون عن أقضية بيروت وصيدا وصور ومتصرفية جبل لبنان وهم:

رضا الصلح وابنه رياض بك وعفيف ابن عم رياض بك وجورج حرفوش وعبد المحسن صادق وفريد كساب ومراد غلمية (عن أقضية بيروت).

الشيخ عبد المجيد المغربي والشيخ محمد رشيد رضا وتوفيق البيسار وعثمان سلطان ويوسف الحكيم (عن طرابلس).

الأمير أمين أرسلان وإبراهيم الخطيب وتوفيق مفرج والأمير أسعد الأيوبي والدكتور سعيد طليع وتامر حمادة ورشيد نقّاع (عن جبل لبنان).

* اعتبر الجنرال غورو أن مبايعة الشريف فيصل ملكاً على جميع البلاد السورية بحدودها الطبيعية «اعتداء على الحقوق الدولية وأن هذا العمل لم يأخذ بعين الاعتبار الامتيازات الأجنبية والاتفاقات السياسية» وأرسل إلى الملك فيصل إنذاراً بقبول الانتداب الفرنسي وإلغاء الجيش العربي، وحدد للملك مهلة بضعة أيام لتنفيذ مضمون هذا الإنذار.

* في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ انتهت مهلة الإنذار دون أن يستجيب الملك فيصل لمطالب الفرنسيين التي اعتبرها السوريون عدواناً صارخاً على كرامتهم واستقلالهم. فأصدر الجنرال غورو أمره إلى الجيش الفرنسي بالزحف على دمشق واحتلالها بالقوة. ولما وصلت القوات الفرنسية إلى قرية خان ميسلون تصدى لها الجيش العربي السوري والمتطوعون الذين نفروا للجهاد إلى جانبه، إلا أن الفرنسيين تغلبوا على المقاومة العربية في معركة غير متكافئة، استشهد فيها البطل يوسف العظمة وزير حربية الملك فيصل الذي دفن في نفس المكان الذي استشهد فيه.

وعلى جثث الشهداء العرب دخل غورو إلى دمشق حيث ذهب من توِّه إلى ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي بالقرب من مسجد بني أمية، وقرع الضريح بعصاه قائلاً «صلاح الدين، إننا عدنا ونحن هنا!».

* في أول أيلول ١٩٢٠ م حشدت السلطة الفرنسية أعيان البلاد في قصر الصنوبر الذي شادته بلدية بيروت في الحرج أيام الوالي عزمي بك سنة ١٩١٧م وكان في مقدمة أولئك الأعيان البطريرك الياس الحويك رئيس الأساقفة المارونيين والشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت الذي أُجبر على الحضور بعد تهديده بالنفي إذا هو امتنع عن الحضور. وقد نصب غورو عند مدخل القصر المذكور مدفعين غنمتهما القوات الفرنسية من السوريين في معركة ميسلون، لإشعار المواطنين بقوة فرنسة ثم ألقى الجنرال غورو خطاباً طويلاً قال فيه:

«باسم حكومة الجمهورية الإفرنسية أُعلن «لبنان الكبير» في قوته وعظمته من النهر الكبير إلى أبواب فلسطين وقمم لبنان الشرقي... بالأمس من خمسة أسابيع، كان جنود فرنسة الفتيان، أولئك الذين أدهشتكم فِعالهم مدة أربع سنوات، يعززون أمانيكم في صباح، وبمعركة واحدة، ضدّ تلك القوة المشؤومة (يعني الجيش العربي السوري) التي كانت تطمع باستعبادكم.. إن جنود فرنسة هم كفلاء استقلالكم، فلا تنسوا أن دم فرنسة الكريم قد سال لأجل هذا الاستقلال، كما سال لأجل استقلال شعوب كثيرة.. ليحي لبنان الكبير، لتحي فرنسة!».

* في ٣١ آب ١٩٢٠ أصدر غورو قراراً تحت رقم ٣٢٠ جاء في مادته الأولى «إن مقاطعة ولاية بيروت الإدارية مع ما يتعلق بها من الدوائر الادارية المحلية أصبحت ملغاة».

وابتداءً من التاريخ المذكور غدت بيروت تابعة لجبل لبنان بعد أن كان هذا الجبل تابعاً لها. وبذلك حقق الجنرال غورو ما عجز عن تحقيقه داوود باشا أول متصرف على جبل لبنان، وبعد أن كان داوود عمون أحد أعيان دير القمر لا يطمع بأن يضم أكثر من محلة المزرعة في بيروت إلى الجبل فإنه عاش ورأى بيروت كلها ومعها صيدا وصور وطرابلس والأقضية الأربعة وقد أصبحت جميعها جزءاً من هذا الجبل بفضل فرنسة وممثلها الجنرال غورو قاهر دمشق...

* وعندما أكمل الجنرال غورو مهمته في القضاء على استقلال الدولة العربية في سورية وإنشاء الكيان اللبناني، أقام البطريرك الياس الحويك قداساً دينياً في كاتدرائية مار جرجس في بيروت، وبعد تلاوة الانجيل ألقى المطران بطرس الفغالي كلمة استهلها بقوله:

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، تعالوا نسرّ ونفرح به».

وبعد المطران الفغالي، قام المطران اغناطيوس مبارك رئيس أساقفة بيروت وقال موجهاً كلامه إلى الجنرال غورو الذي أُقيم القداس على شرفه:

«.. بعد استيلائك على الشام، يا مولاي. جلوْت عن الشعب غيوم الأوهام فأصبح في حالة من الفرح والشكر والحماس لا توصف، لأن هذا الانتصار أنقذه من كابوس التشوش والقلق الذي كان يضغطه ويثقل عليه، فأصبح الآن يشتغل ويعمل في راحة وهناء.. فاسمح لي يا حضرة القائد أن أشكرك باسم الشعب الساذج الذي أنقذته من أغلال الجور والاستبداد وأشكرك أيضاً لاستيلائك على الشام التي كانت حكومتها السابقة منشأ تلك الاضطرابات، أشكرك على «لبنان الكبير» الذي فتح لك السبيل فصرت سيداً على سورية كلها»..

وقد شاركت بعض الصحف الأساقفة المذكورين في الإعراب عن الفرح بإلحاق بيروت بالكيان اللبناني الجديد فكتبت جريدة الأحوال بهذه المناسبة تحت عنوان: زفاف بيروت إلى لبنان: «اليوم يعقد للجبل الأشم على بيروت، عروس سورية، على يد كفيلها الأفخم الجنرال غورو ممثل فرنسة العليّة، فما أجمله يوماً مجيداً. وعند العصر تزفّ إليه بمهرجان بديع، فما أبهجه زفافاً سعيداً.. منذ ستين سنة (أية سنة ١٨٦٤) تقدم داوود باشا إلى السلطان (مصطفى الثالث) ليخطب منه مدينة بيروت إلى جبل لبنان، فرده خائباً، ثم خانته السياسة ففرقت بين الحبيبين جسماً لكنّ القلبين بقيا على عهد الغرام.. اعتاد القوم في الأعراس أن يدعوا للعروسين بالرفاه والبنين، والأحوال في هذا المقام تدعو للوطن العزيز بالسعادة والترقي ودوام السلام.. في ظل العلم المثلث الألوان ـ أي العلم الفرنسي المؤلف من الألوان الثلاثة: الأزرق فالأبيض فالأحمر.

كما انطلقت قرائح بعض الشعراء اللبنانيين بالتعبير عن شكر غورو لإعلانه الكيان اللبناني، فنشر بشارة عبد الله الخوري (الأخطل الصغير) في جريده «البرق» قصيدة طويلة بهذا المعني جاء فيها قوله:

إيه غورو، والأماني جمّة   وثمار الفوز للمستبسل
إن لبنان، الذي أوجدته   ليس بالجاحد كفّ المفضل
تلك إنسانية لم يروها   قبل غورو، رجل عن رجل

كان هذا الكلام معبراً عن رأي فريق محدود من المواطنين الذين ينتمون بغالبيتهم إلى جبل لبنان بالذات، أما الفريق الآخر، أي سكان بيروت وطرابلس وصيدا وصور وبقية المناطق التي أُلحقت بلبنان بعد إعلان كيانه يوم أول أيلول ١٩٢٠، إن

هذا الفريق كان له يومئذٍ موقف سلبي من الإجراء السياسي الذي قام به غورو، لأنه وجد فيه عملاً تعسفيًّا من قبل دولة الانتداب التي ضربت عرض الحائط بوعود الحلفاء للعرب خلال الحرب، فعمت الاضرابات جميع المدن المذكورة. ولما جرى إحصاء النفوس في سنة ١٩٢٢ امتنع البيروتيون عن الاشتراك بهذا الإحصاء وأبوا قبول الهويات التي أُعطيت لهم ولم يأخذوها إلا بعد أن وافق الجنرال غورو على أن يُقص منها الجزء الذي ينص على الجنسية اللبنانية لحاملها.

* في أول كانون الأول ١٩٢٥ وصل إلى بيروت هنري دي جوفنيل خامس مفوض سامٍ فرنسي في هذه البلاد، بعد بيكو وغورو وويغان وساراي، فوجد نفسه بين يدي ثورة عامة قام بها الأهالي، في الداخل والساحل ضد الانتداب الفرنسي، فقال كلمته المشهورة «السلم لمن أراد السلم والحرب لمن أراد الحرب» وبادر إلى معالجة الموقف المضطرب عن طريق بعض الإجراءات التي تحمل الشكل الديمقراطي بالنسبة إلى الحكم المحلي في لبنان، وطلب من الأهالي انتخاب جمعية تأسيسية تقوم بوضع دستور ينظم الحكم في البلاد التي أُبقيت على كل حال تحت إشراف الموظفين الفرنسيين الذين أخذوا يومئذٍ صفة المستشارين في جميع الدوائر الرسمية. بيد أن الإجراءات التي اتخذها دي جوفنيل لم تجد الاهتمام إلا من قبل بعض أعيان جبل لبنان (المتصرفية السابقة) الذين وجدوا في التنافس على عضوية الجمعية التأسيسية فرصة ملائمة لإرضاء نزعتهم التقليدية إلى إثبات وجاهتهم في مناطقهم، أما سكان بيروت وسائر المدن والمناطق التي أُلحقت بالكيان اللبناني فإنهم أعرضوا عن التجاوب مع دعوة دي جوفنيل ورفضوا الاشتراك بأي انتخابات تؤدي إلى اعترافهم بالانتداب الفرنسي وما نتج عنه من تجزئة للبلاد السورية إلى دويلات يغلب عليها الطابع الطائفي.

* في ٥ كانون الثاني ١٩٢٥ اجتمع البيروتيون في مدرسة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية بدعوة من المفتي الشيخ مصطفى نجا وأصدروا بياناً أعلنوا فيه رفضهم للانتداب الفرنسي وطالبوا بالاتحاد مع سورية على قاعدة اللامركزية وأرسلوا نسخة من هذا البيان إلى حكومة الجمهورية الفرنسية وإلى عصبة الأمم في جنيف. وقد جاء في البيان المذكور:

«قررت الطائفة الإسلامية في بيروت، بالإجماع، احتجاجاتها السابقة على إلحاقها بلبنان.. وتؤيد وتكرر طلب الرجوع إلى ما كانت تحفظه لنفسها بشأن الالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية في كل وقت وزمان».

وفي نفس الوقت أرسل عمر بك الداعوق باسم نواب بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع، برقية إلى عصبة الأمم بواسطة المفوض السامي الفرنسي جاء فيها:

«إن فريقاً من نواب بيروت وطرابلس وصيدا والبقاع، مع كونهم أقلية عددية، إلا أنهم يمثلون أكثرية السكان الذين تتألف منهم الجمهورية اللبنانية، قد قدموا أثناء المناقشة في الدستور اللبناني اقتراحاً احتجوا فيه على ضم الأراضي التي يمثلونها إلى لبنان دون أن يؤخذ رأي أهاليها قبل ذلك الضم، فهم يطلبون أن تؤلف هذه الأراضي دولة مستقلة إدارية مرتبطة باتحاد لامركزي مع لبنان القديم وسورية».

* ما حصل في بيروت، حصل مثله في جميع المدن والمناطق التي ألحقها غورو بالكيان اللبناني، فلقد قرر السكان رفض الانضمام إلى لبنان وأصروا على الوحدة السورية.

* لم تجد اعتراضات السكان أذناً صاغية لدى الفرنسيين في بيروت وباريس، ولقيت نفس الإهمال من قبل عصبة الأمم في جنيف. وأصر دي جوفنيل على اعتبار الجمعية التأسيسية ناطقة باسم شعب قاطعتها أغلبيته وأوعز إلى هذه الجمعية بالموافقة على دستور للبنان وضعته لجنة من وزارة خارجية فرنسة برياسة بول بونكور. وفي أيار ١٩٢٦ انتخب شارل دباس أول رئيس للدولة اللبنانية التي أصبحت منذ ذلك التاريخ جمهورية تحت الانتداب الفرنسي وسميت مدينة بيروت عاصمة لهذه الجمهورية التي تألفت من المناطق التالية:

لواء بيروت المكون من بيروت نفسها ومن أقضية صيدا وصور ومرجعيون.

لواء طرابلس المكون من طرابلس وقضاء عكار.

جبل لبنان بحدوده عندما كان متصرفية ممتازة.

الأقضية الأربعة وهي: البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا.

* في ٩ أيلول ١٩٣٦ عرضت الحكومة الفرنسية على لبنان معاهدة، ظاهرها الاعتراف باستقلاله وباطنها استمرار الانتداب تحت اسم الاستقلال الوهمي، إذ أن هذه المعاهدة قيدت اللبنانيين لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد باحتلال عسكري دائم. وفي ٣ تشرين الثاني جرى التوقيع عليها في بيروت من قبل الكونت ده مارتيل المفوض السامي الفرنسي وأميل إده رئيس الجمهورية اللبنانية في ذلك الحين. وبالرغم من أن المعاهدة المذكورة خولت فرنسة البقاء الأبدي لمصالحها ونفوذها في لبنان وقررت انفصاله نهائياً عن بقية أجزاء الوطن السوري بحدوده الطبيعية، فإن مجلس النواب الفرنسي خذل حكومته ورفض التصديق على هذه المعاهدة.

* مرة أخرى رفض البيروتيون الموافقة على بقاء مدينتهم في الكيان اللبناني وأيدهم في هذا الموقف السلبي أبناء المناطق الأخرى التي ألحقها غورو بهذا الكيان في أول أيلول ١٩٢٠. وعمَّت الاضطرابات في البلاد لا سيما في مدينة طرابلس التي أقفلت حوانيتها لمدة ٣٦ يوماً، ورفع الطرابلسيون العلم السوري في الأحياء الداخلية من المدينة. ولم يستأنف الطرابلسيون حياتهم العادية إلا نزولاً عند رغبة الزعماء الوطنيين وعلى رأسهم رياض بك الصلح وإخوانه رجال الكتلة الوطنية في سورية الذين تعهدوا بتحقيق الوحدة السورية بمختلف الوسائل والطرق الشرعية.

* في ١٠ آذار ١٩٣٦ عقد الزعماء الوطنيون المطالبون بالوحدة السورية اجتماعاً شعبياً كبيراً في قصر الوجيه البيروتي عمر بك بيهم، وعرف هذا الاجتماع يومئذٍ باسم «مؤتمر الساحل» وأصدر المجتمعون بياناً أكدوا فيه مطالبتهم بالاستقلال والانضمام إلى سورية. وقد وقع هذا البيان التاريخي ممثلون عن بيروت وطرابلس وصيدا وصور وجبل عامل والأقضية الأربعة، بعلبك وراشيا وحاصبيا والبقاع وامتنع عن توقيعه السيد كاظم الصلح الذي كان حاضراً في هذا الاجتماع. وإن السيد الصلح أذاع بياناً مستقلاً برر فيه امتناعه عن مشاركة الزعماء الآخرين في التوقيع على بيانهم وقال: «لست أرى من الكوارث الكبرى أن يظل لبنان على شكله الحالي إلى الأجل الذ ي يريد (على فرض أنه متحرر من السيطرة الأجنبية) شريطة أن يعتنق منذ اليوم الفكرة والقومية العربيتين، فإن انفصاله عن سورية الكبرى العربية هو عندي كانفصال سورية العربية عن العراق العربي، أي إنني لا أجد في هذا الانفصال يأساً ما دامت تلك القومية تترعرع وتصان في كل قطر إلى أن تثبت لهذه الأقطار مصلحتها في الاتحاد فتتحد!».

* في فاتح أيلول ١٩٣٩ م اندلعت الحرب بين ألمانيا وبين إنكلترة وفرنسة بسبب هجوم ألمانية على بولونية، بعد مؤتمر ميونيخ الذي عقد بين هتلر مستشار ألمانيا وبين تشمبرلن رئيس وزراء بريطانية وسرعان ما اصطلت بنار الحرب جميع الدول الأوروبية تقريباً. في ذلك الحين كان المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان غبريال بيو.

* بحجة الحرب أصدر بيو قراراً بوقف الدستور في لبنان واسترد الفرنسيون ما كان في لبنان من شكليات الحكم الوطني.

* في أوائل أيار ١٩٤٠م اجتاح الجيش الألماني فرنسة واحتل باريس في الشهر التالي، فتسلم الماريشال بيتان الحكم في فرنسة وجعل بلدة فيشي مقراً لحكومته.

* في حزيران ١٩٤١م تقدمت القوات الإنكليزية المرابطة في فلسطين لاحتلال سورية ولبنان. ولما قاومها الجنرال دانتز المفوض السامي الفرنسي في لبنان، ضربت طائراتها بيروت بالقنابل محدثة بعض الخسائر في الأرواح والممتلكات.

* اتصل رياض بك الصلح وهنري فرعون بألفرد نقاش الذي كان رئيساً للجمهورية اللبنانية وطلبا إليه مراجعة الجنرال دانتز لحماية بيروت من العمليات الحربية التي وصلت إلى الدامور واعتبارها بلدة مفتوحة فقام ألفرد نقاش بنقل هذه الرغبة إلى الجنرال دانتز، ولكن هذا أصر على متابعة الحرب في كل مكان لمنع تقدم الإنكليز. بيد أن الموقف الحربي تطور بسرعة لصالح الإنكليز واضطر الفرنسيون الموالون لحكومة فيشي أن يعقدوا الهدنة مقابل السماح لهم بمغادرة البلاد مع أسلحتهم الخفيفة.

* في ٢٨ تموز دخلت القوات الإنكليزية إلى بيروت وكان معها بعض الجنود الفرنسيين الذين انضموا إلى الجنرال ديغول عندما أعلن انشقاقه عن حكومة فيشي وترأس ما كان يسمى «حكومة فرنسة الحرة» التي كان مقرها في مدينة الجزائر.

* في نفس اليوم غادر الجنرال دانتز بيروت حاملاً معه جميع احتياطي سورية ولبنان من الذهب الذي كان موجوداً في مصرف سورية ولبنان خلافاً للمادة ١٧ من اتفاقية الهدنة التي وقعها باسم الجيش الإنكليزي هنري ميتلاند ولسن ودي فريديلهاك باسم قوات فيشي وتقول هذه المادة:

«إن النقود ووسائل الدفع الأخرى المتداولة أو المحفوظة في المصارف أو في الصناديق العمومية لا يلحق بها أي ضرر أو تحويل».

* بعد أن استتب الأمر للإنكليز في البلاد جاء الجنرال ديغول إلى بيروت، وقام بجولة في سورية ولبنان اجتمع خلالها بزعماء البلاد للوقوف على رأيهم في مصير بلادهم. وأصدر قراراً بتسميته الجنرال كاترو مفوضاً سامياً لحكومة فرنسة الحرة في سورية ولبنان.

* بادر كاترو فور تسلمه منصبه الرسمي إلى إذاعة بيان أكد فيه رغبة حكومته بإعطاء البلاد الاستقلال بموجب معاهدة تعقد بين فرنسة وبين لبنان في وقت لاحق. والجدير بالذكر أن هذا الاستقلال كان الرابع من نوعه من قبل فرنسا. فلقد سبق أن أعلن الجنرال غورو الاستقلال في أول أيلول ١٩٢٠ عندما أعلن الكيان اللبناني. وفي أيار ١٩٢٦ أعلن مسيو دي جوفنيل الاستقلال عندما أعلن الدستور والنظام الجمهوري في لبنان. وفي تشرين الثاني ١٩٣٦ أعلن دي مارتيل الاستقلال بمناسبة توقيع المعاهدة اللبنانية الفرنسية التي لم يوافق عليها مجلس

النواب الفرنسي في ذلك الحين.

وكان إعلان استقلال لبنان في كل مرة كلاماً في كلام.

• أقر الجنرال كاترو ألفرد نقاش في رئاسة الجمهورية اللبنانية مما أثار غضب الشيخ بشارة الخوري الذي كان يتزاحم مع أميل إدّه على هذا المنصب. ولكن الجنرال كاترو لم يعبأ بهذا الغضب وأعلن «أن مسايرة الشيخ بشارة الخوري تعني مسايرة السياسة الإنكليزية وتهدد مستقبل لبنان الذي أنشأته فرنسة وقدمته للموارنة» وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤١ أعلن استقلال لبنان.

• استقبل الوطنيون بيان الجنرال كاترو بالمعارضة. وفي ٢٠ كانون الأول ١٩٤١ قدم إليه رياض بك الصلح مذكرة قال فيها:

«إن حدث السادس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٤١ لم يحقق مطامح بلادنا الوطنية وهو لم يكتف بأن لا يحقق أمانينا الأكثر شرعية والمعبّر عنها مراراً، بل إنه يمس مصالحنا القومية والسياسية والاقتصادية. وإنه يسوءنا أن تجيء تفسيراتكم للاستقلال نقضاً للوعود العلنية وللتصريحات الرسمية التي كان تفضل بها السادة تشرشل وإيدن والجنرال ديغول وليتلتون وسعادتكم... إن النظام الذي وضعتموه للبنان والقيود السياسية التي فرضتموها تمنعه من أن يساهم في تحقيق الوحدة العربية التي تكلم عنها السيد إيدن وأن ينضم إليها بمطلق إرادته وبدون موافقتكم... فمن أجل ذلك لي الشرف أن أقدّم لسعادتكم هذه المذكرة وأن أقدم نسخاً منها لكل من الحكومات التالية:

١ - الحكومة البريطانية التي ضمنت حقيقة استقلالنا وقدرتنا على أن نجتمع في دولة واحدة.

٢ - حكومة الولايات المتحدة الأميركية التي ما برح رئيسها يؤكد احترامه لحرية الشعوب وتقرير مصيرها.

٣ - حكومة جارتنا الكبرى الجمهورية التركية التي عبرت مراراً بلسان رئيسها فخامة عصمت إينونو رئيس حكومتها آنذاك عن أملها في أن ترى سورية متحدة ترتع بمطلق استقلالها تقوم على حدودها.

٤ - حكومات الدول العربية، أي مصر والعراق والمملكة العربية السعودية التي تربطنا بها روابط عديدة، قومية وسياسية، والتي أهم أهدافها السياسية وحدة واستقلال «الدول العربية».

ولقد علق بعض المؤرخين على هذه المبادرة التي ذكرنا هنا خلاصتها بقوله: «إن رياض كان في ذلك الحين يطلب الاستقلال التام المطلق للبنان ولكنه كان يسعى لضمه إلى اتحاد عربي شامل».

• في ٣١ كانون الأول ١٩٤١ أقيمت حفلة في السراي الكبير على شرف المستر هاميلتون رئيس بعثة سبيرز الذي جاء رسمياً من قبل الحكومة البريطانية ليهنىء الرئيس ألفرد نقاش باستقلال لبنان وألقى خطاباً مكتوباً جاء فيه قوله: «يشرفني ويسرني معاً أن أحمل لفخامتكم تهاني حكومة جلالة الملك بمناسبة إعلان كاترو استقلال لبنان يوم ٢٦ تشرين الثاني الذي اعترفت به رسمياً برقية جلالة الملك جورج السادس لفخامتكم يوم ٢٧ كانون الأول واسمحوا لي أن أقدم تهنئتي الشخصية بمناسبة استلامكم مهام منصبكم الخطير».

• في يوم الخميس ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢ م حضر لسراي الحكومة المستر وَدْزُورس الذي تعين وزيراً مفوضاً للولايات المتحدة الأميركية، وقدم لألفرد نقاش رئيس الجمهورية بحضور وزير الخارجية أوراق اعتماده وألقى خطاباً أيّد فيه استقلال لبنان وأعلن تأييد بلاده للدولة اللبنانية المستقلة.. وبالرغم من اعتراف كل من الولايات المتحدة الأميركية وبريطانية باستقلال لبنان وفقاً لتصريح الجنرال كاترو يوم ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤١، فإن مصر التي كان على رأس حكومتها مصطفى النحاس باشا لم تسارع إلى الاعتراف بهذا الاستقلال، وفي تفسير هذا الموقف المصري يقول الجنرال كاترو في مذكراته: «لما التقيت بالنحاس باشا بمصر في ٢٥ آذار ١٩٤٢ سألته عن سبب تأخيره بالاعتراف باستقلال لبنان مع أنه اعترف باستقلال سورية فأجابني: إن الاستقلال لا يكون صحيحاً إلا إذا كان منبثقاً عن إرادة الشعب بواسطة الانتخابات، ثم أشار من طرف خفي وبلباقة كلية: إن أفضل من يمثل الشعب اللبناني هم الشيخ بشاره الخوري وأصحابه».

• في ٣١ آب ١٩٤٣ جرت الانتخابات في لبنان وكان الصراع فيها شديداً بين الكتلة الوطنية التي يرأسها أميل إدّه وهي موالية للفرنسيين ومؤيدة لانعزال لبنان عن البلاد العربية، وبين الكتلة الدستورية التي يرأسها الشيخ بشاره الخوري وهي موالية للإنكليز ومؤيدة لتعاون لبنان مع البلاد العربية. وكان النجاح يومئذٍ للكتلة الدستورية.

وفي تبرير الكتلة الوطنية لفشلها ونجاح خصومها راحت تقول: «إن البريطانيين وعلى رأسهم سبيرز لم يدخروا وسيلة إلا واستخدموها لإنجاح مرشحي الدستوريين وإن رئيسهم الشيخ بشاره الخوري تناول أموالاً طائلة من مصطفى النحاس باشا أثناء وجوده بمصر للإنفاق على الانتخابات وأنه وعد مقابل ذلك بتوجيه سياسة لبنان توجيهاً عربياً».

ولكن الكتلة الدستورية ردت على هذا الاتهام ببيان أذاعته في حينه جاء فيه: «إنهم ينتهزون هذه الفرصة ليعلنوا مجدداً

مبادىء الكتلة الدستورية المعروفة وهي المحافظة على استقلال لبنان التام وسيادته الكاملة بحدوده الحاضرة وكيانه الحالي وعلى دستوره والحياة النيابية الحقة المنبثقة من ذلك الدستور».

• في ٢١ ايلول سنة ١٩٤٣ انتخب النواب الشيخ بشاره الخوري رئيساً للجمهورية اللبنانية بعد استعمال المال في التغلب على معارضة رجال الإكليروس الماروني لهذا الانتخاب إذ أن هؤلاء كانوا يميلون إلى أميل إده. وفي هذا الصدد كتب سعيد فريحة في مجلته «الصياد» تحت عنوان «أسرار العهد السابق»: «كنت وقتئذٍ في قصر الرئيس بعاليه فاندفعت مع عشرات الأصدقاء والأشقاء والأقرباء لمعانقته مهنئين. وكان الشيخ بشاره يبادلنا العناق والتهاني وهو شارد الذهن يفكر في الخطوة التالية، أو قل في الأمنية التي طالما ناضل وكافح من أجل تحقيقها، وأعني الرئاسة الأولى في لبنان، وانحنى جانباً ليقول: سأعرّج عليك صباحاً لنمضي معاً إلى بيروت فالمعركة الكبرى بدأت الآن، ولما اجتمعت به في الغد بسيارته حانت مني التفاتة فرأيت زهاء عشرين ظرفاً إلى جانبي فقلت:

- ما هذا؟ منشور، فابتسم الشيخ وقال:
- كلا بنكنوت.

وقرأت على الظرف الأول اسم غبطة البطريرك، وعلى الثاني اسم أحد المطارنة، فقلت للشيخ بشاره:

- ألم تنته من الدفع بعد؟
قال:

- جرت العادة أن ندفع لرجال الدين شيئاً من المال مقابل إقامة قداس أو عدة قداديس، وقد رأيت بمناسبة ابتداء معركة رئاسة الجمهورية أن اتبع هذه العادة التقليدية...

• بادر الشيخ بشارة الخوري بعد انتخابه رئيساً للجمهورية إلى تكليف رياض بك الصلح رحمه الله بتأليف أول حكومة استقلالية في لبنان. ولقد تألفت هذه الوزارة على النحو التالي:

رياض الصلح - رئيساً للحكومة ووزيراً للمالية.
كميل شمعون - وزيراً للداخلية والبريد والبرق.
سليم تقلا - وزيراً للخارجية والأشغال العامة.
عادل عسيران - وزيراً للتموين والتجارة والصناعة والاقتصاد الوطني.
الأمير مجيد أرسلان - وزيراً للدفاع الوطني والزراعة والصحة.

وفي الجلسة التي عقدها مجلس النواب للاستماع إلى بيان الحكومة ومن ثم إعطائها الثقة على أساسه، أعلن رياض بك الصلح بوصفه رئيساً للحكومة اللبنانية: «إن لبنان وطن ذو وجه عربي يستسيغ الخير النافع من حضارة الغرب.. إن إخواننا في الأقطار العربية لا يريدون للبنان إلا ما يريده أبناؤه الأباة الوطنيون، نحن لا نريده للاستعمار إليهم ممراً فنحن وهم إذن نريده وطناً عزيزاً مستقلاً سيداً حراً».

• في يوم ٢٠ و٢٥ تشرين الأول ١٩٤٣ تسلم هيللو - المندوب السامي الفرنسي، بالتتابع من الحكومة اللبنانية ومن الحكومة السورية إنذاراً مماثلاً في معناه تطلبان فيه، استناداً إلى مبدأ الاستقلال ونص الدستور «تحويل المندوبية الفرنسوية إلى تمثيل ديبلوماسي، وأن تعيد المندوبية لهذه الحكومات جميع مظاهر السيادة والصلاحيات التي ما زالت محتفظة بها».

• يوم الإثنين ٨ تشرين الثاني انعقد مجلس النواب في الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر، وتغيب عن هذه الجلسة الدكتور أيوب ثابت والسيد أحمد الحسيني والنائب الأرمني ديركالوسيان، تهرباً من الموافقة على تعديل الدستور. وعند التصويت على التعديل طالب النواب: أميل إده وجورج عقل وأسعد البستاني وأمين السعد، وجميعهم من الكتلويين باحالة التعديل المطلوب على لجنة لدرسه وتأجيل التصويت عليه ريثما تقرره اللجنة، ولكن الأكثرية الساحقة من النواب رفضت الاقتراح وصدق التعديل ٤٨ نائباً بينما انسحب أميل إده من الجلسة احتجاجاً على هذا التعديل وكذلك فعل زملاؤه الكتلويون الذين ذكرناهم من قبل.

• والجدير بالذكر أن محضر تعديل الدستور أخفاه النائب جوزيف ضو تحت أحد شمعدانات كنيسة الكبوشية حتى لا تطاله يد الفرنسيين وتمزقه. وبقي في مكانه إلى ما بعد الإفراج عن الزعماء المعتقلين في راشيا.

• في الساعة الثالثة بعد منتصف ليلة الخميس في ١١ تشرين الثاني أقدمت العساكر الفرنساوية على اعتقال الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح وعادل عسيران وسليم تقلا والشيخ عبد الحميد كرامي، حيث وضع الجميع في قلعة راشيا وأبقوا فيها طيلة ١١ يوماً ثم أفرج عنهم بعد أن عمت البلاد اللبنانية الاضطرابات وكانت مطالب الشعب اللبناني منصبة على الإفراج عن الزعماء المعتقلين وتسليمهم حكم البلاد دون أي تدخل من جانب الفرنسيين.

• في أثناء وجود الزعماء في قلعة راشيا تألفت حكومة وطنية مؤقتة من الوزراء في الوزارة الصلحية وكان تأليف هذه الحكومة باتفاق رأي أهل الحل والعقد من السياسيين اللبنانيين الذين اجتمعوا في بيت آل سلام في محلة المصيطبة ببيروت، والجدير بالذكر أن هذا البيت البيروتي العريق كان قطب الرحى للحركة

الوطنية خلال الأيام الصعبة التي عاشتها بيروت تحت وطأة العنجهية العسكرية الفرنسية آنذاك.

• بعد فشل استخدام الفرنسيين لأميل إده في التغلب على تمسك الشعب اللبناني بحكومته الشرعية برياسة الشيخ بشارة الخوري. وعلى أثر تدخل الديبلوماسية العربية والأجنبية في سبيل العودة بالبلاد إلى حياتها الطبيعية تحت ظل الاستقلال وفق البيان الذي ألقاه الرئيس رياض الصلح في جلسة الثقة. أفرج عن كل الزعماء المعتقلين في راشيا، واستأنف الوزراء جميعهم أعمالهم الرسمية كما كانوا في المناصب الموكولة إليهم، وكان الإفراج عن أولئك المعتقلين يوم ٢٢ تشرين الثاني الذي اعتبر من حينها عيداً وطنياً تعطل فيه الدوائر الرسمية وتحتفل به الحكومة وكذلك الشعب اللبناني.

دراسة احصائية عن عدد سكان بيروت عبر العصور وفقاً لطوائفهم الدينية

في أيام الرومان

قال الأب لامنس اليسوعي، في مجلة المشرق ـ المجلد ٣٠ ص ١١ تحت عنوان «سورية في زمن الفتح العربي: شعوبها، لغاتها، أديانها»:

ليس لدينا ما يبرهن أن دمشق وبيروت تجاوزتا على عهد الرومان الخمسين ألفاً.

في أيام العرب والفترة الصليبية

ليس لدينا معلومات دقيقة عن عدد سكان بيروت في أيام العرب عند الفتوح الإسلامية الأولى. وكذلك، فإننا نجهل حقيقة هذا العدد خلال وقوعها تحت الاحتلال الصليبي.

على أن الرحالة اليهودي بنيامين دي توديل (Benjamin de Tudel) زار بيروت سنة ١٠٧٠ م وقال إنه وجد فيها خمسين نسمة من اليهود.

في أيام المماليك

قالت مجلة المشرق ـ المجلد ٢٤ ص ١١٦:

قلّ عدد أهل بيروت إلى عشرة آلاف، لما أصابها من الأوبئة، ذكر جلال الدين السيوطي في مقامته الطاعونية، طاعون السنتين (٨٩٧ ـ ٨٩٨ هـ/ ١٤٩١ ـ ١٤٩٢ م) الذي عمّ القطرين المصري والشامي وفتك بأهل بيروت، فذكّرهم بطاعون سابق، وصفه ابن الوردي في رسالته «النبا عن الوبا» ـ نسخة برلين ـ روى فيها ما ألمَّ بأهل بيروت من النكبات.

في أيام العثمانيين،
خلال عهد فخر الدين حتى حكم أحمد باشا الجزار

قالت جريدة المشرق ـ المجلد ٣١ ص ٧٢٧، ومجلة المقتبس ـ المجلد ٨ ص ٥٥٧:

لم يكن في بيروت، أيام الأمير فخر الدين المعني، في القرن السابع عشر وأيام أحمد باشا الجزار، في القرن الثامن عشر للميلاد، إلا ستة آلاف نسمة.

في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد

قال الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه «بيروت، تاريخها وآثارها» ص ٩٥:

وقفنا في سياحات بعض الفرنج على إحصاء أهل بيروت سنة ١٨٢٠م فإذا هو يبلغ ثمانية آلاف نفس.

في العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي

قال الأب لويس شيخو، في كتابه السابق، ومجلة المقتطف ـ المجلد ٦ جزء ٤ الصادرة في أيلول ١٨٨١ م.

أفادنا عن إحصاء أهل بيروت المسيو غيز (Guise) قنصل فرنسا ببيروت سنة ١٨٣٢، أنهم بلغوا خمسة عشر ألف نسمة موزعين كما يلي:

٧٠٠٠ مسلمون.
٨٠٠ دروز.
٣٥٠٠ نصارى (موارنة، ملكيون، سريان وأرمن).
٤٠٠٠ روم أرثوذكس.
٢٠٠ يهود.
١٠٠ إفرنج.

في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد

قالت مجلة المقتطف ـ المجلد ٦ جزء ٥ الصادر سنة ١٨٨١م.

إننا لم نطلع على إحصاء مدقق لسكان بيروت ولا نظن أنها أُحصيت كذلك، ولكن بعض المؤلفين قدّروا عدد سكانها بثلاثين ألفاً سنة ١٨٥٢ م.

في أوائل النصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي

قال سليمان بن خليل جاويش في كتابه «التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية» ص ٨٠، طبع بيروت سنة ١٨٧٣م.

وقبل عام ١٨٥٢ م، كان عدد سكان بيروت أربعين ألفاً.

في سنة ١٨٦١م

جاء في كتاب «لبنان بعد الحرب (١٩١٤ - ١٩١٨ م)» ألّفه أوغست أديب وعرّبه الشيخ فريد حبيش سنة ١٩١٩م. جدول إحصائي يدل على سكان أقاليم لبنان (وفق الخريطة التي وضعتها هيئة أركان حرب الحملة الفرنسية التي جاءت إلى سورية سنتي ١٨٦٠ و١٨٦١م) ص ١٢٧:

مدينة بيروت:

١٨٠٠٠ المسلمون.
١٣٥٠٠ الروم الأرثوذكس.
١٠٠٠ الموارنة.
— المتاولة (الشيعة).
٢٠٠ الدروز.
٣٥٠٠ الروم الكاثوليك.
١٠٠٠ اليهود.

وقالت مجلة المقتطف - المجلد ٦ جزء ٤، أيلول سنة ١٨٨١ م:

إن عدد سكان بيروت ما بين سنتي ١٨٦٠ و١٨٦١ م، حسب تقديرها يتراوحون ما بين ٦٠٠٠٠ و٧٠٠٠٠ نسمة.

إلا أن، كتاب «لبنان يواجه تنميته» وهو تقرير بعثة إرفد الذي نشرته المديرية العامة للإحصاء سنة ١٩٦٣ م قالت: إن عدد سكان بيروت سنة ١٨٦٠ م كان عشرين ألف نسمة فقط. (راجع ص ٣٧).

في الثلث الأخير من القرن الماضي

ذكر سليمان بن خليل جاويش، صاحب كتاب «التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية» ص ٨٠:

أن عدد سكان بيروت كان سنة ١٨٧١م يقدر بحوالى ثمانين ألف نسمة، بينما كان في السنة ١٨٦٢م حوالى خمسين ألف نسمة.

في سنة ١٨٨٤م

جاء في كتابه «نفحة البشام في رحلة الشام» لمؤلفه الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي - طبع بمصر سنة ١٣١٩ هـ ص ٤٦:

أن عدد سكان بيروت في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كان حوالى مائة ألف نسمة، ثلثاهم من النصارى والثلث الآخر مسلمون.

في سنة ١٨٨٥م

ذكرت مجلة «المقتبس» الدمشقية لصاحبها محمد كرد علي، تحت عنوان «أفكار وآراء» المجلد ٨ ص ٥٥٧:

«أن عدد السكان في بيروت يبلغ مائة ألف نسمة». ولم تبين المجلة المذكورة نسبة المسلمين إلى النصارى في ذلك الحين.

في سنة ١٨٨٩م

ذكرت جريدة «الجامعة» لصاحبها أمين الخوري، في عددها الصادر سنة ١٨٨٩ م ص ٢٨:

أن سكان بيروت يبلغون حوالى مائة وسبعة آلاف وأربعماية نسمة موزعون بالنسبة إلى طوائفهم الدينية على النحو التالي:

٣٣٠٠٠ مسلمون.
٣٠٠٠٠ روم أرثوذكس.
٢٨٠٠٠ موارنة.
٩٠٠٠ روم كاثوليك.
١٥٠٠ لاتين.
١٥٠٠ يهود.
٩٠٠ إنجيليون (بروتستانت).
٥٠٠ سريان كاثوليك.
٤٠٠ أرمن كاثوليك.
٣٠٠ دروز.
٣٠٠ طوائف متفرقة.
٢٠٠٠ غرباء وسياح.

في سنة ١٨٩٥م

ذكرت جريدة «ثمرات الفنون» لصاحبها الشيخ عبد القادر القباني، في عددها ١٠٦٠ الصادر يوم ١٣ رجب الفرد سنة ١٣١٣ هـ (كانون الأول ١٨٩٥م):

إن سكان ولاية بيروت - من اللاذقية حتى القدس الشريف، يبلغون ٣٠٣٧٣٩ نسمة موزعون بالنسبة إلى طوائفهم على النحو التالي:

٢٤٥٨٠٨ مسلمون.
٢٩٢٨١ روم أرثوذكس.
٢٤٣٥٦ روم كاثوليك وموارنة وأرمن وكلدان وسريان.
٤٠١١ يهود.

٢٧٣ أرمن كاثوليك.
٢ أقباط.

أما مدينة بيروت بالذات، فيبلغ عدد سكانها ٦٨٤٥٥ وهم موزعون كالآتي:

٤٦٩٥١ مسلمون.
٨٢١٧ روم أرثوذكس.
١٢٣٨٢ طوائف نصرانية.
٨٨٩ يهود.
١٤ أرمن.
٢ أقباط.

في سنة ١٩٠٣ - ١٩٠٦م

جاء في مجلة «الهلال» الصادرة في مصر المجلد ١٢ جزء ١ ص ٩، وفي مجلة المقتطف، عدد فبراير سنة ١٩٠٦ م ص ١٧٦ - ١٧٧:

إن عدد سكان بيروت ما بين سنتي ١٩٠٣ و١٩٠٦م يبلغ حوالى مائة ألف نسمة، وأنه لولا مهاجرة أهلها إلى أميركا وأُستراليا في الأعوام الأخيرة، لزاد عدد السكان في هذه المدينة على أضعاف ما هم عليه الآن.

في سنة ١٩٠٨م

ذكرت جريدة «الإقبال» لصاحبها الشيخ عبد الباسط الأنسي الصادرة في ٥ تشرين الثاني ١٩٠٨ م، عدد ٢٦٧:

إن سكان بيروت يبلغون حوالى ١٣٢٠٠٠ نسمة تقريباً.

في سنة ١٩١٠م

قالت مجلة «الهلال»، لصاحبها جرجي زيدان - المجلد ٢٧ ص ١٠١:

يُقَدِّرون عدد سكان بيروت اليوم بنحو مائة وخمسين ألف نسمة.

في سنة ١٩١٤م

جاء في كتاب «لبنان بعد الحرب»، لمؤلفه أوغست أديب، الترجمة العربية عن الفرنسية ص ١٣٠:

سكان بيروت يبلغ عددهم ١٣٠ ٠٠٠ نسمة موزعون بالنسبة لطوائفهم على النحو التالي:

٣٩ ٠٠٠ مسلمون.
٣٨ ٠٠٠ روم أرثوذكس.
٣١ ٠٠٠ موارنة.
١٠ ٠٠٠ روم كاثوليك.
— متاولة (شيعة)
— دروز
١٢٠٠ طوائف متفرقة (أقليات).

في سنة ١٩٢١م

جاء في مجلة «العرفان» الصادرة في صيدا لصاحبها الشيخ أحمد عارف الزين، بتاريخ رجب ١٣٤٠ هـ (آذار سنة ١٩٢٢): أنه وفقاً للإحصاء الذي أُجري بلبنان الكبير سنة ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) بلغ عدد سكان بيروت هو الآتي:

٣٢٨٨٢ إسلام سنة.
٣٢٧٤ إسلام شيعة.
١٥٢٤ دروز.
١٧٧٦٣ موارنة.
١٢٦٧٢ كاثوليك.
٥٤٤ بروتستانت.
٤٩٠٧ طوائف متفرقة (أقليات).

أما مجلة «المعارف» في عددها الصادر في أيار ١٩٢٢ المجلد ٥، عدد ٥ فقالت: بلدية بيروت، يحدها شرقاً نهر بيروت وجنوباً الحدود القديمة بين بيروت ولبنان القديم، بخط يمتد شمالي فرن الشباك إلى البحر المتوسط. أما عدد سكانها فبلغ ٧٧٨٢٠ منهم:

١٧٧٦٣ موارنة.
٣٢٨٨٢ سنيون.
٣٢٧٤ شيعة.
١٢٦٧٢ أرثوذكس.
١٥٢٢ دروز.
٤٢٥٦ كاثوليك.
٦٤٢ بروتستانت.
٤٩٠٧ طوائف متفرقة.

غير أن كتاب لبنان يواجه تنميته (تقرير بعثة إيرفد) ذكر أن عدد سكان بيروت سنة ١٩٢٢ كان ٦٠٠٠٠ نسمة، بما فيهم الأجانب.

في سنة ١٩٢٥م

قالت مجلة «العرفان»، في عددها الصادر في أيار ١٩٢٥، المجلد ٨:

أعلنت الصحف عدد نفوس المحافظات فكانت كما يلي:

المجموع: ٩٦٤٢٦ منهم:

٤٢٥٥٢ مسلمون (سنة وشيعة).

٥٣٨٧٣ نصارى (مذاهب مختلفة).

في سنة ١٩٣٢

قالت جريدة «الفوائد» في عددها الأول الصادر في شهر شباط ١٩٣٢:

انتهت محافظة بيروت من جمع جداول الإحصاء في مناطق العاصمة وقد بلغ عدد سكان المدينة كما يلي:

٥١٩٠٦ مسلم سني.
١١٣٧٩ مسلم شيعي.
١٢٣٥ دروز.
٢٨٩٩٠ موارنة.
٨٣٤٧ كاثوليك.
١٩٤٣ بروتستانت.
٣٦٨٤ أرمن أرثوذكس.
١٧٤ سريان أرثوذكس.
٢١٦ سريان كاثوليك.
٥٨٥٠ لاجئون بلا جنسية.

في سنة ١٩٤٥

جاء في كتاب «المسلمون في العالم اليوم» تأليف الدكتور عبد الرحمن زكي، صدر عن مكتبة النهضة بمصر سنة ١٩٥٨ جزء ٣ ص ١٨:

إن عدد سكان بيروت موزعون على الطوائف كما يلي:

٥٩٥٩٣ سنة.
١٠٣٧٩ شيعة.
١٩٢٦ دروز.
١٥٤٠٤ موارنة.
٥٨٤٠ كاثوليك.
٣٧٦٠ بروتستانت.
٢١٩١ لاتين.
٣٦٢٦٤ أرمن أرثوذكس.
٤٠٨٩ سريان كاثوليك.
٢٠٧٠ سريان أرثوذكس.
٥٠٢٢ يهود.
٩٧٤ خلديون (؟).
٤٥٢ طوائف مختلفة.

في سنة ١٩٦١

جاء في «المجموعة الإحصائية اللبنانية لعام ١٩٦٣» الصادرة عن وزارة التصميم العام ـ مديرية الإحصاء المركزي ـ بيروت ـ لبنان ص ٢٨، تحت عنوان «حركة السكان» أن عدد السكان المسجلين في بيروت حتى ١٩٦١/١٢/٣١ م هو ٢٩٨١٢٩ نسمة.

في سنة ١٩٦٢

في كتاب «لبنان يواجه تنميته»، ص ٣٧:

كان نمو حركة التجميل في بيروت بالغ السرعة منذ مائة عام: ففي سنة ١٨٦٠ كان ثمة ٢٠,٠٠٠ نسمة يشغلون ١١٢ هكتاراً وفي سنة ١٩٢٢ كان ثمة ١٦٠,٠٠٠ نسمة يشغلون ٥٥٠ هكتاراً وفي سنة ١٩٦٢ كان ثمة حوالى ٧٠٠,٠٠٠ نسمة (بيروت والتجمعات السكنية البيروتية) يشغلون ١٦٤٠ هكتاراً، أي أن ثمة ما يعادل ٣٠٪ من السكان يعيشون في العاصمة.

في سنة ١٩٦٤

قالت جريدة «النهار» في عددها الصادر في ٥ نيسان ١٩٦٧ عدد ٩٦١١: أُحيل إلى الجريدة الرسمية للنشر المرسوم رقم ٧٠٠٨، ويتضمن عدد المدونين في سجلات الإحصاء لغاية أول كانون الثاني ١٩٦٥ م، وقد تبين من جدول الإحصاء ما يلي: (بيروت).

اسم الحي	ذكور	إناث
الأشرفية	١١٢٩١	١١٠٩٤
الباشورة	١٥٧١٤	١٥٧٩٢
دار المريسة	٤٥٥٥	٤٧٧٦
رأس بيروت	١١٧٤٦	١١٦٢٦
الرميل	١٤١٢٥	١٤٣٥٢
زقاق البلاط	١٣٤٨	١٣٢٨٨
الصيفي	٥٥١٤	٧٥٩٢
المدوّر	٢٠٤١٥	٢٠٨١٩
ميناء الحصن	٦٧٩٩	٧٨٢٥
المرفأ	٣٧٢١	٣١٩٣
المزرعة	٢٥٢٩٧	٢٥٦٢٨
المصيطبة	٢٢٧٩٧	٢٢٣٨٨
المجموع	١٦٥٤٦٢	١٦٥٥٣٣

ومجموع السكان العام ببيروت، المسجلين فيها ٣٣٠٩٩٥ نسمة.

بيروت كما رآها الرحالة الأجانب

عندما يتناول الموضوعُ الحديثَ عن بيروت كما رآها الرحّالون الأجانب، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن، ما جاء في هذا الصدد عبر المذكرات التي دوّنها هؤلاء الرحالين أو الحجاج النصارى الذين مروا في هذه المدينة وهم في طريقهم إلى البلادالمقدسة في فلسطين، أقالها اللّه من عثرتها وردها لأهلها العرب، دون أن تكون هي بالذات مقصداً لهم أو غاية في ترحالهم. وليس من ريب في أن هذا الاتجاه الذهني له ما يبرره في الواقع، لأن ما تركه لنا هؤلاء السياح الذين مروا ببلدنا رحالين يرضون فضولهم أو حجاجاً يمارسون تقواهم، يعتبر في الواقع البصمات الأكثر دلالة لانطباعات الأجانب عن هذا البلد، لا سيما في الفترات الزمنية التي تعاقبت عليه بعد التطورات السياسية والعسكرية والاجتماعية على أثر دخوله في جملة العالم الإسلامي نتيجة للفتوحات العربية في القرن السابع للميلاد.

بيد أنه لا بد من القول بأن الذي حصل بالفعل، هو أن بيروت استطاعت أن تلفت أنظار الأجانب إليها منذ القدم، وحملت عدداً من رحاليهم على أن يجعلوها ضمن برنامج سياحتهم الشرقية، حتى إذا قفلوا عائدين إلى مواطنهم لم يبخلوا عليها ببضع صفحات من مذكراتهم سجلوا فيها الأثر الذي تركته هذه المدينة في نفوسهم.

وقد حدثنا الكاتب «ديمتري نقولا»[1] عن عدد من الرحالة القدماء، زاروا فينيقيا، وبيروت منها طبعاً، وكتبوا عنها أمثال:

بلينوس، هيرودوت، سترابون. أوسابيوس، ناشينوس، يوسانياس، فيلوستراتوس، لوشيانو، ديونسيوس اليوناني وغيرهم.

ولعل أول ما طربت له أسماع البيروتيين من الكلمات التي قالها الرحالة الأجانب عن مدينتهم هي تلك التي دوّنها الشاعر اليوناني القديم «نُنوز» الذي عرفته بيروت زائراً بارزاً حوالى القرن الرابع قبل الميلاد.

فلقد جاء هذا الشاعر إلى بيروت فبهره ما وجده في طبيعتها من تناغم وانسجام حيث يتلاقى السهل بالجبل بالبحر، كما يتلاقى مجاذف البحّار بمحرات الفلاح بقيثارة الراعي، كل ذلك في جو يعبق بالفتنة والسحر يكمل بعضه بعضاً دون أي نشاز.

قال نُنوز:

«... في هذا المكان، ينفخ راعي البقر شبابته على شاطىء البحر المرمل، فيجتمع النوتي كما يجتمع راعي الماعز. والصياد إذ يجر شبكته من بين المياه يخط الممرات ثلمه فيصل به إلى ملقى المجاذيف التي تشق الأمواج. وفي وسط غابة قرب البحر، يجتمع الملاحون فيتحادثون مع الحطابين. بينما يتراجع هدير المياه مع خوار البقر وحفيف أوراق الشجر!.. إنه مشهد الجبل والأشجار والملاحة والغابة!...»[2].

على أنه، إذا كانت بيروت الفينيقية قد أخذت بلب هذا الشاعر اليوناني وسحرته بتناغمها المتكامل ما بين هدير الموج وحفيف أوراق الشجر وأغاني قيثارة الراعي، إن بيروت هذه لم تستطع أن تنتزع من شبابة سائح يوناني معاصر لنُنوز يدعى سيلاكس (Sylax) إلا كلمات ثلاثاً لم يزد عليهنّ حرفاً واحداً..

فلقد زار «سيلاكس» المذكور فينيقية إبان القرن الرابع قبل

(١) المقتطف سنة ١٩١٧: «مصر منذ أربعماية عام».

(٢) المشرق مجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥: الحياة في بيروت قبل الإسلام، لامنس: عن نُنوز، ملحمته في ديونيسوس، النشيد ٤٠ الأبيات ٣٤٠.

الميلاد وتجول في مدنها الساحلية واجتاز بيروت، ولما كتب مذكراته عن سياحته وجاء على ذكر بيروت وصفها بهاتين الكلمتين: «إن بيروت: مدينة ومرفأ»(١) ثم لم ينبس بعد عن مدينتنا ببنت شفة!...

ولقد حافظت بيروت على سمعتها كمدينة نظيفة وجميلة وجذابة على مر العصور. وها نحن نجد «ليبانوس» الخطيب الأنطاكي في أوائل الزمان الذي ظهر فيه النبي عيسى بن مريم عليه السلام يقول: «بيروت مدينة فينيقيا الفائقة الجمال والفائقة الأناقة والكلية الكمال»(٢).

بيروت على أثر الزلزال سنة ٥٥٦

إن الشاعر الأندلسي الذي بكى المجد العربي وهو يتقهقر تحت وطأة تقدم الإسبان وقال:

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان
فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان

لكأنه عنى بهذا القول أيضاً بيروت التي ما إن بلغت أوج مجدها وذروة إغرائها واكتمال أناقتها في أواسط القرن السادس للميلاد حتى فاجأتها النازلة الكبرى سنة ٥٥٦ بالزلزال القاتل الذي أحال صروحها أنقاضاً وسكانها أشلاء وترابها رماداً!...

«فبينما هذه المدينة سادرة في رفاهيتها، مطمئنة إلى ما انتهت إليه من استقرار ونضارة، وارتفاع كعبها فيما احتوته من مؤسسات الحقوق والعلوم وسائر ألوان المعرفة، وبينما هي تتابع سبيلها عارجة بخطى ثابتة في مراقي الخلود، رافلة بحلل سابغة من المنشآت الرائعة، والمباني السامقة، والنشاط الذي لا يعرف الملل ولا الفتور.. بينما بيروت كذلك، إذا بالأرض تفور كالتنور وتدمير مضطربة تحت الأقدام المطمئنة لتجعل من ظهرها بطناً ومن بطنها ظهراً، وأهلها، أو ما تبقى من أهلها، فإن الله أبدلهم الحزن المقيم بالفرح العميم، حتى ليحسب من يراها ويراهم، بعد المصاب والجلل والخطب المهول، كأنها وكأنهم لم يغن أي منهما بالأمس.

وكأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

والنكبات إذا عرفت سبيلها إلى قوم مرة فإنها ما تلبث أن تعيد عليهم الكرة، وهكذا توالت في حينها على بيروت الدوائر وتواطأت على سكانها دواعي الأشجان وألوان المتاعب، فإنها ما كادت تنهض مما حاق بها من عثرة، وتمسح عن كيانها ما أرهقه من قترة، حتى عادت إلى ما هو أشد نكالاً وأبلغ في الإيلام عذاباً(٣).

شاعر سائح يبكي بيروت التي حطمتها الزلازل سنة ٥٦٦

في تلك الأيام الحوالك، قدم إلى بيروت المحطمة زائراً وسائحاً الشاعر اليوناني «أغاثيوس»(٤) فلما أن رأى «ظئر العلوم وأم الشرائع ومرضعة الفقه»(٥) صريعة تحت وطأة الزلازل المتعاقبة المميتة تنعي أبناءها ومن بناها، لم يتمالك نفسه أن يقول متأثراً ومتحسراً:

«... ذوت زهرة فينيقيا مدينة بيروت بمصاب الزلزال الرهيب، وزال عنها جمالها الرائع، ودُكت أبنيتها الشامخة، البديعة المنظر، المحكمة الهنداس، فتقوضت عن آخرها ولم يبق منها سوى الردم والخراب، وهلك تحت أنقاضها جمع غفير من الأهالي والأجانب المستوطنين فيها، وأذاقت كأس المنية، نخبة من الشبان المتقاطرين إليها لدرس الحقوق في معاهدها الرومانية الذائعة الصيت، التي كانت لها فخراً ولمفرقها تاجاً، تباهي به أعظم المدن أخواتها!...».

وتابع هذا السائح الشاعر المتفجع نفثاته الحرَّى على بيروت، فنظم على لسانها رائعة شعرية مؤثرة قال فيها:

«.. وا أسفاه، إني لمن أشأم المدن وأسوئها حالاً، رأيت جثث أبنائي متراكمة في شوارعي وساحاتي مرتين، في ظلال تسع سنوات رماني إله النار «فولكان» بسهامه المتقدة بعد أن صدمني إله البحر «نبتون» بتياره الجارف! وأسفاه على بهائي الرائع، كيف طمسه الدهر، وأحالني إلى رماد!.. فيا عابري الطريق، ابكوا لسوء حظي، واندبوا بيروت المضمحلة!..»

ومن أواسط القرن السادس للميلاد حتى هزيعه الأخير سنة ٦٠٠ وآثار الزلزال كانت ما تزال ماثلة على ملامح المدينة المتردية في أسمال الدمار والحداد، إلا أن ذلك لم يمنع أحد السياح الذي مر بها يومئذٍ، واسمه «انطونين» المعروف بالشهيد من أن يصفها بالمدينة «الفائقة الجمال» فقد تحدث عنها عذا السائح يومها بقوله:

«... وصلنا إلى المدينة «الفائقة الجمال» بيروت، التي فيها

(١) بيروت، تاريخها وآثارها، الأب لويس شيخو، ص ١٦.
(٢) المشرق مجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ ص ٤٨٧ - لامنس.
(٣) زلازل بيروت بين عامي ٥٥١ - ٥٥٩: (Expositio. Toleus Orbis)
(٤) أوراق لبنانية، يوسف إبراهيم يزبك، المجلد الثاني ص ٥٥.
(٥) بيروت، تاريخها وآثارها: لويس شيخو اليسوعي.

كانت قبل هذه السنين تلك المدرسة الحقوقية الذائعة الصيت... وهي التي استولى عليها الآن الخراب».

وفي هذا الوقت، أي في أواخر القرن السادس للميلاد، زار سورية السائح البليزنسي الشهير (L'Aronyme de Plaisance) وكتب انطباعاته عن سياحته هذه فقال: «... سرنا من أنتارادوس (طرطوس) ومنها انتقلنا إلى تيريريس (أنفة) فإلى بيبلوس (جبيل) بعد أن تركنا طرابلس التي وجدناها خربة بسبب الزلازل التي حصلت على عهد الإمبراطور يوستينانوس، وجميعها تقوضت على سكانها... ثم وصلنا إلى بيريت (بيروت) المدينة الفائقة الجمال التي ازدهرت فيها مؤخراً الدروس العلمية، وهي أيضاً كان الزلزال قد خربها».

بيروت بعد العصور الوسطى

على أثر دخول بيروت في سيادة العرب المسلمين، مرّ عليها حين من الدهر، دون أن تطأها قدم لسائح أجنبي نظراً لطبيعة الظروف السياسية والعسكرية التي عاشتها المنطقة كلها لفترة طويلة امتدت لعشرات بل مئات السنين. ولسنا نعرف أحداً من السياح الأجانب، غير المسلمين، زارها في ذلك الحين.

وعلى الرغم من أن بعض الكتاب المتأخرين من الفرنجة الذين أحصتهم مجلة «التاريخ» الإنكليزية تناولوا موضوع الوفد النصراني الأوروبي الذي زُعم أنه أرسل من قبل الإمبراطور الألماني شارلمان إلى بلاط الخليفة العباسي هرون الرشيد، بالرغم من ذلك، فإن التحقيق التاريخي لا يساعدنا على التأكد من أن بيروت أو غيرها من المدن السورية عرفت، جديًّا، زواراً أو سياحاً أجانب. لذلك فإننا نسمح لأنفسنا بأن نتجاوز هذه الفترة الزمنية الطويلة وأن نعتبرها عقيمة من الرحالين على وجه العموم.

بيروت بقلم السائح خسرو الفارسي

على أن هذا الصمت السياحي الطويل، اخترقه صرير قلم، أقبل على بيروت وسائر بلاد الشام من جهة إيران. ذلك أن أحد الرحالين الفرس، واسمه ناصر خسرو القباديانى المروروزي سافر من بلاده سنة ٤٣٧ هجرية (١٠٣٥ ميلادية) وترك لنا وصفاً طريفاً للبلاد التي مر بها في سورية وفلسطين ومصر وبلاد العرب، خلال رحلة دامت حوالى سبع سنين، إذ انتهت سنة ٤٤٢هـ. وقد علق هذا الرحالة على ما شاهده أثناء تطوافه باللغة الفارسية في أوراق دعاها «كتاب السفر، أو الرحلة (سفرنامه) وقد رسم ما رآه بقلمه من الأماكن المقدسة كالحرمين الشريفين والحرم القدسي، فك الله أسره وأعاده إلى المسلمين، وقام بترجمة هذه الرحلة إلى الفرنسية العلامة شيفر (Charles Shifer) من علماء المشرقيات الفرنسيين سنة ١٨٨١م على نفقة مدرسة اللغات الشرقية بباريس مشفوعة برسم للمؤلف الفارسي الذي رسمه بقلمه كذلك(١).

ومما قاله خسرو عن بيروت في كتابه المذكور:

«... وسرنا من جبيل إلى بيروت. وقد رأيت فيها قوساً من حجر والطريق تحته، وقدرت أن علوه خمسون كزّاً(٢) وسمكه بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطا به إلا بصعوبة. وقد بني على هذه الدعائم حنايا من الصخر الضخم لا تلتئم أجزاؤها بملاط ولا بجبس. وقد قام القوس الأعظم في الوسط. ويزيد علوه على الحنايا خمسين أرشاً(٣). وقدرت أن علو كل حجر من الحجارة التي يتألف منها سبعة أرشات في عرض أربعة، ووزنه نحو سبعة آلاف مَنْ(٤) وقد نقشت جميع هذه الأحجار. وزينت بنقوش بديعة قلما يشاهد مثلها مثيل حتى في الصور على الخشب. ولم يبق من بناء في جوار هذا المصنع. وقد سألت عن ذلك فأُجبت أن هذا البناء كان بناء حديقة فرعون. وأن تاريخه قديم للغاية. وجميع السهل المجاور له تغشاه عمدٌ وسوار وتيجان منقوشة من الرخام النحيت. ومنه المدور والمربع والمسدس والمثمن. والحجر من الصلابة بحيث لا يعمل فيه الحديد. وليس في الجوار من جبل حتى يقال إنه استخرج هذا الحجر منه. وهناك حجر آخر يظهر أنه صنعي. والحديد لا يفله أيضاً...». اهـ.

وإنه ليغلب على ظني أن القوس وما حوله من الأعمدة مما أشار إليه خسرو هو أحد أبواب مدينة بيروت القديمة الذي اشتهر عند أهل القرن الماضي باسم «باب الدركة» وكان يقوم قرب الأعمدة الموجودة اليوم في رأس درج خان البيض بمحاذاة شارع الأمير بشير شمالي اللعازارية. وأما باقي الأعمدة التي صادفها السائح خسرو فقد أشار إليها صالح بن يحيى في كتابه

(١) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق جـ ١ - مجلد ٦ ص ٦٨. وخسرو من أدباء فارس سافر من بلاده سنة ٤٣٧ هـ (١٠٣٥ م) ووصف البلاد التي مرّ بها في سورية وفلسطين ومصر وبلاد العرب وبلاد فارس حتى عاد إلى وطنه سنة ٤٤٢ هـ وقد علق على ما رآه بالفارسية كما رسم بعض المشاهد التي رآها أثناء رحلته بريشته كذلك.
(٢) الكز: مقياس فارسي.
(٣) الأرش: مقياس فارسي.
(٤) المن: من الأوزان الفارسية.

«تاريخ بيروت» حيث قال[1]:

«. . . بيروت مدينة قديمة جدًا يستدل على قدمها من عتق سورها، ومع عتقه فهو محدث عليها، اتخذه الأقدمون من خرائب كانت متقدمة أقدم بمدد كثيرة لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع . . » إلى أن يقول: «. . . ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العمائر القديمة ما طوله قريب من ميلين . . . .» ا. هـ.

بيروت والسياح في أعقاب الحروب الصليبية

ليس لنا في هذا الفصل أن نتحدث عن المؤلفات التي دوّنها كتّاب الفرنجة ممن كانوا مقيمين في الشرق العربي خلال الحروب الصليبية، لأن مثل هذه الكتابات لا تحمل في الواقع ذلك اللون من الانطباعات التي تتكون عادة لدى السياح الذين يقضون مدّة من الزمن في بلادنا ثم يغادرونها قافلين إلى ديارهم الأصلية في الغرب. فالكتّاب الأجانب الذين كانوا خلال الاحتلال الصليبي في الشرق إنما تتميز كتاباتهم بالطابع التاريخي البحت، وهذا ليس لنا أن نعرض له هنا، وإنما يعنينا الآن أولئك الرحالون الغربيون الذين قدموا إلى الشرق بدوافع أخرى ليس لها من قريب أو بعيد علاقة بالأغراض العسكرية التي كانت وراء الحركات الصليبية وما إليها من أهداف استعمارية.

فليس لنا إذن أن نستعرض الآن ما سطره أمثال غليوم المعروف باسم غاليلوس الصوري لأنه شغل في وقت من الأوقات منصب مطران صور[2].

إذن فنحن نتخطى العهد الصليبي في بيروت لنقف قليلاً عند العهد الذي تلاه، وهو العهد المملوكي، وهو العهد الذي شهدت فيه هذه المدينة نشاطاً ملحوظاً للرحالين الغربيين الذين كانوا يقصدون حينئذٍ الأماكن المقدسة في فلسطين، وكانت بيروت في جملة المدن التي مروا بها أثناء طريقهم إلى زيارة موطن النبي عيسى بن مريم عليه السلام، في القدس الشريف وبيت لحم ومدينة الناصرة.

بيروت سنة ١٢١٢ ميلادية

وقبل أن ننتقل إلى بيروت وسيّاحها في العهد المملوكي، فإننا نقف قليلاً عند أحد قصور بيروت الصليبية الذي كان يطل على البحر المحاذي للمدينة من جهتها الشمالية الشرقية لننقل عنه صورة قلمية زاهية تركها لنا السائح أولبريد أولدنبرغ الذي زاره بنفسه سنة ١٢١٢[3].

قال أولدنبرغ:

«. . يمنع البحر ثغر بيروت من جهتها السفلى، مع ما هنالك من الصخور العالية، وتحجبها من الجهة الأخرى خنادق مبلطة تحت حراسة سور متين فيهما عدة أبراج غاية في الشدة تبطل كل الضربات التي يكيلها العدو. . . وكانت هذه الاستحكامات قد استوجبت أشغالاً طويلة، لا سيما وأن نقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والإتقان».

وتابع أولدنبرغ وصف غرف هذا القصر بريشته القلمية البارعة وأنشأ يقول:

(١) تاريخ بيروت: ص ٧. تأليف صالح بن يحيى، تحقيق ونشر الأب لويس شيخو اليسوعي، ط. ثانية المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٢٧. جزء أول قسم ٢ وصالح بن يحيى هو:

«الأمير الكبير العالم المشهور بعلمه وفضله وبعلم الفراسة، صاحب العزم والحزم صالح بن يحيى بن الحسين وهو وحيد زمانه وفائق أقرانه. وقد جمع العلوم في معرفة الكواكب والنجوم والاصطرلاب ونظم الشعر وترتيب التواريخ. وقد كتب تاريخ بيت تنوخ وهو صاحب الغزوات وقد حضر فتح قبرس. «نقلاً عن تاريخ ابن سباط».

(٢) غليوم الصوري: هو الأسقف المؤرخ يقال إنه من أصل إنكليزي وأن أباه نزل بفلسطين زمن الصليبيين. اختلفوا بمولده سنة ١١٣٧ أو ١١٢٧م - كما يقول البارون راي المؤرخ - درس بسورية ثم بباريس وبلغ رتبة رئيس شمامسة في كنيسة صور ثم رئيساً لرهبانية القبر المقدس في القدس.

تعرف إليه الملك الصليبي آموري (Amory) فأُعجب به وأرسله سنة ١١٦٨ في سفارة إلى بلاد الإمبراطور مانويل كومنين في القسطنطينية مع وفد، كان غليوم استاذاً لابن آموري الذي ملك بعد أبيه تحت اسم =

= بودوين الرابع ثم صار أمير سر الدولة فلما مات سنة ١١٧٣ أُسقف صور فريديريك لاروش تولى غليوم مكانه.

وبناء على طلب الملك آموري ألَف غليوم كتابه المسمى (Historia). وقد شارك غليوم في المؤتمر الأسقفي في «لاتران» ثم رجع إلى صور سنة ١١٨٠ وفي تشرين من هذه السنة مات بطريرك القدس، فاتجهت الأنظار إليه ولكنه لم يصل إلى هذا المنصب. . وأخيراً مات مسموماً سنة ١١٨٣ بيد أحد الرؤساء الروحيين من زملائه لخلاف معه. عن مجلة المباحث ص ٨٠٨ - ٨١٠ المجلد ٢٥.

(٣) بني هذا القصر في عهد حاكم بيروت الصليبي فولك دي غين Foulques de Guines ولقبه بارون، وعرف ابنه باسم Guy de Béryte في الحملة الصليبية الثانية، ومن بنايات الفرنج في ذلك العهد قلعة عند دربند نهر الكلب، وبرجان عند ناحيتي بيروت (والقصر الذي تحدث عنه أحدهما) حاشية تاريخ بيروت ص ٢٠.

ويقول لامنس في المشرق مجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ ص ٧٢٩ تحت عنوان الحياة في بيروت على عهد الصليبيين: وكان من مناعة القلعة (القصر) وانحصار نطاقها أنه لما هاجم فريديريك الثاني بيروت سنة ١٢٣٢ فدخلوا المدينة فجأة لجأت الحاجة إلى القصر الذي تنعته ملاحم القبرصيين (Les Gestes des Chiprois) بأنه من أجمل قصور العالم.

«إنها كانت مرصوفة بالفسيفساء التي تمثل مياهاً تتجعد بنسيم الريح، فيتعجب الماشي كيف لا تغوص رجله في الرمال التي في قعر المياه. وكانت جدران الغرف مزدانة بقطع الرخام المنقوش على هيئة تأخذ بالأبصار، وقد دهنت قبتها بالصباغ الأزرق على شكل السماء، وفي وسط الغرفة بركة من الرخام الملون الصقيل، وينفذ إلى داخلها نسيم عليل من نوافذها المتعددة فيرطب حرارتها. . الخ» ا. هـ.

بيروت في أواخر الاحتلال الصليبي

وفي سنة ١١٧٠ ميلادية حضر إلى بلادنا رحالة ألماني يدعى: ديودوريتش[1]. وكان هذا أول كاتب أوروبي في القرون الوسطى عُني بوصف فلسطين وصفاً عاماً قبل أن ينتقل إلى الأجزاء والمدن. وقد وصف بيروت في زمانه بقوله:

«. . . ميناؤها جميل أتقنته يد الصانع الماهر، يحيط بالمدينة كالهلال. يقوم في كل من طرفيه برج تسحب بينهما سلسلة تحمي السفن الموجودة في الميناء في الليل».

وبعد ديودوريتش بحوالي عقد ونصف العقد (١١٨٥ م) قبيل الجلاء الصليبي الأول عن الشرق زار بيروت راهب كريتي ووضع عن رحلته هذه كتاباً فيه وصف مختصر لسورية، واسم هذا الراهب فوكاس[2]، وأسلوب فوكاس في وصفه أسلوب أدبي رائع. فالمعلومات التي حصل عليها ليست جديدة. ولكن صوره كثيرة الألوان واضحة الخطوط، على نحو ما يرى في وصفه لأنطاكية ودفنه (الحربية اليوم) وينابيع لبنان وميناء بيروت ونواحي عكة الكثيرة الأمراض. ومما قاله فوكاس عن بيروت سنة ١١٨٥ أنها «مدينة غنية وحصينة وكبيرة ومزدحمة بالسكان».

رحالون أجانب في العهد المملوكي

وقبل أن نأتي على بعض المقتطفات من انطباعات الرحالين الغربيين عن مدينة بيروت، فإننا نقدم بين يدي هذه المقتطفات طائفة من أسماء رحالين أجانب عرفتهم بيروت خلال فترات مختلفة من العهد المملوكي الذي مرّ عليها بين العهدين الصليبي والعثماني.

ولسوف نرى أن أغلب هؤلاء الرحالين كانوا من التابعية الإيطالية كما هو ظاهر فيما يلي:

١ - نيقولا بوجي بونسي

الرحالة الإيطالي التوسكاني، نيقولا بوجي بونسي (Nicola Bogi Bonsi) هبط الشرق الأدنى في سنة ١٣٤٧ م وزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وغادر الأخيرة سنة ١٣٤٩ م. وكانت عنايته متجهة للاهتمام بالآثار والكنائس: أشكالها والقائمين عليها وما إلى ذلك من أخبار. ولم ينس الإشادة بحسن معاملة ترجمانه المسلم برغم أن هذا الترجمان كان يتبع تعاليم محمد (ﷺ) على حد قوله.

٢ - لينوردو فريسكوبالدي

الرحالة الإيطالي الآخر كان من فلورنسة وهو لينوردو فريسكوبالدي (Leonordo Frescobaldi) وذلك سنة ١٣٨٤ م. ومعلومات هذا الرحالة عن النصارى في الشرق والكنائس التي زارها، على الرغم مما هي عليه من إيجاز ذات أهمية لدارسي الشرق الأدنى في القرن الرابع عشر الميلادي.

٣ - برتراندون دو لا برّوكيه

الرحالة الفرنسي، برتراندون دو لا برّوكيه[3]، وقد كانت سياحته إلى بلاد الشرق سنة ١٤٣٢م دوّنه هذا الرحالة عن بلادنا قيمة كبيرة من الناحيتين التاريخية والجغرافية، بسبب ما تشتمل عليه من وصف للمدن والموانىء التي مرّ بها. كما أن رحلته تلقي ضوءاً على حياة البيروتيين بكشف أوضاعهم الاجتماعية

(١) ديودوريتش، كان مطران مدينة ورتنبرغ وذلك بين سنتني ١١٦٠ - ١١٧٠ م ص ٨٤ من كتاب رواد الشرق الأدنى في القرون الوسطى لمؤلفه نقولا زيادة.

(٢) فوكاس: راهب كريتي وضع: «وصف مختصر لسورية قبيل معركة حطين بسنتين» من رواد الشرق العربي في القرون الوسطى لنقولا زيادة، ص ٨٨.

ملاحظة: السلسلة التي أشار إليها ديودوريتش، جاء ذكرها في كتاب تاريخ بيروت لصالح بين يحيى وذلك في النص الذي نشره لويس شيخو في مجلة المشرق ص ٣٢٥ السنة الأولى وهذا هو النص:

«. . . ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشمال سور بيروت على جانب البحر، جعل أوله عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً تحت البرج الصغير العتيق، عمارة تنكز (نائب الشام زمن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢هـ (١٣٤٣) المعروف ببرج البعلبكية، وجعل لهذا السور بين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي «باب السلسلة»).

يقول المؤلف: حتى عن قريب كان لبيروت باب على البحر يعرف بباب السلسلة وكان بين برجين، الفنار والسلسلة، وعرف بهذا الاسم لأن سلسلة من حديد كانت تعترض الميناء وكان عليها حراس يمنعون المراكب من العبور إلا بإذن منهم. وقد هدم هذا الباب سنة ١٨٤٩ ميلادية.

(٣) رحلة برتراندون دو بروكيه إلى الشرق الأدنى، لمحمود زايد، مخطوط في مكتبه يافث بالجامعة الأميركية، نقلها عن الإنكليزية، وهي دراسة مقدمة من محمود زايد إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية ببيروت للحصول على درجة أستاذ في حزيران ١٩٥٤ م. ص هـ (المقدمة).

وتقاليدهم الدينية في القرن الخامس عشر للميلاد.

يحدثنا بروكيه في رحلته عن مدينة بيروت فيقول:

«... فقد واصلنا السفر إلى بيروت ومررنا في طريقنا إليها بصور... وكانت مدينة بيروت فيما مضى أعظم شأناً، لكن ميناءها صالح للتجارة ومياهه عميقة، والسفن التي تؤمه تأمن فيه من الخطر. ويشاهد على بعض أطرافه بقايا قلعة حصينة كانت قائمة فيما مضى، أما الآن فهي خرائب»..

ثم يذكر بروكيه في رحلته أن بيروت «كانت في القرن الخامس عشر (الميلادي) ميناء دمشق وملتقى التجار من مختلف الجنسيات، وكان الناس يقصدونها للاستجمام (كما هي الحال في أيامنا) على أن سكانها أقل عدداً مما كانوا عليه أيام الصليبيين...».

واهتم بروكيه بالمقذوفات النارية (الأسهم التي ما زال البيروتيون يستعملونها في عيد المولد حتى اليوم) مما كان أهل بيروت يطلقونه في الجو احتفالاً بالعيد، فتحرّى عن صانعي هذه المقذوفات وعن طريقة صنعها، وألح على الصانع أن يوقفه على طريقة صنعها وقدم له رشوة من أجل الوصول إلى غرضه فأفلح واطلع على السر وأخذ معه إلى أوروبا نماذج من هذه المقذوفات التي رآها لأول مرة في حياته.

قال بروكيه بتفصيل ما تقدم:

«رأيت المسلمين يحتفلون بعيدهم على طريقتهم التقليدية. بدأ الاحتفال مساءً عند الغروب فأخذت جماعاتهم تسير هنا وهناك فرحة بالعيد، تهزج بالأناشيد، وأخذت مدافع القلعة، تطلق قذائفها. وأخذ الناس يطلقون عالياً في الفضاء صواريخ يفوق حجم الواحد منها حجم أكبر فانوس عرفته، وقد أُخبرت أنهم يستعملونها أيضاً لإشعال النار في أشرعة سفن أعدائهم وهي في عرض البحر. ويبدو لي أنها تصلح لحرق المعسكرات والقرى المؤلفة من بيوت خشبية ولبثّ الذعر بين خيول الأعداء في الحرب، وذلك لسهولة صنعها ويسر تكاليفها.

ولما كنت شديد الرغبة في الوقوف على سر هذه المقذوفات، فقد أرسلت أحد خدم مضيفي إلى واحد ممن يصنعونها، يطلب منه أن يوقفني على طريقة تركيبها، فاعتذر بأنه لا يجرؤ على ذلك لما يكتنف مثل هذا العمل من مخاطر إذا افتضح الأمر. غير أنه لما كان العربي لا يحجم عن فعل أي شيء إذا دفع له المال (كذا) فقد أطلعني على السر بعدما دفعت له «دوكة» ذهبت بمخاوفه، بل لقد أعطاني قوالب لصنعها والمواد الأخرى التي تتركب منها، فحملتها معي إلى فرنسة!...»

انتهى كلام بروكيه.

ونحن نقول بأنه إذا صحت هذه التفاصيل التي يرويها الرحالة الفرنسي بروكيه. فإن ذلك يعني أن سرّ صناعة البارود للأغراض الحربية قد انتقل إلى أوروبا عبر بلادنا بواسطة بروكيه نفسه. والجدير بالذكر أن المسلمين في بيروت ما يزالون ينفردون حتى اليوم بالاحتفال بالمولد النبوي الشريف على الطريقة التي ذكرها رحالتنا، دون غيرهم من المسلمين في البلاد الأخرى.

٤ ـ أنطون دي طرويا

أنطون دي طرويا (Ditroia) زار بيروت، وهي ما تزال في عهدة المماليك، بمهمة من لدن الفاتيكان بين نصارى الشرق لا سيما في لبنان. وقد نقل لنا الأب لامنس[١] طرفاً مما كتبه طرويا عن بلدنا وذلك لما رآها سنة ١٤٥٠ حين زارها في مهمته الكهنوتية. قال طرويا:

«... وفي تلك الأيام كانت بيروت مع الإسكندرية أهم الثغور الشرقية على البحر الأبيض المتوسط. فخراب عكة وصور وطرابلس وسقوط مملكة كليكية كان سبب عمرانها وصيرورتها مركز تجارة كل سورية (ما أشبه الليلة بالبارحة).

وكان مرفؤها الأمين في غاية المناسبة، والمدينة آهلة بعدد وافر من السكان. فجاءها التجار انتجاعاً للعافية وأسباب الربح من دمشق وحلب وطرابلس وصور. وكان فيها لأهل قبرس عدد من الكنائس والحمامات، وكانت بضائع البندقية بقيت زماناً لا تتمكن من دخولها إلا تحت علم آل لوزينيان أسياد قبرس، ثم أخذت سفن البندقية وجنوة وفلورنسة وكاتالونية تردها بأوقات معلومة. وكان لكل من هذه الجمهوريات صاحبة التجارة فندق ومستودع ومن ثَم قنصل يمثل البندقية..».

ويتابع طرويا وصف المعاملة الحسنة التي كان يلاقيها الأجانب من قبل السلطات المملوكية ببيروت فيقول:

«... وكان المماليك الشراكسة الخاضعة لهم بيروت يبرهنون عن سداد رأي بتوفير أسباب التجارة وهي ينبوع الخيرات للبلاد السورية، وزادوا على ذلك أنهم عينوا راتباً سنوياً لقناصل أوروبة..».

ولما استأذن تجار بيروت اللاتين في ترميم كنيسة المخلص لم تتردد الحكومة عن إجابتهم. وكان تجار أوروبا ينفقون على هذه الكنيسة ويقوم على خدمتها الفرنسيسكان المقيمون في

(١) طورويا فلمنكي من بلجيكا ولد في العشر الأوائل من القرن الخامس عشر وزار بيروت سنة ١٤٤٢. تحدث عنه الأب لامنس في أثناء تحقيقه عن رحلة الأخ غريفون إلى جبل لبنان في القرن الخامس عشر الميلادي في مجلة المشرق السنة الأولى ص ١٦، ١٧.

جوارها بدير لهم، كان في نفس الوقت مضافة لرواد بيروت من الأوروبيين...».

وفي وصف سكان بيروت في أواسط القرن الخامس عشر للميلاد يقول طوريا:

«... وفي أسواقها الضيقة، وطرقها الملتوية، تزدحم الأقدام، فمن أصحاب العمائم، أو الكفاف الحريرية، ومن لابسي البرانس البيض، أو المضرَّبيات، ومن هو مدجج بالأسلحة المنزّل فيها من الذهب والفضة والنحاس، أشكال من النقوش البديعة، وكم من تاجر وأمير خطير يعثر بحمال فقير، فيها التقت جميع الأمم واللغات، وتعارضت الألوان والأصوات، فمن الزنجي السوداني، إلى الشركسي الأبيض، ومن الرومي النزق، إلى البدوي الذي لا تهزه ريح، ومن اليهودي الملتوي إلى الاسباني المتغطرس، وقد اختلط بهم تجار البندقية وجنوة وبيزا (مرة أخرى نقول ما أشبه ليل بيروت ببارحتها!..).

٥ ـ فرنشيسكو سوريانو

الرحالة الإيطالي فرنشيسكو سوريانو (Francisco Suriano) مواطن من البندقية، تولى سدانة الأماكن المقدسة في الشرق مرتين[١].

وسوريانو هذا حكى في كتابه الذي ألفه عن الأرض المقدسة «Trattato di Terra Santa d'ell'Oriente» في أثناء حديثه عن بيروت ما أسماه أعجوبة قال: إنها حدثت حينما تفجرت النيران نتيجة ضربة معول بيد أحد المغاربة بقرب كنيسة المخلص[٢] حينما كان يبحث مع رفيق له عن كنز، وإن هذا النار لم تنطفىء من الحفرة إلا بعد أن رش عليها الرهبان الماء المصلّى.

هذا ما يقوله سوريانو بيد أن الأب لويس شيخو اليسوعي عقب على ما قاله سوريانو بقوله: «لم يرو أحد غير سوريانو هذه القصة!».

٦ ـ فارتيما

في سنة ١٥٠٠ م (٩٠٦ هـ) حضر إلى مصر مغامر إيطالي يدعى فارتيما[٣]، وانتظم في سلك المماليك، وكان ذلك في أيام الملك الأشرف قانصوه الغوري الذي انتزع منه السلطان سليم الأول العثماني بلاد الشام ومصر والبلاد العربية سنة ٩٢٢ هجرية (١٥١٦م).

لقد كان هذا الرحالة واحداً من أولئك المغامرين الذين وضعوا نصب أعينهم الوصول إلى الديار الإسلامية المقدسة في الحجاز، وبالفعل فإنه حقق أمنيته، وكان أول أوروبي استطاع الوصول إلى مكة المكرمة في قصة يطول شرحها وليس هنا مجالها.

ولقد قص علينا فارتيما ما شاهده في بيروت التي كانت يومئذٍ في عهدة قاصروه نائب الشام من قبل السلطان الغوري فقال:

«... فنزلت إلى بيروت وهي مدينة وافرة الخيرات سكانها مسلمون وحولها سور تلتطم عليه الأمواج لكنه لا يكتنف المدينة من كل جهاتها بل من الغرب وعلى شاطىء البحر فقط».

ويتابع هذا الرحالة المغامر كلامه عن بيروت التي لم يجد فيها ما يستحق الذكر فيقول:

«... ولم أر في المدينة ما يستحق الذكر إلا بناءً متهدماً قيل إن ابنة الملك كانت مقيمة فيه لما أراد التنين أن يفترسها فجاء مار جرجس وقتله..» ا. هـ[٤].

(١) الأب فرنشيسكو سوريانو ترأس على جميع الأراضي المقدسة مرتين سنة ١٤٩٣ وسنة ١٥١٢ وصار رئيساً أعلى على دير بيروت دفعتين أيضاً سنة ١٤٨٠ وسنة ١٥١٤، وقال الدويهي في تاريخه إنه لما انتهت أيام رياسة سوريانو على بيروت سنة ١٥١٥ رجع إلى بلاده. وكان هذا الأب تعين من الحبر الأعظم (البابا) كقاصد رسولي لدى الموارنة.

قال لويس شيخو: وقد وقفنا على كتابه الذي ألفه عن الأرض المقدسة وعن الشرق (Trattato di Terra santa et d'ell'Oriente) وقد نشره حضرة الأب غولوبوفتش سنة ١٩٠٠ م في ميلانو وفيه كلام واسع عن بيروت ومرافئها.

(انظر بيروت: تاريخها وآثارها للأب لويس شيخو ص٢١٦، ٢١٧ من مجلة المشرق المجلد ٢٤ سنة ١٩٢٦).

(٢) هذه الكنيسة بادت بعد أن اشترى أنقاضها آل الحمرا من أصحابها النصارى. وقد عمر آل الحمرا المذكورون من هذه الأنقاض الزاوية التي نسبت إليهم في شارع الحمرا برأس بيروت. ذكر ذلك صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت الذي حققه ونشره الأب لويس شيخو اليسوعي.

(٣) فارتيما (Varthema) رحالة إيطالي من أعيان مدينة رومية، وقيل من غيرها. جاء إلى مصر سنة ١٥٠٠ ثم انتقل إلى الشام وانتظم في سلك المماليك ودعا نفسه «يونس» وسار من دمشق إلى مكة المكرمة مع الركب الشامي سنة ١٥٠٣ (٩٠٩هـ) وهو أول أوروبي دخل مكة فيما يُعلم. ثم ارتحل من مكة المكرمة إلى اليمن والهند وبلاد فارس ووصف ما لقيه أثناء رحلته من الغرائب.

وفي مجلة المقتطف صفحات من مذكراته عن المتاعب التي لقيها في طريقه إلى مكة وقد وصف هذا الرحالة مشاهداته في البيت الحرام وكيف أن أحد المسلمين هناك اكتشف أمره مما كاد يؤدي به إلى الهلاك لولا استعماله الحيلة والدهاء للخروج من مأزقه ومغادرة مكة المكرمة في الوقت المناسب (راجع المقتطف سنة ١٩١٠).

(٤) وجاء في المجلد السادس ص ٨٥٦ من مجلة الهلال عن قصة التنين ما يلي:

ويتناقل السوريون عنه (أي التنين) أحدوثة يقولون إنها حدثت على شاطىء بيروت، ويظن أن أكثر الأمم ينسبونها إلى شواطىء بلادهم، فيقول السوريون إن التنين كان يظهر عند خليج مار جرجس شرقي =

وقصة التنين والملك وابنته ومار جرجس من الأساطير التي بقيت عالقة مع التقاليد النصرانية في بيروت حتى عهد قريب من أيامنا، فلقد حدثني الصديق الأستاذ جبران بخعازي أمين المكتبة العربية بالجامعة الأميركية سابقاً أنه كان يسمع والدته تترنم في البيت، شأنها شأن كرائم المسنات من سيدات النصارى في زمانها.. كان يسمعها تترنم بأبيات من الشعر في قصيدة طويلة تتضمن قصة هذا التنين الذي أراد افتراس بنت الملك وروى لي من هذه القصيدة البيتين التاليين:

أهل بيروت يا مدينتي ... خذوا مالي ومملكتي
واعفوا عني وعن بنتي ... ما لي طوق الحزانى

٧ ـ سانديس

في أوائل العهد العثماني والمدينة تحت حكم الأمير فخر الدين المعني ١٦١٠م (١٠٢٥هـ)، عرفت بيروت سائحاً يدعى «سانديس» وهذا حدثنا أن حكم الأمير المعني في السنة التي زار فيها بيروت كان يمتد من أسفل جبل الكرمل ضاماً غزير وبيروت وصيدا وصور وعكة وصفد ودير القمر والشقيف وبانياس والحولة وبحيرة طبرية ومدينة الناصرة.

وعندما تحدث عن بيروت قال:

«أما التجار في بيروت فأغلبهم إنكليز ويعاملهم الأمير بالحسنى ويطلق لهم حرية التنقل فيمكّنهم من التنقل في مملكته بحرية ودون أي خطر والدراهم على أكفهم..»(١).

٨ ـ بوكوك

وفي سنة ١٦٣٧ ميلادية (١٠٤٧ هـ) قدم إلى بيروت سائح أوروبي آخر كان يدعى «بوكوك» وقد حدثنا هذا السائح عن قصر الأمير فخر الدين في بيروت فقال:

«... أما اصطبلات القصر ففخمة وهي مبنية في أسواق قائمة على أعمدة مربعة وبكل حجرة منها معلف وكوة للتهوية. وقد وزع الأمير على كل أقسام القصر أقنية للمياه مخبأة في بطن الجدران. ومن آثار البعثة التوسكانية التي استقدمها فخر الدين إلى بيروت السبيل الذي أقامه هذا الأمير تخليداً لذكرى كنته (زوجة ابنه الأمير علي التي اختطفتها يد المنون وهي في ريعان الصبا..) .. وقد أدخلت هذه البعثة إلى بيروت فالجبل من الشرق فنّ أسطحة القرميد وواجهات المنازل الزجاجية المرتكزة على أعمدة رشيقة، المفتوحة على صحن الدار لتموينها بهواء البحر البليل صيفاً وأشعة الشمس شتاءً(٢).

= بيروت. وكلما ظهر قدموا له فتاة فيتلقفها ويأكلها. وكان ملك المدينة جعل تقديم البنات مناوبة، فلما انتهى الدور إلى ابنته أرسلها في الوقت المعين فوقفت عند الشاطىء تنتظر طلوع التنين فرآها جاورجيوس فسكّن روعها ووعدها بإنقاذها ثم ركب جواده وتقلد رمحه ووقف مع الواقفين، حتى إذا رأى التنين خارجاً همَّ به وطعنه بالرمح فخرج السِّنان من قفاه فسقط يتخبط بدمه وأرجع الفتاة إلى أبيها ونجّى المدينة من شره» ا. هـ.

(١) فخر الدين الثاني المعني الجزء الثاني ص ٣٢ تأليف بولس قرالي.

بيروت في ذلك العهد سنة ١٦٤٣ م على لسان سائح آخر

٩ ـ الأب فيتالي

وبعد بضع سنين حضر إلى بيروت أحد رجال الدين الكاثوليك وهو الأب فيتالي(٣)، وقد وضع هذا السائح تقريراً عن زيارته لبيروت وصف فيه معالم المدينة الدينية التي كانت قائمة في زمانه فقال:

«... ومما يزيد في مكانة بيروت كنيستان قديمتا العهد، الأولى خارج السور والثانية بداخله.

١ ـ الأولى، خاصة بالطائفة المارونية ومقامة على اسم السيدة العذراء، وفيها أو على الأصح، في مكانها ظهرت تلك الأعجوبة الخطيرة المدهشة التي يذكرها السنكسار الروماني في التاسع من تشرين الثاني ومآلها: أن الكفار اليهود بلغت بهم الجسارة أن صلبوا صورة سيدنا يسوع المخلص فتدفق منها الدم الغزير، حتى إن جميع كنائس الشرق والغرب نالت قسطاً منه (الكلام للأب فيتالي).

٢ ـ والثانية على اسم القديس جرجس الشهيد وهي مشتركة بين الموارنة والملكيين، وهي مشيدة، كما يقول تقليد عريق في القدم، في المكان الذي قتل فيه هذا القديس التنين الهائل...

وهناك على ربع ميل من البحر مغارة هائلة ترتعد منها فرائص الناظرين إليها، فما بالك بالداخلين. فإن زرتها لا يخالجك شك بأنها مقام التنين وما أشبه من الحيوانات والمسوخ الفتاكة..» ا. هـ.

١٠ ـ هنري ماندرل

في سنة ١٦٩٦ م (١١٠٨ هـ) وصل إلى بيروت رحالة إنكليزي يدعى هنري ماندرل(٤) (Henry mandrell). لقد كان هذا الرحالة قاصداً البلاد الفلسطينية ليحضر فيها معالم عيد الفصح. وكانت مدينة بيروت على طريقه إلى غايته، فانتهز الفرصة وكتب ما شاهده في هذه المدينة من حالة عمرانها

(٢) المصدر السابق ص ٥٣.

(٣) عرّب هذا التقرير الخوري بولس قرالي، انظر ص ١١،١٢ من المصدر السابق.

(٤) المقتطف، مجلد ٣٧، آب ١٩١٠/ ٢٥ رجب ١٣٢٨، ص٧٤٦.

وأوضاع سكانها وألوان حياتها الاجتماعية وكانت بيروت في عهده تنقل من يد واليها السابق مصطفى باشا إلى والٍ جديد وهو أرسلان باشا المطرجي(١).

قال ماندرل: «... وصلنا إلى نهر بيروت، وقطعناه على جسر فيه ست قناطر، ورأينا كنيسة مار جرجس، وكانت قد جعلت جامعاً(٢).. ودخلنا بالمركب إلى بيروت مبتلين ثم نزلنا في خان قرب البحر.. إن مدينة بيروت لقبت بيوليا السعيدة(٣) في عهد أغسطس قيصر، ولكن لم يبق من سعادتها غير موقعها، فإنها قائمة على شاطىء البحر في بقعة طيبة والبلاد حولها كثيرة الخصب وماؤها زلال، يأتيها من التلال المجاورة لها، وله فيها عيون جميلة البناء(٤)... ولا شيء تفخر به الآن».

ويتابع ماندرل: «.. وفي بيروت قصر الأمير فخر الدين أمير لبنان وهو من الدروز الذين يظن أنهم من بقايا الصليبيين(٥)... ولم يشأ هذا الأمير أن تكون ولايته مقصورة على لبنان، فأضاف إليه كل بلاد الساحل إلى عكة، فأوجس منه الباب العالي خشية ورده إلى جباله(٦).

«ذهبنا إلى مشاهدة هذا القصر، وهو في الساحة(٧) إلى الشمال الشرقي من المدينة فوجدنا أمام بابه فسقية (حوض) ونوفرة من الرخام لم نَرَ أجمل منها في بلاد الترك، والقصر دور مختلفة، أمسى أكثرها خراباً ولعلها لم تكتمل أصلاً. وهناك اصطبلات للخيل وبيوت للأسود ونحوها من الوحوش مما لا مثيل له إلا في قصور الملوك. وأجمل ما رأينا هناك بستان كبير مربع مقسوم إلى ست عشرة حديقة من شجر البرتقال. والأشجار كلها كبيرة ناضرة لم ترَ العين أجمل منها، تكاد أغصانها تتكسر من كثرة حملها.

«وحول هذه الحدائق مماشٍ من الحجر فيها مجارٍ للمياه يُروى بها البستان كله. ولو كان فيه بستاني إنكليزي ما نظمه بأحسن من تنظيمه. لكن، وأأسفاه، فإننا لما رأيناه كان قد صار كله حظيرة للغنم والمعزى، وزبلها فيه يعلو عن الأرض أكثر من ذراع!.

وفي الجانب الشرقي من هذا البستان ممشيان عاليان، الواحد منهما فوق الآخر، يوصل إلى كل منهما بائنتي عشرة درجة وفوقهما أشجار البرتقال تظللهما، وهما يوصلان إلى مصيف بهيج في الجهة الشمالية، كان فخر الدين يجلس فيه في ساعات أنسه».

(١) كان سلف أرسلان باشا يدعى مصطفى باشا وكانت صيدا يومئذ هي كرسي الولاية، وفي أيام مصطفى باشا انتهت ذرية آل معن بوفاة الأمير أحمد المعني «فانتخب أهل جبل الشوف وتوابعه الأمير بشير الشهابي (الأول) ليكون والياً عليهم عوض آل معن، وآل شهاب من القرابة، وكان ذلك في عهد (مولانا) السلطان الأعظم السلطان مصطفى ابن السلطان محمد العثماني. وبعد مدة عزل مصطفى باشا المذكور عن ولاية صيدا (وبيروت تابعة لها يومئذ) وتوجه والياً على مصر» ا. هـ. ص ٣، ٤ من كتاب: «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين» وهو الجزء الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان للأمير حيدر أحمد الشهابي، عني بضبطه وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه: الدكتور أسد رستم وفؤاد افرام البستاني ـ القسم الأول: لبنان والأقطار المجاورة، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٣٣.

(٢) كانت هذه الكنيسة تسمى كنيسة القديس جاورجيوس المجيد وشهرتها كنيسة النهر. وقد تحولت إلى جامع بعد أن اختلف على ملكيتها النصارى الروم الأرثوذكس مع النصارى الموارنة وهجروها حتى خربت وتحولت أنقاضاً. وفي أيام علي باشا الدفتردار والي بيروت سنة ١٦٦١ وضعت السلطة يدها عليها سداداً لما تأخر على الطائفة النصرانية من ضرائب. ومن حينها أُقيم في مكانها جامع أطلق عليه جامع الخضر وهو الاسم الذي يقابل مار جرجس عند المسلمين.

نقول: هذا الكلام يفتقر إلى الدقة وليس له سند من التاريخ والتحقيق.

(٣) أطلق هذا اللقب على بيروت في عهد أغسطس قيصر، ويوليا هي ابنة هذا الامبراطور الروماني.

(٤) أدركنا من عيون الماء في بيروت: نبع الكراوية الذي ما يزال يغذي المدينة حتى اليوم بمياه تستعملها البلدية لرش الطرقات وقد كانت حتى عهد قريب ممدودة في قساطل إلى حديقة البرج التي كان في وسطها نافورة جميلة تنبجس منها مياه الكراوية بشكل يسر الناظرين. ولم يعد لهذه الحديقة اليوم وجود بعد أن رفع مكانها نصب يرمز إلى الشهداء الذين أُعدموا خلال الحرب العالمية الأولى بتهمة الاتصال بالحلفاء الذين كانوا في حرب مع الدولة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد يومذاك.

(٥) لا بد من القول هنا بأن معلومات ماندرل عن أصل كلمة دروز ونسبة أنفسهم إلى بقايا أحد القواد الصليبيين المدعو Dreux، لا تقوم على أساس، فلا الأمير فخر الدين درزي ولا الدروز من أصل غربي، فهو أمير مسلم على مذهب أهل السنة والجماعة وهم من صميم الأرومة العربية التي ترجع بأصولها إلى القبائل العربية التي كانت منتشرة في وادي التيم في البقاع بلبنان.

(٦) انتهت حياة الأمير فخر الدين بالإعدام في تركية.

(٧) هذه الساحة تعرف اليوم بساحة البرج ورسمياً بساحة الشهداء. وقد تقلبت على هذه الساحة أسماء متعددة، فلقد كانت تدعى أيام فخري بك الذي كان رئيس البلدية: سهلات البرج. وفخري بك هو الذي أمر برصفها بالبلاط وتنظيمها لأول مرة. ثم دعيت بعد ذلك بالحديقة الحميدية نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني. وبعد أن خلع الاتحاديون عبد الحميد دعيت باسم «حديقة الحرية»، ثم باسم «حديقة الدستور»، وعندما احتلت فرنسا البلاد أوعزت إلى بلدية بيروت بأن تطلق عليها اسم ساحة الشهداء تخليداً للأشخاص الذين أعدموا في ساحتها خلال الحرب العالمية الأولى بتهمة التعاون مع الحلفاء. على أن الجمهور البيروتي ما يزال يطلق عليها حتى اليوم اسم ساحة البرج نسبة إلى البرج الذي كان قائماً إلى الجهة الجنوبية الشرقية منها.

وقد لاحظ ماندرل أن الأمير فخر الدين أراد أن ينقل الحضارة الغربية إلى إمارته الشرقية فقال: «فإنه ـ أي الأمير ـ أراد أن يقلد ملوك إيطاليا الذين زار بلادهم. وقد رأينا في بستان آخر نُصباً للتماثيل وفي إحدى زواياه برج عالٍ ارتفاعه ٦٠ قدماً بناه مرقباً وأحكم بنيانه، فإن سمك جدرانه ١٢ قدماً»[1].

ثم يصف ماندرل سور المدينة وما فيها من آثار فيقول: «ولم يزل سور المدينة قائماً إلى الجنوب منها، وهو مبني من أنقاض مبانيها القديمة، فترى فيه قطعاً من أعمدتها الرخامية. ورأينا خارج السور كثيراً من أعمدة الغرانيت والأرض المرصوفة بالفسيفساء وقطعاً من الرخام الصقيل والتماثيل القديمة ونحو ذلك من الآثار التي تدل على ما كان لهذه المدينة من العظمة. وعلى شاطىء المدينة عند البحر قلعة قديمة متخربة وآثار مرفأ قديم..»[2].

ثم يتحدث ماندرل عن غابة الصنوبر فينسبها إلى فخر الدين: «... وخرجنا من بيروت في التاسع عشر من شهر مارس ودخلنا سهلاً فسيحاً يمتد من البحر إلى الجبل في أوله غابة الصنوبر التي زرعها فخر الدين...» انتهى كلام ماندرل عن بيروت.

١١ ـ الراهب بسّون

في سنة ١٦٥٩ مر ببيروت راهب يسوعي يدعى جوزيف بسّون J. Besson، وهو صاحب كتاب «سورية المقدسة» وقد نقل إلينا الأب لويس شيخو اليسوعي[3] أن هذا الراهب ذكر في كتابه «ما نعرِّبه دون أن نحكم بصحته» والكلام هنا لشيخو. قال بسّون ص ١١٩، ١٢٠:

«... إن لبيروت أفضالاً ليست زهيدة وإنما أخصها ذلك المصلوب الذي اصطنعه بيده نيقوديموس فأورثه جمليال، فأرسله جمليال إلى بيروت سنتين قبل فتح أورشليم على يد طيطوس وفسبسيان. وقد ألحق بعض اليهود بهذا المصلوب كل الإهانات والعذابات التي احتملها المخلص ولا يزال إلى يومنا (كذا) في دهليز تحت كنيسة المخلص التي تحولت إلى جامع. وبركات هذا المصلوب لم تنقطع لفائدة غير المؤمنين أعداء الكنيسة، بل ربما التجأوا إليه ونالوا بمجرد لمسه الشفاء من عللهم!» ثم يذكر المؤلف ما قيل عن مصلوب بيروت في المجمع النيقاوي الثاني كما روي في كتاب مروج الأخبار في تراجم الأبرار، في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني». ا. هـ. كلام بسّون وتعليق الأب شيخو.

وإذا تجاوزنا حكايات بسّون عن المعجزات والأعاجيب التي حدثت كما قال هذا الراهب نتيجة وجود بعض الذخائر الدينية المسيحية في تُرابها، فإنا نجد بسّون يقول بأن تجار الفرنجة بسورية على عهده كانوا يدعون بيروت «باريس الموارنة الصغيرة» ومن الطريف أن الأب لامنس عقب على زميله اليسوعي السائح، بقوله[4]: ولكن باريس هذه ظلت صغيرة، فلم تتقدم قيد شعرة مدة قرنين كاملين، يظهر هذا من الصورة التي رسمها لبيروت الرحالة «بوجولا» سنة ١٨٣١ حيث قال إنها عبارة عن: قبب ومنافذ سرية ومجازات مظلمة وأسواق ضيقة، ذات تعاريج، كل منزل فيها يكوّن شبه حبس مظلم لا يوصل إليه لا سيما في الحي الإسلامي (Correspondance d'Orient).

١٢ ـ الرحالة الفرنسي فولنيْ

في السنة ١٧٨٤ ميلادية أقدم أحد النبلاء الفرنسيين هو فولني (François de Volney) على القيام برحلة دراسية إلى بلاد الشرق «فركب البحر من مرسيليا غير حامل معه سوى بعض الملابس القطنية وزنار من جلد جعل فيه الستة آلاف فرنك التي ورثها. فلما وصل إلى مصر، توجه إلى القاهرة فأقام فيها بضعة أيام مراقباً عادات السكان وأخلاقهم مجتهداً أن يرى بعينه كل شيء ويسمع بأذنه كل قول، ويطأ كل مكان. وإنما كان يعوزه الإلمام باللغة العربية، ولكي يتعلمها سافر إلى لبنان وانزوى ثمانية أشهر في دير مار يوحنا الشوير. وهناك كان يقضي الساعات الطوال في محادثة الرهبان عن حالة البلاد وعادات السكان ولم يبرح الدير إلا بعد أن توصل إلى التكلم بالعربية. فودع الرهبان وبدأ رحلته التي استغرقت ثلاث سنين»[5].

ولقد ترك لنا فولني مذكرات جذابة عن رحلته الممتعة في

(١) هذا البرج كان موجوداً قبل الأمير فخر الدين واستمر من بعده وقد اتخذه أمراء الجبل من آل شهاب مسكناً لهم إلى أن أجلاهم عنه الوالي أحمد باشا الجزار، وفي أيام احتلال إبراهيم باشا للمدينة كانت الحامية المصرية تستعمله مرقباً عسكرياً وعندما دخل الإنكليز مع القوات العثمانية وحلوا محل المصريين أطلقوا عليه برج الحشيش. أما عند الأهالي فكان يسمى برج الكشاف (أي المراقبة) كما اطلق عليه اسم «برج الكشاش» لأنه كان يستخدم فيه الزاجل الذي يثار منه باتجاه دمشق ناقلاً بطاقات الأخبار الرسمية بينها وبين بيروت. وقد هدم هذا البرج حوالى سنة ١٨٧٤ وقد بني في مكانه الآن سينما متروبول ولم يعد له من أثر على الإطلاق.

(٢) لقد ردم الأمير فخر الدين هذا المرفأ خوفاً من أن يستعمله القرصان لأغراضهم العدوانية ضد المدينة. راجع ما كتب عنه ماندرل في مجلة المقتطف سنة ١٩١٠ تحت عنوان: «سورية في القرن السابع عشر».

(٣) حاشية صفحة ٢٤٠ من كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، تعليق الأب لويس شيخو.

(٤) مجلة المشرق للأب لامنس، مجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ ص ٤٨٢.

(٥) «سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد مشاهير الغربيين» بقلم حبيب السيوفي ص ٣، ٤ الجزء الأول ـ ط ١ المطبعة المخلصية ـ لبنان.

الشرق لا سيما فيما قاله عن بيروت وهي على أُهبة الانتقال من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر للميلاد. وفيما يلي شذرات من مذكرات هذا النبيل الغربي المغامر في قلب بلاد الشرق الذي لبث فيه من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٧٥ أي ثلاث سنوات بكامل أيامها ولياليها. قال فولني:

... بيروت تقع على بقعة تبدأ عند سفح الجبل، داخلة في البحر على شكل قرن طوله فرسخان والزاوية الجوفاء التي يحدثها هذا القرن يصب فيها نهر بيروت، أو نهر «الصليب». الذي يفيض في فصل الشتاء وعلى هذا النهر جسر كبير خرب يصعب عبوره.

... كانت بيروت في حوزة الدروز[1]، بيد أنها ظلت البندر الذي يترددون إليه لأنهم يشحنون قطنهم وحريرهم المعد معظمهما لمدينة القاهرة فيأتيهم بدلاً منها البن والأرزّ اللذان يقايضون عليهما بحنطة البقاع وحوران[2].

... وفي بيروت من السكان ستة آلاف نسمة.

ولمرفئها رصيف كما للمرافىء الأخرى في هذا الساحل، وقد تراكمت فيه الأنقاض والرمال.

ويحيط بها سور بني بحجارة رملية رخوة تخترقها القنابل دون أن تحطمها مع أنه لا مناعة لسورها ولا لأبراجها القديمة. والتلال المشرفة عليها وافتقارها إلى الماء يجعلانها تعجز عن رد المغيرين عليها.

وترد نساؤها عيناً نائية[3] قليلة العذوبة وقد حاول الجزار إقامة سبيل كالذي أقامه في عكة...

.. والحفر التي حفروها لبناء الصهاريج (للماء) كشفت عن أطلال المدينة القديمة التي بعض أنقاضها وأعمدتها ترى وراء السور.

... والبساتين التي بجوارها أقوى وأحدث من التوت الذي في أراضي طرابلس لأن أصحاب تلك البساتين كانوا في أثناء حكم الدروز (يعني الشهابيين) يستطيعون نصب أشجار جديدة كلما دعت الضرورة، فلا يعارضهم أحد، لذلك يمتاز حرير بيروت بجودته!...

... وبيروت حرها شديد، وماؤها ساخن، لكن هواءها طيب، ومما يزيد طيبته ويجعله جيداً ونقيًّا شجر الصنوبر الكثير الذي نصبه الأمير فخر الدين[4] على مسافة فرسخ منها...

... والتجار المقيمون في سورية يتخذون وكلاء من الوطنيين أصحاب الطقس اللاتيني، وقد توصلوا إلى إشراكهم في امتيازاتهم، لذلك ليس للحاكم وعماله سلطة عليهم ولا يستطيع أحد تغريمهم، وإن أريد مقاضاتهم نظر بأمرهم القنصل.

وهؤلاء كانوا يعرفون في الشرق باسم «تراجمة أصحاب براءة» والبراءة يمنحها السلطان للسفراء المقيمين في الآستانة، فكانوا يهدونها إلى هؤلاء الوكلاء الوطنيين لكنهم بدأوا الآن (في أيام فولني) يبيعونها فيجنون منها أرباحاً لا بأس بها، فثمن الواحدة ألفا قرش أو ألفان وأربعمائة. وكل سفير يعطى خمسين براءة، وإذا مات صاحبها أخذ السفير براءة جديدة بدلاً منها (ص ٩٧).

... ومما يجدر ذكره، ذاك الظاهر لملامح وأحاديث السكان الدال على الورع والتقوى، فلا يرى في الطريق والأسواق إلا أناس في أيديهم المسابح[5]، ولا تسمع إلا ابتهالات مفخمة موجهة إلى الله تعالى (لم يكن فولني متديناً) ويطرق أُذنك على الدوام ذكر صفة من صفات الله التسع والتسعين (وهي أسماء الله الحسنى).

إذا استفز أحدهم الحديث قال: يا الله!.. أو الله أكبر، أو الله تعالى، وإذا باع أحدهم خبزاً فإنه لا ينادي بخبزه بل يقول، الله كريم، وإذا باع ماءً، قال: الله جواد، وقس على ذلك سائر الأحوال.

وبالاختصار فإن اسم الله يذكر في كل حال».

بيروت بين يدي القرن التاسع عشر

مع استهلال القرن التاسع عشر للميلاد، بدأت طلائع العصر الحديث بما رافقها من محاولات أولية للخروج بالشرق العربي من تحت أقبية الماضي المعتمة إلى وضح الحضارة المشرقة.

(١) يعني بالدروز أهل جبل الشوف بلبنان الذي كان يدعى في ذلك الزمان «جبل الدروز» كما كان أُمراؤه يدعون بأمراء الدروز ولو لم يكونوا بالفعل دروزاً كآل معن وآل شهاب من بعدهم الذين كانوا من أهل السنة والجماعة.

(٢) أما اليوم فإن كلاًّ من لبنان وسورية يستوردان القمح من البلاد الأخرى.

(٣) لعلها عين الكراوية التي ما تزال حتى اليوم في شارع الشيخ بشارة الخوري وتستخدمها البلدية لرش الطرقات وسقي ما يحف بها من أشجار الزينة.

(٤) بيّنا من قبل أن غابة بيروت الصنوبرية يرجع تاريخها إلى ما قبل تاريخ المدينة نفسها. راجع ص ٢٤، ٢٥ من كتاب فولني الذي عربه السيوفي.

(٥) لا تزال عادة حمل المسابح سارية بين البيروتيين حتى اليوم وإلى حد ما تكرار ذكر الله في مناسبة المناداة على الموائد الغذائية، فبائع الكعك: نداؤه: الله كريم مثلاً.

وكانت هذه المحاولات أول أمرها مضطربة وغير واضحة، إلا أنها مع الزمن، ما لبثت أن اتضحت وتركزت واتخذت لها منطلقاً أساسياً يعتمد على المنهج الغربي للحياة الجديدة، بصرف النظر عما كان من رأي الشرقيين يومئذ بالغرب نفسه. ومن الواضح أن هذا المنهج ما يزال حتى اليوم سائراً في نفس الاتجاه رغم كل الجهود التي بذلها المحافظون لوقفه أو الحيلولة دون امتداد طغيانه على المجتمع الشرقي الذي كان يرى في ماضيه أفضل الوسائل للمحافظة على ذاتيته وشخصيته.

ولقد أصاب مدينة بيروت من هذا المنهج الأجنبي صيّب من المؤثرات الفعالة، سواء في أعماق الحياة الاجتماعية للبيروتيين أو في ظواهرها، ذلك أن الغربيين كانوا يتوقعون منذ ذلك الحين، بل من قبله، لهذه المدينة الانطلاق من عقال أسوارها الضيقة والانتشار في أرباضها المحيطة بها، ومن ثم أن تكون بلداً مزدهراً ومرموقاً في هذه المنطقة من العالم العربي، لا سيما وأن مجرى الأمور في العالم الإسلامي نفسه، كان يوحي منذ نهاية الحروب الصليبية بأن مدينة بيروت بالذات، آخذة بالخروج من حياة البساطة والعزلة والإهمال إلى حياة أكثر جدية وأهمية.

وإننا لنجد «ميشو» المؤرخ الأوروبي الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر وتهيأ له أن يزور الشرق العربي مبتدئاً بالإسكندرية سنة ١٤٨١ ومنتهياً ببيروت في نفس السنة، إننا لنجد ميشو هذا يقول: «إن البلدان الإسلامية تعتبر بيروت عاصمة لها، ثم إن الملوك والأمراء الذين تنازعوا فيما بينهم السيطرة على مدن الجوار، كانوا يختارون هذه المدينة ليبسطوا فيها سلطانهم وعظمة تتويجهم»(١).

١٣ - هنري غيز قنصل فرنسا ببيروت

يقدم لنا هنري غيز، الذي أصبح قنصلاً لفرنسا في بيروت سنة ١٨٢٨ تحليلاً عن أسباب انطلاق بيروت وازدهارها لا سيما أنه قد اتيح له أن يزور هذه المدينة بين عامي ١٨٠٨ و١٨١٠ أي قبل أن يصبح قنصلاً لبلاده فرنسا فيها، فهو يقول(٢):

«... لم يكن لبيروت شأن كمدينة تجارية إلا منذ ثلاثين سنة تقريباً، وإني أستطيع أن أؤكد، لأني زرتها عامي ١٨٠٨ - ١٨١٠، أنه لم يكن يعقد فيها إلا صفقات تجارية قليلة، وبما أني لم أبارحها إلا عام ١٨٢٨ بعد أن عدت إليها عام ١٨٢٤ فقد استطعت أن أتتبع ازدهارها خلال فترة أربعة عشر عاماً في إبان

(١) راجع: بيروت ولبنان منذ نصف قرن بقلم هنري غيز تعريب مارون عبود الجزء الأول ص ١٩.
(٢) المصدر السابق ص ٢٠.

نهضتها الصناعية الحقيقية، وتضخم ثروة سكانها».

ويحلّل غيز أسباب وعوامل تطور عمران بيروت ودخولها في العصر الحديث فيقول:

«... تضافرت عدة عوامل على جعل بيروت المركز الأكثر أهمية على الشاطىء، منها:

١ - موقعها المتوسط.
٢ - قربها من الشام (أي دمشق).
٣ - جودة حرائرها.
٤ - هدوء خليجها.

وأقول مع هذا، إن العامل الأشد تأثيراً هو مجاورتها للجبل الذي حافظ أمراؤه، حاكموه القدماء، على سلطاتهم فيه... وهكذا أثرت بيروت على الرغم من تعنت السلطة وبؤس أساكل سورية الأخرى (أي المدن المرافىء)، لا سيما إسكلة عكة» (ص ٢٣).

«أما الحروب التي خاضتها الشعوب فيما بينها في حلب والشام، فسببت عدة مهاجرات إلى بيروت، وازداد عدد سكانها (ص ٢٣) وأستطيع القول بعدما رأيت من السعة التي ظهرت في إسكلة بيروت، عندما ازدهرت فيها الأعمال التجارية، أنها بوجه نسبي، يكثر ثراء من دمشق وحلب، إننا لا نجد اليوم شخصاً بيروتيًّا مرموقاً، لا يملك على الأقل بيتاً في الجبل» (ص ١٠٨).

وقبل أن ننتقل إلى ما كتبه رحالة آخرون عن بيروت في هذا العهد نتابع ما قاله هنري غيز عن بيروت وآثارها، هذه الآثار التي لم يجدها خليقة بعظمتها على حد قوله. قال غيز(٣):

«.. إننا ندهش، إذ لا نشاهد في بيروت أثراً خليقاً بعظمة هذه المدينة، فما يجده الرحالة اليوم، تافه جدًّا بالنظر لما كان ينتظر أن يراه فيها، فبقليل من الخيال، والاستعانة بالأعمدة الباقية، نجد إذا ما اتجهنا صوب الشرق، ابتداء من الأعمدة التي ما تزال منتصبة في المسجد المحمدي الصغير المسمى «بالرجال الأربعين»(٤) آثار هيكل، قد تكون هذه الصفوف من الأعمدة تؤلف أروقته. وإذا حكمنا بالقياس، على صفّ الأعمدة

(٣) بيروت ولبنان منذ نصف قرن لهنري غيز تعريب مارون عبود ص ١٩٤، الجزء الأول:
(٤) زال هذا المسجد في أوائل الاحتلال الفرنسي سنة ١٩٢٠ وكان يقع على رأس درج خان البيض الذي كان يسمى يومها درج الأربعين. ومديرية الآثار تقوم في مكان الجامع ببعض الحفريات لتقيم على الأعمدة أشكالاً لتجميل المنطقة.

القائمة وحدها وعلى الكثير المرتمي على مقربة منها، نستنتج ولا ريب أن هذا الهيكل كان فسيحاً جداً، وإني أقول (والقول لغيز) وهذا رأيي الخاص، أن الأعمدة الباقية هي أعمدة الجهة الشمالية، إذ أننا لا نزال نجد عدة أعمدة من الصوان من الحجم نفسه في ناحية تحمل على الافتراض، أن الرواق الجنوبي كان يبتدىء بها. إن الأعمدة الموجودة على طريق «باب الدركة»(١) وبرج الكشاف تتخللها مساحات صحيحة القياس تحملنا على الاعتقاد بأنها ما تزال في المكان نفسه الذي احتلته في هذه البنية. «إن باب الدركة» يعلوه حجر ضخم مزين بالرسوم، وقد حفرت عليه مخطوطة العمود، وهو فيما عدا ذلك يصلح مقياساً للهيكل».

وعن أخلاق البيروتيين الاقتصادية يقول غيز: (ص ١٠٦)

«... والبيروتيون يحتلون المكانة الأولى بالتقتير على أنفسهم في جميع ضروب المعيشة، إلا أنني بعد أن تعرفت بأهالي حلب، أقول، اعترافاً بالحقيقة: إن سكان بيروت يتخلّون لهؤلاء عن الأولية... أما ما يلام عليه البيروتيون، فهو أنهم يحاولون أن يجعلوا من البخل فضيلة،... فأطيب الحديث على موائدهم، هو التحدث عن منافع الإقلال في الأكل!

ويغمز غيز من قناة نصارى بيروت بخبث ودهاء(٢)، فهو عندما تحدث عن نصارى بيروت لم يكن معهم أقل وطأة مما كان عليه مع المسلمين، ولم يوفرهم من لسعات قلمه عبر كلمات وصمهم فيها بما لا يحبونه لأنفسهم، من ذلك قوله «... لست أدري إذا كان مسيحيو بيروت يميلون إلى الاعتقاد القائل بوجود «تعويض» في العالم الآخر، إلا أني أعرف رأي الكثيرين منهم في ضروب المكر والغش والخداع، وهم يسمون هذا دهاء ولباقة (كذا).

بيروت في العقود الأولى من القرن الماضي

بعد أن اطلعنا على أسباب التحول الحضاري الذي شهدته بيروت في مخاضها الذي سبق دخولها في غمار النهضة الحديثة، وقبل أن نطّلع مرة أخرى على آثار هذا التحول بقلم غيز نفسه، وأمثاله ممن كانوا معاصرين له، نريد أن نقف قليلاً مع السياح الذين أحاطتهم بيروت بأسوارها الضيقة في العقود الأولى من القرن الماضي.

(١) باب الدركه، كان يقع قريباً من رأس شارع المعرض حالياً. زال مع تخطيط بيروت خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م).
(٢) بيروت ولبنان منذ نصف قرن لهنري غيز تعريب مارون عبود ص ١٠٨، الجزء الأول.

فلقد قرأت لأحد السياح الذين زاروا بيروت سنة ١٨٢٧ م قوله(٣):

«.. وصلنا إلى بيروت، وهذه المدينة على شاطىء البحر، وبيوتها صغيرة وشوارعها ضيقة عدا سراي الحكومة التي هي جزء من قصر الأمير فخر الدين المعني، وبعض دور القناصل ورايات دولهم تخفق فوقها، يحيطها بالبرّ سور متخرب ولم تزل بعض جدرانه من الجهة الشرقية باقية. وخارج السور ميدان واسع وسطه برج عال مربع الشكل من بناء الأمير فخر الدين الشهير. ومن جهتها الجنوبية صحراء رملية غرس فيها هذا الأمير غابة كثيفة من شجر الصنوبر لتقي المدينة من تيار الرمل».

زرت اليسوعي في ديره(٤) عند باب بيروت الشرقي قرب برج فخر الدين، وسراي الحكومة هي قسم من سراي فخر الدين، وغرفها كلها مرصوفة بالرخام المرمري، وأركانها الشمالية ملاصقة لباب المدينة الكبير. وهناك نبع ماء تظلله شجرة جميز كبيرة(٥).

١٤ - الأب ريكاردونا

في حدود بداية العقد الرابع من القرن الماضي، وبالتحديد سنة ١٨٣١ حضرت إلى بيروت بعثة يسوعية في مهمة دينية، كان من بين أعضائها الأب ريكاردونا الذي انتهز فرصة وجوده في هذه المدينة فبعث إلى رؤسائه الروحيين في أوروبا برسالة يشرح لهم فيها تفاصيل إقامته لأول مرة في ربوع الشرق، خاصاً مدينة بيروت بالذات بصورة قلمية من عمرانها وسكانها. ونحن ننقل هذه الصورة لما فيها من طرافة تدنيها من حكايات الأساطير القديمة.

قال ريكاردونا(٦):

«... إنه يطول الشرح كثيراً إن أردتُ أن أُخبركم بكل ما لفت نظرنا من الغرائب عند وصولنا إلى هذا العالم الجديد: طبيعة شائقة وسماء متألئة وهواء نقي، ومناخ لطيف وأراض بور تغطيها الرمال، وبيوت صغيرة تكاد لا ترتفع عن سطح الأرض لا شوارع بل أزقة تكاد لا تصح إلا لمرور الجمال... هذه هي بيروت.

(٣) مجلة المقتطف المجلد ٥٠ ص ٥٣ تحت عنوان: «مصر منذ تسعين عاماً».
(٤) كان قرب البنك العثماني (دائرة البوليس اليوم).
(٥) تاريخ فخر الدين المعني لعيسى إسكندر المعلوف ص ٣٤٢.
(٦) مجلة المشرق مجلد ٣٠ سنة ١٩٣٢ ص٣١ - ٣٦ ترجمة فؤاد أفرام البستاني.

«أما السكان، فيظهرون بالأردية الواسعة الغامقة الألوان، وبالعمائم الفخمة والزنانير العريضة، والغلايين المتدلية حتى الأرض وبالكثير من الشراريب والشرائط والأقراط المتعلقة بالآذان (؟) والأنوف والشعور، ثم بالخناجر والغدّارات (المسدسات) وهم يحلقون شعور رؤوسهم إلا خصلة من الشعر في قمة الرأس يتركونها تطول جدًّا وكذلك يطلقون لحاهم وشواربهم التي تلفت الأنظار. وهم أبداً عارو السيقان والأقدام حتى الأغنياء منهم[(١)].

.. وفي البلاد كثير من الخيل والجمال، ولكنا لم نصادف مركبة واحدة ولا عجلة حتى ولا دولاباً![(٢)]. . .

وفي عادات أهل بيروت الاجتماعية كتب ريكاردونا واصفاً تصرفات عائلة نصر الله التي استضافته وزملاءه بدارها التي ما تزال قائمة حتى اليوم خلف كنيسة مار جرجس للموارنة فيما يحاذي سوق أبي النصر حالياً، ويتحدث عن زواره في تلك المناسبة فيقول:

«. . . وأذاع صاحب الدار، هذا السيد الفاضل على جيرانه ومعارفه أن اليسوعيين عادوا إلى الشرق، ودعا إلى منزله عدداً من الكاثوليك، ومن مختلف الطوائف. أما نحن فكنا طبقاً لما أُلقي علينا من التعليمات، ننتبه كل الانتباه لما يقوم به هؤلاء الزائرون من واجبات كي نقلدهم بدورنا على أحسن ما يمكننا، فكانوا جميعاً، دون أن يضعوا عمائمهم، يجعلون يدهم اليمنى على ركبتهم، فعلى صدورهم، فعلى فمهم، فعلى جبينهم، وينحنون حتى الأرض تقريباً. وهذه هي طريقة التحية عندهم. ثم كانوا يجلسون القرفصاء مشبكين سيقانهم على السجاد الدمشقي المفروشة به الردهة».

ثم يختم ريكاردونا اليسوعي رسالته الطريفة هذه بقوله:

«مدينة بيروت إسلامية بأجمعها على التقريب، وفيها ثلاثة جوامع. . ».

وقد أراد ريكاردونا أن يقرب الوصف الطبيعي لمدينة بيروت من أذهان مواطنيه في أيطاليا فقال لهم:

«. . . والمشهد الطبيعي في ذلك المستطيل من الأرض المتقدم بين البحرين، ألطف وأبدع من مشهد «بوزيب».

وبوزيب هذا جبل يقع في الجنوب الغربي من نابولي مشهور بمناظره الطبيعية.

١٥ ـ كارن

وفي السنة التالية أي سنة ١٨٣٢ قدم إلى بيروت من فرنسا زائران، أحدهما صرف همه لتقصي ما فيها من آثار وحصون واستحكامات عسكرية وهو السائح كارن (Carne)، والثاني هو ذلك الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين، الذي تفنن بوصف بيروت من خلال عاطفته الشعرية وجعل من هذه المدينة لوحة منظومة بما أثر عن أسلوبه من رقيق الكلام وبديع المعاني وجميل الصور.

أما كارن فقد اعتبر بيوت بيروت من أبدع الأبنية التركية، وقد كرر غير مرة ارتياحه إلى منظر الحصون المشرفة على المدينة، لكنه كان يأخذه العجب من إهمال الترك لترميمها، فإن النباتات المتطفلة والحشائش المتنوعة، وأشجار التين البري (الصبيّر) كانت بارزة من شقوقها وتغطي جدرانها. وبخاصة، وصف شرفات أسوار المدينة البيضوية الشكل[(٣)].

١٦ ـ لامارتين

أما الشاعر الفرنسي لامارتين[(٤)]، الذي حل ببيروت سنة ١٨٣٢ وأقام في بيت من بيوت حي مار مارون شمالي النادي الكاثوليكي القديم الذي يقع على بعد عشر دقائق من قلب المدينة يومذاك، فقد كتب متحدثاً عما وقع له يوم ٧ أيلول فقال:

«. . . صرفت النهار كله أبحث في ضواحي المدينة لأجد مسكناً، فتوفقت إلى إيجاده، وهو مؤلف من غرفة واحدة تنام فيها الأسرة كلها، ومن قبو يتناولون فيه الطعام. موقع المنزل من المدينة على بعد عشر دقائق، يصلون إليه بطريق ضيقة، تتدلى فوقها ألواح الصبير الشائك ويمرون إليه بقناطر قديمة وبرج كبير شيده أمير الدروز فخر الدين واتخذه اليوم حرس إبراهيم باشا مرقباً»[(٥)].

ثم يقول لامارتين: «. . . بيروت من المدن السورية الآهلة بالسكان، وقد عرفت عند الأقدمين باسم «بيريت» وأصبحت

(١) لا تخفى ملامح المبالغة في كلام هذا الراهب وهو يتحدث عن ملابس أجدادنا البيروتيين. ولصاحب المباحث الطرابلسية جورجي يني محاضرة في موضوع ملابس أبناء القرن الثامن عشر يمكن مراجعتها في مجلة المباحث الصادرة في ٢٧ شعبان ١٣٣١ وأول آب ١٩١٣.

(٢) أول دولاب دار في شوارع بيروت كان لقنصل إنكلترا أيام إبراهيم باشا.

(٣) استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة ـ الكونت دومنيل دوبويسُّون ترجمة الأب لويس شيخو.

(٤) مجلة الزهور المجلد الأول سنة ١٩١٠ ص ٢٧٢. لصاحبها أنطون الجميل.

(٥) تاريخ الأمير فخر الدين المعني، لعيسى إسكندر المعلوف ص ٣٤٣.

على عهد أغسطس مستعمرة رومانية، وأطلق عليه الفاتح الروماني اسم جوليا فيلكس (السعيدة) وقد مُيزت بهذه الصفة لخصب ضواحيها وفخامة موقعها وجمال جوها العديم المثال، والمدينة اليوم قائمة على رابية جميلة تنحدر شيئاً فشيئاً إلى البحر وقد قامت فيه بعض صخورها فرفعت عليها الحصون التركية.

أما ميناؤها فهو كناية عن لسان أرضيّ يمتد في البحر ويقي البواخر من الرياح الشرقية. وكل هذه البقعة وما حولها مكللة بخضرة جميلة، وترى أغراس التوت قائمة على مدرَّجات من الأرض. وشجر الخروب والتين والدلب والبرتقال والرمان تلقي ظل أوراقها المختلفة الألوان على تلك الأنحاء، ووراءها الزيتون ذو الورق الرمادي، يزركش هذا المنظر الأخضر البديع. . وعلى مسافة ميل من المدينة انتصبت سلسلة جبل لبنان وفيها الأخاديد التي يضيع فيها النظر وتنحدر في طياتها مجاري المياه إلى صور وصيدا. . . واللاذقية.

وقمم تلك الجبال المتفاوتة العلو في السحب البيضاء تسطع من انعكاس أشعة الشمس فتشبه جبال الألب بثلوجها».

وعندما وقف لامارتين على قمة مارمتر لم يتمالك نفسه من أن يبدي دهشته فصرخ قائلاً: «. . . لم يعطِ الله الإنسان أن يحلم بكل الجمال الذي صنعه، كنت أحلم بمشاهدة جنة عدن، ويمكنني القول: إنني شاهدتها! . .»[(١)].

بيروت عند انتصاف القرن التاسع عشر

جاء في مذكرات حبيب رزق التي حققها فيليب حتي أنه: «بعد طرد العساكر المصرية سنة ١٨٤٠[(٢)] أخذت بيروت بالازدهار التجاري، وصارت المراكب تؤمها من أصقاع نائية مقلّة الأقمشة من مانشستر والسكر من هامبورغ، والألبسة من فرنسة، وراجعة بالمحصولات الحريرية من لبنان وحبوب البقاع والزيت والجوز والخشب والأثمار المقددة من جهات مختلفة.

وكان من نتائج الزلزلة التي دمرت معظم المدينة سنة ١٨٢١ أن الأهلين نشطوا، وشادوا على أنقاض بيوتهم القديمة دوراً جميلة فخمة منظرها من البحر يخلب الألباب» ا. هـ.

ونتابع في ما يلي ما كتبه الرحالون الأجانب.

١٧ ـ المبشر الأميركاني روبنصون

بعد أن أتخمنا القنصل الفرنسي وصمات وشتائم، ما نقلنا منها هنا أخف بكثير مما تركنا، نأتي الآن إلى رحالة أجنبي آخر، قدم إلى بلادنا من أميركا سنة ١٨٣٨ في رحلة تبشيرية سافرة دون أي قناع، ذلكم هو أدوارد روبنصون (Edward Robinson) الذي ألّف كتاباً في «بحث توراتي عن فلسطين والأقاليم المجاورة»[(٣)].

قال هذا الرحالة المبشر في نظرة عامة عن بيروت:

«. . . في صباح السابع والعشرين من حزيران سنة ١٨٣٨، تأكدنا من رفع النطاق الصحي أو إهماله وأنه لا مانع يحول دون خروجنا إذا ما أردنا التجوال، فدخلنا المدينة، أو بالحري، البساتين في الناحية الجنوبية، ونزلنا ضيوفاً على أصدقائنا. . .

تقع بيروت على الساحل الشمالي الغربي من الرأس، تبعد ساعة عن أقصى حدود اللسان، وتقع مباشرة على شاطىء البحر، ولكن الميناء الصغير الذي كان معدًّا لرسو السفن قد ردم فأصبحت هذه السفن ترسو في مرفأ مفتوح.

ويحيط بالمدينة سور متراخ تعلوه أبراج. والبيوت عالية، ومبنية بالحجارة والشوارع ضيقة ومظلمة وسيئة التبليط، أو بالحري مرصوفة بحجارة كبيرة. وفي وسطها قناة تسير فيها الحيوانات، وغالباً ما تكون مليئة بالماء.

ومنظر المدينة أكثر حيوية من أية مدينة أخرى رأيناها على طول الساحل. زرت المدينة مرتين وشاهدت الآثار القديمة وهي: أعمدة في الصخر خارج السور الجنوبي الغربي ومقبرة صغيرة قرب الطريق إلى جنوبي أحد الأبواب قرأت فيها اسم المستر «أبوت»[(٤)] Abbawt وهو قنصل بريطاني سابق، بلبني فسك المرسل، ورجل الله».

«تقع المدينة على منحدر متدرّج ولذلك فالشوارع كلها تنحدر لجهة البحر، ولكن في الجنوب والشرق ترتفع الأرض بسرعة إلى علو كبير، وفي هذه الناحية، أو بالحري حول المدينة كلها تتصل جنائن وبساتين الأشجار المثمرة بعضها ببعض عدا عن أشجار التوت التي لا تحصى. وأكثر هذه البساتين محاطة بسياجات من الصبّير الذي يسبغ على ضواحي بيروت منظراً رائعاً من الاخضرار والجمال. ولكن قد تكون التربة أقل خصباً،

(١) المشرق مجلد ٣٠ سنة ١٩٣٢ ص ٤٨٥ من مقال «الفرنسيون في القرنين السادس والسابع للميلاد». للأب لامنس.

(٢) مجلة الكلية المجلد ١٠ سنة ١٩٢٤، ص ٢٠٧ فيليب حتي في مذكرات حبيب رزق الله تحت عنوان: «درس في أحوال سورية الاجتماعية والتاريخية في النصف الأول من القرن المنصرم».

(٣) ترجم بعض فصوله إلى العربية أسد شيخاني بطلب من وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة بلبنان.

(٤) المستر أبُوت هو قنصل إنكليزي أتى إلى هذه البلاد. والمقبرة التي يتحدث عنها روبنصون دخلت اليوم في أرض الكنيسة الإنجيلية أول طريق زقاق البلاط من جهة الشرق حيث كان يقابلها بوابة يعقوب قديما، طلعة الأميركان سابقاً.

والثمار أقل لذة من تلك التي في ضواحي صيدا...».

على أن روبنصون زار بيروت في فترتين منفصلتين، فهو بعدما نقل إلينا صورة عن بيروت كما رآها سنة ١٨٣٨، ما لبث أن نقل إلينا صورة ثانية عن هذه المدينة بعد أن عاد إليها سنة ١٨٥٢، ففي هذه المرة الأخيرة يقول روبنصون (ص٨٨).

«لم تفقد بيروت، شيئاً منذ أن زرتها في المرة السابقة (١٨٣٨) بل تقدمت كثيراً، لقد تعرضت لمدافع الأسطول البريطاني والنمساوي في العاشر والحادي عشر من أيلول عام ١٨٤٠ فتهدمت من جراء ذلك بيوت كثيرة، ووقع العديد من الضحايا، ولكن الخراب الذي حلّ بها لم يلبث أن أُصلح، ولم يبق من آثار هذا التعدي غير ما تركته القنابل في جدران القلعة القديمة على المرفأ»(١).

«أما الشوارع فقد أُصلحت وأزيلت الأخاديد أو القنوات من وسطها... كان عدد السكان سنة ١٨٣٨ يقدر بخمسة عشر ألف نفس أما الآن (١٨٥٨) فيقدرونه بضعفي ذلك وقد امتدت الشوارع إلى الضواحي في الجهة الجنوبية الشرقية من المدينة المسوّرة وملأت المساكن والحدائق وبساتين التوت الواقعة في الجنوب والجنوب الشرقي.، ويمكن للواقف على سطح البيت الذي شغلته مطبعة المرسلين (الأميركان) أن يتمتع بمنظر المدينة وضواحيها ومن ورائها لبنان...».

وفي الحديث عن النشاط التجاري لبيروت أواسط القرن الماضي يقول روبنصون:

«ازدادت تجارة بيروت زيادة كبيرة، فقد كانت السفن الفرنسوية والنمساوية والإنكليزية والسفن الشراعية العديدة التي تأتي إلى المرفأ، سبباً في ازدياد دولاب العمل وأيقظت في السكان، ولا سيما نصارى المدينة والجبل، روح التجارة والإقدام على المشاريع. وقد شجعت هذه المشاريع المؤسسات الأوروبية العديدة في الجبال لبرم الحرير».

ثم تحدث روبنصون عن حطام الآثار المبعثرة حول سور المدينة بما لا يختلف كثيراً عما قاله الرحالة السابقون بهذا الصدد فلا داعي لتكرار ما قيل.

إلا أنه أشار إلى ينبوع «عميق ينزل إليه بدرج في الفسحة الواقعة أمام باب المدينة الجنوبي الغربي، وهو مغطى بسطح متين حديث البناء و ويقال إن قناة قديمة تزوده بالماء اكتشفت صدفة تحت سطح الأرض منذ بضع سنوات»(٢).

١٨ ـ كرنيليوس فانديك

وما دمنا قد نقلنا ما كتبه المبشر الأميركاني السائح روبنصون عن انطباعاته في بيروت ما بين سنتي ١٨٣٨ ـ ١٨٥٢ فلا بأس علينا من أن نضم إليها انطباعات زميله كرنيليوس فانديْك عن الفترة نفسها تقريباً. ومن حسن الحظ أن أدوارد، ابن كرنيليوس المذكور، وجد بين أوراق أبيه مذكرات مكتوبة بخطه وفيها بيان ما كانت عليه بيروت ولبنان وسائر سورية وفلسطين في ذلك العصر من الأحوال العمرانية والسياسية والأدبية ولا سيما الفترة التي كان فيها إبراهيم باشا حاكماً لهذه المنطقة إلى أن أخرجته الدولة العثمانية منها سنة ١٨٤٠(٣).

(١) لقد حدثني خالي شقيق والدتي الحاج خليل سكر رحمه الله أنه أدرك آثار القنابل التي ضربت بها بيروت أيام إبراهيم باشا، وذلك على الجدار الشمالي لجامع المجيدية، وقد أُزيلت هذه الآثار بعد ترميم هذا الحائط فيما بعد. والجدير بالذكر أن الجامع المذكور كان قلعة عسكرية وقد تحول إلى مسجد على أثر التماس قدمه وفد بيروتي إلى السلطان عبدالمجيد الذي أعطي اسمه لهذا المسجد لهذا السبب.

(٢) يقول كارنيليوس فانديك في كتابه «المرآة الوضية في الكرة الأرضية» ص ١٨٧، سنة ١٨٧١م ببيروت: في موضوع هذه القناة الينبوع.

«ووجد لدى بعض أبوابها (أي بيروت) قناة للماء منحوتة في صخر شديد الصلابة متسعة يمشي فيها الرجل الطويل منتصباً (جعل عبدو الخوري حداد هذا العلو ٦ أقدام في عرض ثلاثة ـ الكوثر ص ٩٣) وكان ذلك سنة ١٢٦٢ هـ في أيام ولاية وجيه باشا من قبل الدولة العثمانية، فأمر باستنباعها والتماس مائها فاستنبعوها مسافة طويلة ولم يجدوا إلا مياهاً تجلب إليها من فضلات المطر وكان ينفق على ذلك فلما عُزل انقطع الإمداد وتركوها. ا. هـ.

أما الخوري، في الكوثر فيقول: والماء يأتيها من جهتين: الباشورة والثانية رأس النبع وهي تنبع من وسط المدينة في سوق العطارين قرب الجامع الكبير، ماؤها كالدركة وهو الآتي من لحف الأشرفية من جهة رأس النبع من بئر سكر (المقالة مكتوبة سنة ١٣٢٨هـ ١٩١٠م.

(٣) مذكرات الدكتور فانديك من سنة ١٨٣٩ إلى ١٨٥١ إلى الهلال ١٩٠٦م ١٣٢٣هـ الجزء الرابع ص ١٩٥ و٢٠٦ و٢٧٣ و٢٨٠. وفيما يلي ننقل شذرات مما كتبه فانديك عن بعض أحوال المبشرين كما جاء في مذكراته، قال فانديك: «.. كان للمرسلين الأميركان في سورية سنة ١٨٣٩ مركزان أحدهما في بيروت والآخر في القدس، ولم يكن في سورية في تلك السنة إلا أربعة مبشرين «لانو وطمسن وهيرت والسِّت تلان في بيروت؛ وجاءهم في خريف سنة ١٨٣٩ المستر بيدل وامرأته ومستر شيرمن وامرأته. وهذا الآخر سار مع امرأته إلى القدس... وفي سنة ١٨٤٠ دخلنا بيروت، فنزل بعضنا عند وليم طمسن والبعض الآخر في بيت بيدل، وكان طمسن يومئذٍ مقيماً في البيت الذي هو الآن دير الأرمن وراء القشلاق (السراي الكبير اليوم) وكان ملكاً للأسقف يعقوب آغا أبكاريوس (والد اسكندر وحنا أبكاريوس) أما بيدل فكان مقيماً في الطبقة العليا من منزل المرسلين (مدرسة البنات سابقاً) وكانت مدرسة الصبيان في الطبقة السفلى والمطبعة في قبو بيت الصوصة الذي هو الآن مقام راهبات مار يوسف (عصُور وقد تهدم الآن) وكانت هذه المطبعة معطلة. وفوق هذا القبو منزل عالي سمث. وكان الياس فوَّار وامرأته الأولى مقيمة فيه للحراسة في أثناء غياب عالي سمث بأميركا لاصطناع الحروف، فأنزلوني في غرفة المكتبة من هذا البيت ريثما يُبتّ الرأي على المكان الذي سأرسل إليه.

وإننا ندع من هذه المذكرات ما يتعلق منها بقصة النشاط التبشيري للبروتستانت في بيروت لأن ذلك لا يعنينا في الموضوع الذي أخذنا أنفسنا به ونقدم ما كتبه فانديك عن عمران بيروت وتجارتها وانعكاسات الوجود المصري فيها.

يقول كرنيليوس فانديك:

«... كان من التجار في بيروت عند وصولي سنة ١٨٤٠ الخواجات بلاك إخوان وهيلد ووطسن وكلبي صراف المرسلين في بيروت، ومن القناصل قنصل الإنكليز نيفن مور، وقنصل أميركا ايركا جاسبار شاسود، ولهذا الأخير بيت في المينا كان المرسلون يقيمون فيه صلاة إنكليزية قبل الظهر من كل أحد، وقنصل النمسا لورلاّ. وكان في بيروت صيدلي واحد إيطالي واسمه كرولاّ ومخزن تجاري في سوق القطن للبيع بالمفرق لرجل مالطي اسمه فابري.

... وكانت القرعة العسكرية في عهد الدولة المصرية شديدة الوطأة على المسلمين وعلى الدروز أيضاً، لأنهم كانوا ينتظمون في الجندية. وكانت العادة الجارية في التجنيد أن الحكومة إذا احتاجت إلى جند، أمرت بإقفال أبواب المدينة(١) وإلقاء القبض على من فيها من الدروز فضلاً عن المسلمين، ثم تنتقي منهم أصحاب السن الموافقة للجندية وتطلق الباقين. فكان المسلمون أو الدروز يسعون في النجاة من الجندية بالالتجاء إلى الحماية الأجنبية، أو الخدمة في بعض القنصليات. وكانت الدول الأجنبية تحميهم، ولهذا كثر ازدحام خدم القناصل من المسلمين».

... وأما الدروز فكانوا يُطلبون للجندية، حتى دروز رأس بيروت، فإنهم لم يكونوا ينجون منها، لذلك كانوا يتقربون من المرسلين الأميركان بإظهار النصرانية، فتنصر بعضهم وتعمدوا ولا غرض لهم من ذلك إلا التخلص من الجندية، هذا هو السبب الحقيقي لتنصر الدروز في رأس بيروت. وكانوا يسمون أنفسهم متنصرة، والحقيقة غير ذلك (الكلام لفانديك) على أن بعض أولادهم لا يزالون على النصرانية إلى اليوم، وبنى لهم المرسلون مدرسة في بيت الوتوات لتعليم أولادهم(٢).

١٩ ـ هنري جسب

ولكي نسير الهوينا مع السياح الأجانب الذين تعاقبوا على زيارة بيروت ووصفها في مذكراتهم، فإننا ننقل ما كتبه المبشر هنري هريس جسب عن بيروت في كتابه الذي جعل عنوانه «٥٣ سنة في سورية» فقد تحدث هذا السائح المبشر عن بيروت أول مقدمه إليها فقال: «أن أول مبشر بروتستنتي أميركي أتى إلى بيروت وسكنها كان يسمى بليني فسك، وكان ذلك سنة ١٨٢٣ وتوفي فيها سنة ١٨٢٥. وأن بيروت كانت في ذلك العهد تلقب بدرة تاج آل عثمان مع أنها بلدة صغيرة، يحيط بها سور فلا تتعداه وإن طولها من الشمال إلى الجنوب ٣ آلاف قدم، وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٥٠٠ قدم، وإن عدد أهلها يتراوح بين ٥ إلى ٨ آلاف نفس، وإن أسواقها ضيقة ذات اعوجاج وقذارة ولم تكن نوافذ بيوتها مزججة، والبيت الوحيد الذي كانت على نوافذه زجاج هو مسكن المستر «أبوت» أول قنصل يومئذٍ لإنكلترا ببيروت. وكان البيروتيون يستقون الماء من الآبار، وهذا الماء بعضه عذب والبعض الآخر لا يخلو من الملوحة.

وكان السور المحيط بالبلدة مرتفعاً من صوب البحر وفيه أبراج وتحصينات أُعدّت لصدّ القرصان من اليونان، كما أعد البرج ظاهر السور على بعد قليل من الباب الجنوبي الشرقي لصد من يريد اقتحام المدينة برًّا. وكان هذا البرج عالياً متيناً يبلغ ارتفاعه ٨٠ قدماً»(٣).

٢٠ ـ المنسنيور ميسلن

إنه لمن المفيد جداً أن يعرف أبناء زماننا كيف كانت عاصمة الجمهورية اللبنانية يوم كانت مركزاً لولاية بيروت العثمانية وذلك

(١) كان لسور بيروت في أوائل القرن الماضي سبعة أو ثمانية أبواب منها: باب السلسلة لمنع المراكب من الدخول إلى الميناء، وباب الدّبّاغة (كان لا يزال قائماً حتى سنة ١٩٢٧) بالقرب من جامع الدبّاغة (الصدّيق اليوم مكانه)، وباب السراي (هدم سنة ١٩٢٧)، وباب الدركة وقد اندثر تماماً وباب إدريس، وباب السنطية (ص ١٢٤ من مجلة الكلية مجلد ١٣ جـ ٢ سنة ١٩٢٧: بيروت في عهد إبراهيم باشا المصري وأعمال الأمير محمود نامي فيها للدكتور أسد رستم).

ويقول المرحوم الشيخ عبد القادر القباني: «لقد أدركت هذه الأبواب تُغلق بعد الغروب بساعتين وتفتح صباحاً» (بيروت: حياتها وتحولاتها ـ مجلة الكشاف المجلد الأول ص ٢٦).

(٢) ادعى كثيرون من المبشرين أنهم نصّروا جماعات من الناس، كل هذا احتيالاً على أموال الجمعيات والأفراد الذين ينفقون على مثل هذه المشروعات. ومن هؤلاء مبشر إنكليزي اسمه «بلدوين» ادعى أن نصر فريقاً من المسلمين، فأرسلت الهيئة التي يعمل بلدوين تحت إشرافها رجالاً ليتحققوا من دعواه فلم يجدوا مسلماً واحداً صبأ على يديه (ص ٤٣ من كتاب التبشير والاستعمار في البلاد العربية ـ لمصطفى الخالدي وعمر فروخ نقلاً عن جسب Jessup ص ٤٧).

ويزعم رشتر أن أكثر الدروز قد أصبحوا بروتستانتيين قلبياً. ولولا أن الدولة العثمانية منعتهم بالقوة من إعلان بروتستانيتهم لأصبحوا كلهم بروتستانتاً ظاهراً وباطناً ثم ينسى رشتر هذا الزعم فيذكر بعد بضع عشرة صفحة، عن الدروز أنفسهم، أنهم لا يفكرون في أن يصبحوا نصارى (نفس المصدر السابق).

(٣) المباحث سنة ٣ جزء ٢ سنة ١٩١١ ص ٩٩٣.

في الهزيع الأخير من القرن الماضي، أي في عهد آبائنا الأقربين، وذلك من خلال ما كتبه عنها المنسنيور ميسلن (Misslin)[1] الذي طبع رحلته عنها في باريس سنة ١٨٧٦ تحت عنوان: «الأماكن المقدسة» وإن هذا المبعوث الديني الكاثوليكي خصّ بيروت ولبنان بحوالى أربعمائة صفحة من كتابه المذكور، الأمر الذي يجعله مصدراً غنياً من مصادر التاريخ البيروتي بين يدي العصر الذي نتحدث عنه.

قال ميسلن:

. . كانت شوارع بيروت وأزقتها لم تزل منذ عهد قريب، مقبية، معتمة، ذات التواءات واعوجاج وقذارة، أما اليوم فقد أجري عليها التوسيع، وقامت هناك بنايات على الطراز الأوروبي عوض البيوت القديمة، وحلت المخازن العصرية الجميلة محل الحوانيت والدكاكين العتيقة. وأنشىء رصيف واسع على البحر، وتزدحم جماهير الناس على اختلاف الألوان والأزياء والألسن على أرصفة بيروت الضيقة وشوارعها وشواطئها، وحول دور القناصل الخافقة فوقها أعلام الدول الأوروبية.

ويتحدث عن البحارة فيقول:

. . وهناك رجال من البشرة السوداء، ونصف عراة يتشاجرون متنازعين المسافرين وأمتعتهم فيحملونها على مناكبهم من الرصيف إلى الزوارق الصغيرة التي تهددها أمواج البحر بالتحطيم.

ثم يقول في موضع آخر:

ورأيت الأعراب جالسين في كل مكان، يستظلون أبواب المنازل والحوانيت أو سجوفاً مضروبة في الشوارع من جانب إلى جانب، ويدخنون النارجيلة ذات الشعبتين (؟) شاخصين بانخطاف إلى دخانها المسكر!

. . ورأيت المكاري اللبناني، يعتصب عمامته الضيقة، متدثراً بعباءته الدمشقية المنبعث من قصبها اللمعان. حاملة على معظمها زخارف الزينة والتجميل، كأنها كتابات مصرية قديمة (هيروغليفية) وأكمامها مفتوحة مسترسلة. . وأمام هذا المكاري بغاله يسوقها وئيداً وينتهرها بصرخات قاصفة مزعجة يرددها بين الفينة والفينة .

(١) لقد كان ميسلن أحد الشخصيات الدينية الكنسية، وقد شغل منصب واعظ البيت المالك في فيينا عاصمة النمسا وأحد رؤساء البلاط البابوي أيام البابا «بيوس التاسع» (١٨٢٦ - ١٨٧٨) ورئيس كنيسة السيدة العذراء دي ديج في بودابست عاصمة المجر. وقد ترجم كتابه إلى العربية صديقي الأب أغناطيوس طنوس الخوري المنتقل إلى عفو الله منذ سنين قريبة.

. . وإلى ذلك أيضاً بدوي البادية في زي جاف غير مأنوس، يقود قطاراً طويلاً من الجمال، شادياً حادياً فوق سنام أكبر بعير منها، مزيناً بأصداف البحر الحمراء.

ويبدي ميسلن رأيه في الزي الشرقي فيقول:

وعلى الغالب إن الزي الشرقي واسع فضفاض ومعرقل مزعج، ذو ألوان زاهية حادة، لكنه على فخامة وروعة عندما يكون نظيفاً، وهو سراويل واسعة وسترات وقمصان وأردية، وعمائم وزنانير، يلبسها الرجل كلها في آن واحد! . فيعبث بها الهواء على كيفه، وتنزل حتى الأرض في طيات وثنايا ثقيلة!

ثم إن ميسلن أراد أن يعطي مواطنيه في أوروبا فكرة عن الفوارق الشكلية التي يتميز بها أبناء المذاهب الدينية بعضهم من بعض من خلال أزيائهم وملابسهم، فيقول:

أما الدروز، فلباسهم وشاح دون أكمام، ذو أميال وخطوط بيضاء وسوداء يلبسون فوقه قميصاً ويتمنطقون بزنار له أهداب يضبطون أو يمسكون به محبرة معدنية (دواة نحاسية) مع خنجر وغدارة (مسدس) وقلما يترك الدرزي بارودته الطويلة التي يتقلدها بحمّالة لها، ينتعلون أحذية حمراء ذات رؤوس أمامية مرفوعة ومروّسة وشكل هذه الأحذية يستعمله الجميع في سورية.

أما الموارنة فيتميزون في ظاهرهم عن الدروز والمتاولة، فيحتفظون بالثوب فقط بينما أولئك يرسلون اللحية كاملة على مثال سائر المسلمين.

أما النساء فيتحجبن عند الخروج بزي على غاية من الاستهجان بليغة، ولا يرضين أن يحجبن نصف الوجه فقط كما تفعل نساء اسطمبول، بل يحجبنه كله بإزار من نسيج هو في الغالب أسود اللون معقود على الرأس عقداً محكماً، ويطرحن فوقه نسيجاً أبيض يجلببهن من الرأس إلى القدمين، كأنهن في ذلك أشباح وأطياف، ويتعثرن في سيرهن البطيء بذلك الحجاب الأسود وبأحذيتهن المزدوجة، فيزدن المشهد غرابة، أو يبدين للعيان خيالات أو وطاويط!

وعلى مثال المسلمات هذا، تظهر المسيحيات أيضاً في الشوارع، ما عدا نساء الإفرنج. ويقال إن هذه المجاراة هي خصيصاً لاستجلاب احترام الأتراك (أي المسلمين) والنساء الأوروبيات يخرجن دوماً سافرات!

على أن نساء بيروت، يلبسن تحت الزي الخارجي المضحك بغرابته وعدم هندامه، ثياباً فاخرة مفوّفة، معممات الرؤوس بكياسة فائقة، وعليها قبعات من الذهب المطرز بالنقوش، وغدائر من الشعور الكثيفة، تزينها سلاسل طويلة من

النقود الذهبية ويرتدين أيضاً صدرية مطرَّزة بإتقان رائع ومفتوحة على الصدر وسراويل فضفاضة من الحرير، ويتمنطقن بزنانير ذات ألوان زاهية حادة متنوعة، وينتعلن خفافاً حمراء أو صفراء.

هذا هو الزي المألوف في الطبقات الميسورة والغنية .

بعد هذا الاسترسال العجيب في رسم صورة مثيرة لطبقات المجتمع البيروتي لا تكاد تقترب من الواقع حتى تبتعد عنه، يعود الأب ميسلن إلى طبيعته الإنسانية فيترك جانباً قلم الكاهن الذي يعيش دهره تحت القباء الأسود ويتناول قلماً آخر هو أقرب إلى أن يكون قلم شاعر حساس ويغمس ريشته في مداد من المشاعر المتأثرة بجمال بيروت برها وبحرها وجبلها. . ونراه يقول:

«على أبواب بيروت، وفي ساحاتها وهضابها الصغيرة الفاصلة إياها عن تلك الضواحي والجنائن، وعن تلك الباقة الخضراء من البنايات الحديثة، وأشجار النخيل والصبير والزيتون والتوت والجميز والخرنوب، هناك تنتشر خيام خضراء عديدة، يدير مشهدها في الخلد أن المدينة في حصار، وهذه الخيام مضروبة لحماية عسكرية معسكرة تحت تلك السماء الرائعة مفضلة الهواء المعطر بأريج الليمون على جو الثكنة الموبوء بالعفونة والنتانة!

. . وإذا بدت بيروت أجمل مدينة على شواطىء لبنان وسورية، فهي تجاوب المقترب منها على ما يعهد هو في داخلية المدن المنظمة، ومع ذلك فهي عند النظرة الأولى إليها من الخليج حيالها، تتراءى راقدة برخاوة النعاس على هضبة ممعنة في الروعة والجمال كأنها تعانق الأحلام.

. . . وبيروت في إكليل من البيوت المجهزة بالقناطر المدورة ذات البيكارين، ومن الأسهم والسطوح والأطلال والأسوار المفرَّضة، وقباب الكنائس ومآذن الجوامع، وأشجار الصنوبر الباسقة، ينتزع البحر، أجمل البحار، نظراتها الممعنة أيّ إمعان في التأمل والتفكير، ويغمرها بحر من النور كأنها الأوقيانوس!

أجل، ذلك هو العجب العجاب!»[1].

بيروت في أوائل القرن العشرين بقلم سائح أميركي

فيما سبق كنا في جولة دهرية برفقة الرحالين الأجانب الذين استقبلتهم بيروت عبر الأجيال والسنين حجاجاً أو سياحاً أو مغامرين. وليس من شك في أن ما رأيناه في مدينتنا عبر هذه الجولة غاب في أعماق التاريخ وأصبح الحديث عنه رهين أوراق المذكرات والكتب.

أما الآن فإن جولتنا ستكون مع ذلك السائح الأميركاني الذي قذفته رياح الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) إلى شواطئنا الدافئة. وما إن حطت به عصا الترحال في أفيائنا حتى غمس ريشته في ما وجد عليه بيروت وأهلها وراح ينقل هذه المشاهدات إلى أهله وذويه في أميركا بالأسلوب الأميركاني دون زيادة ولا نقصان. وأنا أنقل هذه الرسالة الأميركانية عن جريدة المعرض في عددها الصادر سنة ١٩٢١ ورقمه ٢٠. وفي الصفحة الأولى من هذا العدد قالت المعرض تحت عنوان: بيروت في المكبرة:

«زار أحد كبار الأميركيين بيروت ومكث فيها مدة ثم عنّ له أن يكتب إلى والده الرسالة التالية:

سيدي،

طلبت إلي أن أكتب إليك شيئاً من ملاحظاتي الشخصية عن أحوال بيروت، وها أنا ملبٍّ طلبك بعد تردد طويل لأن بيروت والحق يقال مدينة مملوءة بالمتناقضات المعجبات!

أخلاق أهل بيروت

أما أهلها فأصحاب لطف وذوق، وكما يقال عندهم، أهل معشر وأصحاب كيف، مصروفهم أكثر من مدخولهم، وما ذلك عن عدم إدراك عندهم للأحوال العمومية، بل لأن مصائب الحرب علمتهم أن الإنسان لا يأخذ معه شيئاً من الأموال التي يجمعها، وهم يعتقدون، ولا أدري من أين جاء لهم هذا الاعتقاد، أن الله رفض تداول الورق النقدي في كل المناطق التابعة لحكمه أو الواقعة تحت انتدابه في السماء، لذلك تراهم يصرفون ضعف ما يدخل عليهم وهم غير سائلين!

سألت كثيراً لأرى في هذه العاصمة نادياً أدبياً يختلف إليه الأدباء بين شبان وشابات أوقات الفراغ فلم يجاوبني أحد على سؤالي هذا، بل كانوا يضحكون مني ويقولون: ألا تكفي القهوات والمتنزهات والكلوبات الموجودة في بيروت حتى تسأل عن نادٍ جديد؟ ففهمت من جواباتهم هذه أنهم لا يحبون أن يفرقوا بين كلوب العرق ونادي الأدب.

وهم يفسرون آيات الكتاب المقدس على كيفهم.

والذي عجبت له كثيراً، هو أن أهالي هذه العاصمة قد تجرأوا وغيّروا آية الكتاب المقدس في آخر فصل التكوين، فبدلاً من

(١) ص ٥١٧ - ٥٢٣ من كتاب رحلة المنسنيور ميسلن مرشد إمبراطور النمسا ورئيس بلاط البابا بيوس التاسع إلى لبنان. نقله إلى العربية مع نظرات وتعاليق الأب أغناطيوس طنوس الخوري، الراهب اللبناني، طبع بيروت ٢٨ أيار سنة ١٩٥٩.

أن يقولوا، «وفي اليوم السابع استراح» حذفوا هذه الجملة وكتبوا مكانها «وفي يوم الجمعة والسبت والأحد استراح»! . . عدا أيام الأعياد التي لا يمر أُسبوع دون أن يمرّ فيه عيدان.

وقد رأيت أصحاب القهوات وا! تنزّهات مسرورين من هذه الحركة الدينية في بيروت، وقد نذروا الشموع والبخور للأولياء والقديسين وللقديسات الصالحات إلهاماً لأهل بيروت بالتشبث في إكثارهم من أيام البطالة، لأن محلات العمل والشغل تفرغ في هذه الأيام وتمتلىء مكانها محلات اللهو والكيف، وهذا ما يسمونه يوم راحة في هذه البلاد.

ومن الغريب أن أصحاب هذه البلاد أهل دين وعصبية دينية في أقوالهم ومظاهرهم وأحقادهم، وأما في الكنائس والجوامع والمعابد فهم من أكبر الملحدين ولا يؤمنون بشيء.

بيروت قبيل الحرب العالمية الثانية أي سنة ١٩٣٠

لقد كنت أحب أن أجعل من رسالة «ابن العم سام» الأميركي خاتمة لطوافي في أزقة بيروت وحديثي عن البيروتيين، بيد أني وجدت بين أوراقي الخاصة مقالة كان قد كتبها المرحوم نجيب الريس صاحب القبس الدمشقية. تناول فيها بيروت من خلال انطباعاته عنها أثناء الليل وأطراف النهار، وجعلها كمدينة النحاس في حكاية ألف ليلة.. وليلة. فأحببت أن أجعل من مقالة المرحوم الريس، على الرغم من أن كاتبها لم يكن أجنبياً ولا من بين الرحالين العاديين، مسك الختام لهذا الحديث الطويل.

قال المرحوم ابو رياض نجيب الريس (القبس في ١٦ أيار سنة ١٩٣٠ ـ دمشق):

يعرف الذين قرأوا ألف ليلة وليلة تلك الحكاية العجيبة «حكاية مدينة النحاس» وما فيها من عجائب ومتناقضات: قاعات مملوءة بصفائح الذهب، وكيمان اللؤلؤ، إلى جانبها أقبية مظلمة تكدست فيها جثث الموتى وهناك على يمين المدخل وادٍ احتلته الأفاعي يقوم على مقربة منه قصر تنبعث من نوافذه الأنوار، وتسمع من فرجاته أصوات الضحك والمرح، فيه نساء راقصات، ورجال سكارى، يتمتعون بأجمل ما في الحياة من ملذات ولهو. بينما يجاور هؤلاء القوم جماعة فقراء يأكلون قشور الفاكهة وفضلات الطعام ويبكون الليل بطوله، ولكنهم يضحكون النهار كأن لم يكن في نفوسهم من آلام الليل ما يذهب بمسرات النهار. . .

إن الذين قرأوا هذه القصة أو الأُسطورة لا يلبثون أن يتمثلوها أمامهم ويروا أنفسهم في «مدينة النحاس» عندما يقيمون في بيروت بضعة أيام، ويتعرفون إلى حياتها في الليل والنهار، فهناك فعلاً قاعات مملوءة بالذهب، إلى جانبها وديان مفعمة بجثث الموتى . . . هذه هي بيروت في الليل بل هذه هي حياتها المرحة الهانئة تبدأ منذ الساعة السادسة بعد الظهر إلى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. أما في النهار فالويل لبيروت من النهار: سوق تجارية مخيفة ليس فيها غير حوادث الإفلاس المتتالية. أما المحاكم فقد غصت قاعاتها بالمتداعين: هذا بائع طرابيش يعلن إفلاسه على خمسة وعشرين ألف ليرة عثمانية ذهباً يطل على دائنيه من نافذة غرفة التوقيف يساومهم ويساومونه على دفع الدين ثلاثين في المئة ثم يتدخل السنديك فيرفع النسبة إلى الخمسين. وهناك كتلة من المحامين بأروابهم السوداء الجميلة يتحدثون عن محلات تجارية كبرى أفلست أو طلبت التصفية القضائية وأن فلاناً عرض مايته ستيناً فرفض الدائنون وقدم أملاكه ضمانة على الدفع فوضعت القضية تحت البحث.

ثم تغادر قصر العدلية إلى بنكو دي روما أو غيره من البنوك الأخرى فتجد المدير أو المفتش في خلوة مع رجال الاستخبارات، ولكن هؤلاء غير رجال الاستخبارات السياسية: إنهم جواسيس على السوق وعلى سيرة التجار يقدمون له التقارير الشفوية عن هذا المحل وعن ذاك، فلان تدل ظواهره على أنه يهيّىء طابقه وينظم دفاتره استعداداً لطلب التصفية أو التوقف عن الدفع، والآخر تنطق أسارير وجهه على أنه مرتبك ولكن أملاكه تسد العجز هذا إذا لم يكن عليه استحقاق لمعامل أوروبا . . .

هكذا ينقضي النهار في بيروت: أحاديث كلها إفلاسات ونكبات . . . ولكن عندما تطل الساعة السابعة تشهد أسراب السيارات تدفع مقدماتها مؤخراتها، وتشهد قاعات الرقص في الميرامار والرستوران كأنها بعض مشاهد مدينة النحاس، وإذا بهذا التاجر الذي أعلن افلاسه في النهار لا يخجل أن ينتحي في الليل ناحية من قاعة المرقص وأمامه مائدة صفت فوقها أقداح الشمبانيا وإلى يمينه بعض أصدقائه وندمائه وإلى يساره هذه «الأرتيست» المجرية أو الرومانية فينسى في جمال عنقها وبريق عينيها عشرات «الكمبيالات» التي رفض دفعها بوقاحة قائلاً لقواص البنوك: أرسلوها إلى البروتستو . . إلى جهنم! . .

هذه هي بعض مشاهد بيروت في الليل والنهار.

بيروت وراء أبوابها السبعة

في الأزمنة الغابرة وحتى أواسط القرن الماضي لم تكن مدينة بيروت تغطي هذه المساحة الواسعة من الأرض التي تشغلها اليوم، بل إن هذه المدينة كانت إلى ما قبل القرن ونصف القرن من أيامنا، عبارة عن مجموعة من المساكن المتلاصقة المحشورة في رقعة ضيقة من الأرض طولها لا يزيد عن سبعمائة وخمسين متراً وعرضها حوالى ثلاثمائة وسبعين متراً، يحيط بها من جهاتها الأربع سور من الحجارة الرملية المدعومة بأنقاض الأعمدة المتخلفة عن حطام الآثار الرومانية والبيزنطية القديمة، وتتخلل هذا السور الذي بناه أحمد باشا الجزار في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد بضعة أبراج ذات أبواب مصفحة بقطع من الحديد المثبت على الأبواب بمسامير ضخمة ناتئة.

كان هذا السور يمتد من الجهة الشمالية لساحة رياض الصلح الحالية ويسير شرقاً حتى كنيسة مار جرجس المارونية التي كانت تقع عند بنائها في ظاهر السور. ثم إن السور يمتد بعد ذلك إلى سوق أبو النصر الذي كان هو الآخر يقع خارج السور، إلى أن يصل، أي السور، إلى بناية دعبول تجاه جامع السراية المعروف اليوم باسم جامع الأمير منصور عساف (التركماني من آل عساف)، ثم ينحدر شمالاً إلى آخر شارع فوش الحالي عند الطرف الغربي لمنطقة المرفأ، ومن هناك يأخذ هذا السور سبيله غرباً حتى مقبرة السنطية التي كانت خارج المدينة وسورها، ثم يعود فيرتفع مع الشارع الممتد حالياً باتجاه باب إدريس ثم صعوداً إلى الكاتدرائية المعروفة باسم «الكبوشية» التي كانت أيضاً خارج السور، ثم يلتقي أخيراً مع البداية التي انطلق منها في شمالي ساحة رياض الصلح التي كانت تعرف من قبل باسم «ساحة السور» أو كما يسميها عامة الناس «عصّور» أي «على السور».

ويتبين مما تركه السياح الأجانب من كتابات في وصف بيروت آنذاك أن هذه المدينة كانت تعرف عندهم باسم «المدينة المربعة»: مساكنها أشبه بأكواخ ترتفع في وسطها إلى عنان السماء ثلاث منائر (أي مآذن) على شكل شوكة مثلثة الأسنة.

يقول الكونت دومنيل دو بويسّون في مقال نشرته له مجلة (Syria) سنة ١٩٢١ «.. كان قياس تلك المدينة من أرصفة مرفئها القديم إلى باب الدركة الجنوبي (رأس المعرض اليوم) يبلغ ٧٥٠ متراً فقط. أما قياس امتدادها من بابها الشرقي، أي باب السراية إلى بابها الغربي، أي باب إدريس، فما كان يزيد على ٣٧٠ متراً.. وكان الغالب عليها أسواقها التي في النهار كانت تموج في وسطها وعند أبوابها بحركة البائعين والتجار ثم تعود إلى هدوئها ليلاً بعد أن تقفل أبوابها وتودع مفاتيحها عند واليها. أما خارج المدينة فكنت ترى بعض البساتين والمقابر غير المنتظمة ولا سيما كثبان الرمل التي تخترقها منابت الصبّير. . هذا ما يلوح من صورة بيروت التي رسمها مسيو مونفور (Monfort) في ٢ تشرين الأول سنة ١٨٣٧ م».

أبواب «بيروت القديمة»

المؤرخون المسلمون القدماء مثل ابن حوقل والمقدسي عندما تحدثوا عن بيروت وصفوها بقولهم: «إن بيروت مدينة محصنة عتيقة السور» والذي يبدو أن هذه المدينة لم يكن لها أهمية عسكرية استثنائية في أيام ازدهار العهد العثماني، ولم يكن ولاتها من قِبَل اسطمبول يهتمون بالعناية بسورها وما فيها من أبراج وحصون، إلا أنه في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تغير الوضع بالنسبة لهذه المدينة عندما طمع بها أحمد باشا الجزار واستطاع انتزاع حكمها من يد سيده السابق الأمير يوسف الشهابي الذي كان يبسط سلطانه عليها وعلى جبل لبنان الذي كان يعرف آنذاك باسم «جبل الدروز» لغلبة أبناء الطائفة الدرزية فيه.

وعندما أصبحت بيروت خالصة لأحمد باشا الجزار جدد هذا

الوالي عمائرها العسكرية وأنشأ فيها السور، وبالغ في تحصين هذا السور، وأقام على محيطه أبواباً ضخمة كانت تفتح للداخلين إلى المدينة والخارجين منها ما بين شروق الشمس عند الصباح وغروبها في المساء، ويقوم على حراستها أشخاص موكلون بها سائر النهار والليل، ولم يكن يسمح لأحد بدخولها بعد إغلاقها إلا إذا تأكد الحراس من شخصيته وهويته وسلامة نيته. من ذلك أن حارس الباب يسأل القادم عليه: من أنت؟ فإذا سمع ما يطمئنه خاطبه قائلاً: إذن وحّد الله، فيرفع القادم صوته بشهادة التوحيد عند المسلمين وهي «لا إله إلا الله». وعندئذٍ يفتح الحارس باب السور ويسمح للقادم إلى المدينة بدخولها.

ولقد تحدث الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله عن أبواب بيروت القديمة في مقال نشرته له مجلة «الكشاف» البيروتية في مجلدها الأول سنة ١٣٤٥ هـ (١٩٢٧ م) وذكر أنه أدرك هذه الأبواب قبل إزالتها وذلك بقوله:

«. . . يروى أن مدير الكمرك، بالاتفاق مع والي عكا سنّ للأمير يوسف الشهابي لزوم إنشاء السور لبيروت، فتولى مدير الكمرك إنشاءه وحصّنه بالأبراج من جهة أبوابها، وجدد بناء القلعة والطوابي من جهة البحر، والبرج الذي هدم فيما بعد وقامت بناية الكمرك مكانه، وجعلوا للسور خمسة أبواب: باب الدركاه، وباب يعقوب من جهة الجنوب، وباب المُصلّى وباب الدباغة من جهة الشرق، وباب السمطية من جهة الغرب، ومن جهة الشمال الميناء وكانت محصنة بالقلعة والبرج والطوابي. . .».

ثم يتابع الشيخ عبد القادر القباني حديثه عن ذكرياته في «بيروت القديمة»، قبل زوال أسوارها وأبوابها واتساع بنيانها وعمرانها، ويقول:

«. . ولقد أدركت هذه الأبواب تغلق بعد الغروب بساعتين وتفتح صباحاً. . وكان بالأبراج بجوار الأبواب جند للمحافظة. وكان لهم وللمدفعية في القلعة والطوابي شأن مع سفن اليونان الذين غزوها مع الفجر وارتدّوا أدراجهم غير موفقين بعد معركة سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٣٤م)».

الخلفيات السياسية لإغلاق الأبواب وفتحها

إن الاستراتيجية الحربية القديمة كانت تعتمد على تسوير المدن وانطوائها داخل أبوابها المحصنة بالطوابي والأبراج لحمايتها من العدوان الخارجي في أثناء الخصومات المسلحة، وهذا ما اتبعه حكام بيروت على مدى التاريخ. على أن أحمد باشا الجزار حاكم بيروت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومن بعده إبراهيم باشا (المصري) الذي احتلّ المدينة بقواته في أواسط القرن الذي تلاه قد استخدما هذا السور وما فيه من تحصينات وأبواب لأغراض أمنية داخلية، وفي مقدمة هذه الأغراض منع بعض الأشقياء من رعايا جبل لبنان من التسرب إلى داخل بيروت والعيث فساداً في ربوعها، أو العبث براحة البيروتيين وأمنهم واستقرارهم ومصالحهم العامة. حتى إن الجزار حظر الإقامة في بيروت على أهل الجبل - النصارى - وعلى أمرائهم الشهابيين الذين هدم ما كان لهم في هذه المدينة من قصور وقيصريات ومساكن.

وفيما يلي نص الرسالة التي وجهها إبراهيم باشا (المصري) إلى القنصل الإنكليزي في بيروت لإحاطته علماً بأن الضرورات الأمنية اقتضت إقفال أبواب بيروت للمحافظة عليها من هجمات الثوار اللبنانيين الذين وصفهم بأنهم «بعض أشقياء من رعايا جبل لبنان».

«الجناب الأكرم، حضرة المحب الأجل المحترم، قنسلوس بك دولة الإنكليز المحتشم حفظه الله تعالى؛

ليس خافي محبتكم الحال الواقع من ظهور خروج بعض أشقيا من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية. ومن جراء ذلك رعايا بيروت من إسلام وذميون (هكذا وردت) سُكنا البريَّة، متحسّبين، وعمّال ينزّلوا عفشهم إلى البلدة، والبعض نزلوا من محلاتهم إلى البلدة، فبحيث الحالة هذه: وللمحافظة المأمورين بها، واحتراساً لأمرٍ ما، اقتضى التنبيه بأن كافة البوابات تقفل أذان المغرب وبالإذن يصير فتح بوابة السراي إلى حد العِشاء فقط، وبعد أذان العِشاء المتقدم شرحه، ما في رخصة لفتح البوابة كليًّا، بل الذي يكون داخل البلدة يفضل بها كما والذي خارج البلدة أيضاً. وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولأجل المحافظة المأمورين بها اقتضى إفادة محبّتكم بذلك وإنه تعالى يحفظكم.

الختم: محمود نامي

مير محمود
محافظ بيروت

عدد أبواب «بيروت القديمة» وأسماؤها ومواقعها

يكاد يكون من الثابت أن أبواب «بيروت القديمة» سبعة، وإذا كان بعضهم يجعلها ثمانية فذلك راجع في الأرجح إلى تكرار أحد الأبواب باسمين مختلفين كما هو الشأن بالنسبة لباب الدركة الذي كان الناس يسمونه أيضاً باب الأربعين لقربه من المحلة المعروفة بهذا الاسم. كما أن بعضهم عد أيضاً «باب أبو النصر» المستحدث من بين الأبواب القديمة، وهو ليس منها سواء من الناحية التاريخية الزمنية أو من الناحية الإستراتيجية العسكرية.

العالم الأثري الفرنسي دومنيل دو بويسّون في كلامه عن التحصينات العسكرية في «بيروت القديمة» جعل عدد أبواب هذه المدينة سبعة وذكرها بالأسماء التالية:

١ - باب السلسلة، ٢ - باب الدباغة، ٣ - باب السراي، ٤ - باب أبو النصر، ٥ - باب الدركه، ٦ - باب يعقوب، ٧ - باب إدريس.

وقد تكرر هذا العدد في كتابات أكثر المصنفات الأجنبية والوطنية، وفي بعضها اتفاق في الأسماء وفي بعضها الآخر اختلاف، من ذلك الدكتور أسد رستم المحقق التاريخي المعاصر حيث يقول في مقال نشره في مجلة «الكلية» الصادرة في الجامعة الأميركية ببيروت سنة ١٩٢٧ م تحت عنوان «بيروت في عهد إبراهيم باشا»:

«. . . كان لسور بيروت في أوائل القرن الماضي (التاسع عشر الميلادي) سبعة أو ثمانية أبواب منها: باب السلسلة، لمنع المراكب من الدخول إلى الميناء، وباب الدباغة، وهو لا يزال قائماً بالقرب من جامع الدباغة، وباب السراي، وهو لا يزال على تمامه تقريباً بالقرب من مركز الحكومة اللبنانية (وقد هدم بعد كتابة هذا المقال) وباب الدركة، وقد اندثر تماماً، وباب يعقوب، فباب إدريس، وباب السنطية».

أما الشيخ عبد القادر القباني فإنه أحصى في سور «بيروت القديمة» خمسة أبواب ذكرها بأسمائها التي أوردها في مقاله الذي أشرنا إليه من قبل، وهي الأسماء التي كانت مشتهرة على ألسنة الناس في زمانه (أوائل هذا القرن العشرين للميلاد).

لماذا كانت الأبواب سبعة لا أكثر ولا أقل؟

لعلنا لا نبتعد عن الحقيقة والواقع إذا فسّرنا اقتصار أبواب «بيروت القديمة» على عددها المتفق عليه، أي «سبعة» من خلال المدلول الخاص لهذا الرقم عند المسلمين، وكذلك عند غيرهم من الأقوام: ساميين وغير ساميين. . كما يمكننا القول، دون أن نخشى الزلل، أن هذا الرقم كان له عند العرب معنى التكامل الذي له أبعاده الروحية والدينية بالإضافة إلى ارتباط أذهانهم بإيجابياته المتصلة اتصالاً وثيقاً بالسماوات السبع الوارد ذكرها في المأثورات العقائدية.

وعلى هذا يكون اقتصار أبواب «بيروت القديمة» على عدد سبعة إنما هو من قبيل التفاؤل بقدرة هذا العدد على حصانة هذه الأبواب وكفايتها على حماية البلد وأهله من أذى وعدوان كل شانىء يتربص به الدوائر سواء من داخل جبل لبنان أو من خارجه.

أسماء الأبواب ومواقعها في بيروت القديمة

إن أبواب «بيروت القديمة» اكتسبت أسماءها من أسماء الأماكن التي تواجدت بقربها، وأحياناً من أسماء الأشخاص المكلفين بحراستها أو المقيمين بجوارها، وفيما يلي تفصيل ذلك بالنسبة لكل باب من هذه الأبواب على حدة.

١ - باب السلسلة

يمكن القول إن هذا الباب هو أقدم أبواب «بيروت القديمة» عهداً، إذ يرجع بتاريخه إلى أيام نائب الشام الأمير بيدمر الخوارزمي المملوكي. وفي كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى إشارة لهذا الباب وبانيه بيدمر المذكور، يقول مؤلف الكتاب:

«ولما جدَّد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت على جانب البحر، جعل أوله من عند الحارة التي لنا على البحر واصلاً تحت البرج الصغير العتيق، عمارة تنكز، نائب الشام المعروف ببرج البعلبكية، وجعل بين هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركّب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج فسمي «باب السلسلة».

أقول، هذا الباب لم يكن من الإنشاءات التي أقامها الجزار في بيروت أثناء ولايته على هذه المدينة في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، بل إنه من أعمال الحكام المماليك. وكان الغرض منه منع السفن الغريبة من دخول مرفأ بيروت والخروج منه إلا بإذن من السلطات المملوكية في ذلك الحين.

وأغلب الظن أن ما كان في الأيام الماضية والأجيال التي تقدمتنا يعرف باسم «السلسول» أو «السنسول» في المرفأ، هو نفس ما كان يعرف قديماً باسم «باب السلسلة» ولكن مع تغيير أساسي بين ما كان عليه هذا المكان في الأزمنة الماضية البعيدة وبين ما آل إليه أمره في العصور الحديثة.

٢ - باب السراي

كان هذا الباب يقع عند رأس شارع فوش الحالي، في مكان بناية دعبول حيث كانت وزارة الاقتصاد تجاه جامع الأمير منصور عساف الذي اشتهر هو الآخر سابقاً باسم «جامع السراي» أو «جامع دار الولاية». والمقصود بالسراي ودار الولاية القصر الذي كان مركزاً لحاكم المدينة وأعوانه من الموظفين. وكان هذا القصر قائماً في الأرض التي شغلها سوق سرسق فيما بعد. وبعضهم ينسب القصر إلى الأمير فخر الدين المعني الثاني حاكم بيروت وجبل لبنان في الثلث الأول من القرن السابع عشر

الميلادي. وآخرون ينسبونه لمعاصره الأمير منصور عساف الذي بنى الجامع الذي مرَّ ذكره.

هذا الباب اشتهر باسم «باب السراي» وذلك لوقوعه بالقرب من السراي المذكورة كما اشتهر أيضاً، في مطلع القرن الحالي، أيام آبائنا باسم «باب المصلَّى» لوقوعه بالقرب من «ساحة المصلى» إحدى ثلاث ساحات في «بيروت القديمة» والاثنتان الأخريان هما «ساحة الدركه» و«محلة الثكنات».

وعندما كتب الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله خاطراته عن «حياة بيروت وتحولاتها» في أيامه، ما بين أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي، حدد لنا مكان الباب الذي نتحدث عنه وقال إنه يقع من جهة الشرق - أي شرق المدينة -. أما «ساحة المصلّى» الذي كان باب السراي يقع فيها وينسب أحياناً إليها فإن الشيخ عبد القادر وصفها لنا، ونقل إلينا ما كان يجرى فيها على عهده مما أدركه هو بنفسه قبل زوال الساحة والباب الواقع بقربها.

قال هذا الشيخ الفاضل:

«ساحة باب المصلَّى، أو باب السراي، ويحدّها من الغرب سراي الحكومة القديمة، وقد شيّد مكانها ومكان حديقتها «سوق سرسق وتويني وشركاهم»، ومن الشرق الطريق المؤدية إلى محلّة المدوّر، ومن الجنوب خان الوحوش، وسهلات البرج، ومن الشمال قطعة الأرض التي شيدت فيها البناية التي تعرف بخان سعيد آغا وما جاورها من البناء شرقاً. ويقال - والكلام للشيخ عبد القادر - إن هذه الأرض كانت قسماً من جبّانة المصلى، استولى عليها نعيم أفندي، أول من تولى إدارة الأوقاف في بيروت، فأخذ أوقاف المساجد من نظّارها وأنشأ فيها البنايات المذكورة، ثم تداولتها الأيدي».

كان ضمن هذه الساحة «المصلى» وكانت تقام عنده الصلوات وعلى الأخصّ صلاة العيدين. في هذه الساحة كان اجتماع أولاد المحلات المجاورة لجامع الأمير عساف المعني (الأصح التركماني) المعروف بجامع السراي، وأولاد الزواريب الكائنة في سوق الفشخة (الشارع الجديد) وقد هدمت أكثر تلك الأماكن توسيعاً للطرق العامة.

إن باب السراي بقي قائماً بحالة جيدة إلى أن تم هدمه سنة ١٩٢٧ م عندما بوشر بتخطيط الشوارع في المدينة القديمة. وبقرب هذا الباب كان يوجد شجرة جميّز كبيرة يستظل بها «حلاق بلدي» يتألف «صالونه» من كرسي يجلس عليه الزبون ومرآة ليس لها إطار يحملها الزبون بيده أثناء عملية الحلاقة التي يدفع مقابلها للحلاق رغيفاً وبصلة.. والله يحب المحسنين.

وفيما يتعلق بوصف هذا الباب فإننا لا نملك صورة تبين لنا شكل باب السراي على حقيقته القديمة، ولذلك فإننا نكتفي بما كتبه في وصفه دومنيل دو بويسون الذي قال «إنه - أي الباب - قد بلغ إلى عهدنا (١٩٢٢) على تمامه تقريباً مع ما كان يستند إليه من الأبنية الجنوبية الشرقية. فنرى هناك أولاً بناية الباب المربّعة، ثم مقدمة السور القديم، ثم برجاً مربعاً مستطيلاً يدعمه السور، فواجهة الباب من خارجه تتألف من حائط بسيط تعلوه شرفات صغيرة وتحميه كُوًى للقذائف غير منتظمة، وفوقه، كما فوق باب الدباغة بناية مع دعائمها الثلاث لحماية الباب، وقد فتح في هذه البناية القديمة شباك يشوّه منظرها ويعرّضها للخراب، والباب على شبه باب الدباغة يسنده قوس محدَّب، ينزل إلى عتبته بأربع درجات منعطفة عند أطرافها، والعتبة أسطوانة لعمود قديم، وعلى يمينه منشأ سور المدينة الذي يؤلّف بالنسبة إلى باب السراية زاوية مستقيمة فيفيده متانة من تلك الجهة، وكان توجيه الباب نحو الزاوية الشمالية الشرقية. وكذلك الكُوَى لرمي القذائف ليست على خط مستوٍ لكنها مائلة إلى الزاوية عينها التي تتألف في قسمها الأعلى من بسطة سوية تعضدها قنطرة صغيرة.

وكان السائر ينفذ إلى داخل السور مارًّا تحت قبة مقرَّنة. وللباب من هذه الجهة منظر بديع، فإن قوسه الكبير يشبه حِنْية في تقويسها شيء من العوج وفوقها سطح صغير على علوّ طابقها الأول الذي يُرقى إليه بدرج باطنيّ بُنيَ فوق قوس صغير يستند إلى القوس الكبير. وكان الراقي إلى السطح المذكور يمكنه أن يبلغ إلى أعلى الأسوار ويصعد إلى السطح الأعلى الذي فوق الباب.

٣ - باب الدباغة

هذا الباب كان يقع في طرف سور «بيروت القديمة» عند وصوله إلى مرفأ المدينة، وقد دعي بهذا الاسم لأنه يؤدي مباشرة إلى سوق الدباغين وقد أدركت شخصياً بقايا هذه السوق، وفيها مصنع لدباغة جلود الحيوانات وكان ذلك حوالى سنة ١٩٣٥ م.

وبجانب الباب كان يوجد مسجد صغير اشتهر عند الناس باسم «جامع الدباغة» لوقوعه بجانب سوق الدباغين، وقد هدم هذا المسجد عند تخطيط الشوارع في المنطقة التي يقع فيها وبُني في مكانه مسجد جديد أطلقت مديرية الأوقاف الإسلامية عليه اسم: «جامع الصِّدِّيق» تيّمناً باسم الصحابي الجليل أبي بكر الصِّدِّيق، أول الخلفاء الراشدين رضي اللّه عنه.

في وصف هذا الباب قال دومنيل دو بويسّون، أثناء كلامه عن التحصينات العسكرية في «بيروت القديمة»:

«.. باب الدباغة فُتح في بَدَنة السّور، عرضه نحو مترين

وستين سنتميتراً. كان يعلوه قوس محدّب من حجر، وبقرب القوس المذكور من باطنه خشبة ضخمة تعترضه، لها في طرفَيْها ثقبان، وعلى هذا المثال بقية الأبواب كباب السراي وباب يعقوب، وباب قلعة المعزّ في صيدا.

وقد أقيم فوق الباب، لحراسته، بناية مستندة إلى ثلاث دعائم كان الجنود يرمون منها القذائف على العدو، وكان باب السراي مجهّزاً بمثلها. وليست هندسة الباب على شكل واحد في جانبيه شرقاً وغرباً، فإن بناءه أوسع من جهة الشرق وأدقّ صنعاً مما يدل على عهد أقدم».

وجدير بالذكر أن الصورة الوحيدة التي أُخذت لهذا الباب قبل زواله هي تلك التي نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي في الصفحة الأولى من كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى. وهذه الصورة تمثل الباب من خارجه مع قسم من قبّة جامع الدباغة قبل إزالته.

كان سور «بيروت القديمة» يمتد عبر هذا الباب إلى أن يصل إلى عند باب السراي. وعلى امتداد هذه المسافة وبحذائها مقبرة إسلامية عرفت آنذاك باسم «الخارجة» لوقوعها خارج المدينة والسور، وعند الطرف الآخر من السور مقبرة أخرى للمسلمين أيضاً وهي: السنطية. المقبرة الأولى (الخارجة) درست في السنوات الأولى من عهد الانتداب الفرنسي واستعملت رحبتها من قبل تجار الخضار بالجملة، ثم أصبحت أرضها وقفاً لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي بنت عليها فيما بعد منشأة كبرى ضمت صالة للسينما ومحلات تجارية ومجموعة من المكاتب والمراكز الخاصة.

والمقبرة الثانية - السنطية - بقي الدفن مستمراً فيها حتى عهد قريب إلى أن تعرضت لقذائف المتقاتلين في الحرب الأهلية الأخيرة (١٩٧٥ - ١٩٩١) وتهدمت القبور التي فيها ثم توقف الدفن فيها بصورة نهائية.

وعند باب الدباغة كانت تتجمع المرافق التجارية من البضائع الواردة إلى بيروت والصادرة منها وذلك لقرب هذا الباب من مرفأ المدينة إذ كانت القوافل المثقلة بأحمالها إذا اجتازت الباب المذكور تجد نفسها مباشرة عند المرفأ القديم وبذلك يتوفر عليها المرور في قلب المدينة ومزاحمة المارة في طرقاتها الضيقة الملتوية ويتيسر على التجار أصحاب هذه القوافل إنجاز معاملاتهم الرسمية لدى موظفى الجمرك الذي كانوا يقيمون عند الباب المذكور لأداء مهمتهم الحكومية في القطاع التجاري ما بين داخل بيروت وخارجها.

وفي الثلاثينات من هذا القرن، عندما كانت بلدية بيروت تردم بقايا السور وتزيل أنقاض باب الدباغة المتصل به لتفتح الشوارع والأسواق في منطقة المرفأ، ظهرت تحت الردم والأنقاض آثار هيكل روماني وحطام تمثال لأحد الفرسان، وقد نقلت هذه الآثار والعاديّات الأخرى إلى المتحف الوطني، وهي ما تزال محفوظة فيه حتى اليوم.

٤ - باب الدركة

كان موقع هذا الباب عند رأس شارع اللنبي المعروف عند الجمهور باسم «شارع المعرض»، وكان بالقرب منه عدد من المنشآت الدينية الإسلامية والنصرانية. وكذلك بقايا آثار تعود إلى العهدين الروماني والبيزنطي في هذه البلاد. من المنشآت الدينية الإسلامية مسجد صغير باسم «جامع الدركة»، ومن المنشآت النصرانية «الكنيسة المسكوبية» التي بنيت قبل نحو مائة سنة من زماننا على أثر الشقاق الذي حصل بين الروم الكاثوليك عند تغيير الحساب الشرقي إلى الحساب الغربي، ودير الآباء الكبوشيين الذي أخلاه رهبانه سنة ١٨٧٠ م وبداخله كان المقر الرسمي للقنصل الفرنسي في أواخر العهد العثماني.

وكان على مقربة من هذا الباب حمام عمومي يرتاده الناس قبل شيوع الحمامات في البيوت السكنية. وعين ماء جارية مصدرها محلة رأس النبع، هذه المحلة التي كانت قديماً إحدى ضواحي المدينة وهي الآن واقعة في صميمها. ولعلها العين الوحيدة التي كانت في «بيروت القديمة» ومنها كانت مياه الحمام الذي بقرب الباب.

ومما يذكره الشيخ عبد القادر القباني، على سبيل التفكهة من أخبار تلك الأيام، أن أولاد «ساحة الدركة» اتفقوا يوماً أن يقفوا صفاً بانتظام لتأدية السلام إلى والي المدينة، وكان والي الإيالة يومئذٍ صالح وامق باشا - وهذا قد تولّى إيالة صيدا ثلاث مرات - وكان منزله في المرة الأخيرة سنة ١٢٧٣ هـ في محلة جميزة يمّين (الجميَّزة اليوم) وكانت طريقه إلى دار الحكومة عن ساحة الدركة، فمرّ يومئذٍ ولم ينتبه أو أنه لم يرق له الالتفات إلى أطفال فيردّ لهم التحية، فشقَّ ذلك عليهم وأجمعوا أن يحفروا في طريقه حفراً (غمَّيرات) عمقها نصف ذراع وذرعها نصف ذراع تُستَّر فوهاتها بقضبان رفيعة وهشيم يعلوه الرمل، ففعلوا، وعند عودة الوالي مساءً ابتعدوا عن المكان مترقّبين، وكان من عادة الوالي أن يركب فرساً تحيط به حاشيته من الجنود والأتباع والحشم والأغوات، فعثرت رجل الفرس بحفرة أو حفرتين، إلا أن الوالي كان فارساً ماهراً فلم ينله أذًى، وكان ينهض من حفرة إلى أخرى وكذلك حاشيته التي ساءها الأمر، فعزمت على إنزال العقاب في أولاد المحلة فكان الوالي أسرع منهم في ردعهم عن ذلك.. وقد امتنع أولاد المحلة مدَّة عن الاجتماع في ساحة

الدركة عند مرور الوالي، ثم اجتمعوا مرة أخرى ووقفوا له موقف التعظيم فسلّم عليهم وتلقوا سلامه بالإكرام والاحترام.

وإذا كان باب الدركة عاش مغامرات صبيان بيروت مع والي الإيالة فإن هذا الباب عاش قبل ذلك المغامرة التي قام بها إبراهيم باشا (المصري) لإنشاء دولة تحت تاج أبيه محمد علي باشا عزيز مصر على حساب الإمبراطورية العثمانية. ذلك أنه في سنة ١٨٣٢ م وصل إبراهيم باشا إلى ظاهر بيروت وما لبث أن دخلها فاتحاً من تحت قنطرة باب الدركة التي كانت تحمل نقيشه باللغة اليونانية معناها العربي «أيها الداخل افتكر بالرحمة». وفيما كان هذا القائد المنتصر يجتاز الباب إذا بأفعوان ضخم يتلوى تحت حوافر حصانه، وكان لظهور هذا الأفعوان في تلك اللحظة التاريخية إيحاء بالتشاؤم لدى المحيطين بالقائد الفارس. إلا أن إبراهيم باشا سرعان ما أهوى بسيفه على الأفعوان وقضى عليه. وبذلك أذهب عن موكبه غمامة التشاؤم واستبدل بها موجة عارمة من التفاؤل المشوب بزهو الفتح والانتصار.

بقي علينا القول بأن جميع ما كان بجوار «باب الدركة» من المنشآت الدينية والعمرانية والطبيعية قد آل إلى الخراب، وما كاد العقد الثالث من القرن الحالي ينتصف حتى زالت من على وجه المنطقة جميع المعالم الدالّة على تلك المنشآت. وكذلك الحال بالنسبة لباب الدركة نفسه الذي افتقده البيروتيون للأبد وغاب اسمه عن أذهانهم كما نسيته ألسنتهم ولم يعد يخطر لهم على بال. إلا أن دائرة الآثار اللبنانية أرادت أن تستكشف عاديّات الأرض التي كانت بجوار هذا الباب، فقامت بحفريات في تلك المنطقة أدت إلى ظهور أنقاض أعمدة ضخمة في الجهة الشرقية منه وفيها ثلاثة منتصبة كان السياح الأجانب يدعونها «سواري الأربعين» بينما كان الأهالي يطلقون على المكان الذي دفنت فيه هذه السواري الثلاث وبقية أنقاض الأعمدة الأخرى، اسم «رجال الأربعين» وذلك بسبب خلفيات من التقاليد الشعبية المتوارثة، سواء عند المسلمين أو عند النصارى من أبناء هذه المدينة.

أما الدركة التي نسب إليها الباب فهي اللفظ العامي لاسم فارسي مركب من كلمتين: دُرْ بمعنى باب، وكاه بمعنى قصر، فيكون هذا الباب يحمل في الأصل اسماً فارسياً مما يجعلنا نميل إلى الظن، بل الترجيح، بأنه من بقايا قصر قديم ذهب به البلى، ولم يبق منه سوى بابه الذي أصبح فيما بعد أحد أبواب مدينة «بيروت القديمة» عندما بنى أحمد باشا الجزار سورها وبقية أبوابها. ومما يحملنا على هذا الظن والترجيح ما كنا قد أشرنا إليه قبل حين عن وجود الكتابة اليونانية على قنطرته العليا التي معناها بالعربية «أيها الداخل افتكر بالرحمة». أما سبب تسمية هذا الباب باللغة الفارسية فإنه يرجع إلى تأثر الناس في حينها باللغة التركية، لغة الدولة الحاكمة التي يتخللها كثير من المفردات والمصطلحات الفارسية الأصل. وإذا ربطنا بين وجود هذه الكتابة على قنطرة الباب وبين وجود الأعمدة العالية بجواره تحت التراب، أمكننا تبرير ما ذهبنا إلى استنتاجه بهذا الصدد. والنقيشة المذكورة نقلتها مديرية الآثار اللبنانية في الماضي إلى ساحة البرج. وفي الشروح التي وضعها الأب لويس شيخو اليسوعي على كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى تفصيل خبر هذه النقيشة وتفسير معناها.

يعتبر باب الدركة أجمل أبواب «بيروت القديمة» لما كان عليه بناؤه من متانة وإتقان. ومن حسن الحظ أن هناك ثلاث صور أخذت له قبل زواله مرسومة من داخل السور، ومن هذه الصور نتبين هندسته وما كان قائماً بجواره. اثنتان من هذه الصور للمصور مونفور (Monfort) والثالثة للمصور لوهو (Le Houx).

وهذه الصور الثلاث أُخذت للباب من جهتيه الشمالية الشرقية والشمالية الغربية، وهي توحي بأن بناءه مربع الشكل تقريباً. وهذا البناء مؤلف من قسمين يختلف زمان أحدهما عن الآخر. فالقسم الخارجي يعلوه برجان مربعان كان يجمع بينهما حائط.. ويؤخذ من أساس البناء وأغلاقه المختلفة اللون مناوبة أنه من بناء العرب. أما القسم الداخلي فهو خالٍ من النقوش، ولواجهته أربع نوافذ بيضاوية الشكل غير متساوية الارتفاع. أما السور فهو على علوّ الباب في زاويته الشرقية الشمالية ويبلغ علوّه وسط الباب في الجهة الغربية. وبناء الباب من الجهتين الشرقية والغربية مستقيم، له في أعلاه موقف للدفاع مع صفين من الكُوَى المعدة لرمي القذائف. وشرفاته - أي الباب - مروّسة بشكل تدريجي وهي أعلى من مستوى السور. وهناك مكان مخصص للحرس لضرب العدو، على ارتفاع حوالى ثلاثة أمتار فوق مستوى الأرض. وفي هذا المكان سبع كُوًى لرمي القذائف تحت تصرف الحرس.

٥ - باب يعقوب

هذا الباب يقع في جنوبي «بيروت القديمة» في المكان الذي يحاذي الطرف الشرقي من أول الطريق المؤدية إلى جامع زقاق البلاط المعروفة عند الناس باسم «طلعة الأميركان» لأنه يوجد بقربها منشآت دينية ومكتبية للأميركان البروتستانت، وكان هذا الباب، قديماً، يفضي من خارجه في ظاهر السور إلى ساحة رملية فيها بعض أشجار الجمّيز. وهي الساحة التي عرفت آنذاك باسم «ساحة عصّور» وفيها كان البيروتيون يقضون مواسم أعيادهم الدينية. وقد أصبحت هذه الساحة معروفة في أيامنا باسم «ساحة رياض الصلح» لوجود تمثاله فيها.

وفي رأي الفيكونت فيليب دي طرّازي أن هذا الباب أقامه أحمد باشا الجزار في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدلاً من باب آخر كان يقع على مسافة نحو عشرين متراً في شماله، وذلك حينما حاول هذا الحاكم ترميم سور بيروت وأدخل في نطاقه مساحات جديدة من الأراضي البور مما كان بجواره في ذلك الحين.

لماذا نسب الباب إلى يعقوب؟

كنا من قبل قد ذكرنا أن أبواب مدينة «بيروت القديمة» اشتهرت بأسماء المناطق التي تقع فيها أو بأسماء الأشخاص الذين تولوا حراستها لمدة طويلة. وباب يعقوب، هو من الأبواب التي اكتسبت اسمها من شخص كان يسكن بالقرب من هذا الباب وكان اسمه «يعقوب» بيد أن شخصيته صاحب هذا الاسم موضع خلاف. بعضهم قال إن الباب منسوب إلى يعقوب الكسرواني الذي كانت داره فوق الباب. وهذا هو رأي دومنيل دو بويسّون. وقال آخرون إن هذا الباب منسوب إلى طبيب صيداوي اسمه «يعقوب أبيللا» سكن الدار المذكورة في أواسط القرن التاسع عشر (الميلادي) وكانت عيادته حيث يعالج المرضى في فناء الدار نفسها. ويعقوب أبيللا، أصبح فيما بعد قنصل إنكلترا في صيدا، وكانت وفاته سنة ١٨٧٣ م. وهو ابن طبيب مالطي دخل في خدمة جيش نابليون بونابرت أثناء حصار هذا الجيش لمدينة عكة أيام الوالي أحمد باشا الجزار في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر (الميلادي).

وعندما وصف دومنيل دو بويسون باب يعقوب كما رآه حوالى سنة ١٩٢٠ م قال: «.. غمر الرمل «باب يعقوب» وهو اليوم معبر مبني تحت شارع السراية (أي مقر رياسة الحكومة اللبنانية سابقاً) ينفذ إلى غربي شارع فخر الدين (رياض الصلح حالياً) ويقيس هذا الباب حالاً مترين وسبعين سنتميتراً في العلو. ومثله قياساً في عرضه، وهو يشبه في صورته وتنظيمه بابي السراية والدباغة. وسمك الحائط خمسة وسبعون سنتميتراً، ولا تزال دفّتاه في مكانهما، وهما تتألفان من أخشاب ذات تقاطيع منقوشة من داخلها. وهما مصفحتان من الخارج بالحديد والمسامير البارزة الرؤوس، وفي إحدى الدفتين خادعة (أي فتحة صغيرة كنا نسميها خوخة) وهناك بقايا عقود تُبين أن البناء كان متواصلاً إلى جهة الشمال حيث ينتهي إلى سوق مسقّف، هذه الآثار كلها تُرى تحت الطريق الحالية». انتهى كلام دوبويسّون.

أقول: من المعالم البارزة التي كانت بجوار «باب يعقوب» عين ماء جارية كانت تسمى أيضاً «عين يعقوب» ومسجد صغير له مئذنة من الخشب كان يسمى «جامع شيخ الشربة» وإلى الجهة الشرقية الجنوبية من الباب كانت تمتدّ «ساحة السور» المتصلة «بباب الدركة» وقد ذكرنا من قبل أن هذه الساحة كانت المكان الذي يقضي فيه البيروتيون مواسم أعيادهم.

على أن هذه المعالم كلها قد غابت وطوتها يد العفاء مع الزمن، بيد أن «باب يعقوب» نفسه بقي جزء منه ظاهراً للعيان بين الأنقاض المتراكمة عليه. وإنني، شخصياً، أدركت هذا الباب قبل نحو أربعين عاماً، وهو غائر تحت طريق «طلعة الأميركان» قبل تخطيط هذه الطريق وتوسيعها. أما اليوم فإن «باب يعقوب» أصبح نسياً منسياً ولم يعد أبناء الجيل الحاضر يسمعون به أو يعرفون عنه شيئاً..

وجدير بالذكر أن «باب يعقوب» هو آخر ما زال من أبواب «بيروت القديمة».

٦ - باب إدريس

كان هذا الباب يقع في المنطقة التجارية التي ما تزال حتى اليوم تحمل اسمه. وتشير التقاليد إلى أن موقعه بالضبط كان على امتداد حائط كنيسة الآباء الكبوشيين التي ما تزال موجودة في مكانها القديم. وإذا كانت جميع أبواب «بيروت القديمة» قد زالت وكذلك أسماؤها فإن «باب إدريس» زال رسمه وبقي اسمه. و«باب إدريس» اليوم اسم يطلق على المنطقة الواقعة ما بين سوق البازركان القديم في الشرق الجنوبي وبين بناية ستاركو في الشمالي الشرقي، وما بين كنيسة الكبوشيين في الجنوب الغربي. وحتى سيف البحر عند مقهى الحاج داود القديم في الشمال.

وهذه المنطقة تعتبر «سرّة المدينة» وهي تتمتع بسمعة تجارية واسعة سواء بالنسبة للسوق المحلية في بيروت ولبنان أو بالنسبة للأوساط الحالية والاقتصادية في الأسواق العالمية.

كانت المنطقة المعروفة اليوم بهذا الاسلام «باب إدريس» جزءاً من القطاع الزراعي الممتد داخل سور المدينة. وكان السور يمتد من الباب المذكور إلى سوق الجميل، حيث كان باب المدينة الأخير المدعو «باب السنطية» قريباً من البحر وأمامه «مقبرة السنطية» التي تهدمت في أيامنا خلال الأحداث الأخيرة (١٩٧٥ - ١٩٩١).

وفي الخرائط العسكرية الإنكليزية المأخوذة في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد خلال حروب إبراهيم باشا المصري، يظهر بإزاء الباب من داخل المدينة حقل من أشجار التوت يمتد على طول السور من البحر إلى باب إدريس نفسه.

أما سبب تسميته فقد كانت عائلة «آل إدريس» تسكن قربه، وهي من الأسر البيروتية الكريمة، أفرادها ما يزالون يقيمون في بيروت. وبسبب مجاورة آل إدريس للباب المذكور أطلق عليه

اسم هذه العائلة، وما زال الأمر كذلك حتى اليوم، بيد أن الاسم أصبح علماً على المنطقة التجارية التي كان الباب يقع فيها قبل زواله.

ولما قدم الفرنسيون إلى سورية سنة ١٨٦٠ م، بسبب الفتنة الطائفية التي نشبت بين الدروز وبين النصارى آنذاك، وقاموا بإنشاء طريق الشام، أرادوا أن يهدموا باب إدريس وقسماً من سور المدينة ليوصلوا الطريق إلى البحر، إلا أن أبا صالح إدريس، صاحب الدار التي تجاور الباب وتلتصق به رفض التخلي عن مِلْكه وأصر على البقاء فيه. فقال له والي بيروت كلاماً، وصف يومها بأنه شبيه بالتنبؤ:

«إنك ستذكرني يوماً بالخير وتتمنى لنفسي الرحمة إذا رأيت ما سيحصل من المنافع بفتح هذه الطريق!

وقصة هذا الباب ما بين الوالي وبين آل إدريس رواها لنا بتفاصيلها المثيرة الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله حيث قال:

«لما كانت صيدا إيالة، قدم بيروت أحمد مخلص أفندي لتخطيط الطرق خارج أبواب بيروت، وكان الأهالي قد شرعوا في البناء في كروم التوت داخل السور وفي أبراجهم خارج البلدة أو في بساتينهم بجوار أبراجهم المتقدم ذكرها. وقد اقتُضِي بحسب التخطيط فتح باب «أبي النصر» و «باب إدريس». وحدث أن فتح «باب إدريس» وطريقه تمر في كرم توت لآل إدريس، وكانت والدتهم متقدمة السن، فأغاظها جعل بستان التوت طريقاً، فأخذت «تسخط وتدعو» على أحمد مخلص أفندي، فكان يجيبها قائلاً: سوف تخصّين أحمد مخلص بدعواتك الخيّرة فيما بعد. ثم إنه لما قدم مخلص باشا سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٦م) والياً على سورية، وكانت بيروت تابعة لها قصد «بوابة إدريس» فوجد كرم التوت تحوّل إلى مخازن ودكاكين ومنازل. فذهب إلى منزل تلك السيدة وسألها عما إذا كانت لا تزال ساخطة على أحمد مخلص أم أنها عرفت له حسن عمله، فاعتذرت إليه وأكثرت من شكره والدعاء له بالخير!».

٧ ـ باب «أبو النصر»

في أواخر القرن الماضي انتشر في بيروت وباء أُصيبت به عيون الأطفال في مدينة بيروت. وهذا الوباء هو نوع من الرمد يدعى «تراخوما». ولمكافحة هذا الوباء وعلاج المرْضَى به قدمت إلى بيروت بعثة من راهبات اللعازارية ضربت خيامها تجاه درج خان البيض الحالي (رجال الأربعين سابقاً) في نفس المكان الذي شيدت فيه بنايات اللعازارية اليوم وكان يومذاك أرضاً بوراً وقد أفلحت هذه البعثة في إنجاز ما قدِمت من أجله وخفت وطأة وباء التراخوما في البلد مما حمل السلطان عبد المجيد الأول على إصدار فرمان شاهاني بتقديم الأرض التي خيمت فيها الراهبات المذكورات ملكاً لهن وذلك جزاء وفاقاً على خدماتهن الطبية الإنسانية.

ولكي تكون البادرة السلطانية متوازية بين النصارى وبين المسلمين فإن السلطان أصدر في نفس الوقت فرماناً شاهانياً آخر منح بموجبه المسلمين، عن طريق نقيب الأشراف المرشد أبي الوفاء عمر أبي النصر اليافي، قطعة أرض أخرى في الجهة الغربية الجنوبية من «سهلات البرج» اليوم ليفيدوا من ريع ما يريدون بناءه في هذه الأرض. والذي حصل آنذاك أن الراهبات بنين على الأرض الموهوبة لهن ديراً لهن عرف باسم «دير اللعازارية» وجعلنه مأوى للقطاء من البنات غير الشرعيات وفيه جناح خاص لمداواة المصابين من الأهلين برمد التراخوما وغيره من أمراض العيون.

وقد أدرك أبناء جيلنا هذا الدير وبعضهم عالجوا عيونهم فيه، وذلك قبل أن يُنْقَض بناؤه بعد الأضرار الجسيمة التي أصيب بها خلاله التظاهرات الغاضبة التي اجتاحت بيروت احتجاجاً على التحديات التي قام بها عملاء الانتداب الفرنسي بمناسبة دخول قوات فرنسا الحرة بقيادة الجنرال شارل ديغول إلى باريس بعد تحريرها من الألمان سنة ١٩٤٥ م. أما الأرض التي وهبت للمسلمين فإن نقيب الأشراف بنى فيها سوقاً تجارية عرفت من حينها باسم «سوق أبو النصر» وبنى كذلك داراً فخمة لسكناه خصّص بعض غرفها باسم «الزاوية الخلوتية» التي كان هو نفسه شيخاً لها. وفي هذه الدار نزل الأمير عبد القادر الجزائري عندما مر ببيروت في طريقه إلى دمشق التي اختارها لإقامته بعد تغلب الفرنسيين عليه في الجزائر. وكانت الدار المذكورة وقتئذٍ أجمل أبنية المدينة.

وفي زمن لاحق تحولت هذه الدار إلى مسجد تقام فيه الصلاة أطلق عليه الناس اسم «جامع محمد الأمين» ثم تألفت لجنة برئاسة الطبيب الإنساني محمد خالد رحمه الله وضعت يدها على البناء وما حوله تمهيداً لإقامة جامع كبير في نفس المكان باسم «جامع محمد الأمين» حقق الله الآمال.

وفي تحديد صفة باب أبو النصر وأسلوب بنائه ومكانه، يقول الكونت دومنيل دو بويسّون.

«.. هناك زقاق ومعبر مقبب يتجه إلى الجنوب الغربي نحو كنيسة مار جرجس الكاتدرائية (المارونية) فإنها كانت داخلة ضمن السور، وآخر دار نراها في هذا المعبر عن شمالك قبل دخولك تحت البناء المقبّب، هي دار الأمير عبد القادر، سكنها عندما مر ببيروت. . . ويدعى ذلك المعبر المقبّب الذي بقرب هذه الدار «باب أبو النصر» ينفذ منه الإنسان إلى «سوق أبو النصر» ومن دقّق النظر في هذا الباب لا يسعه إلا أن يسلم بكونه

من أبواب المدينة رغماً عما يرى على جداره الخارجي من آثار التحصين. لأنه يجب إذ ذاك القول بأن السور الوارد من «باب السراية» كان يستند إلى زاوية هذا البناء في شماله الغربي، وذلك مما ينكره التقليد المحلي.

هذا، وإن الروس عندما ضربوا بيروت بمدافعهم سنة ١٧٧٣ لإخراج أحمد باشا الجزار منها وتسليمها للأمير يوسف الشهابي، عجزوا عن التأثير في سورها واقتحامه، فنزلوا من مراكبهم الحربية ومعهم مدافع ضخمة ركزوها عند السور ما بين باب السراي وباب أبو النصر، وفتحوا في هذا المكان ثلمة دخلوا منها إلى قلب المدينة واحتلوها لبعض الوقت. . ومن ذلك الحين عرف المكان الذي وُضع فيه ذلك المدفع باسم «ساحة المدافع» (Place des Canons) وهي أصبحت اليوم تحمل اسم «ساحة البرج» على أن الكتّاب الأجانب ما زالوا يطلقون عليها اسم «ساحة المدافع»، حتى اليوم.

وقبل أن نترك الكلام في موضوع هذا الباب، فإننا نعرب عن شكنا في جدية اعتباره من أبواب «بيروت القديمة» ونرجح أن أحمد باشا الجزار هو الذي أقام في ذلك المكان بناء أطلق عليه الناس اسم «باب أبو النصر» وهو في الحقيقة ممر عادي تعلوه القباب، لا أكثر ولا أقل.

وبعد، هذه هي الأبواب السبعة التي كانت بيروت القديمة تتحصن وراءها كلما أوجست خيفة من غدر الغادرين أو طمع الطامعين سواء من وراء البحار أو من قمم الجبال. ولما استباح حماها إبراهيم باشا (المصري) سنة ١٨٣٢ فتحت هذه الأبواب على مصاريعها وانطلق عمران المدينة من داخل السور إلى ما وراءه، ولم يبق من بيروت القديمة وسورها وأبوابها إلا التذكارات على هذه الصفحات التي نختمها بالدعاء المأثور «يا مفتّح الأبواب، افتح لنا خير باب».

الفصل السابع

سور مدينة بيروت من عماره إلى دماره

في داخل نطاق السور كانت المدينة المربعة أو بيروت القديمة، أما خارج السور فكانت البرية التي لم تعرف العمران إلا بعد أن كاد ينتصف القرن الماضي، أما قبل ذلك فإن هذه البرية كانت المكان المفضل لاستراحة الموتى من عناء الحياة.

ففي الجهة الشرقية باتجاه الشمال كانت تتناثر مقابر المسلمين:

١ ـ مقبرة باب المصلّى: قريباً من سوق سرسق اليوم (في مكانه كانت سراي الأمير منصور عساف التركماني).

٢ ـ مقبرة الغرباء: مكان سوق الخضار بالجملة وبناية بيبلوس الحالية.

٣ ـ مقبرة المغاربة: مكان سينما ريفولي الحالية (ملك جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت).

٤ ـ مقبرة السنطية: كانت لا تزال موجودة في مكانها المعروف على سيف البحر قبل أن تدرسها قذائف الحرب الأهلية عام ١٩٧٦.

٥ ـ مقبرة الباشورة[١]: ما تزال في مكانها بين البسطة التحتا وساحة رياض الصلح (ساحة السّور سابقاً).

وفي أقصى المدينة كانت تقوم مقابر النصارى على اختلاف مللهم ونحلهم، وما تزال في المحلة المعروفة برأس النبع، ومعها مقبرة اليهود، كما أن للنصارى أيضاً مقابر اللاتين الموجودة منذ تلك الأيام في محلة ميناء الحصن التي أصبحت اليوم منطقة عامرة بالمسابح والفنادق والوكالات التجارية الكبرى، وقد عفت الحرب عليها.

وإن منطقة البرية التي نتحدث عنها كانت الميدان الذي يستريح في رحابه القادمون إلى بيروت قبل أن يؤذن لهم بدخول المدينة، وكان فيها بعض الخانات المعدة لاستقبالهم. وهذه الخانات كانت تقوم مقام فنادق هذا العصر وتزيد على هذه الفنادق بأنها كانت تؤوي مع بني آدم رَكوبهم من الجياد والجمال والحمير!

ويبدو أن هذا السور رافق المدينة منذ تأسيسها[٢] على رأي بعض المؤرخين الذين يرجعون به إلى عهد الكنعانيين والحثيين، ويقولون بأن ارتفاعه كان في ذلك العهد ٥ أمتار وأن سماكته ٤ أمتار ويؤكد هؤلاء قولهم هذا بأن الحفريات التي تناولت ساحة السور أثناء تخطيط الشوارع المحيطة بها كشفت عن بقايا هذا السور الكنعاني الحثي التي جعلتها التطورات الجيولوجية تغيب تحت سطح الأرض[٣].

وصف السور الكنعاني كما ذكره الأستاذ شفيق طبارة

ولا يوجد في الوقت الحاضر أي مرجع جدي يصور لنا هذا السور أو يصفه إلا أن الأستاذ شفيق طبارة قدم لنا في هذا الصدد صورة قلمية حددت معالمه وطرازه الهندسي، وعلى الرغم من أنه لم يوثق كلامه بأي مرجع فإننا ننقل هذا الكلام هنا على

(١) الباشورة: اصطلاح عسكري، وهي البرج المتعالي على ظاهر السور وقد سماه الفرنجة: (Barbacane) ـ المشرق حاشية مجلد ٣٣ سنة ١٩٣٥، بمقال للأب توتل اليسوعي، Van Berchem، وقد تحولت مقبرة الباشورة الإسلامية، إلى ملك مضبوط لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. أما السنطية فإنها استخدمت قبل اندراسها لدفن موتى رأس بيروت من المسلمين، على أن الجمعية المذكورة اجتزأت منها بعض أطرافها الجنوبية والشرقية وقسماً من الشمالية وسائر الغربية وبنت في هذه الأطراف المخازن التجارية وبعض المقاهي.

(٢) بيروت في التاريخ لابراهيم كنعان.

(٣) حتى إن صالح بن يحيى صاحب التاريخ المشهور قال: بيروت مدينة قديمة جداً يستدل على قدمها من عتق سورها وهو مع عتقه محدث عليها، تاريخ بيروت ـ لناشره لويس شيخو ص ٨٠٧.

عهدة صاحبه، قال رحمه الله: «كان سور بيروت، على شكل هندسي اتبعه الكنعانيون والحثيون في بناء الأسوار حول مدنهم، ويختلف عما ألِفَهُ المصريون القدماء، إذ كان يعلوه أبراج متقاربة واجهاتها من الحجر، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يذهبون إلى أن عهده يعود إلى عصر الكنعانيين والحثيين. وكانت جدرانه عالية وسميكة وخالية من الثقوب والفجوات، ويبلغ ارتفاعها نحو خمسة أمتار، وهو ارتفاع كافٍ لحماية البلد والحامية من تسلق أسوار المدينة، فقد كان كل ما يملك الأعداء المغيرون يومئذٍ من الوسائل للاستيلاء على البلد هو حصارها أو فتح أبوابها أو تسلق أسوارها أو نقب جدران هذه الأسوار لكي تحرق أو تهدم. وأصبح من المقرر لدى الباحثين أن سمك جدران سور بيروت كان يناهز أربعة أمتار عند القاعدة ثم يقل ارتفاع الجدران حتى تنقص إلى ثلاثة أمتار. وقد لجأ الأقدمون، لحماية قواعد هذه الجدران من النبش أو الهدم إلى إقامة أبراج فوق السور يلجأ إليها جنود الحامية ومنها كانوا يصبون قذائفهم على المقتحمين...»[١].

ولسنا نستطيع التعليق على الوصف الذي ذكره الأستاذ طبارة لهذا السور، فنحن، في الواقع، لا نملك تحت أيدينا الوثائق التاريخية التي تثبته أو تنفيه. ولكن الثابت تاريخياً، أن الملك عامونيرا، حاكم بيروت من قبل فرعون مصر، طلب إلى مولاه وولي أمره أن يأذن له «في إقامة الأسوار والحصون حول بيروت خشية أن تهاجمها الأمم المجاورة»، كما جاء في رسائل تل العمارنة الأثرية الشهيرة[٢].

السور في العهدين الروماني والبيزنطي (الرومي)

ليس لدينا أي نبأ عن السور في العهد الروماني لبيروت. لأن الرومان كانوا، على ما يظهر، منصرفين إلى إنشاء المؤسسات العامة وبناء الساحات والملاعب والمعابد الضخمة، فلم يلتفتوا إلى المنشآت العسكرية من قلاع وأبراج وحصون وأسوار. وفي جميع المراجع التي تتحدث عن بيروت الرومانية لم ترد إشارة إلى أنهم أقاموا في هذه المدينة أبنية تحمل الطابع العسكري.

إلا أن الأب لويس شيخو تعرض في غضون حديثه عن سواري الأربعين، إلى القول بأن هذه السواري يحتمل أن تكون بقية الأخرى من مثيلاتها أقامها الرومان على طول سور بيروت القديم حتى النهر الذي يصب في شرقي المدينة. وإن كلام شيخو لا يوحي على أي حال، بأن هذه السواري كانت محاذية لسور كان موجوداً بالفعل في ذلك العهد، بل لعله ـ أي شيخو ـ يعني السور الذي عرفته بيروت القديمة في القرون المتأخرة وإنما جاء ذكره في هذه المناسبة لتوضيح مكان السواري في ذهن القارىء، لا أكثر ولا أقل. وإن جميع الآثار التي ترجع إلى عهد الرومان في بلادنا يغلب عليها الطابع الديني أو الاجتماعي دون الناحية العسكرية.

وكذلك كان الحال، كما يبدو، في بيروت البيزنطية التي دكتها النكبات الطبيعية وجعلتها كأمس الدابر.

وإن خلو بيروت من سور يحميها وحصون تدافع عنها في العهدين الروماني والرومي جعلها لقمة سائغة في أشداق الزحف العربي الذي دخلها تحت راية الإسلام بقيادة سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في فتح يسير ـ أي دون أية صعوبة ـ ولو أن بيروت كانت حينما دهمها العرب بجيوشهم ذات حصون وأسوار لكان من المتعذر على هذه الجيوش أن تقتحمها في مثل هذه السهولة.

السور في العهد العربي الأول

عندما انسحب الروم (البيزنطيون) من بيروت أمام الموجة العربية الدافقة بقيت نفوسهم تتلهف للعودة إليها، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى أعادوا الكرّة على ما بأيدي المسلمين من السواحل واستعادوها فعلاً. على أن عودة الروم إلى سابق ممتلكاتهم على سواحل الشام لم تطل إذ وضع معاوية لها حدًّا نهائيًّا في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما قصد إليهم واستخلصها ثانية من أيديهم. ويقول البلاذري في «فتوح البلدان» عن هذه المساجلة بين الفريقين، العرب والروم: «ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل (بيروت وما حولها) في خلافة عثمان بن عفان، فقصد إليهم معاوية حتى فتحها ثم رمّها وشحنها بالمقاتلة»[٣].

ونستطيع أن نفهم من كلمة «رمها» التي استعملها البلاذري بأن معاوية قد حصن المدن التي استعادها من الأعداء، وبيروت بطبيعة الحال في جملتها، وأنه جعل في حصونها جنداً محترفاً، يقيمون فيها بصورة دائمة، ليس لهم من عمل إلا الدفاع عنها ضد من تحدثه نفسه بالعدوان عليها، وأعطاهم القطائع مكافأة لهم وتشجيعاً.

إذن، فإن بيروت كان لها في عهدها العربي الأول سور، وكان المسلمون يتقربون إلى الله بالمرابطة فيها. وهذا ما جعل

(١) أوراق لبنانية: بيروت: سورها وأبوابها بقلم شفيق طبارة ص ٢٧٨ سنة ١٩٥٥.

(٢) تقويم المرأة ص ٣١٤، خليل زينيه.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري طبعة دار النشر للجامعيين ص ١٧٢.

مؤرخي ذلك العصر يطلقون عليها لقب «مرابَط أهل الشام».
ومما يؤكد لنا هذا الاستنتاج، أن الصحابي الجليل الدرداء بن أبي الدرداء حينما سأل عن «مرابط أهل الشام» قيل له إن هؤلاء يرابطون في بيروت. ومن المعروف أن الرباط في الإسلام لا يطلق إلا على الحصن الذي يقيم به المجاهدون المتطوعون للدفاع عن بلادهم والجهاد في سبيل دينهم. ومن أشهر الذين رابطوا في بيروت الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، إمام أهل الشام، الذي مات ودفن فيها، وما زال قبره حتى اليوم «مقاماً» في المحلة المقرونة باسمه والتي كانت تدعى من قبل قرية حنتوس. وقبر الإمام المذكور يعتز به أهل بيروت ويزورونه للتبرك ويحرصون على أداء الصلاة في المسجد الصغير الملحق به.

وعلى الرغم من أن بيروت لم تلعب في العهد العربي من تاريخها دوراً بارزاً في تقرير مصير بلاد الشام، إلا أنها بقيت على الدوام ثغر دمشق وفرضتها، وإليها يفزع المجاهدون لدرء الخطر الخارجي الذي يستهدفهم قبل استفحاله وثبات أقدامه في ترابهم. وفي ذلك يقول ابن حوقل في كتابه: «صورة الأرض».

«مدينة بيروت التي على ساحل بحر الروم... بها يرابط أهل دمشق وسائر جندها وينفرون إليها عند استنفارهم.. وبيروت هذه... حصينة خصيبة متينة السور..»(1).

كان هذا حال السور في بيروت زمن ابن حوقل وهو من أبناء القرن العاشر للميلاد أي في حوالى نهاية القرن الثالث للهجرة أو أوائل القرن الرابع.

وليس من شك في أن سور بيروت يومئذٍ كان على حالته التي كانت في عهد حاكمها من قبل ماجور التركي سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٢ م) الأمير النعمان بن عامر الأرسلاني الذي «بني فيها داراً عظيمة وحصَّن سور المدينة وقلعتها ثم حارب مردة لبنان فجرى بينه وبينهم قتال عظيم على نهر بيروت سنة ٨٧٥ م في خلافة المتوكل العباسي»(2).

ونحن لا نستطيع أن نطيل الكلام عن سور بيروت في الفترة التي سبقت دخولها في حوزة الصليبيين لأن هذه الفترة التي عاشتها المدينة تميزت بالاضطراب وعدم الاستقرار بسبب الأوضاع السياسية التي كانت تهيمن على حكامها العبيديين،

(1) صورة الأرض لابن حوقل ص ١٦٢ ـ طبعة بيروت ـ دار الحياة.
(2) سجلات العائلة الأرسلانية وقد أشار إليها الأمير شكيب أرسلان في كتاب محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو عبد الرحمن الأوزاعي.

لذلك نكتفي بالإشارة إلى قول المقدسي المؤرخ في وصفها «مدينة محصنة عتيقة السور».

سور بيروت في عهدها الصليبي

عندما طما سيل الصليبيين باتجاه بلاد المشرق العربي في أوائل القرن السادس الهجري وأوائل القرن الثاني عشر الميلادي، قصد بغدوين بيروت ليفتحها بعد أن تملك القدس الشريف سنة ٤٧٥ هـ (١١٠٢ م)، إلا أنها امتنعت عليه وتحصن أهلها داخل أسوارهم حتى ألجؤوا القائد الصليبي للرحيل عن البلد يائساً من أخذها.

إلا أن بغدوين أعاد الكرّة على المدينة في سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) مع الكونت برتران دي صنجيل ونزل على ثغرها برّاً وبحراً وعاونهما جوسلين صاحب تل باشر فعملوا أولاً برجاً من الخشب من صنوبر بيروت. ونصبوه على سور المدينة فكسره المسلمون بحجارة المنجنيق.. فأرسل الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من أهل جنوا فأمده هؤلاء بأربعين مركباً مشحونة بالمحاربين، فزحف الجميع على بيروت في نيسان سنة ١١١٠ ميلادية ونصبوا الأبراج على أسوار المدينة التي سقطت تحت وطأة هذا الزحف الهائل يوم الجمعة في ٢٨ من شوال سنة ٥٠٣ هجرية فأعمل الصليبيون السيف في أهلها من الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا منها أُمثولة روعت باقي المدن فاستسلمت إلى قواتهم حتى لا يكون حظها من هذه القوات حظ بيروت المنكودة.

إذن دخل الصليبيون إلى بيروت وفيها سور قائم من حولها. ولقد استمر احتلال هؤلاء لبيروت من سنة ١١١٠ إلى سنة ١٢٩٤ إلا في الفترة التي قطعها صلاح الدين الأيوبي ما بين عامي ١١٧٧ و١١٨٧.

ولقد تصرف الصليبيون بالمدينة وأهلها، وكأنهم لن يخرجوا منها أبداً. فأمروا بقتل السكان المسلمين، كما هدموا ما كان فيها من حصون وأسوار ليعدوها «على نمط محكم بحيث لا يستطاع إلى فتحها من سبيل»(3).

وصف السور في بيروت كما بناه الصليبيون

في سنة ١٢١٢ كانت بيروت ما تزال رهينة الاحتلال الصليبي، وقد مرّ بها في هذه الأثناء أحد الرحالة الألمان وهو السائح «ولبريد أولدنبرغ» فكتب يصفها، وبصورة خاصة سورها الذي

(3) استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة: دومنيل دو بويسون ـ ترجمة لويس شيخو اليسوعي.

بناه حاكمها جان ديبلين (Jean d'Ibelin) بعد أن كان صلاح الدين أمر بهدمه حتى لا يستفيد منه الصليبيون إذا عادوا إليها. قال أولدنبرغ المذكور:

«يمنع البحر ثغر بيروت من جهتها السفلى مع ما هنالك من الصخور العالية. وتحميها من الجهة الأخرى خنادق مبلطة تحت حراسة سورين متينين فيهما عدة أبراج غاية في الشدة تبطل كل ضربات العدو. وكانت هذه الاستحكامات استوجبت أشغالاً طويلة ولا سيما أن نقوشها الداخلية بلغت النهاية في الحسن والإتقان»(1).

ولقد وصل إلينا وصف بيروت على لسان الشريف الإدريسي في كتابه المعروف «نزهة المشتاق في أخبار الآفاق» بقوله: «إن عليها (أي بيروت) سوراً من حجارة كبيرة واسعة» وكان ذلك حينما زارها سنة ١١٨٠ ميلادية وهي إمارة صليبية.

السور في عهد صلاح الدين الأيوبي

لم يطل عهد الحرية ببيروت إلا المدة التي عاشها السلطان صلاح الدين الأيوبي، فلما انتقل إلى جوار ربه بدمشق سنة ٥٩١هـ (١١٩٤م) وانتقل الملك إلى أولاده، استغل الصليبيون ما ثار بين هؤلاء الأولاد من خلاف على السلطة وهاجموا المدينة ثم دخلوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة كما يقول ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» عن حوادث سنة ٥٩٣ هجرية (١١٩٧م).

على أن بيروت شهدت دخول صلاح الدين ولها سور تعلوه أبراج وحصون، ثم عادت فشهدت رجوع الصليبيين إليها وهي غير ذات سور ولا أبراج ولا حصون.

وها نحن أولاء، ننقل القطعة التاريخية الأدبية التي وصف بها عماد الدين الكاتب الأصفهاني في كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي» كيف دخل صلاح الدين بيروت وهدم منها السور والقلاع، وذلك أسلوب ذلك الزمان الذي كانت تتحكم فيه الكلمة المتناسبة مع ضرورات السجع الذي كان دليل بلاغة الكاتب وفصاحته يومذاك، قال العماد تحت عنوانه: فتح بيروت(2).

(1) نقلت هذا الوصف عن كتاب دومنيل دوبويسون السابق. وقد تداولت الحكم في بيروت عدة عائلات فرنسية من الإقطاعيين وكانوا يسمون «سادة باروت» Sires de Barouth ومن أشهر هؤلاء آل دوغين Deguines، وآل إيلين Ibelin.
(2) الفتح القسي في الفتح القدسي ط. أولى بالمطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢هـ ص ٣٥.

«وكان النزول عليها (أي بيروت) يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى وتسلمها الخميس التاسع والعشرين منه.

ولما فرغ من شغل صيدا وتبنين، وجمع لهما التحصين والتحسين، قال لعصمة الله شيدي ما بصيدا أو تبنين والحفيهما رداء الحماية فما يضيع ما تحفظين ولا يطرق ما تحمين، ثم صرف عنانه وأرهف سنانه، ورحل على سمت بيروت مائلاً بعسكره الآكام والمروت. وسار على الساحل، بتلك الجحافل، ببحر على البحر مائج، ومجرٍ مجْراً إلى الهياج هائج. ونقدٍ من عقد الجدّ رائج، وعزم على صدق القصد عائج. ووصل إليها ونزل عليها، وبُنيت القباب، وطفا على خضم المعسكر من الخيم الحُباب، وزحف إلى الأعداء الأحبابُ. وضويق البلد، وفورق الجلَد، وأحاط الرجال بأرجائه، ورجمت بشهب النصال شياطين الضلال في سمائه، وانقضّت نجوم السهام من أبراجه. وتلاطم عباب ذلك الجمع الجم، بأمواج أفواجه. وترجل دونه الناس، وتعجل نحوه الياس، واصطفت التّراس واشتد المراس، وامتد القتال، واحتدم النزال، وامتد المصاع والمصال، واتصل قرح الجروح للجروح، ودام احتراق الروح على اقتراح القروح، ومدت الجفاني كأنها أعناق البخاتي، وأتى العاتي وعتا الآتي، وأحمد النظر الموافي المؤاتي ودارت كؤوس المنايا للأرواح بخذي وهاتي، وطارت القوارير وثارت المساعير، واشتعل النفط واشتغل الرهط، والتهم الزراق، والتهب الحراق، ومرق السهم الكميّ مرور السهم من الرميّ، وأتى الوادي فطم القرى ودبت الدبابة بليوث الرجال، وصبت الصبابة غيوث النبال، وارتجزت رواعد الأبطال، وانجزت مواعد الآجال، وجالت في الضمائر ضوامر الأوجال، وهالت بالنوازل نوازي الأهوال، ورعدت بوارق البوار وأسعدت الأقدار بالأقدار وشغلت بالرقاب قوافي القواضب، وحملت العُدد النواكب على المناكب. وخفت للأثقال اكتاف الفُتّاك وهتكت ستائر السور فوهت أشراك الإشراك. ودام القتال أياماً يتضاعف اصطلاءً واصطلاماً، ويتظاهر اضطراباً واضطراما، وبانت الحنايا هائجة وأمّات المنايا ناتجة، ورجمت بشهب النفّاطات شياطين الداوية(3) المردة، وتعادت الأسود العادية على أولئك القردة، حتى خرقت الخندق وطرق وعلق النقاب بالسور فنقب وكاد النقب يسع والبرج يقع والجدار ينقض والحجار بالحجار تنقضّ وترفض، وسار السور ينكسر وقناع النقع لا ينحسر. وخرج من

(3) الداوية، فرقة دينية من فرسان الصليبيين اشتهرت بعداوتها للمسلمين وضّراوتها عليهم.

البلد (بيروت) رجال إلى الموت عجال وقفوا دون الباشورة[١] مباشرين ولمعاطاة أصحابنا بمعاطاة كؤوس المنون معاشرين، فتلاقوا بسلام السلام، وكلام الكلام، وتصافحوا بالصفائح، وتجاروا بالجرائح، وتواصلوا بالقواطع، وتعانقوا بالمقانع، وتصارعوا بالمصارع، وتجلدوا وتجالدوا، وتواقحوا وتعاقفوا وتعاقروا وتقارعوا، والبَيض يقد، والبيض تقدّ، والبأس يرد، والبأس يَرد، والصيقل الصادي يصدأ بالدم ويُروى، وحزب الكفر يضعف وحزب الإسلام يقوى، ثم انحصروا في البلد وانحشروا على اللدد، وضافهم الرعب، وضاق بهم الرحب، وذلوا وخاروا وضلوا أو حاروا.

ولما قام المقاتلة وخذلوا، ظن أهل بيروت أن المسلمين دخلوا فأجفلوا إلى البحر إذ عدموا سكينتهم ليركبوا سفينتهم ويخلو مدينتهم، فخرج أحد المقدمين يستدعي الأمان ويستعدي الأيمان ويطلب مثالاً يعصمهم وذماماً يحرّمهم، وعهداً يسلمون به ويسلمهم، وعقداً في عقد الأمان ينظمهم، وكنت يومئذٍ في مرض أزعجني وأعجزني ومغّص أجفاني وبعيون العواد برزاني. وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الأمان، فطلب السلطان كل كاتب في ديوانه وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه، فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه، فجاءني في تلك الحالة من استملاه منّي ومرضت أذهان الأصحاء ولم يمرض ذهني.. فتسلم بيروت بخطي... الخ».

أثبتنا من رسالة العماد الكاتب التي سجل بها معركة صلاح الدين التي خاضها لفتح بيروت الجزء الذي يتناول فيه ما أصاب سور المدينة من تدمير وتخريب، وهو السور الذي بناه الصليبيون ليمنعوا المدينة من هجمات المسلمين. فلما أن حاصرها هؤلاء ودخلوها لم يبقوا على هذا السور، بل أكملوا تهديم ما تبقى منه بعد المعركة وفقاً لما تقضي به القواعد العسكرية إذ لا يجوز بحسب هذه القواعد أن يستخدم الخصوم حصون بعضهم بعضاً التي يتبادلونها بحكم الحرب لما في ذلك من معرفة للأسرار العسكرية التي ينبغي لها السرية التامة.

وإن عادة تهديم حصون المدن المفتوحة وقلاعها سنة أخذ بها كل من المسلمين والصليبيين في بلاد الشام. ومن أمثلة ذلك قلعة طرابلس التي بناها صنجيل الصليبي ثم هدمها عن آخرها اسندمير بأمر من قلاوون السلطان المسلم حين استعادها المماليك للإسلام وبنى مكانها القلعة الحالية[٢].

وفي دخول صلاح الدين إلى بيروت وما حصل من الصليبيين فيها أثناء ذلك يقول ابن الأثير «... وأما بيروت فهي من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها، فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد، وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً واغتروا بحصانة البلد، وظنوا أنهم قادرون على حفظه، وزحف إليهم المسلمون المرة بعد المرة، فبينما الفرنج يقاتلون، إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة، فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة (٥٨٣هـ)»[٣].

السور في العهد الثاني للصليبيين في بيروت

على أن سور بيروت الصليبي لم يلبث أن قام مكانه سورها الإسلامي الذي لم تكد تجف لحمة لبناته وحجارته حتى نقضه من جديد «جمع من العسكر بقيادة الملك العادل في أيلول ١١٩٧م حتى لا يفيد منه العدو، الذي قدر له أن يستعيد المدينة بواسطة الجيش الألماني بقيادة الملك أموري في نفس تلك السنة الموافقة لسنة ٥٩٣ هجرية[٤].

وإن الملك آموري لم يشأ أن يتفرد بحكم جميع المناطق التي استرجعها من المسلمين فراح يوزع المدن التي تهاوت تحت ضرباته القاتلة بين أفراد عائلته لا سيما أولئك الذين يمتون إلى زوجة أحد أمرائه المدعو كونراد ده مونترات (Conrad de Monterrat) التي كانت تدعى إيزابيلا. وهكذا كانت بيروت من نصيب شقيق هذه المرأة وهو جان ديبلين الذي سبقت الإشارة إليه عند إيراد وصف الرحالة أولدنبرغ لسور بيروت سنة ١٢١٢.

إن جان ديبلين هذا، كان أول ما بادر إليه بعد توليه الحكم، تحصين المدينة وإقامة سورها ودعمه بالأبراج، حتى يجعل من

(١) الباشورة، وهي برج يطل على ظاهر السور يباشر منه الدفاع عن هذا السور. وفي بيروت اليوم جبانة للمسلمين تحمل هذا الاسم ومكانها يقع إلى جنوبي السور القديم مما يلي «الباشورة» التي كانت فيه. وإن تسمية الجبانة بالباشورة يعود في الواقع إلى وجودها بحذاء هذا السور الحربي القديم. ولقد سبق لنا توضيح معنى الباشورة في مكان آخر من هذه الدراسة عند الحديث عن مقابر المسلمين في بيروت.

(٢) ابو الفداء في تاريخه المسمى «المختصر في أخبار البشر» جزء ٤، ص ٢٣، طبعة أولى ـ المطبعة الحسينية المصرية.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري جـ٩ ص١٨٠.

(٤) بيروت، تاريخها وآثارها. للأب لويس شيخو اليسوعي ص ٥٥.

مملكته الصغيرة أحرز مدن الشام وأمنعها في وجه العدو»[١].

وبالفعل، فإن الصليبيين أفادوا من مناعة سور ديبلين وتحملوا كثيراً من هجمات المسلمين عليها بفضل قوته وإحكام حصونه وأبراجه، ولقد بقي هذا السور حجر عثرة وعقبة كأداء في وجه المسلمين إلى أن تمكن هؤلاء من تحديه واقتحامه إلى صميم المدينة التي استقبلتهم كفاتحين ومحررين على عهد الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي الذي تسلم المدينة على يد أحد قواده العظام، علم الدين سنجر الشجاعي[٢] سنة ٦٩٠ هجرية (١٢٩١م) وكان أول شيء فعله هذا القائد المنتصر هو نقض سور المدينة ودك قلعتها الحصينة.

السور في أيام المماليك

في سنة ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠ م) قدمت جيوش المسلمين إلى بيروت تحت رايات النصر التي كانت تظللها في كل معركة خاضتها ضد الصليبيين، ولم تلبث أن دخلتها بقيادة سنجر الشجاعي الذي بادر إلى هدم سورها[٣] وقلعتها وجعلهما في مستوى الأرض ليقطع أمل العدو في الرجوع إليهما والتحكم من جديد في الثغر الذي تحكموا به سابقاً ما يقارب المئتين من السنين وجعلوا فيه أعزة أهله أذلّة، وقد كان السور الصليبي عظيماً فأحالته معاول المسلمين رميماً.

لقد تخلى الصليبيون عن بيروت مرغمين غير مختارين وذلك بعد أن ظهر عليهم المماليك بقوة السلاح، فكان من الطبيعي أن تساورهم نفوسهم بالعودة إليها كلما آنسوا في عدوهم غرة أو ضعفاً. وكثيراً ما حاولوا ترجمة ما غرتهم به الأماني إلى غزوات حقيقية مكنتهم من المدينة سحابة يوم أو بعضه ثم ينسحبون منها بعد أن يوجف عليهم المسلمون الخيل بالسلاح والرجال مع حامية البلد من المرابطين للدفاع عنها. ولا تعدو الغزوة الطارئة الشواطىء القريبة من السور حتى تنكفىء على أعقابها مذمومة مدحورة. قال صاحب تاريخ بيروت نقلاً عن النويري في تاريخه:

«في العشر الأخير من شعبان سنة ٦٩٨ هـ (آب سنة ١٢٩٩ ميلادية) وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبُطس للأفرنج، فيها جماعة من المقاتلين يقال إن عددها كان يبلغ ثلاثين بطسة (المركب الحربي) في كل بطسة منها نحو سبعماية مقاتل، وقصدوا أن ينطلقوا من مراكبهم إلى البر ويشنوا الغارة على بلاد الساحل (ساحل بيروت). فلما قربوا من البر أرسل الله عليهم ريحاً شديدة، فغرقت بعض السفن وتكسر بعضها. ورجع من سلم منهم على أسوأ حال، وكفى الله المسلمين شرهم»[٤].

وتكررت هذه المحاولات الغادرة أكثر من مرة خلال سنوات متوالية، فأدرك المسؤولون من عمال المماليك في البلد، أن عليهم وقايتها من غدرات الموتورين الذين بقيت أشداقهم تتحلب قرماً لأكلها من جديد «فأرسل الأتابكي يلبغا العمري[٥] إلى بيدمر الخوارزمي[٦] بأن يتوجه إلى بيروت لاتخاذ التدابير العسكرية اللازمة من تجهيز عمارة بحرية ضخمة، إلى شحن الحصون بالمقاتلين وغير ذلك مما هو مألوف في مثل هذه الظروف.

ولما أصبح بيدمر نفسه نائبَ السلطان في الشام، صرف اهتمامه إلى تحصين بيروت بالجديد من القلاع وترميم سورها القديم، لا سيما من جهة البحر، حيث كانت المراكب الحربية الصليبية تنزل قرصانها لمفاجأة المسلمين بالقتل والنهب والتخريب، ولقد أشار صالح بن يحيى إلى الجهود في هذا الصدد فقال[٧]:

«... ولما جدد الأمير بيدمر نائب الشام سور بيروت. على جانب البحر، جعل أوله من عند الحارة التي لنا على البحر، واصلاً إلى تحت البرج الصغير العتيق، عمارة تنكز، ويعرف ببرج البعلبكية (نسبة إلى حماته من أهل بعلبك) وجعل بين آخر هذا السور وبين البرج المذكور باباً وركب عليه سلسلة تمنع المراكب الصغار من الدخول والخروج، وسمي باب السلسلة».

ويتابع صالح بن يحيى كلامه عن السور والحراسة الدائمة التي تقررت له في عهد بيدمر المذكور واستمرت حتى ولاية

(١) نفس المصدر السابق ص ٥٦.

(٢) تاريخ بيروت، صالح بن يحيى ص ٢٨ ـ لناشره الأب لويس شيخو.

(٣) التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية تأليف خليل سليمان جاويش ص ٧٨ طبعة سنة ١٨٧٣ م.

(٤) تاريخ بيروت ـ صالح بن يحيى ص سنة ١٩٢٧ ص ٣١.

(٥) يلبغا العمري، هو الذي نسب إليه في دمشق جامع يلبغا الذي قال فيه الشاعر:

يمم إلى دمشق ومل إلى غربيها ... والمح إلى بدائع حسن جامع يلبغا
من قال إني قد رأيت نظيره ... بين الجوامع في البلاد فقد بغا

وإلى يلبغا هذا ينسب الجامع العمري الذي كان على ميناء بيروت وذكره عبد الغني النابلسي في رحلته. وقد زال هذا الجامع وأصبح اسم العمري يطلق على جامع بيروت الكبير.

(٦) بيدمر: هو سيف الدين بيدمر البدري الخوارزمي، تولى نيابة طرابلس وحلب سنة ٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م) ثم صار نائب الشام في أيام الدولة التركمانية (المملوكية) البحرية. وفي سنة ٧٨٦هـ (١٣٨٤م) أقام في القاهرة مدة ثم رجع إلى الشام. توفي نحو سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م).

(٧) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ص ٤١.

الملك الظاهر برقوق الثانية فيقول: «وقرر بيدمر على السور المذكور جامكية[1] . . . وبقيت هذه المرتبات إلى عودة السلطان الملك الظاهر برقوق إلى السلطنة الثانية، وبنيابة الطنبغا الجوباني بالشام». ثم يعين صالح بن يحيى هوية الجنود الذين خصصوا لحماية قلاع بيروت وسورها والطريقة التي رسمت لأداء هؤلاء الخدمة العسكرية فيقول[2]:

«كانت جنود حلقة بعلبك تتجرد إلى بيروت، أبدالاً، يبقى كل بدل شهراً. وفي السنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٦ م) أقروا التركمان بكسروان. . . .» وهؤلاء التركمان، شاركوا في حماية بيروت ورغبوا إلى السلطات الحاكمة أن يتوجه منهم ألف فارس لغزو قبرس نفسها، لأن هذه الجزيرة التي تراجع إليها الصليبيون بعد انهزامهم من بلاد الشام، كانت القاعدة العدوانية التي ينطلقون منها وتموّن قرصانهم بالسلاح.

السور كما يصفه صالح بن يحيى

إن صاحب كتاب «تاريخ بيروت» صالح بن يحيى من رجال القرن التاسع للهجرة (١٥ للميلاد) وهو إذ يتحدث عن سور بيروت فإنه يصفه لنا من خلال ما كان يتحدث به أهل زمانه عن الذين كانوا يستمدون معلوماتهم عنه من التقاليد التي بلغتهم عن أسلافهم بالتواتر الشفهي، وهي تقاليد تحتمل في ثناياها الجد وغير الجد، كما يصفه من خلال الواقع المادي الذي وجده عليه بعد أن استقرت المدينة نهائيًّا في يد أهلها المسلمين. وأيًّا ما كان فإن صالح قد مهّد لنا في كتابه إلى الوصول إلى الوقوف على هذا السور في صورته التي آل إليها في أواخر القرن الماضي قبل أن تتوالى عليه التعديلات المختلفة التي أدخلت فيه بين الحين والآخر، زيادة أو نقصاناً، حتى غابت معالمه بالمرة في أيامنا الحاضرة.

قال صالح بن يحيى: «بيروت مدينة قديمة جدًّا، يستدل على قدمها من عتق سورها، ومع عتقه فهو محدث عليها، اتخذه الأولون من خرائب كانت متقدمة أقدم بمدد كثيرة، لأننا نجد في السور المذكور قواعد من الرخام وأعمدة كثيرة من الحجر المانع «هو الرخام المحبب (granit) الذي معدنه في مصر العليا عند أسوان نقل منها إلى أنحاء سورية» الذي تعب الأولون في عملها ونقلها وأنفقوا عليها أموالهم. فدل ذلك على أنها من خرائب قديمة كانت عظيمة البناء جليلة المقدار فاستهانوها الذين جاءوا بعدهم وجعلوها في السور المذكور مكان الحجارة التي لا قيمة لها لاستغنائهم عنها بكثرة أمثالها من الخرائب. ودل على ذلك أن العمائر الأولة (الأولى) كانت أعظم من الثانية، ونجد أيضاً من الأعمدة المانع (أي أعمدة الحجر المانع) شيئاً كثيراً قد جعلوه تفاريق في البحر الأساس سور يظن عليه أنه من عهد الخرائب الأولى المذكورة.

ويقال على السور الذي من جهة البحر، أنه عمر وخرّب ثلاث مرات. وقد أكل البحر مكانهم وفاض الماء إلى داخل كل منهم لمرور الأزمان وتواتر الدهور، فسبحان الدائم على الدوام. ويذكر المسعودي أن الأعمدة (المانع ـ الغرانيت) معدنها بأسوان ومنها تجلب إلى سائر البلاد.

ومما يستدل على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العمائر القديمة، ما طوله قريب من ميلين أوله مكان يسمى «بليدة وذوقسية» غربي البلد، إلى مكان يسمى حقل القشا[3]، مقارب النهر، شرقي البلد، فلما عمروا السور اختصروه على القدر الذي هو عليه اليوم»[4].

ومن الواضح، أن صاحب أول كتاب في تاريخ مدينة بيروت، قد عرض لنا في كلامه عن سورها المادة الخام التي كان يتألف منها، وحاول أن يتخذ من هذه المادة دليلاً على قدمه وقدم المدينة في آن واحد. وفي سياق كلامه أشار إلى حالة هذا السور التي انتهى إليها بعد تعدد العهود السياسية والعسكرية التي تقلبت عليه.

ويفهم من مجمل كلام صاحب الكتاب أنه أدرك سور بيروت، وهذا السور لم يكن على شيء من القوة والكمال والمنعة، لأن حكام المدينة المتعاقبين قد أهملوه إلى درجة أن أمواج البحر كانت تأكل ما يرمم من خرابه ويفيض الماء إلى داخله. . . لمرور الأزمان والدهور! . .

السور قبيل الفتح العثماني

ويبدو أن هذا السور لم يحظ بالعناية الكافية في أواخر عهد المدينة بالمماليك، فلقد كان حكام بيروت في هذه الفترة لا

(١) الجامكية: لفظة أعجمية يراد بها الراتب وجزاء العمل (الأجر).

(٢) تاريخ الأمير حيدر، الغرر الحسان في أخبار لبنان جزء ١ قسم ٢ طبعة مصر ص ٤٩٣.

(٣) يقول ناشر كتاب تاريخ بيروت الأب شيخو: إنه لم يسمع لهذين المكانين ذكراً ولم يفدنا أحد عنهما شيئاً ولعل هذه الآثار هي التي اكتشفها الدكتور «روفيه» في مكان يدعى القصر، يبعد نحو ثلاثة أميال عن البلدة على ساحل البحر من جهة صيدا، وارتأى أنها بقايا مدينة بيروت الفينيقية وأنها كانت تدعى لاذقية كنعان. وقد وجد فيها نقوداً بهذا الاسم ثم وقف هناك على مدافن فينيقية.

وأما حقل القشا فيرى شيخو أنه كان يقع إلى شرقي بعبدات.

(٤) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، نشره الأب لويس شيخو سنة ١٩٢٧ ص ٨،٧.

يعلقون عليه أهمية جدية في الدفاع عنها فكانوا يكتفون ببعض الإصلاحات فيه ما بين الحين والآخر، بيد أن هذه الإصلاحات كانت محدودة وقليلة الأهمية، لذلك كان السياح الذي يجتازون بيروت أيامها يصفونها كمدينة غير محصنة»[1].

ومن هؤلاء السيّاح برتراندون ده لابروكيا (١٤٢٢م) ومعاصره جيلبارت دولانوا (Gillebert de Lanoy). وفي سنة ١٥٠٣ ميلادية مر ببيروت ديفارتيما (L. Divartimat) في طريقه إلى مكة المكرمة[2] وكتب عنها في مذكراته: «. . وقد أقمت في القاهرة زمناً وارتحلت منها إلى الشام بحراً، فنزلت ببيروت، وهي مدينة وافرة الخيرات، سكانها مسلمون، وحولها سور تلتطم عليه الأمواج، لكنه لا يكتنف المدينة من كل جهاتها، بل من الغرب وعلى شاطىء البحر فقط. ولم أر في المدينة ما يستحق الذكر إلا بناءً متهدماً، قيل إن ابنة الملك كانت مقيمة فيه لما أراد التنين أن يفترسها فجاء مار جرجس وقتله» (لعلّه جامع الخضر الحالي).

«السور» في بداية العهد العثماني ببيروت

في سنة ٩٢٢ هجرية (١٥١٦ م) دخلت مدينة بيروت فيما دخلت فيه سائر المدن الشامية التي اكتسحتها جيوش بني عثمان بقيادة السلطان سليم الأول. ولم تقوّ حصونها ولا سورها على وقف اندفاع العثمانيين إلى داخلها ورفع راياتهم فوق معاقلها.

وكان آخر ولاة بيروت في العهد المملوكي ناصر الدين محمد ابن الحنش المقدَّم على بلاد البقاع وما والاها. وفي عهده بنيت المئذنة المربعة الجميلة، للجامع العمري الكبير كما هو مرقوم على النقيشة التي تعلو بابها[3]. وعلى الرغم من أن هذا الوالي اعترف بالأمر الواقع ورضي بالسلطان الجديد إلا أنه عاد فنبذ الطاعة وأعلن العصيان، فكلف السلطان سليم نائب الشام جان بردي الغزالي بأن يتولى والأمير جمال الدين الأرسلاني الزحف عليه وقتاله وإزاحته من الديار التي كانت تحت ولايته وهي صيدا وبيروت التي كانت تابعة لها والبقاعين، الغربي والشرقي، وقد قتل ابن الحنش في أثناء المعركة وآلت المناطق التي كانت له إلى جان بردي الغزالي الذي ضمها إلى نيابته على الشام[4].

على أن الانتصار الذي أحرزه الغزالي أبطره على ما يظهر، فبعد أن كان يصانع العهد الجديد، حدثته نفسه بالاعتماد على قوته الذاتية والانفصال عن سلطة سادته العثمانيين وإعلان استقلاله ببلاد الشام، وذلك بعد وفاة السلطان سليم وتولي ابنه السلطان سليمان القانوني، مكانه؛ فما كان من العاهل العثماني الجديد إلا أن أرسل إلى المتمرد قوة ضاربة ما لبثت أن قضت عليه وصرعته في قرية القابون القريبة من دمشق.

وفي تلك الأيام، كانت بيروت ما تزال محصنة بسورها، وبسائر الأبراج التي تعاقب على بنائها الحكام السابقون. ولم يعرف أن العثمانيين، باشروا أي عمل استراتيجي، لا في السور ولا في غيره من التحصينات الأخرى عندما آلت المدينة إلى سلطانهم[5].

سور بيروت في حراسة أمراء الغرب البحتريين

قال حمزة بن أحمد بن سباط الفقيه (العاليْهي) وكان خطيب جامع عاليْه. وتوفي في أوائل الفتح العثماني أي سنة ٩٢٦ هجرية (١٥٢٠م) في كتابه «صدق الأخبار في نسبة آل تنوخ» (البحتريين):

«لما فتح السلطان الغازي سليم خان الأول مصر والشام سنة ٩٢١ (١٥١٥ م) خضع له بنو تنوخ (البحتريون) وكان كبيرهم الأمير شرف الدين يحيى بن سيف الدين أبي بكر، فقدم عليه وأهداه الخيل المسوَّمة وأخذ منه المناشير (المراسيم) التي تقرر له أملاكه، إلا أن جان بردي الغزالي عامل صيدا من قبل السلطان اتهمه بعد مدة بمحاربة ناصر الدين حنش، النائب القديم على صيدا، فألقى القبض عليه وعلى أخيه زين الدين وعلى بعض الأمراء من بيت معن فحبسهم في قلعة دمشق وأرسلوا بعد حين إلى حلب إلى أن أطلق السلطان سراحهم وعاد شرف الدين يحيى إلى مرتبته القديمة بل زاد تقدماً. . . وبقي الأمراء التنوخيون في الأمن والدعاة»[6].

(١) استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة ـ دومنيل دو بويسون. ترجمة لويس شيخو اليسوعي.

(٢) المقتطف سنة ١٩١٠ ص ١١٧٩.

(٣) نص الكتابة المنقوشة فوق باب مئذنة الجامع العمري الكبير ببيروت:

«أنشأ هذه المنارة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى، الشرفي موسى ابن المرحوم الزيني متسلّم داودار الجناب العالي المولوي الأميري الكبيري الناصري محمد بن الحنش أعزهما الله تعالى بنية صالحة وعزيمة صادقة ورغبة في الثواب وتقرباً إلى ربه الكريم وطلباً لثوابه العميم، أثابه الله الجنة بمنه وكرمه، بتاريخ مستهل شهر الله المحرم الحرام افتتاح سنة أربع عشر وتسعماية. والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم» انتهت الكتابة.

(٤) جرجي يني ـ تاريخ آل معن ـ في المقتطف ص ١١٥ عدد فبراير سنة ١٩٠١.

(٥) وتجاوز العثمانيين لعمارة السور وبقية الحصون في المدينة، مرده في الغالب إلى اعتمادهم على وفرة جيوشهم وقوتها بحيث كانوا يعتمدون عليها في تثبيت حكمهم وإرهاب خصمهم مما يجعل الوسائل العسكرية الثابتة في شكل أسوار وحصون غير ذات نفع بالنسبة إليهم في ذلك الحين.

(٦) تاريخ بيروت، لصالح بن يحيى ـ الملحق الخاص بكتاب ابن سباط ص ٢٣٧ طبعة سنة ١٩٢٧ التي نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي.

ويفهم من كلام ابن سباط أن أمراء الغرب هؤلاء صادفوا بعض المتاعب عندما تحولت بيروت من حكم المماليك إلى حكم العثمانيين إلا أنهم استعادوا مكانتهم فيما بعد، وأعاد العثمانيون إليهم اعتبارهم السياسي والعسكري وسلموهم من جديد أمر المحافظة على بيروت وشواطئها، وهي المهمة التي كانت لهم منذ أن فشل ملك قبرس بالغارة على المدينة سنة ١٣٤٥ م (٦٩٣ هجرية). كما تولى يومئذٍ أمراء آل عساف التركمان مساعدتهم في مهمتهم الدفاعية. والجدير بالذكر أن المماليك إنما كلفوا عشائر التركمان والتنوخيين بسكنى بيروت وغيرها من السواحل الشامية وبعض المناطق الحساسة في الجبل «تحوطاً من عودة الإفرنج لتكون هذه العناصر الإسلامية المشهورة بالبأس والشجاعة فاصلاً بينهم وبين النصارى الوطنيين»(١).

وأول والٍ نصبه العثمانيون على مدينة بيروت بعد أن تمت لهم السيطرة النهائية على البلاد بتصفية الحركات الانفصالية التي قام بها ناصر الدين ابن الحنش ومن بعده جان بردي الغزالي، كان الأمير محمد بن قرقماز الشركسي (التركماني) الذي تولى النيابة على بيروت وعلى صيدا، وكذلك جعل مقدماً على بلاد البقاع وما والاها مما كان في عهدة ابن الحنش الذي ذهب ضحية طموحه ومطامعه.

وإن إقرار الأمير محمد بن قرقماز في المنصب الذي كان يشغله آباؤه من قبل كان منسجماً مع سياسة بني عثمان الذين كانوا يتركون للشعوب التي يدخلون أراضيها الوطنية أن تبقى تحت إمرة زعمائها المحليين، ليستمر هؤلاء بالحفاظ على ما ورثوه من وجاهات تقليدية في مناطق نفوذهم، على أن تبقى السيادة الفعلية للسراي العثمانية وأن يتكفل هؤلاء الزعماء بإرسال الصرة النقدية إلى الاعتاب السلطانية في اسطمبول، دار السعادة. وهذا ما فعلوه بالنسبة لبيروت التي بقيت حكومتها المحلية في أيدي دركها التركمان من آل عساف والتنوخيين من أمراء الغرب، إلى أن حل محلهم فيما بعد آل سيفا ثم المعنيون في عهد كبيرهم الأمير فخر الدين المعني الثاني الملقب بالكبير، الذي استطاع أن يطوي راية أسلافه وينشر رايته على بيروت وسائر المناطق المحيطة بها من بلاد سورية وجبال لبنان ومشارف فلسطين وذلك بعد أن استطاع القضاء على آخر آل سيفا الأمير يوسف باشا سيفا وشتت أنصاره نهائياً سنة ١٥٩٩ عند ممر نهر الكلب بالقرب من بيروت.

سور بيروت في عهد فخر الدين وأعقابه المعنيين

أقرت الدولة العثمانية الأمير فخر الدين على البلاد التي كانت ميداناً لانتصاراته الحربية في المعارك التي خاضها لحسابها على خصومه وكافأته بالولاية على سنجق بيروت وصيدا بتوصية من مراد باشا والي دمشق.

ويبدو أن هذا الأمير الطموح أراد ـ لأمرٍ ما ظهر فيما بعد(٢) ـ أن يتخذ من بيروت قاعدة لحكمه «فخصها بعنايته وأعارها نظره لترقية أمورها المادية والأدبية، فرمم ما خرب من أبنيتها ـ بما في ذلك سورها وأبراجها ـ وعني بتحصينها وتشجير غابة صنوبرها القديمة واتخذها كدار لسكناه ومقام عزه ورونق دولته»!.

ولقد اتسع نفوذ فخر الدين وتوطد في المناطق التي يتألف منها اليوم ساحل الجمهورية اللبنانية وجزء من جبل لبنان الحالي الذي كان يعرف يومذاك بجبل الدروز، وكذلك شمالي فلسطين ـ رد الله غربتها وأقالها من عثرتها ـ ولقد حدد هذه المناطق الرحالة «سانديس» الذي قصد لبنان سنة ١٦١٠ وذكرها في مذكراته بأسماء المدن الموجودة فيها على وجه التحديد كما يلي: أسفل جبل الكرمل، غزير، بيروت، صيدا، صور، عكا، صفد، دير القمر، الشقيف، بانياس، الحولة، بحيرة طبرية، الناصرة، وجبل تابور بالقرب من نابلس»(٣).

أما فيما يتعلق «بالسور» الذي كان يحيط ببيروت في ذلك الحين، فلقد وقفنا على فصل من مذكرات الرحالة الإنكليزي موندرل (Henry Maundrell. M. A.) مترجماً إلى اللغة العربية في مجلة المقتطف، جاء فيه وصف لهذا السور كما كان عليه سنة ١٦٩٦ ميلادية، أي في السنين التي تلت وفاة فخر الدين،

(١) فخر الدين المعني جزء ٢ ص ٩٠ للخوري بولس قرالي. ومختصر تاريخ سورية للمطران يوسف الدبس جزء ٢ ص ٧٠، ٧١.

ولقد قابل الرأي العام البيروتي وجود التنوخيين في بيروت بالترحيب والابتهاج.

(٢) على الرغم من أن الأمير فخر الدين كان مسلماً على مذهب أهل السنة والجماعة، إلا أن أطماعه السياسية جعلت هواه في جانب النصارى من أهل البلاد والغرباء على حد سواء. ويقول الخوري بولس قرالي في كتابه عن فخر الدين ص ٤٠، ٤١ في هذا الصدد: وساعدهم (أي الأمير للموارنة) على احتلال ثلثي لبنان والانتشار في سهوله وثغوره. ففي السنة ١٦٣٣ التي مر فيها الأب ڤيتال بلبنان كانوا قد احتلوا البترون وجبيل ثم الناقورة والقنيطرة والفتوح وكسروان وبيروت فضلاً عن جبّة بشري... وهكذا استعان الأمير بالموارنة على التوسع والتوطد واستعانوا به على إنشاء وطن قومي لهم في لبنان، دافعوا عنه بكل ما أُوتوا من قوى وعزم حتى أصبح الآن (١٩٣٨) «جمهورية مستقلة».

وكتب الأب روجيه بعد إعدام الأمير «إن فقده خسارة جسيمة على النصرانية فقد كان ساعياً إلى تمليك المسيحيين الأرض المقدسة».

(٣) فخر الدين المعني، تأليف بولس قرالي.

والحكم المعني ما يزال قائماً في بيروت، قال موندرل:

«.. وفي بيروت... لم يزل سور المدينة قائماً إلى الجنوب منها وهو مبني من أنقاض مبانيها القديمة. وترى فيه قطعٌ من أعمدتها الرخامية».. إلى أن يقول «... وعلى شاطىء البحر قلعة قديمة متخربة وآثار مرفأ قديم..»(١). وسبقت الإشارة إلى أن هذا المرفأ، قد ردمه الأمير فخر الدين حتى لا يفيد منه أعداؤه بالوثوب على المدينة.

والوصف الذي ذكره موندرل لا يكاد يختلف عما ذكرناه من قبل على لسان صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» فلقد بقي السور على حالته التي كان فيها أواخر عهد المماليك دون تغيير يذكر إلا من جهة شاطىء البحر الذي كان يقوم فيه المرفأ القديم المردوم بأمر من فخر الدين.

السور في أيام الحكم الشهابي ببيروت

كانت السنة ١٦٥٨ هي آخر عهد المعنيين ببيروت، ففيها توفي الأمير ملحم بن يونس، ابن أخي الأمير فخر الدين بعد أن مكث في دست إمارة بيروت والمناطق التي كانت بعهدة عمه فخر الدين زهاء العشرين سنة. فلما انتقل إلى جوار ربه سنة ١٦٥٧ استعادت الدولة العلية العثمانية المبادرة في تعيين الولاة على مدينة بيروت بالذات، دون الجبل الذي تركته لبقايا آل معن يحكمونه إلى سنة ١٦٩٧ ميلادية، وهي السنة التي انتهت فيها سلالة المعنيين بوفاة آخر أمرائهم الأمير أحمد المعني دون عقب ذكر يرث الحكم من بعده مما جعل الدولة والأهالي يتفقان على خلافة أنسباء المعنيين في مراكزهم الحكومية، إذ كان هؤلاء وأولئك يمتون بصلة القربى بعضهم من بعض عن طريق المصاهرة والنساء.

وكان أول الولاة الذين عينتهم الدولة مباشرة من قبلها على مدينة بيروت محمد باشا الأرناؤوطي وذلك سنة ١٦٥٦ ميلادية بعد أن فصلتها عن صيدا. على أن أمراء البيت الشهابي الذين توارثوا الحكم في جبل لبنان ما لبثوا أن مدوا رواق سلطانهم على الساحل الموازي لجبلهم، ولم يدخروا جهداً في الوصول إلى بيروت نفسها التي انتهى بها الأمر أخيراً إلى الدخول في جملة أملاك آل شهاب أيام الأمير منصور الذي لم يلبث أن توارى عن مسرح الحكم متخلياً عن السلطة الفعلية لابن أخيه الأمير يوسف بن ملحم في اجتماع حاشد ضم أعيان جبل لبنان الذين دُعوا لمؤتمر كبير لهذا الغرض في الباروك عقد سنة ١٧٧٠ ميلادية.

أما الأمير السابق الذي أقال نفسه اختياراً قبل أن يُحمل على الاستقالة اضطراراً، فإنه آثر أن ينفق ما تبقى من عمره بهدوء في بيروت نفسها، حيث انتقل إلى جوار ربه حتف أنفه سنة ١٧٧٤ ودفن في جامع النوفرة الذي بناه الأمير منذر بن سليمان التنوخي الواقع بجوار قيصرية آل شهاب في المكان الذي أصبح فيما بعد سوق البازركان وهو السوق الذي عرفه آباؤنا الأقربون بـ «سوق الخياطين العربي».

أما الأمير الجديد لبيروت، الأمير يوسف، فقد ابتدأ قوياً مهاباً ثم ما لبث أن اضطربت أحواله وكثرت متاعبه بسبب المملوك البشناقي الذي احتضنه وكلفه بإدارة دفة الحكم نيابة عنه ببيروت والذي أصبح بعد فترة قصيرة يعرف بأحمد باشا الجزار(٢) أشهر الولاة الذين عرفتهم هذه المدينة ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد. وهو الباشا الذي جعل لسور بيروت أهمية قصوى في الأدوار العسكرية والأحداث التاريخية التي تقلبت على بلدنا ما يزيد على نصف قرن من الزمان تقريباً أي من سنة ١٧٧٣ حتى سنة ١٨٤١.

أحمد باشا الجزار في بيروت

على أثر الانقلاب العسكري الذي وقع في مصر وأدّى إلى تغلب محمد بك أبو الذهب على حاكمها السابق علي بك الكبير، اضطر أحمد باشا الجزار إلى البحث عن ملجأ له خارج نفوذ الحكم الجديد فاختار جبل لبنان حيث كان يسيطر الأمير يوسف الشهابي. وجاء من أخبر الأمير أن ببابه رجلاً بشناقياً قدم البلاد هارباً من مصر حتى لا يقع تحت سلطان حاكمها الجديد محمد بك أبو الذهب، فأنزله الأمير على الرحب والسعة ردحاً من الوقت ثم ما لبث أن تبين فيه مؤهلات تجعله جديراً بتحمل المسؤوليات الإدارية فكلفه حفظ بيروت لقاء مرتب يقتطع من دخل الجمارك(٣).

(١) المقتطف سنة ١٩١٠، ص ٧٥٠.

(٢) ولد أحمد باشا الجزار من أبوين مسيحيين في إحدى قرى البوسنة في يوغسلافيا وبسبب حادثة أخلاقية هرب من بلاده إلى الأستانة حيث باع نفسه من نخاس يهودي واعتنق الإسلام ديناً بإشارة من هذا النخاس ليسهل عليه بيعه. ثم انتقل من الأستانة إلى مصر ليكون في جملة مماليك ولي أمرها إذ ذاك علي بك الذي أصبح فيما بعد «الكبير». وقد أهّلته مواهبه الكثيرة لأن يصبح أقوى رجل في الشرق بعد السلطان، لا سيما بعد أن ألحق الهزيمة بنابليون في معركة عكة وجعله ينكفىء مدحوراً إلى بلاده فرنسة.

وقد لقي الجزار من أهل جبل لبنان عنتاً وسوء نية مما جعله يقسو عليهم ويخفض هام كبرائهم بالذل لسلطانه. فلما توفاه الله سنة ١٢١٩هـ (١٨٠٤م) في مدينة عكة أظهر هؤلاء، وجلُّهم من النصارى، علامات السرور والابتهاج.

(٣) حديقة الجنان للخوري أسطفان صوان، وتاريخ أحمد باشا الجزار للأمير حيدر الشهابي تحقيق ونشر الأب أنطونيوس شبلي والأب عبده خليفة.

بيد أن الأمور سارت بالشهابي ونائبه الجزار إلى الافتراق والعداء بعد التفاهم والوفاق، وتواترت بينهما أسباب النفور والجفاء حتى آل الأمر بالأمير يوسف إلى تدبير مؤامرة لاغتيال الشخص الذي كان له وكيلاً، ثم كاد يصبح مكانه أصيلاً. ولكن المؤامرة لم تبلغ غايتها لأن الجزار أبلّ من إصابته الجانبية وانصرف إلى تدبير الخلاص من سيده السابق بطريق الحيلة والمراوغة.

ويبدو أن الأمير يوسف حين يئس من إخراج الجزار من بيروت بالقوة لجأ بدوره إلى إعطاء هذا الخصم من بضاعته وأظهر له المحبة والإخلاص، حتى إنه لما كانت سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢) حضر كتابات من محمد بك أبو الذهب إلى الأمير يوسف تتضمن تعهده له بعطا مايتي ألف غرش إن أرسل له رأس الجزار، وشرح له الخيانات التي أبداها حين كان بمصر، وحذره من شره وغدره. أما رد الأمير يوسف لأبو الذهب فكان أنه لا يمكنه تكميل مراده تحسباً لملامة الدولة(١).

ولم يكتف الأمير يوسف بالامتناع عن تسليم الجزار إلى خصمه اللدود محمد بك ابو الذهب، بل انتهز فرصة قدوم الأول إلى بيروت للمدافعة عنها ضد الأسطول الروسي الذي أنزل رجاله فيها سنة ١١٨٥ هـ حينما طلبهم علي بك من الإمبراطورة كاترين صديقة حليفه ظاهر العمر حتى يمكنوه من استعادة مصر. ففي هذه المناسبة أرسل الأمير يوسف إلى عثمان باشا والي الشام ملتمساً منه الموافقة على تسليم مدينة بيروت للجزار وكتب إلى «دزدار القلعة، والكمركجي وباقي أرباب الأقلام الميري، أنهم يكونوا في طاعة الجزار وأن إيرادات الميري جميعها تكون بتسليمه»(٢).

الجزار يولي سور بيروت اهتمامه

وفي هذه الأثناء، لم يضع الجزار وقته سدى، وأخذ يتصرف على أساس الاستقلال ببيروت آجلاً أم عاجلاً، بصرف النظر عن موقف سيده السابق الأمير يوسف. وهنا يقول صاحب كتاب «حديقة الجنان في تاريخ لبنان»(٣):

«ولم تنقض على الجزار برهة حتى عمل على الخروج من حوزة الأمير ـ وليت ينفع الندم... ثم إنه شرع في تعمير «السور» المتهدم وطفق يعد الآلات لحرب الحصار وابتدأ بمنع أهل البلاد (أي أهل جبل لبنان) من الدخول إلى المدينة، ولم يكن يدع شيئاً يخرج منها... وقد أسمعت لو ناديت حياً!...».

فلقد ذهبت كل صيحات التحذير التي وجهت إلى الأمير يوسف سدًى، لأن هذا وقع مع خصمه في حيص بيص، ولم يعد يعرف كيف يتخلص من الدب الذي أدخله إلى كرمه.

الجزار والشهابي يجتمعان في المصيطبة

وأخيراً وجد الأمير يوسف أن أفضل وسيلة للحد من نشوز الجزار وخروجه على الطاعة أن يجتمع إليه بشخصه ويتبادل معه الحديث مباشرة حتى لا يتسع الخرق وتتفاقم الأمور بينهما. ولم يعارض الجزار في حصول هذه المفاوضات مع الأمير الشهابي وجهاً لوجه، وهكذا تم اللقاء بين الطرفين في «المصيطبة»(٤) بالقرب من المدينة «فظهر الجزار بأمارات نفسه بكل تؤدة وتلطف بجانب خاطر الأمير وأقنعه (وهو يضمر السوء للإيقاع به) بأنه لا يرغب قط عن طاعته. ولم يدر في خلده ألبتة الخروج عن محالفته واتباع أهواء مخالفيه طالباً منه مهلة لمدة أربعين يوماً، بأثنائها يقوم عن المدينة فتمسي في قيادة تدبيره دون أن يتعكر كأس صفائه بولايته!».

ولقد أعطت هذه المقابلة (وهي ما يسمونه في أيامنا مؤتمر القمة) ثمارها المرجوة بالنسبة للجزار الذي استطاع بفضل هدوء أعصابه ولباقته في الحديث ومهارته في التضليل والتمويه، إقناع غريمه المنتظر بالثقة به والموافقة على إمهاله مدة كانت كافية لاتخاذ التدابير الاحترازية التي رآها ضرورية لكسب الجولة الأخيرة ليس فقط في بيروت وحسب، بل في جبل لبنان نفسه أيضاً، المعقل الرئيسي للأمير يوسف وآله من الشهابيين.

وهكذا عاد أحمد باشا الجزار من «قرية المصيطبة» إلى بيروت لينصرف إلى عمارة سورها ودعمه بالأبراج والحصون، وتنظيم أبوابه وحمايتها بالحراس الأشداء من جنوده المغاربة والأرناؤوط، وبالغ في جمع كل ما يحتاج إليه الحصار من مؤونة الغذاء وعدة السلاح، توقعاً منه لمعركة آتية لا ريب فيها مع الأمير يوسف والذين قد يكونون إلى جانبه من الحلفاء.

المواد التي استعملها الجزار في بناء السور

وقد استعمل الجزار في ترميم السور وتجديده بقايا الأعمدة الضخمة التي تخلفت عن العصور القديمة في ظاهر بيروت وداخلها نتيجة الزلازل المتكررة التي تعرضت لها المدينة في تلك العصور، لا سيما في أواسط القرن السادس للميلاد حينما انقلبت بيروت رأساً على عقب بالزلزلة الكبرى التي أعقبها

(١) تاريخ أحمد باشا الجزار للأمير حيدر أحمد شهاب. نشره الأب أنطونيوس شبلي اللبناني والأب أغناطيوس عبده خليفة ص ٥٠.
(٢) نفس المصدر السابق.
(٣) حديقة الجنان في تاريخ لبنان، الجزء الأول، ص ٩٦، ٩٧.
(٤) هي محلة المصيطبة اليوم الواقعة في صميم بيروت.

الحريق الهائل. ولم يكن الجزار هو الوحيد الذي استعمل أنقاض المدينة في بناء سورها، فلقد سبقه إلى ذلك جميع الذين تعاقبوا على الاهتمام بهذا السور تقريباً، وهو ما أشار إليه الكتّاب الذي تحدثوا عن بيروت من السيّاح والمؤرخين. ويقول الفيكونت فيليب دي طرازي إن الجزار جعل بين جداري السور الداخلي والخارجي فراغاً من الأرض البور.

ولقد شاهدت بنفسي «الخامة» التي استعملها الجزار في بناء سوره ببيروت وذلك أثناء الحفريات التي قامت بها مديرية الآثار العامة وهي تكشف طبقات التراب عن الأعمدة التي توجد في درج خان البيض، وهي أعمدة مرتفعة إلى جانب السور الذي ظهر في هذه المناسبة وبداخله العديد من هذه الأنقاض والأتربة القديمة (سنة ١٣٨٦هـ/سنة ١٩٦٦م).

«سور الجزار» كما يصفه الكونت دومنيل دو بويسون

في سنة ١٩٠٠ كتب الكونت دومنيل دو بويسون بعض الأبحاث عن بيروت القديمة، وفي جملتها بحث مطول عن «استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة» ولقد خص هذا الكاتب الأثري سور بيروت بفقرة تحت عنوان: «استحكامات بيروت الشرقية»(١)، جاء فيها:

«السور الذي نتحدث عنه في هذا الفصل وفي الفصل التالي هو السور الذي أقامه الجزار في أواخر القرن الثامن عشر واستفاد في بنائه من أخربة الأسوار المختلفة الأزمنة، وقد بقي منه آثار قليلة، ترشدنا مع التقاليد المحلية إلى تعريف خطوطه.

كان السور يستند في شمالي المدينة الشرقي إلى دكة القصر وعلى رأينا (والكلام لا يزال للكونت دو بويسون) أن هذا السور كان جنوبي غربي شارع المرسلياز كما يظهر من آثار في رتج هناك. وكان السور يمتد من ثَمّ على خط مستقيم إلى باب الدباغة حيث يمكن مشاهدة هذا القسم الأول منه.... وعلى بعد بعض الخطوات غربي الباب يرى حتى اليوم (١٩٠٠ م) السور القديم وهو يستند إلى بناية ضخمة مربعة الشكل استولى عليها الخراب، فكانت دعامة حسنة للباب. وفي هذه القطعة من السور ست كوًى: ٣ للجنوب و٣ للشرق، كانوا يقذفون منها القذائف على العدو.

وكان السور يمتد من هناك إلى باب السراي (بناية دعبول اليوم في أول شارع فوش) على طول المقبرة الإسلامية (حيث توجد اليوم بناية الريفولي للمقاصد الخيرية الإسلامية) فيبرز على شكل زاوية متثنية».

وهكذا وصف دومنيل دو بويسون سور الجزار في بيروت. وقد راعى في وصفه المعالم التي كانت ما تزال موجودة في عهده أي في أواخر القرن التاسع عشر. على أننا رغبة منا في أعطاء القارىء المعاصر صورة قريبة إلى ذهنه من خلال التطورات الإنشائية التي جدّت على المدينة بعد زوال المعالم التي أشار إليها دوبويسون، فإنه لا بأس علينا من إثبات ما ذكره المؤرخ أسد رستم عن وصف السور أو بالأصح خط سيره كما يرجحه هذا المؤرخ (سنة ١٩٢٧ م) عند كلامه عن «بيروت في عهد إبراهيم باشا المصري»:

السور في عهد إبراهيم باشا المصري

قال رستم(٢): «... كان هذا السور يمتد من طرف قلعة البحر في شارع المرسلياز إلى باب الدباغة على خط مستقيم تقريباً. ومن باب الدباغة إلى باب السراي على شكل زاوية متثنية، ومن هناك إلى باب أبي النصر ومعبد (زاوية) أبي النصر المشهورة (أصبح اسمها جامع محمد الأمين) تاركاً ثكنة ساحة البرج وأسواق الجوهريين خارجة عنه إلى شرقيه. وكان يتجه من معبد أبي النصر شرقاً إلى باب الدركة (رأس شارع المعرض اليوم) وباب يعقوب (طلعة الأميركان أو أول شارع الكنيسة الإنجيلية من جهة الشرق) غرباً مارًّا في وسط الكنيسة الكاتدرائية المارونية على خط موازٍ لشارع السراي (الأمير بشير) ومن هناك كان يمتد إلى باب إدريس وباب السنطية (زال هذا الباب وأصبح امتداداً لشارع باب إدريس إلى الشمال من مقبرة السنطية للمسلمين) مارًّا في طرف كنيسة الكبوشيين وسوق الجميل. أما سور بيروت الشمالي فإن آثاره كانت تمتد من جامع المجيدية غرباً إلى زاوية الراعي والقلعة (زالت وحل مكانها منشآت المرفأ) شرقاً...».

حدود السور كما جاءت في مقال شفيق طبارة

وبين أيدينا مقال للأستاذ شفيق طبارة (أمين سرّ جمعية تجار بيروت) نشره في مجلة أوراق لبنانية(٣) وهو يتكلم عن سور بيروت الذي درست معالمه نهائياً في زمانه (١٩٥٥م) ضمن الحدود الآتية: قال الأستاذ طبارة رحمه اللّه.

«كانت بيروت في القرون القديمة الماضية بلدة محدودة المساحة وقائمة على منحدر بشكل مربع الأضلاع، وكان يحيط بها سور من حجارة كبيرة حماها على مر الأجيال من غارات الأعداء وصد هجمات الفاتحين، ويبتدىء من قلعتها القديمة (زالت) في الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي، غرب ساحة الشهداء

(١) استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة بقلم الكونت دومنيل دوبويسون، ترجمة الأب لويس شيخو اليسوعي.
(٢) مجلة الكلية الصادرة في بيروت مجلد ١٣ جزء ٢، سنة ١٩٢٧.
(٣) أوراق لبنانية ليوسف إبراهيم يزبك مجلد سنة ١٩٥٥، ص٢٧٨.

(البرج) عند مدخل سوق أبي النصر، ويمتد غرباً إلى محلة السور بمحاذاة بناية العسيلي إلى تمثال اليازجي (نقل إلى باحة الجامعة اللبنانية في الأونيسكو) في الجنوب الغربي، ثم يمتد شمالاً إلى باب إدريس ويصل إلى ميناء الخشب عند مرفئها القديم في الشمال الغربي، وهي مساحة يبلغ طولها ٥٧٠ متراً ولا يزيد عرضها على كيلو مترين (؟)».

* * *

أوردنا أقوال هؤلاء المؤرخين المتأخرين بنصها الحرفي، لعلنا نستطيع أن نترك القارىء يحاول بنفسه تكوين فكرة تقريبية عن سور بيروت الذي بناه الجزار في شكله النهائي وهو الشكل الذي أدرك المعمرون من أبناء المدينة بعض أجزائه قبل أن يستفحل البناء فيها ويطمس هذه الأجزاء تحت الشوارع العريضة والعمارات العالية.

ثم نعود إلى هذا السور والدور الذي لعبه في عهد بانيه أحمد باشا الجزار الذي جعل منه حديثاً ما يزال الرواة يتناقلونه خلفاً عن سلف حتى أيامنا هذه. وقد تداخلت المبالغات عن الجزار وسوره بالوقائع الحقيقية حتى كدنا لا نميز بين الصحيح وغير الصحيح.

السور في عهد الجزار لأول مرة

لقد كان اتفاق الجزار مع الأمير يوسف صريحاً واضحاً، وهو يقضي بأن الأول يخلي المدينة للثاني فور انتهاء المهلة المقررة وهي أربعون يوماً بدون تلكؤ ولا تأخير. على أن الذي كانت تبديه السطور كان غير الذي تخفيه الصدور، هذا بالنسبة للجزار على الأقل. وبالفعل فإن باشا عكة ما كاد يطمئن إلى غفلة خصمه العتيد الأمير يوسف حتى راح يعمل بكل ما أوتي من حزم وعزم وتصميم على إعداد بيروت لتتحمل ما يمكن أن تلده الليالي الحبالى من المفاجآت المنتظرة بعد نفاد المهلة المعطاة له، وهي مفاجآت أقل ما يقال فيها. إنها الحصار الطويل والقتال المرير، ذلك لأنه وطن نفسه على الاعتصام بما يملكه بدهائه وذكائه من حكم المدينة والنفوذ فيها، مهما كانت العواقب المترتبة على موقفه هذا.

وبالفعل، فإن الجزار بعد أن تخلص من نائب عثمان باشا والي الشام في بيروت واسمه الساري عسكر كخيا استنفر أهل البلد المسلمين للدفاع عن مدينتهم وشاركهم شخصيًا في إقامة التحصينات اللازمة وجعل كل همه في ترميم سور المدينة وبناء الأبراج عليه. وكان يقوم هو نفسه برسم التصاميم العسكرية في الأمكنة الملائمة للدفاع. ولم يكن يتوانى في سبيل إنجاز عمله عن اتخاذ التدابير الاحترازية التي تقتضيها طبيعة الأعمال العسكرية، وكان من جملة هذه التدابير إبعاد المشتبه بولائهم من أهل جبل لبنان ومنعهم من الدخول إلى المدينة إن كانوا خارجها.

وقد كان ترميم السور وتجديده وشحنه بالمقاتلة من أنصار الجزار المغاربة والأرناؤوط باعثاً على إثارة الشكوك والريب في نفس الأمير يوسف وسائر آل شهاب الذين هالهم أن تفلت من أيديهم المدينة التي تدر عليهم خيرات التجارة الخارجية الواردة إلى الشام عن طريق مرفئها المزدحم بالمراكب الأجنبية في أغلب أيام السنة، فاتفق الأمير ومن إليه من آل وأنصار أن يستنجزوا الجزار وعده طالبين إليه إخلاء المدينة من جماعته وتسليمها إليهم وفق الشروط التي تمّ الاتفاق عليها في «قرية المصيطبة» ولكن الجزار كان يُسوِّف ويماطل، ويعلل إقامة السور والأبراج التي على أبوابه بأنها كانت لحماية البلد من عبث قطاع الطرق وحصر منافذها تحت إشراف الكمركجي لتزداد مواردها المالية عن طريق ضبطها في الجمارك الرسمية.

إلا أن هذه المبررات لم تقنع أحداً وبخاصة الأمير يوسف بالذات. ولما حاول هذا ذات صباح دخول مدينته المحبوبة. . . صرخ به مغربي من أعلى «السور» وبيده بندقية: «إذا حاولت العودة إلى هنا فالجزار يخوزقك! . . .»(١).

حصار اللبنانيين لبيروت والدور الذي لعبه سورها

أمام هذا الموقف العدائي الصريح لعب الفأر في عب الأمير الشهابي ولم يعد عنده شك في أن الجزار كشف قناع العداوة الصريحة، وأنه ينوي الاستقلال بالمدينة والحيلولة دون عودتها إلى حظيرة الإمارة اللبنانية. وأخذ الجبليون يغيرون على السور ويتخطفون من حوله أهل بيروت الذين يتجاسرون على تجاوزه خارج مدينتهم. فما كان من الجزار إلا أن قبض على بعض هؤلاء الجبليين وقطع رؤوسهم ثم أمر بخوزقتهم ورفع رؤوسهم المقطوعة في أعالي السور لتكون رادعاً للأمير دون التفكير بأية محاولة لغزو المدينة أو الدخول إليها بالعنف والإكراه. وزاد الجزار في اصطناع وسائل الإرهاب والزجر فأمر رجاله بأن يعدّوا له «فزّيعة» (تمثال) على شكل الأمير وعلقها مشنوقة بحبل دلاه من فوق السور لكي يرى الشهابي مصيره المحتوم إذا حدثته نفسه بالاقتراب من هذا السور.

ولقد أثار عملُ الجزار الذي امتزجت به السخرية مع التخويف الأميرَ يوسف فجمع هذا ما يزيد على عشرين ألف مقاتل وحاول أن يقتحم بهم السور ويؤدب ذلك «الانفصالي»

(١) أحمد الجزار ـ تأليف لوكروا ص ٧٩.

الجريء، ولكن هذا «الانفصالي» استطاع أن يرد الغارة عن معقله ويلحق الهزيمة النكراء بخصمه الذي لاذ بصديقه ظاهر العمر حاكم منطقة الجليل بفلسطين لكي ينصره بأصدقائه الروس الذين كانوا يرابطون بسفنهم بالقرب من ساحل المدينة في أثناء جولة القرصنة التي كانوا يقومون بها في عرض البحر الأبيض المتوسط.

العمارة الروسية تضرب سور بيروت بالقذائف

وهنا نترك للكاتب الفرنسي أدوار لوكروا (Edoird Lekroy)(١) وصف هذه العمارة التي كانت عبارة عن مجموعة من المراكب الحربية التي تمارس أعمال القرصنة في البحار تحت العلم الروسي دون أن يكون في بحارتها أي واحد ممن يحملون الجنسية الروسية! . .

قال لوكروا:

«. . رسا الأسطول الروسي(٢) في ميناء بيروت عند الساعة الحادية عشرة من صباح تاسع تموز سنة ١٧٧٣ وكان مؤلفاً من:

١ ـ سفينة ذات عشرين مدفعاً بقيادة قوزاقوف الذي عهد إليه بإدارة الحملة.

٢ ـ فرقاطة ذات واحد وعشرين مدفعاً بقيادة بنايوتي.

٣ ـ فرقاطة أخرى ذات واحد وعشرين مدفعاً بقيادة جوهاني فانيوفيتش.

٤ ـ سفينة ذات ستة عشر مدفعاً بقيادة المسيو كوريل.

٥ ـ مركب بقيادة الكونت ماركو.

٦ ـ قايق ذي عشرين مدفعاً.

٧ ـ خمس فلايك.

٨ ـ اثنتا عشرة قطعة صغيرة.

٩ ـ زوارق بعضها للشيخ ظاهر».

ويقول لوكروا عن ربابنة هذه القطع وبحارتها: «والأمر الغريب في هذه العمارة الروسية أنه لم يكن فيها روس بل كل بحارتها إيطاليون أو يونانيون وضباطها يتسترون بأسماء مستعارة، وهم من أمم شتى. . ولم يعرف تماماً من هو قوزاقوف، أما بنايوتي فكان قرصاناً سابقاً بسيطاً يونانيًا رفعه أورلوف إلى رتبة قبطان مركب. والكونت ماركو لم يكن كونتاً بل كان من البندقية (فينيسيا) وجرت حوادث غير شريفة أجبرته على مغادرة إيطالية. . كان مسترزقاً، وكان المسيو كوريل من لاسيونات من أعمال بروفانس بفرنسا وهو «قايقجي»(٣) قديم في البحر المتوسط هرب من وجه العدالة لانغماسه في بعض الاختلاسات، لأن الاختلاس والقرصنة من شيمته. أما الكونت جوهاني فأغرب من الجميع وقد عرفته آسيا كلها بحاراً يمرّ «بالأساكل» وهو نفسه استخدم طويلاً في محل تجاري بإزمير واتخذ اسم فاينوفتش ليتظاهر بأنه روسي. . . وإذ امتلك هؤلاء أسطولاً بدأوا يقيمون الحفلات ويصرفون أيامهم سكارى فيخطفون النساء من قرى الشاطىء ويتهافتون على كل المراكب سواء كانت تركية أو أوروبية! . . ».

وكان هذا الأسطول المتجول بحثاً عن الطرائد الثمينة لقراصنته، يتخذ من شواطىء قبرص قاعدة لانطلاقه إلى فريسته(٤). فلما أتاه صريخ الاستغاثة من ظاهر العمر تلبية لرجاء حليفه الأمير يوسف الشهابي، أقلع منها في الحال متجهاً صوب شواطىء بيروت وضرب حولها حصاراً محكماً ثم أدار زناد مدافعه لإطلاق خمسين قذيفة هوائية إعلاناً بقدومه من أجل نجدة الجبليين وإعادة أميرهم إلى قرة عينه بيروت. وفي اليوم التالي بدأت المعركة الحقيقية وأخذت البوارج مراكزها النهائية تجاه المدينة على بعد قريب من السور المواجه للبحر وأخذت تواتر إطلاق القذائف اللاهبة والحاطمة سائر النهار، فأصابت قلعة البحر التي كانت تحمي الميناء ودمرتها، وأصابت ما يلي هذه القلعة، من السور الذي تعب الجزار في تحصينه ودعمه بالأبراج

(١) نشر هذا الكاتب مؤلفه تحت عنوان: أحمد الجزار باللغة الفرنسية سنة ١٨٨٨، وترجمه إلى العربية في جريدة «البرازيل» صاحبها جورج مسرة سنة ١٩١٧ ثم نشره كاملاً في كتاب مستقل سنة ١٩٢٤ م.

(٢) كانت كاترين إمبراطورة الروسيا تتطلع إلى المياه الدافئة (البحر الأبيض المتوسط) فأرسلت عمارتين بحريتين إحداهما بقيادة «سبيرينوف» والآخر بقيادة الأميرال البريطاني «لفنستون» وقد انضم إلى الأول الأخوان أورلوف. وقد سبب وجود الروس في البحر المتوسط على مقربة من الأراضي العثمانية في مصر والشام اختلال الأمور في هذين البلدين واستقلال كل من حاكم مصر محمد بك أبو الذهب وحاكم الجليل ظاهر العمر بما تحت يديهما من بلدان. وكانت الروابط الشخصية بين القرصان أورلوف وحاكم الجليل ضاهر العمر قوية مما حدا بالأمير يوسف إلى الاعتماد على هذه الروابط لاستخدام الأسطول الروسي في طرد أحمد باشا الجزار من بيروت لقاء عمولة باهظة كما سيجيء تفصيلاً بالمتن. وجاء في «كتاب السياسة الدولية في الشرق العربي» جزء١ ص٣١ أن الأمير يوسف استعان بقائد الدارعة الروسية، انطوني فاينوفتش على الجزار في آب سنة ١٧٧٣م، وكان قد عصى فيها وكلفته هذه المعونة الروسية مبالغ طائلة!

(٣) القايقجي هو البحري الذي يتولى القايق (مركب بحري صغير) ولا يزال بحارة بيروت يستعملون هذه الكلمة في اصطلاحاتهم البحرية.

(٤) حديقة الجنان في تاريخ لبنان تأليف الخوري اسطفان صوان، جزء ١، ص ٩٨.

ففتحت فيه ثغرة بعد أن تدحرجت بعض حجارته الضخمة إلى البحر، ورغم كل ذلك فإن المدينة لم تقدم أي بادرة على رغبتها بالتسليم ورفع راية الهدنة والهزيمة. وكل الذي حصل بعد تلك العاصفة العاتية من حمم القذائف الروسية هو أن الجزار بقي محافظاً على رباطة جأشه وهدوء أعصابه مطمئنًا إلى مناعة منشآته الدفاعية. وما أن هبط الليل حتى أمر جنوده المغاربة والأرناؤوط والمتطوعة من أهل بيروت نفسها، بأن يطوفوا في شوارع المدينة المحاصرة وبأيديهم تماثيل رمزية تمثل أنماطاً من أهل جبل لبنان بأوضاع مزرية إمعاناً في السخرية وإثارة لحماس البيروتيين في الدفاع عن مدينتهم. وليس من شك في أن بعض المواطنين من النصارى في البلد، تحملوا نصيبهم من المتاعب بسبب هذا الحصار وما رافقه من ضرب المدافع كُرْمى لعيون أمير لبنان الذي أخذت عليه تلابيب عقله وهواه رغبته الجامحة في العودة إلى البلد الذي أخذه منه أحد تابعيه السابقين على حين غفلة منه!

ومن هذه المتاعب أن الجزار تأثر من بعض المظاهر التي رأى فيها تجاوباً بين نصارى المدينة ومهاجميها فأمر بإعدام الذين لم يستطيعوا إخفاء عواطفهم السلبية نحوه ودفنهم في الأمكنة التي رممها من ثغرات السور التي فتحتهاقذائف الروس بعد أن ترك أيديهم مدلاة لجهة البحر خارج البناء وكأنها حلق الحديد التي تستخدم لربط حبال السفن الراسية في القرب من رصيف ذلك السور.

ولم يكن سور بيروت في تلك المعركة يلعب دوره العسكري فقط، بل كان إلى جانب ذلك يؤدي مهمته في الدعاية للجزار والتهويل على خصومه. إذ أن حماة هذا السور أُمروا بأن يرفعوا فوقه تماثيل مشابهة للتي كانوا يطوفون بها خلال البلد لكي يراها أهل جبل لبنان فتنخلع قلوبهم من الخوف ويترددوا كثيراً قبل الإقدام على مغامرة الدخول إلى المدينة معتمدين على الثغرات التي فتحتهاقذائف الروس في السور.

وهذا ما حصل فعلاً، فإن أمير لبنان الأمير يوسف الشهابي لم يفلح في إقناع أنصاره بالدخول إلى المدينة مما جعله يعود إلى الروس طالباً إليهم عدم الاكتفاء بضرب القنابل، والنزول بأنفسهم إلى البر لتأمين القضاء على مقاومة بيروت واحتلالها ثم تسليمها غنيمة باردة له.

ولم يكن الروس على استعداد لتلبية رغبات الأمير يوسف دون مقابل يتكافأ مع التضحيات المطلوبة منهم، لأنهم في الأساس إنما يقومون بهذه المهمة الضخمة لأجل الحصول على مرابح مادية بحته وليس لهم أية غاية سياسية في بيروت بالذات إذ أنهم مجموعة من لصوص البحر (القرصان) يوجهون ضربتهم حيث يجدون الثروة والخمرة والنساء لا أكثر ولا أقل!.

القرصان يساومون الأمير يوسف قبل اقتحام السور

لقد كان الأجر المتفق عليه بين القراصنة الروس وبين الأمير يوسف ٤٠٠ كيس من العملة العثمانية على أن يأخذوا الأمير موسى ابن الأمير منصور رهينة لضمان تسديد هذا المبلغ، حتى إذا أخلف الأمير يوسف وعده وماطل بالدفع ألقوا بالأمير الرهين في الماء انتقاماً. بيد أن هذا المبلغ لم يعد يرضيهم بعد أن تطورت مطالب أهل لبنان من ضرب السور وتهديمه إلى الاحتلال الفعلي للبلد وتسليمها بلا مقاومة لهم. وهنا برز أحد الوسطاء بين الفريقين الروسي واللبناني وكان هذا الوسيط العجيب يدعى «الخوري عجمي» وهو من التابعية الفرنسية، وكان يحسن العربية كما يحسن تمثيل دور القرد الذي نصب نفسه حكماً بين القطين اللذين يتنازعان قطعة الجبنة. وبعد مفاوضات كادت تنقطع وتنقطع معها أنفاس الأمير موسى الرهينة في أعماق البحر، عاد الطرفان فاتفقا على رفع الثمن إلى ستمئة كيس بالتمام والكمال،على أن يدخل الروس إلى قلب المدينة دون أن يمسوا ثروتها المادية التي يجب أن تكون من حصة اللبنانيين لوحدهم.

وهكذا استأنف القراصنة الروس الحصار وفي عيونهم بريق الطمع إلى المال والثروة.. وزادوا في إحكام الحصار وتضييقه حتى كاد البيروتيون يأكلون ما تعافه الأنفس وتنفر منه الطباع.. واستمرت الحالة كذلك ما يقارب الأربعة اشهر[1] دون أن يتطرق الوهن إلى نفوس المدافعين عن مدينتهم أو يصيبهم اليأس. والجزار خلال ذلك، كالأسد الرئبال لا تلين له عريكة ولا يضطرب فيه جنان. يقبل على الناس مثيراً في نفوسهم نخوة الرجال في الدفاع عن الحريم والدين والتراث مستخدماً في هذا السبيل كل الوسائل النفسية والروحية ويجند الشبان في تنظيمات عسكرية ويقدم إليهم الآلات الموسيقية ليسيروا على وقع أنغامها في ساحات المدينة المسورة تحت خفق البنود المطرزة بآيات القرآن الكريم التي تحث على الجهاد وتؤمل المؤمنين بنصر من الله وفتح قريب، وسُمّي هؤلاء المجندون «حماة الإسلام».

وتطاولت أيام الحصار حتى مس قرح الحرب قرصان الروس كما مس المدافعين عن المدينة فهلك من الفريقين نخبة المقاتلين فيهم وأصبح هؤلاء وأولئك يرون أن الصبر على هذه الحال المضنية لم يعد مجدياً وأنه لا بدّ من وضع حدّ للمعركة الضارية وتقرير مصيرها بأي شكل مهما كانت التضحيات ومهما كانت الخسائر.

---

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، تأليف طانيوس الشدياق ص ٣٩٥.

وعلى هذا اقتربت البوارج الروسية من سور البلد وأصلته مدافعها ناراً حامية من قذائفها الفتاكة لمدة أربعة أيام متوالية دون انقطاع آناء الليل وأطراف النهار «حتى سمع دوي هذه المدافع بأقطار دمشق الشام كالرعود القواصف»[1]. و «ظن الناس أن القيامة قامت»[2] «ولكن عمار بيروت بحجر رملي فلم تؤثر بها الكلل، بل إن الكلة كانت تأخذ ما تصيبه من الحجارة ويبقى العمار ثابتاً»[3] مما دفع المهاجمين إلى الانتقال إلى البر والمرابطة بمدافعهم القوية في ساحة البرج التي عرفت فيما بعد بساحة المدافع (Place des Canons) لهذا السبب، وجعلوا فوهات هذه المدافع شاخصة إلى السور ثم قصفته القذائف عن كثب بأعصاب رماتها المهتاجة التي برَّح بها الشوق إلى الغنيمة التي تراها العيون ولا تطالها اليد. ولم يمض وقت طويل حتى تم للمهاجمين ما أرادوا وانفتح في السور المهيض أكثر من ثغرة وصار الناس يرى بعضهم بعضاً من الداخل إلى الخارج وبالعكس[4].

ودعي اللبنانيون إلى دخول المدينة بعد أن أصبحت بلا سور يحميها منهم، غير أن هؤلاء كانوا يسمعون بآذانهم من الروس ما يسرّهم، ويرون بأعينهم شجاعة البيروتيين وبطولاتهم ما لا يطمئنهم «ذلك أن المتاريس العالية التي يرونها في أقصر الشوارع، والمدافع التي تبرز أعناقها الطويلة من شقوق الكوى لم تكن تنشط عزائمهم على القيام بهذه المهمة»[5] والتفتوا إلى حلفائهم الأجانب قائلين إلى رئيسهم القبطان قوزاقوف: «إنك قبطان عظيم وبحارتك أبطال، ونحن لا نريد أن ننزع منكم شرف الدخول أولا إلى المدينة لأن ذلك من حقكم ومن واجبنا أن نسير خلفكم فتقدموا!»[6].

وهنا عاد الخوري عجمي إلى دور القرد بين الهرتين مرة أخرى واستطاع فض الإشكال عن طريق «الحل اللبناني» الذي ما يزال محتفظاً بتأثيره حتى اليوم، وهو يقضي بأن يتولى ظاهر العمر دخول المدينة بقواته وإعدادها لتكون تحت إمرة الأمير يوسف.. ورضي الفرقاء الثلاثة ـ الروس واللبنانيون وظاهر العمر بما اقترحه الخوري عجمي. أما الجزار فبعد أن رأى سور بيروت منخوراً بالثغرات التي أحدثتها قنابل الغزاة وأن أمله بالثبات اعتماداً على ما توقع من نجدة عثمان باشا والي الشام له

---

(١) حديقة الجنان جزء ١ ص ٩٩.

(٢) تاريخ أحمد باشا الجزار ـ تحقيق شبلي وخليفة ص ٥٣.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) أحمد الجزار، لوكروا ص ٢٠١ «وكانت الثلمة التي فتحها الروس في السور تقع ما بين باب السراي وباب أبي النصر. وذلك أنهم بعد أن أطلقوا مدافعهم على المدينة من البحر دون جدوى، أنزلوا إلى البر أحد مدافعهم الضخمة وسحبوه وركزوه عند سور المدينة وفتحوا لهم طريقاً إلى داخلها من هذه الجهة... ومن ذلك الحين عرف مكان ضرب الروس للأسوار «بمكان المدافع (Place des Canons) كما هو مرسوم في الخرائط» عن استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة: دومنيل دوبويسون.

(٥) شاهد عيان يصف حصار الروس لبيروت ونزولهم فيها: يقول الأمير حيدر صاحب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان وهو من الذين عاصروا هذه الأحداث:

«كتب الأمير يوسف وعمه (الأمير منصور) كتاباً إلى ظاهر العمر بأن يحضر إليهما السفن المسكوبية لمعونتهما على إزاحة الجزار من مدينة بيروت. وكانت السفن المذكورة في ذلك الوقت موجودة في جزيرة قبرس. وقد ازدادت عن الأول، فأرسل ظاهر العمر كتاباً إلى أمير تلك السفن بأن يحضر إلى قبالة مدينة بيروت لمعونة الأمير يوسف على افتتاحها. وكان بين ظاهر والمسكوب عهود واثقة كما ذكرنا. وكانت ملكتهم قد أصدرت أمراً لسفنها التي بالبحر الأبيض بأنها تسير إلى ما =

= يطلبها إليه ظاهر العمر. فلما وصل كتابه إلى أمير السفن أقلع بها من الجزيرة المذكورة. وحضر إلى قبالة بيروت. ولما قابلها راسله الأمير يوسف والأمير منصور وجعلا له ثلاثماية ألف قرش صلة ونفقة على فتوح بيروت واستخلاصها من الجزار وتسليمها لهما. وأرهنه الأمير منصور على ذلك ولده الأمير موسى، وكان يقال لأمير تلك السفن: لَنتو جونّي. فشرع في حصار المدينة، وأرسى سفنه قرب الجزيرة التي تقابل برج أبو هدير. وأخرج منها رجالاً إلى البر، وأقام الحصار عليها براً وبحراً وطفق يطلق المدافع ليلاً ونهاراً بالتواصل من غير انقطاع. حتى خيل للناس أن الساعة أقيمت، والجبال دكت، وقيل إن صوت تلك المدافع كان يسمع من قبة السيار التي فوق ظاهر دمشق.

ودام ذلك الحصار على المدينة أربعة أشهر، فتضايق الجزار ومن معه من شدة الحصار. وفرغت من عنده الميرات والإقامات، وصادفوا جوعاً شديداً حتى أكلوا لحوم الخيل والدواب. فعندئذٍ أرسل الجزار كتاباً إلى ضاهر العمر يلتمس فيه منه النجاة والسلامة له ولمن معه، على أن يسلم البلدة ويخرج منها بأصحابه وبمن تبعه من أهلها. فأجاب ضاهر العمر التماسه، وخاطب الأمير يوسف بذلك فأجابه بالرضى فيما طلب.

فحينئذٍ أرسل ضاهر من قبله رجلاً من خواصه يقال له يعقوب الصيقلي، فحضر إلى مدينة بيروت فدخلها. وأخرج الجزار وأصحابه ومن تابعه من أهلها بالسلام منها، وسار بهم إلى عكة، وسلم المدينة إلى الأمير يوسف، فاستولى عليها وأخذ أسلحة أهلها وجرمهم جرماً غليظاً.

ولما استولى الأمير يوسف على البلدة. طالبه لَنتو جونّي بالمال الموعود به فدفع له بعضاً استفكّ به ولده المرهون وبقي بعضه فوضع لَنتو جونّي رجلاً يقال له «اسطفان» في القلعة. ومعه جماعة من المياسكبة على أنه يقيم فيها إلى أن يدفع الأمير يوسف ما بقي عليه من الثلاثماية ألف المذكورة. وأقلع راجعاً بسفنه إلى جزيرة قبرص». ص٩٨، ٩٩. جزء ٢ قسم أول. تحقيق أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني، طبعته المطبعة الكاثوليكية تحت عنوان: لبنان في عهد الأمراء الشهابيين.

(٦) إن الذي استلم بيروت من الجزار كان يدعى يعقوب الصيقلي وذلك باسم ولي أمر ظاهر العمر الزيداني.

لم يعد وارداً بعد انكسار هذا الوالي أمام جيوش الظاهر، وبعد أن استهلكه الحصار سلاحاً ومؤونة وجلداً. . بعد ذلك وافق على تسليم المدينة للعدو شريطة أن يكون هذا التسليم عن يد ظاهر العمر نفسه. . وبالفعل، اجتمعت قوات الجزار وعلى رأسها «حماة الإسلام» في ساحة السراي وعزفت الموسيقى وخفقت الأعلام والجزار على صهوة جواده العربي. وبعد أن اطمأن البيروتيون إلى سلامتهم من غدر المهاجمين بموجب مواثيق هؤلاء وعهودهم الممهورة بتوقيع قائد الأسطول وأمير الجبل وحاكم الجليل مجتمعين سلمت المدينة إلى هؤلاء: (قوزاقوف، وظاهر العمر والأمير يوسف) فدخلوها من أبواب سورها التاريخي الذي شاركها حلاوة الانتصار ومرارة الهزيمة.

آل شهاب يتخذون بيروت دار سكن لهم

بعد انسحاب الجزار من بيروت خلا فيها الجو للبنانيين ولا سيما أمراء آل شهاب الذين تهافتوا على السكنى فيها واتخاذ القيسريات(١) لهم ولعائلاتهم وأبنائهم وزوجاتهم. من ذلك ما ذكره الخوري حنانيا المنيَّر الراهب الشويري في يومياته التي كتبها في أواسط القرن التاسع عشر للميلاد حيث يقول: «. . . ثم الأمراء بني الشهاب، أقاموا بعض الأبنية، فأقام الأمير يوسف قيسارية الأروام والأمير منصور القيسارية المعروفة باسمه(٢)، والأمير علي قيسارية الصاغة، والأمير سلمان أبي اللمع قيسارية البارود، والأمير يونس القيسارية المعروفة باسمه، والشيخ عبد السلام العماد القيسارية التي في رأس سوق العطارين، والشيخ شاهين تلحوق القيسارية التي بالقرب من القيسارية العتيقة حيث قُتل ابن ملك البندقية. وكانت القيسارية العتيقة لزوجة الأمير أحمد الشهابي وكان يقال لها أم دبوس ولها البرج المستدير بجانب السور (في مكانها كانت سراي الحكومة في البرج) والبرج الذي كان يقال له طاقة القصر كان للأمير منصور، وكان البرج الذي فوق الطاقة للأمير مراد ابن الأمير منصور، وبالقرب منه دار للأمير علي وتحته دار للأمير حسين، وتحتها دار للأمير بشير السمين، متصلة بالمدينة بالقرب من باب البلد الذي يقال له باب يعقوب الكسرواني، وكان يعقوب مارداً يقطع الطريق، فقتل في نهر الكلب ودفن في ساحة ذلك الباب. وكانت دار الولاية بالجبل أيام بني تنوخ. .»(٣).

ولقد تكاثر بنو شهاب وأهل جبل لبنان في بيروت بعد إخراج الجزار منها وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من دون هذا الحاكم

(١) القيسارية: عرفها الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك في مجلته الممتعة أوراق لبنانية ١٩٥٥ ص ١٧٤ عن لسان القس بطرس أبو جودة كما يلي: بناية ضخمة من البناء العقد، ذات طبقتين أو ثلاث فوق الطابق الأرضي. وكان الطابق الأرضي مجموعة دكاكين. وجميع المخازن الباقية حتى اليوم في الأسواق القديمة هي من هذا البناء العقد، أما الطبقات العليا التي فوق المخازن فكانت تستعمل للسكن. والقيسارية أكبر من الخان ونرجح أنها تحريف كلمة «قرانفانسراي» الفرنجية (ولعله يريد أن يقول كرافانسراي) أي مأوى القوافل، أو ما نسميه اليوم بالفندق.

وأقول إن الرحالة الفارسي: ناصر خسرو علوي الذي مرّ ببيروت قال في مذكراته: في العشرين من جمادى الأولى غادرنا اخلاط ونزلنا في رباط (كروانسراي) ـ كتاب سفرنامه ص٧ ترجمه وعلق عليه يحيى الخشاب سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

وعلى هذا فإن خسرو يستعمل كلمة القيسرية بمعنى الرباط ويردها الخشاب إلى كلمة (كروانسراي) أي مكان نزول القافلة.

وإني قرأت في مجلة المجمع العلمي العربي عدد نيسان سنة ١٣٨٤ جـ٢ مجلد ٤٠ ص ٤٢٤، بحثاً حول كلمة قيسرية بقلم الأستاذ المغربي السيد عبد القادر زمامة يقول فيه:

«كلمة قيصرية». . لا علاقة لغوية بين كلمة قيسرية وكلمة قيصر وقيسارية الرومية وقيسرية الشامية اللتين ذكرهما ياقوت الحموي في معجم البلدان وبين قيسارية التي استعملها الأندلسيون والمغاربة اسماً للسوق المعروفة عندنا وعندهم. إن المؤرخين الرحالة الذين كتبوا عن القيسارية حافظوا على رسمها بالسين ولا يشذ عن ذلك فيما نعلم إلا صاحب «الاستبصار» وهو من رجال العصر الموحدي، فقد رأيناها عنده ص ١٤٠ مكتوبة بالصاد، مع أنه كتبها مرة أخرى في نفس الكتاب بالسين ولعل ذلك تصحيف. . . وكلمة قيسارية كلمة عربية المبنى والمعنى، دخلها تغيير بسيط وهو زيادة الألف فقط وذلك أننا نجد في اللغة: القيسري بمعنى الكبير (القاموس المحيط مادة قسر) فالرجل القيسري والسوق القيسرية يعني الرجل الكبير والسوق الكبيرة ولعل الأصل في هذا الاستعمال اللغوي الفصيح أنهم كانوا يقولون: السوق =

= القيسرية أول الأمر ثم حذفوا واقتصروا واختصروا على الصفة كما هو الشأن في الأعلام الاصطلاحية حيث تلعب الصفة دورها الأساسي في غيبة الموصوف، وإذن فلا مجال للصاد ولا لقيصر، فالكلمة عربية معنى ومبنى في أصلها واستعمالها.

على أن هناك ملاحظة، وهي هذه الألف التي جاءت بعد السين ما شأنها؟ الحقيقة التي يصل إليها الباحث بالتتبع رسم الكلمة عند المتقدمين والمتأخرين لا سيما في رسوم الأملاك والعقارات والأحباس هي أن الألف زيدت على الكلمة.

(٢) ورد ذكر هذه القيسارية في كتاب «لبنان في عهد الأمراء الشهابيين» جـ٢ طبعة ١٩٣٣ تحقيق أسد رسم وفؤاد أفرام البستاني. وقد نقش على بابها تاريخ بنائها شعراً، وهو:

قيسارية تزهو محاسنها   شادها المنصور ذو القدر
ابن الشهاب المعني فقل   تاريخها مقصورة النصر

ومنصور هذا هو الأمير الشهابي الذي ورد في متن الحديث ذكر تنازله عن الإمارة التنفيذية لابن أخيه الأمير يوسف صاحب القصص المعروفة مع أحمد باشا الجزار.

(٣) جاء في مجلة المشرق مجلد ٤ ـ ص ٤٢٨ سنة ١٩٠١: أن أنقاض هذه القيساريات كثيراً ما تظهر في بيروت (المدينة) خلال حفر أساسات البناء الحديث في السوق التجاري. وقد رأيت بنفسي بقايا قيسارية الأمير منصور أثناء حفر أساسات بناية المقاصد الخيرية الاسلامية الواقعة إلى الشرق من جامع الأمير منذر (النوفرة) وقد كان آباؤنا يعرفونها بقيسارية الحرير (سوق البازركان اليوم).

الذي غادر المدينة في حماية ظاهر العمر الشخصية ليكون تحت كنفه في بلاد الجليل. وراحوا يمعنون في أهل بيروت ظلماً وإرهاقاً ويبلصونهم بين الحين والآخر بالغرامات النقدية والأتاوات العينية، دون أن يحسبوا لآتيات الأيام حساباً. على أنه سرعان ما قلب الدهر لهم ظهر المجنّ ودهمهم بما يكرهون إذ عاد الخصم اللدود أحمد باشا الجزار إلى سابق عزه وسالف مجده بموجب فرمان شاهاني أصدره السلطان عبد الحميد الأول بوأه سدة إيالة صيدا. وقد جعل الجزار من مدينة عكة قاعدة لحكمه، ثم التفت إلى بيروت التي أُخرج منها مقهوراً بحراب القراصنة الروس وقذائف مدافعهم ليسدد حساباته القديمة فيها مع الأمير يوسف الشهابي الذي ما إن علم بعودة الجزار إلى مكانته لدى السلطان حتى بادر إلى اتقاء بأسه بالمال تارة والرجال تارة والوفود المحملة بأجود الهدايا على متون الصافنات الجياد تارة ثالثة.

ولكن أحقاد الجزار كانت أقوى من إغراءات الأمير يوسف واسترحاماته فلم ير هذا بدًّا من التضحية بالجاه قبل أن يضطر للتضحية بالحياة فأرسل أحد أنسبائه وهو الأمير بشير بن قاسم إلى عكة قائلاً له: «إنزل يا ابني إلى عكة وتولَّ مكاني».

فأجابه الأمير الشهابي الشاب وكأنه كان يقرأ سطور الواقع الذي تخفيه الأيام بين شفتي حاكم عكة، «إني أخاف أن أنزل ابنك وأطلع ابن الجزار! . .»(١).

ولم يكذب حدس الأمير بشير لأن الجزار وجد أن الوقت قد حان للتخلص نهائيًّا من الأمير يوسف والقضاء على نفوذه وحياته معاً فخلع رداء الإمارة على عاتق الأمير الشاب الذي لم يكن عمره آنذاك يتجاوز ٢١ سنة وأوعز إليه بمضايقة نسيبه وإخراجه بالمتابعة والمصادرة وهكذا كان، فلم يلبث الأمير يوسف غير قليل إلا وأصبح في قبضة خصمه اللدود رهين السجن هو ومدبِّره وفيما كان الجزار في الديار المقدسة يؤدي فريضة الحج «كتب إلى نائبه في عكة أن يشنق الأمير يوسف ومدبِّره الشيخ غندور الخوري وبينما كان حبل المشنقة يخمد أنفاس الأمير تلاشت أنفاس مدبِّره من الخوف(٢).

ولما عاد الجزار من الحج قصد بيروت وأصدر أمره بالاستيلاء على أملاك الشهابيين جميعاً الحديث منها والقديم بالإضافة إلى أملاك أنصارهم الذين شاركوهم النكاية والأذى لبيروت وأهلها.

إعادة بناء السور من حجارة قيساريات آل شهاب

أشرنا من قبل إلى أن الأمراء الشهابيين اعتقدوا بعد عودتهم إلى بيروت في ظلال الحراب الروسية ومن خلال الحرائق التي أحدثتها قذائف الروس في بيروتهم وسورها، بأن مقامهم في هذه المدينة المهيضة أصبح نهائياً، وأن أحمد باشا الجزار لن يراها بعينيه مرة أخرى فضلاً عن دخولها وحكمها. لكن الظروف خيبت آمالهم وتبين أن اعتقادهم هذا لم يكن في محله، وأنهم كانوا مبالغين في تفاؤلهم، لأن الجزار سرعان ما استرجع مكانته لدى الباب العالي في اسطمبول واستصدر من السلطان فرماناً (مرسوماً) شاهانيًّا برتبة الوزارة، وأُسندت إليه ولاية عكة التي كانت بيروت تابعة لها من الوجهة الإدارية في ذلك الزمان. فلما عادت بيروت إلى حوزته أقبل عليها بخيله ورجاله وبادر إلى إصدار الأمر إلى جنوده المغاربة والأرناؤط واللاوند(٣) بالتعاون مع البيروتيين الذين استقبلوه استقبال البطل المنقذ، بأن يضربوا معاول الهدم في قيساريات آل شهاب وأنصارهم وينقضوها من أساسها، وأن يستعملوا حجارتها الضخمة في ترميم سور المدينة وبناء الحصون والأبراج فوق أبوابه المصفحة بالحديد. ولقد سار الجزار في عداوته لأهل جبل لبنان، وبخاصة آل شهاب منهم حتى نهاية شوط الانتقام الذي كانت مراجله تغلي في قلبه ضدهم جميعاً، فأمر بإخلاء برج بيروت من عائلات آل شهاب

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان لطنوس الشدياق ص ٤٢٠.

(٢) نفس المصدر ص ٤٢٧. وقد قرأت نص المرسوم الذي أصدره الجزار بتولية الأمير بشير شهاب في مخطوط الشماس الشيخ أنطونيوس أبي خطار المعروف بلقب العينطوري «شيخ مشايخ الجبّة» وجدّ قائمقام النصارى في زغرتا يوسف بك كرم لوالدته. وقد نشر هذا المخطوط وطبعه الأب أغناطيوس طنوس الخوري «الراهب اللبناني».

ومما جاء في هذا المرسوم (البيولردي) «. . صدر المرسوم المطاع، الواجب القبول والاتباع، إلى أمراء ومشايخ عقل وعقال ورعايا، وسائر سكان الشوف والمتن وكسروان بوجه العموم، يحاطون =

= علماً: . . . فاعلموا واعرفوا وتحققوا، إن سلكتم في قدم الطاعة، وكنتم مطيعين وخاضعين إلى ولدنا الأمير بشير المشار إليه، فعليكم من طرفنا أمان الله وأمان رسوله، ثم أماننا ولم تشاهدوا منا إلا المسرة. وإن بقيتم وثبتم على حالكم، فبعناية الملك القاهر إني بكم لظافر، ولأتركنكم كأمس الغابر ولأدمرنكم بكل دامر، سلّموا تسلموا».

ص ٦٨ ـ ٦٩ من الكتاب المذكور طبعة ١٩٥٣ ـ بيروت. المطبعة الكاثوليكية.

(٣) طائفة اللاوند مجموعة من محترفي الحياة العسكرية استغنت عن خدمتهم الدولة العثمانية فانطلقوا يمارسون في البلاد مظاهر الشقاوة والفتوة حتى أصبح لقب اللاوند يطلق على كل شقي لا يرعى حرمة القانون ولا تأمن بوائقه عامة الناس. وأصل الكلمة من الاصطلاح الإيطالي Levente وكانت تطلق على الجنود الألبان في أيام احتلال إيطاليا لألبانية وتعني الشرقي، باعتبار أن الألبان شرقيون مسلمون. فلما استرجعت الدولة العثمانية ألبانية بقي جنود هذه المقاطعة محتفظين بلقبهم العسكري إلى أن انتهوا أخيراً إلى ما أشرنا إليه من قبل. والجدير بالذكر أن أحمد باشا الجزار كان يقبل من يريد الانضمام منهم إلى جيشه للإفادة من حميتهم وشجاعتهم.

التي كانت تستعمله سكناً لها وتتخذه حصناً حربياً لحماية وجودها في المدينة، كما أمر بتخريبه[1].

وبذلك عادت بيروت مرة أخرى إلى حماية السور الذي خفقت على أبراجه المنيعة رايات الجزار وحلفائه إلى أن نكسها بعد بضع سنين من وفاته إبراهيم باشا المصري عندما دخل بلاد الشام غازياً سنة ١٨٣٢م.

السور كما وجده السيّاح في القرن التاسع عشر

وإننا قبل أن نتحدث عن المصير الذي لقيه السور على يد إبراهيم باشا خلال وجوده في بيروت، فإنه لا بد لنا من الإشارة إلى أن الصورة التي رسمها أوجين فلاندين Eugène Flandin لهذا السور في القرن التاسع عشر في كتابه المعنون بـ «الشرق» (L'Orient) تظهر لنا القسم المشيد منه على الصخور والمشرف على البحر. وهو سور قديم تعلوه أبراج مربعة أحدث منه عهداً، إلا البرج الواقع على زاويته فهو من أصل البناء القديم.

أما باقي السور الممتد إلى الشرق فإنه تلف كما خرب الرصيف الذي كان يحمي باطن المرفأ شمالاً ومن ثَم أصبح المرفأ مفتوحاً من هذه الجهة ولم يبق لحماية الفسحة الواقعة بين هذا السور الغربي والقلعة الشرقية سوى البرج الصغير الذي أُقيم بدلاً من أبراج القرون الوسطى كما يظهر من الصور التي تركها السياح الذي مروا بالمدينة في ذلك الحين.

بيروت في أيام إبراهيم باشا المصري

إن قدوم إبراهيم باشا بجيش ضخم لاحتلال بلاد الشام والانفصال بها عن السلطنة العثمانية لم يكن نتيجة حادث جانبي وقع بين محمد علي باشا وعبد اللّه باشا والي عكة. ومهما كانت وجهات النظر بين هذين الحاكمين العثمانيين متباعدة بشأن اللاجئين من مصر إلى عكة فإن هؤلاء اللاجئين، وأكثرهم من الفلاحين لا يمكن أن يشكلوا سبباً للأزمة التي كادت تغير معالم الخريطة السياسية لبلاد الشرق الأدنى في نهاية النصف الأول من القرن الماضي.

إذن فلا بد من وجود عوامل ضخمة وراء تلك الأحداث التي عصفت بالمنطقة في ذلك الحين وأدت إلى إنفاق عشر سنوات متوالية حتى عاد لهذه المنطقة هدوؤها واستقرارها.

وحتى لا نبالغ في إصدار الأحكام التاريخية أو نبني آراءنا على الاستنتاجات الشخصية التي إن أصابت في بعض الأحيان فإنها قد تخطىء في أحيان أخرى، من أجل هذا أو ذاك فإننا نضع بين يدي القارىء النص الحرفي لكلمة بعيدة الغور سطرتها يراعة أحد الأجانب الذين كانوا وراء كثير من المشروعات التي اهتم بها عزيز مصر محمد علي باشا حين كان ينظم ولايته ويعدها لمستقبل أكبر وأفضل. هذه الكلمة هي من المذكرات الشخصية التي تركها «كلوت بك» الفرنساوي الذي كان طبيب الحكومة المصرية الرسمي ومستشارها في آن واحد في تلك الأيام.

قال كلوت بك في مذكراته:

«إن ضم سورية إلى مصر، كان ضرورياً لصيانة ممتلكات العزيز، فمنذ الساعة التي فيها تقرر في الأذهان أن إنشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدينة فائدة عامة، وجب الاعتراف بأنه لا يمكن بلوغ هذه الغاية إلاّ بضم سورية إلى مصر، وقد رأينا فعلاً أن شكل البلاد الحربي لا يجعلها بمأمن من الغزوات الخارجية، خصوصاً عن طريق بوغاز السويس.

فإذا استثنينا غزو العبيديين المغاربة، وغزوة الفرنسيين بقيادة بونابرت، نجد سائر الغزوات جاءت عن طريق سورية، كغزوة قمبيز والإسكندر، والفتح الإسلامي. وغزوتي الأيوبيين والأتراك. ولا يمكن الوثوق من بقاء مصر مستقلة إلا بإعطائها الحدود السورية، لأن حدودها ليست في السويس بل في طوروس!...»[2].

إن هذه الكلمة العابرة مع جملة الموضوعات الأخرى التي تناولتها مذكرات كلوت بك، فيها تفسير واضح لحركة محمد علي باشا التي انطلقت من مصر باتجاه الشرق ولغيرها من الحركات المماثلة التي انطلقت أيضاً من مصر باتجاه الشرق بعد عصر هذا الباشا الذي قال ابنه إبراهيم ذات يوم «... إن شمس مصر صهرتني وجعلتني عربياً»[3].

ولقد ساعدت أوضاع الدولة العثمانية المرهقة آنذاك إبراهيم باشا على اقتحام المدن واحدة بعد أخرى حتى استطاع في برهة وجيزة أن يربط جواده في ساحات مدينة قونيه في أرض الأناضول بالذات. أما بيروت فإنها لم تكلف هذا الغازي المندفع كالصاعقة أكثر من توجيه الأمر إلى بعض جماعته ليستولوا عليها مع المدن الساحلية الأخرى كصيدا وصور وما

(١) مصادر تاريخية لحوادث لبنان وسورية من سنة ١٧٤٥ إلى سنة ١٨٠٠ عني بنشرها والتعليق على حوادثها ووضع فهارسها المطران باسيليوس قطان متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما. طبع المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت ١٩٢٩.

(٢) كلوت بك جـ ١ ص ٧٥ من المقدمة، نقل سليمان أبو عز الدين في الكلية ص ١٩٤ مجلد رقم ١٤.

(٣) هذه الكلمة لابراهيم باشا وكان يرددها أمام الأجانب لتنقل عن لسانه إلى سكان سورية الذين يعتزون بعروبتهم.

جاورهما من بلدان الساحل، ثم جاء هو بعد ذلك ودخلها تحت أقواس النصر من باب الدركة حيث الكتابة اليونانية التي معناها بالعربية «أيها الداخل افتكر بالرحمة!...»[1].

ولكن الباشا المصري لم يعمل بالحكمة التي مرّ من تحتها على ما يظهر لأن أهالي بيروت سرعان ما برموا به وأنكروا سياسته وأخذوا يتبادلون الرسائل فيما بينهم وكلها تنم عن تذمرهم من وجوده في بلدهم. ويحتفظ السيد راشد أفندي بيهم في بيروت بمخطوط صكوكي مجهول التاريخ والإمضاء وهذا المخطوط هو من أوراق السيد عمر بيهم جد راشد المذكور، وكان ناظر مجلس شوراي بيروت في عهد إبراهيم باشا. وهذا نص المخطوط[2]:

«سيدي الأفخم، لا يخفاكم عنما حصل بهذا النهار من تفتيش البيوت. وقد حصل لنا ثقلة زايدة، وطلعنا من محل لمحل، إلى أن توصلنا لبيت أبو عبد الله قليلات، وترونا في قلق وغم زايد، ولا نقدر نشرح لكم».

فالمرجو تطمنونا وهل علينا خوف؟ وإن كان تروا محل مناسب لنتوجه له وأفيدونا بالجواب بهذه الورقة.

ودمتم، كاتبه عدد ٣٢٧

ولما كنا، لسنا بصدد الحديث عن شؤون وشجون الحياة العامة ببيروت خلال الاحتلال المصري، فإننا نعود إلى موضوع السور كما انتهى إليه حاله في أيام إبراهيم باشا وهي الأيام التي شهدت بدايتها بداية نهاية هذا السور الذي أخذ يفقد أهميته الاستراتيجية كحصن عسكري له تأثيره الحاسم في مصير المدينة التي يحميها، من الناحية السياسية.

السور في بداية النهاية

لقد أراد الجزار أن يعدّ بيروت لتكون قاعدة عسكرية تساند وجوده السياسي في بلاد الشام الساحلية، فلا عجب إذا رأيناه يبذل قصارى جهده في تسويرها وتحصينها وبناء الأبراج العالية للدفاع عنها، ولكن ما إن غاب هذا الحاكم القوي وراء سجف الأبدية السرمدية حتى تنفس آل شهاب الصعداء وتطلعوا صوب بيروت متلهفين للعودة إليها والاستقرار فيها حتى إذا هبت رياح محمد علي باشا حاملة ألويته الظافرة إلى بلاد الشام بأيدي جنود مصريين يقودهم إبراهيم باشا، أقبل الشهابيون، عائلة وأنصاراً، زرافات ووحداناً على المدينة التي اشتاقوا إليها دون أي ممانعة أو مقاومة من أهاليها الذين فقدوا في الجزار ملاذاً وسنداً لا يعوض.

ولقد وجد آل شهاب في إبراهيم باشا بديلاً مناسباً عن خصمهم السابق فوضعوا أنفسهم تحت تصرفه وأمدوه بأنصارهم الجبليين الذين ساهموا إلى جانب القوات المصرية باحتلال البلاد أو على الأقل في حفظ الأمن فيها بينما كان هو متابعاً أعماله الحربية ضد السلطان العثماني وكان يومئذٍ السلطان محمود الثاني.

ولم تضع الزلفى التي أبداها الشهابيون نحو الفاتح الجديد سدى، فلقد كافأهم هذا الفاتح على ولائهم بسرعة، ففوض إلى الأمير بشير الثاني - كبيرهم - تولية من شاء من أقاربه على صيدا وصور وطرابلس[3]. ولم يكن إبراهيم باشا من الذين ينظرون بعين الرضى والطمأنينة إلى بقاء بيروت بحماية سور الجزار، بعد الذي لاقاه من عنت وإرهاق من سوره الذي في عكة[4] فتلاقي هوى القائد المصري مع هوى أتباعه الشهابيين على التخلص من امتيازات بيروت في ظل هذا السور. فأباح للناس أن يتجاوزه في أبنيتهم ومساكنهم لكي يفقد أهميته العسكرية بانتشار العمران من حوله ولا يعود له ذلك الدور الذي لعبه في تاريخ المدينة وكان له الأثر الرئيسي في تقرير مصيرها. ولم يكتف بذلك بل إنه باشر فعلاً بتدميره وفتح الشوارع الجديدة من خلاله[5].

ومنذ ذلك الحين «أخذ الناس يخرجون خارج المدينة القديمة ليبنوا البيوت خارج أسوارها واكتفى إبراهيم باشا بالاعتماد على البرج الذي يقع خارج السور إلى جهة الشرق، فرممه وأعده ليكون ثكنة لعساكره التي أبقاها في المدينة كحامية

(١) جاء في مخطوطة «نوفل نوفل» بتحقيق أسد رستم في مجلة الكلية مجلد ١١ سنة ١٩٢٤ ما يلي:

«وأرسل ابراهيم باشا من جماعته فاستولى على صور وصيدا وبيروت وأرسل لهم محافظين».

(٢) ص ٢٧٨ من مجلة «الكلية» مجلد ١٤ تحقيق أسد رستم.

(٣) المشرق مجلد - ٣٠ - ص ٣٦٢ عن مقال «المصريون في لبنان وسوريا قبل ١٠٠ سنة (معلومات وملاحظات) بقلم إبراهيم بك أبو سمرا غانم).

(٤) إن صمود عكة وراء سورها المنيع خلق في نفس إبراهيم باشا عقدة سلبية ضد الأسوار التي تحيط بالمدن الشامية وبيروت في جملة هذه المدن. ولقد نقل أسد رستم عن مخطوطة نوفل نوفل خبراً يؤكد عقدة «سور عكة»، قال نوفل:

«بعد صمود عكة في وجه إبراهيم باشا، صدر الأمر القاطع بأن لا أحد في مصر يذكر اسم بر الشام مطلقاً وخاصة عكة، وتزايد التشديد حتى كان أحد المتسببين في ذات يوم يفتح دكانه صباحاً، فتعاصى عليه القفل فلطم الباب وقال: ويلك أأنت «سور عكة»؟! فلم يلبث أن قبضت عليه الضابطة وأخذوه إلى الحكومة فترتب جزاؤه بالقتل.

(٥) استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة - دومنيل دوبويسون ص ٤٠ من مجلة الكلية مجلد ١١، ترجمه سنة ١٩٢٤ الأب لويس شيخو اليسوعي.

مستقرة لها وجعل علوه ٦٠ قدماً وسماكة جدرانه ١٢ قدماً وسماه البرج الكشاف أي الذي يكشف تحركات العدو في البر والبحر قبل وصوله إلى البلد»[١].

وإلى هذا البرج أشار الشاعر ألفونس لامرتين الذي دوّن مشاهداته في رحلته إلى الشرق (١٨٣٢ ـ ١٨٣٣) عندما زار بيروت وهي تحت الإدارة المصرية، قال لامرتين:

«إن منزلنا يبعد مسافة عشر دقائق عن المدينة[٢]. أما الطريق المؤدية إليه، فشُعب ضيقة تظللها أشجار الند (Céloes) الكبيرة المتدلية الأغصان فوق رؤوس المارة، تقطع بعض القناطر القديمة الأيام. وبرجاً عظيماً بناه الأمير فخر الدين[٣]، أمير الدروز، وهذا البرج يستخدمه اليوم بعض جنود إبراهيم باشا كمرصد يرقبون منه جميع السهول المجاورة!».

السور يحمي بيروت وهو في حالة الاحتضار

وعلى الرغم من أن إبراهيم باشا كان ينظر شزراً إلى سور بيروت، فإن هذا السور كان ما يزال في ذلك العهد محتفظاً برمق من المناعة والقوة رغم أن الأب اليسوعي ريكاردونا وصفه عندما زار بيروت يومئذٍ بأنه «كان متداعياً»[٤]. فقد أفاد منه إبراهيم باشا في صدّ غارات قطّاع الطرق من أهالي جبل لبنان التي كانوا يشنونها على مدينة بيروت، بتحريض من الدول الأربع المتحالفة: النمساوية والإنكليزية والمسكوبية والبروسيانية، وكانوا يأتونهم إلى الحرش ويحرضونهم على الدولة المصرية ويشددونهم ويحققون لهم قدوم مراكب حربية لإسعافهم، ويقدمون لهم قليلاً من البارود والرصاص»[٥].

---

(١) لبنان في التاريخ ـ تأليف فيليب حتي، ترجمة الدكتور أنيس فريحة ومراجعة الدكتور نقولا زيادة، ونشر مؤسسة فرنكلين سنة ١٩٥٩ ص ٥١٧. ط، بيروت.

(٢) المشرق مجلد ٣١ ص ٩٣٣ وص ٦٠٨ مقال لأغناطيوس سركيس تحت عنوان: لامرتين في لبنان. ويقول الأستاذ فؤاد أفرام البستاني عند ترجمته رحلة الأب ريكاردونا تحت عنوان «بيروت قبل مائة سنة»: والشاعر لامرتين نزل في بيت قائم في حي مار مارون شمالي النادي الكاثوليكي، وهذه المنطقة اليوم في قلب المدينة/ المشرق مجلد ٣٠ ص ٣١.

(٣) لم يبن الأمير فخر الدين هذا البرج وإنما بناه المماليك في العهد الذي سبق الفتح العثماني لهذه البلاد. وبالمناسبة فإن فخر الدين لم يكن في يوم من الأيام إلا مسلماً سنياً ولقب بأمير الدروز لأنه كان يحكم المنطقة التي كان غالبية سكانها من الدروز والتي كانت تعرف بجبل الدروز حتى سنة ١٨٦٠ وهي اليوم المنطقة المعروفة بمحافظة جبل لبنان حسب التقسيم الإداري في الجمهورية اللبنانية في أيامنا.

(٤) بيروت قبل مائة سنة ـ المشرق مجلد سنة ١٩٣١ ص ٣١. مقال للأب ريكاردونا اليسوعي، عربه وشرحه فؤاد أفرام البستاني.

(٥) أخبار الأعيان في جبل لبنان لطنوس الشدياق ص ٥٩٣. ويزيد طنوس الشدياق قائلاً: «وفي ذلك الوقت قدم من إسلامبول ريجارد ود =

وبالفعل، فإن هذا السور الهرم المتداعي تحامل على نفسه وأغضى عن موقف إبراهيم باشا منه، وأدى مهمته الدفاعية في هذه المناسبة خير أداء حائلاً دون وصول الأشقياء إلى حرم المدينة الداخلي بعد أن أصدر محافظ بيروت مير محمود نامي أوامره المشددة بإغلاق أبواب السور كما جاء في الكتاب التالي الذي أرسله بهذه المناسبة إلى القنصل الإنكليزي في البلد المستر مور، وفي ما يلي نصه[٦]:

«الجناب الأكرم، حضرة المحب الأجل المحترم، قنسلوس بك دولة الإنكليز المحتشم حفظه الله تعالى، ليس خافي محبتكم الحال الواقع من ظهور خروج بعض أشقيا من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية. ومن جراء ذلك رعايا بيروت من إسلام وذميون (كذا وردت) سكنا البرية محتسبين وعمال ينزلوا عفشهم إلى البلدة. والبعض نزلوا من محلاتهم إلى البلدة. فبحيث الحالة هذه، وللمحافظة المأمور بها واحتراساً لأمر ما، اقتضى التنبيه بأن كافة البوابات تقفل آذان المغرب، وبالإذن يصير فتح بوابة السراي إلى حد العشا فقط، وبعد أذان العشا المتقدم شرحه ما في رخصة لفتح البوابة كليًّا، بل الذي سيكون داخل البلدة يفضل بها، والذي خارج البلدة أيضاً، وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولأجل المحافظة المأمورين بها، اقتضى إفادة محبتكم بذلك، والله تعالى يحفظكم غاية را سنة ٢٥٦.

الختم ـ مير محمود   محافظ بيروت»

ولم تنقطع محاولات أهل جبل لبنان لدخول بيروت أكثر من مرة، فكان سورها العجوز يدفعهم عنها ويردّهم دون أن ينالوا منها وطراً أو يحققوا مأرباً. ويقول صاحب «أخبار الأعيان في جبل لبنان»[٧]: «... ثم عزمت العامية على تسلم الكورنتينا (الحجر الصحي اليوم) فأطلقوا عليها الرصاص، فصدتهم الأرناؤوط وكانوا خمسين نفراً محافظوها، ثم ألحوا على سورها (سور الكرنتينا وهو جزء من سور المدينة) فقدم إليها مركب من

= الإنكليزي مساعداً بالتدبير لاختباره الأمور والبلاد ومعرفته اللغة العربية، فاجتمع بوجوه العامية في الحرش وأشار عليهم أن يكتبوا إلى الدولة العثمانية وإلى سفراء الدولة النمساوية والإنكليزية والفرنساوية ملتمسين إنقاذهم من ولاية الدولة المصرية، فكتبوا وسلموه الكتب فأرسلها إلى إسلامبول ـ (أخبار الأعيان ص ٥٩٥).

(٦) الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ـ الدكتور أسد رستم ص ٨٣ المجلد الخامس وهذا النص مأخوذ من أوراق القنصلية الإنكليزية في بيروت وهو بعنوان: «الأمير محمود نامي والقنصل مور» ٢٣×٦ س. من الورق الصكوكي الرقيق، وعلى ظهره كلمة: Circular بالإنكليزية.

(٧) أخبار الأعيان في جبل لبنان لطنوس الشدياق ص ٥٩٣.

مينا بيروت وأطلق عليهم المدافع فأنكفأوا عنها، وأخذوا يهجمون على أبواب المدينة وينهبون المآكل. وكانوا نحو ألف رجل يحشون بنادقهم بالبارود والحصى الكروية وذلك لعدم الرصاص».

السور في أيامه الأخيرة

إن التدابير العسكرية التي لجأت إليها سلطات بيروت المصرية نجحت في حماية سور بيروت من أن تقتحمه شراذم العصاة الذين تداعوا عليه من قرى جبل لبنان القريبة من المدينة ولكن هذه التدابير بقيت دون مستوى الصمود أمام البوارج المتحدة التي كانت ترابط بالقرب منها تحت رايات النمسة وانكلترة، ومع ذلك فلقد صمم المصريون على الاستمرار بالمقاومة ما بقي في سور بيروت حجر على حجر، وعلى هذا فقد أصدر محافظ المدينة مير محمود نامي منشوراً عممه على ممثلي الدول التي تنتمي إليها هذه البوارج وفيه يعلن حالة الحصار في بيروت وهذا نصه[١]:

«الجناب الأكرم حضرة المحب الأجل المحترم قنسلوس دولة الإنكليز المحتشم، حفظه الله تعالى، صدر أمر من سعادة سليمان باشا (الفرنساوي نائب القائد العام للقوات المصرية) خلاصة مآله أن من صباح يوم السبت الواقع في ٩ منه تاريخه عند طلوع الشمس، البلدة، أعني بيروت بحال المحاصرة، إنكان من البحر إلى البر وإنكان من البر إلى البحر. مقطوع كامل الإمدادات، إنكان من أصناف المأكولات وساير الأصناف مع عدم المخالطة مع السفن وقطع البوسطة. ومنع كل علاقة أجنبية وأن نحرر بذلك لكافت حضرات القناصل، فبناء على الأمر المشار إليه، اقتضى تحريره لتكون الكيفية معلومة لجنابكم.

في ٨ آب ٢٥٦   الختم مير محمود محافظ بيروت.

وهكذا أصبحت بيروت تعيش وراء سورها في حالة حصار ابتداءً من صباح يوم ٧ آب ١٨٤٠ وما إن ذاع نبأ هذا الحصار بين أهالي جبل لبنان حتى اجتمع زعماؤهم إلى ريتشارد وود (Richard Wood) الإنكليزي (الذي كان صديق اللبنانيين

---

(١) الأصول العربية لتاريخ سورية ـ أسد رستم منشورات كلية العلوم والآداب ـ الجامعة الأميركية في بيروت المجلد ٥ ص ١٧٥ تحت عنوان: حصار بيروت ـ الأمير محمود نامي والقنصل مور في بيروت ١٦×٢٢ س من الورق الصكوكي الرقيق، وهو ما يزال محفوظاً في قنصلية بريطانيا في بيروت.

وعارفاً بلغتهم وأطوارهم وأحوالهم)[٢] وذلك في حرش بيروت فاستكتبهم عريضة يلتمسون فيها من الدول العثمانية والنمسوية والإنكليزية والفرنسية إنقاذهم من جور الحكومة المصرية، كما حرضهم على التقدم إلى أسوار المدينة واستنزال حراسها للقتال وتسلق هذه الأسوار والنفاذ إلى داخلها للقضاء على المقاومة المصرية فيها كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

وقد استجاب هؤلاء الزعماء لمستشارهم الإنكليزي وضاعفوا هجماتهم على سور بيروت بكل ما ملكت أيديهم من وسائل القتال. ولكن جميع هذه الهجمات فشلت ورُدّ اللبنانيون عن السور دون أن ينالوا غايتهم من اقتحام المدينة بفضل خمسين جندياً ألبانياً من جنود محمد علي باشا الذي استطاعوا لوحدهم صد الآلاف العشرين من المهاجمين دون أن يحتاجوا إلى تدخل العساكر النظامية إلى جانبهم[٣].

ولقد أشار بازيلي قنصل الروسيا في بيروت إلى هذه الأحداث في التقرير الذي أرسله إلى مسيو بوتينيف مندوب الروسيا في الآستانة بتاريخ ١١ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ (١١ حزيران سنة ١٨٤٠م)[٤].

السور تحت رحمة بوارج الدول المتحدة

وتشاء الأقدار أن يعيد التاريخ نفسه، فبالأمس القريب في أيام الصراع بين الأمير يوسف الشهابي وأحمد باشا الجزار عجز أهالي جبل لبنان عن الدخول إلى بيروت قبل أن يدمر أسطول المسكوب سورها المنيع.. وها هم يعجزون مرة ثانية عن دخولها قبل أن يُجْهز أسطول الإنكليز على سورها رغم أنه كان في تلك الأيام متداعياً:..

وبالفعل، وصلت العمارة العثمانية والأوروبية إلى الدامور وعلى متنها ٥٥٠٠ جندي عثماني ونحو ألفي جندي أوروبي.. ثم تابعت هذه العمارة سيرها إلى بيروت معقودة اللواء للسر تشارلس نابيار (Charles Napier) وضربت مراسيها قبالة السور عند شواطئها المحاصرة في ١٢ آب ١٨٤٠ وبادر نابيار إلى اتخاذ التدابير الحاسمة ضد المصريين على الوجه التالي[٥]:

١ ـ بلاغ إلى محمود بك[٦] محافظ بيروت أن إنكلترة

---

(٢) تاريخ الأمير بشير الكبير ـ القسم الأول ـ الأمير بشير والدولة المصرية للخوري بولس قرالي ص ٩١ ط ١٩٣٢.

(٣) مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان لفريد وفيليب الخازن المجلد الأول ص ٦.

(٤) المصدر السابق ص ٥ وما بعدها.

(٥) تاريخ لبنان العام تأليف الدكتور يوسف الزهر جـ ١ ص ٥٠٧ وما بعدها.

(٦) محمود نامي بك هـو قوقـازي جركسي عينه إبراهيم باشا متسلماً=

والنمسة والروسيا وبروسية قد قررت بموجب اتفاق ١٥ تموز ١٨٤٠ إعادة سورية إلى السلطان وطلب منه أن يسلمه الجنود العثمانية الموجودة لديه وأن يعيد إلى أهل لبنان سلاحهم الذي نزعه منهم.

٢ ـ رسالة إلى قنصل إنكلترا في بيروت يعلنه أن الدول قررت رد سورية إلى السلطان.

٣ ـ رسالة إلى قائد الجنود العثمانية التي أرسلها لمحمد علي باشا يحذره فيها من القيام بأية حركة عدائية ويدعوه وجنوده أن يعودوا إلى طاعة السلطان ويعدهم بالتجاوز عما مضى وبدفع مرتباتهم المتأخرة.

٤ ـ نشرة إلى السوريين عموماً وأهل لبنان خصوصاً يبلغهم اتفاق الدول على رد سورية للسلطان ويدعوهم إلى خلع نير محمد علي باشا ويعدهم بقرب ورود الجنود والسلاح والذخائر من الآستانة وأوروبا.

٥ ـ رسالة إلى الأمير بشير شهاب حاكم لبنان يدعوه فيها إلى طاعة السلطان ويرسل إليه نسخة من النشرة السابقة مع نسخة من اتفاقية ١٥ تموز.

٦ ـ رسالة إلى الأمير بشير قاسم ملحم من قِبَل الأمير بشير قاسم عمر حاكم لبنان يحثه فيها على الانحياز إلى جانب الجيوش المتحدة ويعده بالثواب.

أما وجهة نظر هذه الدول الخمس التي اشتركت في الحرب ضد إبراهيم باشا فلقد حددتها وزارة الخارجية البريطانية في مذكرة رسمية جاء فيها أنها تخوض هذه الحرب من أجل:

«الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية ولها (أي لهذه الدول الخمس) ملء الحق في الحفاظ على سلامتها لأن سلامتها من مقتضيات توازن القوى في أوروبا وضرورة حفظ السلام في العالم.

Correspondance relative to affairs. p. t. (London 1841 . (1) p 224)

وفي ١١ أيلول ١٨٤٠ طلب قائد الأسطولين الإنكليزي والنمساوي من قائد القوات المصرية سليمان باشا (الفرنساوي) ـ الكولونيل سيف سابقاً ـ أن يخلي مدينة بيروت حالاً. فطلب القائد المصري مهلة يوم بكامله لمراجعة القائد العام إبراهيم باشا وأخذ موافقته. إلا أن هذا الطلب لم يقبل به القائدان النمسوي والإنكليزي.

القوات البرية والبحرية التي ضربت بيروت وهدمت سورها

كانت القوات التي أحدقت ببيروت من البر والبحر مختلطة من إنكليز ونمساويين وعثمانيين يتولى قيادتها العامة الأميرال روبرت ستوبفورد وهي مؤلفة من:

١ ـ عشرين سفينة إنكليزية يقودها نابيار Napier .

٢ ـ ثلاث سفن نمساوية يقودها الأميرال بانديرا.

٣ ـ ثلاث سفن عثمانية يقودها القبودان الإنكليزي ووكر المعروف باسم باور باشا.

أما القوات البرية فكانت تحت إمرة الجنرال السر تشارلس سميث يعاونه بعض القادة العثمانيين أمثال محمد عزت باشا ومحمد سليم باشا. بيد أن سميث لم يكن في مركز القيادة الفعلية بل حل محله نائبه القومندور السير تشارلس نابيار قائد العمارة الإنكليزية لأن هذا هو أكثر اطلاعاً على ظروف المعركة وأرضها وسائر ملابساتها السياسية.

وفي ١٢ أيلول بدأت مدافع هذه القوات المتحالفة تصب وابل قذائفها على المدينة من كل جهة، فأصابت سورها وقلعتها البحرية، فكانت هذه القنابل بمثابة طلقة الرحمة على ما تبقى في ذلك السور من حشاشة الصمود، وأخذت حجارته التي تعب في عمارتها البيروتيون تتهاوى تحت الإصابات المباشرة كهشيم المحتظر. ولم تسلم بيوت البيروتيين المدنيين من آثار الضرب المتلاحق، فتهدم عدد وفير منها فوق رؤوس السكان الآمنين.. وبقيت الفجوات العميقة التي أحدثتها القنابل بادية للعيان حتى عهد قريب في أوائل القرن العشرين وذلك في الجدار الشمالي من جامع المجيدية المحاذي للبحر. وهو الجامع الذي كان أثناء العمليات العسكرية التي نحن بصددها قلعة حربية تزيد في مناعة السور قبل أن يحولها السلطان عبد المجيد إلى مسجد جامع تلبية لطلب أهل بيروت بعد خروج المصريين من المدينة[2].

= لبيروت وقد عرف البيروتيون ابنه فخري بك صاحب الخان الشهير في بيروت باسمه. وهو أول من حول سهلات البرج إلى ساحة عمومية للمدينة. وعرف السوريون حفيده أحمد نامي بك المعروف باسم الداماد. وقد تولى رئاسة الدولة السورية في عهد الانتداب الفرنسي وتوفي ببيروت.

وقد أصْهر إليه عادل بك الصلح أحد رؤساء بلدية بيروت في عهد الاستقلال.

(١) لبنان في التاريخ ص ٥١٦ تأليف الدكتور فيليب حتي، ترجمة الدكتور أنيس فريحة نشر مؤسسة فرنكلين.

(٢) يقع هذا الجامع في مينة الخشب عند مرفأ بيروت. ولما كان قلعة كان سور بيروت متصلاً به ولا يفصله عن البحر إلا مسافة بسيطة من الأرض اليابسة وقد أخبرني بعض أقاربي من مخضرمي القرنين الماضي = =

والخراب الذي أصاب السور يومئذٍ أُصيب بمثله برج الكشاف الواقع إلى الشمال الشرقي منه وهو البرج الذي تسميه الخرائط العسكرية الإنكليزية. «برج الحشيش»[1].

السور بعد خروج المصريين وعودة العثمانيين إلى بيروت

لم تتحمل القوات المصرية المحاصرة في بيروت أكثر من يوم واحد وجدت نفسها في نهايته عاجزة عن الاستمرار في المقاومة فانسحب بها قائدها سليمان باشا ملتحقاً بفلول القوات المصرية الأخرى التي كانت تجمع من أنحاء لبنان للعودة إلى بلادها بموجب الاتفاقية التي عقدت بين محمد علي باشا والسلطان (معاهدة كوتاهية).

وعندما دخلت القوات العثمانية إلى بيروت في ١٣ أيلول ١٨٤٠ كان سورها قد أصبح غير ذي أهمية بالنسبة للأغراض العسكرية الجدية لأن القذائف التي استهدفته استطاعت أن تقطع أوصاله وتجعله كالأشلاء الممزقة التي لا تجمع بينها صلة من البنيان المتين الذي يصلح للإفادة منه في حماية البلد أو الدفاع عنها.

وبعد أن كان هذا السور معقلاً لأشاوس الرجال خلف مدافعهم القوية أصبح مصدّعاً متفسخاً تبرز من شقوق حجارته النخرة الأعشاب الطفيلية والنباتات الوحشية، وتعرضت حجارته لسرقة بعض الأهالي الذين كانوا يستعملونها في أبنيتهم الخاصة دون رادع أو وازع.

وبعودة العثمانيين إلى المنطقة جرى تعديل في تقسيماتها الإدارية فأصبحت بيروت كرسي الولاية، وعهد بإدارتها إلى الوالي العثماني سليم باشا. وفي هذا العهد انطلق البناء بحرية، في الأراضي الواقعة بـ «البرية» خارج السور وشرع الناس في إقامة الدور والمساكن في كروم التوت داخل المدينة المسورة وخارجها. وفي الأعوام التالية عادت الإيالة إلى صيدا وجعلت بيروت مرة أخرى تابعة لها، فلما قدم الوالي أحمد مخلص أفندي من صيدا إلى بيروت، أمر بتخطيط الطرق خارج أبواب المدينة التي أخذت بالاتساع عمراناً وتجارة وعلماً[2].

السور في أوائل القرن العشرين

وما إن اطلت السنوات الأولى من القرن العشرين حتى كان سور بيروت في جملة العاديَّات القديمة التي يغيبها التراب في أحشاء الأرض، وأصبح العثور على جزء منه يعتبر اكتشافاً أثريًا، ولم يعد أهل بيروت يعرفون معالمه إلا من خلال أبوابه الضخمة التي أُتيح لها أن تستمر من بعده لمدة محدودة قبل أن تزول هي الأخرى نهائيًا في أوائل الاحتلال الفرنسي للبلاد.

ومما عجل في زوال السور واختفاء معالمه، الأوامر التي أصدرها والي بيروت عزمي بك سنة ١٩١٦ بتوجيه من القيادة العسكرية. وهي الأوامر التي قضت بإعادة النظر في تخطيط شوارع المدينة داخل السور وخارجه بقصد إشغال الناس عن الخوض في فضول السياسة، الأمر الذي كانت الدولة العثمانية لا تطمئن إلى نتائجه أثناء الحرب، وبالفعل فإن أهل بيروت شغلوا بالاهتمام في مصير بيوتهم وأملاكهم دون أي شيء آخر. ومرت سنوات الحرب بكاملها وهم في شغل شاغل عن مشاكلها ومضاعفاتها على الرغم من أن الساحة الرئيسية في مدينتهم ـ ساحة البرج ـ شهدت إعدام عدد منهم بتهمة التجسس أو التعاون مع الأجنبي على دفعتين متواليتين، فلقد مرّ البيروتيون بهذا الحدث الضخم دون أن يترك فيهم أي مظهر من مظاهر ردود الفعل التي كان يتوقعها الحلفاء لصالحهم ضد السلطات العثمانية المحلية.

السور: أنقاض تحت الأرض، وحطام فوقها

عندما فتحنا أعيننا على نور الحياة في أواخر الربع الأول من القرن الحالي كان السور يحني ما تبقى من هامته تحت وطأة الخراب التي تخلفت عن معاول العمال الذين شقوا شوارع بيروت الجديدة ولم يكن قد بقي منه إلا بعض أرومات الحجارة التي كانت يوماً ما قاعدة لأبراجه الشامخة وإنه لمن حسن حظنا أن نوفق إلى الكونت دومنيل دو بويسون (De Mesnil de Buisson) الذي أدرك هذا السور قبل زواله النهائي وكتب لنا وصف ما شاهده من بقاياه في بيروت القديمة تحت عنوان: (استحكامات بيروت وتحصيناتها القديمة)[3]. وإننا بفضل هذا

= والحاضر أنه كان يرى في الجهة البحرية من الجامع الفجوات التي أحدثتها القنابل الإنكليزية التي ضربت بيروت لإخراج إبراهيم باشا منها. وسمي الجامع بالمجيدية نسبة إلى السلطان عبد المجيد الذي أمر بتحويله من قلعة إلى مسجد بعد خروج المصريين من المدينة. ويتولى سدانة هذا الجامع آل العيتاني منذ ذلك الحين حتى اليوم. وفي حديقته مقبرة خاصة بهم.

(١) نشرت البحرية الإنكليزية سنة ١٨٣٩ خارطة عسكرية لبيروت تبين فيها سور المدينة وأبراجها. وقد أطلقت هذه الخارطة على البرج الكشاف اسم «برج الحشيش» دون أن تبين السبب، والمرجح ين هذه التسمية ترجع إلى واحد من افتراضين:

لأن البرج كان من الإهمال بحيث نبتت فيه الحشائش.

أو لأن بعض الجنود المصريين الذ ين كانوا يتولون المراقبة منه كانوا يتعاطون المادة المخدرة المعروفة بالحشيش ـ ويسميها أهل بلادنا: حشيشة الكيف.

(٢) الشيخ عبد القار القباني، بيروت حياتها وتحولاتها ـ مجل الكشاف.

(٣) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٠٠.

الكتاب المحدود الورقات الغزير الفائدة، استطعنا أن نمسك بآخر الخيط التاريخي لهذا السور ونسير معه خلافاً للمألوف، من النهاية إلى البداية، وإلى الكونت دوبويسون، يرجع الفضل الحقيقي في تسجيل الفصول الأخيرة من مراحل وجود هذا السور في مدينة بيروت، وذلك قبل أن تقفز قفزتها العمودية الهائلة، من حضيض القرون الوسطى، إلى أوج عصر الفضاء والذرة.

والعالم المؤرخ دوبويسون، هو في الواقع شاهد عيان أدرك السور قبل فوات الأوان، وبيده قلم أمين، كأنه آلة تصوير حمله بين يديه كما يحمل المصور الفوتوغرافي آلته الشمسية على عاتقه، وراح يتنقل في أزقة بيروت الملتوية، وعلى شاطىء البحر الذي تتدافع إليه أمواج البحر الأبيض المتوسط من الجهات الثلاث التي تكتنف المدينة في الشرق والشمال والغرب، تارة يمشي في وضح الشمس وتارة في عتمة سراديب الأبراج والقلاع، وتارة ثالثة خافضاً رأسه تحت أقبية السيباطات ذات العقود بين أكداس البيوت التي التحمت جنباتها وتراكبت بعضها فوق بعض على غير نسق هندسي ولا نظام معروف. إلى أن قدّم إلينا تقريره الشامل عن السور الذي عرفته المدينة منذ خرجت إلى النور قبل الميلاد بألفي سنة، ثم عافته حين دخل إليها النور بعد الميلاد بألفي سنة. وبذلك تكون صحبتهما معاً قد دامت بلا انقطاع، أربعة آلاف سنة على سراء الحياة وضرائها، بين أسر الغزاة الطامعين وصدّ الحماة المدافعين. وكانت هذه الصحبة الوفية، وكأن أمير الشعراء أحمد شوقي بك عناها بلسان كل منهما نحو الآخر، حين قال:

صحبة لم أشك منها ريبة   ووداد لم يكلفني عتابا

***

لقد كان القرن التاسع عشر للميلاد، كغراب البين، نذير فراق لا لقاء بعده، بين بيروت وبين سورها الوفي الأمين، ففي سنوات العقد الرابع من هذا القرن العقوق، دهمت قوات إبراهيم باشا المصري السور بالتهديم متعاونة مع زلزلة عنيفة خلخلت منه ما استعصى على المعاول الفولاذية في الأيدي العسكرية. ولما اصطدمت مصالح الإمبراطورية البريطانية مع مصالح الفرنسيين في الشرق تلقى سور بيروت عبر القوات المصرية طلقات المدافع المدمرة من البر والبحر فزلزلته زلزالاً آخر كان أشد وطأة عليه من زلزلة الطبيعة، فانهارت جوانبه ولم يبق منه إلا ما استمسك بعصم الأبواب المدعومة بالأبراج والحصون. ولما قدم الفرنسيون إلى سورية سنة ١٨٦٠ بالشركة التي التزمت شق طريق الشام(١)، أزاحوا من دربهم باب إدريس وما كان يتصل به من بقايا السور ليصلوا بهذه الطريق إلى حدود البحر. أما الذي تبقى من هذا السور المرهَق بعد كل هذه النوازل، من طبيعية وحربية، فقد دهمته مطامع بعض من لا خلاق لهم من السكان الذين شادوا من حجارته الأثرية دكاكينهم غير عابئين بسلطة الحاكم ولا سلطان الضمير.

وهكذا غاب سور بيروت بكامله عن العيان إلى غير رجعة. ولم يعد يعرف عنه أبناء زماننا، ونحن في البدايات الأولى من سني القرن الرابع عشر للهجرة والنهايات الأخيرة من النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد، لم يعد يعرف عنه هؤلاء الأبناء، إلا ما يتداولونه عن اسم الساحة التي بقيت تحمل من ذكريات السور كلمة «عصور» وهي المكان الذي كان يمتد في أواخر القرن الماضي ما بين باب يعقوب وباب الدركة كما كان يقول أهل ذلك الزمان. أو طلعة الأميركان ورأس المعرض كما أصبح يقول أهل هذا الجيل المعاصر.

وحين يجتاز أحد أبناء جيلنا اليوم عرض هذه الساحة ويلتفت إلى ما حوله من أديمها المنبسط، باحثاً عن سور بيروت، فإنه لن يجد أمام ناظريه إلا حديقة متواضعة، سورت على زهور تكاد تبدو كأنها العوسج اليابس، وفي وسطها ينتصب تمثال من معدن البرونز لأحد رؤساء الحكومة اللبنانية السابقين المرحوم رياض بك الصلح الذي سمرت قدماه على قاعدة من الحجر الفرني كتب عليها بحروف من المعدن الصقيل: «لن يكون لبنان للاستعمار مقراً ولا ممراً». وبمقابل ظهر هذا التمثال، إلى الجهة الغربية من الساحة التي أصبحت تعرف اليوم بساحة رياض الصلح. يقرأ ابناء هذا الجيل لافتة من معدن الصفيح، كتب عليها بأنابيب النيون الكهربائية: «كراج السور». (٢).

وهذا كل ما تبقى من سور بيروت في سنة ١٤١٢ هجرية سنة ١٩٩٢ ميلادية.

(١) كان ذلك في أيام الوالي أحمد مخلص أفندي والي إيالة صيدا، وقد كانت بيروت يومئذٍ تابعة لها.
(٢) للتاريخ نقول: إنه أثناء الكشف عن عواميد درج خان البيض (درج الأربعين في السابق) ظهر للعيان، تحت مستوى الأرض المطروقة، جانب من سور الجزار، وكأنه عائد من أعماق الماضي تعلوه كسف التراب وتختلط به ذكريات العصور الخالية التي استحالت إلى أنقاض بالية... ولله الأمر من قبل ومن بعد وإلى الله ترجع الأمور.

الفصل الثامن

الولاة العثمانيون في ولاية بيروت

١٨٨٨ ـ ١٩١٨

في سنة ١٨٨٨ أعلنت مدينة بيروت مركزاً لولاية نسبت إليها باسم «ولاية بيروت» وكانت المدينة من قبل جزءاً من ولاية سورية التي مركزها مدينة دمشق. وابتداء من السنة المذكورة أصبحت هذه الولاية الجديدة مقرًّا لواليها الذي يصدر بتعيينه مرسوم باسم «فرمان عالي شان» يصدره السلطان العثماني نفسه عبر «الباب العالي» حيث «الصدر الأعظم» الذي كان بمثابة رئيس الوزراء حسب الاصطلاح الجاري اليوم.

ويمكن التعريف بولاية بيروت كما كانت من حين إنشائها سنة ١٨٨٨ حتى زوالها سنة ١٩١٨ كما يلي:

تضم ولاية بيروت القسم الأعظم من سواحل سورية. وتتبع هذه الولاية كافة السواحل السورية ما عدا القسم الشمالي الملحق بولاية حلب، والقسم الأوسط الملحق بلواء جبل لبنان، والقسم الجنوبي المرتبط بلواء القدس.

وكانت ولاية بيروت تمتد حدودها في الجهة الجنوبية بحيث تضم إليها لواءي عكة ونابلس حتى نهر الأردن وحتى لواء القدس. وبذلك فإن ولاية بيروت كان يحدها شمالاً ولاية حلب، وشرقاً ولايتا حلب وسورية، وجنوباً لواء القدس، وغرباً البحر الأبيض المتوسط.

كانت ولاية بيروت تمتد على مساحة قدرها ٣٠٥٠٠ كلم^2 وتضم خمسة ألوية معروفة باسم حواضرها وهي التالية: لواء بيروت، ولواء عكة، ولواء طرابلس، ولواء اللاذقية، ولواء نابلس.

أما مدينة بيروت بالذات، وهي مركز الولاية فقد قسمت في وقت من الأوقات إلى بلديتين: إحداهما شرقية على رأسها الخواجا بطرس داغر، من أعيان النصارى، والأخرى غربية وعلى رأسها السيد منيح رمضان من أعيان المسلمين. وكان الحد الفاصل بين البلديتين طريق الشام الذي ما زال يحمل هذا الاسم وهو يمتد من ساحة البرج شمالاً حتى ساحة فرن الشباك جنوباً.

والجدير بالذكر أن والي بيروت كان دائماً تركي الجنسية كما كان المتصرف ومدير الأمن العام وسائر المصالح من الأتراك في أكثر الأحيان. وربما أُسندت هذه المناصب إلى بعض الأكفاء من العرب والألبان والروم والأرمن، لا سيما بعد إعلان المشروطيّة (الدستور) سنة ١٩٠٨. أما موظفو الدرجة الثانية فما دون فكانوا في الغالب من أبناء الولاية ذاتها(١).

أسماء الولاة

١ ـ علي باشا

وهو أول والٍ جرى تعيينه في بيروت بعد أن أصبحت مركزاً لولاية بيروت، وكان ذلك أيام السلطان عبد الحميد سنة ١٨٨٨ وقد نشرت خبر تعيينه جريدة ثمرات الفنون لصاحبها الشيخ عبد القادر القباني الذي نوه بهذا التعيين في مقالة افتتاحية بدأها بثلاثة أبيات من الشعر وهي:

شكراً لسلطاننا عبد الحميد فقد
أنال بيروت منه غاية الأمل
أعادها من سَنَى مجلى قريحته
ولاية جلّ واليها بسرٍّ ولي
فقال ثغر الهنا فيما يؤرخه
بيروت فازت بواليها أجلّ علي

(١) أُخذت هذه المعلومات من المصادر التالية:
أ ـ ولاية بيروت ـ القسم الجنوبي ـ تأليف محمد رفيق بك (التميمي) ومحمد بهجت بك ـ طبع بمطبعة ـ الإقبال في بيروت سنة ١٣٣٥هـ.
ب ـ البلاد العربية والدولة العثمانية، تأليف ساطع الحصري، طبع دار العلم للملايين ببيروت، ط. ثالثة، سنة ١٩٦٥م.
ج - بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، تأليف يوسف الحكيم ط. المطبعة الكاثوليكية ببيروت، سنة ١٩٦٤.

وعندما وصل الوالي علي باشا إلى بيروت وباشر منصبه بصفة رسمية كرر الشيخ عبد القادر القباني ترحيبه به ببيتين من الشعر قال فيهما:

الحمد للّه نلنا ما نؤمله
وعادنا عيد إقبال بكل هَنَا
وافترّ ثغر الأماني منشداً علناً
أتى عليّ لإصلاح الشؤون هنا

وإتماماً للفائدة التاريخية فإننا نثبت هنا نص «الفرمان الشريف» الذي صدر عن السلطان عبد الحميد الثاني المتضمن الإرادة السلطانية بتعيين الوالي المذكور. وفيما يلي هذا النص كما جاء في ترجمته العربية في جريدة ثمرات الفنون الصادرة يوم الإثنين في ٢٩ جمادى الآخرة.

صورة الفرمان الشريف السلطاني بتوجيه ولاية بيروت على حضرة دولتلو علي باشا الأفخم

الدستور المكرم والمشير المفخم نظام العالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأي الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى من وكلاء سلطنتي السنية الفخام والي ولاية إيدين أسبق الذي أحيلت وتوجهت لعهدة استيهاله ولاية بيروت التي تشكلت الآن الحائز والحامل للنيشانين العثماني المرصع والمجيدي من الرتبة الأولى الرفيعي الشأن وزيري علي باشا أدام الله تعالى إجلاله. ليكن معلوماً لديك بوصول توقيعي الرفيع الهمايوني ما هو مستغنٍ عن البيان أن نخبة آمالي وافكاري الشاهانية إنما هو ترقي ممالكي المحروسة الشاهانية وتوفير أسباب الراحة والرفاهية لأهالي دولتي العلية الملوكانية وتبعتها واستكمال نظام أمنيتهم والنظر في ما يقع ويجري من المصالح وتسويته على الوجه العادل المنطبق على الحق. ولما كان تشكيل ولاية وتأسيسها على أن تكون مدينة بيروت مركزاً لها لما لموقعها من الأهمية المسلَّمة وفصل ألوية عكة وطرابلس الشام والبلقاء واللاذقية عن ولاية سورية وإلحاقها ببيروت واستتباعها لها يعود بالفوائد والمحاسن على الملك والرعية فقد استصوب مجلس وكلائي الفخام المخصوص إحالة الولاية المذكورة إلى ذاتٍ متصفة بالدراية والفطنة بصيرة بإدارة الأمور الملكية. ولما كنت أنت أيها الوزير سمير الدراية المشار إليه من وكلاء سلطنتي السنية المتصفين بالأوصاف المذكورة المقتدرين على الإحسان بإجراء القوانين والنظامات العادلة، وكان اعتمادي ووثوقي بك كاملين فقد أحيلت وفوضت ولاية بيروت لعهدة استيهالك بموجب أمري الهمايوني السلطاني المقرون بالعناية السانح صدوره موهبة نامية من عواطفي العلية الشاهانية وعوارفي البهية الملوكانية في اليوم التاسع من شهر ربيع الآخر سنة خمس وثلاثمائة وألف وأصدر أمري الهمايوني الجليل القدر هذا ومنح متضمناً لمأموريتك فاصرف لها جهدك بما جبلت عليه من الدراية وفطرت عليه من الفطنة وجلْ في الأماكن المحولة لعهدة درايتك حسب ما تقتضيهِ شؤون مأموريتك وقم بالأمر الأهم وهو صيانة كل صنف من أهالي دولتي العلية وتبعتها وحمايتهم من كل الوجوه ووقايتهم من آثار الاعتداء والأذى كل ذلك تأتيةِ تحت ظل معدلتي الملوكانية متمسكاً في كل حال بشريعة الحضرة النبوية المطهرة متوسلاً بها مطابقاً بين سيرك وبين القوانين والنظامات الموضوعة باسطاً جناح الرأفة والعدالة للجميع بما يستجلب الدعوات الخيرية لمقامي الجامع للمجد والشرف الملوكاني وعليك بدقة النظر في الألوية الملحقة بمركز ولايتك لإحسان إدارة أمورها الملكية والمالية وسائر موادها بمعرفة مأموريها لتوافق بذلك رضاي مستزيداً ومؤيداً توجهاتي ذات المكارم الملوكانية المسلَّمة الثابتة لك كرة أخرى وعليك أن تعرض لدار سعادتي ما يلزم عرضهُ تدريجاً. تحريراً في اليوم الثالث عشر من شهر ربيع الآخر لسنة خمس وثلاثماية وألف.

٢ ـ رائف باشا

ليس لدينا مصدر يساعدنا على التعريف بهذا الوالي الذي لم تدم مدة ولايته أكثر من سنة واحدة.

٣ ـ عزيز باشا

باشر منصبه والياً في بيروت سنة ١٨٩١.

٤ ـ إسماعيل كمال بك

باشر منصبه والياً في بيروت سنة ١٨٩٢

٥ ـ خالد بك

تعين والياً في بيروت وباشر منصبه سنة ١٨٩٢ ولقد هنّاه الشاعر أديب اللبابيدي مؤرخاً تعيينه بهذا المنصب ببيتين من الشعر قال فيهما:

إن بيروت بواليها لقد
بلغت والله غايات المقاصد
وبشير السعد في تشريفه
قال أرّخ هنّ بيروت بخالد

وهذا الوالي ينتمي إلى آل بابان وهم أسرة كردية معروفة. ولقد هنأه الشاعر بتسلمه الولاية مشيراً إلى أسرته بقوله:

أهدي إلينا خير والٍ
به تتم الفوائد
أكرِمْ به من همام
سليل قوم أماجد
من آل بابان شهم
بمجده الدهر شاهد

٦ ـ حسن باشا

تسلم حسن باشا ولاية بيروت خلفاً لخالد بك بالوكالة ولم يثبّت في هذا المنصب.

٧ ـ إبراهيم خليل خالد باشا

تعّين والياً في بيروت سنة ١٩٠٣ وهو من الجنسية الألبانية (أرناؤوط). وفي أيامه جرى تدشين مبنى مكتب الصنائع والفنون الجميلة ببيروت.

وقد قال إبراهيم بك الأسود في مدح هذا الوالي بيتين من الشعر جاء فيهما:

ببيروت غدا لخليل باشا
جليل مآثر وجميل ذكْر
قضى فيها زماناً نال فيه
ثناءً عاطراً من كل حرّ

٨ ـ شكري باشا

شغل منصب والي ولاية بيروت بالوكالة ومعه صبحي الولي (الطرابلسي) مميز قلم المكتوبي في دمشق، وبقي شكري باشا في هذا المنصب بالوكالة لغاية سنة ١٩٠٨.

٩ ـ محمد علي بك

تعين والياً في بيروت سنة ١٩٠٨، ومدحه الشاعر إبراهيم بك الأسود بقصيدة جاء فيها قوله:

حلّت عليه ملائك الرحمن
عُصَباً تقيه طوارِق الحدثانِ
وكأنما عرف الخِضَمُّ مقامه
فارتدّ عنه مسكّن الهيجان
وكأنما هُوجُ الرياح تراجعت
فمشت سفينته بكل أمان
وصل المدينة حاملاً في صدره
نبآت مولانا العظيم الشان
ولاّه أحكام الولاية فهو في
بيروت ظل جلالة السلطان
هذا محمد الذي بعلومه
قد نال في العلياء كل مكان
ملأت محاسنه البلاد وقد حدا
قاصي البلاد بذكره والداني

١٠ ـ أكرم أفندي

لم تطل مدة ولاية محمد علي بك في بيروت. فلقد أُبعد عن هذا المنصب على أثر إعلان المشروطية (الدستور) سنة ١٩٠٨ وحل مكانه في الولاية أكرم أفندي الذي كان آنذاك يشغل منصب متصرف لواء القدس. وكان محمد علي بك تسلّم منصبه في ١٠ آب من نفس السنة، ولكن في ١٩ من نفس الشهر جاء الأمر بعزله من الولاية وإجراء الحجز على أثاث منزله للوفاء بدين عليه لأحد الخواجات (النصارى).

١١ ـ ناظم باشا

تعين والياً في بيروت سنة ١٩٠٨، وذلك للمرة الأولى. وهذا الوالي شغل من قبل منصب ناظر (وزير) الحربية وقائد العساكر العثمانية في الحرب البلقانية وقالت عنه إحدى الصحف الإنكليزية: إنه من أمهر رجال الحرب في زمانه. وكل من يعرفه يعتقد ذلك وهو في صبره وسياسته أشبه الناس باللورد كتشنر (المعتمد الإنكليزي بمصر آنذاك) تعلم في فرنسا بكلية «سان سير» للعلوم العسكرية، وكان من أذكى الطلبة فيها، ومن صفاته قوة إرادته فإنه لو صمّم على عمل شيء لا بد أن يعمله.

قبل تعيينه والياً على بيروت كان يشغل منصب والي بغداد التي شهدت على يديه نهضة جديرة بإرجاعها إلى عزها يوم كانت عاصمة للخلفاء العباسيين.

١٢ ـ رشيد بك

تعين والياً في بيروت بعد ناظم باشا وباشر منصبه سنة ١٩٠٩، ولكن سرعان ما نقل من هذا المنصب في نفس السنة.

١٣ ـ ناظم باشا

أُعيد ناظم باشا لمنصب ولاية بيروت للمرة الثانية سنة ١٩٠٩. وبقي في هذا المنصب لغاية سنة ١٩١٠.

١٤ ـ نورالدين بك

تعين والياً في بيروت وباشر منصبه سنة ١٩١٠.

١٥ ـ حازم بك

تعين والياً في بيروت سنة ١٩١١ خلفاً لسلفه نور الدين بك الذي توفي في السنة المذكورة. وحازم بك هو الذي تنسب إليه ضاحية «الحازمية» الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة بيروت على الطريق الذاهبة من بيروت إلى دمشق.

١٦ ـ ناظم باشا

أُعيد تعيينه في منصب والي ولاية بيروت ومارس منصبه سنة ١٩١٢.

١٧ ـ أدهم بك

تعين والياً في بيروت سنة ١٩١٣ ومارس منصبه في هذه السنة. وأدهم بك هو نجل مسعود بك الذي كان يشغل محاسب الديون العمومية في اسطمبول.

١٨ - بكر سامي بك

تعين والياً في بيروت وباشر منصبه سنة ١٩١٤. في أيامه دخلت الدولة العثمانية الحرب الكونية الأولى إلى جانب الدولة الألمانية ضد الدول المتحالفة (الحلفاء).

١٩ - عزمي بك

تعين والياً في بيروت ومارس منصبه خلفاً لواليها السابق بكر سامي بك سنة ١٩١٥. كان عزمي بك يشغل قبل ذلك منصب متصرف لواء طرابلس، وشق في هذه المدينة شارعاً رئيسياً يربط بين المدينة والمينا عبر سقي طرابلس، وقبل ذلك كان يشغل منصب مدير الشرطة في اسطمبول.

في أيام عزمي بك جرى تخطيط شوارع وطرقات مدينة بيروت القديمة. وفي أيام هذا الوالي تمت محاكمة بعض السياسيين العرب الذين تعاونوا مع الحلفاء أثناء الحرب وجرى إعدامهم شنقاً في ساحة البرج سنة ١٩١٦.

وعزمي بك هو الذي تعاون مع بلدية بيروت أيام رئيسها عمر بك الداعوق رحمه الله في بناء نادي بيروت الذي يقع في حرش بيروت. وهذا النادي قد تنازلت عنه الحكومة اللبنانية أيام الرئيس شارل حلو لصالح السفارة الفرنسية التي حولته إلى منزل للسفير الفرنسي في بيروت.

٢٠ - إسماعيل حقي بك

تعين في ولاية بيروت سنة ١٩١٧ خلفاً لسلفه عزمي بك. وقد جمع إسماعيل حقي بك بين منصبي والي بيروت ومتصرف جبل لبنان. وكانت له علاقات وطيدة مع الأعيان اللبنانيين (أهل الجبل) من السياسيين ورجال الدين.

وإسماعيل حقي بك هو الذي أوعز بتأليف كتاب جامع عن لبنان. وندب إلى هذا العمل نخبة من أفاضل العلماء والكتاب الذين انجزوا عملهم سنة ١٩١٨.

وقد نشر هذا الكتاب في حينه ثم أُعيد نشره مرة ثانية من قبل الجامعة اللبنانية (قسم الدراسات التاريخية) في جزءين وذلك سنة ١٩٦٩.

وكان إسماعيل حقي بك آخر الولاة العثمانيين في بيروت. يقول يوسف الحكيم الذي عمل في خدمة الوالي المذكور[١]: «إن إسماعيل حقي بك تميز في مدة حكمه في لبنان بتهذيبه العالي وعطفه على الشعب وبُعده عن كل ما يمس شعورهم بأذى، ولما نقل إلى بيروت والياً سحر الألباب أهلها بلطفه وأدبه وسعيه لخيرهم كأنه واحد منهم. ولما رأى ما حلّ بالجيش التركي من هزيمة استدعى إليه رئيس البلدية عمر بك الداعوق وأبلغه تنحيه عن الحكم وسلمه ما لديه من أوراق وغادر بيروت في آخر أيلول ١٩١٨ مشيعاً بالإعزاز والإكرام».

إن إسماعيل حقي غادر الدنيا بعد أن عولج في مستشفى الفقراء المجاني في اسطمبول وكانت وفاته سنة ١٩٣٦.

هذا وقد ترك إسماعيل حقي بك سيفه في بيروت فجعلته الحكومة اللبنانية مع الآثار التي احتفظت بها في دار الكتب الوطنية ثم نقل إلى مبنى المتحف الوطني تلبية لرغبة الأمير موريس شهاب الذي كان يشغل منصب مدير الآثار اللبنانية آنذاك.

وبمغادرة إسماعيل حقي بك مدينة بيروت طويت آخر صفحات التاريخ العثماني في بلادنا.

---

(١) كتاب بيروت ولبنان في عهد آل عثمان، تاليف يوسف الحكيم، ص٢٩٣. طبع المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٦٤.

الفصل التاسع

أربعمئة سنة من عمر ساحة الشهداء

البرج

إذا كان اللبنانيون يعرفون الكثير عن شهداء السادس من أيار، الذين عُلقوا على أعواد المشانق في الساحة المعروفة باسمهم اليوم أي «ساحة الشهداء» فإن العديد منهم لا يكادون يعرفون إلا القليل عن هذه الساحة، والتطورات التي تعاقبت عليها من اليوم الذي كانت تحمل فيه اسم «بستان فخر الدين» إلى اليوم الذي اصبحت تحمل فيه اسم «ساحة البرج» أو «ساحة الشهداء»، ومن اليوم الذي كانت فيه مركزاً لتجميع عربات الخيل الوسيلة الوحيدة للانتقال أيام زمان، إلى اليوم الذي أصبحت تحتشد فيه يومياً مئات وألوف السيارات وسيلة المواصلات البرية في زماننا.

إن ساحة البرج أو ساحة الشهداء هذه، ظهرت إلى الوجود في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني، الذي كان يحاول أن يُدخل إلى بيروت اللون الأجنبي من المؤسسات والعمارات والمنشآت، وذلك إثر عودته من توسكانة في إيطالية حيث كان قد التجأ خوفاً من بطش الدولة العثمانية به. وكانت عودته إلى لبنان في الثلث الأول من القرن السابع عشر للميلاد.

وتذكر المصادر التاريخية أن فخر الدين اصطحب معه لتحقيق رغبته العمرانية المهندسين الإيطاليين الذين كلفوا بتشييد قصر لائق لهذا الأمير المعني في ضاحية بيروت الشرقية حيث تقع اليوم الساحة المعروفة باسم ساحة البرج.

وبالفعل فقد انصرف المهندسون إلى تنفيذ رغبة الأمير بسرعة لا مثيل لها.

ويؤكد السائح الإيطالي المالطي «ماجري»، أن هؤلاء المهندسين شيدوا القصر الفخم على الطراز الإيطالي، فأحاطوه بالجنائن والإسطبلات وأقفاص الوحوش، ووصف الزائرون الأجانب الذين شاهدوا هذا القصر بأنه تحفة نادرة، بل ومن عجائب الشرق.

إلا أن «ماريني» السائح الذي أمّ لبنان حوالى عام ١٧٦١ يزعم أن هذا القصر ليس من أعمال الايطاليين بل هو من بناء المماليك الذين كانوا سادة الشرق العربي في القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد. ويستند في زعمه هذا إلى الشكل العربي الذي تتميز به هندسة القصر.

وقصر الأمير هذا، قد تهدم مع الزمن، ولم يبقَ منه إلا أنقاض أو أطلال أزيلت آخر مرة في عهد الانتداب الفرنسي عام ١٩٣٢ حينما شيد المرحوم عبود عبد الرزاق مكانها بناية سينما أوبرا التي حلت محل البورصة القديمة في بيروت.

وقد حرص الأمير فخر الدين على بناء قصوره من حجارة قصور خصومه آل سيفا حكام عكار. ولكن الزمن دار دورته فإذا بواحد من ذرية آل سيفا يثأر لأجداده من حيث لا يشعر، فيهدم بقايا قصر غريمهم ويشيد مكانه أملاكاً خاصة به.

ولكن الساحة القائمة إلى اليوم لم تكن كذلك بالأمس، لأن الأمير المعني حرص على أن يجعل من الأراضي المحيطة بقصره حديقة غناء عامرة بأنواع الأشجار المثمرة، كما حرص على أن يجعل فيها مرابط لخيله، وأفرد في جانبها ناحية حشر فيها الأنواع المختلفة من الحيوانات الأليفة والمفترسة مما هو متبع عادة في حدائق الحيوانات الأخرى في العالم.

ولا يزال آباؤنا الأقربون يتحدثون عن «خان الوحوش» الذي كان قائماً مكان سوق سرسق اليوم، والذي يشكل امتداداً لحديقة البرج، وهذه الحديقة، المليئة بالأشجار ومرابط الخيل ومحاجر الحيوانات، كانت تعرف عند الأقدمين باسم «بستان فخر الدين».

وهكذا يكون «بستان فخر الدين» أول اسم أطلق على ساحة البرج.

ساحة المدافع

وقد طرأت على الساحة تطورات عديدة بعد ذلك. ففي أواخر القرن الثامن عشر حكم بيروت أحمد باشا الجزار الذي استطاع أن ينفرد بالسلطة على المدينة بعد أن استخلصها من حاكمها السابق وسيده السابق أيضاً الأمير يوسف الشهابي. فالأمير يوسف كان في الواقع حاكماً على المنطقة المعروفة يومذاك بجبل الدروز، وهي محافظة جبل لبنان اليوم. وكانت بيروت في جملة أملاك الأمير. وقد تحصن بها الجزار وامتنع عن الولاء لسيده السابق مما اضطر الأمير يوسف، إلى أن يُوسّط أحد الإقطاعيين ظاهر العمر الزيداني المتسلط على منطقة الجليل في فلسطين، ليقنع أصدقاءه القرصان الروس المرابطين بأسطولهم في البحر لكي يسترجعوا بيروت من الجزار للأمير مهما كانت الوسائل.

وبالفعل، استجاب قائد الأسطول الروسي لطلب ظاهر العمر الزيداني وقذف بيروت بقنابله التي قيل إن صوتها كان يُسمع من دمشق، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل لأن الجزار كان قد حصن مدينة بيروت جيداً، ورمّم قصر الأمير فخر الدين واتخذ منه برجاً لرد غارة المغيرين.

واضطر الأسطول الروسي بعد ذلك، إلى أن ينزل مشاته في ضواحي المدينة ليضرب البرج عن كثب بالمدافع التي نقلها إلى البر ووضع هذه المدافع في الساحة التي تقع قرب البرج.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الناس يطلقون على الساحة اسم: ساحة المدافع، وعرفت عند الأجانب باسم: La Place des Canons.

وهناك رواية أخرى تقول إن هذه التسمية تعود إلى عام ١٨٦٠ يوم نزل نابليون الثالث بمدافعه إلى هذه الساحة، بسبب الفتنة بين الدروز والنصارى آنذاك فسميت بعد ذلك بساحة المدافع، ولكن الرواية الأولى أصح على ما أعتقد.

إبراهيم باشا وساحة البرج

كل هذه الحوادث كانت تجري وساحة البرج لا علاقة لها بمدينة بيروت التي كانت محصورة في ذلك التاريخ ضمن سورها وأبوابها في طول لا يتجاوز سبعمائة وخمسين متراً وعرض لا يزيد عن نصف طولها، حتى إذا كان عام ١٨٣١ ودخلت الجيوش المصرية إلى بيروت تحت أقواس النصر، وعلى رأسها القائد إبراهيم باشا، اتُخذت ساحة البرج معسكراً لهذا القائد مع جيوشه. وقد أراد الفاتحون أن يستفيدوا من حصون الجزار فعملوا أول ما عملوا على ترميم البرج الذي كان يقوم بناؤه الرئيسي محل سينما متروبول اليوم، وأطلقوا عليه اسم «البرج الكشاف» وكان ارتفاعه ٦٠ قدماً وسمك جداره ١٢ قدماً، ثم اتخذوا منه قاعدة يرصدون منها الغزاة الذين قد يأتون لاحتلال البلاد من البر أو البحر.

ومنذ ذلك الوقت أطلق الناس على هذا البرج اسم «برج الكشاف» لكن العامة حرفت هذه التسمية وأطلقت عليه اسم «برج الكشاش».

ولعل بعض آبائنا الباقين على قيد الحياة ما يزالون يذكرون كاراج حمانا الذي هدم وشيدت مكانه سينما متروبول، ويذكرون الأعمدة الضخمة التي كانت ظاهرة للعيان فيه ولقد رأيتها شخصياً قبل أن تزال نهائيًا بأمر من الحكومة.

سهلة البرج

ولقد لفت الفراغ الأرضي المجاور للبرج القديم أنظار المسؤولين، وعلى رأسهم فخري بك رئيس الدائرة البلدية. وهو صاحب الخان المعروف باسمه حتى اليوم في بيروت، فأشار بتنظيم الفراغ الذي كان معروفاً في أيامه باسم سهلة البرج. والسهلة كلمة عامية تعني الساحة.

وافتتح فخري بك العمل بمبلغ ٥٠ ليرة تبرع بها من ماله الخاص لتصرف على تسوية السهلة وجعلها متنزهاً جميلاً.

وفي هذا الصدد قالت جريدة ثمرات الفنون لصاحبها المرحوم عبد القادر القباني - العدد ١٧٨ - عام ١٨٧٨:

«وجناب الرئيس فخري بك، عازم على وضع مسلة من الرخام في ذلك المتنزه بارتفاع أربعة أمتار فوق قاعدة الرخام تحاط بدرابزون متقن، وينقش عليها مقدار ما يتبرع به كل إنسان على ذلك العمل مع التنويه به بحيث يكون أثراً جميلاً، كما أن في عزم جنابه أن يكون ذلك المتنزه في غاية الحسن والاتقان، ويجعل فيه محلات للجلوس، وقهوة تصلح لجلوس الجميع وتحضر فيه الموسيقى العسكرية وغير ذلك من المحسنات التي ستبرزها فكرة جناب الرئيس وفطنته النقادة بما يكون إن شاء الله من أحسن الآثار».

متنزه الحميدية

وتابعت الجريدة تقول:

«ونتيجة لرغبة فخري بك خصص المجلس البلدي في بيروت في موازنته ثلاثمائة ليرة تضاف إليها ثلاثمائة أخرى تركتها مكارم عزتلو فخري بك من معاشه لإصلاح فسحة البرج وإنشاء الممرات والحدائق فيها، وأطلق حينئذٍ على المكان اسم «متنزه

الحميدية» نسبة إلى السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله.

وقد رصفت سهلة البرج بأمر الوالي رشيد بك أفندي عام ١٩٠٣م وبلغت تكاليف كل متر مربع فيها ريالاً ونصف ريال.

هذا ولا تزال بيروت تحمل بعض السمات الحميدية إلى اليوم، إذ يتفرع من ساحة البرج شارع يؤدي إلى سوق النورية ما يزال يحمل اسم سوق الحميدية. ولكن الساحة لم تستطع أن تحتفظ باسمها طويلاً لأن الأحداث السياسية تلاحقت عليها كما تلاحقت كذلك على السلطان الذي حملت اسمه.

ساحة الحرية

على أثر الانقلاب الذي أودى بعرش السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م، شهدت ساحة البرج انقلاباً آخر، إذ امتلأت جنباتها بأهالي مدينة بيروت على مختلف فئاتهم، وهم يهتفون بشعارات جمعية الاتحاد والترقي، وهي الجمعية التي أطاحت بعرش السلطان المذكور عبد الحميد، كما شهدت هذه الساحة سوق عكاظ، تبارى فيه الخطباء مباركين العهد الجديد ولاعنين العهد القديم كما هي العادة في كل زمان ومكان.

ساحة الاتحاد

وحتى يزيل الناس كل أثر للسلطان المخلوع، تنادى المسؤولون وأفراد المؤسسات الشعبية إلى اجتماع انتهى بإزاحة الستار عن لوحة رفعت فوق ساحة البرج مكتوب عليها: «ساحة الحرية»، كما رفع الستار عن لوحة أخرى علقت فوق الباب الشمالي من «الحديقة الحميدية» (منشية الصنائع الحالية) كتب عليها: «حديقة الحرية». ولكن الاسم الجديد لم يستمر طويلاً، إذ قرر الرأي العام في بيروت إعادة النظر في هذه التسمية ووضع اسم جديد مكانها للساحة وهو «ساحة الاتحاد».

ساحة الشهداء

وتتوالى الأيام، وساحة البرج تشهد أصنافاً من الناس وأصنافاً من الحكام وأصنافاً من الأسماء، حتى إذا كان عام ١٩١٨ الذي وقعت فيه البلاد العربية صريعة تحت وطأة الغزو الأوروبي، إذا بالسلطات الفرنسية المحتلة تتجه إلى ساحة البرج لتترك عليها بصمات فارقة، فوجد الطاغية الفرنسي الجنرال غورو في هذه الساحة خير مكان لتخليد ذكرى ضحايا جمال باشا فأصدر أوامره بأن تصبح ساحة البرج مرة أخرى. . ساحة الشهداء.

وأرادت السلطات الفرنسية الحاكمة أن تطبع ساحة البرج بالطابع الذي يتلاءم وفكرتها عن الاستشهاد، فأوعزت بأن يقام نصب كان يمثل الذل والخنوع، هو عبارة عن امرأتين مسلمة وأخرى نصرانية تندبان فوق قبر يرمز إلى مدافن الشهداء[١]، لكن هذا التمثال هدم واستبدل بآخر منذ بضع سنوات، إلا أن التمثال الجديد لم يعطِ الصورة الحقيقية عن فكرة الاستشهاد، كما يقول الكثيرون.

سراي البرج تشهد ولادة الاستقلال

أما السراي التي هدمت في العام ١٩٥٠ بأمر من المرحوم رياض بك الصلح وذلك حبًا في توسيع ساحة الشهداء وتحسين المناطق المجاورة لها تجاريًا وأطلت بعدها بناية الريفولي، فقد شيدت في عهد السلطان عبد الحميد، وكانت مركزاً للولاية التي تضم جميع المؤسسات الحكومية المحلية اعتباراً من رئيس البلدية حتى آخر شرطي، ومن هذه السراي كانت تدار الأعمال الرسمية في ولاية بيروت الممتدة من اللاذقية حتى بئر السبع، وقد شهدت هذه السراي نهاية الانتداب الفرنسي وولادة الاستقلال عام ١٩٤٣ حين وقف رجال البلاد السياسيين بعد الإفراج عنهم من قلعة راشيا، معلنين من على شرفاتها المطلة على الساحة، زوال الانتداب وقيام الاستقلال.

(١) كان ذلك في أيار سنة ١٩٣١

غابة الصنوبر (حرج بيروت)

أولها ومآلها وأحوالها

نقدم في هذا الفصل تاريخ غابة الصنوبر التي يسميها أبناء زماننا «الحرش» وما تقلب عليها من أحوال تراوحت بين الإقبال والإدبار، والازدهار والدمار، لعلنا نفي ما لها في أعناقنا من ذمم الوفاء على ما أسبغته على مدينتنا من حلل البهاء والجمال، إذ كانت على مدى آلاف الأعوام القلادة السندسية الخضراء التي رصعت بالحسْن مدخلها الجنوبي، وكانت المصفاة الطبيعية التي أوصلت إلى صدورنا النسيم العليل الذي أنعش أنفاسنا بعطره الخالي من أوضار التلوث والغبار، ولا بدع، فإن غابة الصنوبر التي أعطت لبيروت اسمها قد أعطت لهذه المدينة في نفس الوقت خطرات هذا النسيم العليل ولكن من غير أن تجرح خدود العذارى من بناتها أو تدمي لهن بناناً..

اسم الغابة بين الماضي والحاضر

لهذه الغابة أسماء متعددة، بعضها اشتهرت به منذ قديم الزمان ولازمها عبر آلاف السنين وما زال علماً عليها حتى اليوم وهو «غابة بيروت» وكلمة/بيروت وردت في الكتابات القديمة بلفظ «بيريت» وهي كلمة فينيقية معناها بلغتنا العربية «الصنوبر» هكذا يقول علماء اللغات السامية ومنهم الدكتور أنيس فريحة(1)، والأب حبيقة، واليسوعي هنري لامنس.

يقول لامنس في مقالة له نشرها في مجلة المشرق ببيروت تحت عنوان الحياة في بيروت قبل الإسلام(2): «.. ولا شك أن من عناصر الجمال في بيروت غابة الصنوبر، وهي قديمة جدًّا كما يلاحظ رينان (Renan) حتى إنه ليس من المستغرب أن تكون بيروت مدينةً لها باسمها».

وبعض أسمائها أطلق عليها في العصور الحديثة، نتيجة أحداث وقعت فيها فنسبها إليها أولئك الذين عاشوا تلك الأحداث أو عاصروها مثل «ميدان البلشة» والبلـشة كلمة عامية يستعملها أهل لبنان بمعنى الاشتباكات المسلحة بين الفرقاء المختلفين. وقد ورد هذا الاسم الذي اشتهرت به غابة الصنوبر في كتاب لبنان في عهد الأمراء الشهابيين للأمير حيدر أحمد الشهابي عندما أشار إلى محاولة الاغتيال التي تعرض لها أحمد باشا الجزار سنة ١١٨٦هـ (١٧٧٢م) حينما كان ماراً بالغابة المذكورة، قال المؤلف المذكور(3): «.. وكان أحمد بيك الجزار عند قدومه إلى بيروت وهو مارّ في «ميدان البَلْشة» قوّسه رجل مغربي يقال له أبو عقلين فأصيب في رقبته وانجرح جرحاً مؤلماً».

ثم إن المؤلف المذكور أشار إلى هذه الغابة باسم «حرش سنوبر بيروت» وذلك في معرض كلامه عن توجه أحمد باشا

---

(1) معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها ـ دراسة لغوية ـ تأليف أنيس فريحة ـ طبعة ثانية منقّحة ـ الناشر، مكتبة لبنان ـ بيروت سنة ١٩٧٢ ص ٣٩. يقول المؤلف: بيروت Barût ـ ورد ذكرها في رسائل العمارنة وفي النقوش المصرية Biᶜ-ur-ta. . نرجّح أن يكون معنى الاسم «صنوبرة».

(2) مجلة «المشرق» مجلد سنة ١٩٣٣ ص٦٦٢.

على أن الأب مرتين اليسوعي يقول استناداً إلى سنكنياتن الكاتب البيروتي الفينيقي: إن بيروت كان اسم زوجة إيل أو ملك على جُبُل = (جبيل اليوم) وإن هذه المرأة هي التي أعطت اسمها لمدينة بيروت.

ثم إنه يقول بعد ذلك: إن اسم بيروت الذي لا يفترق في الفينيقي عن اسم جبل براتي يدل على السرو الذي كان كثيراً في بيروت والجبال التي حيالها. (عن كتاب تاريخ لبنان تأليف الأب مرتين اليسوعي، نقله إلى العربية رشيد الخوري الشرتوني، ببعض التصرف والاختصار ـ طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٨٨٩، ج ١ ص ٢٣٣ وما بعدها).

(3) لبنان في عهد الأمراء الشهابيين، وهو الجزءان الثاني والثالث من كتاب الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، للأمير حيدر أحمد الشهابي ـ عُني بضبطه ونشره وتعليق حواشيه ووضع مقدمته وفهارسه الدكتور أسد رستم والدكتور فؤاد أفرام البستاني ـ القسم الأول ـ لبنان والأقطار المجاورة في، القرن الثامن عشر ـ بيروت ١٩٦٩، ص٩٥.

الجزار لمجابهة الأمير يوسف الشهابي سنة ١٢٠٤هـ (١٧٨٩م) قال المؤلف «.. وفي هذه السنة بعد رجوع الأُزُن إبراهيم باشا من الحج، أنعم على الأمير يوسف بحكم بلاد جبيل، فرجع في شهر نوّار من منين ـ بعكار ـ إلى بلاد جبيل، ولما بلغ ذلك أحمد باشا الجزار وجّه عسكره إلى حرش سنوبر بيروت»(1).

وأهل بيروت ما زالوا حتى اليوم يستعملون كلمة «سنوبر بيروت» بمعنى غابة الصنوبر، وهم يلفظون الصاد سيناً على عادتهم بترقيق الحروف المفخمة. ومن أمثالهم الدارجة، حينما يريدون تهديد أحد الأشخاص بفضح أخباره السيئة على الملأ «بدّي أنشرك على سنوبر بيروت» أي أود كشف ما خفي من أخبارك على سطح غابة الصنوبر لكي يراها جميع الناس ويتناقلوها فيما بينهم.

على أن عامة أهل بيروت يسمون غابة الصنوبر «الحرش» واضعين الشين في آخر الكلمة بدلاً من الجيم التي تنتهي الكلمة الفصيحة بها وهي «الحرج». في حين يستعمل الكتّاب هذه الكلمة الفصيحة عند الإشارة إلى غابة الصنوبر. وفي العادة يكتفي الناس بإحدى هاتين الكلمتين للدلالة على الغابة. وبذلك أصبحت هذه الغابة تعرف عند الجميع باسم «الحرش أو الحرج» دونما حاجة إلى نسبتها لبيروت، أو للصنوبر.

تاريخ نشوء الغابة

دخل تاريخ نشوء الغابة في نفق قافلة الأقوال التي تعكس الحكايات المروية عبر التقاليد الشعبية. وقد وجد بعض الكتّاب الأجانب والوطنيين في هذا النفق ما أغراهم باعتماده مصدراً لما كتبوه عن هذه الغابة الفريدة من نوعها في بلدان العالم.

ـ السائح موندريل (Henry Maundrell M.A)(2) نسبها إلى الأمير فخر الدين المعني الثاني. فهذا السائح الإنكليزي جاء إلى القدس عن طريق حلب سنة ١٦٩٦ لحضور عيد الفصح، وقد وصف هذه البلاد، وعندما تكلم عن مشاهداته في بيروت قال: «وخرجنا من بيروت في التاسع عشر من شهر مارس، ودخلنا سهلاً فسيحاً يمتد من البحر إلى الجبل، في أوله غابة الصنوبر التي زرعها الأمير فخر الدين (يعني فخر الدين الثاني المعني الذي أعدمه العثمانيون سنة ١٦٣٤م لتعاونه مع الأجانب) ويظهر أن كلام موندريل أصاب بكاتب المقتطف الذي ترجم المقالة مكمن عاطفته اللبنانية نحو الأمير فخر الدين فعلق عليه بحاشية طويلة، يؤيده فيما ذهب إليه قائلاً(3):

«إن ذكر هذا السائح لصنوبر بيروت ونسبته إياه إلى الأمير فخر الدين وذلك سنة ١٦٩٦ بعد قتل الأمير فخر الدين بنحو ستين سنة فقط، دليل قاطع على أن الأمير فخر الدين هو الذي زرعه. ولكن ذلك لا ينفي أن يكون قد زرعه في مكان غابة أخرى كانت هناك، كما فعل إبراهيم باشا المصري حينما فتح سورية. والأشجار الكبيرة التي كنا نراها في هذه الحرجة سنة ١٨٦٠ وما بعدها عمرها نحو مائتي سنة. وقلعت الزوبعة صنوبرة كبيرة في المصيطبة، قرب الحرش، سنة ١٨٦٠ قطر جذعها نحو ثمانين سنتيمتراً، وقد نسينا الآن كم كان عدد طبقاتها، ولكن سمك الطبقة عادة سنتمتران فيكون عمرها مائتي سنة» ا. هـ.

ثم إن مجلة المقتطف عادت فتناولت موضوع غابة بيروت في أحد أعدادها اللاحقة، إذ نشرت للمهندس أدمون بشاره مقالة عنوانها «الصناعات في سورية ولبنان» جاء فيها قوله(4): «اتفق المؤرخون على أن سورية كانت فيما مضى مليئة بالغابات وكانت جبالها مكسوة بالأحراش المختلفة الجيدة الصنف... وما زال باقياً بعض غابات حديثة العهد في الأراضي المتوسطة الارتفاع، وينمو فيها على العموم شجر السنوبر ويبلغ عمرها نحو ٦٠ عاماً، ويُعزى غرسها إلى رستم باشا، متصرف لبنان(5)، وأما غابة الصنوبر في بيروت، فهي أقدم عهداً، يرجع تاريخ غرسها أولاً، إلى القرن الرابع عشر (الميلادي)».

وفي شهر أيار ١٨٨٤ زار بيروت عبد الرحمن بك سامي، من المصريين الأعيان، وعندما رجع إلى بلاده ألف كتاباً تحدث فيه عن مشاهداته بهذه المدينة وفي جملتها غابة الصنوبر التي نسبها إلى إبراهيم باشا. قال هذا الكاتب(6): «ولما استرحنا وتحسنت

---

(1) المصدر السابق ص ١٥٠.

(2) مجلة المقتطف، عدد أغسطس ١٩١٠، ص ٧٥٠ تحت عنوان «سوريا في أواخر القرن السابع عشر».

(3) المصدر السابق، الحاشية في نفس الصفحة أيضاً.

(4) مجلة المقتطف، عدد يونية ١٩٢٢، ص ٤٦، تحت عنوان «الصناعات في سورية ولبنان» بقلم أدمون بشارة المهندس.

(5) رستم باشا: قال إلياس الحويك في مفكراته المخطوطة إنه إيطالي الأصل وهو نجل الكونت ماريني، تولى منصب متصرف لبنان سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٨٨٣ م، وهو ثالث المتصرفين في لبنان بعد بروتوكول ١٨٦٤. وكان محباً للعمران وإنشاء الحدائق العامة. ومن آثاره: جنينة رستم باشا، التي كانت في جنوب شرقي بيروت. أدركناها في أيام الصِّبا وتنزهنا فيها، وكانت غيضة فيحاء. هذه الجنينة درست والجسر الذي بجانبها جرفه السيل وأقيم بدلاً منه ما يعرف اليوم بالجسر الواطي (أي المنخفض) وإلى هذا الجسر الذي عرف قديماً باسم «جسر الباشا» تنسب المحلة المعروفة اليوم باسم «محلة جسر الباشا».

(6) سِفْرا السلام في بلاد الشام، (أو) القول الحق في بيروت ودمشق، أدرج أولاً بمجلة اللطائف (المصرية) ثم طبع في رسالة لوحدها، بمطبعة المقتطف سنة ١٨٩٢ م.

صحتي بحمد الله تعالى. ركبت العربة مع حضرة محيي الدين بك حمادة ونجله الأديب وسرنا إلى المنتزه المشهور بالحرش، وهو يبعد عن بيروت نصف ساعة، وهناك الحدود بين ولاية بيروت وجبل لبنان. وهذا الغاب كبير مزروع بأشجار الصنوبر من أيام المغفور له إبراهيم جد سمو أفندينا المعظم، فإنه رحمه الله، لما دخل سورية كان من جملة إصلاحاته فيها زرع هذه الأشجار التي انتفعت بيروت وسواها بواسطتها، إذ كثُرت الوقود للأفران وتَنَقّى هواء المدينة وما جاورها من القرى، وامتنع تقدم الرمال التي تنسفها الرياح عن بيروت وغيرها. والأشجار مغروسة بإحكام وانتظام، وهي تستعمل لأشياء كثيرة، والذي يرى انتظامها لا يسعه إلا المدح للذي سعى في زرعها».

وممن قال مثل هذا الكلام سليمان بن خليل بن بطرس جاويش اللبناني نزيل بيروت صاحب كتاب «التحفة السنيَّة في تاريخ القسطنطينية» قال هذا الكاتب وهو يتحدث عن بيروت في أيام إبراهيم باشا(١): «وسنة ١٨٣١ تسلمها إبراهيم باشا، نجل محمد علي باشا عزيز مصر الذي رصف أسواقها وزرع حرش الصنوبر الذي هو الآن قِبْليها، وكان باقياً فيه بعض شجرات، زعم بعضهم أنها من أيام الصليبيين وغيرهم، من أيام الأمير فخر الدين المعني».

وبمناسبة وفاة الداماد أحمد نامي بك، أحد حكام سورية أيام الانتداب الفرنسي، كتب سليم حباقي في جريدة الحياة البيروتية دراسة عن الأصل الشركسي للعائلة التي ينتمي إليها الداماد المذكور وفي هذه الدراسة تحدث الكاتب عن محمود نامي جد الداماد أحمد نامي وقال: إن محمود المذكور هو الذي زرع صنوبر بيروت. وفيما يلي ما قاله الكاتب بهذا الصدد في الجريدة المذكورة بتاريخ ١٩٦٣/١/٢٩ :«عندما تولى محمود نامي، جد الداماد ـ أحمد نامي بك ـ حاكم بيروت العسكري وضع كتاباً بالتركية عن أصول الدراسة البحرية، مقارناً بينها في الشرق وبين تطبيقها في الغرب في ضوء ما اكتسبه من دراسته في المعاهد الفرنسية. ودُعي في هذه الأثناء إلى اسطمبول حيث مثل في حضرة السلطان أكثر حكام الولايات العثمانية، فكان كلٌ منهم ينقل إلى العاهل العثماني دراسته وانطباعاته واقتراحاته. فلما وصل الدور إلى محمود نامي وتكلم عن حالة بيروت استغرب السلطان صغرها وضيقها وما يسمعه عنها فأذن له في تحقيق بعض المشاريع فيها وأعطاه «الأمان» وعاد إلى بيروت للعمل، فحقق في جملة ما حققه مشاريع ضخمة غذاها بالجهد والإدارة ونفذها بالسهر والتصميم مستعيناً بفئة من المهندسين وبعض أفواج عسكرية كانت تحت إمرته. وهذه المشاريع هي:

ـ تلزيم تعميم المياه لبيروت.

ـ توسيع طرقها حتى تتسع لمرور عربات الخيل.

ـ تحجير أراضي طرقها، وخصُوصاً ما بين ساحة البرج وباب إدريس.

ـ نصب أعمدة الإنارة، وكان بعضها يومئذٍ بالكاز والبعض الآخر بالشموع ضمن القناديل.

ـ وأخيراً تطويق جوانب المدينة ببذر الصنوبر حيث نمت اليوم وأصبحت حرج بيروت الكبير.

وكان الغرض منها في ذلك الوقت منع البناء في جوانب المرفأ لأن محمود نامي كان قد شرع منذ ذلك الحين بدرس توسيعه وسمح بامتداد البناء في الجهة الغربية الجنوبية، غير أن الزوابع الرملية في أشهر الخريف والربيع كانت تحول دون السكنى في تلك الجهات، فخطرت لمحمود بك فكرة غرس الرمول بالنخيل، كما هو الحال في القاهرة أو بغداد، ولكن صعوبة الحصول على شتول كافية من النخيل جعلته يستعيض عنها ببذور الصنوبر، وقد استخدم لهذا الغرض مهندساً زراعيًّا ألمانيًّا أشرف على العمل، وزرع البقعة المعروفة اليوم بـ «حرج بيروت» ا. هـ.

نقول، الذي نعرفه، أن محمود نامي كان حاكماً على بيروت من قبل إبراهيم باشا المصري ولم تكن له أية علاقة بالسلطان العثماني في اسطمبول لقيام حالة الحرب بين سيده إبراهيم باشا وبين السلطان المذكور، هذا بالإضافة إلى أن موضوع حرج بيروت لم يرد في جملة الأعمال التي قام بها محمود نامي في بيروت، وهي الأعمال التي أحصاها الدكتور أسد رستم في مقاله المنشور بمجلة «الكلية» المجلد ١٣، الجزء الثاني سنة ١٩٢٧، وعلى هذا تكون نسبة غرس الحرج إلى محمود نامي من جملة الأقاويل الشعبية التي لا يعتد بها من الناحية التاريخية والعلمية.

وقال الأب هنري لامنس في مجلة المشرق تحت عنوان «الحياة في بيروت قبل الإسلام» نسبها ـ أي ـ الغابة ـ بعضهم إلى الفرنسيين الذين قدموا لبنان سنة ١٨٦٠م، بيد أن لامنس علق على هذا الزعم بقوله: «وهذا زعم سخيف»(٢).

(١) التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، تأليف سليمان بن خليل بن بطرس جاويش اللبناني، نزيل بيروت ص ٨٠.

(٢) مجلة المشرق (اليسوعية) المجلد ٣١ سنة ١٩٣٣ ص ٦٦٢. تحت عنوان «الحياة في بيروت قبل الإسلام»، بقلم الأب هنري لامنس.

بيروت وغابتها الصنوبرية توأمان

لقد بدأنا هذا الموضوع مؤكدين أن بين كلمة بيروت بمعنى شجرة الصنوبر وبين اسم العاصمة اللبنانية علاقة تاريخية، بدأت مع تأسيس هذه المدينة في الزمن السحيق وهذا ما ذهب إليه قبلنا العلماء المحققون وأكدوه، نذكر منهم الفيكونت فيليب دي طرازي الذي قال تحت عنوان أبرشية بيروت: «أُحصيت بيروت في عداد أشهر المدن الفينيقية اللبنانية أسسها الفينيقيون وسموها «بروتا» من السريانية ومعناها الصنوبرة، تكريماً لعشتروت معبودتهم. ونظراً إلى غابات الصنوبر المتوفرة في أطرافها منذ أقدم العصور».

الغابة كانت وقفاً محبوساً على «عشتروت»

لقد جاء في بعض النصوص التاريخية أن غابة الصنوبر كانت في العصور الخالية وقفاً على الآلهة الأسطورية عشتروت ولهذا، فإنه قد حرّم على الناس آنذاك أن ينالوا من هذه الغابة بفؤوسهم لأي غرض من أغراض الحياة الدنيا، كما هي الحال بالنسبة لحرمة الأوقاف الدينية في أيامنا.

ولقد أصبحت الغابة نفسها معبودة عند الناس، لأن الأشجار كانت قديماً محل عبادة وتقديس لدى البشر، ولا تزال رواسب هذه الظاهرة الدينية ملحوظة في بعض تقاليدنا الشعبية الموروثة إذ أن كثيراً من الأولياء والقديسين، من النصارى والمسلمين، قد دفنوا في ظل الأشجار التي ترتبط في أذهان الناس مع قيم ومعانٍ أو رموز روحية خاصة.

ومن هنا يمكننا القول بأنه مع الزمن انسحبت القداسة التي كان قدماء البيروتيين يحيطون بها عشتروت إلى غابة الصنوبر نفسها إلى أن انتهى بهم الأمر إلى عبادتها أيضاً، أي أن هذه الغابة قد تحولت من مجرد وقف محبوس على عبادة عشتروت إلى ظاهرة طبيعية يخصها الناس بالعبادة مع كل ما تقتضيه هذه العبادة من مناسك الاحترام والصيانة وعدم السماح لأي كان بأن ينتهك حرمة شجرها المقدس بأي شكل من الأشكال، ولعل هذه الحرمة القدسية التي كانت لغابة بيروت في الماضي السحيق هي التي حفظت لبيروت غابتها الدهرية إلى عصرنا الحالي.

الغابة على ألسنة الشعراء قديماً وحديثاً

إن غابة الصنوبر في بيروت كانت مصدر إلهام لكثير من الشعراء الذين زاروا بيروت، سواء في الأزمنة القديمة أو في العصر الحديث. فلقد ورد ذكرها في شعر «ننوز» أحد شعراء الإغريق الذي ذاع ذكره في القرن الرابع للميلاد. فهذا الشاعر أتى على ذكر هذه الغابة في كثير من قصائده التي يروي فيها أساطير «باخوس» رب الخمرة، وهي القصائد التي عرفت باسم «الديونيسية» نسبة إلى «ديونيس» وهو «باخوس» باللغة الإغريقية.

هذا في الأزمنة القديمة، أما في العصر الحديث فإن غابة الصنوبر في بيروت كانت من أبرز المعالم البيروتية التي بقيت ذكراها عالقة في خاطر الشاعر لامرتين الذي زار بيروت سنة ١٨٣٢ عندما كانت هذه المدينة تحت الحكم المصري.

قال لامرتين متغنياً بغابة بيروت ومفتوناً بمنظرها الجميل الذي قال فيه إنه يبهر البصر ويخلب اللب(١): «.. ورأيت في هذه الغابة منظراً يبهر البصر ويخلب اللب، فإن جذع شجرها يبلغ بين ستين وثمانين قدماً وهي ترتفع في الجو منتصبة فتمد أغصانها الباسقة وتظلل بظلها الوارف ذلك السهل الواسع، ومن بين هذه الجذوع تبدو فسحة الرمل الناعم الذي تمرّ وسطه السابلة، وتتبارى خيل الرهان. وهناك تربة نديّة تكسوها خضرة تزيّنها، وإذا ما استشفّ الناظر وراء هذه العُمُد والسواري الطبيعية، رأى عن بُعْد آكاماً من الرمال الحمراء والبيضاء التي تحول دون رؤية البحر.. فلعمر الحق، إن هذه الغابة لهي أجمل وأبدع ما وقعت عيني عليه في حياتي!...».

الغابة مسرح للحيوانات وميدان قتال

وغابة بيروت لم تكن دائماً وقفاً على الآلهة المعبودة أو هيكلاً مقدساً لا تمسه نزوات البشر أو أطماعهم بسوء من قريب أو بعيد، كما أن هذه الغابة لم تكن على مدى العصور حرماً آمناً بعيدة عن متناول الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية بل إنها عانت من أطماع الناس وهجمات ذوات المخلب والناب الشيء الكثير. وبين أشجارها وتحت ظلال هذه الأشجار تركت الأيام بصمات الأحداث التي كانت جزءاً من تاريخ بيروت، وأحياناً من تاريخ الشرق العربي كله.

فلقد جاء في مجلة المشرق أنه كان يعيش في هذه الغابة كثير من الحيوانات المتنوعة كالدببة والخنازير البرية، والضباع والهررة المتوحشة والذئاب الكاسرة، وربما كان فيها أيضاً حمار الوحش وحتى الأسد إن صدقنا صالح بين يحيى، صاحب كتاب تاريخ بيروت.

ومثلما كانت غابة بيروت مسرحاً للضواري من الوحوش فإنها كانت كذلك ميداناً للمعارك الدامية التي نشبت، كما تقول الأساطير بين باخوس وبتون وغيرهما من الذين كانوا يتنازعون بين أشجارها المتشابكة للحصول على «برُوه» اللطيفة بنت

(١) مجلة المشرق المجلد ٣١ ص ٩٢٢.

الماء، التي كانت يومها تحمل اسم «بيريت».

أما في العصور الحديثة، فإن غابة الصنوبر في بيروت كانت تجعل من ظلالها الوارفة ستاراً تجري من ورائه المقابلات التي كانت تتم بين أهل جبل لبنان وبين ضباط الجيوش المتحالفة التي وقفت إلى جانب الدولة العثمانية لإخراج إبراهيم باشا من البلاد سنة ١٨٤٠ م. قال صاحب كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان(١): «.. وكانت الإفرنج تخبرهم باتفاق الدول الأربع، النمساوية والإنكليزية والمسكوبية، والبروسياوية مع الدولة العثمانية على استخلاص سورية الثانية من يد عزيز مصر، وكانوا يأتون إليهم إلى الحرش ويحرشونهم على الدولة المصرية (١) ويشدّدون ويحقّقون لهم قدوم مراكب حربية لإسعافهم، ويقدمون لهم قليلاً من البارود والرصاص... الخ».

وفي حرش بيروت كان ريجارد وود الإنكليزي يجتمع بوجوه اللبنانيين ويشير عليهم أن يكتبوا للدولة العثمانية وإلى سفراء الدولة النمساوية والإنكليزية والفرنساوية ملتمسين إنقاذهم من ولاية الدولة المصرية «.. فكتبوا وسلموه الكتب فأرسلها إلى اسلامبول».

أشجار الغابة تتحول إلى مراكب

لقد واجهت غابة الصنوبر في بيروت المتاعب التي واجهتها بيروت نفسها وذلك خلال الحروب التي دارت في هذه المنطقة. وكان المتقاتلون على امتلاك المدينة يجدون في أشجار هذه الغابة مصدراً سهلاً للأخشاب اللازمة لهم من أجل صنع المراكب الحربية أو من أجل صنع المعدات العسكرية التي كانت المنجنيقات من أهمها في ذلك الزمان.

يقول الأب لويس شيخو اليسوعي(٢): «جاء بلدوين سنة ١١٠٩ ميلادية مع الكونت برتراند دي صانجيل ونزل على ثغرها (أي ثغر بيروت) براً وبحراً، فعملوا برجاً من خشبها (أي خشب الغابة) ونصبوه على برج المدينة».

وفي هذا المعنى يقول الدكتور فيليب حتي(٣) «.. وفي عام ١١١٠ حوصرت مدينة بيروت أحد عشر أسبوعاً، كان آخرها الثالث عشر من أيار لما انقضّ عليها الجنود المحاصرون وقد وجد الصليبيون في غابة الصنوبر التي كانت تحيط بالمدينة من جهة الجنوب والتي لا تزال قائمة إلى عهدنا هذا، مصدراً للأخشاب التي بنوا بها أبراجاً تشرف على المدينة لرمي الأسوار ودكّها».

وفي أيام المماليك تكررت مأساة غابة الصنوبر ذلك أن القوات المملوكية عندما أرادت طرد الصليبيين من قبرس استغلت أشجار هذه الغابة لصنع ما تحتاج إليه حملتها القبرسية من المراكب الحربية.

وهذا ما أشار إليه صالح بن يحيى أثناء كلامه عن هجوم الصليبيين على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) وإخراجهم منها، حيث قال(٤): «.. ولما أخذت الإسكندرية. وكان الأمير الكبير يلبغا العمري المتكلم عن السلطان لحداثة سنه. فرسم الأمير بيدمر الخوارزمي بالتوجّه إلى بيروت ليعمّر من حرشها مراكب كثيرة، حمّالات وشواني للدخول إلى قبرس. فحضر إلى بيروت أحضر صنّاع كثيرة (صناعاً كثيرين) من سائر الممالك، فكانوا جماً غفيراً، وقيل إنه لم يُعهد قط عمارة مثلها عظماً وسرعة وكثرة صناع وقوة عزم، وعمر بيدمر بظاهر بيروت مسطبة(٥) عرفت به إلى الآن».

مأساة الغابة واحدة

وكما فعل الصليبيون ومن بعدهم المماليك، فإن بعض الولاة الأتراك الذين حكموا ولاية بيروت في أواخر العهد العثماني، وجدوا في غابة الصنوبر أحد المصادر التي تمدهم بالمال وتزيد في ثرواتهم الشخصية وكان من هؤلاء نصوحي بك أفندي والي بيروت سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م) الذي كان يغضّ الطرف عن اللصوص الذين كانوا يقطعون أشجار هذه الغابة لقاء عمولة، أو بالأصح رشوة يدفعونها له. وقد ذُكر أن هذا الوالي تناول من بعض الأشخاص ٩٠٠ ليرة ثمناً لعشرين ألف شجرة صنوبر قطعت من الغابة.

***

وإذا كانت غابة بيروت أمدت المتحاربين الصليبيين

(١) كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان، تأليف طنوس بن يوسف الشدياق الحدثي الماروني - وقف عليه وناظر طبعة المعلم بطرس البستاني طبع في بيروت سنة ١٨٥٩ مسيحية ج٢، ص٤٦٠.

(٢) كتاب «بيروت: تاريخها وآثارها» تأليف الأب لويس شيخو اليسوعي، ص ٥١.

(٣) لبنان في التاريخ، منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، تأليف الدكتور فيليب حتي، الترجمة العربية ص ٣٤٩ - ٣٥١.

(٤) كتاب «تاريخ بيروت، وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب» لصالح ابن يحيى، سعى بنشره وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي، الطبعة الثانية، ط. ١ المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٢٧ ص٣٤.

(٥) هذه المسطبة التي عمرها بيدمر الخوارزمي ربما كانت هي نفس محلة «المصيطبة» المعروفة في بيروت في أيامنا.

والمماليك بالأخشاب اللازمة لصنع المعدات العسكرية من المنجنيقات والمراكب البحرية فإن هذه الغابة قد أمدت الجيوش العثمانية في الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) ومن بعدها الجيوش الحليفة في الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥م) بالأخشاب اللازمة لمراجل القطارات الحديدية والسفن الحربية.

ففي أثناء الحرب الأولى احتاجت السلطات العسكرية العثمانية للوقود من أجل تسيير قاطراتها الحديدية، ولما كانت المحروقات النفطية في ذلك الحين عزيزة المنال لندرتها أو لوقوعها تحت حوزة الحلفاء، فإن السلطات المذكورة لجأت آنذاك إلى غابة بيروت وكذلك إلى الأشجار الأخرى ومنها الزيتون من أجل تغطية حاجاتها الضرورية لاستعمال وسائل المواصلات في الأغراض العسكرية حيث تدعو الحاجة إلى هذا الاستعمال دون الأخذ بعين الاعتبار مصلحة البلاد في الحفاظ على ثروتها الحرجية أو مزروعاتها الصناعية.

وبالرغم من قيام أحبّاء الشجرة وأصدقائها بتأليف الجمعيات الأهلية للدفاع عن كل أشجار لبنان في كل غاباته ومناطقه، فإن الحرب العالمية الثانية حالت بين الشجرة وبين محبيها، وتركت للفؤوس والمناشر الطرق ممهّدة إلى قلب الغابات اللبنانية، وفي مقدمتها غابة الصنوبر في بيروت... ووجد المحاربون من فرنساويين وإنكليز.. واللبنانيون أن للحرب ضروراتها، وأن الضرورات تقتضي بعد أن توقف استيراد المحروقات، هذه الاستعانة بالحطب اللبناني، كما وجد الفرنساويون والإنكليز أنهم بحاجة إلى خشب صالح لصناعة النجارة وأنه من الضروري أن يكون منه في لبنان.. ونشط اللبنانيون في هذا المضمار، وراحوا يفتشون عن الأشجار التي تعطي خشباً وحطباً، فلم يجدوا سوى الصنوبر في بيروت، والمتنين الأعلى والأدنى وكسروان والشوح في القموعة. وأقيمت المناشر في مختلف المحافظات والأقضية ومنها منشرة عبد النور في المديرج، ومناشر أخرى في كسروان، ومناشر الشركة الكبيرة في طرابلس، وكانت معدات الجيوش المحتلة تساعد أصحاب هذه المناشر بفتح الطرقات أمامهم وتمهيدها لهم.

ويقول ملحق جريدة النهار البيروتية(١): «واضطرت الحكومة اللبنانية، ذلك الحين، إلى منح رخص قانونية للقطع، وبدأ القطع والبلع.. وأخذت الأشجار الضخمة العتيقة تهوي تحت أسنان المناشر الحديثة لتصبح حطباً ينحرق وخشباً يُفنى!.

وللمرة الأولى، بدأ السطو الحديث على الأحراج اللبنانية فالذي نال رخصة بقطع ٥ آلاف شجرة، قطع ما لا يقل عن ١٠٠ ألف، كيف لا وكان سعر المتر المكعّب من الخشب الشوح الصالح للنجارة العربية والفرنجية لا يقل عن ١٥٠٠ ليرة وسعر طنّ الحطب الذي يباع للإنكليز ٦٠ ليرة لبنانية. أما ما قبضته الحكومة ثمناً لخراب أحراج لبنان الميرية في القموعة. فلم يتعدَّ حسب معلوماتنا ٢٥ ألف ليرة لبنانية، وأن ما دخل جيوب المستثمرين زاد على ١٠ ملايين ليرة» انتهى كلام النهار.

وهكذا، فإن غابة بيروت، لقيت في العصور الماضية من الحروب أوزارها وأوضارها، وهذا ما تكرر في العصور الحديثة أيضاً. على أن مصائب الحروب الحديثة لم تقف عند هذه الغابة وحسب بل تجاوزتها هذه المصائب وطالت معها أكثر غابات لبنان حتى تلك التي بقيت آماداً طويلة في مأمن من الفؤوس والمناشر لوقوعها في الجبال العالية والمناطق البعيدة والمرتفعة.

الغابة في كتب الجغرافيين والمؤرخين والرحالين

كلما ورد اسم بيروت تحت شباة قلم لأحد الجغرافيين أو المؤرخين أو الرحالين، ورد إلى جانبه، وفي نفس الوقت اسم الغابة الصنوبرية التي تعايشت مع هذه المدينة عبر عشرات القرون منذ الأيام الأولى للفينيقيين حتى اليوم. وإن أي كاتب يتحدث عن مدينة بيروت عروسة البحر الأبيض المتوسط يرى أن حديثه هذا لا يكتمل إلا إذا رافقه الكلام عن غابتها الصنوبرية التي تحيط بصدرها الجنوبي إحاطة القلادة الثمينة بجيد الحسناء الرائعة الجمال.

ولا غرو، فلقد رأينا كيف أن بيروت وغابتها، بدأتا معاً وجنباً إلى جنب رحلة الوجود والاستمرار على درب الخلود.

ففي المصادر القديمة، كما ذكرنا من قبل، كانت غابة الصنوبر في بيروت عنواناً لقصائد الشعراء الذين فتنتهم خضرة بساطها السندسي الذي امتد ما بين فقش موج المتوسط الهدار وبين سفح لبنان المكلل بالغار الذي اطمأنت قممه الشامخة تحت الثلوج الناصعة التي استعصت على حر الصيف أن يذيبها وعلى ميازيب الشتاء أن تزيلها.

ومن تحت عناوين القصائد إلى ثنايا المصنفات وصفحات المذكرات والخاطرات وغيرها من كتب الجغرافيين والمؤرخين وهواة الأسفار والتجوال والرحلات، برز اسم غابة بيروت مع اسم بيروت نفسها، ويستوي في ذلك العرب والأجانب فجميع الذين عرفوا بيروت من هؤلاء وأولئك كان لغابتها من أقلامهم نصيب.

(١) النهار - الملحق - تشرين الثاني ١٩٦٤.

فمن العرب نجد الإدريسي، كبير الجغرافيين في العصور الوسطى، عندما صنف كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يأتي على ذكر هذه الغابة أثناء كلامه عن بيروت، بقوله[1]: «.. ولها - أي بيروت - غيضة من أشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلاً في التكسير (أي مربع) تتصل إلى تحت لبنان».

وبعد الإدريسي، الجغرافي، فإن الرحالة المغربي ابن بطوطة ذكر هذه الغابة أيضاً، في رحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حيث قال[2]: «.. وفي ظاهر بيروت غيضة عظيمة».

وإلى جانب الإدريسي وابن بطوطة، فإن صالح بن يحيى قد أشار إلى غابة بيروت، كما رأينا، في كتابه تاريخ بيروت، عندما تحدث عن استخدامها من قبل بيدمر الخوارزمي في بناء الأسطول الذي أعده لمحاربة الصليبيين في قبرس، وكانت المصيطبة الترسانة (دار الصناعة) التي تم فيها بناء هذا الأسطول المملوكي آنذاك.

وكما تحدث المسلمون عن هذه الغابة في أثناء كلامهم عن مدينة بيروت وما كان فيها أو بجوارها من معالم الطبيعة أو ملامح العمران، فإن الكتّاب الأجانب قد تحدثوا عنها أيضاً وخصّوها بالإنطباعات التي تركتها في نفوسهم، وبعضهم لم يترك المناسبة دون أن يدلي بمعلوماته عن نشأة هذه الغابة والجهة التي قامت بغرسها حيث هي اليوم والغرض المتوخّى من هذا الغرس.

ومن هؤلاء الكتّاب رجل إنكليزي اسمه هنري موندرل (Henry Maundrell) جاء إلى القدس من مدينة حلب في أوائل سنة ١٦٩٦م ليحضر عيد الفصح. وقد ترك لنا هذا الكاتب الإنكليزي مذكراته عن رحلته المشرقية، وفيها بعض مشاهداته أثناء مروره ببيروت، وهو يقول في هذه المذكرات[3]:

«.. خرجنا من بيروت في التاسع عشر من شهر مارس (آذار) ودخلنا سهلاً فسيحاً يمتد من البحر إلى الجبل في أوله غابة الصنوبر التي زرعها الأمير فخر الدين..».

وبعده بحوالى نصف قرن (أي حوالى سنة ١٧٣٧ م) جاء إلى بيروت إنكليزي آخر يدعى ريتشرد بوكوك (Pococke). ولما رجع إلى بلاده وكتب مذكراته عن رحلته تحدث عن غابتنا الفينانه مؤكداً غلط المزاعم التي تنسب غرسها إلى الأمير فخر الدين بدليل أنها كانت مفيدة للنصارى الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة بيروت. يقول هذا الرحالة الإنكليزي[4]: «.. مررنا وسط غاب جميل من الصنوبر الطويل الذي يقال إن فخر الدين غرسه مع أنه غلط، لأنه كما قيل إن هذا الغاب كان مفيداً للنصارى في حصار بيروت أثناء الحروب الصليبية».

ثم بعد بوكوك بنصف قرن أيضاً، أي في سنة ١٧٨٤ م وصل إلى بلادنا واحد من أبناء الأعيان الفرنساويين اسمه فرانسوا دي فولناي (François de Volney) وكان هدفه القيام بدراسة عامة لهذه البلاد وسكانها، وعندما وصف مناخ مدينة بيروت قال: «.. وبيروت حرّها شديد، وماؤها ساخن، لكن هواءها طيّب، ومما يزيد طيبته ويجعله جيداً ونقيًّا شجر الصنوبر الكثير الذي نصبه الأمير فخر الدين على مسافة فرسخ منها»[5].

وحوالى سنة ١٨٢٥ م قام أحد أبناء النبلاء الفرنسيين واسمه جيرار دي نرڤال (Gérard de Nerval) بزيارة مصر بهدف التعرف على أخلاق أهلها وعاداتهم في زمانه، وقد رجع إلى وطنه فرنسا بطريق البحر بعد أن نزل في ساحل لبنان فترة من الزمن أُتيح له في خلالها التفرج على بلادنا ولا سيما مدينة بيروت بالذات. وعندما كتب مذكراته عن هذه السياحة خصّ بيروت بفصل تحدث فيه عن مشاهداته فيها، ومن جملة هذه المشاهدات غابة الصنوبر التي كرر فيها ما ذكره بعض الرحالين الأجانب من أنها غرست في أيام فخر الدين المعني وبعنايته.

يقول دي نرڤال[6]: «... خارج سور المدينة ميدان واسع

(١) هذا الكتاب صنفه المؤلف المولود في سبتة (بالمغرب) سنة ٤٩٣ والمتوفى بها سنة ٥١٠ هـ (١١٠٠ - ١١٦٦ م) وقدمه لروجار الثاني ملك صقلية، حتى إن الكتاب نسب إلى هذا الملك واشتهر باسم كتاب روجار أو الكتاب الروجاري وفيه قطعة تشتمل على ذكر بلاد فلسطين ولبنان وسورية.

(٢) اشتهر هذا الكتاب باسم رحلة ابن بطوطة ومؤلفه هو شرف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن يوسف اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة ولد بطنجة سنة ٧٠٣ وتوفى سنة ٧٧٧ هـ (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م). ولرحلته أهمية فائقة في التعرف على العالم الإسلامي خلال القرن الرابع عشر الميلادي. ويعتبره كراتشكوفسكي المستشرق الروسي آخر جغرافي عالمي من الناحية العملية.

(٣) مجلة المقتطف عدد أغسطس ١٩١٠ ص ٧٥٠ من مقال عنوانه «سورية في أواخر القرن السابع عشر».

(٤) كتاب «تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، تأليف عيسى أسكندر المعلوف وقف على نشره رياض المعلوف، طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٦٦ ص ٢٥٨.

(٥) بيروت كما رآها الرحالون الأجانب (محاضرة ألقاها الشيخ طه الولي مؤلف الكتاب في المركز الثقافي الإسلامي ببيروت).

(٦) مجلة المقتطف عدد يناير ١٩١٧، ص ٥٣. من مقال عنوانه «مصر منذ تسعين سنة» للسائح الفرنسي دي نرڤال، ترجمه ديمتري نقولا. والسائح المذكور اختلت قواه العقلية في آخر حياته ثم وُجد مشنوقاً في شارع وسط باريس. وقد كانت له مكانة أدبية مرموقة من خلال المؤلفات الكثيرة التي تركها، بعضها روايات مسرحية وقصائد شعرية وانطباعات سياحية. وجميعها طبعت بعد وفاته بزمن وجيز.

في وسطه برج عالٍ مربّع الشكل من بناء الأمير فخر الدين الشهير، ومن جهتها الجنوبية صحراء رملية كبيرة غرس فيها هذا الأمير غابة كثيفة من شجر الصنوبر لتقي المدينة من تيّار الرمال».

مساحة الغابة بين الماضي والحاضر

جميع المصادر الجغرافية والتاريخية القديمة أشارت إلى أن غابة بيروت كانت تغطي مساحة واسعة من الأرض، وأن أشجار الصنوبر التي تتألف منها هذه الغابة كانت متصلة ما بين شاطىء البحر وبين سفح جبل لبنان. ومما يؤكد هذا القول أنه عندما توفي الإمام عبد الرحمن الأوزاعي سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) دفن خارج مدينة بيروت على شاطىء البحر في الصنوبر بأرض قرية يقال لها حنتوس.

وهذا يعني أن غابة بيروت الصنوبرية كانت في أيام الأوزاعي حيث يوجد قبره الحالي الذي دفن فيه عند وفاته، وجدير بالذكر أن بعض أشجار الصنوبر ما تزال موجودة بالقرب من مقام الإمام المذكور وفي كتابنا «عبدالرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام». صورة شمسية لبعض هذه الصنوبرات الباقية التي قلنا في كتابنا المذكور إنه في ظلالها الوارفة يقضي أبناء زماننا من البيروتيين نزهاتهم خلال عطلة الأسبوع[1]..

وعندما ألف الإدريسي كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق في أواسط القرن السادس الهجري والثاني عشر الميلادي، ذكر في هذا الكتاب، كما قلنا من قبل، أن هذه الغابة سعتها ١٢ ميلاً في التكسير (أي مربعاً) تتصل إلى تحت لبنان.

وهكذا تكون غابة بيروت، حافظت على كثافتها ومساحتها حتى أيام المؤلف المذكور بالرغم من العدوان الذي تعرضت له خلال تلك الأيام على يد الجيوش الصليبية التي استخدمت أخشابها لصناعة بعض معداتها العسكرية.

مساحة الغابة تتراجع كلما تقدم الزمن

ولكن الغابة لم تكن على وفاق مع الزمن. وكانت رفقتهما بعضهما مع بعض تسير باتجاهين متعاكسين، فكلما تقدم الزمن كانت الغابة تفتقد العديد من أشجارها وتتراجع عبر العديد من مسافات رقعتها.

وعندما قدم الرحالة الإنكليزي موندرل إلى بيروت ومر بهذه الغابة قدرها بنحو نصف ميل فقط![2].

أما في العصر الحديث، فإن بعض المصادر قالت إن مساحة الغابة تقدر بألفي دونم وطول أشجارها نحو ٦و٥ أمتار ومحيط جذعها ٤٠ - ٥٠ سنتم[3].

على أنه في سنة ١٩٦٧ بدأت تراود الجهات الرسمية فكرة تنظيم هذه الغابة وإعدادها وفق تخطيط هندسي فني يؤهلها لأن تكون متنزهاً يتمتع بجميع المواصفات العصرية اللائقة بالمستوى الحضاري والعالمي للعاصمة اللبنانية.

وفي ذلك الحين قدرت مساحة الغابة بـ ٨٠ هكتاراً (مساحة بيروت هي ١٧٤٠ هكتاراً).

أهمية الغابة بالنسبة لبيروت

إن وجود غابة الصنوبر بجوار بيروت أعطى هذه المدينة طابعاً فريداً تكاد تتميز به بين سائر الحواضر العالمية، إذ أن أشجار هذه الغابة التي تتلاحق رؤوسها الخضراء متصلة بعضها ببعض إلى مسافات طويلة قد شكلت ما يشبه القلادة السندسية الخضراء على صدر بيروت العروس المستلقية في الجناح الشرقي للبحر الأبيض المتوسط على مهاد الحضارة ورفاه العمران منذ إنشائها قبل عشرات القرون الخالية حتى اليوم.

وإن هذه الغابة لا تكتفي بأن تضفي على مدينتنا مسحة جمالية وحسب، بل إنها، فوق ذلك، تمنحها مناخاً صحياً سليماً من شوائب التلوث البيئيّ عبر الهواء الذي يمر في مصفاة أوراق الصنوبر الدقيقة «السِّيكون» قبل أن يصل إلى صدور البيروتيين، ولقد صدق أولئك الذين قالوا: إن غابة الصنوبر هي بمثابة الرئة التي تغذي بيروت بالهواء النقي.

يضاف إلى ذلك أن ارتفاع أشجار الصنوبر ما بين ماء البحر وأرض المدينة كان من العوامل الفعالة في رد غائلة كثبان الرمل عن الاندفاع من البحر إلى قلب البلد مما أدى إلى حماية الأبنية من أن تدفنها الرمال تحت كثبانها المتوالية على مر السنين..

(١) كتاب «عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام»، تأليف الشيخ طه الولي طبع دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص٣٨. قسم الرسوم والوثائق.

(٢) تاريخ الأمير فخر الدين المعني - تأليف عيسى إسكندر المعلوف ص ٢٥٧.

(٣) مجلة «المقتبس» الدمشقية، المجلد ٦، ص ٣٢، تحت عنوان «غابات سورية».

وقد تنبه الكتّاب الذين تحدثوا عن بيروت إلى الفوائد الكثيرة التي تعود عليها من غابتها، ومنهم عبد الرحمن بك سامي، الذي زار هذه المدينة في أواخر القرن الماضي ولما عاد إلى موطنه مصر كتب مذكراته عما شاهده في مدينتنا، ولما تناول موضوع غابة الصنوبر قال[1]: « . . ولما استرحنا وتحسنت صحتي بحمد اللّه ركبت العربة مع حضرة محيي الدين بك حمادة ونجله الأديب، وسرنا إلى المنتزه المشهور بالحرش، وهو يبعد عن بيروت نصف ساعة، وهناك الحدود بين ولاية بيروت وجبل لبنان، وهذا الغاب (الحرش) كبير مزروع بأشجار الصنوبر من أيام المغفور له إبراهيم باشا جد سمو أفندينا المعظّم، فإنه رحمه اللّه، لما دخل سورية، كان من جملة إصلاحاته فيها زرع هذه الأشجار التي انتفعت بيروت وسواها بواسطتها إذ كثرت الوقود للأفران، وتنقى هواء المدينة وما جاورها من القرى، وامتنع تقدّم الرمال التي تنسفها الرياح من بيروت وغيرها. . والأشجار مغروسة بإحكام وانتظام وهي تستعمل لأشياء كثيرة، والذي يرى انتظامها لا يسعه إلا المدح للذي سعى في زرعها» ا. هـ.

وغنيٌ عن الذكر أن المنافع التي نسبها هذا الكاتب المصري إلى غابة بيروت هي في الواقع تكرار لما سبقه إلى ذكره الرحالون الذين تعاقبوا على زيارة هذه المدينة قبله بمئات السنين. . وهذا ما يجعلنا نضرب صفحاً عما قاله الكاتب المذكور بصدد نسبة الغابة إلى إبراهيم باشا (المصري) وهي النسبة التي لم تثبت أمام التحقيق التاريخي كما أكّدنا ذلك من قبل.

الاهتمام بالغابة وتأهيلها

بقيت غابة بيروت متروكة على طبيعتها بعيدة عن اهتمام المسؤولين بها، ومعرضة لفؤس الطامعين بأخشاب أشجارها للأغراض العسكرية أثناء الحرب، وللوقود أثناء السلم، حتى إذا آل أمر بيروت في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن الذي تلاه إلى فخر الدين المعني الثاني، بادر هذا الحاكم إلى نقل ما رآه في بلاد أوروبا من تطور حضاري وعمراني إلى وطنه لبنان، وذلك بواسطة الكفاءات الفنية التي استقدمها من توسكانة بإيطالية فشكل بعثات متعددة الاختصاصات في مختلف الحقول والمجالات. فكانت لديه بعثات فنية هندسية منها بعثة مؤلفة من فرنسيسكو شيولي (F. Cioli) وبعض مزارعين للفلاحة وغرس الحدائق وقرر الرواتب ونفقات السفر قدوماً وإياباً بواسطة قنصلهم في بيروت دا ڤرازانو (Da Vrazzano)[2].

وإن رئيس هذه البعثة المهندس شيولي بادر إلى تجديد غابة بيروت وتنظيم أشجارها وتنسيقها. ويقول ماريني السائح الايطالي: «إن المهندس شيولي أزال من داخل حرش الصنوبر في بيروت ومن حوله الكثيف من الأشجار التي كانت تعرقل السير فيه وتعوق النظر من اختراقه، فأصبحت أشجاره صفوفاً منتظمة تراها خطوطاً مستقيمة من أي جهة أتيتها، وحوَّل الأراضي المحيطة بالحرش إلى حقول، حتى إذا تجاوزه النظر وجد أمامه الأفق نضراً متّسعاً فانشرح الصدر وسرح البصر بلا ملل بين قامات أشجاره الرشيقة المتدلية والحقول النضرة المحيطة به»[3].

وعندما قدم سانديس، السائح الأوروبي إلى بيروت سنة ١٦١٠ كتب عن مشاهداته فيها وقال[4] «إن فخر الدين رمم الخراب وشجّر الأماكن المهجورة وكلف المهندس شيولي التوسكاني تنسيق حرش بيروت، حتى إن بعضهم نسبه إليه ـ أي إلى فخر الدين ـ.

وهكذا، في أيام فخر الدين المعني الثاني، بدأت غابة الصنوبر في بيروت مسيرتها تحت مظلة عناية هذا الحاكم الذي اقترن اسمه بها من ذلك الحين حتى شاع وذاع، أنه هو الذي غرسها في حين أنه لم يفعل ذلك، وإنما كان دوره مقتصراً على تكليف المهندسين الإيطاليين بتنسيقها وتنظيمها وتأهيلها لأن تكون منتزهاً جميلًا يرتاده البيروتيون ويجدون فيه ما يدخل البهجة والسرور إلى نفوسهم بين جذوعه المتسقة وتحت ظلاله الوارفة.

الغابة بعد فخر الدين

لقد كانت الأعمال الحكومية، في الأزمنة القديمة تتأثر ازدهاراً أو انحطاطاً بالحاكم القائم. فإذا مات هذا الحاكم أو تغير أصيبت مشروعاته وأعماله بالخلل والشلل. وهذا ما حصل بالنسبة لغابة الصنوبر في بيروت، فإنها وجميع الأعمال التي كان يرعاها فخر الدين تأثرت بموت هذا الحاكم عندما قبضت عليه الدولة العثمانية سنة ١٦٣٥م وشنقته بتهمة التآمر على سلامة البلاد مع بعض الحكام الأوروبيين الذين أطمعوه بحماية كيانه الانفصالي بلبنان إذا هو ساعدهم على افتراس فلسطين من

(١) كتاب سفر السلام في بلاد الشام أو القول الحق في بيروت ودمشق، طبع بمطبعة المقتطف ١٨٩٢ م ص ١١ ـ ١٢. ومحيي الدين بك حمادة الذي كان المؤلف بصحبته هـو والد الوجيه البيروتي الحاج عبد الرزاق حمادة رحمه الله.

(٢) تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، تأليف عيسى إسكندر المعلوف ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

(٣) الأمير فخر الدين المعنى الثاني، تأليف الخوري بولس قرآلي ص ١٥٤.

(٤) المصدر الساق جـ ٢، ص ٥١.

تحت السيادة العثمانية وإعادتها من جديد إلى الحكم الصليبي.

الاهتمام من جديد بغابة بيروت

بالرغم من أن التقاليد المروية في الأوساط الصحافية ركزت على ارتباط غابة بيروت باسم القائد المصري إبراهيم باشا خلال وجوده في هذه البلاد ما بين سنتي ١٨٣١ و١٨٤٠م فإنه ليس لدينا أي مستند تاريخي يؤيد صحة هذه التقاليد وليس هناك ما يشير إلى أي عمل قام به الحكم المصري بالنسبة لهذه الغابة.

وإذا نحن تجاوزنا أيام الحكم المصري الذي انحصر في العقد الخامس من سنوات القرن الماضي، فإننا نجد هذه الغابة تدخل من جديد في نطاق الاهتمامات الحكومية والأهلية حتى إن الجهات الحكومية وبلدية بيروت تنافستا على اعتبار الغابة تابعة لأملاك إحداهما دون الأخرى ثم استقر الرأي لصالح بلدية بيروت.

وقد انعكس هذا التنافس على صفحات الجرائد الصادرة في ذلك الحين. ففي سنة ١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) طالب البيروتيون باعتبار هذه الغابة ملكاً للأهالي ـ أي تابعة للدائرة البلدية التي كان يرأسها آنذاك فخري بك صاحب الخان المنسوب إليه في بيروت ـ وقد استجاب المسؤولون في ولاية سورية، لهذا الطلب وكانت بيروت يومئذٍ متصرفية تابعة لهذه الولاية، مما كان له أطيب الأثر في نفوس الأهلين.

وفيما يلي خبر هذا الانتصار البيروتي باستعادة الغابة كما جاء في جريدة ثمرات الفنون لصاحبها الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله الذي قال بمناسبة تبرع فخري بك رئيس الدائرة البلدية بخمسين ليرة من ماله الخاص لتصرف على تسوية «سهلة البرج» وجعلها متنزهاً حسناً يفيد البلدة والدائرة معاً»[1]:

« . . وكان يجول في أفكارنا وجوب كون حرش بيروت بجميع جهاته من متعلقات (أملاك) البلدية حيث كان المنتزه الوحيد لبيروت، نظراً لحسن هوائه، وجمال موقعه، وطيب تربته، وقبوله جميع ما يمكن من التحسين، فيسرّنا الآن أن نعلن كما بلغنا، أنه ورد أمر من الولاية الجليلة بناءً على إنهاءٍ من سعادة متصرفنا الأكرم أن يكون الحرش المذكور من تعلقات البلدية وتحت نظارتها وإدارتها، فنتقدم بالشكر والثناء لسعادة متصرفنا الأكرم على هذه المأثرة الحميدة و صرنا في انتظار ما يكون من جناب رئيس البلدية وحضرات أعضائها الكرام من تسوية ذلك الموقع الجميل، وجعله من منتزهات الدنيا حسبما تؤدي إليه آراؤهم الصائبة وأفكارهم الثاقبة، ونسأله تعالى أن يوفقه إلى ما فيه الصلاح والإصلاح وأن يقرن جميع مساعي ولاة الأمور بالنجاح»[1].

تجدد النزاع على الغابة بين الولاية وبين البلدية

وفي سنة ١٩١١ م أعيد ملف غابة الصنوبر إلى بساط البحث حين تجدد النزاع حولها بين الحكومة ممثلة بالدفتردار أي (مدير المالية) وبين البلدية ممثلة بمجلس الإدارة (المجلس البلدي) ففي التاريخ المذكور قالت جريدة البرق: «حاول الدفتردار الاستيلاء على الحرج مدّعياً بأنه ملك الحكومة. فاعترض مجلس الإدارة على ذلك وقرر بأن الحرج كان ويكون متنزهاً للأهالي لأنه ملكهم».

على أن حسم النزاع على ملكية الغابة بين الحكومة والمجلس البلدي لم يتعدَّ ما سُجّل على الورق من أن هذه الغابة هي من متعلقات البلدية، إذ أن البلدية آنذاك نامت على حرير هذا القرار تاركة غابة بيروت على حالها من الإهمال يعبث فيها اللصوص والخارجون على القانون والطامعون في الحرام من كل جنس ومن كل لون.

وبقيت حال الغابة على هذا المنوال ما بين نهاية العهد العثماني إلى نهاية العهد الفرنسي، أي إلى انتقال البلاد من الانتداب إلى الاستقلال.

في الغابة كان مسلمو بيروت يعيّدون

حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي كانت بيروت لا تتجاوز السور الذي أحاطها به والي عكا أحمد باشا الجزار، وجعل له أبواباً سبعة لا تفتح للعابرين إلا ما بين مشرق الشمس ومغربها. وفي تلك الأيام كانت الساحة الغربية من بوابة يعقوب، وهي المعروفة بالأمس بساحة «عصّور» واليوم «بساحة رياض الصلح» نقول هذه الساحة كانت المكان الذي يتجمع فيه المسلمون البيروتيون لإقامة أعيادهم الدينية، إلا أنه عندما هُدم السور بأمر إبراهيم باشا (المصري) وأُلغيت الأبواب السبعة فيه امتد عمران المدينة إلى ما وراء سورها القديم وأدى ذلك إلى تعذر ممارسة أفراح الأعياد في ساحة «عصور» مما حمل الناس إلى اختيار غابة الصنوبر «الحرج» لتكون ملعباً للمبتهجين بالأعياد وبقي الأمر كذلك حتى عهد قريب.

وإن نسبة كبيرة من أهل بيروت في زماننا ما زالوا يتذكرون أيام الحداثة، حينما كانوا يلبسون أفخر الحلل الجديدة ويقصدون مع صباح يوم العيد الباكر «الحرش» ليقضـوا فيه سحابة يومهم وهم ينفقون «عيديتهم» على ممارسة الألعاب مع أندادهم من الأولاد والتسابق فيما بينهم على الحمير الفارهة التي كانوا يستأجرونها من أصحابها لقاء بعض القروش، وركوب

(١) جريدة ثمرات الفنون رمضان ١٢٩٥ هـ (آب ١٨٧٨ م) ص ٤. تحت عنوان «ساحة البرج وغابة الحرج»، ومجلة الجنان ج ١٠/١٨٧٩ م.

المراجيح والدويخات، والتحلّي بالتفاح المغموس بالسكر الأحمر، أو التفكّه بأكل المخلّل الحرِّيف، وكل ذلك بقروش قليلة.

وإن كلمتيْ «الحرش والعيد» كانتا تعنيان في أذهان أولاد ذلك الزمان شيئاً واحداً، أي أن العيد هو الحرش والعكس صحيح. وأن الولد عندما كان يقول لوالديه: أنا ذاهب إلى العيد فذلك يعني أنه ذاهب إلى الحرش.

والأولاد لم يكونوا يستقلّون بالحرش لوحدهم في أيام الأعياد بل كان الشبان أيضاً يشاركونهم في ممارسة أفراحهم المناسبة لهم في هذه الغابة أثناء العيد، من ذلك رقص الدبكة، ولعبة الحَكَم (السيف والترس) وإقامة حلبات المصارعة. والجري بالخيول المطهمة. وغير ذلك من المظاهر التي يعبرون فيها عن ابتهاجهم وسرورهم بحلول العيد.

ألعاب الفروسية في ميدان «الحرش»

أما في غير مواسم الأعياد، فكانت غابة الصنوبر تبدو مهجورة لا أثر فيها للحياة الاجتماعية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأن الناس، في غير المواسم المذكورة لم يكونوا يجرؤون على المرور عبر هذه الغابة وذلك لما يعرفونه من وجود بعض قطاع الطرق والناشزين عن الأخلاق العامة في أعماقها المظلمة التي تحول كثافة الأشجار دون دخول النور إليها. إلا أنه كان في وسط الغابة فسحة خالية من الأشجار كان شبان بيروت يقصدونها في أيام العطل وهم على ظهور الخيل ومعهم الرماح التي يتراشقون بها على سبيل المبارزة الحبية لإظهار براعتهم ومقدرتهم في إتقان ألعاب الفروسية على الطريقة العربية القديمة، والفسحة المخصَّصة لهذه الألعاب كان يطلق عليها اسم «الميدان» أو «المرمح».

ولقد أشار بعض الرحالين الذين زاروا بيروت في أواخر القرن الماضي إلى هذا الميدان وما كان يمارسه فيه الشبان البيروتيون من ألعاب الفروسية. ومن هؤلاء الرحالين، الكاتب المصري عبد الرحمن سامي بك الذي قال في كتابه «سفر السلام في رحلة الشام»: «.. وقد اعتاد بعض شبان بيروت وقواصيها المولعين بركوب الخيل ولعب الجريد أن يذهبوا في أوقات العطلة إلى ميدان الحرش ويتسابقوا على ظهور الجياد ويظهروا من ضروب الفراسة (يعني الفروسية) ما يرتاح إليه الخاطر ويأنس بمرآه الناظر، حتى لقد ذكرتنا تلك المناظر بأيام العرب وما كانوا يأتونه من الفراسة (الفروسية) فوق ظهور الصافنات!..».

نقول، إن هذه الرياضة الشعبية التي توارثها شبان بيروت من أبناء الجيل الماضي عن آبائهم وأسلافهم بقيت معروفة حتى السنوات التي تلت الحرب الكونية الأولى. وإن أبناء جيلنا ما زالوا يتذكرون «السوالف» - أي الحكايات - التي كانوا يتناقلونها عن براعة آل العرب في ألعاب الفروسية التي كانوا يقومون بها في الميدان، أو «المرمح» وهذه العائلة ما تزال موجودة وأفرادها يسكنون في المحلة المعروفة باسمهم «محلة العرب» في ضاحية بيروت الجنوبية «برج البراجنة».

الغابة في أيامنا

منذ حوالى ثلاثين سنة، أي في خلال العقد السادس من هذا القرن أصدر سامي بك الصلح رحمه الله رئيس الحكومة اللبنانية يومئذٍ قراراً بإقامة سور يعلوه درابزين من الحديد حول غابة الصنوبر لأجل صيانتها من العابثين بأرضها وحمايتها من الأشخاص الذين يستغلونها لاستخدامها في أغراضهم الخاصة، وقد نفذ هذا القرار بالفعل وأصبحت الغابة محاطة من جميع أطرافها بهذا الحاجز الحجري الحديدي، ومنذ ذلك الحين حيل بين البيروتيين وبين تجمعهم في الغابة أيام الأعياد، وبالرغم من أن هذا التدبير كان ضروريًّا لإعداد المكان وفق ما هو معدٌّ له من مستقبل تجميلي، فإن غياب مظاهر العيد منه حرم البيروتيين الساحة الوحيدة التي كانت تلبي حاجتهم إلى المباهج والأفراح والترويح عن النفس خلال مواسم أعيادهم الدينية، وبعد إلغاء العيد من الحرش، غابت عن بيروت واحدة من أبرز الملامح التي تعبر عن الوجود الإسلامي في هذه المدينة. ولا بدع فإن آلاف الناس المحتشدين في هذه الغابة أيام الأعياد، كان منظرهم يعطي بيروت طابعاً تراثيًّا يصل بين ماضيها وحاضرها من خلال التقاليد الإسلامية التي كانت تنم عنها الممارسات الشعبية في الغابة المذكورة، لا سيما وأن الأهلين لم يجدوا لهم بديلاً مما فقدوه فيها.

ولكن هذا السور بالرغم من تكاليفه الباهظة لم يحقق الغاية منه إذ أنه لم يمنع عن الغابة استشراف الناس إلى استهلاك أشجارها في أغراضهم التجارية كما أن الفتن الأهلية التي ما زالت تتعاقب على البلاد منذ سنة ١٩٥٨ حتى اليوم اضطرت الناس إلى اقتطاع بعض أقسامها لجعلها مقبرة لموتاهم بعد أن أصبحت المقابر القديمة بعيدة عن امتداد العمران الحديث والوصول إليها يكلف المجتمع شططاً لا سيما بالنسبة لازدحام الشوارع بوسائل المواصلات التي أصبحت مشكلة قائمة يحتار المسؤولون في حلها.

وهكذا أنشأ المسلمون سنة ١٩٥٨ مقبرة لهم في الغابة باسم «الشهداء» وفي بداية الأحداث الحالية أنشأ الشيعة مقبرة أخرى باسم «روضة الشهيدين».

كما أن بعض أصحاب الأعمال الصناعية والتجارية استغلوا انحسار نفوذ الدولة عن المنطقة التي تقع الغابة فيها وبنوا لأنفسهم البيوت والدكاكين على حساب أشجار الصنوبر التي تهاوت تحت فؤوسهم ومعاولهم ومصالحهم.

مشروعات لتنظيم الغابة انتهت قبل أن تبدأ

إن الغابة، في أيامنا، كما كانت في العهود السابقة، ما زالت تثير حمية الأهلين والمسؤولين للاهتمام بها والإفادة من جمالها في تجميل بيروت نفسها وإعدادها لتكون متنزهاً عصرياً في مدينة عصرية.

على أنه قبل ظهور فكرة تجميل الغابة تردد في بعض الأوساط أن النية متجهة لأن يبنى فيها مجلس نواب جديد مكان المجلس الحالي الذي لم يعد يفي بالغاية منه، ولكن هذا المشروع وئد في المهد ولم يبصر النور.

وجاء من يقول بإنشاء حديقة حيوانات في هذه الغابة، ولكن هذا القول لم يجد من يدافع عنه أو يؤيده نظراً إلى التكاليف الباهظة التي يقتضيها إنشاء حديقة للحيوانات في بلد مثل لبنان «حالته المالية على قدّه» فصرف النظر عن هذا المشروع وهو بعد في ضمير الذين قالوا به.

وفي عام ١٩٦٥ قام المهندس مالك بصبوص بجولة في بعض البلدان الأوروبية وعند عودته قدم إلى الحكومة اللبنانية مشروعاً يقضي بجعل حرج بيروت، الذي تملكه البلدية ومساحته ٣٠٠ ألف متر مربع حديقة عالمية تشترك فيها معظم الدول العربية والأجنبية.

وقد صدق المجلس البلدي على هذا المشروع في حينه وأحاله إلى مجلس المشاريع الكبرى لمدينة بيروت لدرسه ووضع تخطيط كامل له. ومن ثم تنفيذه على الطبيعة.

وفي أيلول ١٩٦٦ صدرت الصحف اللبنانية وفيها أن المجلس البلدي صدق على قرار تلزيم حرج بيروت إلى شركة المقاولات الهندسية بمبلغ مليون ونصف مليون ليرة لبنانية.. وينتظر أن تفتح أبواب «حرج الحدائق العالمية» في أوائل سنة ١٩٦٨.

وحتى يصبح حرج بيروت يستحق أن يحمل اسم «حرج الحدائق العالمية» فإن المهندسين المختصين اقترحوا أن تشترك بعض الدول العربية والأجنبية في إنشاء حدائق نموذجية خاصة بكلٍ منها في قلب الغابة وأن تحمل كل حديقة طابع الدولة التي تنشئها.. وبذلك يتحول حرج بيروت إلى مجموعة حدائق، ويؤدي ذلك إلى تجميل مدخل بيروت المحاذي للمطار، ومن ناحية ثانية فإنه سيجذب عدداً كبيراً من السياح والزوار فيدخلونه مقابل رسوم بلدية ويجدون فيه التسلية والراحة ومتعة النفس والنظر، وذلك على غرار الحدائق العالمية في مدينة هامبورغ - بألمانيا - التي قدر عدد زوارها آنذاك بنحو مليونين ونصف مليون شخص في السنة.

ونتيجة للدعوات التي وجهت إلى الدول للمساهمة في هذا المشروع بلغ عدد الدول التي استجابت له ٢٣ دولة بما فيها الدول العربية. وقد خصص «المشروع الأخضر» جناحاً لكل دولة حسب المساحة التي طلبتها. وبدا أن هذا المشروع أخذ الطابع الجدي لا سيما وأن بعض الدول المشاركة في إنشاء الحدائق بداخل الحرج قد بادرت إلى إرسال مهندس من قبلها للإشراف على حدائقها. وكانت فرنسا من أوائل الدول التي اهتمت بالفكرة، وفي تموز ١٩٦٦ م وصل إلى بيروت الخبير الفرنسي الرسمي المهندس «دوفيل موران» المنتدب لدرس موضوع تنظيم الحديقة الفرنسية وأبدى إعجابه بحرج بيروت وقال: إن جماله وحسن موقعه يؤهلانه، بعد قيام الحدائق فيه، ليكون محطة سياحية عالمية كغابة روما، وغابة بولونيا في باريس.

ومن الدول التي بادرت إلى تنفيذ ما وعدت به بشأن الحدائق المقترحة إندونيسيا التي بعثت إلى بيروت ببذور الزهور المعدة للزرع في حديقتها، وكذلك الأردن فإنه انتدب مهندساً زراعياً قام بزيارة الغابة ودرس أرضها على الطبيعة.

حرب حزيران ١٩٦٧ أوقفت العمل بالمشروع

وكان من المتوقع استمرار تنفيذ مشروع «الحدائق العالمية» في حرج بيروت لولا نشوب الحرب بين العرب وإسرائيل في حزيران ١٩٦٧. إذ أن هذه الحرب أخرت تلزيم مشروع شق الطرق داخل الحرج وتجهيزه بالماء والكهرباء وبعض الأبنية اللازمة إلى سنة ١٩٦٩. وقد تعهد المهندس ألفرد المر التنفيذ بمبلغ مليونين وثلاثمائة الف ليرة لبنانية وبسبب عدم موافقة المهندس المذكور على الخرائط التي وجدها أمامه واضطراره إلى تعديل بعضها وتغيير بعضها الآخر تأجل موعد التنفيذ مرة أخرى.

أما التصميم الجديد لتنظيم الحرج كما وضعه المهندس المر فهو كما يلي: حديقة (وطنية - محلية) مجهزة بالموسيقى، والهاتف، ومطعم، وملاعب رياضية صغيرة، ومسرح، ومدرسة لتعليم قيادة السيارات للأولاد، مع إضاءة كاملة لكل الحديقة.

كما تجهز الغابة بأربعة أحواض (برك): واحدة للأسماك، وثانية لألعاب الصغار، والثالثة والرابعة - بركتان طبيعيتان، وتؤمن مياه البرك ومياه الري للحدائق بواسطة بئر ارتوازية في داخل الغابة تضخ مياهها إلى خزان يتسع لثمانمائة متر مكعب.

وفي سنة ١٩٧٢ تبرعت بلدية بيروت بقطعة أرض بداخل الحرج لبعض اللبنانيين الذين وافقت الحكومة عى طلبهم بإنشاء برج سياحي على غرار برج إيفل بباريس وبرج موسكو بالاتحاد السوفياتي وبرج القاهرة بمصر، وكان من المقرر أن يبلغ ارتفاع هذا البرج ٤٠٠ متر ويكون في المرتبة الثانية بعد برج موسكو الذي يبلغ ارتفاعه ٤٢٠ متراً. ويطلق على هذا البرج اسم «برج سليمان فرنجية» الذي كان رئيس الجمهورية اللبنانية في ذلك الحين.

وجاءت الحروب

بقي أن نقول، بأن جميع المشروعات التي وضعت لإعداد «حرج الحدائق العالمية» في بيروت بقيت مطوية في أدراج المكاتب وحتى هذه الساعة لم تخرج هذه المشروعات إلى حيز التنفيذ لأسباب لم يعد أحد يجهلها..

ولعل هذه المشروعات قد ضاعت في جملة ما ضاع من عمران بيروت، بما في ذلك غابة الصنوبر نفسها التي خرّت أشجارها صريعة تحت وابل القذائف التي أصابتها أثناء حصار الإسرائيليين لبيروت سنة ١٩٨٢.

هذا مع العلم بأنه في سنة ١٩٦٩ قال مصدر مطلع في بلدية بيروت: « بعد اقتطاع أكثر من ٢٠ ألف متر من الحرج لمدافن الموتى، وتسلط بعض القبضايات على ما لا يقل عن ١٠ آلاف متر مربع واستثمارها كمقاهٍ.. جاء مجلس التنظيم يأخذ ٢٥ ألف متر، وبذلك لم يعد مبرر لإنشاء الحدائق التي صرف على مشروعها حتى الآن (أي سنة ١٩٦٩) ما لا يقل عن أربعة ملايين ليرة».

أما بعد

هذه هي غابة الصنوبر في بيروت، التي ظللت البيروتيين منذ أربعة آلاف عام حتى اليوم..

إن هذه الغابة كانت دائماً رمزاً لاستعلاء بيروت على صروف الدهر ونكبات الأيام وهي اليوم رمز على صمود مدينتنا العريقة بوجه أقسى الضربات الوحشية التي وجهت إليها في تاريخها القديم والحديث وذلك أثناء العدوان الإسرائيلي عليها سنة ١٩٨٢.

الفصل الحادي عشر

نكبات بيروت في ماضيها وحاضرها

تعرضت بيروت للخراب والدمار عشرات المرات في حقب متمادية وكان ذلك يحدث بفعل نوازل الطبيعة تارة وتارة أخرى بالهجمات الحربية التي كانت تشنها عليها الجيوش من كل حدب ومن كل صوب طمعاً بها أو انتقاماً منها.

وجدير بالذكر أن بيروت برهنت في صراعها مع النوازل الطبيعية وكذلك في مواجهتها للوقائع الحربية أنها أقوى من النكبات التي كانت تنزل بها واستطاعت أن تضمد جراحها وأن تنهض من تحت أنقاضها وتستأنف مسيرتها العمرانية وانطلاقتها الحضارية من جديد وذلك بهمة أبنائها الذين لم يعرف اليأس الطريق إلى نفوسهم الأبية، كذلك هو شأنهم في الماضي كما هو شأنهم في الحاضر.

وهكذا ذهبت الكوارث والنكبات وبقيت بيروت مستمرة أبداً على طريق الحضارة والمكرمات.

أقدم حصار عرفته بيروت

ليس بين أيدينا مرجع تاريخي يخولنا الجزم بتعيين أقدم حصار عانته بيروت في الأزمنة السحيقة، إلا أن بعض المعلومات التي تناقلها المؤرخون حول الأحداث الحربية التي كانت بلادنا مسرحا لها تشير إلى أن ملك بابل الكلداني نبوخذنصّر[1] لما حارب المصريين وأجلاهم عن البلاد السورية اصطدم بمقاومة شديدة من أهل مدينة صور. ولما تمكن من التغلب عليهم سنة ٥٨٦ ق. م ، اندفع بجيشه المنتصر شمالاً وصب جام غضبه على المدن الساحلية وجعلها قاعاً صفصفاً، ولم يتركها إلا وهي فريسة للدمار والخراب. وبالرغم من أن اسم مدينة بيروت بالذات لم يرد صراحة خلال تلك الأحداث إلا أن الكلام الذي تناول تلك الفترة يوحي بأن هذه المدينة أصابها آنذاك ما أصاب سائر المدن الساحلية من التدمير والتخريب على يد الجيش الكلداني بقيادة ملك بابل نبوخذنصر. ومما يؤكد هذا الاستنتاج قول صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت»[2]:

«... وقد ذكر بعض أصحاب التواريخ أن ساحل الشام خُرّب في عهد بختنصر (يقصد نبوخذنصر) وعُمّر في دولة الفرس، والدليل على ذلك أن خروج بختنصر على الشام كان في دولة مهراسف، أحد الأكاسرة بفارس، وذلك بعد وفاة موسى عليه السلام بتسعماية وتسعون (تسعين) سنة وقبل مبعث النبي ﷺ بألفين ومائتين وتسعين (كذا) سنة[3] فدخل بنو إسرائيل تحت طاعته بغير قتال. وبعد توجهه عنهم غدروا به فرجع إليهم وأبادهم وأخرب القدس، وقصد صور فوجهوا أمتعتهم في البحر فغرقت السفن وحاصر صور فأخذها وقتل حيرام[4] صاحبها وخربها وخرب بعض مدن الساحل.... وبقي بيت المقدس خراب (خراباً) إلى أن تملك أردشير بهم - أحد الأكاسرة -

(١) نبوخذنصر تولى حكم بابل سنة ٦٠٤ (ق. م) ومات سنة ٥٦١، ودام حكمه ٤٣ سنة، وكان أعظم ملوك بابل إذ لم يكن قبله ولا بعده من ضارعه في الملك وبسطة السلطة على الشرق الأدنى في زمانه. وقد سجل فتوحاته على الصخور الواقعة في جهة نهر الكلب قرب بيروت وهي الكتابات التي اكتشفت سنة ١٨٨١ م.

(٢) كتاب «تاريخ بيروت، وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب» لصالح ابن يحيى، كان حيًّا سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٥ م) وفيها حضر فتوح قبرس. سعى بنشره وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي، عن نسخة مكتبة باريس، طبعة ثانية مصححة، طبع بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٢٧ م. ص ١١، ١٢.

(٣) لعل كلمة ألفين هنا تصحيف من ناسخ الكتاب، وصحتها ألف ومائتين وتسعين سنة لأن نبوخذنصر فتح الساحل سنة ٥٨٦ (ق.م.) وبعث النبي ﷺ كان سنة ٦١٩ م.

(٤) في كتاب«النهج القويم في التاريخ القديم» تأليف هارفر بورتر، طبع بيروت سنة ١٨٨٤ م ص١٠٢، ورد الاسم بلفظ حيروم بدلاً من حيرام.

واسمه بالعبرانية كورش[1] فأمر بعمارة القدس ومدن فلسطين وغيرها من السواحل.

إذن، اعتماداً على المعلومات العامة التي رواها المؤرخون، وبالتخصيص اعتماداً على ما ذكره صالح بن يحيى يمكن القول بأن نبوخذنصر أخذ بيروت وخربها وكان ذلك في سنة ٥٨٦ ق.م. ومن كلام صالح بن يحيى الذي أورده في كتابه المذكور يتضح لنا أن الخراب الذي ألحقه نبوخذنصر، ملك بابل، ببيروت بقي مخيماً على هذه المدينة فترة من الزمن، ولم تقم من كبوتها إلا بعد أن أفلت شمس الدولة السلوقية عن بلادنا وحل محلهم الفرس. ففي أيام هؤلاء أعاد البيروتيون تعمير مدينتهم من جديد وأقالوها من العثرة التي كانت ترزح تحتها.

وعلى هذا، يكون نبوخذنصر الكلداني البابلي أول حاكم أجنبي أناخ بكلكل حصاره على مدينة بيروت ثم اجتاحها بجيوشه وأنزل بها الدمار والخراب. وكان ذلك في الهزيع الأخير من القرن السادس قبل الميلاد.

تريفون يحاصر بيروت

في بداية العقد الرابع للقرن الثاني قبل الميلاد، كانت بيروت كغيرها ممن شقيقاتها الفينيقية تحت الاحتلال السلوقي (البيزنطي). وفي سنة ١٤٣ ق. م. اضطرب حبل الأمن في المملكة السلوقية عندما حاول ريودوتس الانقلاب على سيده أنطيوخوس السادس الصغير والانفراد دونه بالسلطة تحت لقب تريفون. وبالرغم من أن هذه المحاولة نجحت في بادىء الأمر، إلا أن مؤيدي العائلة الحاكمة وحدوا صفوفهم وتمكنوا من قتل تريفون بعد ثلاث سنين من حكمه وأطلقوا عليه لقب المختلس باعتباره مغتصباً لكرسي الحكم الشرعي.

وفي أيام تريفون المختلس هذا أُحرقت بيروت بأمر منه وزيادة في النكاية فإنه أطلق جماعته يعملون في نقض بنيان المدينة من أساسه فأمست خراباً بلقعاً يخيم على أطلالها البوم وينعق في أنقاضها غراب البين.

وقد بقيت بيروت على خرابها آنذاك إلى حين زوال العهد السلوقي وقدوم الرومان إلى هذه البلاد، أي قرابة مائة سنة بالتمام والكمال، وفي خلال هذه السنوات العجاف خلت بيروت من سكانها الذين اضطروا لهجرانها والنزوح إلى الجهة الجنوبية منها حيث سكنوا بمحاذاة البحر في نفس المكان الذي يخترقه اليوم أوتوستراد خلدة وذلك بالقرب من البناء الذي كان أبناء الجيل الماضي يسمونه «خان خلدة الجديد». وقد أطلق البيروتيون المهجّرون انذاك على المنطقة التي عمروها وسكنوها اسم «اللاذقية الجديدة» [2] أو «لاذقية كنعان». وقد قامت المديرية العامة للآثار قبل بضع عشرة سنة بحفريات تنقيبية في المكان المذكور، فظهرت أطلال هذه المدينة التي أستحدثها البيروتيون المهجرون قبل حوالى ألفي سنة وبجوارها المقبرة التي كانوا يدفنون فيها موتاهم. وإني شخصيًّا رأيت الأطلال المذكورة، كما رأيت رفات المدفونين في مقبرتها وقد ظهرت العظام من تحت الرمال كما دفنت لأول مرة.

الزلازل والحرائق ترهق بيروت

ما كادت بيروت تسترد أنفاسها بعد الذي أصابها من ويلات المتصارعين على النفوذ من الأجانب على أرضها في السنوات السابقة على الميلاد حتى وجدت نفسها في السنوات اللاحقة، للميلاد تترنح تحت ضربات الزلازل التي نشبت في أديمها وجعلت عالي أرضها سافلاً وسافلها عالياً. وحولت عمرانها خراباً وبنيانها يباباً. ولم توفر مؤسساتها الحكومية ولا معاهدها العلمية التي دفعت بدورها ضريبة هذه الزلازل من منشآتها التي كانت تضم بين جنباتها أروع ما أبدعته يد الفنانين الرومان، كما كانت، في نفس الوقت، موئلاً لأساطين العلماء من الوطنيين والأجانب الذين كانوا مقصداً لطلاب المعارف الفلسفية والدراسات الفقهية والقانونية والأدبية.

كان ذلك ما بين القرن الرابع والقرن السادس بعد الميلاد. ففي سنة ٣٤٩م مادت الأرض تحت أقدام البيروتيين الذين انقلبت مدينتهم رأساً على عقب، وجعلتهم بين دفين تحت التراب وهائم على وجهه يلتمس النجاة من هول المصاب. واعتقد بعض الناس أن الأرض زلزلت بهم عقوبة لهم على عبادة الأصنام وعدم الاستجابة للديانة النصرانية التي كانت تدعوهم للتخلي عن تلك الأصنام والدخول في سلك الإيمان بالله خالق الأكوان والأقوام، فأسرعوا إلى التخلي عن الوثنية واعتنقوا النصرانية، ولكن هذا التحول العقائدي لم يدم طويلاً، إذ أنه عندما استعادت الأرض البيروتية هدوءها واطمأنت القلوب الهالعة بعد اضطرابها، انخلع المتنصرون من دينهم الجديد وانقلبوا ناكصين إلى وثنيتهم السابقة بعد أن شابوها ببعض الرواسب النصرانية بحيث أصبحوا يدينون بمذهب جديد هو خليط ملفق بين النصرانية والوثنية.

(١) الصحيح أن كورش هو غير أردشير، فالأول كان حيًّا سنة ٥٣٦ (ق. م.) والثاني سنة ٤٦٥.

(٢) وردت كلمة «لاذقية» بالمراجع القديمة بلفظ «لأوذيسة» ومعناها مدينة.

وفي هذا يقول الأب لامنس اليسوعي[1]: «... سنة ٣٤٩م طرأ على بيروت زلزال ضرب نصفها، وكان فيها كثير من عبدة الأصنام المشركين، فطارت قلوبهم شعاعاً، وأسرع العدد الغفير منهم إلى التنصر.... ولكن هذه الاهتداءات الناتجة عن الرعب والهلع لم تكن كلها ثابتة. وبعد زوال الخطر عاد قسم منهم إلى التوثن. وتمذهب قسم منهم بمذهب جديد مزج بين معتقدات النصرانية وخرافات المشركين». وصدق الله عزّ وجل حيث يقول في القرآن الكريم، (سورة يونس، الآية ١٢):

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وفي السنوات ٤٩٤ و ٥٠٢ و ٥٢٩ و ٥٤٣ و ١٥٥١م، تعاقبت الهزات الأرضية في طول ساحل فينيقية (الساحل اللبناني اليوم). وكانت الهزات الأربع الأولى قليلة التأثير في بيروت بخلاف صيدا وصور اللتين مَدَّ عليهما الزلزال رواقه المدمر فإنهما خربتا تماماً وسُوّي ما فيهما من البنيان بالأرض ولم يبق فيهما عمار ألبتة.

بيد أن الهزة الخامسة التي وقعت سنة ٥٥١ م، كانت أوفر من سابقاتها تأثيراً وأشمل خراباً في بيروت بالذات. ونقل المؤرخون أن هذه الهزة دكت أبنية بيروت الشامخة وأصبحت هذه الأبنية قاعاً صفصفاً، وهلك تحت أنقاضها جمٌّ غفير من الأهلين الوطنيين والأجانب الساكنين فيها. وقيل إن عدد هؤلاء الهالكين قُدِّر يومئذ بنحو ثلاثين ألف نسمة ويزيد. وكانت الخسارة الكبرى خراب المدرسة الفقهية التي أنشأها الرومان في هذه المدينة إذ أن هذه المدرسة لم يكن حظها أسعد من حظ باقي الأبنية. فقد تهدمت وانفرط عقد الذين كانوا فيها من العلماء والمتعلمين، وأصبح هؤلاء وأولئك صرعى لا حراك بهم تحت أنقاض تلك المؤسسة العلمية التي طالما ضجت أروقتها بالمناظرات والمحاضرات والمذاكرات [2].

وفي هذا الزلزال وأثاره التخريبية يقول الأب لويس شيخو[3] «... وقد أذاقت كأس المنية نخبة الشبان المتقاطرين إليها - أي إلى بيروت - لدرس الحقوق في مدرستها الرومانية التي كانت تاجاً بهيًّا على مفرقها تباهي به أعظم المدن أخواتها!...».

وبالإضافة إلى المنشآت المدنية والعلمية فإن المعابد لم تشفع بها رسالاتها الدينية وتحميها من الدمار، بل إن هذه المعابد خرّت هي الأخرى حطيمة إلى الأرض، من ذلك كنيس اليهود[4] وكنائس النصارى: أم الله، القيامة، القديس يهودا، المخلص، الرجال الأربعون[5].

ويحدثنا المؤرخ فيليب حتي (الأميركي من أصل لبناني) عن موجة الزلازل التي حلت ببيروت في تلك الفترة حيث يقول في كتابه «لبنان في التاريخ»[6] «.... وقد أصيبت مدينة بيروت بهزات أرضية.... فقد حدثت هزة سنة ٣٤٩ تهدم بسببها بعض أجزاء المدينة، ولكن لم تكن من العنف بحيث أنها أثرت على التدريس في المعهد (معهد الحقوق)، وقد شعر الناس بهزات أخرى عام ٤٩٤ و ٥٠٢ تسبب عنهما بعض الأضرار، وإنما حلَّ من جرائهما خراب في صيدا وصور، ولكن بين ٥٥١ و٥٥٥ وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة التي خربت المدن اللبنانية الساحلية تخريباً يكاد يكون كاملاً ولا سيما مدينة بيروت. وقد طغت موجة عارمة من البحر على أثر أحد الزلازل سببت خسارة في الأرواح والممتلكات، أكثر مما سببه الزلزال ذاته، فقد قيل إن البحر ارتدّ إلى الوراء مسافة تقرب من ميل واحد، ثم إنه عاد بشكل موجة عالية غمرت المدينة كلها فأغرقت البنايات وهدمتها وغرقت المراكب أو تحطمت على

(١) من مقال بعنوان «الزلازل في بيروت» - مجلة المشرق، ص ٩٧٠، بقلم الأب لامنس اليسوعي.

(٢) «بيروت في التاريخ» محاضرة ألقاها في مربع تباريس بيروت، بدعوة من جمعية خريجي المدارس العليا، المحامي جورج يزبك في ١٨ شباط سنة ١٩٢٣، ص ٣٣.

(٣) بيروت: تاريخها وآثارها، تأليف الأب لويس شيخو اليسوعي، ص ٤١ - ٤٢.

(٤) زلازل بيروت، بقلم الأب لامنس اليسوعي - مجلة المشرق، المجلد ١، ص ٩٧٢ - ٩٧٣. نقلاً عن المؤرخين زوناراس ومالالا.

نقول: كان هذا الكنيس يقع في سوق الدلالين، جنوبي جامع الأمير منصور عساف (السرايا قديماً) وأرضه ما تزال حتى اليوم وقفاً ليهود بيروت. وكانت بجواره، زاوية المغاربة التي تحولت اليوم إلى حانوت وهي من الأوقاف الإسلامية في بيروت.

(٥) نشأة الديانة المسيحية في لبنان، بقلم بطرس غالي - مجلة المشرق، المجلد ٢٦ ص ٢٦١. وكنيسة المخلص كانت تقع حيث جامع الأمير منصور عساف اليوم. وقديماً اشترى بنو الحمرا أنقاض هذه الكنيسة وبنوا بحجارتها الزاوية المنسوبة إليهم في شارع الحمرا. وكنيسة الرجال الأربعين كانت تقع على ناصية درج خان البيض (درج الأربعين أو الرجال الأربعين قديماً). وفي الماضي بني مكانها جامع صغير اشتهر باسم: رجال الأربعين، وتقع بالقرب من مكانها اليوم كنيسة مار جرجس للموارنة التي أمر ببنائها المطران يوسف الدبس مطران بيروت في أواخر العهد العثماني.

(٦) لبنان في التاريخ، تأليف الدكتور فيليب حتي، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، مراجعة الدكتور نقولا زيادة، طبع سنة ١٩٥٩. ص ٦٨٣، ٦٨٤.

الشواطىء، وغمرت الأشجار. ونرجح أن بنايات المعهد (أي معهد الحقوق) تهدمت في هذا الزلزال، وقد عثر مؤخراً في الحفريات التي أُجريت في قلب المدينة على كثير من الأعمدة الرومانية التي نُصبت كآثار قبالة المتحف الوطني، هذه الأعمدة من بنايات معهد الحقوق. وقد ذكر أن ما يقرب من ٣٠ ألف نسمة من سكان بيروت لاقوا حتفهم في هذا الزلزال. وقد هرب الباقون يأساً وخوفاً وتركوا المدينة قفراً. أما الذين نجوا من الموت من أساتذة وتجار فإنهم ارتحلوا إلى صيدا».

صحوة ما قبل النهاية

بعد أن هدأت ثائرة زلزال ٥٥١ م، دبّت الحياة من جديد في أنحاء بيروت عندما انصرفت همة حكامها الرومان إلى مسح غبار الخراب والدمار عن بقايا معالمها ومؤسساتها، ونشطوا في إصلاح أبنيتها وترميم معاهدها العلمية ومعابدها الدينية. وفي أثناء ذلك أعادوا إليها مدرسة الحقوق التي كانوا قد نقلوها موقتاً إلى صيدا بسبب الزلزال المذكور، وخيل للناس أن مياه العمران عادت إلى مجاريها في مدينتهم المنكوبة نتيجة إصابتها بدوار الهزات الأرضية، وبالرغم من أن هذا الدوار الزلزالي أصابها في سنة ٥٥٤ م بعارض منه، إلا أنه هذه المرة لم يكن عنيفاً ولا شديد الوطأة عليها مما أتاح لهذه المدينة مواصلة مسيرتها العمرانية، وبقيت مدرستها الحقوقية مشرعة الأبواب لقاصديها من العلماء والمتعلمين. بيد أن شراع حظ البيروتيين وجّه سير مدينتهم بما لم تشته سفن آمالهم وشلّت أيديهم عما كانوا قد أخذوا أنفسهم به من العمل من أجل إكمال بناء مدينتهم. ذلك أنه في سنة ٥٦٠ م عصف حريق هائل أخذ شواظه اللاهب بتلابيب بيروت من كل حدب ومن كل جانب وامتدت ألسنة النيران إلى كل ما فيها من الأبنية الخاصة والعامة. ولم تترك ما دخلت إليه إلا وهو كهشيم المحتظر. وقد اختلط رماده بأنقاضه. ولما انتهى هذا الحريق انتهت معه أيضاً مدينة «بيروت السعيدة» كما لقبها أوغسطس قيصر عندما قدمها هدية لابنته جوليا بمناسبة زواجها من القائد مرقس فسبيانوس أغريبا الذي عيّنه الإمبراطور الروماني في نفس الوقت حاكماً على مستعمرته الممتازة بيروت(١).

وهكذا غصّت بيروت بشراب السعادة الذي ارتشفته في عهد أغسطس قيصر وتجرعت كأس الشقاء حتى الثمالة... هذا الشقاء الذي كان مادة للرحالين الذين زاروها آنذاك وسجلوا انطباعاتهم عنها، كما كان موضوعاً للشعراء الذين فاضت قرائحهم بالبكاء عليها ورثائها والتفجع على سوء المنقلب الذي آلت إليه بعد الحريق المشؤوم «وكان به ختام هلال المدينة في ذلك القرن» كما قال شيخو في كتابه «بيروت: تاريخها وآثارها»(٢).

رثاء بيروت في قصائد الرحالين

إن كبوة بيروت تحت ضربات الزلازل ونيران الحرائق جعلت الشعراء والرحالين والمؤرخين، في ذلك الوقت، كما قلنا، يعبرون عن أسفهم على هذه المدينة شعراً ونثراً، وقد وصل إلينا من هذا الشعر والنثر مقتطفات نقلها إلى أبناء زماننا لعلهم يربطون ما بين ذكريات الماضي ووقائع الحاضر، بما يعطيهم فكرة عن المآسي المتواترة على مدينتهم بيروت وقدرتها في الاستعلاء على هذه المآسي والاستمرار في تفاؤلهم بمستقبل هذه المدينة المتدرعة بجلباب الصبر والإيمان بالله عز وجل والثقة بالنفس.

رثـاها شاعر إغريقي من آسيا الصغرى (تركية اليوم) معاصر للحوادث المذكورة بقوله: «بيروت، أجمل المدن، الدرة في تاج فينيقية، فقدت لألاءها ورونقها، بناياتها التي تعد آيات في فن العمارة تداعت وسقطت ولم يبق فيها جدار واقفاً، لم يثبت منها سوى الأساسات».

ورثاها شاعر إغريقي آخر من إسبانية بشعر تفجع فيه عليها بقوله على لسانها(٣): «... ها أنا ذا، المدينة التاعسة، كومة من الخرائب، أبنائي أموات، ياللحظ العاثر المشؤوم، إلاهة النار أحرقتني بعد أن هزت إلاهة الزلزال أركاني، يا لتعاستي، بعد أن كنت مجسّم الجمال، أصبحت رماداً، هل تبكون أيها العابرون الماشون فوق أطلالي؟ هل تسكبون عليَّ دمعة حزن؟ هل تأسّون لمجد بيروت التي لا وجود لها؟. أيها الملاح لا تمل بشراعك نحو شاطىء، لا تنزل شراع مركبك، فإن المرفأ الأمين

(١) هو أغريبا الأول الذي بنى في بيروت ميداناً يتصارع فيه المجرمون المحكومون بالإعدام مع الأسود الجائعة ليلاقوا حتفهم تحت أنياب هذه الأسود، أو يتصارعون هم فيما بينهم ليفني بعضهم بعضاً، وقد أُقيم في هذا الميدان احتفال تصارع فيه ١٤٠٠ مجرم إلى أن أفنى بعضهم بعضاً. وقد أدركت شخصياً آثار هذا الميدان الذي كان قائماً غربي ميناء الحصن على صخور الشاطىء تجاه فندق فينيسيا اليوم. وقد بادت معالم هذا الميدان بعد تخطيط الشوارع في تلك الجهة. وبلدية بيروت =

= أطلقت على أحد هذه الشوارع اسم «أغريبا» وهو كل ما تبقى من آثار هذا الحاكم في هذا البلد.

وربما أطلق الناس على المكان الذي كان ميدان أغريبا يقع فيه اسم «ميناء الحصن» نسبة إلى الميدان المذكور، وأهل بيروت يقولون: «مينة الحسن» بدلاً من ميناء الحصن وذلك جرياً على عادتهم في ترقيق الحروف المفخمة عند اللفظ (راجع محاضرة يزبك المشار إليها سابقاً).

(٢) الكتاب المذكور، ص ٤١، ٤٢.

(٣) عن كتاب «لبنان في التاريخ» للدكتور فيليب حتي، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

أصبح أرضاً يابسة قفراء، أصبحت لحداً موحشاً، أبل عني، سْر عني، إلى الموانىء الفرحة التي لا تعرف البكاء، إلى موانيها سِرْ على صوت قرع المجذاف. هكذا شاء الإلّه بوسيدون. إلّه البحر والزلزال، وهكذا شاءت الإلّهة السماء. وداعا يا ملاحي البحار، وداعاً أيتها القوافل الآتية من وراء الجبال!».

ورثاها الشاعر الإغريقي «أغاثيوس» بقصيدة طويلة جاء في بعضها ما تعريبه قوله: «... ذوت زهرة فينيقية، مدينة بيروت بمصاب الزلزال الرهيب، وزال عنها جمالها الرائع، ودُكت أبنيتها الشامخة البديعة المنظر، المحكمة الهنداس، فتقوضت عن آخرها، ولم يبق منها سوى الردم، والخراب، وهلك تحت أنقاضها جَمْع غفير من الأهالي والأجانب المستوطنين فيها وأذاقت كأس المنية نخبة الشبان المتقاطرين إليها لِـدَرْس الحقوق في معاهدها الرومانية الذائعة الصيت التي كانت لها فخراً ولمفرقها تاجاً تباهي به أعظم المدن أخواتها».

ثم يتابع رثاءه لبيروت قائلاً بلسان حالها: «... واأسفاه، إني لمن أشام المدن وأسوئها حالاً، رأيت جثث أبنائي متراكمة في شوارعي وساحاتي مرتين، في ظرف تسع سنوات، رماني إلّه النار فولكان بسهامه المتقدة بعد أن رماني إلّه البحر نبتون بتياره الهائل، وأسفاه على بهائي الرائع، كيف طمسه الدهر وأحالني إلى رماد، فيا عابري السبيل، إبكوا لسوء حظي، واندبوا بيروت المضمحلة» (١).

بقي أن نقول إن آثار الخراب التي خلفها الزلزال الأخير في بيروت بقيت ماثلة للعيان حتى القرن السادس للميلاد، فقد مرَّ بها آنذاك سائح يدعى أنطونين ويعرف بلقب الشهيد وكتب عنها يقول: «... وصلنا إلى المدينة الفائقة الجمال، بيروت التي كانت فيها قبل هذه السنين المدرسة الحقوقية الذائعة الصيت... وهي التي استولى عليها الخراب».

وفي أواخر القرن المذكور زار سورية السائح البليزنسي الشهير صاحب كتاب (L'Anonyme de Plaisance) وكتب انطباعاته عن هذه الزيارة بقوله: «... سرنا من انتارادوس (طرطوس) إلى طرابلس، وهي مدينة خربة بسبب الزلازل التي حصلت على عهد الإمبراطور يوستينانوس، ومنها انتقلنا إلى تيرسيريس (أنفة) فإلى بيبلوس (جبيل) وهما أيضاً تقوضتا على سكانهما... ثم وصلنا إلى بيريت (بيروت) المدينة الفائقة الجمال التي ازدهرت مؤخراً فيها الدروس العلمية، وهي أيضا كان الزلزال قد خربها!».

(١) من محاضرة ألقاها مؤلف هذا الكتاب، في المركز الإسلامي الثقافي ببيروت، بعنوان: «بيروت كما رآها الرحالون الأجانب عبر العصور».

بيروت أثناء الصراع بين العرب والروم

عندما أزاح العرب المسلمون الرومَ عن أرض الشام قبيل السنوات التي انتصف بها القرن الهجري الأول، وارتفعت راية الإسلام فوق دمشق في أيلول سنة ٦٣٥ م على يد أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح وخالد بن الوليد، اتجهت قوات إسلامية لإتمام بسط السلطة العربية على السواحل السورية تحت قيادة يزيد بن أبي سفيان وأخيه معاوية. وقد استطاعت هذه القوات إتمام مهمتها العسكرية دون أن تلقى مقاومة جدية لا من الأهالي الوطنيين ولا من الروم الذين كانوا يحتلونها منذ دهر طويل. وهذا ما نقله إلينا المؤرخون الذين سجلوا أحداث تلك الفترة، ومنهم المؤرخ الثبت أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي الشهير بالبلاذري الذي ذكر في كتابه «فتوح البلدان» أن يزيد (ابن أبي سفيان) «أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقة وجبيل وبيروت، وهي سواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها»(٢).

وهذا يعني أن بيروت دخلت في حوزة العرب المسلمين من غير حرب ولا حصار بحيث لم تتحمل في عمرانها وسكانها ما يرهقها، أو يتسبب في إلحاق الأذى أو الضرر بقاطنيها. إلا أن الروم لم ييأسوا من استرجاع سلطانهم في هذه البلاد، ففي أواخر خلافة عمر بن الخطاب وأوائل خلافة عثمان بن عفان عادوا فوثبوا على السواحل السورية وغلبوا على بعضها فتصدى لهم معاوية بن أبي سفيان والي سورية آنذاك وأرغمهم على الانسحاب، ولما تمّ له ذلك بعد فترة من الحصار بادر إلى تحصين هذه المدن وشحنها بالحاميات العسكرية للدفاع عنها ضد الاعتداءات المحتملة من قِبَل الروم. وكان الخلفاء هم الذين أصدروا تعليماتهم إليه بهذا الصدد.

ولقد نقل البلاذري إلينا أنه « كان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل، رتبوا فيها قدْرمن يُحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قِبَل العدوّ سرّبوا إليها الأمداد. فلما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه كتب إلى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنتها وإقطاع من يُنْزله إياها القطائع، ففعل»(٣).

ويقول البلاذري أيضاً: «وحدثني أبو حفص عن سعيد بن عبد العزيز قال: أدركت الناس وهم يتحدثون أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب بعد موت أخيه يزيد (ابن أبي سفيان)

(٢) فتوح البلدان الطبعة الأولى ـ طبع القاهرة ١٣١٩هـ ١٩٠١م. الناشر. شركة طبع الكتب العربية، ص١٣٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٤.

يصف له حال السواحل فكتب إليه في مرمّة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها(١) واتخاذ المواقيد لها».

بيروت في معاناة القرصنة

إن حركة التحرير التي انطلق بها العرب تحت راية الإسلام عبر الجزيرة العربية وأدت إلى إجلاء الاحتلال الرومي عن بلادنا لم تقنع الروم (البيزنطيين) باليأس من استعادة نفوذهم في هذه البلاد، فلقد واصل هؤلاء وثوبهم على السواحل السورية بين الحين والآخر في غارات قرصانية مستهدفين النزول في المدن الساحلية بقصد النهب والسلب والتخريب وقتل من يصادفونه من سكانها المسلمين، كما لجأوا إلى تحريض غير المسلمين من هؤلاء السكان على الفتن وإثارة المتاعب بوجه السلطات العربية عن طريق مساعدتهم بالمال والعتاد. وكان المردة ـ أي الجراجمة ـ ينطوون على قابلية الاستجابة لهذا التحريض متأثرين بالقاسم الديني المشترك بينهم وبين الروم.

ويحدثنا الشيخ طنوس الشدياق المتوفى سنة ١٨٦١(٢) أنه: «لما قدم الخليفة المهدي بن المنصور العباسي إلى دمشق سار إليه الأمير المنذر وأخوه الأمير أرسلان وقابلاه في قرية المزَّة فاستقبلهما بالبشاشة وأكرمهما لما بلغه من شدة بأسهما على الأعداء في محافظة الطرقات وأمر لهما بالتواقيع في تقرير ولايتهما، وقد زادها لهما وأجرى لهما الإقامات الكافية وساروا معه إلى بيت المقدس ثم عادا إلى مواطنهما محتفين بالسرور. وقد جرى بينهما وبين المردة مواقع عديدة. أشهرها واقعة نهر الموت(٣) التي سمّي ذلك النهر بها لكثرة القتلى فيه. ومنها واقعة إنطلياس(٤) التي قتل فيها من الفريقين أكثر من ثلثمائة رجل وكانت النّصرة فيهما لهذين الأميرين، وانكفَّت المردة(٥) عن ساحل بيروت وأمن أبناء السبيل واشتهر ذكر الأمراء في كل واد».

وعلى هذا، تكون بيروت قد تعرضت أيام المهدي (العباسي) في الربع الأخير من القرن التاسع الميلادي لغارة المردة التي انتهت بفشلهم وردّوا عن المدينة دون أن ينالوا منها بفضل تصدي الأمراء الأرسلانيين الذين كانوا آنذاك ولاة عليها من قبل الخليفة العباسي المذكور.

ولقد تكررت غارات القراصنة الروم على بيروت، وكان الغرض منها القيام بعمليات خطف المسلمين الذين ينفردون بهم على أطراف المدينة. فلقد حدثنا الأمير شكيب أرسلان أن الأمير عمر أحد أولاد الأمير أرسلان الجد الذي تُنمى إليه الإمارة

(١) المناظر، جمع منظرة، وهو الموضع الذي ينظر منه. وقد يغلب هذا على المواضع العالية التي يُشرف منها على الطريق وغيره.. والمنظرة في رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو ويحرسه منه. (راجع كتاب «معجم البلدان ـ ط. دار صادر وبيروت ١٩٥٧م ج٥ ص٢٠٣). وجاء في كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي، طبع بيروت بالمطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٢٧ ص٤٠: «وقرروا ـ أي المماليك ـ أيضاً ناراً تصل إلى دمشق في ليلة فكانوا من ظاهر بيروت يشعلونها فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة (بيت مري اليوم) ومنه إلى جبل بواريش (بوارج في البقاع) ومنه إلى جبل يبوس، ومنه إلى جبل الصالحية، ومنه إلى قلعة دمشق، والنار للحوادث في الليل، وحمام البطاق وحمام الزاجل، للحوالات في النهار، والبريد للأخبار».
هذا وأول من استخدم المناظر في الإسلام هو الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث اتخذ المناظر بين واسط وقزوين لتصله الأخبار من هذه البلاد بوقت قصير.

(٢) كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» تأليف الشيخ طنّوس بن يوسف الشدياق الحدثي الماروني ـ وقف على طبعه وناظر طبعه المعلم بطرس البستاني، طبع في بيروت سنة ١٨٥٩ مسيحية ص٤٦٨.
وقد أفرد المؤلف في كتابه المذكور صفحات عدة تناول فيها نسب الأمراء الأرسلانيين، وفي حاشية للأمير شكيب أرسلان كتبها في الصفحة ١٩ من كتاب «محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر الأزواعي» أوصل نسب العائلة لأرسلانية إلى «جدنا الأمير أرسلان بن مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود بن عون بن المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء اللخمي».

(٣) هذا النهر لم يعد له وجود في زماننا، وكان موقعه شمال شرقي بيروت بالقرب من قرية سن الفيل. وبعض المؤرخين يقول إن كلمة «الموت» هنا تعني الجحيم وأنها غير عربية وليس لهذه التسمية علاقة بالمعركة التي دارت بين الأمراء الأرسلانيين وبين المردة إذ أنها سابقة على هذه المعركة. والأب لامنس اليسوعي من هذا الرأي.

(٤) انطلياس، بلدة صغيرة تقع في الطريق الذاهبة بين بيروت وطرابلس، بعضهم يقول إن اسم هذه القرية مركب مزجي من كلمتي: أنطون والياس، وبعضهم يقول إنه مركب من كلمتين: إن ومعناها عين وتاليوزا، ومعناها الصغيرة. وآخرون يقولون إنه مركب من كلمتي انتي ـ Anti أي مقابل ـ وليوس Lios أي الشمس.

(٥) المردة، جيل من الناس أصلهم من بلاد الأرمن في الأناضول، كانوا يضعون أنفسهم بتصرف من يستخدمهم للأغراض العسكرية مقابل مصالح مادية، وهم أشبه بالمرتزقة من المقاتلين في أيامنا، وقد تردد ذكرهم في الحروب التي دارت على أرض لبنان بين الروم (البيزنطيين) وبين العرب المسلمين. وكانوا تارة من عملاء الروم وتارة من عملاء العرب، وقد أُجْلوا عن لبنان في أيام العباسيين ولم يبق لهم أثر في هذه البلاد. وكان المؤرخون العرب يسمونهم «الجراجمة» نسبة إلى جبال جرجومة في آسيا الصغرى. هكذا أسماهم البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» وفي كتاب «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» للأب هنري لامنس اليسوعي ص٤١ ـ ٤٥ بحث مطول عن هذه الطائفة يؤكد المؤلف فيه أن المردة غرباء عن الشعب اللبناني وأنهم دخلوا إلى لبنان أثناء الصراع بين العرب وبين الروم ثم أُخرجوا منه ولم يبق أي أثر منهم فيه اليوم.
ومن المؤكد، كما يقول لامنس، أنه ليس هناك علاقة عنصرية بين النصارى الموارنة في لبنان وبين المردة، وإن كان هؤلاء وأولئك قد تعاطفوا بعضهم مع بعض في بعض الأوقات ضد السلطات العربية.

الأرسلانية «سكن بعين التينة بقرب ضريح الأوزاعي على سيف البحر فجاءت مراكب للروم في أحد الأيام ونزل مَنْ بها هناك وأسروه وبقي في الأسر أربع سنوات حتى فودي به في اللامش، وهو أول فداء عام وقع في الإسلام»(١). وكان ذلك الفداء في سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) والخليفة يومئذ الواثق (العباسي)(٢).

ولقد أشار ابن الأثير إلى هذا الفداء في جملة الحوادث التي وقعت في السنة المذكورة، ولكن دون الإتيان على ذكر أسماء الأسرى البيروتيين وفي عدادهم الأمير عمر أحد أولاد الأمير أرسلان. قال ابن الأثير(٣): «... وفيها كان الفداء بين المسلمين والروم، واجتمع المسلمون فيها على نهر اللامس(٤). على مسيرة يوم من طرطوس، واشترى الواثق (الخليفة العباسي) من بغداد وغيرها من الروم، وعقد الواثق لأحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي على الثغور والعواصم(٥)، وأمره بحضور الفداء هو وخاقان الخادم وأمرهما أن يمتحنا أسرى المسلمين فمن قال: القرآن مخلوق(٦)، وأن الله لا يُرى في الآخرة فُودِي به وأُعطي ديناراً، ومن لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم، فلما كان في عاشوراء(٧) سنة إحدى وثلاثين اجتمع المسلمون ومَنْ معهم من الأسرى على النهر، وأتت الروم ومن معهم من الأسرى، وكان النهر بين الطائفتين، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان في وسط النهر، ويأتي كلٌ أصحابه، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفساً والنساء والصبيان ثمانمائة وأهل ذمة المسلمين مائة نفس، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى وقيل بل كان عليه جسر»..

معركة بيروت على نهرها

واستمرت غدرات المردة يظاهرهم الروم ضد بيروت، فإن

(١) كتاب «محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمر الأوزاعي» رضي الله عنه طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ص٢٠ ـ الحاشية ـ وأما قول الأمير شكيب أرسلان رحمه الله: وهو أول فداء عام وقع في الإسلام، فإنه غير مؤكد، فلقد ذكر المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» أن الفداء الأول هو فداء أبي سُلَيْم الذي جرى في أيام ولد العباس في خلافة الرشيد باللامس من ساحل البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط) وذلك سنة ١٨٩هـ (٨٠٤م) ـ الكتاب المذكور، عني بتصحيحه ومراجعته عبدالله إسماعيل الصاوي طبع دار الصاوي للطبع والتأليف والنشر ـ مصر ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٨م ص١٦٠.

(٢) في كتاب «أخبار الأعيان في جبل لبنان» أن هذه الغارة قام بها الروم الذين قدموا بمراكبهم إلى قرب الأوزاعي سنة ٨٠١م (١٨٥هـ) وصادفوا الأمير عمر ومعه ثلاثة أنفار فأسروهم جميعاً ـ الكتاب المذكور ج٢ ص٤٩٦.

(٣) كتاب «الكامل في التاريخ» لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠، طبعه سنة ١٣٥٧هـ. ج٥ ص٢٧٥.

(٤) الأمير شكيب أرسلان ضبط اسم هذا النهر بلفظ «اللامش» حين جعل آخره شين معجمه بثلاث نقط فوقها، في حين ضبطه ابن الأثير والمسعودي بلفظ «اللامس» حين جعلا آخره سين مهملة والتسمية التي قالها هذان المؤرخان القديمان هي المعتمدة. فلقد جاء في معجم البلدان لياقوت: «لامس بـ «س» مهملة وكسر الميم، من قرى الغرب... وهي قرية على شط بحر الروم من ناحية ثغر طرسوس، كان فيه الفداء بين المسلمين والروم يقدمون الروم في البحر فيكونون في سفنهم، والمسلمون في البر، ويقع الفداء».
ثم قال ياقوت: «لا مش بكسر الميم، والشين معجمة، من قرى فرغانة».
وعلى هذا فإن اللامس من بلاد الشام على ساحل البحر الأبيض المتوسط بينما اللامش من بلاد ما وراء النهر (في آسيا الوسطى اليوم).
ولعلَّ الأمير شكيب جعل آخر الكلمة شيناً معجمة متابعة للناسخ الذي نقل عنه خطأه في المخطوطة التي نشرها، أو أن الأمر لا يعدو أن يكون خطأً طباعياً لم يتنبه له مصحح كتاب «محاسن المساعي».. وفوق كل ذي علم عليم.

(٥) الثغور والعواصم. هي نوع من المدن العسكرية التي كان العرب يقيمونها عند الحدود الفاصلة بين دار الإسلام وبين دار الحرب. ويرجع بناء هذه المدن العسكرية إلى أواخر أيام عثمان بن عفان وأوائل أيام معاوية بن أبي سفيان. ولما آلت الخلافة إلى هارون الرشيد (العباسي) أعاد تنظيم هذه المدن وأطلق عليها اسم «العواصم».

(٦) القول بخلق القرآن وعدم رؤية الله عز وجل يوم القيامة، من النظريات الكلامية التي ابتدعتها فرقة المعتزلة في أيام الخليفة العباسي المأمون ابن هارون الرشيد. وقد أثير كثير من الجدل حول هذين الموضوعين، فذهب أهل الكلام من المعتزلة وأضرابهم إلى القول بأن القرآن الكريم، مخلوق وحادث وليس بقديم لأن القدم من صفات الله عز وجل وحده. وذهبوا أيضاً بأن رؤية الله عز وجل غير ممكنة يوم القيامة لأن رؤيته تجعل له حيزاً ومكاناً وهذا أمر مستحيل بالنسبة للذات الإلّهية التي لا يمكن تحديدها بمكان أو زمان. وقال أهل السنة من المحدّثين والسلفيين، بأن كلام الله عز وجل قديم لأنه من صفاته، كما قالوا بأن رؤية الله عز وجل يوم القيامة ممكنة. وكان الإمام أحمد بن حنبل من أعنف المنكرين على المعتزلة في هذا الصدد وقد تحمل من أجل موقفه هذا أذًى كثيراً دون أن يبدل رأيه.
واستمر القول برأي المعتزلة أيام الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق حتى جاء أبو الحسن الأشعري المتوفى نحو سنة ٣٣٠هـ وحسم هذا الجدل برأي وسط. وهو أن كلام الله عز وجل من حيث معناه قديم وأما من حيث التلفظ به وكتابته فهو مخلوق. وأهل السنة والجماعة اليوم ملتزمون بما قاله الأشعري. أما بالنسبة لرؤية الله عز وجل، فإن الأشاعرة يقرّونها بلا جدال.

(٧) عاشوراء ـ أي اليوم العاشر من شهر المحرم الذي يعتبره الشيعة من الذكريات الحزينة لأن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قتل فيه وهو يحارب جيش بني أمية أيام يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خلال النزاع الذي قام بين الهاشميين وبين الأمويين حول «الخلافة».

هؤلاء وأولئك كانوا يناوشون هذه المدينة بالقتال والعدوان كلما آنسوا من أنفسهم القدرة على بلوغ شواطىء هذه المدينة على متن مراكبهم التي أعدوها للقرصنة أو عن الطريق البرية التي كان المردة يتسربون عبرها إلى مشارف البلد.

ويقول طنوس الشدياق[1]: «إنه في سنة ٨٧٥م (٢٦٢هـ) بنى الأمير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصّن سور المدينة.. وفيها وقع بينه وبين المردة قتال عظيم على نهر بيروت دام أياماً حتى انهزمت المردة، فقتل منهم بعضاً وأسر بعضاً. وكتب إلى موسى بن بغا يخبره وأرسل اليه الرؤوس والأسرى إلى بغداد، وعرض إلى المتوكل (الخليفة العباسي) ذلك، فأكرم موسى رسله وسُرّ بظفره، وكتب المتوكل إليه كتاباً يمدح شجاعته ويحرّضه على القتال وأقرّه على ولايته تقريراً له ولذريته وأرسل له سيفاً ومنطقة وشاشاً أسود[2]، وكتب إليه أخوه الموفّق وغيره كتباً يمدحونه بها وأعاد رسله مكرّمين، فتقلّد الأمير السيف وشدّ المنطقة ولف الشاش ودعا لأمير المؤمنين وزُيِّنت البلاد والمدن وهادته الشعراء بالتهاني، واشتدّ أمره وعظم شأنه».

معركة أخرى في بيروت

وفي أيام الأمير النعمان، المذكور، عانت بيروت من غارة غادرة قامت بها سفن الروم من جهة البحر وقطعان المرتزقة المردة من جهة البر، وقد حدثنا طنوس الشدياق عن تفاصيل هذه الغارة بقوله: «.. وسنة ٩١٥ م (٣٠٣ هـ) قدمت سفن إفرنجية إلى رأس بيروت ونزل الملاحون إلى البرّ فسار إليها الأمير النعمان بشرذمة من رجاله، فأسر منهم ثمانية رجال وقتل ستة، ثم قدمت تلك السفن إلى المينا ففاداهم على من أسروه من المسلمين، وكتب بذلك إلى الأمير تكين الخاصة، أمير دمشق ومعاملاتها (أي البلاد التابعة لها) فاستدعاه إليه فذهب وحظي منه بالإكرام».

ويقول الأمير شكيب أرسلان إن الأمير النعمان دوّن في مذكراته أحداث هذه الواقعة، وكيف أن الأمير تكين استدعاه بسبب ذلك إلى دمشق وخلع عليه وكتب إلى الحضرة (أي العاصمة بغداد) فصدر التوقيع بالتشكر منه وأضيف له عمل (أي مدينة) صفد[3].

بيروت في معاناة جديدة

منذ أن أُخرج الروم (البيزنطيون) من سورية على يد القوات العربية خلال الفتوح الأولى في أواسط القرن السابع الميلادي، وهم يرنون بأبصارهم إلى استرجاع سيطرتهم على هذه البلاد. من أجل ذلك فإنهم والوا غاراتهم عليها بأنفسهم مباشرة بواسطة جيوشهم البرية تارة ومراكبهم البحرية تارة ثانية، وعندما كانوا يعجزون في هذه الوسيلة أو تلك، فإنهم كانوا يعمدون إلى تشجيع الحركات الداخلية المناوئة للدولة العربية التي كان عملاؤهم المحليون يقومون بها بين الحين والآخر.

وفي غضون القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) اهتبلوا فرصة انهماك المسلمين في صراعاتهم الداخلية الناتجة عن التناقضات العنصرية والمذهبية في المجتمع الإسلامي آنذاك، وراحوا يواترون هجماتهم العدوانية على تخوم الدولة الإسلامية عبر الحدود العراقية والسورية، وبلغت هذه الهجمات ذروتها سنة ٩٦٩ م حين تمكن إمبراطور القسطنطينية نقفور فوكاس (Nicephorus phocas 11) من الاستيلاء بعض الوقت على أنطاكية وحلب وألحقهما من جديد بإمبراطوريته.

وفي سنة ٩٧٤ م استؤنفت هذه الهجمات على يد إمبراطور بيزنطي آخر هو يوحنا زيميس (Zimice) المعروف عند العرب بأسم «الشمشقيق» الذي قام بحملة عسكرية على سورية وتمكن من احتلال حمص ومنها انتقل إلى وادي البقاع ثم احتل بعض المناطق الفلسطينية وانتشرت جيوشه في الساحل السوري وضيق خناق الحصار على مدينة بيروت، وعندما تمكن من دخولها أباحها لجنوده الذين عاثوا فيها وأثخنوها بالنهب والتخريب والتقتيل واسترقوا أهلها بالسبي وذلك معاقبة لها على ما أبدته من صمود وشجاعة في مقاومته دفاعاً عن الدين والعرض والوطن.

ولم يترك الشمشقيق بيروت إلا بعد أن جعل بنيانها قاعاً صفصفاً وسكانها شذر مذر بين قتيل شهيد أو نازح شريد.

---

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان ـ الطبعة الأولى ص٦٥٣.

(٢) كان من التقاليد الملوكية المتبعة في أيام الخلفاء، لا سيما العباسيين والسلاطين المتفرّدين بالحكم في الولايات الإسلامية، إهداء كبار الولاة والقضاة وأمراء الجيش والوجهاء كسوة كاملة من الثياب عرفت باسم «الخلعة» وقد أنشأ العباسيون دوراً خاصة يخلع فيها على الوزراء يقال لها «باب الحجرة» ووصفها ياقوت الرومي الحموي في كتابه «معجم الأدباء» بأنها دار عظيمة الشأن عجيبة البنيان. فيها يخلع على الوزراء، وإليها يحضرون في أيام الموسم للهناء، وأول من أنشأها الإمام المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن الإمام المستظهر بالله (تولى الخلافة في ١٦ ربيع الثاني سنة ٥١٢هـ) راجع كتاب «الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي» للدكتور صلاح حسين العبيدي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ الجمهورية العراقية، طبع دار الرشيد للنشر ببغداد سنة ١٩٨٠م ص٤٧.

(٣) محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، الطبعة الأولى ص ٢٢ ـ الحاشية.

الإفرنج يتواثبون على بيروت

بعد حوالى مائة سنة من انكفاء رياح الاعتداءات البيزنطية عن بيروت هبت عليها رياح هوج كان مصدرها هذه المرة الممالك الإفرنجية في أوروبا التي تنادت للزحف على الشرق الإسلامي تحت شعار استنقاذ قبر المسيح من أيدي المسلمين.

ففي أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بعث الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومينينوس النداء تلو النداء إلى صاحب النصارى في الحاضرة الفاتيكانية لدرء الخطر الذي شكله السلاجقة على الأراضي البيزنطية والعاصمة «القسطنطينية» بالذات.

وقد وجدت هذه النداءات في النتيجة أُذناً صاغية لدى البابا أُوربان الثاني الذي ألقى في اليوم السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٠٩٥ خطاباً حماسياً شديد اللهجة في مدينة كليرمون فرّان بجنوبي فرنسا مستنفراً الشعوب الأورروبية لانتزاع قبر المسيح (القبر المقدس كما يسميه النصارى) من أيدي المسلمين أو الكفرة على حد التعبير البابوي آنذاك. وما أن حل ربيع سنة ١٠٩٧ م حتى كان نحو ١٥٠ ألف محارب من الإفرنج والنورمان يحتشدون في قلب القسطنطينية استعداداً للزحف «المقدس» على البلاد السورية.

واندفع هذا الإعصار «الصليبي» الأوروبي مجتاحاً المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى حتى وصل إلى مشارف بيروت في ١٩ نيسان (أبريل) ١٠٩٩ وضرب حولها الحصار بغرض احتلالها واستخلاصها من يد المسلمين. بيد أن هذا الحصار لم يكن طويلاً إذ أن الصليبيين كانوا يفضلون الانتهاء من القدس قبل أي مدينة أخرى فاكتفوا بالحصول على بعض الهدايا التي قدمها لهم البيروتيون فداءً عن مدينتهم، وهكذا فإن الصليبيين لم يتعرضوا بسوء لأهل بيروت كما أن هؤلاء بادلوا الصليبيين بالمثل ولم يتعرضوا لهم أيضاً بسوء. وزادوا على ذلك بأن حاكم بيروت العبيدي آنذاك جهز الجيش الصليبي بالمؤن الوافرة لكي لا يتعرض أفراده للغلال والأشجار.

تجدُّد الغارات على بيروت

وفي سنة ١١٠٠ م كانت المنطقة المحيطة ببيروت مسرحاً لمعركة ضارية بين الجيوش الصليبية المتجهة إلى فلسطين وبين القوات الإسلامية التي كان لواؤها معقوداً لوالي بيروت من قبل العبيديين واسمه سعد الدولة الطواشي. وعندما تحدث ابن الأثير عن هذه المعركة في جملة الأحداث التي وقعت سنة ٤٩٦هـ (١١٠٠م) نقل إلينا قصة طريفة وقعت للحاكم المذكور الذي مات على النحو الذي تنبأ له به المنجمون، قال ابن الأثير:

«.. كان الأفضل أمير الجيوش بمصر قد أنفذ مملوكاً لأبيه لقبه «سعد الدولة» ويعرف بالطواشي إلى الشام لحرب الفرنج فلقيهم بين الرملة ويافا، ومقدم الفرنج يعرف ببغدوين (بولدوين) لعنه الله تعالى، وتصافُّوا واقتتلوا، فحملت الفرنج حملة صادقة فانهزم المسلمون. وكان المنجمون يقولون لسعد الدولة: إنك تموت متردّياً، فكان يحذر من ركوب الخيل، حتى إنه ولي بيروت وأرضها مفروشة بالبلاط، فقلق خوفاً أن تزلق به فرسه أو يعثر، فلم ينفعه الحذر عند القدر، فلما كانت الوقعة انهزم فتردَّى به فرسه، فسقط ميتاً [1]!..»

الصليبيون عند نهر الكلب

في نفس السنة أي ١١٠٠ م هلك غودفرويد الذي يسميه مؤرخو المسلمين «جوفراد» ملك القدس. فاجتمع أمراء الفرنج وانتخبوا أخاه بولدوين ليخلفه على تخت الملك، فجاء بولدوين إلى فلسطين قادماً من مدينة الرُّها بسورية ليتسلم منصبه الجديد متخذاً ساحل البلاد طريقاً له ومعه قوة مؤلفة من حوالى ألف مقاتل. ولما علم به الأمير عضد الدولة شمس المعالي أبو المحاسن، الذي تولى إمارة بيروت خلفاً لأبيه استنفر أمراء صيدا وصور وعكة وقاموا جميعاً بالتصدي لبولدوين في مكان عرف باسم «دربند نهر الكلب» حيث نصبوا له كميناً ليصدوه عن قطع هذا المضيق، لكن القائد الصليبي ظفر بهم واضطر عضد الدولة للعودة برجاله إلى بيروت. ولما علم شمس الملوك دقاق ملك الشام بذلك كتب إلى الأمير المذكور بأن يتولى صيدا بالإضافة إلى بيروت وطلب إليه تحصين المدينتين لتقويا على الصمود بوجه المهاجمين.

أمراء صليبيون يقصدون بيروت

وعندما اتجه بولدوين نحو مدينة الرملة بفلسطين لاحتلالها، قدم من أوروبة لزيارته من بقي على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية في الأناضول سنة ١١٠١ م وفي مقدمتهم كونت أكيتانية، وستيفن كونت بوّا، وستيفن كونت بورغندية، والكندوسطابل كونراد، وبصحبتهم عدد من بارونات الأراضي المنخفضة (هولندة) وإيكارد أسقف أورا، والأسقف ماسيس، ومعظم هؤلاء قدموا إلى الشرق العربي بطريق البحر وكانت وجهتهم مدينة عكة. وفي أوائل ربيع سنة ١١٠٢ م بلغوا المناطق المجاورة لبيروت، إلا أنهم لم يدخلوا قلب المدينة نفسها، بل تابعوا سيرهم باتجاه القدس لحضور الاحتفال بعيد

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير، المجلد ٨ ص٢١٨ (حوادث سنة ٤٩٦هـ).

القيامة عند النصارى في الأماكن المقدسة، إلا أن حظهم كان عاثراً فلقد هَلك أكثرهم في معركة الرملة التي مُني فيها الصليبيون بالهزيمة على أيدي الجيوش الإسلامية التي قدمت من مصر لمحاربتهم[١].

معركة بيروت وارتداد الصليبيين عنها

ما إن توسد بولدوين أريكة الملك على القدس حتى جمع جنوده وقادهم لاحتلال المدن الساحلية التي لم تكن قد وقعت بعد في أيدي الصليبيين. وقد حقق أمنيته وأدخل هذه المدن في طاعته ورفع على أسوارها وأبوابها راية الصليب إلا أنه واجه في بيروت مقاومة حازمة اضطرته إلى صرف النظر عن دخول هذه المدينة وكان ذلك في سنة ١١٠٢ م[٢].

في صيف سنة ١١٠٩م (٥٠٢هـ) سار بولدوين على رأس قوة صليبية باتجاه طرابلس الشام وساند برتران دو صانجيل في الاستيلاء على هذه المدينة، ومقابل ذلك فإن برتران ردّ الجميل لبولدوين عندما قام هذا الأخير سنة ١١١٠ (٥٠٣هـ) بمحاصرة بيروت لاحتلالها. وساهم في هذا الحصار أسطول صليبي قوامه ٤٠ سفينة بعضها لأهل بيزا وجنوا الإيطاليين، وبعضها الآخر تابع لمملكة القدس اللاتينية، الأمر الذي جعل المدينة رهينة طوق محكم ضربه عليها الصليبيون من البر والبحر، ولما حاولت ١٨ سفينة حربية قادمة من مصر فك الحصار البحري عن بيروت لم يحالفها التوفيق. وكان سقوط طرابلس بيد الصليبيين قد هيأ لبولدوين قاعدة عسكرية اعتمد عليها في عملياته الحربية ضد بيروت وتشديد الحصار عليها. استمر حصار بيروت حوالى ١١ أسبوعاً ابتداء من شهر شباط (فبراير) إلى ١٣ أيار من سنة ١١١٠م (٥٠٣هـ) ولما يئس المدافعون عن المدينة من وصول نجدة من مصر عن طريق البحر تنقذهم مما هم فيه أو تساعدهم على الاستمرار في تحمل وطأة الحصار الخانق المضروب عليهم من البر والبحر، تسلل حاكم المدينة ليلاً إلى خارجها ناجياً بنفسه في مركب باتجاه جزيرة قبرص حيث سلم نفسه إلى حاكمها البيزنطي[٣]. وإذ أصبحت المدينة بغير حاكم يستمر في قيادة حاميتها وتنظيم الدفاع عنها، وضاق أهاليها بما آلوا إليه من نقص في أسباب الحياة اليومية والمواد الحربية والغذائية وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاستسلام لبولدوين بعد أن حصلوا منه على وعد بالأمان. ولكن بولدوين عندما دخل المدينة وأصبحت له السيطرة الكاملة عليها خفر بذمة البيروتيين وأخلف بوعد الأمان الذي أعطاه لهم، فترك لرجال الأسطول الأيطالي أهل بيزا وجنوا المجال لأن يعيثوا خراباً في مباني المدينة، وتقتيلاً لسكانها المتسأمنين، وراح هؤلاء الغزاة يطلقون العنان لغرائز الحقد والتعصب التي كانت تغلي في نفوسهم ضد الإسلام والمسلمين وأردَوْا المدينة تحت وطأة مذبحة لم تَسْتَحْيِ فيها الشيوخ والنساء والأطفال. وفي اليوم الثاني للإحتلال أخرج الأسرى المسلمين الذين وقعوا تحت يده إلى خارج المدينة وضرب أعناقهم كافة.

ولقد بلغ من هول الأعمال الوحشية التي ظهرت من الصليبيين عند احتلال بيروت أن أهل صيدا لما عاينوا الزحف الصليبي على مدينتهم وضايقهم الغزاة من كل حدب وصوب «ضعفت نفوسهم وأشفقوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أهل بيروت، فأرسلوا قاضيها ومعه جماعة من شيوخها إلى الفرنج وطلبوا من ملكهم الأمان[٤]..»

ولكي نقدم صورة قلمية عن هذه المعركة التي انتهت باحتلال الصليبيين لبيروت لأول مرة فإننا ننقل ما كتبه عنها الشيخ طنوس الشدياق في كتابه «أخبار الأعيان في جبل لبنان» حيث قال في هذا الكتاب (ج٢ ص٥٠٦ وما بعدها):

«.. وسنة ١١١٠ (م) جمع بلدوين أحد أمراء فرنسا جيوشه ونازل بيروت وحاصرها برًّا وبحراً، وكان في المدينة شجاع الدولة وجماعة من أقاربه، ولما تعذّر عليه فتحها استنجد بإفرنج السواحل وأمراء المردة فأنجدوه، فنهض إفرنج الشمال وتجمّعوا مع المردة في جبيل، ونهض إفرنج الجنوب وتجمعوا في مرج الغازية، ثم نهض الفريقان في يوم واحد: الشماليون على طريق الجرد، والجنوبيون على طريق الساحل ودهموا الغرب (أي قضاء عاليه اليوم) فنهبوه وأحرقوا وقتلوا وأسروا من وجدوه فلم

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان ج٢ ص٦٦٤.
(٢) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ص١٨ ـ حاشية لمحقق الكتاب الأب لويس شيخو اليسوعي.
(٣) هكذا، جاء في كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» تأليف ستيفن رنسيمان، نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العريني، ونشرته دار الثقافة في بيروت سنة ١٩٦٨ الطبعة الأولى ج٢ ص١١٩ ـ ١٥٠.
أما الدكتور فيليب حتى، في كتابه «لبنان في التاريخ» ترجمة الدكتور أنيس فريحة ومراجعة الدكتور نقولا زيادة، نشر دار الثقافة ببيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر سنة ١٩٥٩م، ص٣٥٠، فإنه قال «لما دخلها ـ أي بيروت ـ أعمل فيها السلب والنهب، =
= وقتل واليها وكثيراً من سكانها وأسر بعضهم ونجا البعض الآخر هرباً إلى جزيرة قبرص.
وكذلك فإن الشيخ طنوس الشدياق أكد قتل والي بيروت آنذاك كما سيجيء في متن البحث لاحقاً.
(٤) الكامل في التاريخ، لابي الحسن بن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ، الطبعة الأولى بالقاهرة ج٨ ص٢٦٠.

ينج من أهاليه سوى الغائبين والمنهزمين والمختبئين، فقتل من الأمراء الأمير موسى بن إبراهيم بن أبي بكر بن المنذر واولاده الصغار، والأمير القاسم بن هشام ابن أبي بكر وولده الأمير إدريس، والأمير مودود بن سعيد بن قابوس وولداه الأمير أسد والأمير زُهَيْر، والأمير مالك بن مصطفى بن عون، والأمير عُبَيْد ابن معضاد بن حسام، والأمير يحيى بن الخضر بن الحسين بن علي وأخوه الأمير يوسف، والأمير علي بن حليم بن يوسف بن فارس الفوارسي وأولاده وإخوته وبنو عمه فانقطعت بهم سلالة بني فوارس، وأُسر الأمير ثابت بن معروف بن علي وحفيده الأمير عبد الرحمن بن فراس بن ثابت ثم قُتلا مع المأسورين في بيروت، كما سيأتي. ولم يبق من الأمراء الموجودين في الغرب سوى الأمير بُحْتر ابن الأمير عضد الدولة علي إذْ أخفته أمه في عرمون حتى انجلت الإفرنج. ثم انحدرت الإفرنج إلى بيروت وشددوا عليها الحصار جدًّا ففتحوها بالسيف وذلك في ٢٣ نيسان (الصحيح ١٣ أيار كما ذكرنا من قبل) وكانت مدة محاصرتها شهرين فقتل من الأمراء خمسة: الأمير الكبير عضد الدولة علي وكان طويلاً عريض الصدر، شجاعاً غضنفراً كريماً عاقلاً صبوراً عليَّ الهِمة، والأمير سالم بن ثابت بن معروف، والأمير عبد الحليم بن علي بن طعمة وولده الأمير ساعد وأخوه الأمير عبد الرحيم بن علي، وأسر ثلاثة منهم الأمير الخضر بن علي بن الحسين وولده الأمير الحسين والأمير علي بن طعمة بن علي وجماعة غيرهم. وفي اليوم الثاني أخرج بلدوين الأسرى جميعاً خارج المدينة وضرب أعناقهم كافةً. وسار ـ أي بولدوين ـ بجيوشه برًّا وبحراً ونازل صيدا، وكان فيها الأمير مجد الدولة، كما مرّ، وشدّدوا عليها الحصار، ولما يئس الأمير ومن فيها من السلامة عقدوا مع الملك صلحاً ودفعوا له عشرين ألف درهم فخرج الأمير مجد الدولة سالماً وتسلم بلدوين البلدة.. وأتى الأمير إلى الغرب فوجده قاعاً صفصفاً، لا يُسمع فيه إلا البكاء والعويل.. ثم أخذ الأمير بترميم البلاد وإرجاع سكانه، واستقلّ بالإمارة..» ا. هـ.

هذا ما قاله الشيخ طنوس الشدياق عن معركة بيروت في يومها الأسود الذي جلببها بالدموع والدماء والدمار والخراب عندما دخلها بلدوين وأحلافه من الصليبيين، أما صالح بن يحيى فإنه عندما أتى على ذكر هذه المعركة في كتابه تاريخ بيروت قال تحت عنوان «فتوح الفرنج لبيروت»[١].

«فلم تزل بيروت في أيدي المسلمين من الفتوح الأول المذكور (أي الفتح العربي في صدر الإسلام) تنتقل من دولة إلى دولة والمسلمين (المسلمون) بها على أحسن حال وأسرّ بال، حتى نزل بها بغدوين (بولدوين) الفرنجي الذي ملك القدس وكثيراً من مدن الساحل في مجموعه وحشوده وحاصرها حصاراً شديداً حتى فتحها عنوة بالسيف في يوم الجمعة الحادي والعشرين شوال سنة ثلاث وخمسماية (١١١٠م) واستولى عليها قتلاً وأسْراً ونهباً.. فالأمر لله، ما شاء فعل!..» ا. هـ.

وقبل أن نطوي هذه الصفحة القاتمة في سجل العدوان الصليبي على بيروت نحب أن نختمها بما فعل هذا العدوان بغابة الصنوبر (الحرش) التي فيأت بظلالها الوارفة مدخل بيروت الجنوبي آلاف السنين وذلك نقلاً عن الدكتور فيليب حتى الذي قال[٢]: «.. وقد وجد الصليبيون في غابة الصنوبر التي كانت تحيط بالمدينة من جهة الجنوب، والتي لا تزال قائمة إلى عهدنا هذا (أي ١٩٥٩ م) مصدراً للأخشاب التي بنوا بها أبراجاً تشرف على المدينة لرمي الأسوار ودكّها».

مذبحة بيروت في أيام الصليبيين

ونذكر أن شره الصليبيين إلى القتل لم يتعفف عن إراقة دماء جيرانهم أمراء غرب بيروت البحتريين، غيلة وغدراً، فقد نقل الأب هنري لامنس اليسوعي عن «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى[٣] أن أمير باروت (هكذا كان الصليبيون يسمون بيروت) غوتييه كان يهمّ بتزويج أحد أبنائه، فدعا جميع الأمراء المجاورين، كآل لمبرياك (Lambriac) سادة جبيل وسادة سايت (أي صيدا) وذوي إقطاعاتهم. ولم يكن من اللائق أن ينسى أمراء الغرب من الدروز. ولا يخفي أن أعراس الصليبيين كانت غاية من الابّهة والفخامة. وقد لبّى رجالات البلاد الدعوة.

(١) كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى سعى بنشره وتعليق حواشيه وفهارسه الأب لويس شيخو اليسوعي عن نسخة مكتبة باريس، طبعة ثانية مصححة ـ طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٧م ص١٧ وما بعدها.

(٢) كتاب «لبنان في التاريخ» ص٣٤٩، ٣٥٠.
(٣) تاريخ بيروت، تأليف صالح بن يحيى، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي. ط٢ ص٥١. ويقول صالح بن يحيى إنه بعد الاجهاز على الضيوف الضحايا «ركب صاحب بيروت بمن عنده من جموع الفرنج في صبيحة تلك الليلة وطلعوا إلى الحصن (يقصد حصن سرحمور القريب من عرمون الغرب) وكان خالياً من الرجال، وهدموه وألقَوْا حجارته في الوادي ولا أبقوا له أثراً، وأحرقوا القرايا، وأسروا من تخلّف عن الهرب، وكان الأكثر قد هربوا واستتروا بالشعراءات والأودية.. فلما حضر السلطان الملك الناصر بن أيوب (أي صلاح الدين الأيوبي) لفتح بيروت في الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٣م) لاقاه حجي (ابن كرامة) الذي هرب مع أمه عند وقوع المجزرة وكان يومئذ طفلاً إلى قرية خلدة، فلما فتح السلطان بيروت لمس بيده رأس حجي وقال له: «ها قد أخذنا تارك من الفرنج، فطيّب قلبك وأنت مستمر مكان أبيك وإخوتك» وكتب له منشور العلامة (أي التعيين في المنصب).

وفي جملتهم أمراء الغرب (أي غرب بيروت، قضاء عاليه) وكان لديهم السلاح الفاخر والخيول المطهمة، ولم يكونوا ليتراجعوا عن التفاخر بها أمام سادة بيروت وسكانها، فيتنافسون وأولئك الفرسان لابسي الخوذ الفولاذية وحاملي الريش ملوك الفرنج، فلما كان وقت العرس، نزل الأمراء إلى بيروت فأنزلهم صاحبها (غوتييه) في بستان بظاهر البلد، واعتذر لإيوائهم خارج البلد لكثرة ما اجتمع فيه من طوائف الفرنج لوليمة العرس، وزاد في إكرامهم. ولما دخل الليل، سألهم الحضور إلى مجلس خاص قد هُيّئ لهم ولملوك الفرنج، فدخل الأمراء البحتريون إلى القلعة، ومعهم نفر قليل، فكان آخر العهد بهم..».

والأب لامنس، ناقل خبر هذه المذبحة التي كانت من «مآثر» الوحشية الصليبية في بلادنا وجد فيها متنفساً لما هو مشحون في صدره من رواسب الحقد على المسلمين والتعصب ضد الإسلام. فلم يستطع إلا أن يعلق عليها بقوله: «تخيّل الصليبيون طريقة موافقة أثرت دون شك في الشرقيين، أعرف الناس بتقدير القوة!»[1].

الزلازل مع الصليبيين تضرب بيروت

والصليبيون لم يكونوا وحدهم في إرهاق بيروت بالنكبات، فلقد نكبتها كذلك الزلازل في أيامهم. قال الأب لامنس اليسوعي في كتابه «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار»[2].

«.. قد جاء في خارطة لاتينية يرتقي عهدها إلى القرن الثاني عشر (الميلادي) رسم جزيرتين متوسطتين في الكِبَر، قريبتين من بيروت. وكذلك ورد في تواريخ الصليبيين أن الرهبان المعروفين باسم بريمنتريه (Prémontrés) كانوا يسكنون ديراً موقعه على مقربة من بيروت. وفي هذه الشواهد ما يدلّ على أن هذه الجزر غير الصخور الثلاثة أو الأربعة التي نراها اليوم عند رأس بيروت أو عند مصب نهرها. ولكن متى توارت هذه الجزائر؟ ليس لنا في ذلك نصّ صريح، ومن المرجّح أنها انخسفت في الزلزال الذي ذكره المقريزي في تاريخ المماليك سنة ٦٠٠هـ (١٢٦١م) حيث قال إن سبع جزائر بين عكة وطرابلس غاصت في لجج البحر. وقوله هذا يطابق الآثار التاريخية التي لم تعد تذكر، فيما نعلم، الجزائر المجاورة لبيروت بعد القرن الثالث عشر..».

إذن كان في بحر بيروت عدد من الجزر الصغيرة. ويمكن أن نسميها أيضاً صخوراً كبيرة، وقد غاصت هذه الجزر الصخرية في قاع البحر بسبب الهزات الأرضية التي ضربت المدينة. ومن الآثار الباقية الدالة على هذه الهزات صخرة الروشة التي تنتصب عالية في قلب الماء المالح. ويقول علماء طبقات الأرض (الجيولوجية) إن هذه الصخرة الضخمة كانت متصلة بالبر ثم انفصلت عنه نتيجة لتلك الهزات.

إغارة الأسطول الصليبي

في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) حاولت القوات العبيدية البحرية مباغتة الصليبيين الذين كانوا يحتلون العريش وغزة وعسقلان، ومهدت لذلك بالإغارة على الساحل اللبناني ووصلت فعلاً إلى بعض (ضواحي) بيروت حيث دارت بينها وبين الصليبيين معركة عنيفة، ولكن العبيديين لم يتمكنوا من اقتحام المدينة بالرغم من الخسائر الجسيمة التي مُني بها الطرفان المتحاربان وذلك بسبب كثافة الحامية الصليبية التي كانت آنذاك في هذه المدينة.

وفي سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٦ م) استنقذ السلطان المجاهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين بيروت في جملة ما استنقذه من السواحل اللبنانية، إلا أن شمس الحرية لم تبق مشرقة على هذه المدينة إلا حوالى العشر سنوات، ثم عاد إليها ظلام الاحتلال الأجنبي عندما دخلها الملك الصليبي آموري الفرنسي بمساعدة فريديريك الألماني الذي بادر لمساعدته آموري بقواته الألمانية ومخامرة النصارى الموجودين فيها للقوات الصليبية المهاجمة.

فقد حدث أنه عندما جرح الملك العادل سيف الدين (الأيوبي) في معركة صيدا انتقل إلى بيروت ليتحصن فيها، إلا أن بعض النصارى الذين كانوا فيها عاينوا الأسطول الصليبي بمقابل ساحل المدينة، فوثبوا على الحرس وقتلوهم وفتحوا أبواب القلعة للفرنج القادمين من جهة البحر. وفي اليوم التالي جاء العسكر الفرنج برًّا من جهة صيدا، وتمكن المهاجمون من اقتحام البلد ودخلوها في نهار الجمعة عاشر ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة (٢٥ تشرين الأول ١١٩٧ م).

كان حاكم بيروت من قبل الأيوبيين يومئذ الأمير أسامة بن منقذ، وقد انسحب منها بعد دخول الصليبيين إليها وانتقل إلى نواحي الجبل، ولذلك اشتهر باسم «أسامة الجبلي» وهو غير أُسامة بن منقذ الكاتب الفارس صاحب المؤلفات الذي عاش في

(١) أما الأب لويس شيخو الذي هو يسوعي أيضاً مثل لامنس، فإنه علق على خير هذه المذبحة في حاشية «تاريخ بيروت» بقوله «لا نعلم ما من الصحة في خبر هذا الأمر الشنيع» فإننا لم نجد له ذكراً في كتب الغربيين التي لدينا مع كثرة تفاصيلها، وقد رواه عن صالح ابن سباط.

(٢) «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار» للأب هنري لامنس - نقلاً عن مجلة المشرق طبع في بيروت، بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٣ الجزء الثاني ص١٨ (نقلاً عن المجلة الفلسطينية الألمانية ج١٠ ص٣١٠ وج٢١ ص ١١٦).

أيام صلاح الدين الأيوبي وكان حاكما على السَّلَمِيّة (شيزر) بسورية.

ويبدو أن المسلمين لم يكونوا راضين عن انسحاب الأمير المذكور من بيروت واتهموه بأنه لم يصمد أمام المهاجمين وسلمهم المدينة بدون الدفاع عنها كما يجب، وذلك فإنه «لما حصر الفرنج حصن تمنين (تبنين بجبل عامل) وسألوا صاحبه حاكمه في تسليم الحصن بالأمان، قال بعض من فيه لصاحبه (أي صاحب الحصن):

سلم الحصن، ما عليك ملامه　　لا يُلام الذي يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب　　سنة سنها ببيروت سامه

قال صالح بن يحيى: «فكان مدة استيلاء المسلمين على بيروت عشر سنين وشهراً واحداً وأحد عشر يوماً، ورجع الأمراء الفرنج في بيروت إلى ما كانوا عليه قبل فتوح السلطان صلاح الدين المذكور. وكانت القرايا (القرى) التي حول بيروت مسلمين، فأدوْا الطاعة والخراج للفرنج، وبقي لعز الدين أسامة الولاية الجبلية ثم سار إلى مصر». هذا، وبعد فتوح الفرنج لبيروت سلم ملك القدس آموري بيروت إلى أسرة إيبلين من الأسر الفرنسية الإقطاعية. وأول من حكم بيروت من هذه الأسرة يدعى جان إيبلين الذي بقيت بيروت تحت إمرته ٣٥ سنة متوالية.

بيروت بعد أن حررها المماليك

في شهر رجب سنة ٦٩٠ هـ (تموز ١٢٩١ م) استعادت قوات المماليك بقيادة سنجر الشجاعي مدينة بيروت من الصليبيين الذين تركوا المدينة بأمر من الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاوون واختاروا الإقامة في جزيرة قبرس. ولحق بهم بعض الموارنة من أبناء البلاد. وما يزال أحفاد هؤلاء الأخيرين في قبرس حتى اليوم حيث يؤلفون جالية مستقلة وعليهم أسقف منهم مقره في بيروت.

إن لبيروت ربًّا يحميها

وذكر صالح بن يحيى في تاريخه نقلاً عن النويري[1] أنه «في العشر الآخر من شعبان سنة ثمان وتسعين وستمائة هجرية (١٢٩٩ م) وصل إلى بيروت مراكب كثيرة وبطس (مراكب حربية) للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلة، يقال إن البُطس كانت ثلاثين بطسة في كل بطسة منها نحو سبعمائة مقاتل، وقصدوا أن يطلعوا من مراكبهم إلى البّر وتحصل غارتهم على بلاد الساحل، فلما قربوا من البّر، أرسل الله عليهم ريحاً مختلفة (مخالفة) فغرقت بعض هذه السفن وتكسّر بعضها، وحكي عن الريّس (رئيس الميناء) ببيروت أنه قال: «والله لي خمسون سنة ألازم هذا البحر، فما رأيت مثل هذه الريح التي جرت على هذه المراكب، وليست من الرياح المعروفة عندنا»[2].

غارات القراصنة الصليبيين

وفي سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) أغار القرصان الصليبيون على بيروت، وقد حدثنا صالح بن يحيى عن هذه الغارة في تاريخه بقوله[3]:

«.. في عيد الأضحى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م) حضرت شواني (سفن حربية) جنوية إلى بيروت قاصدين أخذ قرقور (سفينة طويلة، معرب عن اليونانية) لطائفة الكاتيلان (Catalans) - نصارى من إسبانيا - في ولاية عز الدين البيسري من قبل تنكز نائب الشام، وقصد المسلمون منع الجنوية من أخذ القرقور ولم يقدر المسلمون منعهم من الجند والسلاح، وتجرّح بعض الأمراء بعرامون، ودخل الجنوية الميناء وأخذوا الأعلام السلطانية من البرج، وقتل جماعة في البرّ، وانهزم المسلمون وقاتلوهم في الأزقة، وذكروا أن القتال استمر بينهم يومين».

وغارة أخرى للقرصان الصليبيين

وقعت هذه الغارة عندما هجم القراصنة الجنويون على بر بيروت واستطاعوا التسرب إلى المناطق المجاورة للميناء واستتروا بحيطان الاستحكامات القائمة في تلك المناطق، وعليهم مقدّم من كبرائهم وبيده سنجق (علم) حاول نصبه على القلعة فتصدى لهم المسلمون فقهروهم ورموا السنجق. فلما رأى القرصان الجنويون وقوع السنجق وهنت عزائمهم، فاندفع إليهم أصحاب النخوات من المسلمين، فازدحم الفرنج على الصقائل التي انقلبت بهم وانكسروا شرّ كسرة[4].

(١) تاريخ بيروت، ص٥٢.

نقول: أسامة هذا، ذكره ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» حوادث سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م) قال: سامة الجبلي (يقال سامة وأسامة) أحد أكابر الأمراء، وكانت بيده قلعة عجلون وكوكب (كوكبا اليوم) - وكان - في أيام العادل - شيخاً كبيراً قد أصابه النقرس (الفالج).. وداره - التي بدمشق - هي التي جعلها الباذرائي مدرسة للشافعية - وكانت وفاته في سنة ٦٠٩هـ (١٢١٢م). =

= أما أسامة بن منقذ، أحد ملوك شيزر، فكانت وفاته سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م). هذا وقد اختلط الأمر على لويس شيخو فجعل أسامة الجبلي هو نفس أسامة، صاحب شيزر.

(٢) تاريخ بيروت ص٣١.

(٣) المصدر السابق ص١٠١.

(٤) المصدر السابق ص٣٥.

وصالح بن يحيى أشار إلى هذه الواقعة مرتين في كتابه، وفي المرة الثانية روى لنا الدور البطولي الذي قام به أبوه يحيى وذلك حيث يقول(١):

«. . إن الفرنج نزلوا من مراكبهم إلى البر، وطلع منهم شرذمة إلى جوانب القلعة القديمة لنصب سنجق في شرفة عالية إشارة إلى أن الفرنج ملكوا البرّ ولتقوية قلوب من نزل منهم إلى البرّ، ولنزول باقيهم من الشواني. فلما رأى الأمير يحيى (والد المؤلف) ذلك هجم بمن معه من أصحاب النخوات وأرما (رمى) بنفسه على الذين معهم السنجق فطعنوه برماحهم حتى برك به الفرس. ثم نهض قائماً واقتحمهم حتى وصل إلى حامل السنجق فرماه، ووقع السنجق. فلما نظرت الفرنج الذين نزلوا إلى البر إلى السنجق أنه قد وقع لم يسعهم غير الرجوع إلى مراكبهم. وركبت المسلمون أقفيتهم فازدحموا على الصقايل، فوقع منهم جماعة كثيرة في البحر، وكانوا مثقلين باللبوس فغرقوا ولم يقدروا على السباحة، فعند ذلك نسبوا كسرة الفرنج إلى الأمير يحيى وعُرفت به. وقد قال لي ملّي، مقدّم جب جنين من البقاع فيما بعد ذلك: أنا وأبوك في الجنة لأني كنت إلى جانبه يوم وقعة الفرنج ببيروت، فلما أرما (رمى) الذي كان معه السنجق أنا الذي قطعت رأسه، وكان ملّي يفتخر بذلك بين الناس».

الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة

لم تسلم بيروت في عهد المماليك من الاضطرابات الداخلية التي كانت تثور بين الحين والآخر لأسباب مختلفة. ولما كان المماليك شديدي التعصب لمذهب أهل السنة والجماعة، فإن أبناء الفرق الشيعية اضطروا للأخذ بمبدأ التقية، وتظاهروا بأنهم من السنة درءاً للمتاعب وجلباً للمصالح، على أن ذلك لم يمنع بعض هؤلاء من الاحتكاك بأهل السنة والجماعة وإظهار الخصومة لهم، الأمر الذي كان يؤدي إلى الفتن الطائفية بين أبناء البلد الواحد، ويظهر أن الأمير يحيى والد صالح مؤلف كتاب تاريخ بيروت اتُّهم بضلوعه في إحدى هذه الفتن أيام الأمير بيدمر الخوارزمي فطلبه هذا الأمير وأهانه. وقد حدثنا صالح بن يحيى عن هذه الواقعة ناسباً إلى خليل بن ملّي، أحد أبناء صيدا إيغار صدر الأمير بيدمر على أبيه بما نسبه إليه من الضلوع بالفتن المذكورة. قال صالح:

«. . كان أبو بكر خليل بن ملّي من صيداء قد توصل عند بيدمر (أي عمل في خدمته) وكان شديد البغض للوالد، كثير الحسد له. وكان يذكره عند بيدمر بما يغضب بيدمر عليه. فلما عاد بيدمر إلى نيابة الشام جعل ابن ملّي المذكور خزنه دار صغير وأضمر الحقد على الوالد. فمن ذلك لما تحركت الشيعة في بيروت، وأظهروا القيام (أي تحركوا ضد أهل السنة والجماعة) ومعهم مرسوم سلطاني. وكانوا في الباطن قايمين بمذهب أهل الشيعة، فاغتنم بيدمر الفرصة، فجرى في بيروت بذلك حركة رديئة، فاستفرص (أي اغتنم) فيها على الوالد فطلبه وأهانه».

بناء المسيطبة على جثث قتلى الصليبيين

في أيام شيخ الخاصكي، الملقب بملك الأمراء سنة ٨٠٦ هـ (١٤٠٣) حضر الفرنج إلى بيروت «فلما رآهم أهل بيروت اشتغلوا بترحيل حريمهم وأولادهم وأمتعتهم، فأخليت المدينة من أهلها، ولم يكن بها حاكم ولا عسكر متجردين للحرب سوى أمراء الغرب ومعهم بعض جماعتهم. وكانوا قد ظنوا أن مع الفرنج خيولاً في المراكب، فخافوا من ذلك، فنزل الفرنج في محلة السنبطية(٢) غربي البلد وتمكنوا من الانتشار في بيروت ونهبوها وأشعلوا النار في أسواقها وبيوتها، ومن جملة ما نهبوه حواصل بهار لفرنج البندقية قيمته عشرة آلاف دينار، فبلغ البنادقة ذلك واقتصوا من الجنوية - الذين هاجموا بيروت - نظيرها وأزيد. وإن المسلمين عادوا وتنادوا مع أهل النخوات فيهم (القبضايات بلغة اليوم) وصاروا يتكاثرون على الفرنج حتى حشروهم في الأزقة وفتكوا بهم فيها. وقرابة العصر من نفس النهار حضر متولي البلد، يوسف التركماني الكسرواني وكان الفرنج قد رجعوا إلى مراكبهم وأجهز المسلمون على من بقي منهم في المدينة وآنذاك، طلب شيخ الخاصكي، ملك الأمراء، من المتولي يوسف التركماني الكسرواني أن يقطع رؤوس القتلى الفرنج وأن يُعمّر على أبدانهم مسطبة على باب بيروت (محلة المصيطبة المعروفة اليوم) ويكتب عليها اسم ملك الأمراء. فحصل في أنفس الذين قتلوا الفرنج الغيرة كون أن المسطبة تنسب إلى غيرهم، فهدموها ليلاً وأحرقوا ما كان بها من رمم الفرنج(٣)».

زلزال بيروت ١١٧٣ هـ

جاء في كتاب «تاريخ الشام» للخوري مخائيل بريك الدمشقي «إنه في صباح الثلاثاء في ١٩ تشرين الأول ١٧٥٩ مسيحية الموافق ٩ ربيع الأول ١١٧٣هـ قبل الشمس بثلاث ساعات، صارت زلزلة عظيمة بمدينة دمشق مقدار نصف ربع ساعة، وفي الصباح هنّت الناس بعضها بالسلامة. . ثم تواردت الأخبار بأن الزلزلة كانت عظيمة ممتدة في جميع البلاد العربية، البرّ والساحل، من حدّ أنطاكية إلى عريش مصر، مدن وقرى، وراح عالم وبلاد لا تعدّ، والزلازل لم تزل تتكرر وفيما الناس منهم خايفين وغير خايفين، وأناس يقولون بخارات أرضية وناس يقولون غضب من الله، لأنه ما سمع من نحو ستماية سنة أن صارت زلزلة في هذه البلاد. . . وفي الليلة الثامنة وعشرين من الزلزلة الاولى، ليلة الخامس عشر من تشرين الثاني ليلة الإثنين إذ حدث بغتة بسرعة زلزلة عظيمة مرهبة مخيفة مقدار نصف ربع ساعة هدمت الحيطان، وهدّت الأركان. . وياما حارات وبيوت راحوا واندثروا، وكان هذا غضب من الله على بلاد العربية جميعها وبلاد الشام. . من أنطاكية إلى القدس الشريف للعريش كنا نسمع كلام صدق عن الموت الذي وقع، شي مهول، فإنه ضربت البلاد وفنيت العباد والألوف التي راحت تحت الردم، لا تعدّ ولا يعلم فيها إلا باريها، ولم تزل الزلازل متتابعة إلى مدة سنة، مرة زلزلة ثقيلة وأخرى خفيفة والقلوب رجفانة إلى أن دخل الفنا. .»(١).

(١) المصدر السابق. ص١٨١، ١٨٢.

(٢) السنبطية، هي السنطية في أيامنا، وموقعها في الجهة الشمالية من بيروت على مقربة من البحر، وفيها مقبرة إسلامية، توقف الدفن فيها مؤخراً. والسنطية، نسبة إلى شجر السنط، الذي كان يكثر فيها.

(٣) تاريخ بيروت ص٣٧ - ٣٩.

الطاعون يجتاح بيروت

في سنة ١١٧٤ هـ (١٧٦٠م) تفشى وباء الكوليرا في البلاد السورية، ساحلاً وداخلاً كان الناس في الجيل الماضي يسمون «الكوليرا» الوبا، أو الهواء الأصفر، أو الطاعون. كما كانوا يسمونه أيضاً «الفنا» لأنه كان يُفني أعداداً كبيرة من الناس الذين يصابون به لعدم وجود الأدوية المضادة له، وكانت الوسيلة الوحيدة لتحصين الناجين منه هي ابتعادهم عن المصابين به والاعتزال في البيوت.

وقد أشار الخوري مخائيل بريك الدمشقي إلى هذا الوباء القاتل الذي اجتاح البلاد في السنة المذكورة فقال: «في هذه السنة (١٧٦٠ م) دخل الفنا (الوبا) للشام، وكان قدومه من ناحية عكة، واستقام في الشام ودايرتها (أي ما حولها) نحو ستة أشهر إلى آخر الصيف. وكان فنا عظيم كبير، وكان حدوده من أراضي غزة والرملة والقدس وبلاد حوران ودايرة الشام وساحل عكة وصيدا وبيروت وطرابلس إلى حدود أنطاكية وكل من تخبّأ وانحجب بِضَبْطٍ سَلِم. وبهذه السنة ظهر في الشام وتخبا النصارى بالبيوت والديورة بغير مانع، وتخبّى إسلام بالمخفي، لذا نظرنا وشاهدنا، وكل من لا يحتجب في أيام الفنا فهو مخالف ومخطي بحد ذاته، لأنها أيام غضب من الله تعالى لأن الله تعالى قال بلسان أشعيا النبي «أدخل يا شعبي إلى مخدعك إلى أن يجوز رجز الرب»(٢).

إنهيار كنيسة على من فيها

في السنة المذكورة (١٧٦٠م) انتهى بناء كنيسة للنصارى في بيروت تبرع بنفقاتها أحد وجهائهم المدعو «أبو عسكر» وبلغت كلفتها ما ينيف عن خمسين ألف غرش (عثماني) وفي نهار الأحد الثاني من الصوم عند النصارى، في شهر آذار، بينما كان الناس يحضرون القدّاس انهارت هذه الكنيسة على من فيها، ومات يومئذٍ تحت الردم مائة شخص. فكانت كارثة مروعة تأثر بها جميع البيروتيين المسلمين والنصارى وشملهم الحزن على مختلف مستوياتهم وطبقاتهم(٣).

المسكوب (الروس) يحتلون بيروت

عندما اختلف ظاهر العمر الزيداني(٤)، حاكم الجليل بفلسطين مع الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان وبيروت سنة ١١٨٥ هـ (١٧٧١ م) طلب ظاهر العمر من حليفته كاترين الثانية إمبراطورة الروسيا آنذاك إرسال مراكبها في البحر الأبيض المتوسط لضرب صيدا وبيروت اللتين كانتا في عهدة الأمير الشهابي، ولقد روى لنا الأمير حيدر أحمد الشهابي في تاريخه هذه الواقعة فقال: «وأما الغلايين(٥) المسكوبية بعدما انكسرت عساكر الدروز والدولة (العثمانية) عن صيدا، سارت المراكب

(١) تاريخ الشام (١٧٢٠ - ١٧٨٢) يتضمن تاريخ الشام وفلسطين ولبنان - سياسيًا - عني بتعليق حواشيه مع ملحق جزيل الفائدة الخوري قسطنطين الباشا المخلصي - نشر «مجلة المسرة» طبع بمطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) سنة ١٩٣٠، ص٦٨.

(٢) المصدر السابق ص٧٠.

(٣) المصدر السابق ص٨٩.

(٤) ظاهر العمر هو ظاهر بن عمر بن أبي زيدان، ولد سنة ١١٠٦هـ (١٦٩٥م) يقال إن أصله من المدينة المنورة، جاء في دائرة المعارف للمعلم بطرس البستاني أن ظاهر العمر كان حاكم عكة وشيخ مشايخ بلاد صفد، وما لبث أن ضم إليه طبرية وصيدا. خرج على الدولة (العثمانية) في أواسط القرن الثامن عشر (الميلادي) فجهزت الدولة هذه عدة حملات عادت كلها خائبة. وفي سنة ١١٨٩هـ (١٧٧٥م) جرد حاكم مصر محمد أبو الذهب حملة ضد الظاهر بإيعاز من الدولة، فاستولى على غزة ثم على عكة، وقد هرب الظاهر أولاً إلى جبال صفد، ثم إلى صيدا التي كان يحكمها أحد رجاله أحمد آغا الدنكزلي، وهنا جردت الدولة أسطولاً حاصر صيدا بقيادة حسن باشا، فانقلب الدنكزلي على سيده ورفض محاربة الأتراك. وظل الظاهر يحاربهم وحده. وكما قطع أمله من النصر، قفز من صيدا إلى بلاد بشارة (جبل عامل) ليحتمي عند صديقه الشيخ قبلان من أسرة علي الصغير (أجداد كامل بك الأسعد) في قلعة هونين. وفي الطريق كمن له الدنكزلي وقتله وكان ذلك سنة ١١٩٦هـ (١٧٨٢م).

(٥) الغلايين: كلمة يطلقها اللبنانيون على السفن، ومفردها غليون. والذي يموّن الغلايين بالوقود والمواد الغذائية يسمى «الغلاييني»، وفي سورية ولبنان عائلات كثيرة باسم «آل الغلاييني».

إلى مدينة بيروت، وعند الصباح ملكوا جانب البحر وأحرقوا بعض الأبراج، فهربت بيت شهاب بحريمهم من المدينة وجميع أهالي البلد إلى البرّ (أي الضواحي) ونهبت الإفرنج بيروت، ورجعت إلى المراكب خوفاً من تكاثر العساكر عليهم. ولما وصل الخبر إلى الأمير يوسف، توجه من دير القمر إلى بيروت برجال البلاد إلى الحدث (القرية القريبة من بعبدا) فأرسل ساري عسكر (قائد العسكر) المسكوبية وكان يسمى سنبيكو (لعله الأميرال سبيريدوف Spiridoff الوارد ذكره في المؤلفات الغربية) يطلب من الأمير خرج عسكر (نفقات العسكر) ليسافر عن المدينة، فوجه الأمير خدمة (رشوة) تبلغ خمس عشر كيس، وبالحال سافر (أي سنبيكو) إلى عكة».

عودة الروس إلى بيروت

بعد الخصومة التي كانت بين الشهابيين وبين ظاهر العمر الزيداني، تصالح الطرفان لمواجهة أحمد باشا الجزار الذي حصَّن بيروت ورفض تسليمها للأمير يوسف الشهابي الذي كان قد عينه والياً من قبله. قال الأمير حيدر الشهابي في تاريخه: «فعند ذلك كتب الأمير يوسف وعمه (الأمير منصور الشهابي) كتاباً إلى ضاهر (ظاهر) العمر بأن يحضّر إليهما السفن المسكوبية المقدم ذكرها لمعونتهما على إزاحة الجزار من مدينة بيروت، وكانت السفن في ذلك الحين موجودة في جزيرة قبرس، وقد ازدادت عن الأول، فأرسل ضاهر العمر كتاباً إلى أمير تلك السفن بأن يحضر إلى قبالة مدينة بيروت لمعاونة الأمير يوسف على افتتاحها. وكان بين ضاهر والمسكوب عهود كما ذكرنا، وكانت ملكتهم (كاترين الثانية) أصدرت أمراً لسفنها التي في البحر الأبيض بأنها تسير إلى ما يطلبها إليه ضاهر العمر. فلما وصل كتابه إلى أمير السفن، أقلع بها من الجزيرة المذكورة (أي قبرس) وحضر إلى قبالة بيروت. ولما قابلها، راسله الأمير يوسف والأمير منصور وجعلا له ثلاثماية ألف قرش صلة ونفقة على فتوح بيروت واستخلاصها من الجزار وتسليمها لهما، وأرهنه الأمير منصور على ذلك ولده الأمير موسى. وكان يقال لأمير تلك السفن «كنتو جونيّ» فشرع في حصار المدينة، وأرسى سفنه في قرب الجزيرة التي تقابل برج أبو هدير، وأخرج منها رجالاً إلى البر، وأقام الحصار عليها براً وبحراً، وطفق يطلق المدافع ليلاً ونهاراً بالتواصل من غير انقطاع حتى خيّل للناس أن الساعة أقيمت والجبال دُكّت، وقيل إن صوت تلك المدافع كان يُسمع من قبّة السيّار التي فوق ظاهر دمشق (؟) ودام ذلك الحصار على المدينة أربعة أشهر، فتضايق الجزار ومن معه من شدة الحصار، وفرغت من عندة الميرات (الأقوات والأغذية) والإقامات وصادفوا جوعاً شديداً حتى آكلوا لحوم الخيل والدوابّ، فعند ذلك أرسل الجزار كتاباً إلى ضاهر العمر يلتمس منه النجاة والسلامة له ولمن معه على أن يسلم البلدة ويخرج منها بأصحابه وبمن يتبعه من أهلها، فأجاب ضاهر التماسه، وخاطب الأمير يوسف بذلك، فأجابه بالرضى فيما طلب، فحينئذٍ أرسل ضاهر رجلاً من خواصّه يقال له «يعقوب الصيقلي» فحضر إلى مدينة بيروت فدخلها، وأخرج الجزار وأصحابه ومن تابعه من أهلها بالسلام منها، وسار بهم إلى عكة، وسلم المدينة إلى الأمير يوسف فاستولى عليها وأخذ أسلحة أهلها وجرّمهم جرماً غليظاً. ولما استولى الأمير يوسف على البلدة، طالبه كونتو جونيّ بالمال الموعود، فدفع له بعضاً استفكّ به ولَدَعمه المرهون، وبقي بعض، فوضع كنتو جونيّ رجلاً من قِبَله يقال له إسطفان في القلعة ومعه رجال من المساكبة (أي الروس) على أن يقيم فيها إلى أن يدفع الأمير يوسف ما بقي عليه من الثلاثماية ألف المذكورة. وأقلع راجعاً بسفنه إلى جزيرة قبرس» ا. هـ.

وهناك مخطوطة يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٧٤ م كتبها بخطه المطران الياس الجميّل رئيس أساقفة قبرس. انتهى من كتابتها في ٢٥ حزيران ١٧٧٤ م، فيها تفصيل ما جرى في بيروت عندما حاصرها الأسطول الروسي وضربها بالمدافع وأنزل فيها العساكر المسكوبية وقد جعل الكاتب تاريخ هذه الكائنة في آخر شهر حزيران سنة ١٧٧٣م بدلاً من سنة ١٧٧٢م، ونظراً إلى أن هذه المخطوطة كتبت في زمن الكائنة المذكورة مما يعطيها صبغة تاريخية تعبر عن نفسية كاتبها التي هي في نفس الوقت نفسية الطائفة التي ينتمي إليها في ذلك الحين، فإننا ننقلها هنا بنصها الحرفي الكامل باعتبارها وثيقة تاريخية مهمة في تاريخ بيروت الحديث. وفيما يلي هذه النص[1]:

«.. في هذه السنة (١٧٧٣ م) في آخر شهر حزيران أتى عسكر بحري من قبل سلطانة المسكف (المسكب أي الروس، وقد تنوب الفاء عن الباء باللفظ) لمحاصرة مدينة بيروت بسبب الجزار لأنه ضايق على النصارى وعلى حكام بيت شهاب وخرّب إسكلاتهم (موانيهم) وأحرق حاراتهم وقطع أملاكهم (أشجارهم) فلذلك بمؤزارة حضرة الأمير منصور شهاب صار الصلح ما بين الشيخ ضاهر العمر، حاكم مدينة عكة سابقاً ومدينة صيدا أيضاً حالاً، وبين جناب الأمير يوسف شهاب حاكم جبل الدروز (هكذا كان اسم جبل لبنان في حينه) وإيالة طرابلس إلى حدود الضنية، وباتفاق المذكورين جابوا العسكر البحري باسم

(١) نقلنا نص هذه المخطوطة من كتاب «تاريخ أحمد باشا الجزار» للأمير حيدر أحمد شهاب نشره ووضع مقدمته وحواشيه وفهارسه وألحقه بذيل تاريخي: الأب أنطونيوس شبلي اللبناني، والأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، طبع مكتبة أنطوان ببيروت سنة ١٩٥٥. وقد جاء في هذا الكتاب ص ٣١٧ ما يلي: بين لبنان وروسية في عهد الشهابيين، أثر تاريخي قديم من أيام الجزار في بيروت.

المسكف وحاصروا مدينة بيروت وحاكمها الجزار بالبحر والبر مقدار خمسة أشهر ورموا عليها نحو عشرين ألف كلَّة (قذيفة) مدفع بمدة ثمانية أيام ولم ينال عمارها ضرر إلا قليل، ثم بعد ذلك رفعوا القواس وحاصروهم بقطْع المآكل والمشرب حتى سَلَّمت المدينة وطلع الجزار سالم بقول الشيخ ضاهر (أي بتعهّد منه) وتسلّم القبطان المسكوفي المدينة وسلمها لجناب الأمير يوسف شهاب. وحضرة الأمير المذكور قدّم خدمة (رشوة) له ستماية كيس دراهم (الكيس فيه ٥٠٠ غرش تركي) وخرج عسكره ونصب القبطان راية الصليب على القلعة وبرج المينا، ووقف من قبله قبطان وصار من قبل ذلك ضيقة زايدة على المسلمين وانضبط سحتهم (السحت كل ما يقتنيه الإنسان من مالٍ وغيره) من حضرة الأمير يوسف. وبعد ذلك عمَّر المدينة.. ومشيت المراكب لبيروت وارتفع اليسق (أي الحصار) جعل الله التمام إلى خير.. آمين».. ا. هـ.

اختلاف عسكر الجزار فيما بينهم

في صباح اليوم الثاني من شهر آذار ١٧٩٤ م حدثت خصومة بين الدالاتية والمغاربة (عسكر الجزار) واشتبك الشر بينهم وكانت الأرناؤوط من جانب الدالاتية فانتصرت على المغاربة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى كادوا يفنونهم وتبددت العساكر وهربت الحوالات.. وفي إقامة العسكر هذه المدة في حرج الصنوبر قطعت أشجار التوت وخَرِبت البيوت وتعطلت أرزاقاً لا تقدّر.

فتنة طائفية

وفي هذه السنة المذكورة نزل أناس من زرعون، فقتلوا رجلاً من مسلمي بيروت لأن الأمير بشير (الشهابي) كان قد أوقف واحداً من الزراعنة ارتكب جريمة القتل وسلمه إلى متسلم بيروت فشنقه. فأخذ الزراعنة ثأرهم من البيروتيين بعد ذهاب عسكر الجزر. مما أهاج المسلمين في بيروت فراحوا يخطفون كل من صادفوه من أبناء الجبل، وقتلوا منهم ما ينيف عن مائة نفر أكثرهم نصارى[1].

الطاعون مرة ثانية

وفي السنة المذكورة تفشى وباء الطاعون (الكوليرا) في بيروت وامتد إلى غالب لبنان وفلسطين ودام نحو ثمانية شهور، إلا أن ضرره كان محدوداً لاحتياط الناس منه.

وبعد أن تخلصت بيروت من سموم الهواء الأصفر عمها وباء الجدري واستشرى في نفس المدينة وامتد إلى ضواحيها، وفقد به أناس كثيرون، وقيل إنه فعل بالبلد أكثر مما فعل الطاعون. واستمر الناس يعانون من وباء الجدري حوالى السنة بكاملها.

غارة الأروام على بيروت

جاء في مجلة الكشاف (البيروتية) الصادرة سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) تحت عنوان «منذ مائة عام» ما يلي:

«قيل إن أحد تجار الشام (دمشق) كان يتشاءم من يوم الأربعاء، وكان أرسل إلى عميل له في بيروت صناديق فيها زبيب وقمر الدين ونقوع وذكر له في كتبه إليه: إني مرسل لك البضاعة وستصل إليك مساء الثلاثاء، فآمل منك أن لا تبيعها يوم الأربعاء، بل أجّل بيعها إلى يوم الخميس، لأن يوم الأربعاء يوم شؤم. واتفق أن الأروام دخلوا المدينة يوم الأربعاء، وكان معظم الناس قد أنهوا أعمالهم ورجعوا إلى منازلهم، فانتهز الأروام الفرصة ودخلوا المدينة وأخذوا في نهبها، وكان من نصيبهم بضاعة ذلك الدمشقي وقد ذكروا أن الأروام أخذوا من أهالي بيروت عدة أسرى من عائلات الحصّ ودسُّوم والتنِّير والعيتاني، وقيل إن عائلة الحصّ افتدت أسيرها بمبلغ وافر.» ا. هـ.

نقول: إن هذه الغارة قام بها القراصنة الأروام على شاطىء بيروت في جهة عين المريسة التي كانت وما تزال مأهولة بالعائلات الإسلامية المذكورة في مجلة الكشاف التي نقلنا هنا الخبر عنها. ولقد حدثني الأستاذ رفيق البراج رحمه الله أن عائلته كانت من سكان تلك المحلة وأن أباه وغيره من هؤلاء السكان كانوا دائماً على حذر من غارة الأروام عليهم وعندهم بنادق يستعملونها في الدفاع عن أنفسهم من هؤلاء المغيرين وأنه (أي الأستاذ البراج) ما زال يحتفظ في بيته بالبندقية التي كان والده يستعملها للغاية المذكورة. هذا، وفي مجموعة الوثائق التي كان زميلنا السابق في دار الكتب الوطنية البحاثة المدقق نور الدين بك بيهم رحمه الله يحتفظ بها، نسخة أصلية من كتاب أرسله متولي بيروت عبد الله باشا إلى قاضي ومفتي بيروت، ومتسلمها وأمين جمركها جواباً على ما كانوا أرسلوه إليه بشأن الغارة التي أشارت إليها مجلة الكشاف المذكورة، وفي هذا الكتاب يطمئن المتولي عبد الله باشا الأعيان المشار إليهم بأن الدولة قد أخذت علماً بما ذكروه في رسالتهم إليه وأن السلطان سيرسل العساكر اللازمين لتأديب المغيرين وحماية بيروت وسكانها من أذاهم وعدوانهم.

واستكمالاً للفائدة التاريخية، فإننا ننقل هنا نص كتاب المتولي عبد الله باشا الذي نملك شخصياً صورة عن نسخته الأصلية. وفيما يلي هذا النص:

«افتخار العلماء الكرام وزبدة الفضلاء الفخام قاضي ومفتي

(١) المصدر السابق ص ٤٤٣.

أفندي مدينة بيروت حالاً زيدة (كذا) فضائله وعلومه وافتخار الأماجد والأعيان متسلمنا في بيروت وأمين كمركها حالاً ولدنا الحاج سليمان أفندي زيد مجده.

غبّ التحية والتسليم بمرسوم الإعزاز والتكريم والسؤال عن خاطركم بكل خير، المُنْهي إليكم: اطلعنا على تحريركم المتضمن ورود اثني عشر مركب من الكفرة الأروام الخاسرين بحول رب العالمين الواقع ـ بينكم وبينهم ـ وتحريركم بطلب زلام من طرف ولدنا الأمير بشير الشهابي والتماسكم الإمداد من طرفنا بالعساكر والمهمات والزخاير لأجل تقوية بأسكم وخذل هذه الفئة الضالة، جميع ذلك صار معلوم فنخبركم أن مدينة بيروت هي خالص مالكاتنا ولا تحتاج إلى إمداد من طرف أحد إلا من طرفنا وبحوله تعالى وقدرته وباهر جلال عظمته وبمدد روحانية سيد المرسلين وأنفاس حضرة مولانا السلطان نصره العزيز الرحمن نلحق العسكر بالعسكر وندعي المهمات والزخاير متصلة من باب محروسة عكاء إلى باب بيروت فكونوا شادّين عزمكم ومقوّين بأسكم ولا يدخل عندكم أدنى افتكار من هذه المادة الجُزْوية وبهذه الليلة موجهين لكم السروجي بمرسومنا هذا جواباً لتحريركم ومصباح بكرة بعونه تعالى نُسيّر لطرفكم العساكر المقتضية مع البارود والإمداد والزخاير والمدافع فيلزم منكم الانتباه والتيقظ ليلاً ونهاراً لحين وصول المهمّات مع عساكرنا المنصورة لطرفكم وإيّاكم من الغفلة بذلك لأن هذه الشرذمة الخاسرة الظاهرة في شدّة ضنك أحوالهم إلى الفرار وقريباً بحوله تعالى يحلّ بهم الانتقام والدمار ونسأله تعالى نُصرة عساكر الإسلام على الأعداء الكفرة اللئام وبمنّه تعالى لا تلزم لكم زيادة تأكيد بكلّما أمرناكم به وإن شاء الله تعالى أنتم المنصورين المؤيّدين والكفرة هم المخذولين المقهورين وهذا ما لزم إخباركم والسلام ٢ آب ٢٤١

متولي عكاء: السيد عبد الله

حصار إبراهيم باشا لبيروت

في سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١م) تقدمت العساكر المصرية بقيادة إبراهيم باشا(١) وبتشجيع من الدولة الفرنسية واحتلت البلاد السورية وفي جملتها لبنان. وبالرغم من الإصلاحات الاجتماعية والإدارية التي حققها إبراهيم باشا قائد العساكر المصرية في هذه البلاد، فإن السكان ، لا سيما المسلمين، لم يتعاونوا مع المصريين وحافظوا على ولائهم للدولة العثمانية باعتبارها دولة الإسلام وعلى رأسها السلطان الذي يحمل لقب الخليفة أمير المؤمنين. وبعد حوالى عشر سنوات، أصبحت القيادة المصرية في موقف حرج، فلم ترَ بُدًّا من إعلان حالة الحصار في جميع المدن الساحلية ومنها بيروت بالذات، وذلك لمنع اتصال الأهالي بالدولة العثمانية وحلفائها الإنكليز والنمساويين عن طريق أساطيلهم التي كانت ترابط بالقرب من الشاطىء البيروتي.

وقد أدت حالة الحصار التي فرضتها السلطات المصرية على هذه البلاد إلى مضايقة السكان المحليين والأجانب. وفي التقرير الذي بعث به أنطونيو كاتافاكو(Antonio Catafago) قنصل النمسة في عكة وصيدا آنذاك إلى قنصل النمسة العام في الإسكندرية، صورة عن هذا الحصار وتأثيره على بيروت. وفيما يلي نص التقرير:

«إلى حضرة السيد ا. لوران، قنصل النمسة العام في الإسكندرية

حضرة المستشار

تلقيت كتاباً من وكيل قنصل النمسا في بيروت يخبرني فيه أن سعادة سليمان باشا(٢) قد بلّغ رسميًّا قناصل الدول في تلك المدينة أن سواحل سورية أصبحت في حالة الحصار وأن عليهم أن يُطْلعوا السلطة العسكرية على كل الجرائم والجنايات التي يرتكبها الوطنيون أو الأجانب مهما كانت تبعيّتهم. وإنها عازمة على تطبيق حكم الإعدام على كل من يُدخِل إلى سورية كتابات أو مناشير داعية إلى العصيان، وعلى كل من يجلب أو يوزّع ذخائر حربية او مُؤناً للطعام دون استئذان السلطة المذكورة. وإنها ستنفّذ أيضاً حكم الإعدام في كل من تثبت عليه تهمة التجسّس أو تحريض السكان على الانتقاض، سواء كان ذلك شفهيًّا أم كتابة أم نقداً. أما الذين يحملون أو يخبئون كتابات أو مناشير ثورية، فتعاقبهم بالسجن من خمس سنين إلى عشرين سنة إذا لم يقدّموها إلى الحكومة المحلية في مدة لا تزيد عن عشرة أيام تبدأ من يوم الإعلان المذكور. وهذه الأحكام تنفذ دون حاجة إلى موافقة قائد جيوش الساحل العام عليها. وقد أسرع جميع القناصل إلى الاحتجاج على هذه التدابير المناقضة للعهود الدوْلية لأننا لو قبلناها وضعنا جميع رعايانا تحت رحمة السلطة المحلية ومنحناها حق الحجز حتى على مراسلاتنا الرسمية»(٣).

بيروت تحت قنابل الإنكليز

اعتبرت بريطانيا وجود المصريين في سورية خطراً على طريق اتصالها بالهند التي كانت تعتبرها «الدرة الثمينة» في تاج الإمبراطورية. لذلك بادرت إلى التحالف مع كل من بروسية والروسيا والنمسة لمساعدة الدولة العثمانية على إخراج المصريين من هذه البلاد وإعادتها إلى السيادة العثمانية. ولأجل تبرير الحرب ضد المصريين بغطاء مقبول لدى الرأي العام العالمي، ذكرت هذه الدول الخمس في بيانها الذي أصدرته في ذلك الحين وحفظ في وزارة الخارجية البريطانية أن الغاية من تدخلها «الحفاظ على سلامة السلطنة العثمانية ولها ـ أي الدول المذكورة ـ ملء الحق في الحفاظ على سلامتها ـ أي سلامة السلطنة العثمانية ـ لأن سلامتها من مقتضيات توازن القوى في

(١) هو إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا المولود ببلدة «نصرتلى» القريبة من مدينة «قَوَلة» بالروللي سنة ١٢٠٤ هـ (١٧٩٠م). بعض الكتاب الأجانب شكك في أن يكون محمد علي باشا هو أبوه بالفعل ويقولون إن محمد علي باشا قد تبناه. وفي كتاب «أعلام الفكر الإسلامية في العصر الحديث» لأحمد تيمور باشا، الذي نشرته لجنة نشر المؤلفات التيمورية وراجع ووقف على طبعه محمد شوقي أمين (طبعة أولى ص ٢٠٨) أن «إبراهيم باشا جاء كبيراً مع والده ـ محمد علي باشا ـ وأمه هي أم طومسون وإسماعيل وزهرة وناظلة، وكانت أشرف بيتاً من بيت محمد علي وتزوجت قبله بأحد أبناء الكبار، ثم نفرت منه فطلقها وغضب أهلها وأقسموا أن لا يزوّجوها إلا بشخص منحطّ عن مرتبتها، فتزوجها محمد علي، ومن يريد الطعن في نسب إبراهيم يقول إنها تزوجت محمد علي وهي حامل من زوجها الأول، فولدت إبراهيم على فراشه. فهو ليس بولده وهو قول لم يثبت». على أن خير الدين الزركلي ذكر في أعلامه ـ طبعة دار العلم ببيروت ـ الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩م) ج ١ ص ٧٠ ـ في الحاشية ـ يقول: «.. وفي الصحف المصرية (٢ ديسمبر ١٩٥٣) يقول عباس حليم ـ وهو من حفدة محمد علي باشا إن إبراهيم لم يكن ابن محمد علي، وإنما تزوج هذا بأمه. وكان أصغر من محمد علي باثنتي عشرة سنة».

(٢) أسمه الأصلي أنتلم سيف(Anthelme Sève) ولد سنة ١٧٨٨ بمدينة ليون بفرنسا. بدأ حياته العسكرية في جيش نابليون الأول إمبراطور فرنسة. وفي سنة ١٨١٩ انتقل إلى القاهرة وعمل مدرباً للجيش المصري في أيام محمد علي باشا. واشترك في الحملة التي قادها إبراهيم باشا لاحتلال البلاد السورية سنة ١٨٣١م. أثناء وجوده في مصر أشهر إسلامه وعرف عند الناس باسم «سليمان باشا الفرنساوي».

(٣) كتاب: فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسورية، نقلاً عن تقارير أنطوان كتافاكو قنصل النمسا في عكا وصيدا (١٨٣١ ـ ١٨٤١) عربها وعلق عليها الخوري بولس قرالّي سنة ١٩٣٧. ص ٨٨، ٨٩.

أوروبة وضرورية «لحفظ السلام في العالم»(١). وقد جردت الدول المذكورة أسطولاً لعملياتها الحربية مؤلفاً من ٢١ قطعة حربية بريطانية معقودة اللواء على السير روبرت ستوبفورد (Robert Stopford) و٢٤ قطعة من سفن النقل التركية المرابطة في الميناء و٦ مراكب حربية نمساوية يخفق عليها العلمان العثماني والنمساوي (٢) وفي اليوم التالي لوصول الأسطول، بدأ يصب نيران مدافعه على بيروت، وظل يلقي قذائفه سبعة أيام متواصلة فتهدم فيها كثير من الأبنية ونهبت أكثر البيوت ومن جملتها بيت القنصل الأميركي جاسبر شاسود المشرف على الميناء، وكان المبشرون الأميركان يقيمون فيه صلاة إنكليزية كل يوم أحد قبل الظهر.

ويحدثنا القس البروتستانتي الأميركاني كارنيلوس فانديك في مذكراته عن تلك الأحداث المؤلمة التي عاشها بنفسه حينما كان في بيروت ضمن مجموعة من نظرائه المبشرين الأميركان الذين حضروا إلى بلادنا لنشر المذهب البروتستانتي فيها. يقول فانديك: «أما بيروت، ففي أثناء حربها نزل المرسلان الأميركانيان اللذان كانا فيها (وهما القس طومسون والقس بيدل) إلى دارعة أميركانية حملتهما إلى قبرص، ولم يمس بنايات المرسلين سوء من القنابل لأنهم أخبروا البحّارة الإنكليزية بموقعها، إلا ما كان منها وراء القشلاق(٣) (السراي الكبير) فإنه تعطل قليلاً. وقد وجدوا من القنابل نحو ٤٠ قنبلة في حديقة المدرسة(٤) ظلت زماناً طويلاً مصفوفة هناك يراها الناس»(٥).

وكان من نتائج هذا القصف الشديد أن غادر سليمان باشا الفرنساوي حكمدار العساكر المصرية بيروت في ٩ تشرين الأول ١٨٤٠م بعد اقتناعه باستحالة استمرار صموده فيها تاركاً في المدينة فرقة من الجنود الذين اضطروا للاستسلام إلى القوات المهاجمة بتاريخ ١١ من الشهر نفسه.

وبذلك عادت راية الهلال العثمانية إلى سماء بيروت وبقيت فيها إلى أن طويت بصورة نهائية عند نهاية الحرب الكونية الأولى سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨م).

فاجعة بيروت سنة ١٩٠١

هكذا وصفت الصحف حادثة انهيار «بناية أيّاس» في بيروت فجر يوم الخميس في ٣١ أيار ١٩٠١. وقد ذكرت هذه الحادثة في حينها جريدة «ثمرات الفنون» التي قالت(٦): «في غربي ساحة السمك عند منتهى باب إدريس بناية لبني أيّاس تتألف من ثلاثة طوابق ذات ست دوائر وسبعة مخازن، قيل إن إنشاءها كان منذ ١١ سنة، وقدد حدث فجر الخميس ١٢ صفر ١٣١٩ هـ (٣١ أيار ١٩٠١ م) انهدام هذا البناء على حين غرة من سكانه الذين كانوا مستسلمين للرقاد وغير حاسبين لنكبات الدهر حساباً. وسمع لهذا الانهدام صوت كالرعد، ولم يمض بضع ثوانٍ حتى دُكّت الطوابق الثلاثة فوق بعضها البعض».

وقد كان لهذه الحادثة دوي كبير في أوساط الرأي العام البيروتي آنذاك وتردد صداها في داخل بيروت وخارجها لكثرة الضحايا الذين دفنوا أحياء وهم نيام تحت أنقاض البناء المتهدم الذي كان يخص آل أيّاس، وهم عائلة بيروتية معروفة في أيامنا.

وقد أثار انهيار هذه البناية عواطف الشعراء في ذلك الحين،

---

(١) «لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر» تأليف الدكتور فيليب حتّي، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، مراجعة الدكتور نقولا زيادة، نشر دار الثقافة ببيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت - نيويورك ١٩٥٩ ص ٥١٦)

(٢) كانت القيادة العامة للسفن الإنكليزية والنمساوية معقودة اللواء للأميرال السير روبرت ستوبفورد (Admiral Sir Robert Stopford) والسفن النمساوية معقودة اللواء للأميرال بنديرا (Bandeira) الموظف في البحرية العثمانية والمعروف في تركية باسم باور باشا وكانت القوات البرية المتحالفة مؤلفة من ٥٣٠٠ عسكري عثماني و١٥٠٠ عسكري إنكليزي و ١٠٠ عسكري نمساوي، وعلى رأس هذه القوات البرية جميعها الجنرال السير تشارلس سميث (Général Sir Charles Smith) وكان معهم من القواد العثمانيين محمد عزت باشا ومحمد سليم باشا. وبما أن تشارلس سميث كان مريضاً آنذاك، فقد تسلم القيادة نيابة عنه الكومودور نابيير (عن كتاب إبراهيم باشا في سورية، تأليف سليمان أبو عز الدين) طبع بالمطبعة - العلمية في بيروت سنة ١٩٢٩ ص ٢٧٥، ٢٧٦.

(٣) القشلاق: كلمة تركية بمعنى ضريبة وتطلق على جابيها فسمّي بها، ثم لفظها عامة أهل بلدنا - بيروت - «القشلة» ويقصدون بها الثكنة العسكرية. وكانوا يطلقونها على السراي الكبير الذي كان في العهد العثماني يُعرف باسم «قشلة العساكر الهمايونية». ولما احتل الفرنسيون بلادنا سنة ١٩١٨م أنزلوا فيها عساكرهم ثم حولوها إلى مركز للمفوض السامي - حاكم البلاد آنذاك - وأصبحت تعرف عند الناس باسم «المفوضية العليا» نسبة إلى المفوض المذكور. وفي العهد الاستقلالي = أطلق عليها الناس اسم «السراي الكبير» تمييزاً لها عن السراي الصغير التي كانت في ساحة البرج وهدمت بأمر من رياض بك الصلح رحمه الله سنة ١٩٥٠م.

(٤) هذه المدرسة أسسها القس البروتستانتي الأميركاني إسحاق بَيرد، وهي أول مدرسة أُسست في بيروت. وموقعها كان في نفس المكان الذي شغلته فيما بعد المطبعة الأميركية التي نقلها المرسلون الأميركان سنة ١٨٣٤ من مالطة إلى بيروت، واستعملوها لطبع العهدين القديم والجديد (التوراة والإنجيل) وغير ذلك من الكتب الدينية التبشيرية.

(٥) مذكرات فانديك عن التبشير بالمذهب البروتستانتي في بيروت ولبنان ما بين سنتي ١٨٣٩ و ١٨٥١م. مجلة الهلال - المصرية - سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦م) عدد أول يناير (كانون الثاني) ج ٤ ص ٢٠٢.

(٦) جريدة «ثمرات الفنون» العدد رقم ١٣٣٢ الصادر بتاريخ صفر ١٣١٩ هـ (حزيران ١٩٠١م)

فنظموا القصائد المطولة في وصف الحادث المروع، بعض هذه القصائد كانت باللغة الفصحى وبعضها كانت باللهجة العامية.

في سنة ١٣٢٠هـ حل الطاعون ضيفاً ثقيلاً في بيروت

كانت بداية القرن الميلادي العشرين شديدة الوطأة على بيروت، إذ أن المجتمع البيروتي في مطلع هذا القرن كان يعاني من مرضين، أحدهما ضرب الناس في صحتهم الجسدية والآخر ضربهم في أوضاعهم الأمنية، أما المرض الأول فكان وباء الطاعون الذي اجتاح المدينة وراح يفترس بجراثيمه المبيدة الأفراد والجماعات ويسقيهم كؤوس الحمام ويصرعهم بالموت الزؤام دون أن تنفع فيه حيلة الأطباء ولا التدابير الوقائية التي بادرت السلطة إلى اتخاذها لإنقاذ أهل البلد من غائلته.

وإن موجة هذا «الهواء الأصفر» كما كانوا يسمونه آنذاك، فتحت قرائح الشعراء على نظم القصائد في وصف اجتياح هذا الوباء للمجتمع البيروتي الذي كان المسلمون والنصارى فيه متساوين أمام هجمته الشرسة بالرغم مما كان يفرقهم آنذاك من الصراع الطائفي.

السبت الأسود سنة ١٩٠٣

في يوم السبت ليلة الأحد من شهر أيلول سنة ١٩٠٣ اضطربت بيروت حين تبادل أهل البسطة مع أهل المزرعة اغتيال بعضهم بعضاً في الشوارع ومنعطفات الطرق وداخل الزواريب الملتوية وارتفع عدد القتلى آنذاك من الطرفين حتى بلغ بضعة عشر شخصاً، الأمر الذي أثار الذعر في البلد وحمل أهل القلم على كتابة المقال تلو المقال في الدعوة إلى حقن الدماء وصيانة الأرواح والحفاظ على أمن البلد وصيانة المجتمع البيروتي من عبث العابثين براحته واستقراره. ولقد كان للشعر في هذه الدعوة نصيب إذ تبارى الشعراء في ذلك الحين في نظم القصائد التي عبروا فيها عن تفجعهم على مصير البلد ملقين تبعة ما يحدث على حكام ذلك الزمان وكذلك على الوجهاء الذين كانوا يحرضون الأشرار على ارتكاب جرائمهم.

حريق الكازخانة

كانت «الكازخانة» - وهي مستودعات الكاز كما كان يسميها أبناء الجيل السابق - في محلة المدوّر وحدث أن اشتعلت فيها النيران سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤م). وقد رُوِّع البيروتيون عند حدوث هذا الحريق واتخذوا من يوم حدوثه تاريخاً لوقائعهم وولاداتهم على عادة الناس قديماً في اعتماد تواريخهم على الأحداث البارزة التي تمر في حياتهم. فكان البيروتيون يؤرخون لمواليدهم بيوم حريق الكازخانة، أو بيوم ضرب الطليان لبيروت، أو بيوم الحرية - أو المشروطية، أو الدستور - أو الانقلاب، أو بيوم الاحتلال، وهكذا.

حمّى التيفوئيد سنة ١٩١٠

في سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م) تفشى مرض التيفوئيد في بيروت وعم بلاؤه بين البيروتيين حتى كان الناس يموتون زرافات ووحداناً بهذا الداء الخبيث نتيجة الإهمال وعدم الوقاية وانعدام النظافة في البلد. وقد نظم الشاعر المهجري الساخر أسعد مخايل رستم بهذه المناسبة قصيدة أودعها انطباعاته عن حالة البيروتيين تحت وطأة هذا المرض الذي دخل إلى أكثر بيوتهم ولم يغادرها إلا بعد أن أخرج منها عشرات الضحايا من الكبار والصغار والنساء والأطفال. وفيما يلي مختارات من قصيدة أسعد مخايل رستم الذي أرخ الوباء المذكور على طريقته في الانتقاد الساخر الذي وجهه بهذه المناسبة إلى حكام ذلك الزمان. قال هذا الشاعر تحت عنوان «التيفوئيد وبيروت»:

أصداعٌ أم انحلال شديد
فكلا الحالتين (التيفوئيد)
فنَمْ، ولا تدعُ للعلاج طبيباً
إنما عندك الدواء المفيدُ
هو أن (تكْدِش) الفراش
وقبل الشهر والنصف لا يجوز القعود
فاضطجاع على الفراش مُجِلٍ
وسكون وإن تشا محمودُ
غير أن الحمّى، تروح وتأتي
فنزول، طوراً، وطوراً صعود
وإذا زادت الحرارة في البطن
فبالثلج يلزم التبريد
وإذا ما أكلت خبزاً ولحماً
وأرزّاً فقد تموت (البعيدُ)
والطعام المفيد شيئان
ماء وحليب، عليهما لا مزيدُ
والتيفوئيد حاكم مستبدٌّ
فوق بيروت ظله ممدودُ
فطاب فيها له المناخ فما
ينفك يؤذي بأهلها (المقرودُ)

إلى أن يقول:

كيف يرجى من الرئيسين والأ
عضاء، وما لديهم نقودُ

ولتـنـظـيـف ذي الـشـوارع لامكـ
ـنـس عـنـدهـم ولا (مـجـرودُ)
وفـريـق مـن الأهـالي مـصـرٌ
(بمصاري) الرسـوم، ليس يجودُ
وعـلى ذكـر قـوة الـمـال أروي
رُفِـعـت لـلـسـلام مـنـه بـنـودُ
واحتـرامـاً للحصن حيَّتْـه منـه
طلقـات، من دونهـنّ الـرعـود
قـال للجند قـائد الحصن غيـظاً
لم تـردّوا السلام، ما المقصودُ!
فـأجـابـوا: أسبـاب ذلـك شتّى
أولاً، لـيـس عـنـدنـا بـارودُ
قال: لا تذكروا البقيَّة فالأول يكفي لعذركم يا جنودُ

• • •

هـذه حـالـة شبـبنـا عـلـيـهـا
وعـلـيـهـا شـيـبـنـا، ونـحـن قـعـودُ
لم تـزل تُهضَم الحقـوق ومـا فينـا
غـيـور، عـن الـحـقـوق يـذودُ
لا نـبـالـي مـا دام حظٌّ ودامـتْ
سـالـمـات على الجسـوم الجلودُ
جـرّ إهمـالـنـا علينـا انحـطـاطـاً
وانحـطـاطـاً مـع الـزمـان نـزيـد
ولكـنّـا نخشى السقـوط ولكـنْ
لا يعيب المصفاة (بخش) جديدُ! . .

* * *

ضرب الطليان لبيروت

في صبيحة اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط سنة ١٩١٢، كانت بيروت فريسة عدوان بربري غاشم صب عليها وابلاً من القنابل المحرقة، أطلقتها السفن الحربية الإيطالية دون أن تراعي حرمة المدينة المفتوحة، متحدية كل قواعد الفروسية العسكرية، ومبادىء الأخلاق الإنسانية ومفاهيم الحضارة والتمدن. ففي الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم المشؤوم، كانت السفينتان الحربيتان الإيطاليتان غاريبالدي وفيروشيو تنتهكان حرمة المياه الإقليمية لمدينة بيروت، عاصمة الولاية العثمانية التي وصفت بأنها درة تاج آل عثمان. وبعد أن اطمأنتا إلى موقعهما الستراتيجي ألقتا بمراسيهما في البحر وانطلق منهما ضابط إيطالي شرس وفي يده الإنذار التالي مكتوباً باللغتين الفرنسية والإيطالية:

بيروت في ٢٤ شباط سنة ١٩١٢ قومندان الفرقة الثانية من الأسطول الطلياني

نمره - ١٤٥ -

« أتشرف بإنذار دولتكم بأنه عليكم أن تضعوا تحت سلطتي وتصرفي المدفعية والنسافة العثمانيتين الموجودتين في ميناء بيروت، وأن ترسلوهما إلى خارج المرفأ في الساعة التاسعة قبل ظهر اليوم ٢٤ شباط. وعلى هاتين السفينتين أن تطفئا حالاً مراجلهما إن كانت موقدة وأن لا توقداها فيما بعد.

وإني آسف لعدم تمكني من إعطائهما أقل مهلة. ولي الأمل بأن دولتكم تشرفوني بجواب سريع. فلا تضطروني إلى تطبيق أعمالي على المادة الثانية من الاتفاق التاسع من مؤتمر لاهاي الثاني.

قائد بحرية إيطالية.

أمير اللواء في البحرية: تا ارندا رَوُول

الوالي يتسلم الإنذار

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والأربعين دقيقة عندما تسلم الوالي العثماني حازم بك أفندي هذا الإنذار. وذلك يعني أن المهلة التي حددها الطليان لتنفيذ وعيدهم لم تتجاوز العشرين دقيقة من الناحية العملية.

لقد كانت المفاجأة صاعقة، والدقائق الباقية أمام المسؤولين عن سلامة المدينة وسكانها لا تتسع حتى لمجرد ترجمة الإنذار من الفرنسية إلى التركية بالرغم من مهارة كميل بك إدة مدير الأمور الأجنبية في الولاية آنذاك.

على أن والي بيروت حازم بك أفندي، لم يفقد أعصابه في تلك اللحظة الحرجة فتسلم الإنذار «الخشن» من يد رسول العدو، وناوله بالحال إلى مكتوبجي الولاية عبد الغني سني بك الذي كان إلى جانب رئيسه لاتخاذ الإجراءات اللازمة في مثل هذه المناسبة.

وكانت السفينتان المقصودتان بالإنذار الطلياني هما: الطراد «عون اللَّه» والنسافة «أنقرة» وكان موقفهما داخل المرفأ بين بقية السفن التجارية العادية.

وأول ما حصل كرد فعل فوري لإنذار القوة العدوة، أن الطراد «عون اللَّه» بادر إلى رفع علم الاستفهام الأبيض على مقدمته وأرسل أحد ضباطه على زورق خاص إلى دارعة الأميرال

الإيطالي الذي أستقبل هذا الضابط العثماني بتوجيه الأسئلة التقليدية عن اسم السفينة العثمانية وحمولتها ومساحتها، وغير ذلك من المعلومات المرغوبة في مثل هذه الظروف.

لقد تعمد الأميرال الإيطالي إطالة الحوار مع المبعوث العثماني بقصد المماطلة وإضاعة الوقت حتى يتمكن من تبرير عدوانه وتوجيه ضربته القاتلة قبل أن يتاح للأسطول العثماني القيام بالمناورات اللازمة لتلافي العدوان عليه.

وعندما عاد الضابط العثماني إلى المرفأ كان يحمل معه ثلاثة ملفات، أحدها لوالي الولاية والثاني لقنصل ألمانية والثالث إلى رئيسه المباشر قومندان «عون اللَّه». وفي المكتب اتصل المكتوبجي بالربان العثماني وتبادل معه الحوار التالي نثبته للتاريخ.

قال عبد الغني سني بك: أذكر بأنكم أخذتم تعليمات من نظارة البحرية بناء على مخابرة جرت قبلاً، ومعلوم بأن الآن حان وقت إنفاذها فما هو مضمونها؟

فأجاب الربان: مضمونها، إذا كانت قوة العدو معادلة لقوتكم تحاربونه، وإن كانت أقوى فمن جهة تدافعون ومن جهة تغرقون الطراد.

- هل تكون هذه الأعمال داخل المرفأ؟ إذا كان كذلك فهذا لا يجوز أبداً لأنه حينئذٍ تخرب أكثر الأبنية الموجودة على الرصيف ويقتل كثير من الأهالي، وربما يتولد من ذلك عواقب وخيمة جداً، يا ترى ألا يمكن إخراج السفن إلى خارج المرفأ؟

- هذا يحتاج كيفما كان الحال إلى وقت لإدارة حركات مخصوصة. لكن العدو لم يترك لنا فرصة لذلك.

الوالي يحسم الموقف

وكان الوالي حاضراً أثناء هذا الحوار فحسم الموقف قائلاً: الوقت لا يسمح لنا بمحادثة طويلة، أيها القائد، اذهب إلى سفينتك وقم بالواجب الذي عهد به إليك. ونحن فلنعطِ جواباً مناسباً على الإنذار.

ثم انفرط عقد العثمانيين الثلاثة وتوجه الوالي إلى أمين سره بأن يملي على مدير الأمور الأجنبية كميل بك إدة المذكرة التالية وقد كتبها هذا الأخير باللغة الفرنسية:

«بيروت في ٢٤ شباط سنة ١١/١٩١٢ - ١٣٢٧ رومية،

في الساعة الثامنة والدقيقة ٤٠ من هذا الصباح أخذت إخطاركم نمرو ١٤٥ بشأن البارجتين العثمانيتين الراسيتين في هذا الثغر. وبينما أنا أُحرر لكم الجواب الذي لم يصلكم نظراً لضيق الوقت اللازم، ابتدأتم بإطلاق القنابل، ليس على المدفعية والطوربيد فقط، بل أصابت قذائفكم كثيراً من منازل المدينة وسكانها وتسبب عن ذلك خسائر جمة ومسؤوليات كبيرة.

فعملكم هذا، في مرفأ غير حصين يخالف بعدة وجوه مقررات مؤتمر لاهاي، لا سيما وقد بدأتم بإطلاق القنابل قبل إنتهاء المدة اللازمة لإرسال الجواب لكم على الإنذار المرسل من قبلكم. ولم تمر عشرون دقيقة حتى ابتدأتم بإطلاق النار.

فباسم حكومتي العليّة، أحتج على عملكم هذا وأُلقي عليكم تبعة كل المسؤوليات التي نجمت وتنجم عنه!».

والي الولاية: حازم

وهكذا وقعت الكارثة قبل أن يجد المسؤولون في بيروت حتى فرصة الإجابة على إنذار العدو بضرب المدينة وإغراقها في النار والدماء والدمار.

تفاصيل الكارثة

وهذه هي التفاصيل المروعة، كما لا يزال يذكرها الكثيرون من أبناء بيروت، الذين أدركوا وقائعها بأنفسهم قبل حوالى تسعين سنة من هذه الأيام.

في الوقت الذي كان كميل بك إدة مدير الأمور الأجنبية في ولاية بيروت يسطر فيه رسالة الوالي الجوابية على إنذار الأميرال الإيطالي، كانت قنابل بوارج هذا الأخير تمزق الجو بدويها إيذاناً بإبتداء العمليات الحربية ضد القطعتين البحريتين العثمانيتين وبالتالي ضد المدينة وسكانها الآمنين. وتوالى بعد ذلك سقوط القنابل المحرقة التي كانت تستهدف إغراق «أنقرة» و«عون اللَّه»، بدليل تعدد الأماكن التي أصيبت بهذه القنابل في شرق المدينة وغربها ووسطها. فلقد سقطت قنبلة في جانب المستشفى البلدي ومكتب الصنائع وتلتها ثماني قنابل أخرى في نفس المكان. ولكن أضرارها كانت محدودة لأن المكتب المذكور والمستشفى اللذين ما يزالان قائمين في مكانهما اليوم، كانا يقعان في الأرض الفراغ التي كانت تسمَّى «محلة الرمل» ولم يكن فيها ما نشاهده اليوم من العمارات الكبيرة والمؤسسات الضخمة.

وكانت أكثر الأمكنة تضرراً من الغارة الغادرة محلة المرفأ بالذات، حيث ظهرت آثار التدمير المريع في المصرف العثماني الذي أصبح في عهد الانتداب الفرنسي «بنك سورية ولبنان» وهو قد زال من مكانه القديم، وكذلك أصيب البنك الألماني في ثلاث غرف منه، كما أُصيب أيضاً بنك سالونيك والمستودع الذي كانت تملكه شركة المرفأ ودائرة البسابورط (الجوازات) وقد استعملت فيما بعد مكتباً لإدارة الأمن العام اللبناني،

وكذلك أُصيب بنك صقال الذي كان بالبلد ومحل يوسف بك بيهم التجاري المعروف.

أما شظايا القنابل فكانت تتبعثر هنا وهناك لتحصد أرواح السكان الأبرياء الذين اندفعوا خارج محلاتهم وبيوتهم هائمين على وجوههم بين هارب من الموت المحقق أو ثائر يطلب القتال دفاعاً عن الأهل والوطن.

البيروتيون يحملون السلاح

حقًّا لقد كان منظر أهل بيروت في تلك اللحظة مثيراً للرثاء والإعجاب في آن واحد، فلقد هبوا جميعاً شيباً وشباناً بين راجل وفارس، متمنطقين بالبنادق التي طالتها أيديهم من الثكنات العسكرية، ومن لم يظفر منهم ببندقية انتضى سيفاً أو خنجراً وحتى خيزرانة في شبه غيبوبة صوفية وراحوا جميعاً صوب المرفأ ليبلغوا إحدى الحسنيين إما سحق العدو اللئيم أو الاستشهاد في سبيل الله والوطن والسلطان.

ومن المؤسف أن عدداً كبيراً من المتحمسين تجمهروا عند رصيف المرفأ حيث أطل عليهم المرحوم الشيخ أحمد عمر المحمصاني أحد علماء بيروت، من شرفة دائرة السابوروط (الأمن العام فيما بعد) وراح يخطب فيهم مثيراً حماستهم الدينية ومهيجاً نخوتهم الوطنية، مما أدى إلى وقوع المزيد من الإصابات والضحايا نظراً لقرب هذا الجمهور من هدف المدافع الجانية، ولولا أن مكتوبجي الولاية عبد الغني سني بك استعمل حكمته بإقناع المرحوم المحمصاني بعدم الاسترسال في موقفه الخطابي غير المناسب، لكانت الكارثة أفظع وأعم.

على أن حماسة الأهالي الساذجة، ما لبثت أن تحولت إلى موجة من الاضطراب والهلع فتراجعوا مبتعدين عن مدى القنابل في المرفأ وتفرقوا في الأزقة والشوارع ملتمسين سبيل النجاة بأنفسهم إلى خارج المدينة المنكوبة في اتجاه جبل لبنان ليكونوا في مأمن من الهلاك على غير طائل.

شهامة أهل جبل لبنان

وفي هذه الغمرة من المصائب التي أذهلت أهل بيروت أظهر إخوانهم نصارى جبل لبنان من المروءة والأريحية والنجدة ما جعل البيروتيين ينسون آلامهم ويلهجون بالثناء على هؤلاء الإخوان الذين وضعوا أنفسهم وبيوتهم تحت تصرف اللائذين بهم من النساء والأطفال والشيوخ العاجزين. . ولقد كان لمطران الأرثوذكس ببيروت وتوابعها، المطران جواسيموس مسرة الموقف المحمود في تلك الظروف العصيبة، إذ أصدر البيان التالي:

«إلى أبناء وطني العزيز عموماً، سلاماً ودعاء.

أما بعد، فإن الأقدار قد قضت بأن لا يبقى وطننا مرتاحاً من أذى العدو المفتري الذي ناصب دولتنا العلية العدوان منذ عدة أشهر، كما هو معلوم، فجرى ما جرى في ثغر هذه الحاضرة من الاعتداء على أسطولنا وعلى حياة بعض أفرادنا من إسلام ومسيحيين، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وقد وجب علينا على أثر ذلك أن نوزع هذه النشرة أصالة عنا ونيابة عن إخواننا رؤساء الطوائف النصرانية إيضاحاً لاستيائنا الشديد من هذا الاعتداء المنكر ونعلن عنا وعن عموم الرؤساء والشعوب المسيحية الذين جاءنا كثيرون من نخبتهم وطلبوا منا ما نعلنه وهو: أنه إذا اقتضت الحال بتكرار الاعتداء، لا سمح الله، والذود عن الوطن العزيز بجنوده ورجاله، فإن أديرة النصرانية وأوقافها وبيوت أهليها في جبل لبنان مفتوحة لقبول النساء والأولاد من كل الطوائف، وفي مقدمتها السادة المسلمون الذين نحن شركاء معهم في السراء والضراء، فإن عموم حريمهم وأولادهم ينزلون عندنا على السعة والرحب، يكونوا مع حريمنا وأولادنا مصونين ومحترمين ومشمولين بأمان الله تعالى وأمان مولانا السلطان المحبوب، فإن شبعنا يشبعون قبلنا وإن، لا سمح الله، جعنا فلا يجوعون إلا بعدنا.

وإنا نسأل الله بشفاعات جميع أنبيائه وأوليائه الكرام أن يزيل هذه الغيمة عن ربوعنا، كما أزال غيرها ويعضد دولتنا العلية بالنصر ويحفظ حياة متبوعنا الأعظم بالعز والإسعاد إنه أكرم الأكرمين».

عن دار مطرانيتنا في بيروت في ١٢ شباط سنة ١٣٢٧.

الداعي: أخوكم في الوطنية الفقير إليه تعالى:

جراسيموس مسرة
مطران بيروت وتوابعها

وبالفعل، فإن كثيراً من العائلات الإسلامية التي قصدت إلى الأراضي الواقعة في دائرة متصرفية جبل لبنان. وجدت في بيوت إخوانهم النصارى من الترحاب والعطف والإكرام ما جعلها تنسى آلامها وجراحاتها ومصائبها وتلهج بالثناء والشكر على هذه المعاملة التي أكدت روح الأخوّة الوطنية بين جميع المواطنين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم.

أما الذين لم يتمكنوا من الأهالي من مبارحة بيروت بسبب إصاباتهم أو عجزهم أو فقرهم، فإنهم أُحيطوا برعاية الوالي حازم بك أفندي ورجال الإدارة والأمن، كما أن أهل النخوة والحمية من فتوّات البلد المعروفين أمثال خليل عبد العال، وأحمد الشرقاوي، ومحمود الشرقاوي، وأبو أحمد الجاك، والحاج حسين خريرو، وغيرهم من هذه الطبقة الشعبية

المشهورة باندفاعها للنجدة والإغاثة وصدق الغيرة الدينية. . فإن هؤلاء لم يقعدوا عن أداء دورهم الإنساني في تلك المناسبة الحرجة وساهموا في إبعاد النساء والأطفال عن مواطن الخطر ونقل الجرحى ودفن الضحايا غير عابئين بالقذائف المميتة التي واصل الطليان إطلاقها على المدينة على غير هدى ولا تمييز بين الأهداف العسكرية ومنازل السكان الأبرياء الآمنين.

حتى الأجانب المقيمين في بيروت، فإنهم سارعوا إلى القيام بواجبهم الإنساني فاستحقوا عرفان الجميل من السلطة المسؤولة والأهالي على حد سواء.

السلطان يستفسر

أما السلطان محمد رشاد، الذي كان متربعاً في دست الخلافة الإسلامية حين وقوع هذه الحادثة، فإنه كلف الصدر الأعظم محمد سعيد بالإعراب عن تأثره البالغ، وقد طلب هذا من والي المدينة بأن يبشر الربان والأفراد الباقين بقيد الحياة من السفن التي أغرقها الأعداء والذين أبرزوا مآثر الحمية من المأمورين والأهالي تلطيفهم بالسلام العالي السلطاني واستفسار خاطر المجروحين الموجودين تحت المداواة من لدن الحضرة العلية السلطانية.

وفي الجمعة الأولى التي عقبت دفن القتلى الذين اعتُبروا شهداء في سبيل الله، أُقيمت الصلاة عليهم في الجامع العمري الكبير بحضور والي الولاية والأركان والقواد العسكريين ووجوه المدينة وجماهير السكان، وتليت بعد ذلك عن أرواحهم سيرة المولد النبوي الشريف، ثم قصد الجميع إلى جبانة الباشورة حيث زاروا قبور هؤلاء الضحايا، وتوالى الشعراء والأدباء في إلقاء القصائد والكلمات المناسبة.

الآثار السيئة للعدوان

لقد أحدث العدوان الإيطالي رد فعل عنيف في أوساط الأهالي الذين وقعوا تحت تأثير الانفعالات الحماسية المتطرفة، فهاجموا مستودع الرديف في الثكنة العسكرية (حيث كانت سراي الحكومة قديماً) وأخذوا منه بالقوة حوالى ألف وثمانمائة بندقية من طراز الموزر وتسعة وتسعين صندوقاً من الذخائر الحربية وانتشروا في المدينة بشكل أثار الاضطراب والقلق. إلا أن الوالي حازم بك أدرك خطورة وجود السلاح بأيدي الشعب والمدنيين، ولا سيما بالنسبة للمواطنين من النصارى الموجودين في المدينة فعمل مع المرحوم الشيخ مصطفى نجا، مفتي البلد في ذلك الحين، على حصر هؤلاء المسلحين في مكان واحد واشترك الاثنان، الوالي والمفتي، في إقناعهم بالتخلي عما في أيديهم من الأسلحة وتسليمها إلى السلطات المختصة لتتولى هي القيام بواجباتها في معالجة الأزمة الطارئة.

ولقد كان لهذه المساعي الحميدة أبلغ الأثر في تسكين الهياج وإشاعة الطمأنينة وخصوصاً في أحياء النصارى وأوساط الجاليات الأجنبية الذين كادوا يتحملون وزر العدوان الإيطالي الذي كان بنظر أبناء بيروت عدواناً نصرانياً لصدوره عن دولة نصرانية على الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية.

على أنه لم تخلُ المدينة خلال فترة الاضطراب من بعض الحوادث الفردية التي كاد يذهب فيها بعض «لابسي البرانيط» من الأجانب بذنب غيرهم. إلا أن الوالي تدارك هذه الحوادث من أن تتسع وتتفاقم وتتطور بإعلان الأحكام العرفية في حدود مدينة بيروت فقط، وحظر على الأهالي الخروج من بيوتهم في أوقات معينة، كما حظر عليهم حيازة الأسلحة ونقلها تحت طائلة العقوبات الشديدة!

ولم تكتف السلطات العثمانية بالتدابير الاحترازية لمواجهة أعمال العنف، بل إنها قامت بتقديم مكافآت نقدية للذين حافظوا على أرواح الناس من عدوان المحتاجين. من ذلك أن الوالي حازم بك سلم بيده شخصياً مبلغ خمس وعشرين ليرة ذهبية إلى كل من عبد الغني العشي من خفراء الريجي وعبد الحليم رمضان من أفراد العسكرية وهو المبلغ المنعم به عليهما بسبب محافظتهما على القنصلين الثانيين لدولتي روسيا وإنكلترة في يوم الحادثة حينما كادا يتعرضان للأذى على ظن أنهما إيطاليان!

إنتشال مدافع السفن الغارقة

وبعد أن هدأت العاصفة وبارحت البوارج الإيطالية المياه الإقليمية العثمانية إلى عرض البحر تولى بحارة بيروت مهمة استنقاذ المدافع التي كانت على ظهر السفن الغارقة فاستحقوا صدور الإرادة السلطانية بمنحهم الوسام المجيدي الرابع وهؤلاء البحارة هم الأغوات والأفندية:

أحمد الشرقاوي والحاج خليل عبد العال وإبراهيم البلطجي ومحمود الشرقاوي وخليل الشرقاوي وحسين خريرو وأبو أحمد الجاك ومحيي الدين عز الدين ومصطفى الشرقاوي والحاج رشيد رمضان والحاج محمد رضا وعبد الفتاح الغطيس وسيد خضر، مُنحوا كلهم مدالية الافتخار وجميعهم من أهالي بيروت وذلك مكافأة على ما أبرزوه من الغيرة والحمية في سبيل إخراج المدافع مجاناً من البارجة «عون الله» التي غرقت في بيروت.

شاهد عيان يصف الاعتداء

وقبل أن ننتهي من تسجيل هذه الحادثة التاريخية فإننا ننقل

بهذه المناسبة ما كتبه أحد شهود العيان لما رآه في المدينة أثناء تعرضها لنيران القذائف الإيطالية وذلك فيما يلي:

«في الساعة الخامسة من صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر شباط، كان السكون مخيماً على المدينة، وقد شاهد شخصان في تلك الساعة في الأفق البعيد ثلاثة أعمدة من غيوم الدخان. وبعد انتظار طويل ملؤه الشوق لمعرفة ذلك، شوهدت دارعتان تحملان العلم الإيطالي، وكانتا تتقدمان من المرفأ. أما الثالثة فوقفت بعيدة عنهما. وفي السابعة تماماً دوى في الفضاء طلق مدفع قوي للغاية. وفي الحال قابلت نسافة عثمانية صغيرة قديمة العهد جدًّا، كانت راسية داخل المرفأ من بضعة شهور إزاء الجمرك، وعلى أثر هذه المقابلة عاد السكون موقتاً. وبعد قليل أنزل ربان «عون الله» زورقاً رفع على مقدمته علم المصالحة وركب فيه ضابط عالي الرتبة واقترب من «فروجيو» وهي الدارعة التي أطلقت المدفع الأول.

وداومت هذه المقابلة طويلاً، لأن المأمور الذي حمل الجواب من الضابط الإيطالي ليبلغه إلى الوالي لم يرجع إلى المرفأ قبل الساعة الثامنة.

وكان يُرى حينئذ هياج عظيم من الأهالي المجتمعين على الرصيف أمام المصرف. أما الأحوال التي جرت بعد ذلك فلا يمكن وصفها، فإن الأهالي كانوا يهربون إلى الجهات الأربع كمن أصيب بجُنة. وكان الطراد العثماني يطلق قنابله جهد المستطاع. أما المدرعات الإيطالية فكانت تقذف عليه القنابل كالمطر الوابل، وبعد أن ألحقت قنابلهم الضرر بدائرة الجمرك ومصرف سالونيك، ففي النهاية غرق الطراد العثماني ما بين جسر القبطان ودائرة الآلة.

وكنا نرى أجساماً عارية مثخنة بالجراح لا مخرج لها. ولا يمكن التعبير عن ذلك المشهد المريع بسوى هذه العبارة: أجسام كثيرة حية رافعة أيديها تئن قائلة: اللّه! اللّه! اللّه! وما كان يمكن مشاهدة مثل هذا المنظر المفجع المحزن برهة مديدة. وبعد أن أطلقت المدرعة الإيطالية آخر قذيفة على النسافة العثمانية ابتعدت قليلاً، وبعد الساعة الواحدة بقليل عادت المدرعتان الإيطاليتان، فوقفت إحداهما أمام مدخل المرفأ، وأطلقت عشر قنابل أخرى. وكانت الباخرة «توفيقية» من بواخر الشركة الخديوية راسية حينئذ في المرفأ، فقال ربانها إنه لم يرَ مثل الطليان لا يحسنون الرماية، فإن من القذائف التي أطلقوها لم يصب المرمى إلا الثامنة والتاسعة منها أصابتاالنسافة الصغيرة وأمكن إغراقها.

وكانت القذائف تتطاير فوق المدينة وتنفجر فسببت الموت للكثيرين، ولولا القليل لكانت سبباً في أن تكون المدينة مسرحاً للنار والدماء.. والخلاصة أن الأتراك والبحارة المساكين الذين أسلموا الروح وهم يقومون بوظائفهم أظهروا غيرة عظمى للمحافظة على الأمن العام.

ولا بد للإنسان إزاء هذه الأحوال إلا أن يتساءل مكرهاً: ترى أين المدنية وفي أي مكان هي؟

إحصاء عدد الضحايا

ونتيجة لغارة الدوارع الإيطالية على المدينة والسفن الراسية في المرفأ وقعت الإصابات التالية، كما جاء في السجلات الرسمية لولاية بيروت في ذلك الحين:

٤٧ شخصاً من أفراد القوات المسلحة البرية والبحرية استشهدوا وهم يؤدون واجبهم العسكري.

٢٥ من هؤلاء أصيبوا بجراح تتفاوت بين الخطورة والبساطة.

٥٦ استشهدوا أو قتلوا من المدنيين. أكثرهم من سكان وأهالي بيروت وبينهم بعض الأجانب الذين اجتاحهم الاضطراب الذي ساد المدينة أثناء ثورة الجمهور الساخط.

ومثل هذا العدد من الجرحى المدنيين. والجدير بالذكر أن هذه الأرقام، أُخذت عن الإحصاءات الرسمية التي قدمتها المراجع المختصة مأخوذة عن سجلات وقيود المستشفيات والدوائر الصحية التي ساهمت في حينه باستقبال الضحايا وقامت بواجبها الإنساني نحوهم.

أصداء الحادثة في قصائد الشعراء

لقد أثار ضرب الطليان لبيروت موجة عارمة من الاستنكار في جميع الأوساط الوطنية والأجنبية على حد سواء، وتناولت كبريات الصحف العالمية في ذلك الحين هذه الحادثة بانتقاد إيطاليا واستهجان عملها الذي وصف بأنه محاولة غير موفقة لستر هزائمها العسكرية في حرب طرابلس الغرب ضد الدولة العثمانية.

وأما في الأوساط الوطنية فقد تنادى المسلمون والعرب لمواساة أهل بيروت بتأليف اللجان المحلية من أجل جمع التبرعات والإعانات للتعويض على المنكوبين في أموالهم وأبنائهم.

وكان للشقيقة الكبرى مصر القدح المعلى في تخفيف الكارثة عن بيروت، إذ تألفت في ربوعها جمعية برئاسة البرنس محمد علي شقيق الخديوي، وأقامت حفلة كبرى تبارى فيها الشعراء والأدباء في إظهار عواطفهم ودعوة الجمهور إلى البذل والسخاء لتخفيف أثر النكبة عن المدينة الجريحة.

ونكتفي هنا بإيراد بعض المقطوعات من القصائد التي ألقاها

ثلاثة من كبار شعراء العربية في تلك المناسبة وهم: أمير الشعراء أحمد شوقي، وشاعر النيل حافظ إبراهيم، وشاعر القطرين خليل مطران.

من قصيدة أحمد شوقي

افتتح شوقي قصيدته قائلاً:

يا رب أمرك في الممالك نافذ
والحكم حكمك في الدم المسفوك
إن شئت اهرقه وإن شئت احمه
هو لم يكن لسواك بالمملوك

إلى أن قال:

بيروت، مات الأُسد حتف أُنوفهم
لم يشهروا سيفاً ولم يحموكِ
سبعون ليثاً أُحرقوا أو أُغرقوا
يا ليتهم قتلوا على «طبروكِ»
كل يصيد الليث وهو مقيد
ويعز صيد الضيغم المفكوكِ
سالت دماء فيك حول مساجد
وكنائس ومدارس وبنوكِ
لك في ربى النيل المبارك جيرة
لو يقدرون بدمعهم غسلوكِ
لو يستطيع كرام مصر كرامة
«لمحمد» بقلوبهم ضمدوكِ
هو في ابتناء المجد صورة جده
أذكرت «إبراهيم في ناديك»

من قصيدة حافظ إبراهيم

وقصيدة حافظ إبراهيم صيغت بشكل حوار بين ليلى وحبيبها ابتدأها بقوله:

فكفكفي من دموع ... تفري حشاشة فاني
ومهدي لي قبراً ... على ذرى لبنان
ثم اكتبي فوق لوح ... لكل قاصٍ وداني
هنا الذي مات غدراً ... هنا فتى الفتيان
رمته أيدي جناة ... من جيرة النيران
قرصان بحر تولوا ... من حومة الميدان
لم يخرجوا قيد شبر ... عن مسبح الحيتان
ولم يطيقوا ثباتاً ... في أوجه الفرسان
فشمروا لانتقام ... من غافل في أمان
وسودوا وجه «روما» ... بالكيد للجيران
تبًّا لهم من بغاة ... فروا من العقبان
لو أنهم نازلونا ... في الشام يوم الطعان
رأوا طرابلس تبدو ... لهم بكل مكان

.. ومنها يقول:

فنحن في كل صقع ... نشكو بكل لسان
يا قوم إنجيل عيسى ... وأُمة القرآن
لا تقتلوا الدهر حقداً ... فالملك للديان
فيا أُروبة مهلاً ... أين الذين تدّعينا
ماذا تريدين منا ... والداء أمسى دفينا
أين الحضارة إنّا ... بعيشنا قد رضينا
لم نؤذ في الدهر جاراً ... ولم نخاتل خدينا

ثم يلتفت إلى المطران مسرة مخاطباً بالشكر والامتنان:

مسرَّة «الشام» إنّا ... إخوانكم ما حيينا
ثقوا فإنا وثقنا ... بكم وجئنا قطينا
إنا نرى فيك عيسى ... يدعو إلى الخير فينا
قربت بين قلوب ... قد أوشكت أن تبينا
فأنت فخر النصارى ... وصاحب المسلمينا!

من قصيدة خليل مطران

ثم إن خليل مطران، وهو من مدينة بعلبك التي كانت في ذلك الوقت تابعة لولاية دمشق حسب التقسيم الإداري في أواخر العهد العثماني، ألقى القصيدة التالية في الحفلة التي أُقيمت لمساعدة منكوبي بيروت ومطلعها:

إلى مصر أزفّ عن الشآم ... تحيات الكرام إلى الكرام
تحيات يفض الحمد منها ... فم النسمات عن عبق الخزامي
ندبت لها وجرأني اعتدادي ... بأقدار الدعاة على القيام
إذا ما كان معروف وشكر ... مبادلة التصافي والوئام
فحباً أيها «الوطنان» إني ... وسيط العقد في هذا النظام
وسيط العقد لا عن زهو نفس ... أقل الرأي يلزمني مقامي
ولكن عن ولاء بي أكيد ... وعن رعي وثيق للذمام
أعرني ثغر بيروت ابتساماً ... أضع فرض الجميل من ابتسام
ويا بحراً هناك أعر ثنائي ... نفيس الدر ينظم في الكلام
ويا غابات لبنان المفدى ... من الدوح المجدد والقدام
أراكِ على الكنانة عاطفات ... وقد ذكرت أهيلك عن غرام
أمديني بأرواح زواكِ ... لأُقرأها الزكي من السلام
بلادي لا يزال هواك مني ... كما كان الهوى قبل الفطام
أقبل منك حيث رمى الأعادي ... رغاماً طاهراً دون الرغام
أُقدس كل جلمود فتيت ... وهي بقنابل القوم اللئام

فكيف الشبل مختبطاً صريعاً ... على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفل لم يقتل لذنب ... وذات الخدر لم تهتك لذام
لعمر المنصفين أبعد هذا ... يلام المستشيط على الكلام
لحا الله المطامع حيث حلت ... فتلك أشد آفات السلام
نشرب الماء وهو أغر صافٍ ... وتمشي في المشارب بالسقام
أيقتل آمنٌ ويقال رفه ... عليك فما حمامك بالحمام
ستسعد بالذي يشقيك حالاً ... وتنعم بعد خسف بالمقام
أقول وقد أفاق الشرق ذعراً ... من الحال الشبيهة بالمنام
على صخب الرواعد في حماه ... ورقص الموت بين طلى وهام
أقول بصوته لحماة دار ... رماها من بغاة الغرب رام
أباة الضيم من عرب وترك ... نسور الشم آساد المرامي
قروم العصر فرساناً ورجلاً ... نجوم الكر من خلف اللثام
بنا مرض النعيم فنسمونا ... وغى يشفى من الصفو العُقام
بنا برد المكوث فادفئونا ... بحمى الوثب حين الخطب حام
بنا عطل السماع فشنفونا ... بقعقعة الحديد لدى الصدام
على هذا الرجاء ونحن فيه ... تسير موفقين إلى الأمام

بيروت تبكي أبناءها الذين شنقتهم الدولة العثمانية

في اليوم العاشر من شهر أيار سنة ١٩١٥ تلقت إدارة المخابرات التابعة للجيش الرابع الهمايوني، تقريراً هذا نصه باللغة العربية:

«إنني شاب مسلم من أبناء أهالي بيروت أحب دولتي وبلادي بإخلاص تام، وأربأ بها أن تكون ألعوبة بيد بعض أبنائها الذين لا ضمير لهم، يدفعونها إلى يد الأجانب.

«سمعت منذ أيام بمؤامرة يديرها بعض من لا أخلاق لهم ضد مولانا الخليفة الأعظم وصاحب الدولة قائدنا المحبوب أحمد جمال باشا أمد الله في عمره وأبقاه ذخراً للدولة والدين. وعلمت بأن هذه المؤامرة مدبرة بيد أحد كبار رجال الإدارة في بيروت وهو عبد الوهاب الإنكليزي (كان يومئذٍ مفتشاً ملكياً) حيث عرفت بأن عدة اجتماعات عقدت في منزله، كان من أبطالها عبد الكريم بك الخليل وغيره من رجالات هذا البلد البائس بهم، ولهذا جئت أُطلع دولتكم على هذه الحقيقة، حتى إذا وجدت إقبالاً منكم، بادرت إلى التحقيق بها، مولاي».

الإمضاء: أحمد سعيد العاملي.

حَوّل جمال باشا قائد الجيش الرابع الهمايوني، هذه الرسالة إلى والي بيروت دون أن يعيرها التفاتاً، فكتب عليها الوالي: إنه لم يجد في بيروت رجلاً باسم أحمد سعيد العاملي ويعتقد بأن الاسم مستعار، ولهذا يعرض الكيفية..

في اليوم التالي، تلقى أحمد جمال باشا من صاحب التقرير نفسه كتاباً آخر بواسطة والي الولاية يقول فيه:

«بلغني أنكم أحلتم التقرير الذي قدمته لصاحب الدولة والفخامة أحمد جمال باشا وزير البحرية الفخمة وقائد الجيش الرابع الهمايوني الأعظم إلى والي بيروت بكر سامي بك. ولما كان الوالي نفسه غير مخلص لصاحب الفخامة ولحزب الإتحاد والترقي الموقر، وكان يرغب في طمس الحقائق المعروفة منه جئت لافتاً نظركم لإيضاح المعلومات التي لدي، مولاي».

الإمضاء: أحمد سعيد العاملي.

لاقى هذا التقرير التأكيدي هوى في نفس أحمد جمال باشا لأنه يوافقه في الشك ببكر سامي بك. لذلك انتدب مدير شرطة بيروت محيي الدين بك للتحقيق سراً عن مرسل التقرير وإطلاعه على النتيجة، وكتب إلى ضيا بك قائمقام صيدا بمثل ذلك. ولكن النتيجة كانت عدم معرفة كلا الموظفين الكبيرين لشخص يحمل اسم صاحب التقرير سواء في صيدا أو في بيروت.

وفي ٢٩ أيار سنة ١٩١٥ تلقى أحمد جمال باشا من نفس الشخص صاحب التقريرين السابقين تقريراً جديداً يقول فيه:

«جاء إلى بيروت منذ يومين عبد الكريم بك الخليل موضع ثقة أحمد جمال باشا والعامل سراً على مقاومة نفوذه. وقد قابل أول الأمر، مفتش الملكية عبد الوهاب بك الإنكليزي وتباحثا معاً في تنظيم الحركة الثورية في البلاد. ومن ثم توجه عبد الكريم الخليل إلى قرية «برج البراجنة» في ضواحي بيروت وفيها اجتمع مع بعض رجاله السريين وتباحثوا في الموقف والتدابير الواجب إتخاذها لإحداث الثورة المنتظرة.

«والذي علمته أن عبد الكريم مسافر إلى صيدا للاجتماع مع بعض أركان الحزب المؤيد له، وفي مقدمتهم نائب صيدا السابق رضا بك الصلح[1] وبعض الزعماء المعروفين.

«إن هؤلاء يشتغلون ضد الدولة ويريدون إحداث ثورة في هذه البلاد بجانب الدول الأجنبية عدوة أمتنا الإسلامية، والدولة العلية».

الأمضاء: أحمد سعيد العاملي

وقد نقل بكر سامي بك والي بيروت هذه الأخبار إلى المسؤولين دون الإشارة إلى ما جاء في برقية قائمقام صيدا ضيا بك بشأن تحركات عبد الكريم الخليل بين العناصر المعادية للسلطة العثمانية أمثال رضا بك الصلح.

(١) والد المرحوم رياض بك الصلح.

ومما جاء في برقية القائمقام ضيا بك المذكور إلى جمال باشا قوله:

«إن الشيخ أسعد الشقيري[1] يشير باستدعاء كامل بك الأسعد[2] الذي يملك معلومات عن المؤامرات التي يدبرها الخليل وجماعته».

وبالفعل، استدعى جمال باشا كامل بك الأسعد في ١٣ حزيران سنة ١٩١٥ إلى القدس، وفي مقر الباشا في جبل الطور تقدم كامل بك من جمال باشا قائلاً:

«تدور منذ مدة دعايات واسعة لإحداث ثورة في المنطقة السورية تبدأ من جهتين: زحلة وصيدا. فجماعة الجمعية اللبنانية يشتغلون في منطقة زحلة وجماعة الحزب اللامركزي في صيدا.

جمال باشا: وهل الحزبان اللبناني والسوري يعملان يداً واحدة في هذا السبيل مع اختلاف نزعاتهما السياسية؟

الأسعد: نعم إنهما يشتغلان معاً، فالجميع يعتقدون أن من الواجب تحقيق هدفهما الأول، وهو مقاومة الدولة العثمانية وإحلال فرنسا مكانها!

جمال باشا: إذن هما لا يعملان في سبيل استقلال هذه البلاد بعد فصلها عن السلطة العثمانية؟

الأسعد: كلا.

جمال باشا: وما هي مساعيهما الجديدة؟

الأسعد: إن عبد الكريم يعرف حق المعرفة حقيقة موقف القوات العثمانية في هذه البلاد، وهو يرى أن الموقف الحاضر خير مساعد للحركة الثورية التي يعمل في سبيلها. إن الحلفاء يعتقدون أن ليس في مقدورهم مهاجمة هذه السواحل مهما بذلوا من جهود لسببين:

١ ـ لخوفهم من القوات الموجودة، وعدم رغبتهم في فتح جبهات جديدة.

٢ ـ لعدم ثقتهم بالأهالي.

وعبد الكريم الذي أدخلتموه المعسكر وعرف حقيقة قواتكم أدرك أن الموقف الحاضر، خصوصاً بعد إرسال نجدات إلى المضايق، أن الوقت الحالي، موافق لهذه الحركة، ولهذا قام يطوف على أنصاره في بيروت وصيدا ويدعوهم للثورة.

(١) والد أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية سابقاً.
(٢) عم أحمد بك الأسعد رئيس المجلس النيابي اللبناني سابقاً.

جمال باشا: وهل لديكم ما يؤيد هذه الأمور؟

هنا أفاد كامل بك الأسعد بأن في مقدور الباشا التأكد من هذه الأمور من قائمقام صيدا ضيا بك لأنه سبق وعرض عليه هذه القضية.

وبعد الإعراب عن ولاء الأسعد وجماعته للدولة ودعه جمال باشا شاكراً إياه على شعوره الوطني ووعده بالمساعدة.

وفي المساء نفسه، عقد اجتماع في غرفة أحمد جمال باشا حضره عزيز بك رئيس المخابرات وعلي فؤاد بك سليم رئيس شعبة الشؤون المصرية، وفيه تقرر توقيف جميع الأشخاص الذين جاء ذكرهم في إفادة كامل بك الأسعد وفي تقرير ضيا بك قائمقام صيدا وتحري دورهم والمكاتب المشتبه بها وإحالة الجميع إلى الديوان العرفي في عاليه.

دور محمد الشنطي اليافي

لعب هذا الرجل دوراً خبيثاً في نقل نشاط أعضاء الجمعية اللامركزية في القاهرة إلى المسؤولين في إسطمبول، ذلك بأنه كان أحد أعضاء هذه الجمعية فسولت له نفسه الإثراء على حساب زملائه اللامركزيين فتقرب من حقي بك العظم حتى اطمأن اليه ووثق به وعهد إليه بوثائق الجمعية السرية ليسلمها إلى أصحابها من المنتسبين إليها في البلاد العربية.

ولكن الشنطي، بدلاً من أن يسلم هذه الوثائق إلى أصحابها العرب، عرج على اسطمبول وقابل وزير الداخلية طلعت باشا وأطلعه على ما يحمل من أسماء ودَوّن كل منها في بلده. فما كان من طلعت باشا إلا أن أرسله مع ما يحمل من أوراق خطيرة إلى قائد الجيش الهمايوني الرابع أحمد جمال باشا وهذا تلقّاه باهتمام وسهل له الإقامة بأحسن فنادق دمشق على حساب الدولة.

بيد أن جمال باشا ما لبث أن قلب للشنطي ظهر المجنّ بعد أن علم بثرائه الفاحش عن طريق امتهان التجسس على أبناء قومه. وأمر بسوقه إلى ديوان عاليه حيث حكم عليه بالإعدام مع بقية المتهمين في ساحة البرج ببيروت وذلك يوم ٦ أيار ١٩١٦ ودفن مع الذين تسبب في نكبتهم في حفرة واحدة بتربة الدروز في هذه المدينة.

دور القنصلية الفرنسية

بين الرواة اختلاف في كيفية وصول أوراق هذه القنصلية إلى السلطات العثمانية.

هناك من يقول إن رجال الحكومة في بيروت ذهبوا إلى دار القنصل الأميركي وطلبوا منه أن يسمح لهم بتفتيش دار القنصلية

الفرنسية وكذلك الإنكليزية لأنهما كانتا تحت إشرافه بعد سفر القنصلين الفرنسي والإنكليزي في بداية الحرب، فرفض قنصل أميركا هذا الطلب لأن القنصليتين المذكورتين كانتا قد ختمتا بالشمع الأحمر.

فقال الموظفون العثمانيون، إنهم لا يريدون دخول الغرف المختومة، بل هم يكتفون بتفتيش ما لم يختم، فاستمهلهم القنصل الأميركي ريثما يراجع السفير بالآستانة، وقد راجعه فعلاً فأجاز السفير طلب التفتيش. وفي أثناء التفتيش عثر في دار القنصلية الفرنسية على الوثائق الخطيرة فأخذوها بينما لم يعثروا على أي شيء في دار القنصل الإنكليزي لأنه لم يترك شيئاً بعكس القنصل الفرنسي.

وهناك رواية أخرى تقول إن الموظفين العثمانيين في بيروت، دخلوا دار القنصلية الفرنسية وفضوا الأختام من على أبواب غرفها، فأبلغ القنصل الأميركي الذي احتج سفير دولته باسطمبول ورفع الأمر للحكومة الأميركية بواشنطن التي احتجت هي بدورها في شهر تموز ١٩١٥ احتجاجاً رسمياً على خرق القواعد الدولية.

دور فيليب زلزل

هذا الشخص من وجهاء النصارى في بكفيا بلبنان وقد احتضنه القنصل الفرنسي في بيروت وجعله كبير تراجمة القنصلية.

وعندما أُعلنت حالة الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسة نُفي فيليب المذكور مع من نفي من موظفي القنصلية المحليين إلى مدينة دمشق لإبعاده عن منطقة الساحل.

ولما رأى أن ما كان وعد به مسيو بيكو، القنصل الفرنسي، من العودة إلى سورية بعد أسبوعين لم ينفذ خشي أن تنقله السلطات العثمانية إلى الأناضول أسوة بغيره من أمثاله، فالتجأ إلى قنصل ألمانيا بدمشق عارضاً عليه التوسط لدى أحمد جمال باشا بإعلان ندمه على خدمة فرنسا ورغبته في التكفير عن سوابقه لصالح الأجانب وذلك بمأثرة يفيد منها رجال السياسة العثمانية ولا يستطيع غيره أن يقوم بها.

فاستحضره أحمد جمال باشا وسأله عن هذه المأثرة مع وعد له بإعادته إلى بلده بكفيا والعفو عنه، إن كان صادقاً فيما يقول.

فقال زلزل: إنه وحده يعرف مخبأ الأوراق السياسية التي احتفظ بها القنصل في جدار من جدران إحدى غرف القنصلية، ودلّ على هذا المخبأ بالفعل، فإذا هو مستودع أُعد في الجدار بصورة خفية، وطلي بابه بشكل يحول دون معرفته واكتشاف ما وراءه.

وقد تحقق لدى الكشف من قبل السلطات العسكرية ما أخبر به زلزل.. فظهرت الوثائق التي تدين الكثيرين ومنها مضبطة موقعة من الوجهاء: ميشال تويني، يوسف الهاني، بترو طراد، أيوب تابت، رزق الله أرقش، خليل زينية.

وجاء في آخر هذه المضبطة:

«.. فأقصى ما يبتغيه مسيحيو سورية هو أن تحتل فرنسا القطر السوري.

ولهذه الأسباب يعرض الموقعون أسماءهم من أعضاء اللجنة التنفيذية بالنيابة عن مسيحيي بيروت بحسب مراتبهم الاقتراحات التالية، التي يعتقدون أنها الوحيدة الكفيلة بإصلاح الحالة السياسية الحاضرة بسورية:

١ ـ احتلال فرنسا لسورية

٢ ـ استقلال ولاية بيروت استقلالاً تامًا تحت وصاية فرنسا وحمايتها.

٣ ـ إدماج ولاية بيروت بلبنان الذين يكون تحت سيادة فرنسا الفعلية».

ويلي ذلك التوقيعات المذكورة من قبل. وكان اكتشاف هذه الوثيقة الخطيرة بمثابة رأس الخيط الذي سحبت به السلطات العثمانية كافة المتصلين بالمراجع الفرنسية، فاعتقلت من كان تحت طائلتها وحولته إلى ديوان عاليه لينتهي إلى الإعدام في ساحة البرج. وأما الذين كانوا بعيدين عن متناول هذه السلطات فإنهم اكتفوا بتحمل العقوبات الغيابية حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها عادوا إلى بلدهم ليتبوأوا في ظل الانتداب الفرنسي أعلى المراكز الحكومية وأسماها جزاء ما قدمت أيديهم من خدمات سالفة للحلفاء وأغراضهم السياسية والعسكرية.

والجدير بالذكر أن الوحيد الذي وقع بفخ الاعتقال وحكم بديوان عاليه كان الوجيه يوسف الهاني الذي ورد اسمه بين الموقعين على مضبطة القنصلية الفرنسية بينما كان بقية رفاقه الآخرين قد أفلتوا من قبضة أحمد جمال باشا في الوقت المناسب قبل أن يفشي فيليب زلزل سره الدفين.. القاتل!

الفتوى الشرعية

ذكرنا فيما تقدم كيف توصل أحمد جمال باشا إلى معرفة خصوم الدولة العثمانية عن طريق الأخبار السرية التي كانت تتوالى على مخابراته من أشخاص آثروا إخفاء حقيقتهم ومن آخرين وجدوا في إطلاعه على المؤامرات والمؤتمرين قربى لله في طاعة السلطان أمير المؤمنين.

والآن نثبت الفتوى الشرعية التي تذرع بها واعتمدها قائد

الجيش الرابع الهمايوني في تنفيذ أحكام الإعدام بالمحكومين، وهذه الفتوى أصدرها محدث الشام الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، والد الشيخ تاج الدين الحسني رئيس الجمهورية السابق في عهد الانتداب الفرنسي، وهذا هو النص:

«لقد جعل الله لمن يعمل لإيجاد الشقاق والفوضى في صفوف المؤمنين والسعي بالفساد في الأرض ثلاث عقوبات:

القتل أو الصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، والنفي من الأرض».

ثم يذكر الآية الشريفة المبينة لفتوى الشيخ بدر الدين الحسني وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(سورة المائدة الآية ٣٣)

وأردف قائلاً «تكون العقوبة مناسبة لحال الجريمة، وما يترتب عليها من الضرر بالمسلمين ومن في حكمهم.

والفساد والإضطراب اللذان يلحقان بالأمة والدولة. نحن الآن نخوض مع العالم الإسلامي غمار حرب تطحن الناس طحناً وما القوم الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويدسون الدسائس لتمزيق الجماعة وتفريق الكلمة وشق عصا الاتحاد، وإخضاع الأمة وكسر الشوكة ويعصون الله ورسوله ﷺ بإيجاد الفتنة بين المسلمين حتى يقتل بعضهم بعضاً، إلا وباء خطراً يجب درؤه.

الخلفيات السياسية لأحداث ٦ أيار

خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) عاش البيروتيون مرحلة صعبة ودقيقة عندما أدانت السلطات القضائية زمرة من الشخصيات الذين تعاونوا مع الحلفاء للتخلص من السيادة العثمانية على البلاد العربية على أمل أن تساعدهم إنكلترا على توحيدها تحت راية الشريف حسين بن علي الذي أعلن الثورة على الدولة العثمانية في ذلك الحين.

إن الأحداث التي جرت في تلك الحرب أصابت البيروتيين بنتائجها القاسية عندما خسرت بضعة عشر شخصاً من شبانهم الذين دفعوا من حياتهم ثمناً غالياً لطموحاتهم السياسية التي شجعهم عليها وحفزهم إليها الوعود الكاذبة التي قدمها لهم الأجانب الذين خفروا ذمتهم وتنصلوا من وعودهم بعد أن نجحوا في إخراج العثمانيين من البلاد وحلوا محلهم فيها.

وإذ كانت هذه الأحداث من الوقائع الفاصلة في حياة بيروت والبيروتيين، رأينا أن نسجل أسبابها وملابساتها وما رافقها من انعكاسات على صفحات كتابنا هذا لعلّها تكوّن صورة واعظة، وصادقة في وعظها وعبرتها لأبناء زماننا حتى لا تتكرر مأساة اعتمادنا على الطامعين فينا لتحقيق ما نصبو إليه من أمانينا.

في سنة ١٨٦٠ ميلادية، عقد اجتماع حضره كل من عالي باشا الصدر الأعظم عن الدولة العثمانية، والسر هنري بوليفر عن إنكلترا ومسيو لافاييت عن فرنسا، ومسيو بروكش عن النمسا ومسيو غولتز عن بروسيا ومسيو لوبانوف عن الروسيا، وقرر الجميع اعتبار جبل لبنان متصرفية عثمانية ممتازة، يعين حاكمها من قِبَل السلطان في اسطمبول بعد موافقة تلك الدول الممثلة في ذلك الاجتماع على أن يكون هذا الحاكم نصرانيًا من رعايا الدولة العثمانية، ولما أعلنت الدولة العثمانية دخول الحرب إلى جانب الألمان ضد الحلفاء، اعتبرت هذا القرار غير ذي موضوع وعينت القائد العسكري أحمد جمال باشا حاكماً أعلى على البلاد السورية بكاملها، بما في ذلك متصرفية جبل لبنان، وما إن تسلم هذا القائد سلطانه في البلاد حتى بادر إلى إصدار بلاغ رسمي أعلن فيه إلغاء امتيازات هذه المتصرفية.

وعلى أثر إصدار هذا البلاغ، شكّل جمال باشا في كل من عاليه بجبل لبنان ودمشق محكمة عسكرية أُطلق عليها يومئذ: الديوان العرفي، وقد عيّن له الميرالاي (عميد أو كولونيل) تحسين باشا رئيساً وإلى جانبه هيئة تحقيق مؤلفة من ضابط يدعى صلاح الدين أفندي، وعدد من القضاة على رأسهم القاضي شكري بك، وتولى المرحوم محيي الدين علم الدين (البيروتي) في هذا الديوان وظيفة كاتب ضبط.

وقبل أن نأتي على حديث المحكومين فإننا نورد بياناً بالأعمال التي كان يشكو منها العرب في عهد جمعية الاتحاد والترقي، وهي الشكاوي التي تركزت عليها مطالب الجمعيات العربية فيما بعد وأدت إلى محاكمة العديد منهم في الديوان العرفي بعاليه ودمشق:

١ ـ إقصاء عدد كبير من العرب عن الوظائف التي كانوا فيها أيام السلطان عبد الحميد الثاني، لا سيما في نظارتي الداخلية والخارجية وقد أُخرجوا منها بموجب قانون التنسيق (أي ما يعرف اليوم بالتطهير).

٢ ـ عدم إشراك الزعماء العرب في الاجتماعات التي غايتها التوفيق بين العناصر العثمانية، بما في ذلك الضباط العسكريون.

٣ ـ إقصاء العرب عن المذاكرات السياسية التي كانت

تجريها حكومة الاتحاديين في اسطمبول.

٤ ـ إقصاء العرب عن نشاط جمعية الاتحاد والترقي.

٥ ـ انتزاع نظارة الأوقاف من وزير عربي وإعطاؤها لتركي.

٦ ـ معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمي أو أدبي في البلاد العربية.

٧ ـ تعيين ولاة من الأتراك محل الولاة العرب.

٨ ـ مناهضة الاتحاديين للغة العربية.

وبالإضافة إلى الاجتماعات السياسية التي عقدها الزعماء العرب، سواء في باريس أو القاهرة أو في البلاد السورية نفسها، فإن أكثر ما هيّج السلطات العثمانية على هؤلاء الزعماء هو الوثيقة السرية التي دلهم على مكان وجودها في قنصلية فرنسا ببيروت فيليب زلزل (اللبناني) ترجمان هذه القنصلية.

وتفصيل ذلك أن حوالى مائة شخص من وجهاء بيروت والنافذين فيها من أهل الحل والعقد في البلاد وكان فيهم المسلمون والنصارى، اجتمعوا وأسسوا ما سُمّي يومئذ بالجمعية الإصلاحية، ثم انتخبوا من بينهم ٢٥ عضواً برئاسة الشيخ أحمد عباس الأزهري (صاحب الكلية العثمانية ببيروت التي أصبحت الكلية الإسلامية ثم كلية الشيخ عباس فيما بعد) وكان الانتخاب سريًّا وعدد الناخبين ٦١ شخصاً كان منهم ـ أحمد مختار بيهم. أيوب ثابت، سليم علي سلام، كامل الصلح، جان تويني. المحامي بترو طراد، جان نقاش، رزق الله أرقش، سليم البواب، حسن الناطور، جميل الحسامي، جرجي رزق، ألبير بسول، حبيب فرعون، عبد الحميد الغندور، ألبير يوسف سرسق، عبد الباسط فتح الله. يوسف الهاني، فؤاد حنتس، جان بسترس، وأتخذوا لهم نادياً بباب إدريس في بيروت.

وكانت أهداف هذه الجمعية ذات وجهين، سري وعلني، أما العلني الذي كان يطالب به جميع الأعضاء من مسلمين ونصارى فهو:

١ ـ منح المناطق العربية في المملكة العثمانية حكماً ذاتياً مع الاعتراف اعترافاً تامًّا بالسيطرة العثمانية ولكن من خلال التفريق الواضح بين المسائل ذات الصفة الإمبراطورية العامة، كالشؤون الخارجية والدفاع والمواصلات البعيدة ومالية الدولة، وبين المسائل ذات الصبغة الإقليمية كإدارة المقاطعات وجوارها والدوائر المحلية.

كما أن هذه الجمعية طالبت بانتقال جميع المصالح الإقليمية في ولاية بيروت إلى أيدي هيئات تمثل الأهالي، والاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية واستعمالها في البرلمان العثماني على قدم المساواة مع اللغة التركية وعدم تجنيد العرب للخدمة وقت السلم خارج بلادهم.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المطالب كانت محل أخذ وعطاء بين الجمعية الإصلاحية وبين السلطات العثمانية المسؤولة، غير أن هذه السلطات طاش سهم صوابها عندما علمت بأن الأعضاء النصارى في هذه الجمعية كانوا يشكلون في داخلها جمعية أخرى خاصة بهم دون أن يكون لزملائهم المسلمين علم بها من قريب أو بعيد.

وكان صلة الوصل بين هذه الجمعية النصرانية الصرف وباقي الجمعيات العربية الأخرى نخلة بك التويني ترجمان القنصلية الفرنسية الفخري في بيروت.

ولما فتشت السلطات العثمانية مركز القنصلية الفرنسية في بيروت بإرشاد فيليب زلزل عثرت في باطن جدار إحدى الغرف على عريضة بالمطالب السرية التي تتلخص بإلحاق مدينة بيروت بالجبل، ووضع لبنان تحت الحماية الفرنسية وهي موجهة إلى مسيو كوجيه قنصل فرنسا ببيروت، وقد وقّع هذه العريضة كل من: ميشال تويني، يوسف الهاني، بترو طراد، أيوب ثابت، رزق الله أرقش، خليل زينية.

وقبيل اكتشاف هذه العريضة بوقت قصير تمكن جميع هؤلاء الموقعين على العريضة من مغادرة البلاد ما عدا يوسف الهاني الذي اعتقل في داره ببيروت في نهاية حفلة ساهرة كان يقيمها هو وزوجته حنينة دوماني بحضور جمال باشا نفسه، وصورة ذلك، أنه أثناء هذه الحفلة حضر أحد الضباط إلى بيت الهاني وأسرّ في أذن جمال باشا أن الأوراق التي اكتشفت في القنصلية الفرنسية في المدينة بإرشاد ترجمان هذه القنصلية فيليب زلزل، يوجد بينها المذكرة التي وقعها وجهاء النصارى المذكورون وفيها اسم يوسف الهاني في جملة التواقيع التي ذيلت هذه العريضة.

ورغم خطورة الخبر الذي جاء به الضابط فإن جمال باشا لم يبدُ عليه أي أثر للانفعال، بل تابع سهرته بأعصاب هادئة بعد أن أشار على محدثه بانتظار نهاية الحفلة ثم اعتقال صاحب المنزل باعتباره متآمراً على الدولة، وبالفعل، فإنه عندما انتهت تلك السهرة الحافلة في ساعة متأخرة من الليل وخرج الهاني لتوديع ضيوفه وفي مقدمتهم جمال باشا، تصدى له الضابط المذكور على الباب وبادره بوضع القيود الحديدية في يديه، فلما استنجد المعتقل بضيفه الكبير أجابه هذا: «إن الضابط يقوم بما يفرضه عليه واجب وظيفته العسكرية مع رجل كان يسخر من حكومته بتكريم وزيرها، بينما هو في الواقع يتآمر على وجودها ويعمل لحساب أعدائها».

ولقد أثار اعتقال الهاني بهذا الشكل المثير ضجة كبرى افتعلها المتآمرون على كيان الدولة العثمانية من اللبنانيين الموجودين في خارج البلاد ووصموا جمال باشا بالغدر لأنه اعتقل الرجل الذي يكرمه عندما كان يصافحه مودعاً.

ولكي يقطع جمال باشا دابر المحاولات المبذولة لتخليص الهاني، فإنه أمر بتقديم موعد تنفيذ حكم الإعدام به عن سائر المحكومين، وقد أُعدم الهاني بالفعل فجر يوم ٥ نيسان سنة ١٩١٦ بينما أُعدم الآخرون في ٦ أيار من تلك السنة على ما هو معروف.

ولما لم يستطع جمال باشا أن يضع يده على جميع الأشخاص الذين أدانهم الديوان العرفي بعاليه، لذلك أصاب سيف أحكام هذا الديوان فريقاً وأخطأ فريقاً آخر. ويقول الأمير شكيب أرسلان في مقالات نشرها في مجلة المنار لصاحبها الشيخ رشيد رضا في معرض دفاعه عن سياسته العثمانية: «إن جمال باشا لما صمم على شنق المعتقلين، استدعى شكري بك رئيس ديوان الحرب العرفي إلى دمشق وسلمه أسماء ٤٠ شخصاً يجب إعدامهم. فراوده شكري بك كثيراً. فهدده بالقتل كما قال، أي شكري بك، ولما وجد هذا أنه لا يرتاح إلى الحكم بالموت إلا على ثلاثة وبالأكثر على خمسة استحضر (أي جمال باشا) أعضاء الديوان وهم ضباط شبان، لا يخرجون عن إرادته، وكانت النتيجة الحكم على واحد وعشرين فقط.

وتبعاً للمحاكمات التي أجراهاالديوان العرفي، فإنه تم تنفيذ أحكام الإعدام بالمحكومين على مرحلتين بشكل إفرادي في تواريخ مختلفة.

ففي ١٥ آب سنة ١٩١٥ قبل شروق شمس هذا اليوم الكئيب شهدت ساحة لبرج في بيروت إحدى عشرة جثة أسلمت أرواحها إلى بارئها صبراً تحت أعواد إحدى عشرة مشنقة بإشراف القومندان البيروتي أبو عفيف الحصري الذي توفي مؤخراً وهو صاحب متجر لبيع الحصر قرب زاوية الأوزاعي بباب إدريس في بيروت.

وفيما يلي أسماء أفراد هذه القافلة الأولى بحسب ترتيب إعدامهم وإلى جانب كل منهم اسم البلد الذي ينتمي إليه:

١ ـ عبد الكريم الخليل ـ من الشياح قرب بيروت.
٢ و٣ ـ الشقيقان محمد ومحمود المحمصاني ـ من بيروت.
٤ ـ عبد القادر الخرسا ـ أصله من دمشق ومقيم ببيروت.
٥ ـ نور الدين القاضي ـ من بيروت.
٦ ـ سليم أحمد عبد الهادي ـ من قرية عرّابة قرب جنين بفلسطين.
٧ ـ محمود نجا العجم ـ من بيروت.
٨ ـ الشيخ محمد مسلّم عابدين ـ مأمور أوقاف اللاذقية، من دمشق.
٩ ـ نايف تللو ـ من دمشق.
١٠ ـ صالح حيدر ـ من أهالي بعلبك.
١١ ـ علي الأرمنازي ـ من حماه.

وفي ٦ أيار سنة ١٩١٦ تمّ إعدام القافلة الثانية من المحكومين في ساحة المرجة بدمشق وفق الترتيب التالي مع ذكر البلدان التي ينتمون إليها:

١ ـ شفيق بك المؤيد العظم ـ من دمشق.
٢ ـ الشيخ عبد الحميد الزهراوي ـ من حمص.
٣ ـ الأمير عمر الجزائري، حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الكبير ـ من دمشق.
٤ ـ شكري بك العسلي ـ من دمشق.
٥ ـ عبد الوهاب الإنكليزي ـ من دمشق.
٦ ـ رفيق رزق سلوم ـ من حمص.
٧ ـ رشدي الشمعة ـ من دمشق.

وفي نفس التاريخ أي يوم ٦ أيار سنة ١٩١٦ أُعدم ببيروت في ساحة البرج المحكومون التالية أسماؤهم بحسب ترتيبهم مع أسماء البلدان التي ينتمون إليها:

١ ـ باترو باولي ـ من التابعية اليونانية ـ من بيروت.
٢ ـ جرجي الحداد ـ من لبنان.
٣ ـ سعيد فاضل عقل ـ من الدامور بلبنان.
٤ ـ عمر حمد ـ من بيروت.
٥ ـ عبد الغني العريسي ـ من بيروت.
٦ ـ الأمير عمر الشهابي ـ من حاصبيا بلبنان.
٧ ـ الشيخ أحمد طباره ـ إمام جامع النوفرة (الأمير منذر اليوم) من بيروت.
٨ ـ محمد الشنطي اليافي ـ من يافا بفلسطين.
٩ ـ توفيق البساط ـ من صيدا.
١٠ ـ سيف الدين الخطيب ـ من دمشق.
١١ ـ علي بن عمر النشاشيبي ـ من القدس الشريف.
١٢ ـ محمود جلال البخاري ـ من دمشق.
١٣ ـ سليم الجزائري ـ من دمشق.
١٤ ـ أمين لطفي الحافظ ـ من دمشق.

وإلى جانب القوافل التي أُعدمت بشكل جماعي، هناك أفراد آخرون حكم عليهم الديوان العرفي بتهم مماثلة وتمّ إعدامهم في مدن مختلفة، وفي تواريخ متفرقة وهم:

١ - الخوري يوسف الحايك - من بلدة سن الفيل بلبنان، أُعدم في دمشق يوم ٢٢ آذار سنة ١٩١٥.

٢ - نخلة باشا المطران - من أهالي بعلبك اغتاله حارسه الشركسي أحمد بك الرزّي قرب أُورفه بالأناضول في ١٧ تشرين الأول سنة ١٩١٥ وأُلقيت جثته في بركة ماء قرب المكان الذي اغتيل فيه.

٣ و٤ - الشقيقان فيليب وفريد الخازن - من جونيه بلبنان أُعدما ببيروت يوم ٢ أيار سنة ١٩١٦.

٥ - عبد الله الظاهر - من عكار، أُعدم ببيروت يوم أول آذار سنة ١٩١٦.

٦ - يوسف الهاني - من بيروت، أُعدم ببيروت يوم ٥ نيسان سنة ١٩١٦.

٧ - محمد الملحم - شيخ عشيرة الحسنة، أُعدم بدمشق في أوائل سنة ١٩١٧.

٨ - فجر المحمود - من عشيرة الموالي، أُعدم بدمشق أوائل سنة ١٩١٧.

٩ - شاهر بن رحيل العلي - من عشيرة التركي أعدم بدمشق على أثر إعلان الثورة العربية.

١٠ و١١ - الشيخ أحمد عارف - مفتي غزة وولده، من مدينة غزة أُعدما في القدس الشريف سنة ١٩١٧.

١٢ و١٣ - الشقيقان أنطون وتوفيق زريق - من طرابلس الشام أُعدما بدمشق سنة ١٩١٦.

١٤ - يوسف سعيد بيضون - من بيروت، أُعدم بعاليه بلبنان يوم ١٠ آذار سنة ١٩١٦.

١٥ - راهب فرنسي - كان عند مطران الروم الكاثوليك بطرابلس، أعدم بدمشق.

ويبدو أن جمال باشا بلغه أن بعض الناس انتقدوا استعجاله تنفيذ تلك الأحكام القاسية قبل تصديقها من قبل السلطان فردّ على هذه الانتقادات في مذكراته بقوله: «ويقول البعض لقد كان ينبغي ألا يُنفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان، وردًا على هؤلاء أقول أولاً: لقد خولت لي السلطة القانونية في أن أفعل ما فعلت، وثانياً: إن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الخونة، وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأرباب الحيثيات نفوذاً كبيراً حتى أن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق، فإن أراد قائد مثلي ليس له إلا القليل من الموارد أن يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعوة الإنكليزية والفرنسية عدة سنين، كان من أهم الأمور أن يكون بحيث يؤمن الأهالي الملكيون بمقدرته على الأخذ بناصية أي شخص كائناً من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العليا في الآستانة أولاً. ويقيناً، أن الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين والنصف العام الذين أعقبا إعلان الشريف حسين لاستقلال بلاده، إنما يرجع إلى أحكام الإعدام التي وقعت في إبريل سنة ١٩١٦».

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وأصبحت البلاد السورية بكامل حدودها الطبيعية في قبضة جيوش الحلفاء واحتلتها وتقاسمتها فيما بينها، وأعلنت فرنسا بلسان غورو قيام الكيان اللبناني، أجمعت أصوات أهالي جبل لبنان مندّدة بجمال باشا وأعماله التي وصفوها بالطغيان والإجرام. ولما علمت الصحافة اللبنانية بأن حكومة الأفغان كلفته بتنظيم جيشها الذي كان يقاتل الإنكليز، وأنه قصد فرنسا لتأمين السلاح لهذا الجيش، وأن فرنسا أحسنت استقباله وأجابته إلى طلبه، فإن هذه الصحافة عتبت على الفرنسيين، فما كان من هؤلاء إلا أن سمحوا للبنانيين بتأليف محكمة لمحاكمة هذا القائد وجعلوا على رأس هذه المحكمة القاضي سعيد زين الدين (الدرزي) والد السيدة نظيرة زين الدين صاحبة كتاب السُّفور والحجاب الذي أثار ضجة كبرى في حينه، وبالفعل فإن القاضي المذكور أخذ الموضوع على أنه جدٌّ وأصدر حكمه الغيابي بإعدام جمال باشا. . ولكن هذا الحكم (التمثيلي) لم يستطع أحد من اللبنانيين تنفيذه بالفعل، بل تولى هذا الأمر بالنيابة عنهم، أحد الفدائيين الأرمن.

كان أحمد جمال باشا، من أعضاء جمعية الاتحاد البارزين يوم كانت هذه الجمعية ما تزال سرية في مكدونيا ورتبته يومئذ قومندان أركان حرب الجيش العثماني، وبعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ عُيّن مفتشاً عامًا لخطوط المواصلات في مدينة شطالجة، وعندما أصبح محمود شوكت باشا صدراً أعظم ناداه قائلاً: «هلمّ يا جمال بك فإني أريد أن تستلم في الحال منصب حاكم الآستانة العسكري فلا تتوانَ لحظة في اتخاذ سائر الوسائل التي تعتقدها ضرورية لحفظ النظام وإشاعة الثقة في العاصمة».

وبعد أن استرد العثمانيون أدرنه من البلغار في كانون الأول سنة ١٩١٣ أُسندت إليه وظيفة وزير الأشغال العامة. وعند اندلاع الحرب بين الدولة العثمانية والحلفاء وُسّد إليه منصب وزير البحرية وعين قائداً عامًا للجيش الهمايوني الرابع وحاكماً مطلق الصلاحية على البلاد السورية بجميع ولاياتها، وقد ظل في هذا المنصب الهام حتى كانون الأول سنة ١٩١٧. ولما انتهت الحرب ١٩١٨ فرّ من اسطمبول مع عائلته يوم الهدنة على

نسافة ألمانية فنزل في مدينة سيباستيبول ثم انتقل منها إلى برلين، ولما ألحّ رفعت باشا سفير تركيا في برلين يومئذ على حكومة ألمانيا في تسليم زعماء الاتحاديين، اضطر جمال باشا لمغادرة هذه البلاد فسافر إلى سويسرا باسم المهندس خالد بك وأقام في إحدى قراها لمدة ثمانية أشهر دوَّن خلالها مذكراته التي ترجمها سنة ١٩٢٣ علي أحمد شكري، وبعد أن عاد الهدوء إلى ألمانيا رجع إلى ميونيخ واتخذها مقاماً له، ولما قامت الحركة الوطنية في الأناضول واتجهت الأنظار مرة أخرى إلى الشرق ترك ميونيخ قاصداً إلى موسكو للتوفيق بينها وبين حكومة أنقره، وفيما هو فيها وصل إليها خصمه بكر سامي بك على رأس وفد تركي لهذه الغاية، فرأى حينئذ أن يسافر إلى تركستان وبخارى وأفغانستان، وبعد مراجعة السلطات الشيوعية هناك سمحوا له بمتابعة نشاطه لمصلحة الحكومة الأفغانية التي كلفته بتنظيم جيشها الذي كان في حالة حرب مع الإنكليز. وفي كابل عاصمة الأفغان دعاه أميرها إليه وعينه مستشاراً للجيش الأفغاني، وفيما كان في مدينة تفليس عاصمة كرجستان بروسيا لاحقته دوائر الاستخبارات الإنكليزية وكلفت الفدائي الأرمني أسطفان زاغيكيان باغتياله مستغلة نقمة الأرمن عليه لتتخلص منه بيد أحد أبناء هذه الطائفة فأطلق هذا الفدائي عليه الرصاص وأرداه قتيلاً. .

وهكذا، وضع الرصاص حدًا لحياة هذا القائد الذي بقيت آجال السوريين معلقة بين شفتيه طوال مدة الحرب التي استمرت أربع سنوات من الزمان.

الفصل الثاني عشر

أسواق بيروت بين قديمها وجديدها

إن بيروت القديمة كما عرفها آباؤنا زالت ولن تعود. وبيروت الحديثة كما يعرفها أبناؤنا هي الأخرى في زماننا في طريق الزوال. وعندما يأتي من بعدنا جيل جديد سوف يجد نفسه في بلد ليس يحمل من ماضيه إلا الذكريات التي أصبحت في ذمة التاريخ!

أماالآن وقد أخذت صفحات تقويم الزمن تطوي سجل المعالم البيروتية الى غير رجعة فإننا نبادر، قبل فوات الأوان، الى تعريف أبناء اليوم على صورة هذه المعالم كما كانت في أوائل هذا القرن بأسواقها وساحاتها وأحيائها لعلهم يجدون فيها لذة الاستمتاع بالمقارنة بين أمس مدينتهم وحاضرها وبين ما ستصبح عليه هذه المدينة خلال مستقبلها القريب.

الأسواق وأسماؤها

١ ـ سوق ابو النصر

ما يزال هذا السوق يحتفظ باسمه ومكانه وهو يصل سوق اللحامين بساحة البرج المعروفة رسميًا باسم ساحة الشهداء نسبة الى بعض رجال السياسة وغيرهم الذين صلبوا شنقاً خلال الحرب الكونية الأولى بتهمة التعاون مع الحلفاء ضد الدولة العثمانية التي كان اللبنانيون من جملة رعاياها حتى سنة ١٩١٨م.

٢ ـ سوق الأرمن

ما زال هذا السوق يحتفظ باسمه ومكانه وكان في الأصل كنيسة يشترك بالصلاة فيها النصارى الكاثوليك والروم الأرثوذكس لقلة عددهم وعدم وجود معابد كافية لكل من هاتين الطائفتين، وهذا السوق يحمل رقم ٨٩ ـ منطقة ١١ ـ النجمة وهو متفرع من سوق أبو النصر ويؤدي إلى سوق رقم ١٧ في نفس المنطقة.

٣ ـ سوق الإفرنج

ما يزال هذا السوق يحتفظ باسمه ومكانه وهو يحمل رقم ٩٧ ـ منطقة ١٢ ـ باب إدريس ويصل بين سوق الجَميل وبين شارع ويغان.

٤ ـ سوق أياس

ما يزال هذا السوق يحتفظ باسمه ومكانه وهو يحمل رقم ٨٤ ـ منطقة ١٢ ـ المجيدية. وهذا السوق يصل ما بين ساحة مطعم العجمي عند شارع طرابلس وبين شاعر ويغان عند باب إدريس وفي وسطه بركة لطيفة يستخدمها بعض الأشخاص لبيع المرطبات والحلويات العربية.

٥ ـ سوق البازركان

يقع هذاالسوق في مكانه القديم مع بعض التغيير في معالمه القديمة، وهو يحمل الرقم ٥٦ ـ منطقة ١١ ـ النجمة، وهو يصل حاليًا بين شارعي ويغان عند باب إدريس وعبد الحميد كرامي المتفرع من ساحة النجمة. وبمحاذاته جامع الأمير منذر بن سليمان التنوخي الشهير بجامع النوفرة.

٦ ـ سوق البياطرة

زال هذا السوق بالتخطيط الذي قام به عزمي بك والي بيروت أواخر الحرب الكونية الأولى ١٩١٥ ـ ١٩١٧ ، وكان يقع في منطقة المرفأ حيث يقع اليوم شارع فوش وكان يشغله أصحاب المهن الحرة التي تتصل بالمواد اللازمة للدواب من أدوات الركوب وصناعة الحوافر. وشارع فوش الذي خطط محل السوق المذكور في أيام عزمي بك، يحمل رقم ـ ٦٦ منطقة ـ ١٢ ـ ١٤ ـ المجيدية ـ المرفأ.

٧ ـ سوق التجار

زال هذا السوق بالتخطيط الذي قام به عزمي بك وكان يتصل

بسوق القطن وسوق البياطرة في منطقة المرفأ وهو يحمل اليوم اسم شارع التجارة رقم ٦٤ ـ منطقة ١٤ ـ المرفأ. ويمتد ما بين شارع المطران وبين شارع المرسلياز.

٨ ـ سوق الجميل

ما زال هذا السوق يحتفظ باسمه وهو يمتد من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة شارع البطريرك الحويك وعند طرفه الشمالي يلتقي بشارع طرابلس، ومن الجنوب يلتقي بشارع ويغان بباب إدريس. يحمل رقم ٦٨ ـ منطقة ١٢ ـ المجيدية.

٩ ـ سوق الجوهرجية

هذا السوق يعرف اليوم بسوق الصاغة أو الصياغين وهو ما زال في مكانه وقد أطلق عليه مؤخراً اسم شارع أنطوان عاصي. له من الجهة الشرقية مدخل متصل بساحة البرج (الشهداء) وهو يحمل رقم ـ ١٤ ـ منطقة ١١ ـ النجمة. وكانت له أبواب تقفل عند انتهاء العمل. ويتجمع فيه تجار الذهب والأحجار الكريمة والمجوهرات.

١٠ ـ سوق الحدادين (القديم)

كان هذا السوق يقع في المنطقة التي يقع فيها شارع بنفس الاسم بالقرب من باب إدريس وهو يحمل رقم ٩٢ ـ منطقة ـ ٢١ ـ باب إدريس، من أحد طرفيه يلتقي بشارع البطريرك الحويك ومن الطرف الآخر بشارع أحمد الداعوق (الوحدة الوطنية سابقاً). وفيه تجمُّع لدكاكين الحدادين أصحاب مهنة «الحدادة الفرنجية».

١١ ـ سوق الحدادين (الجديد)

كان يقع ما بين الجامع العمري الكبير وبناية الأوقاف الإسلامية المواجهة للجامع من الناحية الشرقية وبين دار بلدية بيروت (المحافظة) وهو لا يحمل اسماً معيناً بل هو عبارة عن ممر يحمل رقم ٦٠ ـ منطقة ـ ١١ ـ النجمة وبالقرب من مدخله الجنوبي بقايا من أصحاب مهنة الحدادة العربية (السمكرية).

١٢ ـ سوق الخرّاطين

كان يقع في المكان الذي توجد فيه اليوم نبابة «بان أميركان» في الجهة المقابلة للبنك العربي ولم يعد له أثر بعد أن ارتفعت في المنطقة البنايات الحالية التي تشغلها عدة مصارف أهلية وأجنبية. وكانت توجد في هذا السوق دكاكين أصحاب مهنة خراطة الخشب المعد لصناعة علب الحلوى القديمة قبل استعمال علب الصفيح أو الورق المقوّى (الكرتون) ودكاكين «النجارة العربية» المختصين بصناعة الأدوات المنزلية(مناخل، أجران خشبية مع مدقاتها، وما شابه ذلك).

١٣ ـ سوق الخضرة

يقع هذا السوق في المنطقة المعروفة باسم النورية، وقد اشتهرت هذه المنطقة بالنورية لأنه يوجد فيها كنيسة للروم الأرثوذكس تعرف باسم «كنيسة سيدة النور» وما يزال السوق المذكور في مكانه وكان مركزاً لتجمع باعة الخضار بالمفرق (القطاعي) ويمتد ما بين سوق أبو النصر وبين شارع ويغان بمحاذاة سوق سرسق حيث كان يتواجد باعة الأقمشة. وسوق النورية، هو اسمه الرسمي والشعبي في آن واحد ورقمه ٦٨ ـ منطقة ـ ١١ ـ النجمة.

١٤ ـ سوق الخمامير

زال هذا السوق بالتخطيط أيام الوالي عزمي بك وكان يقع بجوار شارع فوش الحالي وأُطلق عليه هذاالاسم لوجود عدد من الحانات التي كان أصحابها من النصارى الذين يتعاطون تجارة المشروبات الكحولية (المسكرات) وأصبح مكانه على وجه التقريب شارع الأوروغواي الممتد من شارع ويغان في الجهة الجنوبية إلى جامع أبي بكر الصديق (الدباغة قديماً وقبل ذلك جامع البحر) وهو يحمل رقم ٥٠ ـ منطقة ـ ١٤ ـ المرفأ.

١٥ ـ سوق الخياطين

كان يقع قريباً من السلم التي تصل حالياً بين شارع المصارف وشارع الكبوشية وقد زال الآن مكانه واسمه وفيه كانت توجد دكاكين الخياطين للثياب العربية للرجال مثل السراويل والعباءة والقنباز والصداري الرجالية المسماة «كبران» والسوق المذكور يحمل رقم ٩٩ ـ المنطقة ـ ١١ ـ النجمة.

١٦ ـ سوق الدلالين

زال هذا السوق الذي كان عبارة عن ممر ضيق بجوار جامع الأمير منصور عساف من الجهة الشرقية الجنوبية، على أنه بقي حتى زمن قريب مركز تجمع الباعة الذين يتعاطون بيع الثياب العتيقة (المستعملة) وينادون عليها بطريقة الدلالة (أي المزاد العلني) وهو اليوم أحد فروع سوق سرسق حيث كانت تباع الأقمشة والثياب الجاهزة. وكانت المنطقة التي يقع فيها هذا السوق في الأصل تعرف باسم «المصلى» حيث كان المسلمون يؤدون فيها الصلاة الجامعة في العيدين: الأضحى والفطر. وكذلك صلاة الاستسقاء التي يتوسل بها الناس نزول المطر عند انحباسه لمدة طويلة.

١٧ ـ سوق الرصيف

لم يعد له وجود منذ زمن بعيد واحتواه شارع المصارف الواقع إلى القرب من شارع رياض الصلح. وسمي سوق الرصيف لوقوعه بحذاء السور القديم وكان مستخدماً من قبل الباعة الذين

يعرضون بضاعتهم على الأرض من غير أن تكون لهم دكاكين خاصة بهم. ويمكن تحديد مكانه على وجه التقريب في الموضع الذي أصبح مشغولاً في أيامنا بمصرف أبو جودة ومصرف شيزمانهاتن بنك، ومصرف سورية ولبنان.

١٨ ـ سوق سرسق

ما زال هذا السوق في مكانه القديم، وهو لا يستعمل إلا من قبل المشاة. ويمتد من كنيسة سيدة النور (النورية) حتى شارع ويغان، من الجنوب إلى الشمال. وهو يحمل رقم ١٦ ـ منطقة ١١ ـ النجمة وكان مكان هذا السوق قديما قصر حاكم بيروت الأمير منصور عساف (التركماني) وهو القصر الذي كان يسميه البيروتيون «السرايا» أو «دار الولاية» والسوق المذكور كان يكتظ بباعة الأقمشة والثياب الجاهزة وفيه بعض الصيارفة الذين يتعاطون بيع العملات الأجنبية وهو منسوب إلى آل سرسق الذين كانوا يملكون جزءاً كبيراً من محلاته التجارية والأبنية التي فوقها للثياب الجاهزة.

١٩ ـ سوق سيّور

ما زال هذا السوق في مكانه القديم وهو معروف بنفس الاسم نسبة الى عائلة سيّور التي كانت تملك جزءاً كبيراً منه. وفي هذا السوق يتجمع عدد كبير من الخياطين «للبذل الفرنجية» على أنه أصبح يضم غيرهم من تجار الثياب الجاهزة وأدوات الخياطين من مختلف المواد. وهو متصل بغيره من الأسواق التي تباع فيها الأشياء المماثلة، فمن جهة الشرق يتصل بسوق الطويلة ومن الغرب بسوق الجميل، وهو متقاطع من وسطه بسوق الأورام رقمه ـ ٩٥ ـ منطقة ـ ١٤ ـ المجيدية.

٢٠ ـ سوق الصرامي

وكان معروفاً من قبل بسوق الصريماتية (أي الأحذية البلدية) وكان يقع على امتداد الحائط الجنوبي للجامع العمري الكبير. وقد أُطلق عليه مؤخراً اسم شارع جورج عاقوري. وفي حده الجنوبي دكاكين تجار المواد الجلدية (الكرستا) التي تستخدم لصنع الأحذية، ولم يبق فيه من الدكاكين القديمة إلا واحدة ما تزال حتى اليوم محلاً لبيع «الصرامي» التي يسميها أهل زماننا «المشايات». ويقال إن هذا السوق كان في الأصل جزءاً من كاتدرائية مار يوحنا التي حولها المماليك إلى جامع إسلامي بعد أن حرروا بيروت من الاحتلال الصليبي، لأن الصليبيين اتخذوا منها حصناً عسكرياً في حروبهم مع المسلمين. وهذا السوق الذي أصبح اسمه شارع جورج عاقوري يحمل رقم ٥٣ ـ منطقة ـ ١١ ـ النجمة.

٢١ ـ سوق الطويلة

ما زال هذا السوق يحتفظ باسمه ومكانه. وقد ذكر لي السيد براشو فتيا سفير النمسا سابقاً في بيروت أنه اشتهر بهذا الاسم لوجود سيدة نمساوية طويلة كانت تتعاطى الخياطة في إحدى محلاته. وقد قرأت في بعض الصحف أن هذا السوق عرف باسم سوق الطويلة لأن إحدى الأسر الإسلامية من آل الطويلة كانت تملك جزءاً كبيراً منه. بيد أن ظني يتجه إلى أن هذه التسمية أُطلقت عليه بسبب طوله بالنسبة إلى غيره من الأسواق القديمة التي كانت في أغلبها صغيرة وقصيرة. وهذا السوق يحده من الشمال شارع طرابلس ومن الجنوب شارع ويغان ويتفرع منه ممر ينحدر إلى سوق إياس. وفي هذا السوق منفذ يؤدي إلى زاوية الإمام الأوزاعي التي تطلّ عليه من الناحية الغربية وفي الجهة المقابلة يوجد بناء قديم تعلوه قبة صغيرة كان في أوائل هذا القرن مدرسة إسلامية وزاوية للصلاة. وهذا البناء كان في الأصل زاوية دينية بناها ابن عراق أحد صلحاء المسلمين في أوائل العهد العثماني أما اليوم فقد تحولت الزاوية إلى دكان لبيع أدوات التجميل للنساء ولم يبق من معالمها الإسلامية إلا القبة المذكورة، وفي طرفها من الداخل باحة صغيرة تحتوي على بعض القبور والبناء المذكور هو من عقارات الأوقاف الإسلامية في الوقت الحاضر. والسوق يحمل رقم ٨٦ ـ منطقة ٢٠ ـ المجيدية. وفي آخره تقع ساحة العجمي.

٢٢ ـ سوق العطارين

زال هذا السوق بالتخطيط في عهد عزمي بك والي بيروت خلال الحرب الكونية الأولى وكان يقع تحت قناطر الجامع العمري الكبير عند مدخله الغربي وتحت قناطر الأبنية المحاذية للجامع من الجهة الجنوبية. وقد احتواه التخطيط الذي جرى على أساسه فتح الشارع المعروف باسم «المعرض» والقسم المواجه للجامع أُطلق عليه اسم «شارع الجامع العمري» وكان هذا السوق يضم دكاكين باعة الخرضوات والحبوب الزراعية وغيرها من المواد المعروفة باسم «العطارة» التي اشتهرت ببيعها المحلات المعروفة باسم «دبوس» وذلك قبل انتقال هذه المحلات إلى قطاعها الجديد بالقرب من سوق الأرمن وساحة السمك الجديدة. وشارع الجامع العمري الذي احتوى السوق المذكورة يحمل رقم ـ ٥٨ ـ المنطقة ـ ١١ ـ النجمة.

٢٣ ـ سوق الفشخة

زال اسم هذا السوق ولكن مكانه بقي بعد أن طرأت عليه تغييرات وتحولات كثيرة قبل الحرب الكونية الأولى وبعدها وكان عبارة عن سوق ضيق للغاية، لا يكاد عرضه يتجاوز مترين الأمر الذي جعل أهل ذلك الزمان يطلقون عليه اسم «سوق الفشخة» أي الخطوة نظراً لضيقه وقد جرى توسيعه في أواخر القرن الماضي وأُطلق عليه اسم «الشارع الجديد» وكان يمتد من بوابة

السرايا إلى الساحة الحميدية التي هي اليوم ساحة البرج (الشهداء) وبعد توسيعه في ذلك العهد جرى تمديده إلى بوابة إدريس. وعندما احتل الفرنسيون بلادنا في أعقاب الحرب الكونية الأولى أصبح هذا الشارع يحمل اسم «ويغان» أحد القواد الفرنسيين الذي حكم لبنان وسورية في أوائل عهد الانتداب وما زال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم. وشارع ويغان (الفشخة سابقاً) كان من أكبر الأسواق حتى عشية الحرب الأهلية الأخيرة. وفيه تقع بناية بلدية بيروت (المحافظة) وهو متصل بعدد من الأسواق التجارية، مثل شارع فوش وشارع اللنبي، وشارع الجامع العمري، وشارع رياض الصلح، وعلى طرفه من الجهة الجنوبية يوجد المدخل الشمالي للجامع العمري الكبير.

وشارع «ويغان» الذي احتوى سوق الفشخة يحمل الرقم ٣٣ ـ ١١ ـ النجمة.

٢٤ ـ سوق القزاز

أصبح هذا السوق شارع عبد الله بيهم على أنه ما زال معروفاً عند الناس باسمه القديم «سوق القزاز» لأنه بقي على حالته القديمة كمركز تجمع لباعة الأدوات المنزلية الزجاجية وما إليها من التحف والهدايا التي مادتها من الزجاج والبورسلان. وهو متصل من جهة الشرق بشارع فوش ومن الغرب بشارع اللنبي، ويحمل رقم ـ ٦٩ ـ المنطقة ـ ١٢ ـ المجيدية.

٢٥ ـ سوق القطايف

زال هذا السوق في أواخر العهد العثماني بالتخطيط الذي أجراه عزمي بك والي بيروت، وكا يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من شارع المعرض الحالي. وأرجح الظن أن في مكانه اليوم شارع بشارة المهندس الذي يمتد بموازاة المعرض من الجهة الشرقية وهو يطل على الحفريات التي تقوم بها مديرية الآثار العامة في المنطقة التي اشتهرت في الماضي باسم درج الأربعين أو رجال الأربعين. وهي اليوم معروفة بأسم درج خان البيض، لوجود باعة البيض والدجاج بالقرب منها، كما يطل أيضاً على الدرج المؤدي إلى سوق اللحامين وسوق الأرمن.

وأُطلق عليه اسم سوق القطايف لأنه مركز تجمع باعة هذا النوع من الحلويات العربية التي هي عبارة عن معجنات تنضج على النار ثم تطوى على حشوة من الجوز المطحون مع السكر وتؤكل بعد ترطيبها بالسكر المغلي بالماء الذي يسميه أهل بلادناالقطر. ولم يبق من معالم سوق القطايف القديم غير دكان واحدة لها بابان أحدهما على شارع المعرض والآخر على شارع بشارة المهندس. وهذا الشارع الأخير يمتد حاليًا بين ساحة النجمة من جهة الشمال وشارع الأمير بشير من جهة الجنوب وهو يحمل رقم ـ ٨٢ ـ المنطقة ـ ١١ ـ النجمة. وقبل الحرب احتله باعة الخضار بالمفرق وباعة اللحوم (القصابون).

٢٦ ـ سوق القطن

زال هذا السوق كما زال اسمه بالتخطيط الذي أجراه عزمي بك في أواخر العهد العثماني. ولعله كان يقع حيث يوجد اليوم شارع حسن القاضي الممتد بين شارعي فوش من جهة الغرب وشارع الزعفران من جهة الشرق. وشارع حسن القاضي يحمل الرقم ٥٧ ـ المنطقة ـ ١٤ ـ المرفأ، وقد عرف باسم سوق القطن لأنه كان مركز تجمع تجار القطن الذي يستعمل في الفرش واللحف والوسائد. وشارع حسن القاضي الحالي كان مركز تجمع باعة الأقمشة من تجار الجملة ونصف الجملة (سوق الأوقية).

٢٧ ـ سوق اللحامين

ما زال هذا السوق في مكانه القديم ما بين شارع المعرض وشارع بشارة المهندس وبين سوق النورية وسوق الأرمن. وقديماً كان يوجد له باب اسمه «باب إدة» نسبة إلى المعلم إلياس إدة الذي كان يسكن بجانبه في عهد أحمد باشا الجزار والي عكة. ومن الحكايات التي تروى عن هذا السوق أنه أحد آل فياض مكلفاً بإضاءة مصباح معلق فوق الباب المذكور لإنارة السوق قبيل الفجر موعد نزول اللحامين إلى عملهم وكان هؤلاء عند وصولهم إلى الباب ينادون الشخص المذكور (دندلو يا فياض) اي علق المصباح، فكان هذا الرجل يتضايق عند سماعه هذا الكلام. وحدث ذات يوم أن قنصل الروسيا مرّ بالقرب من سوق اللحامين على عربته الرسمية فاستوقفه فياض وتوسل إليه بأن يتوسط لدى الوالي كي يعفيه من عمله ويرتاح من عبث اللحامين وندائهم «الملغوم» ولما كان القنصل يمثل دولة الروسيا التي كانت الدولة العثمانية تخولها حق حماية النصارى الأرثوذكس ورعاية شؤونهم لدى السلطات، وفياض من أبناء هذه الطائفة فإنه ـ أي القنصل ـ استجاب لطلب المستجير به وأقنع الوالي بإعفائه من مهمته.

٢٨ ـ سوق المنجّدين

كان موقع هذا السوق قريباً من السور بمواجهة السراي الكبير اليوم. وربما كان جزءاً من شارع المصارف الحالي، وقد زال سوق المنجّدين كما زال اسمه. وسبب اشتهاره بهذا الاسم أنه كان مركز تجمع أصحاب مهنة إعداد الصوف والقطن وسائر لوازم الفرش واللحف والوسائد والأرائك (الكنبايات) العربية، قبل انتشار صناعة أثاث البيوت من الإسفنج الاصطناعي واللباد المعروف حاليًا باسم دنلوب.

٢٩ ـ سوق النجارين

زال هذا السوق وزال اسمه، وقد احتواه اليوم الشارع

المعروف باسم حسين الأحدب الممتد من ساحة النجمة جنوباً حتى شارع ويغان شمالاً. وهذا الشارع يحمل رقم ٦٢ ـ المنطقة ـ ١١ ـ النجمة، على أنه كان ما يزال في شارع حسين الأحدب حتى الأمس القريب بعض تجار الأدوات المنزلية من خزائن وطاولات وكراسي ومشاجب (عليقات الثياب).

٣٠ ـ سوق النرابيج

زال هذا السوق وزال اسمه وكان يقع قريباً من شارع المصارف الحالي. واشتهر بهذا الاسم لأنه كان يضم أصحاب مهنة صناعة النرابيج، أي الأنابيب الجلدية التي تستخدم في تدخين النرجيلة (الأركيلة).

حارات بيروت القديمة وزواريبها ومحلاتها

١ ـ حارة اليهود ـ (وادي أبو جميل): ما تزال موجودة في مكانها.

٢ ـ زاروب الدهان: جنوبي الجامع العمري الكبير.

٣ ـ زاروب سابا: قريباً من سوق الجوب (الأقمشة القديمة) شرقي شارع فوش اليوم.

٤ ـ زاروب المبروم: بجوار بناية جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية بسوق البازركان اليوم.

٥ ـ الدباغات: بالقرب من جامع أبي بكر الصديق عند المرفأ اليوم.

٦ ـ زاروب الجورة: جنوبي الجامع العمري الكبير قرب محل حتّي للسفريات اليوم.

٧ ـ زاروب الشيخ رسلان: قريباً من شارع اللنبي اليوم.

٨ ـ زاروب البدوي: قرب زاروب الدهان، وهو من متفرعات شارع فوش اليوم.

٩ ـ محلة فخري بك: خان فخري بك اليوم.

١٠ ـ محلة الشامية: في الطريق المؤدي إلى ميناء الخشب اليوم قرب مبنى جريدة الجريدة والأوريان.

١١ ـ محلة السنطية: عند مقبرة السنطية للمسلمين اليوم.

١٢ ـ محلة النورية: هي المنطقة الخاصة بباعة الخضار بالمفرق اليوم.

١٣ ـ محلة النحاسين: قرب بناية سينما الكابيتول، وبناية البنك العربي اليوم.

١٤ ـ محلة الثكنات: في المنحدر الذي يقع شرقي العدلية القديمة.

١٥ ـ زقاق طاقة القصر: في المنحدر الذي يقع شرقي العدلية القديمة.

١٦ ـ زقاق حنتس: في المنحدر الذي يقع شرقي العدلية القديمة.

١٧ ـ محلة الحدراء (الحضرة) قرب الجامع العمري الكبير اليوم.

١٨ ـ زقاق اليافاوي: بمواجهة المنشية التي غربي طريق السرايا الكبير اليوم.

١٩ ـ زقاق سعادة: قريباً من الزقاق السابق.

٢٠ ـ زقاق الموسسات: في المنحدر الذي يلي شرقي الطريق الواقعة تحت العدلية القديمة وساحة رياض الصلح اليوم.

٢١ ـ محلة المرفأ: البور اليوم.

٢٢ ـ محلة القلعة: قريباً من المرفأ عند محلة المدور اليوم.

٢٣ ـ محلة الخارجة: في المكان الذي تقوم فيه بناية سينما ريفولي اليوم وسوق الخضار بالجملة من قبل.

الفصل الثالث عشر

أحياء بيروت بين الأمس واليوم

١ ـ المصيطبة

إن الأرض التي تسمى اليوم «حي المصيطبة» كانت امتداداً صخريًا لما كان يسمى «البريّة»، وكانت هذه الأرض، كما هي اليوم، مرتفعة عن مستوى المدينة القديمة وبعيدة عن حدودها البحرية. فلما حرر المماليك السواحل الشامية من الاحتلال الصليبي سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) على يد القائد سنجر الشجاعي الذي أرسله لهذه الغاية الملك الأشرف خليل، أمر هذا السلطان المملوكي بتحويل مدينة بيروت إلى قاعدة بحرية عسكرية لكي تنطلق منها عساكره لاستعادة قبرص من الفرنج الذين كانوا يوالون عدوانهم على المدن الساحلية بعد أن فقدوا سلطانهم عليها.

وفي هذا العهد بدأ العمران يدب في صخور المصيطبة الحالية وأخذت هذه الصخور تكتسي بالقصور والعمارات السكنية.

ولا بد أن أهل زماننا سيستبد بهم العجب وتأخذهم الدهشة عندما يقرأون بأن المصيطبة كانت ترسانة بحرية حربية ويتساءلون بينهم وبين أنفسهم كيف كان يتسنى للمماليك أن يوصلوا مراكبهم الحربية من البر إلى البحر مع بُعد الشقة بينهما.. وهنا نقول: إن أولئك المحاربين الأشداء كانوا يستسهلون الصعب من أجل تحطيم الآلة العسكرية والقوة البشرية لأعدائهم الصليبيين. ولما اختاروا منطقة المصيطبة لإقامة ترسانتهم البحرية لحظوا بُعد هذه المنطقة عن متناول العدو، كما لحظوا إبعاد صناعتهم العسكرية عن أنظار هذا العدو أيضاً، ولكي يوصلوا المراكب الجاهزة إلى البحر فإنهم كانوا يلجأون إلى دهن حدودها السفلية بالشحم ثم يجرونها بالحبال فوق الصخور إلى أن يبلغوا بها شاطىء البحر. وبهذه الطريقة كانوا يتفادون إطلاع الصليبيين على صناعتهم ويتمكنون من بناء أسطول قادر على مواجهة أولئك الأعداء وصدهم عن الوصول إلى السواحل الإسلامية.

ولكن المصيطبة ما لبثت أن تحولت إلى بلدة قائمة بذاتها مستقلة عن «بيروت القديمة» وتنفصل عنها بمسافة غير قليلة.. ومع الزمن بدأت ترتفع فيها عمارات الأمراء المماليك وأعوانهم من قواد الجيش ورجال السلطة ومعهم الأعيان والوجهاء من أبناء البلد المحليين، ثم أصبحت هذه المنطقة خاصة بأولئك النخبة من الحكام والقواد والأعيان وتخلت عن اسمها القديم «مسطبة بيدمر» لتأخذ اسماً جديداً مستمداً من مستوى القاطنين فيها وهذا الاسم هو «منزلة السلاطين» وجدير بالذكر أن مستوى سكان المصيطبة بقي محتفظاً بطابع الوجاهة حتى عهد قريب، بل إن بعض أعيان بيروت كانوا يشيدون فيها قصورهم التي ما يزال موجوداً فيها حتى اليوم «قصر آل سلام»، وكذلك قصر «آل بيهم» الذي كان يسكنه محمد جميل بك بيهم، العالم المؤرخ المعروف.

ومنذ أيام بيدمر الخوارزمي قائد جيش حاكم مصر سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) حتى أيام إبراهيم باشا سنة ١٤٢٧هـ (١٨٣١م) بقيت المصيطبة بلدة منفصلة عن «بيروت القديمة» ففي أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، جعل الأمير يوسف الشهابي أحمد باشا الجزار متسلماً من قبله على بيروت.

ولقد كان عهد أحمد باشا الجزار بالنسبة لقرية المصيطبة بداية النهاية.. وما كاد هذا الحاكم الذي جعل أمراء جبل لبنان يدفعون له «خوة» لكي يتكرم بجعلهم موظفين في خدمته كما يقول الأمير حيدر أحمد الشهابي في كتابه (الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان) يغيب في ذمة الله وجواره سنة ١٨٠٤ وتحل سنة ١٨٣١، حتى أصبحت أرض بيروت موطناً لسنابك خيل إبراهيم باشا وجنوده المصريين، وحلت بالنسبة لقرية المصيطبة

نهاية البداية في نفس الوقت الذي أمر الباشا المذكور بفتح أبواب المدينة المصفحة بالحديد ونقض السور الذي تحصن به الجزار. . وأخذت العمارة تذر قرن المساكن والبيوت في الأراضي المحيطة بأطرافها ومن جملتها المصيطبة التي تحولت منذ ذلك الحين إلى حيّ من أحيائها الرئيسية.

وفي العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر للميلاد بدأت «منزلة السلاطين» تستعيد ذكريات أمجادها الماضية التي كانت لها أيام المماليك، ولكن سلاطينها الجدد كانوا من أعيان البيروتيين وسراتهم الذين وجدوا في رحاب هذه «القرية» السابقة منتجعاً لهم واختاروها موطناً لسكنهم فراحوا يشيدون فيها «الأبراج». والأبراج من المصطلحات البيروتية القديمة وهي تعني العمارات الضخمة التي كان الأثرياء من أهل بيروت يشيدونها لتضم أفراد عائلتهم وتتسع لاستقبال حالات الزواج التي كانت تنتظر أبناءهم، لأن العادة في تلك الأيام كانت تقضي بأن يبقى الذكور في برج أبيهم بعد زواجهم لا ينفصلون عن مشاركة أسرهم في حياتهم العائلية بالرغم من زواجهم.

وهكذا بدأت الأبراج ترتفع في المصيطبة. ومن أقدمها برج آل الطيارة، وبرج آل عليوان، وبرج آل سلام، وبرج آل بيهم، وبرج آل العريس وغيرهم. .

ومن التقاليد البيروتية التي تشرِّف هذه المدينة مبادرة أهلها إلى تأسيس الجوامع في المناطق التي ينوون الإقامة بها وهو ما حصل في أكثر الضواحي المستحدثة في بيروت في مطلع القرن العشرين الحالي. وبالنسبة إلى محلة المصيطبة بالذات فإن أول من حمل لواء الدعوة إلى بناء الجامع فيها كبير آل الطيارة في ذلك الحين وهو الحاج إبراهيم الطيارة.

ولما كان هذا الجامع من المنشآت الإسلامية البارزة التي ابتدأت بها محلة المصيطبة نهضتها العمرانية الحديثة، فإننا ننقل هنا ما كتبه الشيخ محيي الدين الخياط المتوفى سنة ١٩١٤ في وصفه، والإشارة إلى النقوش التي رقمت عليه عند بنائه قال:

«هو جامع عال، حسن، واقع في أعلى مواقع بيروت وأنقاها هواء، وأجودها مناخاً وهي «المصيطبة» ويصعد إليه باثنتين وعشرين درجة من باب شرقي واقع على الطريق، وشكله أشبه بشكل جامعيْ النوفرة والسراي لكن بناء جدرانه غير مزدوج، ويبلغ داخله ثلاثين متراً في عرض ١٥ متراً وسقفه على شكل قبة مضلعة شبه مربعة، قائمة على عشر دعامات حجرية ولها ست عشرة نافذة صغيرة. ويبلغ طول صحنه ثلاثين متراً في عرض ٨ أمتار. وللصحن صُفَّتان: شرقية وغربية وهما عاليتان عن صحن الجامع وسقفهما عقد. والجهة الشمالية منهما قائمة على أربعة أعمدة غرانيتية طول كل عمود منها ثلاثة أمتار ونصف، وعلى دعامتين حجريتين. وللجامع مئذنة شاهقة مستديرة يصعد إليها من الصُّفّة الشرقية. وفي شمالي الصحن حوض ماء. أما الصحن فهو غير مسقوف».

واليوم فإن بناء الجامع قد أصابه التبديل والتغيير وذلك بعد الإنشاءات الجديدة التي أدخلت عليه من قبل الدائرة الوقفية.

٢ ـ البسطة

إن هذا الحي تجاوزت شهرته حدود بيروت نفسها ومرت به أحداث سياسية ووطنية جعلته من المعالم الرئيسية في هذه المدينة، ولا يكاد إنسان يقيم فيه أو يجتازه زائراً أو عابراً إلا ويعرف عنه وعن سكانه الشيء الكثير. ولقد اكتسب سكانه شهرتهم المحلية والخارجية بسبب تلك الأحداث التي ارتبطت بتاريخنا القومي منذ أيام الأيوبيين مروراً بالعهود المملوكية والعثمانية وأيام الانتداب الفرنسي إلى عهد الاستقلال الذي ما نزال فيه حتى اليوم.

يخيل للإنسان للوهلة الأولى أن كلمة «البسطة» عربية الأصل والنجار، وبالرغم من أن هذا التخيل لا يبعد كثيراً عن المعقول، إلا أن الأقوال التي تداولت هذه الكلمة ردتها إلى أصول كثيرة.

من ذلك أنها الاصطلاح التجاري المعروف الذي يستعمله بائعو الخضار الذين لا تساعدهم ظروفهم المادية على استئجار دكان لعرض المواد التي يبيعونها، فيلجأون إلى اتخاذ صُفّة خشبية يضعون عليها بضاعتهم وهذه الصفة تعارف الناس على تسميتها «بسطة». ولقد ذكر لي بعض المعمرين من أهل بيروت إن بعض بائعي الخضار كانوا يتخذون لأنفسهم «بسطة» في المحل المرتفع وأخرى في المحل المنخفض فتعارف هؤلاء وأولئك على إطلاق «البسطة الفوقا» للتي في المحل المرتفع، و«البسطة التحتا» للتي في المكان المنخفض، وبقي هذا الاصطلاح دارجاً حتى اليوم بعد أن أصبح كلا المحلين مزدحماً بالسكان.

ولكلمة «البسطة» في حدود معانيها الاصطلاحية مدلول ديني خاص، ذلك أن آباءنا في أواخر العهد العثماني، كانوا يمارسون بعض الطقوس الروحية من خلال أذكار الطرق الصوفية. وخلال هذه الممارسة كانوا يجتمعون في حلقات للذكر يرددون فيها الأوراد والمدائح النبوية وتلاوة آي الذكر الحكيم. وهذه الحلقات كانوا يطلقون عليها أحياناً اسم «الحضرة» ويلفظها أهل بيروت «الحدرة» على عادتهم بترقيق الحروف المفخمة. وأحياناً اسم «البسطة الشريفة» لا سيما إذا كانت الحلقة مخصصة لتلاوة

الأحاديث النبوية الشريفة. . وكان لأهل بيروت في ذلك الحين مكانان يتحلقون فيهما للغرض المذكور وهما، البسطة الفوقا والبسطة التحتا. . ويعنون بهما الحلقات الدينية الصوفية التي ذكرناها.

ولكلمة «البسطة» قصة لا تخلو من الطرافة والحلاوة، وهذه القصة ترجع بالكلمة إلى أصل غير عربي. ذلك أن الأيوبيين ومن بعدهم المماليك كانوا يستعملون هذه الكلمة للدلالة على المركب البحري الذي كان يستعمل لأغراض عسكرية. وعلى عادة العرب في تقديم حروف بعض الكلمات أو تأخيرها، فإن هذه الكلمة كانت تلفظ «البسطة» تارة و «البطسة» تارة ثانية. وهي في الحقيقة غير عربية ولكنها إيطالية وهي «Basto» أو فرنسية وهي «Bâteau» وإذا علمنا بأن الإشارة التي تعلو حرف «â» قد حلت محل حرف «s» الذي سقط مع الزمن سهل علينا تحليل الكلمة بلفظها العربي وتعليلها في آن واحد.

هذا ولا تزال كلمة «أهل البسطة» عنواناً على النخوة والحمية وصدق الوطنية والحماسة العربية والغيرة الإسلامية. وتجدر الإشارة إلى أن أهل بيروت ما زالوا حتى اليوم يعتزون «بالبسطة» أي المركب البحري، فهم يصطحبون هذا المركب في احتفالاتهم الدينية التي كانوا يقيمونها داخل المدينة وخارجها.

أما سكان محلة «البسطة» اليوم فإنهم بأغلبهم واردون عليها من القرى المحيطة ببيروت أو القريبة منها مثل برجا وبعاصير وما حولهما، وأكثرهم من أهل السنة والجماعة على أن فيهم بعض الشيعة الإمامية الذين طرأوا على المحلة مؤخراً لأسباب أمنية واقتصادية واجتماعية وأحياناً انتخابية وسياسية.

٣ ـ الجميزة

الجميزة، هذه الكلمة حين يقولها ابن بيروت فإنه لا يعني بها تلك الشجرة الضخمة التي تعطي ذلك الثمر الدقيق الذي يكاد حجمه يقارب حبة البندق أو شيئاً من هذا الحجم. ولكنه يعني أحد أحياء العاصمة اللبنانية الذي يشغل منطقة كبيرة تقع في الطريق الذاهبة إلى مدينة طرابلس شرقي البلد.

والحديث عن محلة الجميزة في بيروت ذو شجون وفيه مادة دسمة من الذكريات التي أدرك جيلنا القليل منها بينما أدرك الجيل الذي سبقنا الكثير، وبالرغم من أن هذه الذكريات ليست دائماً عاطرة، إلا أنها على أي حال، أصبحت من جملة الوقائع والأحداث التي دخلت في تاريخ هذه المدينة.

هذه المحلة كان في مكانها أرض خالية من البنيان والسكان قبل أن يصل إليها الإنسان والعمران منذ حوالى القرن من الزمان. فبيروت التي اتصلت حدودها من الجهات الأربع بما حولها من القرى في أيامنا كانت في أيام أجدادنا قابعة داخل سورها تحميها أبوابها السبعة التي كانت تُفتح مع شروق الشمس، وتغلق مع غروبها، وتحفظ مفاتيحها مع حراس أبوابها الأشداء الذين لم يكونوا يخرجون هذه المفاتيح من أكياسها في غير هذين الميقاتين إلا بأمر الوالي نائب السلطان في هذه المدينة.

وكانت الأراضي المحيطة ببيروت القديمة تزدان بعدد كبير من شجر الجميز ولا سيما بمحاذاة سورها. وكثيراً ما كان آباؤنا ومواطنونا من أبناء الجيل الماضي يحدثوننا عن الجميزات التي كانوا يقضون تحت ظلالها أيام لهوهم في صباهم وشبابهم بمناسبة الأعياد الدينية وأوقات العطل المدرسية.

اما الجميزة التي أصبحت علماً على المحلة المعروفة بهذا الاسم، وهي التي جعلناها موضوع حديثنا هنا، فإن لها قصة طريفة وظريفة في آن واحد، ونحن نرويها لأبناء زماننا لما فيها من مفارقات مثيرة تعطينا صورة زاهية عن مستوى الأخلاق والعلاقات الإنسانية في زمان آبائنا وأجدادنا أهل بيروت خلال القرن الماضي وأوائل الحالي. ففي أوائل الربع الأخير من القرن الماضي وعلى وجه التحديد سنة ١٨٧٤ تمّ الاتفاق بين السلطات العثمانية وبين إحدى الشركات الفرنسية على أن تقوم الشركة بتخطيط بعض الطرقات داخل سور بيروت وخارجه وتوسيع الأسواق التجارية في القطاع القديم من المدينة. وكان في مدخل بيروت من الجهة الشرقية، الذي كان يعرف آنذاك باسم «طريق طرابلس» أرض تخص عائلة «يمّين» من زغرتا.

وكان في هذه الأرض شجرة جميز ضخمة. وذات يوم عزم صاحب الأرض على زيارة مدينة القدس، (ردها الله للعروبة والإسلام) على عادة النصارى في الحج إلى هذه المدينة للتبرك بمعالمها الدينية، ولكنه خشي خلال غيبته في القدس أن يعبث بها بعض العابثين فعهد بحراستها إلى أحد اصدقائه من المسلمين وأوصاه أن يحافظ عليها إلى حين عودته من الديار المقدسية، وفي أثناء غيبته باشرت الشركة الفرنسية في توسيع طريق طرابلس وتعبيدها إلى أن وصل تخطيط هذه الطريق إلى أرض يمّين فطلبت الشركة إزالة الجميزة التي كانت تعرقل أعمال التوسيع والتعبيد. فما كان من الرجل المسلم إلا أن وقف حائلاً بين الشركة وبين اقتلاع الجميزة حتى إنه عندما رأى الفعلة يقتربون بمعاولهم من هذه الشجرة لاقتلاعها بادر إلى إحاطتها وطوقها بذراعيه قائلاً: إن هذه الجميزة أمانة في عنقي إلى حين عودة صاحبها فإذا أردتم بها سوءاً فابدؤوا بي وإلا فانتظروا عودة

صاحبها وافعلوا عندئذ ما تشاؤون فيها. والعجيب أن السلطات البلدية في ذلك الحين أخذت بعين الاعتبار الدوافع الخلقية التي حدت بذلك الرجل المسلم أن يحافظ على الوديعة التي أمنه عليها صديقه النصراني وأوعزت إلى الشركة الفرنسية أن تتجاوز تلك الشجرة وترجىء اقتلاعها إلى أن يعود مالكها من القدس. وهذا ما حصل بالفعل، فإن الشركة أبقت الشجرة في مكانها وتجاوزتها إلى بقية الطريق، ولما حضر صاحب الأرض وجد جميزته ما تزال تختال بجذعها الفارع وأغصانها الظليلة الوارفة، ولكن ضرورات العمل لم تترك هذا الرجل يجني ثمرة حفاظ صديقه المسلم على شجرته التي خضعت لشفار فؤوس الفعلة وأسنة معاولهم وزالت على الأثر من الوجود.

٤ ـ الأشرفية

ليس من شك في أن كلمة الأشرفية عربية في مبناها وكذلك في معناها، فهي تعني باللغة المكان العالي الذي يشرف على ما يليه من الأراضي التي هي دونه في الارتفاع. ومن هنا قال بعض الذين تحدثوا عن هذا الحي من المؤرخين، بأنه اكتسب اسمه من طبيعة تكوينه الجيولوجي ذلك أنه يشتمل على الهضبة العالية التي تقع إلى الشرق من مدينة بيروت والتي تطل على هذه المدينة التي كانت في الماضي محصورة داخل سورها على الجهة المحاذية لشاطىء البحر. وهذه الهضبة عرفت في الأيام الغابرة باسم هضبة ديمتري وقد ذكرها العالم الأثري الفرنسي كميل انلار في كتابه (الآثار الصليبية في بلاد الشرق) وقال:

«الأشرفية اسم يطلق على الأرض المنبسطة، فوق التلة الصخرية الواقعة في الجهة المقابلة لهضبة مار ديمتري من الجهة الشرقية، وهي الهضبة التي تطل على النهر وتشكل الحي المرتفع في بيروت».

إن هذا الحي البيروتي عُرف باسم «الأشرفية» منذ حوالى سبعمائة سنة، أي في أيام الحروب الصليبية بعد أن تمّ تحرير مدينة بيروت والسواحل الشامية على يد القوات المملوكية الإسلامية. وإن أقدم إشارة إلى هذا الاسم وردت في كتاب (تاريخ بيروت) لمؤلفه صالح بن يحيى الذي جاء فيه قول المؤلف، وهو يتحدث عن حاكم بيروت سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) الأمير ناصر الدين الحسين (البحتري) بمناسبة زواج هذا الحاكم من امرأته الثانية بنت إسماعيل بن هلال «من الأشرفية».

هذا وإن جميع النصوص التاريخية، عندما تحدثت عن الأشرفية، وصفتها بأنها من ضواحي بيروت. وبعض هذه النصوص، أطلقت على هذا الحي اسم «مزرعة الأشرفية» ومن هذا القبيل حديث للشاعر الفرنسي الذائع الصيت لامرتين الذي زار بلادنا في سنة ١٨٣٢م وسجل انطباعاته عن هذه البلاد في كتاب سماه (رحلة إلى المشرق) فقد حل هذا الشاعر خلال إقامته في بيروت عند عائلة نصرانية كانت تقطن في حي مار مارون، شمالي النادي الكاثوليكي القديم، وكان هذا الحي في أيام لامرتين (١٨٣٢م) كما قال هو نفسه يقع على مسيرة عشر دقائق من المدينة ـ بالنسبة للماشي طبعاً ـ وعندما تحدث هذا الشاعر السائح عن الوقائع التي جرت له يوم ٧ أيلول من السنة المذكورة، كتب في مذكراته اليومية الكلام التالي:

.. صرفت النهار كله أبحث في ضواحي المدينة ـ أي مار مارون، ومار متر، ومار نقولا وهو ما يعرف اليوم بالأشرفية بالإضافة إلى محلة الناصرة التي بقرب دير الناصرة الذي أعطى المحلة اسمها ـ لأجد مسكناً، فتوفقت إلى إيجاده وهو مؤلف من غرفة واحدة تنام فيها الأسرة كلها، ومن قبو يتناولون فيه الطعام وهو ـ أي المنزل ـ في موقع يبعد عشر دقائق عن المدينة. ويصلون إليه ـ أي إلى المنزل ـ بطريق ضيقة تتدلى فوقها ألواح الصبير الشائكة ويمرون إليه بقناطر قديمة، وبرج مربع كبير شيده أمير الدروز فخر الدين (المعني) واتخذه حرس إبراهيم باشا(المصري) مرقباً.

هذا البرج زال نهائياً حوالى سنة ١٨٧٨م وكان آباؤنا يسمونه برج الكشاف ـ لأنه كان يستخدم لكشف مراكب العدو الذي يقترب من شاطىء بيروت بهدف الاعتداء عليها ـ وأحياناً كانوا يسمونه «برج الكشاش» لأن الحراس الذين كانوا فيه كانوا يكشون حمام الزاجل المخصص لنقل الرسائل من بلد لآخر قبل تطور وسائل المواصلات الحديثة، ولما أخرج الإنكليز إبراهيم باشا من بيروت سنة ١٨٤١م أطلقوا عليه اسم «برج الحشيش».

هذا وإن الأشرفية في أيامنا لم تعد ضاحية مفصولة عن بيروت، من الناحية العمرانية ولا من الناحية الإدارية، بل هي من أحيائها الرئيسية. وهي تعتبر إحدى الدوائر الانتخابية التي يمثلها عدد من النواب النصارى بمختلف طوائفهم المذهبية ومن بينهم عدد من الأرمن الذين يشكلون قسماً كبيراً من سكانها. كما أنها لم تعد كذلك مزرعة للزيتون والتوت وغير ذلك من الأشجار المثمرة، وإن كانت ما تزال تحتفظ في جزء منها بحي داخلي ما زال محتفظا بطابعه الزراعي من الناحية اللغوية فقط، وهذا الحي هو «كرم الزيتون» وما تزال فيه بعض كعوب الزيتون حتى اليوم التي تذكرنا بماضي الأشرفية يوم كانت تحمل اسم «المزرعة». ثم إن الأشرفية لم تعد منتجعاً يلجأ إليه البيروتيون هرباً من حرارة الجو خلال الصيف في مدينتهم، فإن البيروتيين على اختلاف طوائفهم أصبحوا يرتادون المصايف الجبلية في

لبنان وخارجه، لقضاء هذا الفصل المرهق بحرارته ورطوبة مناخه.

وعلى الجملة فإن الأشرفية التي عرفها لامرتين طواها الزمن بتقدمه الحضاري، وأصبحت تمتاز بمستواها العمراني الرفيع الذي لا يقل رقيًّا عن أي بلد أوروبي متقدم.

على أن الكلام عن الأشرفية لا يمكن أن يبلغ غايته إذا لم يتضمن الإشارة إلى أن هذا الحي مثل البسطة بالنسبة إلى شهرته بفتواته من شيوخ الشباب الذين عرفوا باسم القبضايات. ويمكن القول بأن هؤلاء القبضايات لا يقلون شهرة عن نظرائهم من أهل البسطة. فكلا الفريقين لهما في تاريخ البلاد الوطني سجل حافل بالأعمال الوطنية في مجالات النخوة والفروسية والشجاعة والخدمات الاجتماعية والإنسانية.

٥ ـ شارع الحمرا

في غالب المدن العربية، لا سيما العواصم منها، أسواق تجارية تنفرد بطابع اجتماعي خاص. وفي هذه الأسواق يجد الانسان ما يقصده من الأغراض وما يرغب به من أسباب الرزق أو مطالب اللهو وكذلك ما يرضيه من المرافق المتخصصة بشؤون الاقتصاد والمال أو بشؤون الثقافة والفكر وما إلى ذلك من المؤسسات الصحافية والإعلامية.

في دمشق نجد من هذا القبيل سوق الحميدية الذي اكتسب اسمه من نسبته إلى السلطان عبد الحميد الثاني الخليفة العثماني المتوفى سنة ١٩١٨م وهو السوق الذي ارتبط اسمه باسم دمشق فلا يكاد يذكر إلا ويتجه الذهن فوراً إلى هذه المدينة. فالحميدية ودمشق توأمان في كل خاطر وعلى كل لسان.

وفي القاهرة سوق الموسكي وهو السوق التجاري الممتد من العتبة الخضراء إلى الجامع الأزهر الشريف.

وفي طرابلس، شمال لبنان، شاع وذاع اسم شارع عزمي الذي يحمل اسم متصرف طرابلس في أوائل الحرب الكونية الأولى حوالى سنة ١٩١٥م وهو الشارع الممتد من ساحة التل في طرابلس البلدة إلى ساحل البحر عند الإسكلة المعروفة اليوم باسم الميناء.

أما شارع الحمراء في بيروت، فإن له حكاية خاصة به بدأت في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي حينما تنازع بنو تلحوق الدروز مع بني الحمرا المسلمين الذين كانوا يترددون على بيروت لبيع غلالهم ومحاصيلهم الزراعية. ونتيجة هذا النزاع اضطر بنو تلحوق إلى النزوح عن مساكنهم في رأس بيروت، المنطقة التي كانت تعرف في عهدهم باسم، جرن الدب، والتحقوا بالجبل تاركين أراضيهم ومنازلهم لبني الحمرا الذين حلوا مكانهم ونسبت المنطقة من يومها إليهم وعرفت باسم «كرم الحمرا» وأهمل اسم «جرن الدب» إلى غير رجعة.

وفي سنة ١٤٠٧م باع رهبان كنيسة المخلص حجارة كنيستهم المتداعية بسبب الإهمال، إلى بني الحمرا، فنقل هؤلاء تلك الحجارة من مكانها في باطن بيروت إلى منطقتهم كرم الحمرا في رأس بيروت واستعملوها في بناء مدرستهم التي عرفت فيما بعد باسم «زاوية الحمرا» وهي الزاوية التي عرفت في أيامنا باسم «جامع الحمرا».

وهكذا فإن شارع الحمرا اليوم هو منسوب إلى بني الحمرا البقاعيين الذين تحدرت منهم عائلات بيروتية كريمة مثل: آل العيتاني، وآل اللبان، وآل شاتيلا وغيرهم.

ولكي نقدم لأهل زماننا صورة قلمية عن «كرم الحمرا» أيام زمان فإننا ننقل إليهم هنا ما كتبه جرجس الخوري المقدسي صاحب مجلة «المورد الصافي» (عدد آب سنة ١٩٣٧م ج٤ مجلد ١٩) تحت عنوان «البقاع المباركة» وفيه وصف حيّ لمزرعة الحمرا كما كانوا يسمونها في أيامه، أي سنة ١٩٣٧م.

يقول هذا الكاتب بعد كلامه عن تطور بيروت من مطلع القرن الجاري إلى أواسطه ودخول هذه المدينة في عصر الحضارة الحديثة ونموها العمراني السريع:

«وكلامي الآن يتناول مزرعة الحمراء، وهي مزرعة مستقلة قائمة بنفسها، يدخل إليها من جهات مختلفة بممرات تتقاطع قد لا يتجاوز عرض الواحد منها ذراعين أو مترين... إني كلما شعرت بتعب أدخل أحد الأزقة في هذه المزرعة المحبوبة منفرداً أو مع صاحب لي يقدر قيمتها ويتغزل بها، وهذا المدخل كناية عن خندق ضيق (كان يعرف باسم «خندق ديبو» وهو اليوم فوق محلات ABC) يُجلل فوهته العليق وعلى جانبه النباتات والزهور الطبيعية ذات الروائح العطرية، ومن ورائها البقول الزاهية المفروشة في الحقول بيد الزارع المجتهد.

ومن هذه: السلق والبطاطا والكوسى واللوبياء والبصل والكراث والرشاد والفجل والهندباء والبندورة والباذنجان والسبانخ، وغير ذلك من البقول التي تنعش النفس باخضرارها وأزهارها وهي قائمة بين أغراس الأشجار المثمرة، كالتين والزيتون والكرمة واللوز والتوت والرمان. ترى في هذه المزرعة ـ أي محلة الحمرا اليوم ـ بيوت الفلاحين مبعثرة، وبجانب كل منها الدجاج والحمام والبقر والغنم والحمير، وقد يطربك صوت

العصافير تغرد على الأشجار آمنة، وتسمع نغمات وقع المعاول في الأرض، فبعض الرجال والنساء يحصدون المزروعات، والبعض يزرعون غيرها، وصوت المعاول هو أطرب صوت موسيقي للذي يعرف قيمة الاستقلال الحقيقي».

ويتابع المقدسي كلامه فيقول:

«... كيفما سرت في هذه المزرعة تصادف معمّرين فوق السبعين والثمانين، تعلو وجوههم الصحة والعافية. بين هؤلاء شيخ تجاوز المائة، هو الحاج حسن يوسف العيتاني. روى لي حوادث عديدة عن تاريخ بيروت منها: إنه في حداثته فلح مع والده محلة «باب ادريس» و «سوق الطويلة» لأنهما كانا حقولاً يحيط بها الصبير.

وإذا عدنا إلى السنوات الأولى التي رافقت خروج بيروت «المدينة» إلى بيروت «البرية» مع بداية الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) نجد أن كرم الحمرا أو مزرعة الحمرا كان قاطنوها يهتمون بأشجار المقساس لأنهم يستخرجون من ثمارها مادة الصمغ ليصنعوا منه الدبق لالتقاط العصافير. وكانوا يعتبرون ذلك تجارة رابحة تعطي أحدهم ليرتين عثمانيتين (ذهباً) ثمناً لما يلتقطه أحدهم من العصافير في اليوم الواحد.

إن هذا الشارع الذي يحمل اسم الحمرا اليوم، كان حتى عهد قريب عبارة عن خندق لا يكاد يتسع للرجل الواحد ودابته، بيد أن تطور العمران في بيروت وضواحيها وجه الأنظار إلى كرم الحمرا فأخذت هذه المنطقة تشهد كثافة سكانية وأصبحت معابرها الضيقة تتسع وتمتد وتحمل أسماء تميزها بعضها عن بعض. فمحيط شارع بلسّ وجان دارك والمكحول كان يعرف باسم: زقاق طنطاس، وعندما دخل الحلفاء بيروت سنة ١٩١٨م عرف شارع الحمرا باسم: شارع لندن. كما أطلق اسم شارع شامبانيا على شارع جان دارك الحالي. وطرقات مزرعة الحمرا بقيت كما عرفها الآباء ومن قبلهم الأجداد قبل مئات بل عشرات المئات من السنين: أرضها رمال حمراء تلهب أرجل سالكيها في الصيف وتغرقهم بالوحول في الشتاء».

ويحدثنا الأستاذ جبرائيل جبور عن أحوال مزرعة الحمرا في سنوات دراسته في الجامعة الأميركية، أي قبل حوالى سبعين سنة من أيامنا فيقول: «لا أزال أذكر حين كنت طالباً أن منطقة الصنائع كانت كلها رمالاً، وأنه لم يكن في رأس بيروت شارع على جنبه بيوت سوى شارع جان دارك (أي شارع شامبانيا آنذاك)».

ثم يقول: «... دعيت مرة إلى العشاء في بيت الأستاذ سيلي الأميركي، ولما عدت في المساء لم أصادف أحداً في الطريق، ولم يكن هناك أي نور لنستنير بضوئه، ولم يكن في أبنية الجامعة (الأميركية) كهرباء في أوائل العشرينات فكنا نستضيء في غرف النوم بقناديل الكاز، وكان على المرء إذا قطع شارع عبد العزيز إلى شارع جان دارك أن يعبر زقاقاً ضيقاً لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار، كله منعطفات وعلى جانبيه شجر الصبير والتين، وفي وسطه مجرى لمياه الأمطار ولمسير الدواب، وكان أحدنا يضطر إلى القفز من جانب إلى جانب تجنباً للأوحال...

وأول بناء عصري على الطراز الحديث بني في شارع الحمرا هو البيت الذي بناه البروفسور سيلي ليكون مسكناً له وكان موضعه حيث مطعم «الهورس شو» اليوم وذلك سنة ١٩٢٣م. وهذه الطرقات لم تعرف التخطيط والتعبيد والأسفلت بما فيها شارع الحمرا نفسه إلا سنة ١٩٣٣م عندما قامت بلدية بيروت بهذا العمل وأطلقت على شوارع المنطقة أسماء العائلات المجاورة لها مثل: العيتاني، وربيز، ومنيمنة، ومزبودي، وصوراتي، وشهاب، ودياب. وكان لكل من هذه العائلات مصيدها على امتداد الشاطىء، تمارس فيه حرفة صيد السمك للبيع والمتاجرة. ومن هذه العائلات من كانت تحترف صناعة الأدوات الفخارية مثل القدور والأباريق والأطباق، وحتى الملاعق والمغارف. مثل آل الفاخوري الذين كانت لهم فاخورة قرب الحمام العسكري حيث هو اليوم، وآل الحمندي وكانت فاخورتهم في محلة الضهرة أي الروشة اليوم».

يبلغ طول شارع الحمرا اليوم نحو ١٣٠٠م وهو يبدأ من الشرق عند تقاطع الطرق التي فيها وزارة السياحة والإعلام من جهة الجنوب وبناية جريدة «النهار» من جهة الشرق وينتهي غرباً عند تقاطع الطرق التي يقع فيها دكان البقال الشهير بأبي طالب.

وبدأ الشارع رحلته مع التطور السكاني والعمراني والتجاري بصورة خفيفة مع بناء الجامعة الأميركية التي لعبت دوراً أساسياً في إنماء الحياة السكنية فوق تراب كرم الحمرا، وذلك من خلال طلاب هذه الجامعة الذين وجدوا في هذه المنطقة مكاناً قريباً من مركز دراستهم فأقبلوا على استئجار بيوتها الأمر الذي شجع على مضاعفة عدد البيوت فيها وذلك تلبية لحاجة أولئك الطلاب. ومما ساعد على ازدياد البيوت السكنية في الحمرا اختيار الحكومة العثمانية هذه المنطقة لبناء مدرسة الصنائع والفنون الجميلة التي استقطبت عدداً كبيراً من العائلات البيروتية الوجيهة التي وجدت فيها مكاناً ملائماً لتشييد العمارات الفخمة التي تليق بوجاهتها وثروتها المالية، وهكذا بدأ شارع الحمرا يقابل في مكانته السامية شوارع الحي الشرقي في ذلك الزمان (حي السراسقة) مع احتفاظ كل من المنطقتين بطابعها الطائفي: شارع الحمرا للمسلمين السنة والحي الشرقي للنصارى الأرثوذكس.

وعلى الرغم من النمو العمراني لمحلة الحمرا وشارعها

الرئيسي المنسوب إليها، فإن الثقل التجاري بقي ميزانه مائلاً لصالح بيروت القديمة التي كانت تسمى وما تزال «المدينة» بتسكين الميم. وظل شارع الحمرا في إطار الأغراض السكنية ولم يعرف الانطلاق التجاري والمالي والاقتصادي إلا سنة ١٩٥٨م. ففي هذه السنة اضطرب حبل الأمن في بيروت «المدينة» وبقية المدن والدساكر اللبنانية، وبسبب هذا الاضطراب تعذر على الناس الاستمرار في الأسواق التجارية التي عمها الإضراب الشامل إلى حين نهاية ولاية الرئيس كميل شمعون. وأدى هجران الناس لمحلاتهم في «المدينة» أن تطلعوا إلى تأمين أسباب رزقهم خارجها. فكانت نقلتهم هذه المرة إلى شارع الحمرا بالذات إذ نبتت على جوانبه الدكاكين التجارية كما ينبت العشب الأخضر على ضفاف الأنهار. وما كادت أحداث سنة ١٩٥٨م تخمد نيرانها المتأججة في نهاية عهد الرئيس شمعون وبداية عهد خلفه الرئيس اللواء فؤاد شهاب حتى كان شارع الحمرا قد تحول نهائيًا إلى سوق تجاري بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وبدأ يزاحم في شهرته الجديدة أسواق المنطقة التجارية في «المدينة» بل إن هذا الشارع أصبح بالفعل قبلة أنظار أهل الأناقة بعد أن كان هؤلاء يجدون بغيتهم في أمثال سوق الطويلة وباب إدريس وسوق الجَميل وغيرها من الأسواق التي كانت منتجعاً لأهل الوجاهة من سكان بيروت في الجيل الماضي.

وجملة القول، فإن هذا الشارع بعد سنة ١٩٥٨ أدار ظهره للماضي وخلع عن ترابه الأحمر الخصيب رداءه القديم الذي كان يتجلبب به وهو خندق ضيق يُجلل فوهته العليق وتتهادى على جانبيه النباتات العطرية ومن ورائها البقول الزاهية المغروسة في الحقول المسيجة بالصبير لحماية مزروعاتها وغير ذلك من البقول التي يتموّن بها البيارتة لطعامهم اليومي. واستبدل هذا الشارع رداءه البري الطبيعي ليكتسي حلة عصرية حملها إليه «رواد الحضارة الأجنبية» وغدا رقعة غربية غريبة مقدّمة لأن تصبح بيروت كلها بعد قليل مدينة شرقية في حلة غربية.

إن شارع الحمرا اليوم مجتمع قائم بذاته وعالم مستقل والإنسان فيه يجد نفسه متسائلاً: كيف يعيش الناس في هذا الشارع، ولماذا لا تهدأ الحركة فيه من شروق الشمس إلى غروبها ومن غروبها إلى شروقها في اليوم التالي حتى لكان هذه الشمس لا يعنيها دوران الأرض من حولها. وتستمر الحياة فيه بتلاحق موصول الحلقات مع شلال دافق من الناس الذين لا يتعبون من التعب، ولا يرتاحون من الراحة، إنه الشارع الذي لا تركن فيه بيروت إلى سِنَة الكرى، ذلك أن العيون التي في وجوه رواده تبقى شاخصة إلى ما حولها من الأشياء كأنها في بحث دائم عن المجهول.

ولكن ما هو هذا المجهول؟ المال، العلم، اللهو، الجد، الهزل، المرارة، المرأة، الرجل، النشاط، الكسل، الفراغ، العمل؟ وإن الإنسان، يلقي كل هذه الأسئلة التي تمر بخاطره وهو يتحدث عن شارع الحمرا، ثم لا ينتظر كثيراً حتى يجد الجواب عليها بنفسه، وهذا الجواب هو أن «المجهول» الذي يتراكض الناس للعثور عليه في هذا الشارع هو هذه الأشياء جميعها.

إن شارع الحمرا هو شارع الأشكال والألوان، الجدّة والطرافة، الطبيعة والغرابة، الرصانة والخفة، الالتزام والحرية، الغنى والفقر، النظام والفوضى، الهدوء والاضطراب. في هذا الشارع يلتقي الجميع من خلال الجميع، رجل المال والأعمال، والوزير السابق والوزير اللاحق والموظف العامل ونظيره المتقاعد والصحافي الناجح وزميله الفاشل، والفنان المبدع، والمتفنن المتسكع، والأديب المتفوق، والمتأدب المتشوف إلى صناعة الكلمة، والتاجر الباحث عن الربح الحلال، والصعلوك المتهالك على الثروة المستباحة. إنه شارع هؤلاء كلهم الذين جاؤوا إليه من كل فج عميق، بعضهم من أبناء بيروت نفسها، وبعضهم من أطرافها وضواحيها أو من الطارئين عليها من بقية المناطق اللبنانية الذين جذبتهم الأنوار الحمراء في شارع الحمراء!

وماذا أيضاً في شارع الحمرا؟

هناك المقاهي التي اختلط فيها الحابل بالنابل من أدباء بالفعل أو بالأمل، وفنانين بالطبيعة أو بالصناعة، ومع هؤلاء وأولئك زمر الصحافيين الذين أصابتهم لوثة الكتابة الأدبية وهلوَسة الشعر الحديث والمنثور.

ومن أشهر مقاهي الرصيف في شارع الحمرا التي كانت تستقطب أولئك الذين مستهم حرفة الأدب أو جرفتهم التيارات الحزبية والسياسية مقهى «الهورس شو»الذي افتقده هذا الشارع منذ بضع سنين، عندما بيع هذا المقهى وأخذ طريقه إلى الزوال.

ومقهى «الهورس شو» ليس الوحيد الذي أقفل أبوابه بوجه المثقفين والفنانين. فقبل «الهورس شو» أقفل «لاروندا». وأقفل مقهى «الروكسي» وأقفل مقهى «النيغرسكو».

«الهورس شو» آخر معقل من معاقل المثقفين الفنانين والشعراء في شارع الحمرا يقفل أبوابه!... من كان يصدق أن «الهورس شو» سيتحول في النهاية ضد المثقفين والشعراء

والفنانين؟ . . في غد تمر عند «الهورس شو» فتفوح رائحة الفلافل والشاورما وتطغى على ألوان وروائح المواعيد والذكريات الحميمة! . .

٦ ـ الطريق الجديدة

طريق الجَّديدة، بلام شمسية، هكذا يسمي أهل بيروت المحلة الممتدة من ثانوية المقاصد الخيرية الإسلامية في الحرج من جهة الشمال حتى أخر شارع صبرا من جهة الجنوب. وأما الدوائر الحكومية والبلدية في بيروت فإنها تسمى هذه المحلة «الطريق الجديدة»، ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن هو السؤال عن سبب تسمية هذه المحلة بالطريق الجديدة واستمرار هذا الاسم عليها حتى الآن بالرغم من أنه مضى على بدء عمرانها ما يزيد عن الخمسين سنة وهي مدة كافية لأن تجعلها قديمة، والجواب على هذا السؤال هو أن هذه المحلة تكونت مع تمادي الأيام عندما شقت الحكومة في رمل بيروت طريقاً جديدة تصل ما بين غابة الصنوبر (الحرش) وشوران (الروشة) وقد أطلق يومئذ على المنطقة التي تكتنف هذه الطريق من جانبيها اسم (طريق الجديدة) كما بيّنا.

ومحلة الطريق الجديدة التي تضم اليوم ما لا يقل عن ربع مليون نسمة أو ما يعادل ربع سكان بيروت كلها الذين يناهزون المليون من المواطنين البيروتيين الأصليين والوافدين كانت قبل أن تعرف العمران قبل نحو نصف قرن، تسمى تلة زريق نسبة إلى إحدى العائلات النصرانية المعروفة بـ «آل زريق» التي كانت تملك مساحة كبيرة من التلة المذكورة المحاذية لمحلة المزرعة، التي كانت تعرف من قبل باسم «مزرعة العرب».

وتلة زريق كانت عبارة عن هضبة من الرمل الأحمر المائل إلى الصفرة، تشرف على مدينة بيروت من الجهة الجنوبية، ليس فيها ديّار ولا نافخ نار، لا ترى العين فيها أثراً للشجر أو الزرع ولا يرتفع فوق رملها حجر على حجر ولا أي شيء آخر يحول بين هذا الرمل وبين قبة السماء الزرقاء الصافية في الصيف والمجلببة بالضباب الداكن في الشتاء.

وبسبب اتساع هذه الهضبة الرملية وخلوها من السكان والعمران، فإن أهل الجيل الماضي من البيروتيين كانوا يتخذون من أديمها متنزهاً ويقصدونها مع عائلاتهم بأفرادها من الكبار والصغار والرجال والنساء لقضاء عطلتهم الأسبوعية، وكان يوم الجمعة، فما تكاد الغزالة تذر قرنها بالضياء من صباح هذا اليوم حتى يهرع البيروتيون إلى هذه التلة ومعهم طعامهم وشرابهم وما يلزمهم من البُسُط وستائر الظل وأدوات الطبخ ووسائل التسلية واللهو، وتأخذ كل عائلة مكانها الذي يناسبها حيث يبقى الجميع طوال اليوم في مرح ولهو وسرور حتى تؤذن الشمس بالأفول عند المغرب، فيقوضون خيامهم ويجمعون متاعهم قافلين إلى منازلهم زرافات ووحداناً.

وكان البيروتيون يطلقون على هذه النزهة الأسبوعية الدورية اسم «السيران» ويقابلها اليوم في الاستعمال الدارج «شم الهوا» أي التفسح في الهواء الطلق للاستراحة من عناء العمل اليومي أثناء الأسبوع والاستجمام لاستئناف النشاط في الأيام المقبلة سعياً وراء الرزق وتأمين قوت العيال. ولعلني لا أكشف سرًّا إذا أعلنت بهذه المناسبة أني كنت من جملة الأشخاص الذين شاركوا في هذا «السيران» أيام طفولتي العابثة، إذ أن والدتي رحمها الله وطيب ثراها الطاهر كانت تصطحبني وإخوتي البنات الصبايا إلى التلة المذكورة للمشاركة في قضاء يوم الجمعة، عطلتي المدرسية، مع أترابي من الفتيان والفتيات ومعي «الطيارة» الورقية التي كنت أدلي لها خيط الشبك المتين، أو باصطلاح ذلك الزمان «أكرّ» لها لكي «تنجّم» أي ترتفع عالياً في الفضاء متحدّياً بذلك نظرائي من الأولاد الذين يفعلون بدورهم ماأفعل. .

وكثيراً ما كان الكبار من الشباب يساهمون بدورهم في هذا اللهو الذي يبدأ بريئاً ثم ما يلبث أن يستدرج أولئك الشباب للتشاجر فيما بينهم بسبب تنافسهم على إطلاق العنان لطياراتهم الورقية للتحليق في الجو ويتبادلون المعاكسات التي لم تكن تخلو في بعض الأحيان من قوارص الكلمات وجوارح الطعنات.

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨م بدأت محلة الطريق الجديدة تكتسي رمولها ببيوت السكن وتنفرج في أرجائها الطرقات والشوارع. لم يكن فيها من الأهالي إلا العائلات التي انتقلت إليها من «المدينة» أي بيروت القديمة وجميع هذه العائلات بيروتية في منشئها وتسلسلها وموطنها وأفرادها مسلمون من أهل السنة والجماعة. إلا أن هذه المحلة سرعان ما تطورت وتداخلت فيها عناصر من أبناء المناطق اللبنانية القريبة من بيروت وغيرهم من العناصر غير اللبنانية الذين دفعتهم موجة الضرورات الحياتية للنزوح عن بلدانهم الأصلية والإقامة في هذه المحلة التي كان مستوى الحياة فيها متواضعاً وأثمان أراضيها وأجور مساكنها غير باهظة الأمر الذي جعلها قبلة أنظار أصحاب الدخل المحدود والموارد القليلة الذين شكلوا فيها غالبية السكان.

ولقد جرت عادة المسلمين منذ القديم أنهم عندما يحلون في منطقة بنيّة الإقامة الدائمة يبادرون إلى ابتناء مسجد لهم في هذه

المنطقة، ومدرسة يتعلم فيها أبناؤهم وما إلى ذلك من المرافق العمرانية التي يحتاجون إليها في حياتهم ومعاشهم. وهذا ما حصل بالنسبة إلى محلة الطريق الجديدة بالذات، فإن هذه المحلة ما إن دب فيها العمران وانتشر فيها السكان حتى ارتفع فيها عدد من بيوت الله لتكون مثابة للناس عندما يريدون إقامة صلاتهم أو عندما يجتمعون بالمناسبات الدينية والاجتماعية.

وفيما يلي أسماء هذه المساجد نوردها وفقاً لتاريخ بنائها وهي ستة مساجد:

١ ـ جامع الحرش وهو اليوم داخل في الأرض التي قامت عليها ثانوية المقاصد الخيرية الإسلامية في غابة الصنوبر.

٢ ـ جامع الرمل، وهو يعرف باسم مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٣ ـ جامع الشهداء، وهو يقع في داخل مقبرة الشهداء بغابة الصنوبر.

٤ ـ مسجد وخلية عبد الناصر، وهو يقع في الناحية الشمالية لطريق «أبو شاكر».

٥ ـ جامع الدنا وهو يقع في شارع صبرا إلى جانب سوق الخضار في هذا الشارع.

٦ ـ جامع الخاشقجي وهو يقع في الطرف الشرقي من مقبرة الشهداء بمحاذاة الطريق العام.

الفصل الرابع عشر

مساجد بيروت القديمة في خاطرات الرحالين

في سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧ م) كانت الموقعة الحاسمة بين المماليك بقيادة السلطان قانصوه الغوري وبين العثمانيين بقيادة السلطان سليم الأول، وفيها انتصر العثمانيون وأخرجوا المماليك من سورية ثم من مصر والديار الحجازية المقدسة. واستمر الحكم العثماني في بلادنا من ذلك التاريخ حتى سنة ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) ففي هذه السنة غادر آخر جندي عثماني هذه البلاد بعد أن بقي هلال آل عثمان الأتراك يرفرف في أجوائها أربعمائة سنة ومعها سنة أخرى دون انقطاع تقريباً ما خلا الفترة القصيرة التي دخل المصريون فيها بقيادة إبراهيم باشا البلاد السورية والتي لم تستمر إلا عشر سنوات تقريباً من سنة ١٢٤٧هـ إلى سنة ١٢٥٦ (١٨٣١ - ١٨٤٠م) ففي هذه السنة تم إخراج المصريين من بيروت وسائر البلاد السورية واستأنفت اسطمبول سيادتها على هذه المنطقة من جديد.

١ - الشيخ عبد الغني النابلسي

في أيام العثمانيين تم بناء عدد من المساجد في مدينة بيروت القديمة التي كانت داخل سور يحيط بها من جميع جهاتها ما خلا الجهة الساحلية منها. لم تكن بيروت حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي تضم أكثر من حوالى خمسة آلاف ساكن. ومع قلة عدد السكان كان عدد المساجد فيها قليلاً أيضاً. والشيخ عبد الغني النابلسي، الرحالة المتصوف عندما زار هذه المدينة سنة ١١٠١ هـ (١٦٩٠ م) سجل أسماء أربعة مساجد رآها فيها في كتاب عنوانه «التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية» وفيما يلي الكلام الذي كتبه الشيخ المذكور في هذه التحفة حول تلك المساجد:

«.. وقد رأينا في بلدة بيروت المحمية زوايا كثيرة وجوامع وحمامات، فلا بأس بذكر محاسنها السَّنية.. ثم يقول:

والجوامع التي بها أربعة: **الأول، الجامع الكبير**، وهو يشتمل على اثنتي عشرة عضاضة كل عضاضة يحوطها رجال، وهي عظيمة العمارة، يقال إنه كان في الأصل كنيسة، وفي جانبه بركة ماء طويلة كبيرة، وله بابان عظيمان بقسيّ عجيبة، كل منها مقابل الآخر، ومقابل الباب الواحد زاوية ابن الأحمر.

الثاني، جامع الأمير منذر، وهو جامع عظيم البنيان، فيه منبر من الرخام الأبيض. وتكوينه عجيب، حيث سدة على يمين المحراب وسدّة أخرى على شماليّه. على أسلوب جامع السنانية بدمشق المحمية. يصعد إلى السدة التي على يمين المحراب من درج المنارة، والتي على شماله يصعد إليها من سدّة أخرى في فناء الجامع، لها درج من خشب. وأمام المحراب، فوق الباب الذي في داخل الجامع سدّة ثالثة صغيرة أخفض من السدّتين المذكورتين وليس لها مصعد، بل يتوصل إليها من السدّتين بدرجتين من الرخام الأبيض أحدهما على يمين المحراب، متصل بالسدّة التي على اليسار، وفي فناء هذا الجامع بركة ماء عظيمة مثمنة. وفي دائر هذا الجامع رواقات بأقبية على عواميد عالية عظيمة.

الثالث، جامع الأمير عساف، وهو الذي عمّر السراية، وبناؤه من العجائب، وهو مبني على أربعة عواميد، وفوق ذلك قبة عظيمة يحوط بها أربع قبب وأربع أقبوة، كل ذلك مركّب فوق هذه الأربع عواميد. وفي فناء الجامع بركة ماء غزيرة، وله أيضاً بابان، وهو أصغر من الجامع الكبير بيسير، ويجتمع فيه أناس من الحفظة ما بين العشاءين يتلون القرآن الكريم ويتعبدون.

الرابع، جامع البحر، ويسمى جامع العمري، لأنه كما هو مشهور عندهم من زمان عمر بن الخطاب، وهو أصغر من الجوامع التي في بيروت، وهو مرتفع، مطل على البحر، يُصعد إلى فنائه بسلم حجر نحو خمس عشرة درجة، ثم يصعد إليه بدرج آخر ثماني درجات.

وهذه الجوامع الأربعة، كلها بمنابر، تقام فيها الجمعة».

انتهى كلام الشيخ عبد الغني النابلسي وفيه وصف لبنيان مساجد بيروت الأربعة التي رآها في زمانه. وجدير بالذكر أن هذه المساجد ما زالت على الحالة التي وجدها فيها ذلك الشيخ الرحالة ما عدا جامع البحر الذي أُعطي في أخريات القرن الماضي اسم جامع الدباغة، لوقوعه بالقرب من دباغة كانت بجانب أحد أبواب بيروت الذي نسب إليها فإن هذا الجامع زال بسبب التخطيط لشوارع المنطقة التي يقع فيها. وفيما بعد قامت الدائرة الوقفية ببيروت ببناء جامع في مكانه تقريباً تحت اسم جامع الصديق.

وما دمنا نتحدث عن خاطرات الرحالة المتصوف الشيخ عبد الغني النابلسي حول المساجد التي رآها في بيروت عند زيارته لها فإننا لا نرى بأساً من الحديث أيضاً عن خاطرات بعض الرحالة الأجانب الذين زاروا بيروت خلال القرن التاسع عشر الميلادي أي بعد حوالى قرنين من زيارة النابلسي لها.

٢ - هنري غيز

ففي سنة ١٨٤٧م كتب هنري غيز (Henri Guise) الذي كان قنصلاً لحكومة فرنسا ببيروت، مذكرات ضمّنها مشاهداته وانطباعاته في هذه المدينة، وجعل عنوان كتابه:

«Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban».

وكان لمساجد بيروت في ذلك العهد، نصيب مما كتب هذا القنصل الفرنسي. قال غيز مبتدئاً كلامه بالحديث عن الجامع العمري الكبير الذي كان يومئذٍ يعرف باسم «جامع النبي يحيى»:

«.. إن المسجد الكبير لا يتميز إلا بطراز بنيانه المسيحي، ويعود بدء عهده إلى زمن الصليبيين، إذ كان كنيسة على عهد القديس يوحنا (؟) كما تكلمت عن ذلك في نص سابق، وأقول الآن إن هندسته تشبه هندسة تلك الأبنية التي هي من نوعه، ولا تزال بعض بقاياها قائمة على الشاطىء الواقع بين يافا والكرمل».

ويتابع القنصل الفرنسي كلامه عن هذا الجامع قائلاً: «.. ويزعم أبناء البلاد، أن كنزاً كبيراً مدفون هناك، ومصدر هذا الزعم هو ضعف عقلية الشرقيين بوجه عام، فجميع الأبنية القديمة، حسب زعمهم، تخفي كنوزاً تقدّر بمبالغ ضخمة».

ثم تحدث غيز عن بقية المساجد التي رآها في بيروت في أيامه، ملاحظاً قلة ريع أوقافها بالنسبة للمساجد الأخرى في غيرها من المدن الإسلامية، فقال:

«.. أما المساجد الأخرى، فلم توح إليهم زعماً خاصاً. لأنها كما يظهر قليلة «الدوطة» ولا يمكننا أن نقارن بينها وبين مساجد المدن التركية الأخرى التي تملك بعض المدخول المخصص للنفقات الدينية».

وتحدث غيز عن ظاهرة وجود المكتبات في مساجد بيروت فقال:

«.. تدخل الكتب أيضاً في عداد الهبات التي تُقدم للمساجد، بغية تثقيف الشعب الإسلامي القليل المطالعة بطبيعته (!) وهذه الكتب تكون عادة مصاحف وشروحاً وكتب عبادة أخرى».

ولاحظ غيز أن مساجد بيروت في زمانه كانت مأوى لأصحاب الطرق الصوفية، وأولئك الذين حرمتهم الأقدار نعمة الكمال في بنيتهم الجسدية أو مداركهم العقلية، فسجل هذه الملاحظة قائلاً:

«.. وفي هذه المساجد يفتش الدراويش عن أسباب الارتزاق وعن ملجأ يأوون إليه عندما يهبطون إلى المدينة. وقد تكون أيضاً ملجأً للذين يرتحلون أو للمعتوهين. إنها تستخدم كبيمارستان للذين فقدوا عقلهم أو خلقوا مجاذيب. تخيل أحد هؤلاء الدراويش، وقد أُصيب بمرض «جنون السلطة» وسيلة فيها بعض شفاء لجنونه هذا، وهي سهلة التنفيذ، اشترى من الأباريق الصغيرة عدداً مقدار ما سمحت به ميزانيته، ولكي يملك منها أكبر عدد ممكن انتقاها مثلومة ومشقّقة ومصدّعة، وبعد أن ملأها، صفّها على منضدة صغيرة لعوام المسلمين ليتناول كل واحد منهم واحداً منها يستعمله عند الوضوء، ثم يُعاد قربها، يلقي على المصلين أوامره، فكان يقول لمن يمدّ يده إلى الإبريق الأصفر: خذ الأحمر، وإلى الآخر: دع هذا وخذ الإبريق الأصفر، وإلى الآخر: دع هذا وخذ ذاك، وإلى الثالث: دونك المستدير أو المشعّث أو الذي ليس له رقبة.. الخ.. وكان الحاضرون يتأملون ويتساءلون عما حدا بهذا الرجل القعود منهم هذا المقعد، دون أن يفهموا، لأول وهلة، ما هو الباعث على ذلك، وأخيراً عرفوا أنه كان موظفاً وعزل».

وعن مآذن مساجد بيروت في ذلك العهد يقول غيز:

«.. إن منائر بيروت، تشبه كل منارات البلدان الأخرى، وهي قائمة كالشمعدان».

وعندما تحدث غيز عن الاحتفالات التي رأى المسلمين يقيمونها عند تخرّج الطلاب من المدارس القرآنية وإكمالهم

حفظ كتاب الله عز وجل عن ظهر القلب، وهو ما كان يسمى في ذلك الحين «الختمة» قال:

«.. إن الشيوخ، أو سدنة المساجد، هم أيضاً يُدعون إلى هذا الاحتفال فيقومون في أثناء الطواف الاحتفالي بتمثيل «روايتهم الدينية» بعد أن ينضم إليهم المتعصبون الذين يوهمون الناس أنهم وقعوا في غيبوبة. ولكي يفيقوهم، فإنهم يهزونهم بعنف على نغم الطنبور الذي اصطحبه تلاميذ الشيخ وهم يغنون، وذلك ما يؤلف أيضاً مع الموسيقى الأخرى، وصراخ النساء وضجيج الجمهور أخوف ضجة يمكن أن يتصورها العقل».

نقول لعله من فضول القول الإشارة هنا إلى أن ما ذكره غيز، لا سيما بالنسبة للجامع العمري الكبير، ليس مقبولاً منا على الإطلاق. ويظهر جهله الفاضح عندما أرجع بناء الجامع إلى يوحنا المعمدان الذي عاش في أوائل أيام النصرانية.

٣ ـ الدكتور لورتيه

وبعد هنري غيز بحوالي نصف القرن، قدم إلى بيروت أجنبي آخر، هو الدكتور لورتيه (Dr. Lortet)، فقد زار هذا السائح بلاد الشرق العربي مرتين متواليتين، الأولى سنة ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م)، والثانية سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨٠م)، وكتب انطباعاته عن هذه البلاد في مذكرات جعل عنوانها «سورية اليوم» والعنوان الكامل لهذا الكتاب بالفرنسية:

La Syrie d'aujourd'hui. Voyage dans la Phénicie et le Liban et la Judée 1875 - 1880.

وفي هذه المذكرات تحدث لورتيه عن سكان بيروت والجامع العمري الكبير وبقية المساجد فقال:

«... ليست مآذن بيروت مدورة كمآذن مصر وآسية الصغرى وإنما هي مربعة».

وهذا الوصف يخالف ما كتبه غيز عن مآذن بيروت قبل نحو نصف القرن، وإنا لا ندري ما إذا كان البيروتيون قد غيروا شكل مآذن مساجدهم بسرعة خلال تلك المدة القصيرة، أم أن لورتيه رأى منها في أيامه ما لم يره قبله سلفه غيز.

وفيما يتصل بالجامع العمري الكبير قال لورتيه:

«... يصعب أحياناً أن يحصل الإنسان الغريب على إذن بالدخول إلى الجامع الكبير القائم قريباً من الأسواق. وهذا الجامع كان كاتدرائية مسيحية باسم القديس يوحنا، مبنية على شكل مثلث له ثلاثة أضلاع بحناياها. ـ وهنا ينقل لورتيه عن شارل مليكور وفوغيه من علماء الآثار الفرنسيين ـ أن هذا الجامع كان أول الكنائس التي بنيت في سورية في عهد الصليبيين، ويقدّر أنها شُيّدت سنة ١٢٠٨ م، شيّدها بودوان الأول بعد أخذه بيروت بقليل. وقد غطى الأتراك القبة والجدران بطلاء لا يترك مجالاً لرؤية التزيين الذي لا بد أن يكون مهماً».

وفي الكلام عن مساجد بيروت الأخرى يقول لورتيه:

«.. أما الجوامع الأخرى، فلا تهم زيارتها إلا للمولعين بالنقوش المعجبة، وإنها غالباً ما تستخدم ملجأ للدراويش والمتسولين، وأحياناً للمرضى. ولا يلفت النظر مثل رؤية جماعات من المسافرين جالسين على البسط البراقة التي تغطي الأرض، يأكلون إدامهم المتقشف. متكلمين بصوت خافت تحت الأروقة المعتمة الحاملة لتلك القباب العظيمة، وغني عن القول إن الأحذية تخلع دائماً أمام الأبواب حيث يستطاع مشاهدة مجموعة كبيرة من كل أشكال الأحذية المستعملة في الشرق».

ـ انتهى كلام لورتيه ـ

الفصل الخامس عشر

المساجد والجوامع الشريفة في بيروت

توطئة

سنة ١٦ هـ (٦٣٧ م) دخلت مدينة بيروت في دار الإسلام بعد أن استخلصها من الروم معاوية بن أبي سفيان الذي كان على رأس القوة العربية التي استولت على السواحل اللبنانية بتوجيه من أخيه يزيد بن أبي سفيان القائد المكلف بالعمليات الحربية في هذه المنطقة من قبل الخليفة الراشد الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وكانت السياسة العربية المتبعة آنذاك أن يبادر المسلمون عند افتتاحهم لأي مدينة إلى تأسيس المساجد فيها فوراً لأنهم يعتبرون المسجد نقطة البداية التي ينطلقون منها إلى إدارة الناس وتنظيم شؤونهم العامة، ومن الطبيعي أن تحظى بيروت بمثل هذه المبادرة إذ لا يعقل أن تصبح هذه المدينة جزءاً من العالم الإسلامي في ذلك الحين دون أن تتساوى مع مثيلاتها المدن الأخرى في عمارة المساجد تلبية للمنطلقات التي أشرنا إليها لا سيما أن هذه المدينة سرعان ما اكتسبت أهمية خاصة بالنسبة لموقعها العسكري وصلاحيتها لأن تكون، حسب مفهومنا اليوم، قاعدة عسكرية، وحسب مفهوم ذلك الزمان رباطاً للمجاهدين. وهو ما قاله ابن حوقل عنها في كتابه صورة الأرض: «بيروت رباط أهل الشام وإليها ينفرون عند استنفارهم». ولعل أهل بيروت المعاصرين يذكرون مع الاعتزاز أن الإمام عبد الرحمن الأوزاعي وهو أحد كبار العلماء المسلمين في العهدين الأموي والعباسي قد اتخذ من مدينتهم رباطاً له عند التزامه بالدفاع عن بلاد الشام (سورية الطبيعية) وحمايتها من عدوان الطامعين فيها.

بيد أن معلوماتنا عن مساجد بيروت التي أُنشئت في صدر الإسلام تكاد تكون معدومة، بل هي معدومة بالفعل، ذلك أن المصادر التاريخية التي تناولت تلك الفترة لم تشر إلى هذا الموضوع من قريب أو بعيد ما خلا الخطيب البغدادي الذي قال وهو يترجم للإمام أبي حنيفة: «عبد الله بن المبارك يقول: قدمت الشام على الأوزاعي فرأيته ببيروت، فقال لي: يا خراساني، مَنْ هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة يُكنّى أبا حنيفة؟ فرجعت إلى بيتي، فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل. وبقيت في ذلك ثلاثة أيام، فجئته يوم الثالث، وهو مؤذن مسجدهم وإمامهم... الخ».

وهذا الخبر عن الإمام الأوزاعي فيه إشارة واضحة إلى وجود المسجد في بيروت، وأن هذا المسجد كان أكبر مساجد المدينة لذلك وصف بأنه مسجدهم، والضمير هنا يرجع إلى أهل بيروت، ومثله الضمير في إمامهم، وأن الأوزاعي كان المؤذن والإمام في هذا المسجد.

وليس هناك كلام آخر عن مكان هذا المسجد ولا عن تاريخ بنائه ولا عمن بناه، كما أنه لا كلام أيضاً عن أي مسجد آخر في بيروت في تلك الفترة، لذلك يحسن بنا أن نكتفي بالمرور السريع على موضوع المساجد التي كانت في بيروت خلال صدر الإسلام والعهدين الأموي والعباسي دون الدخول في كلام يُبنى على الظن دون اليقين.

مسجد الأوزاعي ومقامه في حنتوس

ولكن إذا نحن توقفنا قليلاً في جنوبي بيروت عند ساحل البحر حيث كانت تقوم قرية حنتوس. فإننا نجدنا مرة أخرى مع الإمام الأوزاعي صاحب المقام في هذه القرية الذي يعتبر «مزار» بيروت من أيام العباسيين إلى اليوم. يقول القاضي شمس الدين ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ في كتابه الموسوعي «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وهو يترجم الأوزاعي: «.. وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوس، وأهلها مسلمون، وهو مدفون في قبلة المسجد، وأهل القرية لا يعرفونه، بل يقولون: ها هنا رجل صالح ينزل عليه النور، ولا يعرفه إلا الخواص من الناس». يستخلص من كلام ابن خلكان أنه كان في عهده جامع

بقرية حنتوس وأن الإمام الأوزاعي كان دفين هذه القرية التي لا يعرفه أهلها باسمه وإنما يعرفونه بمكانته الدينية فقط من خلال اعتباره رجلاً صالحاً ينزل عليه النور. وأن الذين يعرفونه هم النخبة من الناس فقط.

والذي يعنينا نحن من كلام ابن خلكان هنا هو وجود جامع في قرية حنتوس عهده قديم ويمكن اعتبار هذا الجامع موجوداً في القرن الثاني الهجري أي في أوائل العهد العباسي، وإذا أخذنا بالقول إن قرية حنتوس التي زالت ودرست وأصبح مكانها اليوم متصلاً بمدينة بيروت من الناحية السكنية، فإننا نستطيع القول بأن جامع حنتوس القديم حيث مقام الإمام الأوزاعي هو أقدم الجوامع في بيروت على الإطلاق. ويؤكد هذا القول ويشهد على صحته وجود ضريح الإمام صاحب المقام بداخله وفقاً للنص الوارد في وفيات الأعيان لابن خلكان.

صحيح أنه لا يوجد في هذا الجامع نقيشة رقمت عليها كتابة تدل على اسم بانيه وتاريخ بنائه، إلا أن وجود ضريح الأوزاعي فيه يؤكد لنا أنه كان موجوداً في سنة ١٥٧ هـ أي في أيام الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور المتوفى سنة ١٥٨ هـ.

والجدير بالذكر أن هذا الجامع ما يزال قائماً في مكانه القديم محتفظاً بما يقارب الشكل الذي كان عليه يوم بنائه وأنه ما يزال كذلك عامراً بالصلاة حتى يومنا هذا.

وصف المسجد

هو جامع صغير بني في أوائل العهد العباسي (القرن الثامن للميلاد) كما ذكرنا، خلف جداره الجنوبي ضريح للإمام عبد الرحمن الأوزاعي المتوفى ببيروت سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) وفوق محراب الجامع نقيشة من رخام وضعها حسين حشمت محاسبجي جبل لبنان بتاريخ ١٣٢٠ هـ (١٩٠٢ م) كتبها الشيخ محمد عمر البربير البيروتي، وفيها اسم الأوزاعي وتاريخ ولادته ووفاته واسم المكان الذي دفن فيه وهو «قرية حنتوس».

في مقدمة الجامع مئذنة حديثة تبرع ببنائها مصطفى رمضان ابن الشيخ محمد رمضان سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٩ م) كما تدل النقيشة الرخامية الموجودة فوق الباب الخارجي للجامع.

في الجهة الغربية من الجامع رواق مستطيل، ليس فيه ما يبين تاريخ بنائه وهو بناء معقَّد. وفي الجهة الشرقية منه مقبرة إسلامية صغيرة دفن فيها بعض أعيان المسلمين من المفتين والأمراء ورؤساء الحكومات اللبنانية، وبمحاذاة المقبرة من جهة الشرق جامع حديث افتتح للصلاة سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) وبجانبه ضريح رياض الصلح الزعيم العربي الذي اغتيل سنة ١٩٥١ م.

الجامع العمري الكبير

وهناك جامع آخر يلي جامع الأوزاعي من حيث القدم وهو الجامع العمري الكبير، بل إننا لا نعدو الواقع إذا قلنا إن هذا الجامع هو أقدم الأبنية الأثرية التي ما تزال قائمة على حالها في بيروت حتى اليوم. في حين تعرضت جميع الآثار القديمة الأخرى في هذه المدينة لعوادي البلى والخراب، وأصبحت مجموعة من الأنقاض المبعثرة في باطن الثرى وبعض هذه الآثار أصبح أطلالاً دارسة، لم يبق منها غير رسومها الغامضة.

الأساس الذي قام عليه البناء الحالي للجامع

لم يتفق المؤرخون وعلماء العاديَّات الأثرية على تحديد هوية الأساس القديم الذي ينهض عليه البناء الحالي للجامع. وبالتالي فإن هؤلاء وأولئك لم يستطيعوا تعيين الزمن أو العهد الذي يرجع إليه هذا الأساس. على أن الذي لا شك فيه، هو أن البناء كما هو في حالته الراهنة يحتوي على العديد من الأعمدة والتيجان التي فوقها، قد استخرجها الصليبيون عندما شادوا كنيستهم من الأنقاض التي كانت مردومة تحت هذا البناء أو مبعثرة في باطن الأرض التي تقع إلى جواره.

وإن العالم الأثري الفرنسي دو فوغيه (M. de Vogüé) قد رجح أن تكون هذه الأنقاض، هي بقايا كنيسة بيزنطية كانت تقوم في عهد البيزنطيين بنفس المكان الذي اختاره الصليبيون لبناء كنيستهم التي حوّلها المسلمون فيما بعد إلى جامع لهم.

ويقول فوغيه في هذا المعنى:

«إن أكثر العواميد قد أخذت من أنقاض بيزنطية، يغلب على الظن أنها كانت في السابق كنيسة. ومن الممكن أن يكون الصليبيون الذين احتلوا بيروت قد رمموا هذه الكنيسة القديمة قبل إعادة بنائها من جديد».

بيد أن هذا القول، لم يكن دائماً موضع القبول والتسليم، لأن غير فوغيه من المؤرخين والرحالة الأجانب الذين زاروا بيروت في أزمنة مختلفة، حرصوا، عبر مذكراتهم التي كتبوها عن هذه المدينة، على التأكيد بأن الجامع الحالي إنما بُني لأول مرة، لكي يكون كنيسة صليبية، ومن هؤلاء المؤرخ بوغولا الذي رافق ميشو وزامله في أسفاره.

على أن الأب لويس شيخو اليسوعي يقول: «ولعل كنيسة مار يوحنا[1] بنيت عوضاً عن كنيسة أخرى أقدم عهداً تبعد

(١) La Cathédrale Saint Jean de Beyrouth. Camil Enlart. Paris - 1904.

عنها مائة ذراع، وهي التي وجدت آثارها في مدة الحرب الأخيرة عند سوق البازركان»[1].

ويستخلص من الكلام الذي كتبه الأب لويس شيخو أنه من رأي الذين قالوا بأن البناء الحالي للجامع العمري الكبير يرجع إلى أيام الصليبيين الذين بنوه بالقرب من كنيسة بيزنطية قديمة فوق أرض خلاء لم يكن فيها من قبل أي بناء قديم.

وإن اختلاف الأقوال في تحديد الأساس الذي يقوم عليه الجامع الحالي يحملنا على عدم الركون إلى الأخذ برأي الذين ذهبوا إلى التأكيد بأن الصليبيين بنوا كنيستهم على اسم القديس يوحنا في مكان خال من أي أثر سابق.

هل شيد الصليبيون كنيسهم فوق أنقاض معبد روماني قديم؟

من المعروف أن الأمم التي تتغلب على أعدائها وتستولي على أرضهم، تميل في العادة إلى تجسيد انتصاراتها العسكرية والقومية بأعمال تعبّر عن رغبتها في إزالة جميع المعالم التي تشير إلى الأمة المهزومة، وتبني على أنقاض هذه المعالم ورسومها الدارسة منشآت ومؤسسات جديدة خاصة بها، وذلك إمعاناً في التشفي من الأعداء والقضاء على كل آثارهم أو ما يدل على وجودهم السابق. وعلى هذا، فإنه ليس من المبالغة القول بأن المكان الذي يقوم عليه بناء الجامع العمري الكبير اليوم، قد عرف في سالف الأزمان معبداً وثنيًّا قديماً قبل أن يعرف الكنيسة النصرانية في أيام الصليبيين ثم الجامع الإسلامي في أيام المماليك.

والذي يحملنا على هذا الاتجاه، هو أن داود خليل كنعان، من المؤرخين المتأخرين أشار في إحدى مقالاته التي كتبها في مجلة الجنان تحت عنوان «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت»[2] إلى رخامة كانت موجودة على باب الدركة الذي كان قائماً في زمانه وعليها كتابة يونانية تفسيرها بالعربية:

«أيها الداخل بهذا الباب، افتكر بالرحمة»[3].

(١) بيروت: تاريخها وآثارها، بقلم الأب لويس شيخو اليسوعي، طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٥، ص ٥٢.

(٢) كتب داود خليل كنعان هذه المقالات في مجلة الجنان البيروتية لمنشئها سليم البستاني في الجزء التاسع عدد أيار سنة ١٨٧١ ص ٣٣٣، والجزء العاشر، عدد حزيران سنة ١٨٧١ والعدد الذي تلاه في نفس الشهر.

(٣) هذه الرخامة نقلت إلى متحف بيروت في عهد الانتداب بعد أن زالت معالم باب الدركة الذي كان يقع في مكان قريب من رأس شارع المعرض الحالي، وقد صور الأب شيخو الكتابة اليونانية في استدراكاته =

وقد رجح هذا المؤرخ أن هذه الرخامة كانت من قبل في غير موضعها بباب الدركة وأنها نقلت إليه في زمن لاحق بعد أن تهدم البناء الذي كانت فيه بفعل الزلازل التي ضربت بيروت في أواسط القرن السادس للميلاد.

وإن المؤرخ المعاصر إبراهيم نعوم كنعان قد أيّد ما ذهب إليه ظن عمه داود كنعان المذكور، على أنه زاد قائلاً في حاشية كتابه بيروت في التاريخ «.. إذا جاز هذا التقدير، وأن تكون العتبة نقلت من مكانها الأصلي، فهي أقرب أن تكون لمدخل المجلس العسكري الروماني الكبير الذي بنى فوقه الصليبيون كنيسة مار يوحنا والمعروفة الآن بالجامع العمري الكبير حيث كشفت أعمال الترميم به في سنة ١٩٥٥ عن بناء أرضي قديم تركه الصليبيون على حاله وشادوا فوقه الكنيسة. وقد نزع الأتراك في سنة ١٩١٧ عن مدخل الرواق المتصل بالطابق الأرضي من الجامع المذكور وإزاء بابه الغربي، في منتصف الطريق العام حجراً مماثلاً للعتبة المشار إليها ومنقوش به تفسير الكتابة التالية:

«مقام المجلس العسكري»

وهو لم يكن ليبعد أكثر من ماية متر عن مركز وجود تلك العتبة في أيام المؤرخ المرحوم داود كنعان»[4].

إن ما ذكره إبراهيم كنعان صاحب كتاب بيروت في التاريخ عن وجود كتابات رومانية في بعض الأنقاض الأثرية التي عثر عليها بالقرب من الجامع العمري الكبير، يبدو معقولاً في تعليل ما ذهب إليه. وليس من المستبعد، على هذا الأساس، أن يكون الصليبيون قد اختاروا مكان المجلس العسكري الروماني لبناء كنيستهم.

وتدل المكتشفات الأثرية التي عثر عليها صدفة أثناء الحرب العالمية الأولى بالقرب من الجامع الحالي، أن الرومان ومن بعدهم البيزنطيون قد اختاروا المنطقة التي وجدت فيها هذه المكتشفات لإقامة العديد من المنشآت والدوائر الرسمية الخاصة بهم.

= على كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى الذي نشره سنة ١٩٢٧، وأورد ترجمتها العربية كما يلي: «إنه يجب على الداخل أن يوجه بنظر عقله إلى مبدأ (أو وحي، ثابت) أعط بفرح على قدر استطاعتك فإن الصدقة القليلة تورث نعمة عظيمة». ويقول شيخو إن هذه الكتابة نشرت في مجموع الكتابات اليونانية المطبوع في برلين (CIG, N 04530) - راجع تاريخ بيروت ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٤) بيروت في التاريخ، تأليف إبراهيم نعوم كنعان، الجزء الأول ص ١٤ - حاشية.

فلقد ذكرت مجلة المشرق اليسوعية أنه «بينما بلدية بيروت ساعية في خلال الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) في إتمام أوامر الوالي عزمي بك(١) فتنسف الأحياء القديمة التي عششت فيها جراثيم الأوبئة لتفتح شوارع جديدة، إذ وقف العملة على بناء قديم موقعه غربي جامع النبي يحيى (العمري الكبير) على مسافة ٥٠ متراً إلى الغرب ، عند مدخل سوق البازركان، فاستدعى الوالي الأب شيخو ومراد البارودي ورغب إليهما أن يفحصا تلك البناية وأن يقدما تقريراً في وصفها وآثارها. وقد بلغ ما وجد في تلك الحفريات من الحجارة المنحوتة الضخمة الألوف المؤلفة، قدرها بعض العمال بنحو ٣٠ إلى ٤٠ ألف حجر، نقلت بأمر الوالي إلى غابة الصنوبر لبناء حائط القصر الكبير(٢) وإلى ساحل البحر لتهيئة رصيف شديد»(٣).

وتابعت المشرق قولها: «ومما وجد قريباً من تلك الأطلال الكتابة اليونانية الآتي وصفها، وهي محفورة على حجر من الرخام ذي العروق، عرضه ٢,٠٥ سنتم وعلوه ٥٩ سنتم في سمك ٤٣ سنتم. والكتابة واضحة لا تُشْكِل قراءتها، تحتوي دعاءً بطول العمر لأحد القواد المدعو مرتينوس القائد. . . البناء (قد شيّد) في السنة (. . .؟).

وفي رأي الأب شيخو، كما ذكرنا من قبل، أن الصليبيين شادوا كنيستهم بالقرب من هذه الآثار المكتشفة التي يرجح شيخو أنها كانت في الأصل كنيسة ملكية (basilique) فلما خربت بفعل الزلازل التي تعرضت لها بيروت سنة ٥٥٠م أُعيد بناؤها أو رممت بأمر من مرتينوس المذكور مما أهاب ببلدية المدينة يومئذٍ الإعراب عن شكرها له بأن وضعت الكتابة على الرخامة المذكورة، فلما حدثت الزلزلة سنة ٥٦٠م تهدمت الكنيسة من جديد وبقيت الرخامة شاهداً عليها.

ويقول الأب شيخو إنه عندما اكتشفت أنقاض هذه الكنيسة سنة ١٩١٦م كانت آثار الحريق الذي أعقب الزلزلة ما تزال ظاهرة على هذه الأنقاض وسواد الحريق بادٍ على حجارتها.

مناقشة رأي الأب لويس شيخو

على أننا نعتقد بأن قول الأب لويس شيخو بأن الرخامة التي تحمل اسم مرتينوس كانت موضوعة في كنيسة، ما هو إلا استنتاج شخصي لا ينهض عليه دليل مادي. وقد عرف عن الأب شيخو تحمسه لأن ينسب إلى النصرانية كثيراً من الآثار والأشخاص دون أن تكون هذه النسبة مبنية على تحقيق علمي جدي، حتى إنه لم يتورع بأن يقرأ أحد النصوص التاريخية «وكانت الكعبة لا سَقْفَ لها» «وكانت الكعبة لِأسْقُفٍ لها» لكي يؤكد بأن هذا المكان الذي يقدسه المسلمون كان في الأصل كنيسة نصرانية، وهذا كلام لا تخفى فيه روح المبالغة العاطفية التي كانت تتحكم بنفس شيخو بالرغم من سعة معارفه العلمية.

والذي يحملنا على الشك في أن الأنقاض المكتشفة سنة ١٩١٦ كانت بقايا كنيسة بيزنطية، هو أن المؤرخين أكدوا لنا بأن المكان الذي وجدت في هذه الأنقاض لم يكن فيه أي كنيسة، سواء في أيام الرومان أو في أيام البيزنطيين، ومن هؤلاء المؤرخين، بطرس غالب الذي كتب عن «نشأة الديانة المسيحية في لبنان»، فإنه لم يورد اسم الكنيسة التي أشار إليها الأب شيخو، عندما تحدث عن الكنائس التي تهدمت في زلزال بيروت سنة ٥٥٠. وهي: كنيسة أم الله ـ بالمرفأ ـ والقيامة، والقديس يهوذا، والمخلص، والشهداء الأربعين(٤).

وكذلك، فإن المؤرخ أسد رستم، لم يشر إلى أي كنيسة في المكان الذي حدده شيخو، عندما ألقى، أي رستم، محاضرته عن «دخول النصرانية إلى لبنان» التي ألقاها في كنيسة القديس نيقولاوس ببيروت سنة ١٩٦١(٥).

ولو أن الأنقاض التي اكتشفت غربي الجامع العمري الكبير في بيروت سنة ١٩١٦، كانت بالفعل بقايا كنيسة بيزنطية تهدمت في زلزال سنة ٥٥٠ م، لكان غالب ورستم أو غيرهما ذكروا ذلك في كتاباتهم عند الكلام عن تاريخ بيروت أو عن المعابد النصرانية الأولى التي كانت في هذه المدينة، وإغفالهم لها دليل على عدم وجودها.

عودة إلى الجامع العمري وتشييده على أنقاض معبد روماني قديم؟

رجعة سريعة إلى العهد الروماني في بيروت.

يقول القس الأميركاني هارفي بورتر، في كتابه «النهج القويم في التاريخ القديم». . تحت عنوان سياسة رومية للأمم المغلوبة(٦):

(١) الوالي عزمي بك، كان حاكماً على ولاية بيروت في أواخر العهد العثماني من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩١٧.
(٢) القصر الكبير كان اسمه عندما بناه الوالي عزمي بك «نادي بيروت» وهو ما يعرف اليوم باسم قصر الصنوبر. والرصيف يعرف اليوم باسم «الكورنيش» وهو على امتداد ساحل البحر غربي بيروت.
(٣) مجلة المشرق الصادرة ببيروت سنة ١٩٢١، المجلد ١٩، ص ٣٣٠.
(٤) المشرق ـ الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٨، المجلد ٢٦.
(٥) نشرت هذه المحاضرة «رابطة العمل الأرثوذكسي» سنة ١٩٦١م.
(٦) النهج القويم في التاريخ القديم، تأليف هارفي بورتر، أستاذ التاريخ في الكلية السورية الإنجيلية. طبع بيروت سنة ١٨٨٤، ص ٤١٧.

«دبرت رومية إيطالية بالحكمة لكي تتمكن من طاعتها، فمهدت الطرق وأقامت «المهاجر» في كل ناحية وسمتها كولـونيات (Colonies) وكانت رومية، كلما فتحت مدينة أو أكثر من مدن البلاد، تمنحهم (أي المهاجرين الرومان) بعض أراضيها وحقوق رومية المدنية، فيحسبون رومانيين ولو سكنوا غير رومية. وكان في إقامة «المَهَاجر» غايتان مهمتان: الأولى، حفظ البلاد، فلا تخرج على رومية، لأن الرومانيين الذين فيها كانوا أصحاب امتيازات، فرغّبوا الرعية في حفظ الطاعة، فكانوا إذا شغب السكان الأصليون، يبذلون جهدهم في تسكينهم، ويدافعون عن الثغور إذا هاجمها الأعداء. والثانية مساعدة فقراء رومية، لأنهم كانوا يُنقلون إلى تلك المهاجر فيأخذون كثيراً من الأملاك المصادرة من أهالي البلاد فلم يبق في رومية فقير، إلا من لم يرد أن يهاجر. . . وعظم شأن المَهَاجر وامتدت بامتداد سلطة رومية، وصارت سلطة ومنزلة المدن المهجرية بغية مدن الأمم لامتيازاتها وامتيازات أهلها الشريفة». ا. هـ.

ومن كلام بورتر يتضح أن إعطاء الرومان لمدينة بيروت التي كانت تحت حكمهم المباشر، لقب «المستعمرة الممتازة» إنما كان بسبب اختيارها لتكون من «مهاجر» أهل رومية، وهذا ما جعلها تتمتع بامتيازات خاصة وأتاح لأهلها الإفادة من إقامة طائفة من الجالية الرومانية في ربوعها، فازدهرت وكثر فيها البنيان وانتشر العمران وأصبحت هذه المدينة هدفاً لطلاب العلم وطالبي اللهو على حد سواء. وما تزال أقلام الكتّاب، وصفحات الكتب التاريخية، تتحدث حتى الآن عن مدرسة الحقوق «الرومانية» التي جعلت من مدينتنا إحدى منارات العلم والمعرفة والقانون وأعطتها في العصور الخالية ذلك اللقب الضخم «أم الشرائع».

هذا، وإن الحفريات المستمرة التي تجري في «بيروت القديمة» بين الحين والآخر، ما تزال تتكشف في أكثر من مكان عن بقايا الأعمدة الضخمة التي تخلفت في باطن الأرض من الحمامات والمسارح والقصور التي بنيت في هذه المدينة عندما كانت تحت حكم الرومان والبيزنطيين وغيرهم.

ومن خلال حديثنا عن الآثار الرومانية العديدة المنتشرة في أحشاء أرض بيروت، فإننا نلاحظ أن الحفريات التي توالت في هذه المدينة، لا سيما منذ أوائل القرن الحالي حتى اليوم، قد دلت على أن أباطرة رومية ونوابهم في الشرق، تركوا في بلادنا كثيراً من المؤسسات العامة التي كانت مراكز للحكم أو معاهد للعلم، وغيرها من النصب والتماثيل التي ترمز إلى أشخاصهم بالذات أو إلى المعتقدات الدينية التي كانوا يؤمنون بها.

وقد أشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» إلى غنى بيروت بالآثار الرومانية والبيزنطية وغيرها من مخلفات الأمم البائدة فقال(١):

«. . ومما يستدل به على كبر بيروت وسعتها ما يجده الناس في الحدائق بظاهرها من الرخام وآثار العمائر القديمة ما طوله قريب من ميلين، أوله مكان يسمّى بليْدة وذوقسية(٢)، غربي البلد إلى مكان يسمّى حقل القشا(٣)، مقارب النهر شرقي البلد، فلما عمروا السور اختصروه على القدر الذي هو عليه اليوم (أي حوالى سنة ٨٥٠ هـ/١٤٤٦ م).

وعندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو بيروت وهو في طريقه إلى مصر في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) أشار في كتابه «سفرنامه» إلى الآثار التي رآها في هذه المدينة فقال: «. . وغادرت طرابلس (الشام) وسرت على شاطىء البحر ناحية الجنوب. . ومن هناك بلغنا بيروت، فرأيت بها طاقاً (قوساً عالياً ضخماً) حجرياً، شُق الطرق في وسطه، وقد قدرت ارتفاعه بخمسين ذراعاً، وجانباه من الحجر الأبيض، تزن كل قطعة منه أكثر من الف منّ. ومن على جانبيه بناء من الطوب النَّيء ارتفاعه عشرون ذراعاً، وقد نصبت على قمته أعمدة من الرخام، طول كل منها ثمانية أذرع، وهي سميكة بحيث لا يستطيع رجلان أن يحيطاها بأذرعهما إلا بصعوبة. على رأس هذه العُمُد عقود على الجانبين، كلها من الحجر المنحوت الذي لا يفصله عن بعضه جصّ أو طين. وفي الوسط تماماً الطاق الكبير يعلوها بخمسين ذراعاً. وقد قست كل حجر منه فإذا به ثمانية أذرع طولاً وأربعة عرضاً. وأظن الحجر الواحد يزن سبعة آلاف منّ. وقد نقشت هذه الحجارة بدقة ومهارة بحيث يقل ما يشابهها مما ينقش على الخشب. ولم يبق هناك أبنية غير هذا الطاق(٤). وقد سألت أيّ مكان هذا؟ فقيل لي:

(١) تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، حققه ونشره الأب لويس شيخو وطبعته المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩٢٧ ط: ثانية. وصالح بن يحيى من أمراء غرب بيروت وربما كان قائداً بحرياً. شارك في غزو قبرس وله عناية بالتاريخ وله بالإضافة إلى كتابه عن بيروت كتاب عن «سيرة الإمام الأوزاعي» كانت وفاته سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م).
(٢) لا يعرف هذا المكان وموقعه اليوم، إلا أن الدكتور روفيه الذي اكتشف الآثار الواقعة على بعد ثلاثة أميال جنوبي بيروت رجح أن تكون هي المكان المقصود بهذا الاسم.
(٣) من رأي الأب لويس شيخو أن هذا المكان يقع شرقي بلدة بعبدات، على أن إشارة صالح بن يحيى تحملنا على الاعتقاد بأن الحقل المذكور يقع في الجهة الشرقية بالقرب من بيروت وليس كما قال شيخو.
(٤) لعل هذا الطاق الذي يصفه خسرو هو باب الدركة الذي كان يقع بالقرب من درج خان البيض عند رأس شارع المعرض اليوم.

سمعنا أنه باب حديقة فرعون وهو بالغ في القدم. والوادي المجاور لهذه الناحية مملوء بأعمدة الرخام»[١].

وللأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه «بيروت، تاريخها وآثارها» حديث مفصل عن وفرة الآثار القديمة في باطن أرض بيروت. فإن هذا المؤلف، بعد أن عدد المنشآت التي أقامها الرومان في هذه المدينة قال[٢]: «.. وقد بقي من تلك المباني العجيبة إلى يومنا آثار تنبىء بعظم شأنها، أخصها أعمدة وسوارٍ ضخمة ورؤوس أكلّة مثبتة في أنحاء المدينة أو غائصة في بعض سواحل البحر، وكثيراً ما يستخرجونها بالحفر عند فتح السكك (الحديدية) وكان عددها يبلغ الألوف في القرون السابقة كما يشهد على ذلك السياح في رِحَلِهم. ومما لا شك فيه أن بيروت كانت مزدانة في عهد الرومان بأروقة مشيدة على سوارٍ ضخمة كانت تمتد على طول المدينة وتبلغ إلى نهرها، فيتجول الناس في ظلها صيفاً وشتاءً ومنها الآثار السابق ذكرها.. ومعظم تلك الآثار، لا سيما الأعمدة التي كانوا يزينون بها الهياكل والنوادي العمومية كانت من الحجر المحبَّب المعروف بالغرانيت، كانوا يجلبونه من مصر بعناء كبير وبعضها من الرخام الوطني الذي ترى إلى يومنا مقالعه في الجبل».

وإذا كانت هذه الآثار القديمة منثورة في مساحات واسعة من أرض بيروت القديمة، فإنه من الطبيعي أن تكون الأرض التي يقوم عليها الجامع العمري الكبير تحتوي أيضاً على جزء من هذه الآثار، وهذا ما أكدته المجلة البطريركية (المجلة السورية سابقاً) عندما أوردت الخبر التالي الذي جاء فيه قولها[٣]: «نمي إلى مصلحة الآثار في المفوضية العليا (الفرنسية) أن آثاراً قديمة العهد ظهرت في صدر الجامع العمري الكبير في بيروت بين عمودين خشبيين يرجع عهد ارتكازهما في ذلك المكان إلى الأدوار البائدة قبل الفتح العثماني. وإن العَمَلة الذين يرممون الجامع يكادون يطمسون هذه الآثار ويأتون على معالمها التاريخية النفيسة. وقد أبلغت المفوضية العليا الشيخ محمد الكستي قاضي القضاة والشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت بما وصل إليها ودعتهما مع مدير الأوقاف العام والمراقب العام إلى عقد اجتماع بدائرة المسيو جيناردي مستشار الأوقاف العام للنظر في المسائل التي تحفظ هذه الآثار الكتابية ونصوصها من التلاشي. وفي صباح اليوم التالي حضر هؤلاء السادة إلى مكتب المسيو جيناردي بالمفوضية العليا فشكلوا لجنة منهم برئاسته. وبعد أن تداولوا قليلاً حول هذا الأمر توجهوا إلى الجامع العمري الكبير حيث قرروا إزاحة العمودين الخشبيين اللذين يحجبان الآثار عن موضعيهما، والعناية بها بشكل يبقيها أبد الدهر على ممر القرون» ا.هـ.

* * *

على أننا، لسنا الآن بصدد الإفاضة بالحديث عن الآثار التي تركتها الأمم الغابرة في ثرى بيروت، ذلك أن الذي يعنينا من هذه الآثار، هو الجانب المتصل منها بالمكان الذي يقوم عليه الجامع العمري الكبير نفسه، لأن غرضنا الأساسي هو تحقيق الأصول التاريخية للبناء الذي يرتفع عليه هذا الجامع، وتحديد هوية هذا البناء والزمن الذي أنشىء فيه لأول مرة. لذلك نبادر إلى القول، أو بالأصح إلى الترجيح، بأن أصول هذا البناء تبدو لنا غير بعيدة عن ملامح العمائر الرومانية التي بنيت في بيروت يوم كانت هذه المدينة تشكل إحدى المقاطعات الساحلية بولاية سورية التي كانت معقودة اللواء لنواب الأباطرة الرومانيين، وعلى وجه التحديد، في أيام شقيق الإمبراطور فيليب الحوراني (العربي)[٤] الذي كان له الصولجان والسيادة على سائر الممالك الرومانية في العقد الخامس من القرن الثالث الميلادي (٢٤٤ ـ ٢٤٩).

وتحدثنا المجلة الإفريقية (La Revue Africaine) في

(١) كتاب سفرنامه ـ رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ـ نقله إلى العربية الدكتور يحيى الخشاب، نشره دار الكتاب الجديد ببيروت لصاحبه الدكتور صلاح الدين المنجد سنة ١٩٧٠م. ص٤٩.

وناصر خسرو اسمه وكنيته أبو معين الدين ولد بمدينة قباديان من بلاد العجم حوالى سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) من أسرة متوسطة، كان أول أمره من أهل السنة والجماعة فلما حل بمصر انتقل إلى المذهب الإسماعيلي وأصبح من دعاة الخليفة العبيدي المستنصر الذي حكم في سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٧م). وما يزال في أيدي الإسماعيليين النزاريين في شوغان (بفارس) كتب لناصر خسرو منها الصحيفة وامرأة المحققين، والنزاريون ما زالوا حتى اليوم يزورون ضريحه في شوغان للتبرك به.

(٢) ألّف شيخو هذا الكتاب بطلب من عزمي بك والي بيروت الذي عرض عليه أن يصنف كتاباً مختصراً عن تاريخ بيروت وآثارها القديمة وسمح له بمراجعة المكتبة الشرقية (باليسوعية) التي كانت مقفلة أثناء الحرب بأمر من السلطات العثمانية. وتأخر ظهور هذا الكتاب إلى حين طبعه سنة ١٩٢٥ م. (راجع ص ٣ ـ المقدمة ـ).

(٣) المجلة البطريركية ـ الجزء ٦ من السنة ٥ تاريخ ١٥ حزيران سنة ١٩٣٠ م.

(٤) الاسم الحقيقي لهذا الإمبراطور هو «ماركوس يوليوس Marcus Julus» أما «فيليب الحوراني» فهو الاسم الذي أطلقه عليه أهل رومية بعد أن أصبح إمبراطوراً عليهم، ومعنى فيليب «محب الخيل» وليس ذلك غريباً، فحب الخيل عند العرب من التقاليد التي اشتهروا بها منذ القدم وهم ما زالوا يحرصون عليها حتى اليوم. ولد هذا الأمبراطور من أبوين عربيين بقرية شهبا في حوران التي هي من أعمال الجمهورية العربية السورية اليوم، ثم غادرها مهاجراً إلى رومية حيث التحق بالجيش.

الصفحة ٢٨٣: «أن فيليب الحوراني (العربي) التفت إلى بلده الأصلي بالعناية الفائقة وزيّن مدائنه بالمعابد والمسارح والساحات الواسعة والتماثيل».

وإن سميرنوف (Smirnov) الذي كتب هذا الكلام في المجلة المذكورة يؤكد أن فيليب هو الذي رفع مدينة دمشق إلى رتبة «المستعمرات الرومانية»، وأن هذا الإمبراطور كان أحد الذين ساهموا ببناء معبد جوبيتر بدمشق الذي أصبح في أيام الروم البيزنطيين كنيسة على اسم مار يوحنا ثم حوّله المسلمون في أيام الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي إلى مسجد اشتهر فيما بعد باسم: مسجد بني أمية.

إن الرأي الجريء الذي أبداه سميرنوف بالمجلة الإفريقية فيما يتصل بأصل الجامع الأموي بدمشق، من شأنه أن يوقفنا للتأمل والتفكير خلال بحثنا عن أصل البناء الذي يقوم عليه الجامع العمري الكبير في بيروت. ولا بدع، فنحن رأينا كيف أن إمبراطور رومية، العربي الأصل، كان شديد الاهتمام بالبلاد التي أبصرت فيها عيناه النور لأول مرة، لهذا حق لنا أن نتساءل: لماذا لا يكون لبيروت نصيب من اهتمام الإمبراطور مثل الذي كان لدمشق، مع العلم بأن بيروت كانت في أيامه على جانب عظيم من الجاذبية والإغراء بالنسبة لأباطرة الرومان والولاة الذين أرسلوهم إلى هذه المنطقة من أملاكهم الواسعة. وهؤلاء الأباطرة هم الذين أهّلوا هذه المدينة لتكون أحد المَهَاجر التي خصصوها لمن ضاقت بهم أرجاء رومية عن مطامحهم ومطامعهم المادية، ومع العلم أيضاً بأن بيروت سبقت زميلتها دمشق بحمل لقب «المستعمرة الرومانية الممتازة» الذي منح لها سنة ١٦ قبل الميلاد من قبل الإمبراطور أغسطس قيصر.

وإن ما يحملنا على الظن من أن الجامع الحالي يقوم على أصول رومانية هو ما جاء في كتاب «تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار» للأب لامنس (Henry Lammens) الذي يقول: «ومما ازدانت به المدينة من البنايات على شبه رومية ساحة كبرى (Forum) يجتمع فيها الجمهور وملعب للملاهي العمومية، ولعلها أيضاً خصّت بهيكل كهيكل المشتري في رومية (Capitole) والمشتري هو نفس جوبيتر الذي كان الرومان يعتبرونه إلٰههم الأكبر»[١].

وإن هذا الظن يكاد يرقى في ذهننا إلى درجة اليقين الثابت عندما نطالع في المراجع التي لدينا من كتب التاريخ ما يشير إلى أن الجامع العمري الكبير في بيروت يقوم على أنقاض هيكل ديني روماني، قبل أن يمر بالمراحل المختلفة التي انتهت به إلى الوضع الراهن[٢].

* * *

إننا حين نحاول إرجاع الأطلال التي تحت الجامع العمري الكبير في بيروت إلى أيام الرومان، وإلى عهد الإمبراطور فيليب الحوراني (العربي) بالذات، فإننا نفعل ذلك على سبيل ترجيح وليس على سبيل الجزم والتأكيد. وهذا أمر طبيعي، ذلك أن هذه الأطلال، في حالتها الراهنة، لا تحمل في الواقع أي أثر يدلّ بصورة واضحة على انتمائها إلى الإمبراطور المذكور، بالإضافة إلى أن الأعمدة والأنقاض الحجرية التي تتألف منها هذه الأطلال واستعملت في بناء الكنيسة الصليبية ليس فيها أي نص كتابي يشير إلى هويتها وزمن بنائها. وإنما نحن اعتمدنا، كما قلنا من قبل، على ملامحها المعمارية وهي ملامح تبدو، في شكلها وطراز زخارفها الباقية، رومانية أو بيزنطية.

وبالفعل، فإن الأطلال التي تحت الجامع الحالي قد ظهرت بشكل واضح وبكامل هندستها القديمة، تقريباً، وذلك عندما كانت دائرة الأوقاف الإسلامية في بيروت تقوم ببعض الإصلاحات والترميمات في الجامع بمناسبة إعداده لاستقبال الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود (ملك المملكة العربية السعودية فيما بعد) لكي يؤدي فيه صلاة الجمعة أثناء وجوده ببيروت سنة ١٩٥٣ م تلبية للزيارة الرسمية التي وجهت إليه من قبل الحكومة اللبنانية.

ولقد شاع في ذلك الحين أن هذه الأطلال أقامها الصليبيون عند بناء كنيستهم لحفظ قبور بعض أعيانهم ورجال الدين منهم. بيد أن التحريات، على الطبيعة، والتحقيقات العلمية التي أجرتها يومذاك الدوائر الأثرية المختصة أثبتت بأن ما شاع في هذا الصدد لم يكن له ظل من الحقيقة ولم يعثر تحت الجامع على أي أثر له علاقة من قريب أو بعيد بالصليبيين وقبورهم، سواء لرجال الدين أو لغيرهم من القواد والأعيان.

هل تكون هذه الأطلال بقايا هيكل جوبيتر نفسه

وإذا نحن اعتمدنا نهائياً على ترجيح القول بأن الأطلال الموجودة تحت الجامع العمري الكبير هي بالفعل، بقايا هيكل روماني، فليس هناك ما يمنعنا من الاستنتاج بأن هذا الهيكل كان من بناء فيليب الحوراني نفسه، أو على الأقل، أن هذا

(١) تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، للأب هنري لامنس اليسوعي طبع بالمطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٠٣، الجزء الأول، ص ٢٦.

(١) الشيخ محيي الدين الخياط في كتابه المخطوط وعنوانه: «جوامع بيروت» قال إنه بني علي أصل معبد فينيقي.

الإمبراطور كان أحد الأباطرة الرومان الذين ساهموا بإقامة هذا الهيكل مثلما فعل بالنسبة إلى هيكل جوبيتر الدمشقي الذي تعاورته الأيدي بالبناء خلال أجيال متعاقبة من سنوات الحكم الروماني في البلاد السورية.

ودليلنا على هذا الاستنتاج أن الأب هنري لامنس يقول في معرض حديثه عن الآثار الرومانية التي يتوالى اكتشافها في لبنان، أنه لما دانت هذه البلاد لحكم الرومانيين في السنوات التي سبقت ميلاد المسيح، تعهد هؤلاء للسكان المحليين باحترام شعائرهم الدينية وتقاليدهم المحلية وعدم إكراههم على إلغاء لغتهم أو تغيير معتقداتهم وعاداتهم[١].

ومن المعروف أن الفينيقيين السكان القدماء في هذه البلاد كانوا يرون في كوكب الشمس أنه واهب الحياة للكون وأنه الإلّه الأكبر الذي خلق الكون وما فيه من حيوان ونبات وجماد. وجدير بالذكر أن الرومان لم يكتفوا بأن احترموا عقيدة محكوميهم الدينية بل إنهم ما لبثوا أن انتحلوا هم أنفسهم هذه العقيدة واتخذوا من الشمس إلّهاً لهم وأقاموا لها الهياكل والمعابد في أنحاء مختلفة من البلاد السورية وكذلك في رومية نفسها.

ولسنا في قولنا هذا نرجم بالغيب ولا نجنح بالخيال إلى المبالغة في الاستنتاج فلقد سبقنا إلى مثل هذا الرأي الأب شيخو في كتابه «بيروت: تاريخها وآثارها» حيث يقول[٢]: «ولما رسخ قدم الرومان في سواحل فينيقية ورأوا فيها معبودات الفينقيين لم يشاءوا أن يعترضوهم في عبادتهم وإنما ذهبوا إلى أنها هي هي معبودات الرومان، ولنا على ذلك دليل محسوس في هيكل دير القلعة الذي كان مزاراً لأهل بيروت ولحجّهم الرسمي، ففيه كان للفينيقيين معبد كبير تُرى آثاره باقية حتى اليوم، وهناك عبدوا البعل المسمى: بعل مرقد، اشتقاقاً من لفظة فينيقية معناها الرقص واللهو، كأنهم كانوا هناك يجتمعون ليستسلموا إلى الملاهي والقصف، فلما استولى الرومان على بر الشام اعتبروا هذا المعبود كإلهم الأكبر وهو جوبيتر أي المشتري، والدليل عليه كتابات شتى ذكر فيها المشتري بعل مرقد كأن الاسمين لمسمىً واحد..».

وكلمة جوبيتر التي أُطلقت على الهياكل المشتركة بين الفينيقيين وبين الرومانيين تؤيدنا فيما نذهب إليه، إذ هي مركبة من كلمتين: جو ومعناها الإلّه وبيتر ومعناها الأب، والإلّه الأب، أو الإلاهة كان في عرف هؤلاء وأولئك هو الشمس ذاتها. ولهذا الكوكب العظيم الرائع الساطع كان أبناء سورية الأقدمون يتجهون في أداء مناسكهم الدينية عند الشروق، وأثناء النهار وعند الغروب.. ومثل أبناء سورية، كان يفعل مواطنهم ابن حوران، فيليب العربي إمبراطور رومية آنذاك.

وحين نلقي نظرة فاحصة على واقع بناء الجامع في شكله الحالي، فإننا نجده باقياً حتى اليوم على نحو ما كان عليه بالأمس البعيد سواء في أروقته أو قبته. نجده متجهاً نحو الشرق، أي نحو مطلع الشمس التي كانت معبودة الأقوام الغابرين. ومن الطريف أن النصارى في الشرق حافظوا دائماً على بناء كنائسهم وبيعهم في الاتجاه نحو مطلع الشمس، حتى إن الناس ظلوا، حتى عهد قريب، يستدلون على جهة الشرق في الليل أو النهار الغائم من أبنية هذه الكنائس والبيع التي يصادفونها في بلادهم.

لذلك فإننا نبادر إلى القول بأننا رجحنا وجود هيكل جوبيتر تحت البناء الحالي للجامع العمري الكبير في بيروت، وذلك لما تواتر عندنا من القرائن التاريخية، بالرغم من أنه لم يعثر، حتى الآن، على أي أثر كتابي يشير إلى اسم هذا الهيكل. على أنه وفقاً لما أكده غير واحد من المؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ بيروت في أيام الرومان من أن البناء الذي يقوم عليه الجامع المذكور يرجع زمن إنشائه إلى ما قبل الفتح العربي لهذه البلاد. وفوق كل ذي علم عليم.

هل حُول هيكل جوبيتر إلى مؤسسة حكومية

من المعروف أن المنشآت العامة، سواءٌ أكانت مدنيّة أو دينية، لا تحتفظ بالغاية التي أُنشئت من أجلها، في غالب الأحيان، على مرّ السنين واختلاف الدول والعهود. بل إن هذه المنشآت كثيراً ما كانت تستعمل لأغراض مختلفة وذلك تبعاً لرغبة الحكم السائد أو الحاكم المتغلّب. وفي أيامنا، كثيراً ما نرى القصور الملكية تتحول بعد زوال سلطان أصحابها إلى مؤسسات حكومية تستعملها الدولة في أغراضها الرسمية، من مدنيّة أو إدارية أو عسكرية، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعد وتحصى. وعلى هذا، فإنه ليس من المستبعد أن يكون هيكل جوبيتر الذي شاده أو ساهم في تشييده الإمبراطور فيليب الحوراني، قد حُوّل بعد موت هذا الإمبراطور وانقراض دولته إلى غرض آخر لا يمتّ إلى الدين أو العبادة بأي صلة من قريب أو بعيد، لا سيما أن التغييرات السياسية التي شهدتها رومية عن طريق الغلبة والقهر والانقلابات المتعاقبة، لا يمكن أن تمرّ على هذا الهيكل دون أن تترك فيه ما يعبّر عن تأثر مصيره بأغراض الحكم القائم ونزوات صاحبه الخاصة، لذلك كان من الطبيعي أن يتحول الهيكل المذكور، في ظرف من الظروف، إلى مؤسسة

(١) تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من الآثار، ج ١، ص ٢٢.
(٢) بيروت: تاريخها وآثارها، ص ٢٤.

حكومية، بعد أن كان في الأصل معبداً د ينيًّا.

ومما يجعلنا نميل إلى مثل هذا الاستنتاج حاشية أضافها إبراهيم نعوم كنعان في كتابه «بيروت في التاريخ» تعليقاً على ما كتبه داود كنعان تحت عنوان: جواهر ياقوت في تاريخ بيروت، وقد نقلنا هذه الحاشية في الصفحات السابقة وفيما يلي نصها: «.. وقد نزع الأتراك سنة ١٩١٧ عن مدخل الرواق، المتصل بالطابق الأرضي من الجامع المذكور (أي العمري الكبير) وإزاء بابه الغربي في منتصف الطريق العام، حجراً منقوش به تفسير الكتابة التالية: مقام المجلس العسكري».

كما نقلنا أيضاً قول إبراهيم كنعان «المجلس العسكري الروماني الذي بنى فوقه الصليبيون كنيسة مار يوحنا، والمعروفة الآن بالجامع العمري الكبير، حيث كشفت أعمال الترميم سنة ١٩٥٥ م عن بناء أرضي قديم، تركه الصليبيون على حاله وشادوا فوقه الكنيسة».

المؤسسات بجوار الجامع

إن ما ذكره لامنس وشيخو وكنعان وغيرهم عن وجود كتابات «رسمية» على بقايا الأنقاض التي عثر عليها في الأراضي التي يقوم عليها الجامع أو القريبة منه، يدل دلالة واضحة على أن هذه المنطقة من بيروت القديمة، شهدت في العصرين الروماني والبيزنطي عدة أبنية كبيرة أنشئت لتكون مؤسسات حكومية أو منازل لكبار الموظفين والقواد العسكريين خلال هذين العصرين. ويؤيد هذا الرأي الأب لويس شيخو الذي نشر بمجلة المشرق كلاماً بهذا المعنى، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك من قبل.

هذا، وما تزال المنطقة التي يقع فيها بناء الجامع العمري الكبير، حتى اليوم، تلفظ أنقاض الآثار الرومانية والبيزنطية كلما ضُرب في أحشائها معول لبناء عمارة جديدة أو شق طريق جديد. وآخر ما ظهر من هذه الأنقاض في المدة الأخيرة عمودان وجدا حيث كانت تقوم بركة السوق التي شيدت فوقها قاعدة الساعة التي كانت تجاه مبنى مجلس النواب اللبناني[١].

ومن الأنقاض التي ظهرت مؤخراً الأعمدة الأربعة التي ما تزال موجودة بالجهة الغربية من درج خان البيض تجاه بنايات اللعازارية. وهي الأعمدة التي حسبها بعضهم من بقايا مدرسة الحقوق الرومانية التي تهدمت حينما زلزلت الأرض في بيروت خلال النصف الثاني من القرن السادس للميلاد[٢].

هل بنى العرب الفاتحون مسجداً لهم في مكان هيكل جوبيتر؟

إن بعض النصوص التاريخية المتأخرة، تشير أحياناً إلى أن المسلمين عندما استقروا في بيروت بعد الفتوح الأولى، بنوا لأنفسهم مسجداً صغيراً على الأرض التي يقوم عليها الجامع الحالي، بل إن بعض هذه النصوص يؤكد بأن الجامع نفسه يرجع أساسه إلى ذلك العهد البعيد، فلما احتل الصليبيون المدينة بعد ذلك بعدة قرون بادروا إلى تحويل هذا الجامع الإسلامي إلى كنيسة نصرانية. ومن الذين قالوا هذا الكلام الشيخ محيي الدين الخياط رحمه اللّه[٣] وذلك في كراسة مخطوطة له جاء فيها: «وهو ـ أي الجامع العمري الكبير ـ أقدم جوامع البلدة (بيروت) ومن الذائع على الألسنة، والمعروف عند المؤرخين أنه من آثار الفتح الإسلامي وأوائل أيام عمر بن الخطاب، الخليفة الثاني..».

وقد ذهب الشيخ عبد الباسط الأنسي، صاحب جريدة الإقبال (البيروتية) إلى مثل ما ذهب إليه مواطنه الشيخ محيي الدين الخياط، فقال في جريدته المذكورة[٤]: «الجامع العمري الكبير، هو أقدم جوامع البلدة لأنه من آثار الفتح الإسلامي السوري في أوائل القرن الأول للهجرة، أيام استولى المسلمون على السواحل سنة ١٦ للهجرة».

(١) بركة السوق هي إحدى البرك التي كانت تتجمع فيها مياه الكراوية الآتية من رأس النبع، إلى الجنوب الشرقي من بيروت، وكان البيروتيون يستقون منها ويستعملونها في منافعهم العامة. والساعة التي اقيمت بمكان هذه البركة أهداها للمدينة ميشال العبد أحد المغتربين اللبنانيين في أميركا. وقد نقلت هذه الساعة في السنوات الأخيرة إلى حيث توجد الآن في محطة السكة الحديد بالقرب من نهر بيروت.

(٢) هذه الأعمدة الأربعة، ليس لها أي علاقة بمدرسة الحقوق الرومانية التي كان مقرها تحت أروقة المعابد والهياكل الدينية، وليس في مؤسسة خاصة بها لوحدها. ذلك أن التعليم في العهود السحيقة كان يجري في الأروقة المذكورة، وظل الأمر كذلك حتى عهد غير بعيد من أيامنا إذ كانت المساجد والكنائس والزوايا والأديرة هي المكان الذي يقصده طلاب العلم قبل أن تنشأ المدارس والمعاهد والجامعات على النحو المعروف في العصر الحديث.
وأغلب الظن أن أعمدة درج خان البيض كانت في الأساس جزءاً من الرواق المسقوف الذي بني في العهود السحيقة حول مدينة بيروت لكي يستخدمه البيروتيون في نزهاتهم وباصطلاح اليوم «كورنيش» كهذا الذي يزنّر بيروت في أيامنا الحاضرة والفرق بين الاثنين أن الكورنيش القديم كان مسقوفاً والكورنيش الحالي مكشوف. ودرج خان البيض كان يسمى حتى عهد قريب، درج الأربعين أو رجال الأربعين.
(٣) جوامع بيروت، بقلم الشيخ محيي الدين الخياط ـ مخطوط ـ
(٤) جريدة «الإقبال» العدد ٢٥٧ تاريخ ٢٨ جمادى الأخرة ١٣٢٦ (٢٧ تموز سنة ١٩١٨) ص ٤.

وبالرغم من أن كلام الشيخين، الخياط والأنسي، إنما هو ترديد لما كان شائعاً في أيامهما على ألسنة الناس من أخبار الجامع المذكور، فإننا نجد في هذا الكلام ما يوحي بالاعتقاد أن العرب عندما افتتحوا بيروت سنة ١٦ هـ بادروا إلى تأمين مسجد لهم في هذه المدينة لكي يؤدوا فيه شعائرهم الدينية اليومية، فاختاروا لهذا المسجد المكان الذي كانت تقوم فيه أطلال معبد قديم، جرياً على عادة الناس في استعمال المنشآت العامة التي كانت قد أقامتها تلك الأمم من قبلهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مكان آخر.

أما عن نسبة هذا الجامع إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإننا لا نستطيع إلا إبداء تحفظنا بهذا الصدد، لأنه من الثابت أن هذا الخليفة لم يزر بيروت وإن تسمية هذا الجامع بالعمري حديثة العهد، وهي ترجع إلى أسباب أخرى لا علاقة لها بزمن إنشائه.

على أنه مما لا شك فيه أن البناء الحالي للجامع لا يرقى إلى أبعد من الزمن الذي أنشأه فيه الصليبيون ليكون كنيسة على اسم مار يوحنا، ونحن، كنا بيّنّا من قبل، أن هؤلاء الصليبيين قد شادوا هذه الكنيسة على أنقاض معبد روماني، وهو ما قد يكون العرب سبقوهم إليه عند ما شادوا مسجدهم الذي نرجح بأن الصليبيين قد ازالوه عند احتلالهم لبيروت.

ولما كانت سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) تأذن الله جلت قدرته بأن تعود بيروت إلى دار الإسلام من جديد حين استخلصها الملك الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون من الصليبيين وما أن استقرت جيوش المماليك في هذه البلدة حتى بادر السلطان الملك الأشرف إلى إصدار امره بتحويل الكنيسة فوراً إلى مسجد جامع وأطلقوا عليه اسم «جامع فتوح الإسلام» أي انتصار الإسلام، وإلى هذه الحادثة أشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» حيث قال[1]: «فبيروت لما كان الفرنج بها كان بها جماعة من المسلمين فلما قدّر الله بنزع الفرنج منها استقرت كنيستهم جامعاً وكانت تعرف عندهم بكنيسة ماريحنّا. وكان بها صور فطلاها، طرشوا عليها المسلمون بالطين، وبقي إلى أيام الجدّ - أي جد صالح المذكور - فبيضها وأزال الوضر من آثار تلك الصور، وكانوا (أي المسلمون) يجتمعون لصلاة الجمعة، فلم يكملوا أربعين فيصلي بهم الخطيب ظهراً في بعض الأوقات وفي بعضها يكملون بمن حضر من الضواحي فيصلي بهم جمعة، ثم تكاثرت المسلمون بها، جعلها الله دار إسلام وإيمان إلى يوم الدين». ا. هـ.

وصف الجامع

في سنة ٩٠٥ هـ (١٤٤٩ م) تعين ناصر الدين محمد بن الحنش حاكماً على بيروت أيام السلطان قانصوه الغوري المملوكي، وفي أيام ابن الحنش بنيت في الجامع المئذنة الحالية كما تشير النقيشة الموجودة فوق مدخلها.

وفي أيام أحمد باشا الجزار والي عكا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أُلحقت بالجامع بعض الزيادات من الجهة الشمالية المؤدية إلى الصحن وفتحت فيه بعض الأبواب بهذه الجهة. كما بني في الصحن حوض ماء للوضوء، وفوق الحوض قبة تحتها نقيشة كتبت فيها أبيات من الشعر تشير إلى تاريخ البناء من نظم الشاعر الطرابلسي عبد اللطيف فتح الله الملقب بالمفتي. الذي كان مفتي بيروت في ذلك الحين.

وعلى العمودين اللذين عند المدخل الغربي للجامع كتابة مملوكية. وكذلك توجد كتابه مماثلة على نقيشة مثبتة فوق بابه المفتوح في الجهة الشرقية منه.

وفي داخل الجامع، مقام باسم النبي يحيى، وتقول التقاليد الشعبية إن كف يوحنا المعمدان مدفونة في هذا المقام الذي هو عبارة عن قفص حديدي على أعلاه كتبت بعض الآيات القرآنية وكتابة تشير إلى أن هذا القفص هو هدية من السلطان عبد الحميد الثاني (العثماني).

تعاقبت على الجامع أسماء اشتهر بها عند الناس في أزمنة مختلفة، ففي العهد المملوكي كان اسمه «جامع فتوح الإسلام» أي انتصار الإسلام وذلك عندما أخرج المماليك الصليبيين من البلاد. وفي العهد العثماني كان اسمه «جامع النبي يحيى»، أو «جامع سيدنا يحيى» وذلك لأحد احتمالين: الأول، تكرار الاسم الذي كان يطلق عليه عندما كان كاتدرائية صليبية. والثاني، توهم وجود جزء من رفات النبي يحيى فيه.

وهو يسمى اليوم «الجامع العمري الكبير». وقد جرت العادة على إطلاق صفة العمري على كل جامع قديم لتوهم الناس أنه بني في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وفي الجهة الشرقية من الجامع غطاء ناووس قديم، جعله المسلمون محراباً، عليه كتابة يونانية قديمة معناها «صوت الرب عند خرير المياه».

خلاصة القول فيما تقدم

وخلاصة لما تقدم، فإننا ننتهي إلى القول، على سبيل الترجيح وليس على سبيل الجزم والتأكيد، بأن الأقبية التي تقع اليوم في أساسات الجامع العمري الكبير في بيروت، موغلة في

(١) تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ص٣٩.

القدم، وهي، كما قلنا في السابق، ترجع إلى العقد الخامس من القرن الثالث للميلاد عندما أقامها فيليب الحوراني (العربي) إمبراطور رومية لتكون هيكلاً على اسم «جوبيتر» وأن هذا الهيكل فَقَدَ صفته الدينية بعد موت الإمبراطور المذكور وأصبح مقراً للقضاء العسكري الروماني (المحكمة العسكرية).

ثم إن البيزنطيين عندما احتلوا بيروت بعد الرومان، جعلوا الهيكل مؤسسة حكومية من جملة المنشآت العامة في زمانهم، فلما تعرضت بيروت للزلازل، تقوض بناء هذا الهيكل كما حدث لجميع الأبنية التي كانت في بيروت القديمة. ولما دخل العرب المسلمون إلى بيروت كان الهيكل وما حوله أشلاء من الحجارة الغائصة في أعماق الأرض.

وأغلب الظن أن هذه الأنقاض والخرائب، ومن بينها هيكل جوبيتر نفسه، بقيت حيث ألقتها الزلازل، ثم غابت عن الأنظار تحت طبقات الأبنية العادية التي رفعت فوقها فيما بعد مع مرور الزمن، فلما حلّ الصليبيون في هذا البلد، اختاروا البقعة التي كانت فيها أطلال الهيكل المذكور لبناء كنيسة مار يوحنا التي اضطروا لاستعمالها حصناً عسكرياً عندما حاصرهم المماليك، فلما أدال الله لهؤلاء من أولئك ودخلت المدينة في حوزة المسلمين من جديد، لم يجدهؤلاء مكاناً يقيمون فيه صلاتهم فصادروا الكنيسة وجعلوها مسجداً لهم باسم «جامع فتوح الإسلام» وهو ما يزال عامراً بالصلاة حتى اليوم باسم «الجامع العمري الكبير».

وفي سنتي ١٩٤٩ و١٩٥٢ م قامت مديرية الأوقاف والمديرية العامة للآثار بإجراء بعض الترميمات فيه بإشراف المهندس فوزي عيتاني. وهو يعتبر من الأبنية الأثرية بموجب مرسوم جمهوري صادر في ١٦ حزيران ١٩٣٦م، وفي الجهة الغربية، بالقرب من بابه الكبير، نقيشة رخامية مثبتة على الحائط تدل على اسم الجامع واسم خطيبه في أيام المماليك عند بدء عهدهم في هذه البلاد. وفي الجهة الجنوبية الغربية منه غرفة معروفة باسم «حجرة الأثر الشريف» لأن فيها ثلاث شعرات منسوبة إلى النبي محمد صلّى اللّه عليه وسلم أهديت لمدينة بيروت في أيام السلطان عبد المجيد الأول العثماني في أواسط القرن الماضي، وقد سرقت هذه الشعرات أثناء الأحداث التي عمت البلاد خلال الحرب الأهلية سنة ١٩٧٥ وما بعدها.

في بعض جدران الجامع نقائش بيزنطية وأخرى عربية. وكان فيه مكتبة باسم «المكتبة العمرية» وهذه المكتبة لم تعد موجودة.

وحوالى منتصف هذا القرن بني المدخل الرئيس لهذا الجامع بالجهة الغربية منه على الطراز العربي وزين بنقوش مرسومة بيد الفنان البيروتي علي العريس.

في أثناء اضطراب الأمن في بيروت، تعرض الجامع للسرقة وأصيب بأضرار كبيرة، وحطّم الغوغاء أسماء الصحابة التي كانت في نقائشه الأثرية، وتعطلت فيه الصلاة.

جامع شمس الدين

ومن المساجد التي كانت موجودة في أيام المماليك «جامع شمس الدين» الذي كان قائماً في سوق البازركان (شارع الدركة اليوم) وهذا المسجد لم يعد موجوداً في أيامنا، فقد هدمته مديرية الأوقاف الإسلامية في بيروت سنة ١٣٦٩ هـ (١٩٤٩ م) ورفعت مكانه بناية تجارية، ولم يبق من آثاره الدالة عليه سوى نقيشة مثبتة فوق مدخل البناية وعليها الكتابة التالية:

«مديرية الأوقاف الإسلامية العامة».

«بناية وقف جامع شمس الدين».

ولسنا نعرف شيئاً موثوقاً منه عن «شمس الدين» المذكور، إلا أن الشيخ محيي الدين الخياط كتب في كراسته التي عنوانها «جوامع بيروت» يقول: «.. إن الأمير محمد شمس الدين الخطاب المنسوب إليه هذا الجامع مدفون في الجهة الشرقية من باب الجامع، وهو من جملة الذين قتلوا في الحروب الصليبية وقد كتب بالقرب من الضريح، هذان البيتان:

لشمس الدين مولانا محمد — كرامات له بالفضل تشهد
أمير مات في الدنيا شهيداً — وفي هذا الضريح لقد توسد

ولم يزد الخياط على هذا الكلام شيئاً آخر.

جامع الأمير منصور عساف

وكان قديماً يسمى «جامع السرايا» و«جامع دار الولاية» لأنه بني بالقرب من مقر الحاكم الأمير منصور عساف التركماني الذي كان والياً على بيروت وكسروان في أوائل العهد العثماني (القرن السابع عشر الميلادي) وفي أيامنا أُطلق عليه اسم الأمير المذكور.

كان في مكانه «كنيسة المخلص» للرهبان الفرنسيسكان. فلما تهدمت بسبب التقادم والإهمال باع الرهبان حجارتها لبني الحمرا الذين بنوا بهذه الحجارة زاويتهم المعروفة بجامع الحمرا في شارع الحمرا ببيروت. وقد حمل هذا الشارع اسمه الحالي نسبة إلى هذه العشيرة.

حدثت فيه ترميمات سنة ١٩٤٦ و١٩٤٧ و١٩٥٠ م. وأثناء هذه الترميمات أُزيلت الغرف التي كانت ملحقة به وكذلك أزيل

منه قبر يعتقد بأنه ضريح الأمير منصور عساف نفسه.

وفي سنة ١٩٣٦ م صدر مرسوم جمهوري باعتبار هذا الجامع من الأبنية الأثرية. وهُو اليوم (١٩٩٢) متهدم بسبب الحرب الأهلية بين الأحزاب اللبنانية المسلحة.

جامع الأمير منذر

ويسمى أيضاً «جامع النوفرة» لأنه كان فيه بركة تتوسطها نافورة يندفع منها الماء إلى البركة التي كانت تستعمل للوضوء.

بناه الأمير منذر بن سليمان التنوخي، حاكم بيروت سنة ١٦٣٣ أيام فخر الدين المعني الثاني.

دفن في جهته الشرقية الشمالية الأميران ملحم ومنصور من العائلة الشهابية وكانا حاكمين على بيروت في بعض سنوات القرن الثامن عشر الميلادي. وفوق قبريهما غرف استعملت في أواسط القرن الماضي مدرسة لتعليم أبناء المسلمين، وكانت هذه المدرسة هي الأولى من نوعها عند مسلمي بيروت.

مساجد أخرى

وفي كتابنا «تاريخ المساجد والجوامع الشريفة في بيروت» أتينا على ذكر المساجد والزوايا التي بنيت في بيروت أيام المماليك وقلنا إنها سبعة مساجد وهي التالية:

١ ـ جامع الدباغة، بني حوالى سنة ٧٤٣ هـ (١٣٤٣ م) وقد هدمته بلدية بيروت عند تخطيط الشوارع في محلة المرفأ، وأعطت الأوقاف الإسلامية قطعة الأرض التي يقوم عليها اليوم جامع الصديق.

٢ ـ مسجد البدوي، وهو يحمل اسم السيد أحمد البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٦ م) مؤسس الطريقة البدوية، نسبة إليه. ويرجع تاريخ بناء هذا المسجد إلى سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٣م) وقد أُزيل عند تخطيط محلة المرفأ التي كان يقع فيها، وكانت عليه نقيشة رقم عليها أن الذي بناه هو الأمير عز الدين بن ازدم ابن عبدالله الخوارزمي الناصري والي بيروت آنذاك، كما تشير إلى ذلك النقيشة التي كانت فوق بابه وفيها الكتابة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم. إنما يعمر مساجد الله من آمن باللّه واليوم الآخر وأقام الصلاة. أنشأ هذا المسجد المبارك الفقير إلى الله تعالى الأمير عز الدين بن ازدم بن عبد الله الخوارزمي الناصري في شهور سنة ثلاثة وأربعين وسبعماية ابتغاء ثواب الله تعالى والفوز في الدارين والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

٣ ـ جامع التوبة، وعرف أيضاً باسم «جامع البحر» و«جامع العمري» وكان يقع في رأس سوق الخضار القديم. والرجح أن هذا الجامع كان من قبل كنيسة ولما تحولت هذه الكنيسة إلى جامع في أوائل أيام المماليك أطلق الناس عليها اسم جامع التوبة، وكانت العادة إطلاق هذا الاسم على الكنائس التي تحول إلى جوامع بمعنى عودتها إلى الإيمان بعد الكفر فيكون ذلك بمثابة توبتها عما كانت فيه من الإثم.

ويظهر من كلام صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» أن الذي بني هذا الجامع هو الأمير ناصر الدين الحسين من أمراء غرب بيروت البحتريين. وكان ذلك بعد سنة ٨١٠هـ (١٤٠٧م) وإلى هذا الجامع أشار الشاعر جمال الدين حجي وهو يمدح الأمير المذكور، وذلك حيث قال:

ما أبصرت عيناي بحراً جامعاً   في جامع من فوق بحر أزرق

وكانت توجد فوق قنطرة العقد الشمالي للجامع، المطلة على سوق الخضار نقيشة رقمت عليها الكلمات التالية:

«أنشأ محمد باشا خبرات لها عدد من جملة الخيرات هذا السوق في هذا البلد، وجعله للحين وقفاً للواحد الفرد الصمد على مصالح الجامع العمري للأبد. وأجرى به هذا السبيل يسقي من ورد، على مسجد التوبة وأباحه لمن ركع وسجد راجي من اللّه الثواب في هذه الدنيا وغد، فجزاه جنات النعيم وطيب عيش في رغد، وقف صحيح مؤرخ بأجر وخير لا يرد».

وهذه النقيشة وجدتها ملقاة في مدخل مئذنة جامع النوفرة يوم السبت الواقع في ٢٩ رجب الفرد سنة ١٣٨٦ هـ الموافق ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٦٦ م.

٤ ـ زاوية المغاربة، وهذه الزاوية قديمة العهد ليس فيها ما يدل على زمن بنائها وإن كان المظنون أنها ترجع إلى سنة ٧٩٣هـ (١٣٩٠م) وحسب كلام الشيخ محيي الدين الخياط في كتابه جوامع بيروت يقال إن بانيها رجل اسمه الشيخ محمد المغربي الذي كان يقيم فيها، ولعلّه هو نفس الشخص المدفون في جامع الحمرا برأس بيروت.

في السنوات الأخيرة من القرن الماضي بني فوق هذه الزاوية مكان لشيخ الطريقة السعدية (نسبة إلى سعد الدين الجبائي) ومريديها للقيام بالأذكار فيها.

هذه الزاوية أُزيلت وحولتها الدائرة الوقفية إلى دكان تجارية.

٥ ـ زاوية المجذوب، بنيت حوالى سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) وربما كانت من أعمال الشيخ أحمد ابن الحاج مختار الملقب بالمجذوب، وأصله من المغرب.

كان موقع هذه الزاوية في نفس المكان الذي توجد فيه اليوم بناية دار الكتب الوطنية الملاصقة لمجلس النواب اللبناني من الجهة الغربية.

في جدارها الجنوبي كانت توجد نقيشة من الرخام الأبيض عليها الكتابة التالي: «بسم الله الرحمن الرحيم. آنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة» أنشأ هذا المسجد العبد الفقير الحاج أحمد ابن الحاج مختار. بُني لله في العشر الأول من سنة ٧٤٥ هجرية».

كانت إمامة هذه الزاوية لآل المجذوب لمدة ثلاثمائة سنة. ثم انتقلت منهم إلى آل الرفاعي الذين كانوا يقيمون فيها الأذكار على الطريقة الرفاعية. ثم عادت الإمامة من جديد لآل المجذوب واستمروا فيها إلى أن هدمت سنة ١٩٢٠ أيام الانتداب الفرنسي.

٦ ـ زاوية رأس بيروت، وعرفت في أيامنا باسم مسجد الحمرا أو جامع الحمرا. ينسب بناؤها لبني الحمرا البقاعيين سنة ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م) وذلك عندما هبطوا بيروت وأعطوا اسمهم لهذه الزاوية وكذلك للمحلة التي سكنوها وكانت تعرف قبلهم باسم «محلة جرن الدب».

وحسب ما جاء في كتاب «تاريخ بيروت» لصالح بن يحيى، إن بني الحمرا اشتروا من النصارى أنقاض كنيسة إفرنسيسك (هو فرنسيس الأسيزي منشىء الرهبانية الفرنسيسكانية مات سنة ١٢٢٦م) وكانت بعهدة الرهبان الفرنسيسكانيين أتباع الراهب المذكور.

وقد نقل بنو الحمرا حجارة هذه الكنيسة وبنوا بها مدرستهم ـ أي زاوية الحمرا ـ وتقول تقاليد أهل رأس بيروت سكان محلة الحمرا إن بني الحمرا حفروا مغارات تحت الأرض وتحديداً تحت جامع الحمرا لتكون ملجأ لهم عندما يدهمهم العدو، وهناك من يزعم عن وجود كنز تحت أرض الجامع. ويقال إن عائلة من رأس بيروت اهتدت إلى هذا الكنز وانفردت به!...

وكان يوجد شرقي الجامع بئر تنبع منها الماء وإلى جانبها بركة تتجمع فيها مياهها وتستخدم هذه المياه للوضوء.

وكان في الجامع ضريح يظن أنه للشيخ محمد المغربي أحد الصلحاء البيروتيين كما ذكرنا من قبل.

هذا الجامع جرى ترميمه سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) ورممت مئذنته سنة ١٣٧٦ هـ (١٩٦٦ م).

وقد أزيل مؤخراً بأمر من الدائرة الوقفية على أمل أن يبنى في مكانه مجمع ديني حديث مع مرافق تجارية للانتفاع بعائداتها المالية.

٧ـ زاوية الراعي، كانت هذه الزاوية تقع داخل سور بيروت القديمة بالقرب من محلة بوابة يعقوب (أول درج الأميركان اليوم، المتصل بساحة رياض الصلح ـ السور قديماً).

كان بناء هذه الزاوية على يد رجل صالح يدعى الشيخ حسن الراعي وذلك حوالى سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) وقد سجل اسم هذا الشيخ على نقيشة كانت مثبتة فوق باب هذه الزاوية وهذه كلماتها:

بسم الله الرحمن الرحم. لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الشيخ حسن الراعي سنة ٦٠٠.

وإني عثرت على هذه النقيشة في مدخل مئذنة جامع النوفرة وكانت مؤلفة من ثلاث قطع من الحجر الفرني ولسنا نعرف شيئاً مؤكداً عن الشيخ حسن الراعي إلا الظن بأنه هو الذي سعى ببناء هذه الزاوية ثم بقي يدرس فيها.

لم يعد لهذه الزاوية وجود ولسنا ندري زمن زوالها، إلا أنها كانت عامرة بالصلاة في مطلع هذا القرن.

وهكذا يمكن القول بأن بيروت ما زالت تحتفظ بجامعين يرجعان إلى عهدها العربي الأول أولهما جامع الإمام الأوزاعي وثانيهما الجامع العمري الكبير. أما بقية الجوامع في هذه المدينة فإنها بنيت في عهود متأخرة، وعبر مراحل متراخية ابتداء من أيام المماليك ثم العثمانيين ومروراً بفترة الانتداب الفرنسي وانتهاءً بأيامنا الحالية.

٨ ـ زاوية ابن عرّاق، وتقع في مدخل سوق الطويلة من جهة باب إدريس، وهي اليوم تشغل حانوتين ودكاناً صغيراً لبيع السجائر. وقبة الزاوية ما تزال على حالها كما كانت في القديم، وهي ترتفع فوق قاعدة مثمنة، تخترق أضلاعها نوافذ صغيرة لتساعد على إضاءتها وتهويتها يوم كانت عامرة بالدارسين أو الركّع السّجود. وخلف جدران الحوانيت التي تؤلف الزاوية القديمة يستريح بعض الموتى من أسلافنا المسلمين.

وابن عراق هو محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق، شمس الدين، أبو علي الكناني الدمشقي. ولد في دمشق سنة ٨٧٨هـ، ونشأ وجيهاً شجاعاً انفرد بالفروسية، واشتغل بالصيد والشطرنج والنرد والتنعم[١]، ثم انقطع إلى العلم وسكن بيروت وبنى بها داراً لعياله ورباطاً للفقراء (هي الزاوية التي نتحدث عنها). ثم تصوف وحج فجاور الحرمين وتوفي بمكة سنة ٩٣٣هـ[٢].

(١) الأعلام للزركلي، الجزء السادس، ص ٢٩٠.

(٢) في الأسبوع الأخير من شهر المحرم ١٤١٢هـ (آب ١٩٩١) قصدت بسيارتي إلى أسواق مدينة بيروت لأرى ما فعلت بها الحرب الأهلية، ولما وصلت إلى مدخل سوق الطويلة رأيت زاوية ابن عراق وقد تهدمت أركانها وتهاوت جدرانها وبقيت قبتها عالقة على بعض الأساطين وهي تكاد تهوي إلى الأرض.

مدافن المسلمين الغابرة والحاضرة في بيروت

١ ـ مقبرة السنطية

هذه المقبرة، كمثيلاتها المقابر الإسلامية الأخرى، تقع خارج سور بيروت القديمة على محاذاة ساحل البحر إلى الجهة الشمالية من المدينة ولا يفصلها عن البحر سوى حاجز من البنايات القليلة بالقرب من مقهى قصر البحر، ومقهى البحرين ومقهى الحاج داود.

واشتهرت هذه المقبرة باسم أحد أبواب بيروت القديمة الذي كان يقال له «باب السنطية» وذلك لوجودها بالقرب منه.

هذه المقبرة أعطت اسمها في الماضي القريب لأول مدرسة أنشأتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت وهي مدرسة الإناث الأولى التي تأسست في العشر الأخيرة من القرن الهجري الماضي والربع الأخير من القرن التاسع عشر للميلاد. فلقد بدأت الجمعية المذكورة أعمالها المدرسية بهذه المدرسة وخصصتها للبنات لأنها كانت تريد احتواءهن في مؤسسة إسلامية.

وكانت هذه المدرسة تضم في نفس الوقت المكاتب الأولى للجمعية.

٢ ـ مقبرة الخارجة

هذه المقبرة كما يدل عليها اسمها كانت تقع خارج سور بيروت القديمة مما يليها في الجهة الشمالية الشرقية حيث تقوم اليوم بناية «بيبلوس» السوق التجارية الكبرى التي بنتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية وبجانبها البناية الضخمة التي بنتها الجمعية المذكورة أيضاً وجعلت قسماً منها لمكاتبها قبل انتقالها إلى حيث هي اليوم والقسم الآخر جعلته صالة للسينما المعروفة باسم ريفولي والباقي مكاتب تجارية ودكاكين للاستثمار يستخدمها تجار الخضار بالجملة.

وبقيت «الخارجة» تستعمل مقبرة إسلامية حتى بداية الثلاثينات من هذا القرن. ثم صدر قرار بلدي بوقف الدفن فيها على عهد الفرنسيين. وقد أدركت شخصيًا هذه المقبرة بعد توقف الدفن فيها وكان تجار الخضار بالجملة يعرضون خضارهم فيها بين القبور التي كانت في طريقها إلى الاندراس. واشتهرت لدى البيروتيين إذ كان بين قبورها مقام وهمي للصحابية الجليلة أم حَرام، وكان الناس يسمونها «ستي أم حْرام». وعندما أوقف الدفن في هذه المقبرة سارع البيروتيون لنقل ما فيها من رفات موتاهم إلى مقبرة الباشورة في البسطة التحتا كما فعلوا مثل ذلك بالنسبة إلى قبر أم حرام.

وقد سمعت من المعمرين الذين عاصروا تلك الفترة أنه عندما نقلت الرفات المنسوبة إلى أم حرام داخل تابوت مجلل بالدمقس الأخضر شعر الناس بأن هذا التابوت كان يرتفع عن كاهل حامليه حتى إنهم لم يكونوا يشعرون بوطأته وهم يسيرون به مكبرين ومهللين مع الأناشيد الدينية المأثورة وبقي الحال كذلك إلى أن دخلوا مقبرة الباشورة وواروها الثرى.

ولقد أثارت هذه الشائعة فضول الحاكم الفرنسي «ترابو» فأمر بأن تؤخذ عينة من الرفات المذكورة وأجرى عليها اختبارات كيميائية لتحديد عمرها وتبين أن هذه الرفات لا ترجع إلى أبعد من سنوات قليلة وأنه لا علاقة لها من قريب أو بعيد بتلك الصحابية الجليلة التي تؤكد المصادر التاريخية أنها استشهدت حين زلت بها الدابة التي كانت تقلها أثناء اشتراكها في غزوة قبرص مع سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه في عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه. والجدير بالذكر إن قبر أم حرام ما زال موجوداً حتى اليوم في الجزيرة المذكورة وهو مشهور هناك ويشير إليه سكان هذه الجزيرة باسم «قبر المرأة الصالحة».

٣ ـ مقبرة الغرباء والمغاربة

مقبرة الغربا هكذا كان يلفظها آباؤنا، بألف ممدودة دون همزة في آخرها. وموقعها كان بجوار مقبرة الخارجة. وكانت مخصصة لدفن الغرباء من المسلمين الذين كانوا يأتون إلى بيروت أو يمرون فيها وهم في طريقهم إلى الحج وغيره. وإن في كل مدينة إسلامية مقبرة مماثلة للغرباء. هكذا كان الأمر في الماضي، أما اليوم فإن الموت قد سوّى بين جميع الناس، مقيمهم وغريبهم على حد سواء وأصبح جميع الموتى من أي بلد كانوا يشاركون أبناء المدينة في نهاية مطافهم في هذه الدنيا الفانية.

وبجانب الغرباء كان يخصص جزء لدفن المغاربة النازلين في بيروت، ويقصد بهؤلاء أبناء ليبيا وتونس والجزائر والمملكة المغربية اليوم. فإن أبناء شمال إفريقيا قد اجتزأوا رقعة من المقبرة لأنفسهم وحصروا فيها حق الدفن لعائلاتهم التي اختارت الإقامة في هذه المدينة لسبب أو لآخر. ومن الممكن اعتبار مقابر الغرباء والمغاربة مقبرة واحدة يتمم بعضها بعضاً.

وقد تحولت رقعة هذه المقابر إلى منطقة تجارية واستحالت أرضها المليئة برفات الموتى إلى أبنية وصالات للسينما.

٤ ـ مقبرة المجيدية

إن عادة دفن الموتى في داخل المساجد مكروهة إلى حد التحريم في الدين الإسلامي.

إلا أن هذه العادة التي نهى عنها الإسلام أنشبت تقاليدها في المجتمع الإسلامي ويرجع ذلك إلى الأيام الماضية لا سيما في عهد المماليك الذين حكموا المشرق العربي بعد تحريره من الاحتلال الصليبي، وسبب ذلك أن الواحد من هؤلاء المماليك كان عرضة للاغتيال إن كان حيًّا ونبش قبره إن كان ميتاً وذلك لاضطراب الحالة السياسية في أيامهم، فكان كل سلطان منهم يبني لنفسه مسجداً ويعد في داخله سلفاً ضريحاً ليدفن فيه بعد موته، حتى إذا خلفه خصومه في سدة الحكم تورعوا عن انتهاك حرمة المسجد وبالتالي تحاشوا نبش القبر الموجود بداخله.

ولما كان الناس في كل مكان وزمان على دين ملوكهم، فلقد أخذ الوجهاء من الناس بهذه العادة، فكان بعضهم يوصي بأن يدفن في داخل الجامع الذي بناه أو الزاوية التي وقفها، إلا أن القوانين العصرية الحالية قد أبطلت هذا التقليد وحرمت دفن الموتى خارج المقابر المخصصة فعلاً لهذا الغرض.

وشذوذاً عن القوانين السارية، فإنه يوجد في الجهة الجنوبية الشرقية لجامع المجيدية ببيروت روضة صغيرة توزعت بين زهورها الجميلة قبور قليلة تحمل أسماء أفراد من آل الفاخوري وآل الرفاعي وآل العيتاني وهم من العائلات البيروتية المعروفة.

٥ ـ مقبرة الأوزاعي

هذه المقبرة كانت حتى قبيل سنوات قليلة من زماننا مقفلة دون عامة الناس، ولم يكن يدفن فيها إلا بعض الأشخاص الذين يوصون هم أنفسهم بأن يكون آخر مثواهم بها بعد وفاتهم وانتقالهم إلى جوار ربهم. وأول من ضمه ترابها هو عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي الإمام المجتهد المعروف الذي توفي في بيروت سنة ١٥٧هـ. وقبره ما زال موجوداً في قبلة المسجد المنسوب إليه القائم بجوار المقبرة.

وهذه المقبرة تقع على ساحل البحر في الجهة الجنوبية الغربية من مدينة بيروت، وكانت المنطقة التي تقع فيها تسمى في الماضي قرية حنتوس وهي اليوم تسمى محلة الأوزاعي نسبة إلى الإمام المذكور الذي غلبت شهرته عليها حتى عرفت به، وأهل زماننا لا يكادون يعرفون شيئاً عن القرية المذكورة.

ثم إن محمداً ابن الإمام الأوزاعي، كان ثاني اثنين فيها مع أبيه ولم يعرف أنها تحولت إلى مقبرة عامة في زمانهما أي في القرن الثاني للهجرة.

لماذا دفن الأوزاعي حيث قبره الآن ولم يدفن في بيروت حيث كانت إقامته؟ هذا سؤال ورد على الخاطر وحاولنا الإجابة عليه في كتابنا «عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام» الذي أصدرناه في بيروت سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨م) حيث قلنا في هذا الكتاب:

«لا شك في أن غيرنا لاحظ معنا ان الأوزاعي أدركه الأجل المحتوم في نفس مدينة بيروت التي كانت رقعتها في زمانه لا تتجاوز حدودها الجنوبية الطريق الفاصلة بين المعرض ودرج خان البيض من جهة وبين بنايات العازارية من جهة ثانية في أيامنا، بينما تكاد تجمع الروايات التاريخية على أنه قبر في مدفنه الحالي الذي تقع أرضه في قرية حنتوس المندثرة، وقد كان بينها وبين بيروت القديمة مسافة لا تقل عن ثلاثة أميال، فهل لنا أن نفسر اختيار حنتوس لدفن الإمام الأوزاعي في ترابها بسبب رغبة أهل زمانه بأن تكون رفاته مستريحة في ظلال الصنوبر الذي كانت غابته يومئذ ممتدة حتى تلك القرية لأن هذه الغابة كانت من الشجر المقدس عند قدماء البيروتيين وإن هذه القدسية بقيت مع خلفهم في العقل الباطن فآثروا إمامهم بها من دون سائر أبناء زمانه من الناس العاديين؟ لقد قال عقبة بن علقمة وهو من مريدي الأوزاعي الذين تتلمذوا على يديه ورووْا عنه الحديث: قال: «ودفن خارجاً منها.. أي من بيروت ـ على

شاطىء البحر في الصنوبر بأرض قرية يقال لها حنتوس». وكلام عقبة لا يخفي أن حنتوس كانت دون بيروت مكانة وأهمية إذ أنه سماها «قرية» في حين كانت بيروت بالنسبة إليها «مدينة» وفضل المدن على القرى لا يحتاج إلى بيان.

كما قد يذهب الظن إلى أن دفن الأوزاعي في مكانه الحالي كان بإيحاء من بعض أهل لبنان النصارى الذين عرفوا له يده عليهم إذ حماهم من غضبة الوالي العباسي صالح بن علي الذي كاد يجليهم عن أرضهم بسبب المتاعب التي كان يثيرها بعضهم في وجه الدولة يومئذٍ، فلا يستبعد من أن يكون هؤلاء النصارى قد رغبوا في دفن المتشفع بهم في جوار مناطقهم تقديراً منهم لانتصاره لهم ودفاعه عنهم، فكان لهم ما أرادوه ورغبوا فيه».

ومنذ عهد الأوزاعي أي قبل حوالي ثلاثة عشرة قرناً من أيامنا، بقيت هذه المقبرة طوال هذه القرون الخالية تعرف عند عامة الناس باسم «مقام الأوزاعي» وفي أواخر أيام بني عثمان في بلادنا حظيت هذه المقبرة بعناية الدولة التي أقامت عليها ناظراً لسدانتها وصيانتها والاهتمام بالمؤمنين الذين كانوا يزورون قبر الإمام للتبرك بمكانته الدينيه وكان يطلق على هذا الناظر اسم «تربه دار مقام حضرة الإمام الأوزاعي» وكان هذا التربه دار يختار من آل الرفاعي.

ويبدو أن بعض الذين تولـوا تربهداريه هذه المقبرة بدأوا يوصون بدفنهم فيها وقد أدى ذلك إلى انتقال هذه العادة إلى غيرهم من أعيان المسلمين في بيروت وجبل لبنان وغيرهم الذين كانوا يحرصون على مجاورة الإمام الأوزاعي في تربته بعد الوفاة طامعين من وراء ذلك بالحصول على بركته وشفاعته لما يعتقدون من صلاحه وتقواه وولايته ومكانته الدينية عند الله تعالى.

أما المقبرة في حالتها الحاضرة فهي موزعة في مكانين. وكلا هذين المكانين مجاورين للجامع القديم الذي فيه مقام الإمام الأوزاعي. فهناك إلى الجهة الشرقية الجنوبية من المقام توجد بعض القبور التي دفن بها أشخاص من آل الرفاعي وآل العيتاني وآل بيهم وقد فصل بين المقام وبين هذه القبور جدار أقامته المديرية العامة للآثار اللبنانية في المدة الأخيرة وفي الجهة الشمالية الشرقية من المقام توجد بعض القبور التي آثر أصحابها مجاورة الإمام بعد وفاتهم ومن هؤلاء الشريف محمد صافي المتوفى سنة ١٩١٦م والشريف جعفر المتوفى سنة ١٩٢٧م وكلاهما من أمراء ظفار في جنوبي الجزيرة العربية. ومن مجاوري الإمام الأوزاعي في هذه المقبرة رعيل كريم من الذين عاصرناهم في الهزيع الأخير من حياتهم وكان لهم دور بارز في حياتنا الدينية والوطنية والعلمية والاجتماعية. من ذلك رياض الصلح الزعيم العربي المعروف الذي استشهد غيلة سنة ١٩٥١ وهو بطريقه من عمان إلى بيروت. ومنهم الشيخ محمد توفيق خالد المتوفى سنة ١٩٥١ والذي شغل منصب مفتي الجمهورية اللبنانية. ومنهم الشيخ محمد علايا الذي خلف الشيخ محمد توفيق خالد في الفتوى، وغيرهم...

٦ ـ مقبرة الباشورة

كلمة «الباشورة» يتداولها الناس في بيروت كلما ودعوا للمرة الأخيرة واحداً منهم وأودعوه الثرى ليكون في رحاب ربه وجواره الكريم. وهذه الكلمة التي أصبحت علماً على مقبرة المسلمين الرئيسية في بيروت هي في الأساس من المصطلحات العسكرية التي لها علاقة بمنشآت الدفاع والاستحكامات الحربية. فقد كان العرب يطلقون هذه الكلمة على البرج المتعالي على مداخل قلاعهم وأسوارهم ليباشروا منها الدفاع عن مدنهم ويسميها الافرنج بلغتهم «Barbacane» هكذا قال المستشرق الألماني فان برشام المتخصص بالآثار الإسلامية والفنون العسكرية عند العرب.

وقد أطلقت كلمة الباشورة على مقبرة البسطة التحتا في بيروت لوقوع هذه المقبرة في الماضي عند ظاهر السور الذي كان يحيط بالمدينة، يوم كانت هذه المقبرة تقع تحت طائلة أحد أبراج هذا السور المشرف على البرية. ومن المفروض أن الأرض التي تشغلها المقبرة حالياً كانت في الماضي خالية تماماً من العمران والسكان لوقوعها في ظاهر المدينة. وهو أمر جعلها صالحة لأن تكون آخر أبواب الدنيا وأول أبواب الآخرة بالنسبة لمن يتوفاهم الله في هذه المدينة.

وكان أبناء بيروت من أهل الماضي يسمون هذه المقبرة «مقبرة سيدنا عمر» هكذا قال الشيخ عبد الرزاق البيطار رحمه الله في كتابه «حلية البشر في أعيان القرن الثالث عشر».

ومن أقدم ما يروى عن هذه المقبرة أنها كانت موجودة في أيام عالم بيروت وعابدها الزاهد عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام في زمانه، فقد ذكر الذين كتبوا سيرة هذا المجتهد الكبير أنه حينما قدم إلى بيروت في أواسط القرن الثاني الهجري وأصبح قريباً من مدخلها الجنوبي لقي في طريقه امرأة عجوزاً فأراد أن يختبر فيها روح أهل هذه المدينة الذين اختار الإقامة معهم ليكون مرابطاً في سبيل الله ومرشداً إلى سبيله السوي، فسألها: أين المدينة يا هنتاه، وهنة وهنتاه من عبارات النداء من الرجل للمرأة، فأجابته العجوز: إن كنت تريد العمار، فها هو، وأشارت بيدها إلى القبور في «الباشورة» وإن كنت تريد الخراب فها هو، وأشارت إلى حيث المساكن والسكان.

فانشرح صدر الشيخ الإمام لما سمع وعلم إنه سينزل في بلد يطمئن قلبه إلى دين سكانه ويضمن استجابتهم لدعوة الحق والخير والصلاح.

والباشورة التي كانت في أيام الأوزاعي تقع في ظاهر بيروت وراء سوقها القديم أصبحت اليوم في قلب هذه المدينة التي لم يبق من سورها إلا اسمه وأصبحت ضواحيها البعيدة من أحيائها الرئيسية. والباشورة، كانت حتى عهد قريب المقبرة العامة التي تضم قبور المسلمين في بيروت، وذلك قبل إنشاء مقبرة «الشهداء».

وقد اشتهرت على لسان الناس باسم «التربة». وهي تدار اليوم من قبل إحدى اللجان التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت.

وكان أبناء بيروت يطلقون على الشخص الذي يقوم بتجهيز الميت وغسله وإعداده للدفن «النصولي» وما يزال هذا الاسم يطلق على إحدى العائلات البيروتية حتى اليوم. ولمقبرة الباشورة اليوم أربعة أبواب كلها تقع في جدارها الغربي، اثنان منهما يستعملان والبابان الآخران لا يستعملان. أما البابان الرئيسيان فواحدهما يقع في الناحية الشمالية من المقبرة إلى جهة الغرب يليه درج حجري ينتهي بسقيفة من الأسمنت المسلح يستعملها المشيعون للجنائز في واجبات التعزية بالميت. والباب الآخر في الجهة الجنوبية من الجدار الغربي وهذا الباب متصل مباشرة بأرض المقبرة.

في هذه المقبرة بعض المنشآت القديمة وأخرى حديثة العهد. والمنشآت القديمة مقام لشيخ من آل المجذوب كان موجوداً في أواخر العهد العثماني، وله قبة كان المسلمون يسمونه «زاوية الباشورة» وبداخله قبر الشيخ المذكور الذي كان الناس يرتادونه للتبرك ويوقدون عليه الشموع على عادة أهل ذلك الزمان. وقد زال هذا المقام. وكان يقوم في الطرف الغربي من الشارع المقابل للمقبرة من جهتها الغربية ضريح له قبة جميلة له نوافذ مرصعة بالزجاج الملون دفن فيه والي بيروت أحمد حمدي باشا الذي كانت له اليد الطولى في مساعدة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية عند نشأتها وقد أعطاها من المعونات الوقفية والعينية ما مكنها من النهوض بأعمالها العلمية والخيرية، ومن جملة هذه المساعدات والمعونات المبنى الذي تشغله كلية البنات في الوقت الحاضر وكان من قبل يحمل اسم «المكتب السلطاني».

ومن أجل ذلك تم دفن الوالي المذكور بجانب هذا المبنى، وفي الأيام الأخيرة من الانتداب الفرنسي بدأت بلدية بيروت في توسيع الشارع المحاذي للباشورة وعزمت على إزالة هذا الضريح بيد أن القنصلية التركية بادرت في ذلك الحين إلى الاحتجاج على هدم ضريح أحد كبار الموظفين الأتراك وقدمت مذكرة رسمية بهذا المعنى الأمر الذي جعل البلدية تصرف النظر عن إزالة الضريح بالمرة وقررت نقله بكامل هيئته إلى حيث هو الآن في داخل المقبرة بمقابل مكانه القديم الذي أضيف إلى أرض الكلية المذكورة.

ما يزال البيروتيون يدعون المنطقة التي كان يقع فيها الضريح المنقول باسم «محلة قبر الوالي» ويعنون بذلك الوالي أحمد حمدي باشا نفسه.

المدافن الموجودة في الطريق الجديدة

١ ـ المقبرة الفرنساوية

أول ما أنشىء من المدافن في هذه المحلة، المدافن التي تضم قبور جنود الحلفاء الذين قتلوا بالقرب من بيروت عند احتلالهم لهذه المدينة في الحرب العظمى الأولى وكان هذا الاحتلال في أواخر أيلول سنة ١٩١٨م.

فعندما دخل الحلفاء بيروت في ذلك التاريخ اختاروا قطعة أرض تقع بالقرب من أملاك جلول بطرف غابة الصنوبر إلى الجهة الشرقية من محلة صبرا الحالية. وجعلوها مقبرة لقتلاهم حيث ما تزال على ما هي عليه حتى اليوم. بعضها خاص بالجنود المغاربة المسلمين وبعضها للجنود الفرنسيين وفيها قسم خاص بجنود الهند الصينية وآخر للجنود الإنكليز والأستراليين وقد اشتهرت هذه المدافن بمجموعها عند الناس باسم «المقبرة الفرنساوية» وهذه المدافن مفصولة عما حولها بأسوار غير مرتفعة ويعتني بها أشخاص معينون من قبل الحكومتين الفرنسية والإنكليزية. وفي أيام الانتداب الفرنسي كان القنصل الفرنسي ونظيره الإنكليزي يضعان عليها الأكاليل في الذكرى السنوية لتوقيع الهدنة التي وضعت حدًّا للحرب المذكورة.

٢ ـ مقبرة الداعوق

بعد أن تمادى العمران في محلة الطريق الجديدة وتكاثر السكان في هذه المحلة شعر أعيان المسلمين بالحاجة إلى مقبرة يدفنون فيها الموتى من هؤلاء السكان لا سيما وأن الباشورة المقبرة الرئيسية أصبحت بعيدة عنهم فضلاً عن أنها ضاقت بما فيها من القبور ولم تعد تحتمل المزيد. وفي حوالى سنة ١٩٤٥م خرجت هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ عن طريق عمر بك الداعوق رحمه الله الذي تبرع لهذه الغاية بقطعة أرض كبيرة من أملاكه

تقع بمحلة صبرا المعروفة اليوم. وبالفعل فإنه أحاط هذه الأرض بسور عزلها عما حولها وجعل في وسطها قبرين متلاصقين أحدهما له والآخر للشيخ محمد توفيق خالد المفتي السابق للبنان حين يدركهما الأجل المحتوم. ولكن تقدير الله كان غير تدبير الرجل. فلقد توفي عمر الداعوق ودفن في مقبرة السنطية، وتوفي الشيخ محمد توفيق خالد ودفن بمقبرة الأوزاعي، أما الأرض التي أُعدت لتكون مقبرة للمسلمين في شارع صبرا فقد أصبحت مجمعاً لعشرات بل مئات البيوت المتواضعة التي أقامها الفلسطينيون لسكناهم يوم قدموا إلى بيروت نازحين من بلادهم سنة ١٩٤٨م. وقد كان اختيار هذه المقبرة أو بالأصح «مشروع المقبرة» من قبل جمعية الكشاف المسلم في بيروت التي ضربت فيها خياماً لإيواء إخواننا النازحين المذكورين ثم ما لبثت هذه الخيام أن تحولت بعد قليل إلى ما هي عليه اليوم من البناء المتراكم بعضه فوق بعض، وكأن الظروف شاءت أن تكون هذه البقعة مقبرة لأحياء الفلسطينيين بعد أن أعدت لتكون مقبرة لموتى البيروتيين.

وهكذا بقيت هذه المقبرة اسماً على غير مسمى.

٣ ـ مقبرة الشهداء

هذه المقبرة استحدثت خلال الأحداث التي وقعت في بيروت سنة ١٩٥٨م لأسباب سياسية ففي تلك السنة عمت بيروت موجة من الاضطرابات المسلحة جعلت وصول الناس إلى مقبرة الباشورة الواقعة في شمال محلة البسطة التحتا مستحيلاً أو محفوفاً بالخطر على حياتهم لأن هذه المحلة وما جاورها كانت مسرحاً لتبادل النيران بين الأهالي وبين قوات الأمن الحكومية ولهذا أصبح دفن أموات المسلمين في المقبرة المذكورة غير ميسور وهذا ما حمل الناس على البحث عن فسحة مناسبة من الأرض للوفاء بهذا الغرض الملحّ الذي لا مفر من إنجازه باستمرار.

وحدث في ذلك الحين أن بعض المسلحين في المنطقة الغربية من بيروت فتكوا بالأديب المعروف فؤاد حداد، من موظفي وزارة التربية اللبنانية لأنه كان ينشر في جريدة العمل لسان حال حزب الكتائب اللبنانية في زاوية «من حصاد الأيام».. مقالات اعتبرت آنذاك تعريضاً بمكانة جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة رحمه الله الذي كان يعتبر في نظر كثير من العرب شخصية ذات حرمة مصونة لا يجوز مسها من قريب أو بعيد. ولم يجد الناس مكاناً يوارون فيه جثة القتيل أنسب من غابة الصنوبر المحاذية للمقبرة الفرنساوية فبادروا إلى دفن هذه الجثة بطرف الغابة المذكورة في مكان لم يعرف فيما بعد. وكان ذلك سبباً لتوالي الدفن في هذه الغابة لا سيما لأولئك الذين كانوا يموتون صرعى برصاص القوات الحكومية، ولما كان الناس يعتبرون هؤلاء الضحايا شهداء في سبيل العروبة والإسلام فإنهم أطلقوا على هذه المقبرة اسم «مقبرة الشهداء» وأصبح هذا الاسم جارياً على ألسنة الناس حتى اليوم.

ولقد أصبحت مقبرة الشهداء في طريقها إلى أن تكون البديل العفوي للمقابر الإسلامية الأخرى الواقعة في الوسط التجاري من المدينة القديمة وذلك نظراً لاتساع رقعتها وبعدها نسبيًّا، عن العمران الكثيف واشتمالها على غابة وارفة من أشجار الصنوبر التي تضفي على المكان جوًّا طبيعيًّا من شأنه أن يخفف من قسوة الموت المتمثل بالقبور المنتشرة هنا وهناك بين جذوع تلك الأشجار.

ومقبرة الشهداء تشتمل على رقعة واسعة من الأرض وهي تمتد ما بين مستديرة شاتيلا شمالاً بشرق بمحاذاة الطريق المؤدي إلى المطار الدولي بين الأرض المتصلة بشارع صبرا من الجهة الغربية والجنوبية. وقد شاد المسلمون بطرف هذه المقبرة مسجداً تعلوه مئذنة لطيفة مضلعة الحدود تقام فيه الصلاة اليومية ولوجوده في داخل المقبرة فإنه يستخدم لإقامة صلاة الجنازة على الموتى الذين يدفنون فيها.

٤ ـ مقبرة شهداء الثورة الفلسطينية

تقع هذه المقبرة في الأرض المقابلة لمقبرة الشهداء من الجهة الجنوبية وقد أُنشئت بعد قيام الفلسطينيين بثورتهم الوطنية الميمونة ضد العدوان اليهودي على بلادهم، ردها الله للعروبة والإسلام، وتضم المقبرة المذكورة رفات إخواننا الفلسطينيين الذين يقدمون أرواحهم فداء للقضية المقدسة التي يجاهدون من أجلها ومعهم جميع الشرفاء من العرب والمسلمين وأصدقائهم الذي يؤمنون بعدالة قضيتهم المشروعة.

الفصل السابع عشر

الحافلات الكهربائية (الترامواي) في بيروت

على أثر سريان الكهرباء في أسلاك التنوير ببيروت إبان العقد الأول من سنوات القرن العشرين الحالي، اتجهت همة بعض أعيان البيروتيين للحصول على «امتياز خط ترامواي للطرق الأكثر مناسبة في أحياء بيروت».

وفيما يلي نص الخبر كما جاء في جريدة «ثمرات الفنون» عدد ٨٥٣ الصادر ببيروت يوم ٢ ربيع الأول سنة ١٣٠٩هـ الموافق ٥ تشرين الأول سنة ١٨٩١م:

«رفع عزتلو بشارة أفندي سر مهندس نافعة ولاية بيروت وعزتلو يوسف أفندي عرمان رياشي كاتب مجلس بلدية بيروت إلى مقام الولاية الجليلة الاستدعاء بطلب امتياز خط ترامواي للطرق الأكثر مناسبة في محلات (أحياء) بيروت».

وكان الوالي على بيروت يومئذ، عطوفتلو إسماعيل كمال بك أفندي، وبتاريخ ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٢٤هـ (حزيران ١٩٠٦) نشرت الجريدة نفسها بشرى موافقة الباب العالي على إعطاء امتياز خط الترامواي باسم سليم رعد. وفيما يلي نص هذه البشري كما جاء في الجريدة المذكورة تحت عنوان: الترامواي الكهربائي في بيروت وإنارتها بالكهرباء: «نبشّر القراء بصدور الإرادة السنية، مانحة حضرة سليم أفندي امتيازاً بتسيير ترامواي كهربائي في مدينتنا «بيروت» وإنارتها بالكهرباء لمدة تسع وتسعين سنة. ويستفاد مما ذكرته جرائد دار السعادة (اسطمبول) من شروط الامتياز ومقاولته أن للترامواي سبع نقاط وهي:

أولاً: من خان فخري بك ماراً بشارع المجيدية فطريق المستشفى العسكري (قصر العدل القديم) إلى السور (ساحة رياض الصلح اليوم).

ثانياً: من دار الحكومة (السراي الصغير في ساحة البرج الذي هدم سنة ١٩٥٠) إلى طريق الشام حتى حدود لبنان (أي فرن الشباك حيث كانت الحدود بين ولاية بيروت ومتصرفية جبل لبنان الممتازة).

ثالثاً: يتفرع من الخط الأول شعبة من بوابة إدريس ماراً بالشارع الجديد (شارع ويغان حالياً) بشرط أن تتم البلدية فتحه.

رابعاً: من محلة السور إلى نهاية الباشورة (البسطة التحتا اليوم).

خامساً: من المستشفى العسكري إلى المصيطبة.

سادساً: من مينا القمح إلى رأس بيروت.

سابعاً: من خان أنطون بك إلى المنارة على أن يكون له ثلاث شُعب اختيارية.

وقد شرط على صاحب الامتياز بأن يعطي عشرة في المائة من صافي الواردات إعانة للسكة الحميدية الحجازية، وبأن يودع مبلغ الكفالة في البنك العثماني، وبأن يؤلف لذلك شركة أنونيم عثمانية».

وفي شعبان سنة ١٣٢٥هـ (أيلول سنة ١٩٠٧م) جرى الاحتفال بتدشين خط الترامواي ببيروت بمناسبة المولد السلطاني للعام الثامن والستين، وكان ذلك في عهد الوالي إبراهيم خليل باشا كما ذكرت جريدة الإقبال لعبد الباسط الأنسي في عددها ١٨٢.

وفي ذلك الحين أصدرت الشركة المذكورة التي كانت تسمى «شركة الترامواي والتنوير العثمانية في بيروت» ٣٦ ألف سهم قيمة كل منها ١٠٠ فرنك وقيدتها رسمياً في بورصة دار السعادة (اسطمبول)[١].

(١) راجع جريدة الإقبال عدد ١٨٥ في محرم سنة ١٣٢٥هـ (شباط سنة ١٩٠٧م).

والطرق التي خصصت للترامواي في حينها هي:

١ ـ النهر، الحرج، الباشورة، المنارة (عن طريق بوابة إدريس). أما الخط الخامس فيمتد من ساحة البرج سوق الفشخة (ويغان اليوم) ثم ينعطف شمالاً إلى شمالي خان أنطون بك ثم ينتهي عند الساحة الشرقية من خان فخري بك[١].

تاريخ سير الترامواي ببيروت لأول مرة

في ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٢٧هـ (١٧ نيسان سنة ١٩٠٩م) صدرت جريدة الإقبال وفيها نبأ ابتداء سير الترامواي لأول مرة في شوارع بيروت وفقاً للخطة المرسومة. قالت هذه الجريدة:

«تبين بالمعاينة أن خط الترامواي الكهربائي الممتد من ساحة الاتحاد (البرج) إلى موقع نهر بيروت قد أنشىء على الوجه المطلوب وشرع بتسيير مركباته يوم ٢٦ ربيع الأول ١٣٢٧ (١٧ نيسان سنة ١٩٠٩) بحضور ملاذ الولاية (الذي هو ناظم باشا).

كيف استقبل البيروتيون الترامواي

كان ظهور الترامواي الكهربائي حدثاً مثيراً بالنسبة للمواطن البيروتي في أوائل هذا القرن. إذ أن أبناء ذلك الزمان لم يستطيعوا أن يصدقوا ما رأته عيونهم من أن كتلة ضخمة من الحديد تنطلق من مكان إلى آخر دون أن تدفعها أيدي الناس أو تجرها الدوابّ لا سيما وأنهم رأوا مثل هذه الحافلة من قبل في طرابلس الشام وهي تُجَرُّ بواسطة الخيول وذلك عندما أدخل مدحت باشا الترام (البغّالي) إلى هذه المدينة أثناء ولايته فيها.

وكان أول رد فعل علق به البيروتيون على ظهور الترامواي هو أنهم وصفوه تارة بـ «دولاب الشيطان» وتارة بأنه «حارة متنقلة». وكان الناس يفرّون لدى رؤيتهم الترامواي، فرار الحمر المستنفرة، فرّت من قسورة، وأخذ الناس يتساءلون بدهشة واستنكار: كيف تسير هذه الكتلة من الحديد فوق الشريط الحديدي؟ لا بد أن يكون في الأمر سحر، أو لا بد من أن يكون هذا الترامواي مسكوناً «بالجماعة» ـ أي الجن ـ.

ويروي المعمّرون أن الكثيرين ممن كانت بيوتهم قرب خط الترامواي بادروا بالابتعاد ببيوتهم عن هذا الخط قائلين: إبعد عن الشرّ وغَنِّ له، كما قالوا: يا عمّي، نبعد عنه أحسن لنا، مين بيعرف إذا جفل شي جفلة، وعلى الكهرباء مين بيقدر يهدّيه؟ فقد اعتاد البيروتيون آنذاك على جفلات بغالهم وحميرهم والبهائم الأخرى فحسبوا أن الترامواي الكهربائي، يجفل أيضاً. ثم ما لبثوا أن قابلوه بالاستنكار والاستهجان لأنه من «صنع الكفار» واستغل أصحاب «العربيّات» نقمة الناس لأن الترامواي امتصّ عدداً كبيراً من زبائنهم فراحوا يغذون هذه النقمة بكتابة لافتات تقول:

«الخيل والدواب مذكورة في القرآن الكريم، أما «الترين» فإن الله لم يذكره في كتابه».

وإزاء هذه المواجهة السلبية للترامواي، فإن الشركة صاحبة الامتياز لم تجد، يومئذ، بُدًّا من استخدام «القبضايات» ـ رجال الفتوة ـ لحماية الحافلات من اعتداء الناس عليها. وكان من بين هؤلاء القبضايات عبد القادر النويري (أبو وجيه) الذي يُعتبر أول العمال والمستخدمين الذين تولوا العمل في الترامواي، وإكراماً له فإن الشركة أطلقت على أحد المواقف في شارع البسطة اسمه، وما يزال هذا الموقف حتى اليوم معروفاً باسم «محطة النويري». ومن الطريف أن أبا وجيه النويري المذكور رافق قيام الترامواي وشهد نهايته.

تطور حافلات الترامواي

ولم يكن الترامواي دائماً بالشكل الذي أدركه أبناء الهزيع الأخير من نصف القرن العشرين الحالي. فإن أبا وجيه النويري يحدثنا عبر ذكرياته التي سجلتها مجلة الأسبوع العربي عن تطور أشكال هذه الحافلة الكهربائية فيقول:

«يا ابني، عندما بدأت العمل عام ١٩٠٩ كان الترين ـ Le train ـ مفتوح الجانبين يصعد إليه بواسطة «مارش» (حافة) وكان يفصل بين المقاعد المتقابلة عمود حديدي، وكان في زاويته مقصورة مربعة، خاصة بالحريم (السيدات) تسدل عليها الستائر، وويل لمن يدخل تلك المقصورة، سواء أكانت خالية أو مشغولة».

ويتابع النويري قوله: «حدث أن دخل هذه المقصورة، أزعر، أي سفيه، ذات يوم للتحرش بالنساء، وحاول الجابي ردعه فنال هذا الجابي «نصيبه» من الضرب... ودخلت سيدة محجبة للجلوس، فلما رأت الرجل السفيه ذُعرت، ولم يكن منها إلا أن تناولت «قبقابها» وانهالت على رأسه تحطيماً ولم تتركه إلا حين رمى بنفسه من الحافلة...».

ولما كانت حافلات ذلك الزمان مكشوفة الجانبين، فإن ركابها كانوا يستعملون مظلاتهم لاتقاء حرارة الشمس في الصيف ومياه المطر في الشتاء.

(١) راجع جريدة الإقبال عدد ١٨٣ في ذي الحجة الحرام ١٣٢٤هـ (شباط سنة ١٩٠٧م).

متاعب الترامواي الدائمة

بالرغم من التدابير الفنية والاجتماعية التي كانت الشركة تتخذها لحسن سير الترامواي وحمايته، فإن ذلك لم يحل دون تعرض منشآت هذه الشركة للمتاعب الجمة.

فلقد كان التيار الكهربائي ينقطع أحياناً فتتوقف حافلة الترامواي في وسط الطريق، فكان المسؤولون يستعينون على دفعها بواسطة الدواب أو بواسطة بعض أصحاب الزنود القوية من نفس ركابها الذين يستفيدون لقاء خدمتهم هذه بالتخلص من دفع ثمن التذكرة المقررة.

على أن فريقاً من أهل بيروت، كانوا يرفضون دفع ثمن تذكرة الركوب في الحافلة ولو لم يشاركوا في دفعها عند الحاجة. فلقد ذكرت جريدة الإقبال الصادرة في أيلول سنة ١٩٠٩ أن شركة الترامواي الكهربائي ستوقف خط البسطة نظراً لتمنُّع بعض الأفراد عن دفع الأجور، وبما أن هؤلاء الأفراد هم من الذين يجب على الحكومة «تربيتهم» ترغب الشركة أن تطلب من الحكومة مجازاتهم..».

هذا من جهة المتاعب الشخصية أو الفردية، أما المتاعب العامة والجماعية، فكانت تواجه شركة الترامواي وحافلاتها عن طريق «الاعتصاب» ضدها، ذلك أن الأهالي كثيراً ما تداعوا للإضراب عن ركوب الترامواي بسبب ارتفاع أجوره. ولم يكن «الاعتصاب» أكثر الأحيان مقصوراً على عدم ركوب الترامواي، بل كثيراً ما يرافقه أعمال تخريب واعتداءات على الركاب الذين يخرجون على تضامن الأهالي ولا يتقيدون بالاعتصاب.

وفي عدد ٩٤٤ من جريدة المعرض البيروتية صورة تمثل «مشاهد المظاهرة الكبيرة التي قامت في ساحة الشهداء (البرج) لمقاطعة الترامواي والكهرباء، ويظهر فيها جمهور غفير من الأهلين يفرقهم فرسان الدرك، وترى عربة الترامواي وقد أوقفها الأهلون وتسلق بعضهم على جوانبها، ووقف اثنان من عمال الشركة على سطحها. يقوّمون الحديد الذي يصل العربة بأسلاك الكهرباء (السّكة) بعد أن لواه المقاطعون منعاً للعربة من السير..».

وكانت حافلات الترامواي هدفاً لحجارة المعتصبين ولثمار البندورة والبيض الفاسد وهم يهتفون:

يَـا بَـنَـدُورَهْ كِـلّكْ مَـيْ   طِلْعِتْ رِيْحتِكْ عَاَلتُّرمُـوَيْ
مَـا بْـنِـرْكَبْ إلَّا بْـقِـرْشْ   مِنِ آلـمَـنَـارَةْ لِـلْحُـرْشْ

هذا في مناسبات الإضراب ضد الشركة مباشرة. أما في المناسبات السياسية التي كانت للتعبير عن مقاومة الانتداب الفرنسي، فإن الأهالي كانوا يصبّون جام غضبهم على الترامواي باعتباره إحدى المؤسسات الفرنسية التي يجب أن تتحمل قسطها من نقمة الشعب المطالب بحريته.

وبالإضافة إلى متاعب الترامواي من غضب المضربين لتخفيض أجوره أو للتعبير عن سخطهم على سلطات الانتداب، فإن هذه الحافلة كانت تضطر في كثير من الأحيان للتوقف عندما تمر بالقرب من بيت أحد القبضايات (الفتوّات) أو أي زعيم شعبي نافذ الذي يأمر السّوّاق بالوقوف وانتظاره حتى ينزل من بيته ويستقله، والويل، للترامواي وسائقه وركابه إذا لم يمتثلوا لإرادة هذا القبضاي أو ذلك الزعيم.. ويتكرر وقوف الترامواي في غير مواقفه الرسمية كلما اعترضه وجيه يذرع الطريق في وسط القضبان الحديدية المعدة لسير الحافلة على ظهر جواده الأصيل لأن لا يجوز ازعاج هذا الفارس بتحويله عن وسط الطريق إلى قارعته لتسهيل مرور وسائل المواصلات الأخرى.

تذاكر مجانية للأعيان

ركاب الترامواي كانوا على درجات اجتماعية متفاوتة. الطبقة الشعبية المتواضعة، كانت من زبائن الدرجة الثانية ذات المقاعد الخشبية، والطبقة الوسطى، موظفين وأفندية، كانت من زبائن الدرجة الأولى (البريمو) ذات المقاعد المقششة.

الدرجة الشعبية كان ثمن تذكرتها قرشين ونصف القرش وعندما رفع الثمن إلى خمسة قروش حصل إضراب امتنع الناس فيه عن ركوب الترامواي وأنشد المقربون مقطوعة من الشعر الشعبي المنثور نظمها الشاعر الشعبي المعروف عمر الزعني منها قوله:

حالك حال يا ترامواي   حفروا قبرك وأنت حيّ!..

وكانت تذكرة «البريمو» بخمسة قروش، أي ضعف التذكرة الشعبية، وكان هناك فريق ثالث من المواطنين يشتري حق الركوب لمدد طويلة بمقابل جواز (باس). ويشترط في هؤلاء أن يكونوا إما من الموظفين في الدوائر العامة أو من فئة الطلاب، فلم يكن هذا الجواز مسموحاً به لغير هاتين الفئتين. على أن الشركة كانت تمنح بعض الجوازات المجانية الدائمة لنفر من أعيان البيروتيين وأهل الوجاهة فيهم أمثال الرئيس السابق الشيخ بشارة الخوري والمرحوم رياض بك الصلح وعمر بك الداعوق ومن هو في حكمهم في المنزلة والمكانة، وذلك مراعاة لنفوذهم. وكان جواز هؤلاء المجاني في الدرجة الأولى صالحاً مدى الحياة.

الترامواي بريد سياسي

كانت خطوط الترامواي تخترق أحياء بيروت طولاً بعرض،

فإن أبناء الأحياء المتناقضة، كالبسطة والجميزة، كانوا يتخذون من الترامواي جداراً للإعلان عن شعاراتهم السياسية. ولقد راقت فكرة الإعلانات السياسية لأصحاب المحلات التجارية فراحوا يعلنون عن بضائعهم وأعمالهم في داخل حافلات الترامواي ومن ظاهرها. حتى إن بعضهم ألصق على ثيابه إعلانات عن تجارته ولازم الترامواي في روحاته وجيئاته إلا أن العمال والمستخدمين في الحافلة تنبهوا له في الوقت المناسب وأنزلوه مع ما فيه من الإعلانات المثيرة.

محطة «غراهام» لماذا؟

الترامواي المتجه من بيروت «المدينة» إلى محلة «رأس بيروت» كان يقف عند موقف قبيل سور الجامعة الأميركية من الجهة الشرقية. هذا الموقف كان يطلق عليه البيروتيون اسم «محطة غراهام». ولهذه التسمية قصة طريفة خلاصتها أن أحد أساتذ كلية الطب في الجامعة الأميركية ببيروت واسمه غراهام كانت عيادته في المكان المذكور، ولكي يعلن عن نفسه ويعوّد الناس على اسمه ويكونوا من زبائنه فإنه عمد إلى إعطاء جباة الترامواي مجيدياً في كل يوم مقابل أن يذكر هؤلاء الجباة اسمه «غراهام» عند توقف الترامواي بالقرب من عيادته، وهذا الأمر أدى إلى اشتهار المحطة باسم هذا الطبيب الأميركاني وبقيت كذلك إلى حين الاستغناء عن الترامواي بعد موت غراهام نفسه بمدة طويلة.

شركة الجر والتنوير تصبح مصلحة النقل المشترك

بدأت خطوط الترامواي ببيروت في يد شركة بلجيكية تحت اسم «شركة الجر والتنوير» إذ كانت تضم إدارة الترامواي نفسه وإلى جانبه إدارة الكهرباء. وفي سنة ١٩٢٢م تحولت أسهم الشركة البلجيكية إلى شركة فرنسية، وفي سنة ١٩٥٤م انتقلت إدارة الترامواي إلى سلطة الحكومة اللبنانية التي عوضت على حملة أسهم الشركة القديمة بمبلغ ١٧ مليون ليرة لبنانية.

وفي أيار ١٩٦٤ أصدرت الحكومة اللبنانية قراراً بإلغاء «ترامواي بيروت» وسيرت مكانه مجموعة سيارات النقل الكبيرة المعروفة باسم «أوتوبيس» بعد أن دربت سائقي الحافلات الكهربائية والمستخدمين فيها على العمل في السيارات الجديدة وأصبحت إدارة هذه السيارات تحت سلطة مصلحة النقل المشترك...

أما الترامواي الذي رافق بيروت والبيروتيين خلال ما يزيد عن نصف القرن، فقد باعته الحكومة إلى تجار «الخردة» على أنه أنقاض حديدية. ورأى بعض أصحاب المطاعم أن يفيدوا من هذه الحافلات بطريقة «فولكلورية» فاشتروا عدداً منها وجعلوها مطعماً في مكان مشرف على البحر من جهة الرملة البيضاء وأصبحت هذه التقليعة الطريفة محجة لرواد الغرائب والعجائب من الطّاعمين!

وبعد،

هذه هي حكاية «ترامواي بيروت» من أولها لآخرها، وأصبح «أبو الفقير» كما كان البيروتيون يسمونه، في ذمة الآثار القديمة التي يتندر بأخباره الطريفة الظريفة أبناء بيروت، ما بين السلف والخلف قائلين... رزق الله على ترامواي بيروت «أبو الفقير».

وختاماً لهذه الخاطرات عن ترامواي بيروت أيام زمان، فإننا نقدم لأهل بيروت اليوم القصيدة التي نظمها الشاعر البيروتي عبد الرحيم قليلات سنة ١٩٢٢م تحت عنوان «ترامواي بيروت» وفيها يقول:

«يـاتُـرَامـاً» كَـيْـفَـمَـا سَـارَ تَـرَامَـى
أَتَـرَى مَـا نِـلْتَ مِـنّـا، أَتُـرَى مَـا؟
سُـمْـتَ بِـآلـظُّلْم صـغـيـراً وَسَـنَـامَـا
فَـآعْـتَـلَيْـنَـا مِـنْـكَ بِـالـعَـدْلِ سَـنَـامَـا
لَا تَـسَـلْ كَـيْـفَ نَـبَـذْنَـاكَ آنْـتِـقَـامَـا
شِـرْعَـةُ آلإنْـصَـافِ، نَـرْجُـو أنْ تُـقَـامَـا
عَـمِـيَ آلْـمَـسْـؤُولُ قَـبْـلاً أَمْ تَـعَـامَـى
عَـنْ نـدانـا، بَـلْ تَـصَـامَـى وَتَـعَـامَـى
فَـاحِشُ الأُجْـرَةِ، هَـلْ كَـانَ حَـرَامَـا
أمْ حَـلالاً، بَـلْ حَـرَامـاً وَحَـرَامـا
كَـمْ بَـكَـتْ فِـيـك آلأَيَـامَـي وآلـيَـتَـامَـى
وَشَـكَـت مِـنْـكَ آلـيَـتَـامَـى وَالأَيَـامَـى
وَلَـكَـمْ أوْرَدْتَ لِـلْقَـلْبِ سُـقَـامَـا
وَلَـكُـمْ دُسْـتَ صِـحَـاحـاً وَسِـقَـامَـا
كَـنْـتَ، كـالـصَّـيـادِ يَـرْتَـادُ الْـحَـمَـامَـا
في الـمَـلاهِـي، وَهِـيَ تَـرْتَـادُ الـحِـمَـامَـا
زِدْتَ مَـا نَـحْـمِـلُهُ، عَـامـاً فَـعَـامَـا
فَـغَـرِقْـنَـا، وَغَـرِيـبُ الـدَّارِ عـامـا
«مَـتَـلِيـكُ» آلأمْسِ قَـد أرْوَى آلأُوَامَـا
و «فـرَنْـك» آلـيَـوْمِ لَـمْ يَـرْوِ آلأُوَامَـا
عَـرَبَـاتُ، عَـرَفَـتْ نُـوحـاً وَحَـامَـا
وعَـلَيْـهـا آلـيَـوْمَ قَـدْ نَـاحَ وَحَـامَـا
عِـلَبُ الـسَّـرْدِيـنِ حَـاكْـتَـهـا آزْدِحَـامـاً
فَـقَـضَـى الـنَّـاسُ اخْـتِـنَـاقـاً وَازْدِحَـامَـا

الفصل الثامن عشر

البيروتيون في عاداتهم وتقاليدهم

قبل أن نخوض في حديث التقاليد الاجتماعية والعادات المحلية التي زالت من حياة البيروتيين، أو هي في طريق الزوال، مع ما تبقى من سنوات هذا القرن في مسيرته إلى نهايته الوشيكة، لا بد لنا من التذكير بأن هذه التقاليد والعادات كانت، إلى عهد قريب، موضوعاً ساخناً للحوار والمساجلة بين الأجيال القديمة وبين الأجيال الجديدة من الناس، في نفس البلد الواحد، والأمة الواحدة. ففي حين يتشبث أبناء الجيل القديم بالمحافظة على ما أدركوه من هذه التقاليد والعادات مستنجدين بالقيم الدينية والمفاهيم الوطنية في تأييد موقفهم، فإننا نجد أبناء الجيل الجديد يصرون على رفض الاستمرار على تبني عادات أسلافهم في حياتهم الاجتماعية ويندفعون في ركوب موجة التغيير تحت شعار مماشاة سنة التطور والانتقال من حال إلى حال وفقاً لما تدعو إليه مقتضيات الحضارة والعمران والظروف المستجدة للعيش. هذه الظروف التي لا بدّ لها من أن تتأثر وتتغير مع تبدل الزمان والسكان والمكان، أي العناصر التي تتشكل منها البيئة حسب المفهوم الاصطلاحي الحديث.

الطفل من الحمل إلى الوضع

نحن نرجع بالكلام عن هذا الطفل إلى ما قبل نحو القرن من أيامنا على الأقل، ذلك أن طفل هذه الأيام، ونحن في الهزيع الأخير من القرن العشرين الميلادي، يبصر النور لأول مرة، داخل الغرف المكيفة، على سرير أنيق وثير الفراش داخل المستشفيات الراقية التي صُممت وجهزت خصيصاً لاستقبال السيدات الحوامل عند المخاض، وتوليدهن بعيداً عن المضاعفات الصحية وفق أحدث المواصفات الطبية والفنية المعمول بها في أوروبا وأميركا.

أما قبل خمسين عاماً من هذا الزمان، وكذلك في الأعوام المتراخية التي امتدت سابقاً في أعماق القرون الخالية، فإن ولادة الطفل البيروتي كانت تتم عبر المراحل التالية، وهي نفس المراحل التي تمت بها ولادة جميع أطفال بيروت آنذاك على مختلف مستويات أهلهم وطبقاتهم الاجتماعية..

والحكاية من أولها:

إنه كان من السعادة الغامرة للزوجة وأمها أن تصبح «العروس» حاملاً في أقرب الأوقات من زفافها إلى بعلها، فإذا تمّ ذلك وشعرت الزوجة بهذا الحدث السعيد وأنها ستصبح أماً عما قريب، بادرت إلى نقل هذه البشرى إلى والدتها التي تشيع الخبر السارّ بين الأهل والأحباب، وتكون أمنية الجميع أن يأتي المولود ذكراً ليحمل اسم جده لأبيه، ويكون حلقة جديدة تكتمل به ذرية العائلة في سلسلة النسب المتوارث ما بين الأجداد والآباء والأبناء، مع الرفاه والبنين..

وابتداء من الشهر الخامس أو السادس للحمل يتفق أهل الزوجة وأهل الزوج على يوم يجتمعون فيه، ويحضر في هذا اللقاء بالضرورة والدة الزوجة وخالاتها وأخواتها وكذلك من يوازيهم ويقابلهم من أهل الزوج ويكون الغرض من تجمعهم معاً الاتفاق على ملابس المولود المنتظر ولوازمه في مستهل حياته بعد الولادة وإعداد هذه الأشياء لتكون جاهزة للاستعمال في الوقت المناسب.

وإذا حل الشهر الثامن للحمل أمّن الأهل المواد الأولية لطبخ «المغلي» وهو الحلوى الموسمية التي تقدم للضيوف المهنئين بالولادة. وهذه المواد هي أنواع من الأفاويه: الكراوية والقرفة، يضاف إليهما الأرز الناعم مع السكر، وبعد إنضاج الطبخة تسكب في كؤوس صغيرة ويغشى سطحها «بالقلوبات»، وهي خليط من الفستق الحلبي والصنوبر واللوز مع مسحوق جوز الهند، وهذا اللون من الحلوى لا يقدم إلا للضيوف المهنئين

بالمولود وسلامة أمه، ولا يتكرر تقديم «المغلي» إلا في نفس المناسبة.

وإذا حلّ الشهر التاسع الذي به تكتمل عدة شهور الحمل، وجاء المخاضُ الحاملَ وأحست بأنها على وشك الوضع، واشتد بها «الطلق» أرسل الخبر الخيِّر إلى ذويها والأقربين من أهل زوجها، واستدعيت «الداية» على جناح السرعة. وخلال مدة وجيزة تحضر هذه «الداية» ومعها كرسي خاص بالتوليد، يحمله الحمال على عاتقه. وهذا الكرسي عبارة عن مقعد خشبي ساذج، له ظهر يتصل به مسندان عن يمين وشمال، ومقعده مفرغ من وسطه بحيث تتمكن الداية من استقبال المولود عندما تضعه الحامل ويتم انفصاله عنها نهائيًا.

و«الداية» هي القابلة الأهلية التي حلت محلها اليوم «القابلة القانونية» أو الطبيب المختص. وكانت، عادةً، ترث مهنتها عن والدتها التي تكون قد مارست هذه المهنة بدورها بالوراثة عمن سبقها فيها من أسلافها. وقد غابت «الداية» عن مسرح العناية بالتوليد بعد أن حلت محلها «القابلة القانونية» المتخرجة في المؤسسات التعليمية الطبية الحديثة، وأول قابلة من هذا النوع عرفتها مدينة بيروت كانت الدكتورة سهيلة سعادة التي انتقلت إلى جوار ربها منذ عدة سنين.

الطبل والزمر للمولود الذكر فقط

منذ أيام الجاهلية الأولى قبل الإسلام، وحتى اليوم الذي نحتفل فيه بالقرن الخامس عشر للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، فإن العرب - ونحن منهم - يستقبلون المولود الذكر بالحبور والسرور، وإذا رزق الله أحدهم بنتاً ظلّ وجهه مسودًا وهو كظيم!

ولقد كانت عادة أهل بيروت إذا جاء المخاض المرأة فيهم أن يتربص أهلها وأهل زوجها من النساء إهلال المولود على يد «الداية» فإذا كان صبيًّا ارتفعت الزغاريد، وترددت عبارات التهاني بين الجميع، وتحرص كل واحدة من الحضور على نقل هذه «البشارة» إلى والد المولود لكي تفوز بالهدية التي ينفرد بها أول من يبلغ نبأ هذا المولود. وهذه الهدية كانوا يسمونها «البشارة» وهي عبارة عن مبلغ من النقود يقدمه والد المولود، ومقدار هذا المبلغ يتفاوت بحسب إمكانات من يدفعه. وفي صباح اليوم التالي يحضر الضارب على الطبل ومعه زميله النافخ بالزمر بعد أن يكونا على علم بولادة الغلام من قبل «الداية». ومهمة الطبل والزمر في هذه المناسبة هي تهنئة أصحاب العلاقة وإعلام جيرانهم بنبأ الحادث السعيد بالمولود الذكر الجديد وذلك من أجل تعميم الخبر والمشاركة بالمسرات سواء بالحضور أو بتقديم الهدايا المناسبة.

وفي أثناء قيام الطبّال بالضرب على طبله الضخم، فإنه كان يرفع عقيرته بـ «التصحيف» وهو قوله: صحايف فلان.. وكل من يحب فلان.. خلف الله عليك، حبًّا بالمولود ووالد المولود.. وهي عبارات تنطوي على معاني التمجيد والتنويه بالمذكور وكذلك التهنئة بالمولود.

وكان الطبّال يضرب على طبله بإيقاع متقطّع معين كلما قال جملة في هذا المعنى.

وكان جيران البيت الذي تمت فيه الولادة ينتهزون حضور «جوقة» الطبل والزمر ويطلبون إلى الطبال «التصحيف» لمن يهمهم أمره من زوج أو ولد أو قريب أو صديق مقابل مبلغ من النقود الرائجة وقد يصل هذا المبلغ إلى ربع ليرة «سورية» أو يقف عند خمسة قروش. وذلك تبعاً لإمكانات الراغب «بالتصحيف» أو مكانته.

وجدير بالذكر أن «طبل الزغلول» قد اشتهر في تلك الأيام وكان استحضاره في الولادات من علامات الوجاهة بين أفراد المجتمع الإسلامي آنذاك، كما أن من هذه العلامات أيضاً طول المدة التي تبقى فيها جوقة الطبل والزمر قائمة بعملها أمام بيت صاحب العلاقة.

موكب أولاد الكتاتيب

بعد انتهاء حفلة الطبل والزمر يأتي دور أولاد الكتاتيب. والكتاتيب ومفردها: كُتّاب، هي المدارس البدائية التي كانت شائعة في ذلك الحين، وفيها تلقى الكثيرون من أبناء جيلنا علومهم الأولى في الدين واللغة ومبادىء الحساب بالإضافة إلى حفظ القرآن الكريم.

وكان هؤلاء الأولاد يتوافدون من كل كُتّاب صفوفاً منتظمة وأمام كل صف عريف يتقدم جماعته حتى إذا ما وصلوا إلى بيت المولود نادى العريف بصوت مرتفع: «صالّوا» وهي كلمة «صلوا» ممدودة، والمراد بها دعوة جميع الأولاد للصلاة على النبي بقولهم «اللهم صلّ على سيدنا محمد» وبقية الدعاء المأثور بهذا المعنى، وتكون هذه الحركة بمثابة إشعار لأصحاب البيت بوصول هؤلاء الأولاد للمشاركة في مراسم الفرح بالمولود على طريقتهم، فيؤذن لهم بالجلوس على شكل حلقة تجاه البيت، ومن ثم يبادرون إلى إنشاد، بعض المدائح النبوية التي فيها صلاة وتسليم على البشير الأمين النبي الكريم محمد، ويختتمون إنشادهم بالدعاء للمولود وكذلك لأبيه وأمه وسائر أهله. وبعد انتهاء كل فريق من الأولاد بتأدية دوره في الإنشاد والدعاء ينصرفون من حيث أتوا بعد أن يعطى لهم «المعلوم» أي

النفحة المالية المألوفة في مثل هذه المناسبة.

وفي نفس اليوم أو اليوم التالي تستقدم «المغاني» أي النسوة اللاتي يحترفن الرقص والغناء، وكن في الغالب من غير المسلمين، ويستمر حضور هذه «المغاني» طيلة الأيام التي يستمر فيها تردد الأهل والأحباب على بيت المولود لأجل تقديم التهاني. وتكثر هذه الأيام أو تقلّ تبعاً لكثرة الوافدين أو قلتهم وحسبما تقتضيه ظروف أصحاب البيت ومستواهم الاجتماعي أو المالي. وأحياناً ينصرف المهنئون عقب الولادة مباشرة بعد أن يتناولوا ما كان يسمى طعام «الخرس» وهو طعام خاص بمناسبة الولادة. وجرت العادة أن تبقى والدة النفساء في بيت ابنتها دون سائر الناس، وذلك لتقديم المساعدة المطلوبة ووضع خبرتها وتجربتها في خدمة المولود ووالدته.

تقديم المغلي وتقبل الهدايا

ولا بد من القول بأن الولادة هي من المناسبات التي ينتهزها أهل المولود وأصدقاؤهم للإعراب عن متانة الروابط التي تشدهم بعضهم إلى بعض. ولذلك فإن أهل المولود لا يكتفون بتقديم «المغلي» لمن يزورونهم فقط، بل إن الكؤوس المترعة بهذه الحلوى ترسل إلى أكبر عدد ممكن من المعارف، فضلاً عن الأهل الذين لم يتمكنوا من الحضور بأنفسهم إلى بيت المولود. وغني عن القول بأن هذه البادرة فيها إيحاء غير مباشر إلى من تصل إليهم كؤوس «المغلي» من الحاضرين والمتخلفين بضرورة مجاملة أهل المولود بتقديم الهدايا المناسبة سواء كانت هذه الهدايا نقدية أو عقارية أو عينية. وهو ما يسمى «النقوط»، ولعل أصل الكلمة «النقود» بدال في آخرها. وأبدلت الطاء بالدال على لسان الناس في لهجتهم العامية الدارجة. فلقد كانت العادة أن يقدم الأهل والأصدقاء، على اسم المولود، الهدايا التي قد تكون من السكر والأرز والبن. وربما جعل بعضهم «نقوطه» حجّة («سنداً») بعقار يسجل باسم المولود أو مبلغاً من النقود الرائجة تحفظ له في علبة مقفلة تسمى «قجة» أو يعطى هذا المبلغ لوالده كي يستعين به في تجهيز ولده بالحاجيات الضرورية له أو تغطية نفقات ولادته وما يتصل بها من تكاليف طارئة.

على أن غالب الناس يجعلون «نقوطهم» عبارة عن قطعة ذهبية «صيغة» تكبر وتصغر حسب ظروف مقدمها أو مقامه الاجتماعي. وعلى هذه القطعة نقيشة تتضمن آية الكرسي أو سورة الفاتحة أو البسملة أو جملة «ما شاء الله» وهي آيات من القرآن الكريم يتداولها الناس للتفاؤل في أن يحفظ الله المولود. وهم يحرصون على تعليق هذه «النقوط» الذهبية المرصعة بالآيات القرآنية ومعها «الشبّة والخرزة الزرقاء» في مقدمة ثياب المولود. أو من جهة كتفه، وذلك من قبيل الزهو والتفاخر والتدليل على ذكورة المولود. أو على سبيل البركة الدينية والتماساً لفيوضات الرعاية الربانية رجاء حفظه من عيون الكاشحين والحاسدين.

حلقات أخرى في سلسلة تكريم المولود

وسلسلة تكريم المولود إن كان صبيًّا ذات حلقات يأخذ بعضها برقاب بعض. هذه الحلقات تكون إما بين يدي الولادة عندما يبصر المولود النور لأول مرة على أثر وضعه، أو تكون بعد الولادة وخلال أيامه الأولى في رحاب هذه الدنيا بعد انطلاقه من رحم أمه. ويجب أن لا يفاجأ أحد إذا قلنا هنا بأن للمولود الجديد، إن كان صبيًّا، ثلاث مراحل، أو ثلاث مناسبات للاحتفال به وتكريمه. الأولى: الثالث، وهو اليوم الثالث لاقتباله على يد «الداية»، والثانية: الأسبوع، وهو ذكرى مرور سبعة أيام على ولادته. والثالثة: الأربعين، أي بلوغه سن الأربعين يوماً، وهو بالسلامة والعافية مما يؤذن بحفظ الله له من كل سوء أو خطر على حياته.

ومن العجيب أن هذه المناسبات الثلاث قد دخلت في عوائد الناس فهم يراعونها عند فرحهم بالمولود كما يراعونها عند حزنهم بالمفقود. ولعل هذه المراسم التقليدية هي من بقايا المعتقدات الموغلة في القدم، يوم كانت للأعداد قداستها الروحية التي ارتبطت بها من الفلسفة الفيثاغورية التي تنسب إلى الفيلسوف فيثاغورس اليوناني الذي عاش قبل ميلاد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

ففي هذه المناسبات الثلاث تتركز زيارات الأهل والأحباب لبيت المولود حيث يشربون مستحلب القرفة واسمها عندهم «إينار» وهي من الماء المغلي بشيء قليل من القرفة، البهار المعروف، ويضاف إليها بعد الغلي قليل من الصنوبر لأجل تزكية نكهتها وجعلها طيّبة المذاق. وبعض الناس كانوا يضيفون إلى المناسبات المذكورة مواسم أخرى لتكريم مولودهم «الصبي» وتكريم المهنئين به أيضاً، من ذلك أن يولموا لهؤلاء المهنئين بمناسبة حلق شعر رأسه لأول مرة، طعاماً خاصًّا يدعى «العقيقة» والعقيقة من التقاليد التي ورد ذكرها في السنة النبوية. كما كانت العادة أن يجتمع النساء في اليوم الثالث لفرك (تدليك) جسم المولود بدهن اللوز (زيت اللوز) أو السيرج والمحلب والملح. وذلك لاعتقادهم بأن ذلك يكسب جسمه المناعة والصمود ضد التهاب الجروح في المستقبل.

وعند تقليم أظافر المولود لأول مرة، تجمع أمه هذه القلامات وتقدمها لأبيه مقابل حفنة بوزنها ـ رمزيًّا ـ من النقود تكون بمثابة

هدية من الزوج لأم وليده التي أهدته غلاماً يستمر به ذكر عائلته ويحفظ نسبه في عقبه وذريته.

ومن المواسم الملحوظة مع البهجة والسرور في الشهور الأولى للمولود أن «تتحرك عليه أسنانه» أي أن تبدأ أسنانه بالبروز. وهو أمر تستقبله أسرته: أمه وأبوه وسائر أهله، بالفرح العميم، وبهذه المناسبة تجتمع نساء الأسرة مع من يتصل بهن بوشائج المحبة والصداقة في بيت المولود حيث تقدم لهن «القمحية» التي تطبخ خصيصاً لهذه المناسبة. والقمحية هي القمح المقشر الذي ينضج بسلقه في الماء، ثم يُحلّى بالسكر ويوضع في كؤوس صغيرة ومعه القلوبات، من اللوز المقشر والفستق الحلبي والجوز وأحياناً يضاف الزبيب إلى هذه القلوبات.

وفيما تكون النساء منهمكات بتناول القمحية ذات الطعم اللذيذ وتبادل الأحاديث التي تدور كلها تقريباً حول صحة المولود الجديد وتأثير أسنانه على نشاطه بشكل عام.. ولا تخلو هذه الأحاديث بالعادة من التنويه بجمال «المحروس» ولا سيما إذا كان أبيض البشرة أزرق العينين وأشقر الشعر.. يشبه أولاد الفرنج! في هذه الأثناء فإن أولادهن الصغار من بنين وبنات ينتحون جانباً من المنزل ويرفعون أصواتهم الحادة الرنانة بالأغاني التي تعكس فرحتهم بالمولود وتعبر عن رغبتهم في المزيد من الحلوى التي يسيل لها لعاب كل الأولاد في كل المناسبات ويملأون جو ذلكم الاجتماع الحميم بمثل قولهم:

يـا أم الـمـولـود حلينـا   لولا المولـود، ما جينا!..

تقاليد أخرى من السنة النبوية

إذا كان ما ذكرناه فيما قبل يندرج في إطار التقاليد والعادات الشعبية بالنسبة للمولود في أيامه الأولى، فإن هناك تقاليد وعادات أخرى بيد أنها في الواقع تستند إلى مأثورات دينية ترجع في الأصل إلى السنة الشريفة التي مورست فعلاً أيام النبي ﷺ بل ومن قِبَله هو شخصيًّا أو بإقراره وتحبيذه. من ذلك:

١ ـ إلقاء الأذان الشرعي في أُذن المولود اليمنى وإقامة الصلاة في اليسرى، ساعة ولادته.

٢ ـ تحنيكه، أي إجالة حبة تمر في فمه، ساعة الولادة أيضاً.

٣ ـ ختانه، أي قطع القلفة الزائدة في عضوه التناسلي.

هذه الممارسات الثلاث التي كانت مرعية بشكل دائم في أيام أجيالنا السابقة إلى جانب ما ذكرناه من التقاليد والعادات الأخرى، هي في الواقع جزء من تراثنا الروحي، ذلك أنه وردت عن لسان النبي محمد ﷺ أحاديث تحض المسلمين على أن يجعلوا الأذان أول ما يلقى في آذان أطفالهم عند بدء رحلتهم في هذه الحياة الدنيا، وأن يجعلوه كذلك آخر ما يودع به أفرادهم عند انتقالهم إلى جوار خالقهم عز وجل. ولعل ذلك من أجل التأكيد على أن الإسلام يبدأ مع المسلم مع بداية حياته ويعايشه في جميع أحواله وتقلباته إلى حين وفاته.

وكذلك أثر عن النبي محمد ﷺ أنه أجال حبة التمر في فم بعض المولودين حديثاً في أيامه، واقتدى أصحابه به. وقد تكون الغاية من هذه البادرة تأكيد النبي ﷺ على الرابطة «القومية» بين الدين الإسلامي وبين البيئة العربية التي احتضنته وكانت منطلقاً له في سيرته الحضارية عبر التاريخ الإنساني. ولا بدع، فإن النخلة التي أمدت الإنسان العربي في جزيرته بغذائه الرئيسي في حله وترحاله وسلمه وحربه وغدت رمزاً لتراثه القومي مع امتداد التاريخ والزمن، إن هذه النخلة بالذات كرمها الله عز وجل بذكرها في كتابه العزيز كما أن النبي ﷺ نفسه نوه بها في أحاديثه وأوصى جماعته بها في قوله: «أكرموا عمتكم النخلة» وعلى هذا يكون في «التحنيك» إيماءة رفيقة ودقيقة إلى ضرورة الوفاء لهذه المعاني التي ذكرناها.. وفوق كل ذي علم عليم.

أما بالنسبة إلى الختان، فإن هذا التقليد عرفته المجتمعات الأخرى خارج الأرض العربية، وقبل ظهور الإسلام نفسه. وقد اعتمده الإسلام ولكن في حدود الاختيار المقرر في السنة النبوية الشريفة وليس عن طريق الإلزام الشرعي أو الأمر الديني.

الختان

في الاصطلاح البيروتي الدارج يقال «الطُّهور» ولست أدري إطلاق هذه التسمية على عملية الختان، وربما كان ذلك لأن فيها نوعاً من تطهير العضو التناسلي من الأوضار والأوساخ التي يمكن أن ترسب تحت القلفة الزائدة في هذا المكان الحساس من الجسم. والأتراك يطلقون على الختان اسم «سُنّت» أي السنة.

أما الذي يمارس عملية الختان فهو شخص اكتسب خبرته «الطبية» أو الجراحية بالممارسة. وقد تكون حرفته هذه وصلت إليه بالوراثة عن أبيه الذي كان يمارسها هو الآخر عن أسلافه، ويسميه الناس «المُطَهِّر» أي الذي يحترف مهنة التطهير ـ أي الختان ـ ومما أذكره عن والدتي أن هذه المهنة كانت محصورة تقريباً بأبناء الطائفة اليهودية التي اشتهر منهم قديماً «سلمون اليهودي» وهو الذي قام بختان الكثيرين من أبناء بيروت في ذلك الحين. وقد جرت العادة أن يتم ختان الغلام وهو لمّا يزل قريباً من عهده بالولادة، وغالباً ما يكون ذلك في اليوم السابع من

مولده، وبهذا التعجيل تمضي العملية الجراحية البسيطة بدون مضاعفات كما تمر على الغلام الصغير المختون دون أن يدرك ملابساتها وآلامها.

ولقد عرف المتقدمون في السن من البيروتيين «الزفة» في مناسبتين، الأولى عند الختان، والثانية عند الزواج. وكلتا الزفتين من مواسم الأفراح الجماعية التي كان أهل البلد يشاركون فيها ويقبلون عليها بكل سرور وحماس.

وللختان مراسم كان البيروتيون يتقيدون بها مهما اختلفت مراتبهم وطبقاتهم الاجتماعية. وهذه المراسم تبدأ بإحضار «المغاني» أي المغنيات إلى منزل صاحب العلاقة وتجريد الغلام من جميع ملابسه الداخلية وإلباسه قميصاً من اللون الأبيض أو الأزرق أو الزهر. وهو ما كان يسمى آنذاك بـ «السركس» ويضعون في رقبته سلسلة ذهبية تمتد حتى أبطه وفي نهايتها قطعة من الذهب أو ليرة عثمانية ذهبية وعلى رأسه طربوش مزين بالصدف اللماع على شكل نجوم وأهلّة صغيرة، وكذلك بالزهور العطرة لا سيما الزنبق البلدي. وإذا كان الغلام من أبناء «الذوات» - أي الوجهاء - فإنهم يجعلونه على حصان أصيل مثقل بالدنادش والخلاخيل المفضضة، ويمسك بالحصان شابان يحولان دون جموحه خوفاً على الغلام من أن يقع أو يضطرب، وأمام الموكب لاعبو السيف والترس (لعبة الحكم) يقعقعون بسلاحهم الأبيض بألعاب الفروسية على أنغام الطبل والمزمار ورنين المزاهر والخليليات (أي الدفوف والصنوج) وجماهير الموكب الذي كان يضم الشبان الذين يحفون بالغلام وهو على حصانه المطهم، وتغص بهم الطرقات التي كانت أشبه شيء بالأزقة وهي تضيق، في العادة، حتى بالعدد القليل من المارة، وكلما مرّ الموكب بدار من دور أهل الفضل والوجاهة وقف الجمهور لقراءة «الفاتحة» بصوت مسموع تحية لأصحاب هذه الدار. وربما استدراراً «لنقوطهم» وكان المشتركون في الموكب يحرصون على أن يكون طريق ذهابهم غير طريق إيابهم ليشاهد «عراضتهم» أكبر عدد من السكان في مختلف الطرقات.

وقد لا تخلو «الزفة» أحياناً، أثناء مطافها الصاخب عبر أزقة البلد وطرقاتها من أهل النخوات (القبضايات) الذين ينتهزون الفرصة للإعلان عن قوتهم وشدة بأسهم بإطلاق البارود من الغدارات والطبنجات (المسدسات) والقرابينات (البنادق القصيرة) والإبراهيميات (البنادق المنسوبة إلى إبراهيم باشا المصري)، حتى إذا أتمت «الزفة» جولتها وعاد المحتفلون من حيث أتوا، يدخل أصحاب «النوبة» بمزاهرهم وخليلياتهم، وكذلك يدخل المدعوون غرفة الختان وفي وسطها مسند مبسوط على الأرض، والمُطهِّر حاضر أمام هذا المسند وبجانبه رجل قوي البنية لمساعدته في مهمته وضبط الغلام أثناء هذه المهمة.

ويبادر المطهر إلى تجهيز «عدة الشغل» وأهمها موسى الحلاقة التي يشحذها جيداً لتؤدي مهمتها بسرعة ودقة تخفيفاً لآلام المختون. وفي هذه الأثناء يؤخذ الغلام إلى والدته فتفرح به وتقبله وتسرع إلى تجريده من زينته، ولا تبقي عليه سوى «السركس» ثم تسلمه إلى الرجل القوي الذي يمدده على المسند بالشكل الذي يساعد المطهر على إنجاز مهمته بيسر وسهولة. ثم إن الرجل القوي المذكور يمسك الغلام من يديه ويضعهما تحت رجليه، لكي يثبت الغلام ولا يقدر على التحرك لئلا يجرح نفسه أو يربك المطهر أثناء قيامه بعمله، وكذلك فإنهم كانوا يحجبون وجه الغلام بمنديل صفيق حتى لا يرى الموسى بيد المطهر. وعندما يبدأ المطهر بعمله تبدأ النوبة بالضرب على المزاهر وصفق الخليليات حتى لا يسمع الحضور صراخ الغلام عند قطع القلفة الزائدة.

وعند الانتهاء من عملية الختان يقوم أهل الغلام «بتوجيب» أي بتكريم ضيوفهم فيقدمون لهم الحلوى، من معمول وغريّبة وكنافة، ثم تغيرت هذه العادة وصارت الضيافة قاصرة على راحة الحلقوم، وإلى جانبها المرطبات، من الليموناضة أو ماء الورد. وقبل انفضاض الجمع وانصراف المدعوين تنهال «النقوط» من الأقارب والأصحاب على الغلام. وفي أيام الأتراك كانت «النقوط» بمناسبة الختان من الليرات العثمانية الذهب أو المجيديات أو البشالك (العملة الرائجة آنذاك). وبعد الاحتلال تحول الناس إلى تقديم النقوط بقطع الذهب أو بمبالغ نقدية من العملات المستحدثة.

وعند انصراف المدعوين يودعهم على الباب الطبال والزمار وهما يطبلان ويزمران ويلبيان الراغبين بالتصحيف، على نحو ما أشرنا إليه في كلامنا عند ولادة المولود. وكذلك المغنيات، فإنهن يقلبن أحد دفوفهن لكي يضع فيه المدعوون شيئاً من «النقوط» حسبما تسمح به نفوسهم.

وجرت العادة عند بعضهم أن يستبقوا في دارهم خاصة الأهل والأصدقاء ويقدموا لهم «العزيزة» وهو لون من الطعام الذي يطبخ بمناسبة الختان فقط ولا يتكرر في غير هذه المناسبة.

ومن العادات المألوفة في أيام زمان ما يمكن تسميته بالختان الجماعي الذي يتم فيه «تطهير» أبناء الحي بالجملة اختصاراً للوقت أو للنفقات، أو احتفاء بتطهير ابن أحد الأعيان أو الموسرين. وفي هذا الختان الجماعي يجري إحصاء الأولاد المرشحين للختان ويتم جمعهم كلهم في دار أحدهم ويمددون على السرير - بالعرض - ومن ثم يتم ختانهم دفعة واحدة من قبل

ختان واحد. فإذا كان صاحب الدار من أهل الثروة واليسار تولى تغطية كلفة الجميع من ماله الخاص، وإذا لم يكن كذلك تحمل كل والد كلفة ختان ولده.

والختان الجماعي الذي يتحمل نفقاته شخص بعينه قد يدل أحياناً على أن هذا الشخص قد رزق بغلام بعد طول انتظار أو بين عدة بنات فهو يقوم بتجميع أولاد جيرانه من أهل الحي الذي يسكنه ليتم ختانهم على حسابه تكريماً لمولوده أو كما كانوا يقولون «وحيده».

وختان الأولاد وزواج الشبان كانا عند أهل بيروت أيام زمان من مواسم الاحتفالات والأفراح الشعبية التي ينتهزها بعضهم لإثبات وجاهته أو تأكيد مكانته في الحي أو في البلد. وكانت العادة أن يسبق يوم الختان ليالي أفراح، حسب أحوال عائلة الغلام الذي يراد «ختانه». فالأغنياء وكبار الأعيان كانوا، في هذه المناسبة، يدعون أهلهم وأصدقاءهم وسائر معارفهم إلى بيوتهم ويحضرون المطربين وأهل الطبل والزمر، ويقدمون للمدعوين القهوة وأنواع المرطبات، كما كان يطاف على هؤلاء المدعوين بصحاف الحلوى على أشكالها المختلفة.

أما الطبقة المتوسطة أو غير الموسرة من المجتمع البيروتي فكانوا يستقبلون مدعويهم أمام منازلهم في الطرقات العامة حيث يفرشون الحصر ويستحضرون الكراسي من المقاهي وينيرون المشاعل وقناديل الزيت..

وأحياناً كان بعض الناس يستعيرون ديار منزل «أبو عسكر» (وهو من حكام بيروت ومنزله كان يقع أمام الجامع العمري الكبير في محلة تدعى «زاروب الشيخ رسلان») فيصفون الكراسي ويسرجون القناديل والمصابيح ويدعون مواطنيهم لمشاركتهم أفراحهم بختان مولودهم على أنغام جوقة المطربين المؤلفة من «القانونجي» و«الكمنجاتي» وصاحب «الدائرة» - أي الضارب على الدف - والنقرزان، وكان يتخلل هذه الأفراح فصول مسرحية يؤديها «الكركوزاتي» وغير ذلك من ضروب الألعاب المسلية التي كانت شائعة في تلك الأيام.. سقاها الله، ما كان أسعدها من أيام..

الفصل التاسع عشر

العيد في بيروت بين الماضي والحاضر

يحتفلُ المسلمون في بيروت بعيد الفطر وعيد الأضحى، وهما العيدان الشرعيان اللذان قررهما الإسلام مناسبة للراحة من عناء العمل ولإظهار السرور والابتهاج من خلال بعض الشعائر والمناسك الدينية.

والأعياد في الواقع فرصة مواتية للاستجمام الروحي وشدّ أواصر المجتمع عن طريق تبادل الزيارات والمجاملات المتقابلة.

ولقد كان للأعياد الإسلامية في بيروت طقوس ومراسم وتقاليد، تلفت إليها الأنظار بما فيها من العادات الاجتماعية الطريفة التي يمارسها الناس على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم، لا سيما خلال عيد الفطر (ويشتهر بالعيد الصغير) وعيد الأضحى (ويشتهر بالعيد الكبير)، وترجع شهرة الأول بالصغير لأن عدد أيامه ثلاثة، بينما الثاني عدد أيامه أربعة.

العيد الصغير

وهو العيد الذي يجيء بعد شهر رمضان المبارك مباشرة، فيفطر الناس بعد أن يكونوا أمضوا ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين صائمين عن الطعام والشراب والنساء ما بين حلول الفجر وأفول الشمس.

ولهذا العيد أهمية خاصة بالنسبة لربّ العائلة الذي تواجهه في هذه المناسبة، تبعات مادية استثنائية بالنسبة لأبنائه وعياله. فهؤلاء يستفيدون من حلول أول العيدين ليظفروا بالجديد من الثياب والجميل من الهدايا والطريف من الألعاب.

ولقد جرت العادة بأن ما يشتريه الآباء لأبنائهم وأهليهم في هذه المناسبة يكون كافياً لاستعمالهم اليومي طوال السنة بكاملها تقريباً. لذلك يحرص أفراد العائلة جميعهم في الغالب على أن يُؤمّنوا لأنفسهم كباراً وصغاراً، كافّة الملبوسات التي قد يحتاجون إليها خلال العام حتى لا يفاجأوا بطلبات أخرى فيما بعد.

ومن جراء تهافت الناس على تأمين مطالب العيد من كل جديد، فإن الأسواق التجارية في بيروت تتحول إلى خلايا يضطرب فيها البائعون والمشترون من كل جنس ومن كل لون.

تقاليد خاصة

ولعيد الفطر تقاليد دينية واجتماعية خاصة به دون العيد الكبير، من ذلك أن المسلمين بعد ان يودّعوا رمضان في آخر ليلة من لياليه المباركة، يقبلون صبيحة يوم العيد إلى المساجد لأداء الصلاة والاستماع إلى خطبة الإمام، ثم ينصرفون بعدها لتقديم المبرات الخيرية إلى المحتاجين من آلهم وذوي قرباهم. وهي المبرّات التي تعرف بصدقة الفطر أو الفطرة، حتى إذا اتموا هذا الواجب، عادوا إلى بيوتهم محملين بالحلوى المعروفة بـ «المعمول» وهذا النوع من الحلوى يعتبر من متممات مظاهر العيد الصغير ويكاد لا يخلو منه بيت مهما كانت ظروفه المالية أو طبقته الاجتماعية.

ومن جميل ما يتبع في هذه الأيام أن المراجع الدينية من إسلامية ومسيحية، تنتهز فرصة هذا العيد لتقوم بزيارة المساجين في سجونهم حاملة إليهم أطباق الحلوى لا سيما المعمول كي لا تفوت هؤلاء البؤساء فرحة العيد و تقاليده الخيرية.

ومن خصوصيات العيد الصغير كذلك شراب الورد الذي يقدم للضيوف إلى جانب المعمول، ولا يحصل بمناسبة العيد الكبير شيء من هذا.

العيد في أيامنا

يبدأ العيد في بيروت من الليلة التي تسبق صبيحته الرسمية مع طلقات المدفع التي تدوي في أفق المدينة معلنة إثباته شرعياً

بإشارة من دائرة الفتوى في الجمهورية اللبنانية.

ومع طلقات المدفع يقبل الأبناء على والديهم بالمباركة والتهنئة مع تقبيل أيديهم، ثم يسرعون إلى أغراضهم وحاجياتهم الجديدة من أثواب وألبسة وأحذية وألعاب ويضعونها قرب أسرّتهم لتكون جاهزة لاستعمالهم في اليوم التالي، فإذا أصبح الصباح، أسرعوا إليها مع طلوع الشمس، فخورين بجدتها ومزهوين بألوانها المختلفة بين أبيض وأصفر وأحمر... وفي أيديهم العيديّة التي هي عبارة عن المبالغ النقدية التي يجمعونها من والديهم والكبار من أقربائهم، كي ينفقوها على ما يرضيهم من وسائل اللهو والتسلية وركوب السيارات والدواب ومشاهدة الأفلام السينمائية.

الكبار في العيد

وإذا كان الصغار من الأطفال والأولاد، ينتهزون فرصة العيد للانتشار في الساحات والطرقات والشوارع الرئيسية، فإن الكبار من الرجال في هذا العيد لهم شأن آخر.

فهؤلاء يتوافدون زرافات ووحداناً إلى مساجد المدينة الموزعة في الأحياء والضواحي لأداء صلاة العيد وتبادل التحيات والمباركات مع سائر المؤمنين ويعودون إلى بيوتهم ليستأنفوا من ثمّ زياراتهم التقليدية في هذه المناسبة الدينية الموسمية.

وفي هذه الزيارات، يتلاقى الناس، لا سيما أبناء العائلات التي تجمعها صِلات الرحم والقرابة أو أواصر الصداقة، وقد جرت العادة بأن يقدم للزائر الشوكولا والملبّس على أطباق من المعدن الصقيل أو البلور المزخرف أو غير ذلك من الأواني وذلك بحسب وجاهة صاحب الدار ومكانته في قومه، فيكتفي الزائر بتناول حبة من هذه الشوكولا أو من ذلك الملبس أو من كليهما معاً، ثم ينصرف بعد قليل ليتمكن من القيام بواجبه نحو أكبر عدد ممكن من أفراد العائلة أو الأصدقاء تأكيداً لصلة الرحم التي أمر بها الدين أو صِدْق العاطفة الأخوية التي يستحسنها المجتمع.

البطاقات مقام الزيارات

على أنه في الأيام الأخيرة، أخذ فريق كبير من الناس، لا سيما كبار الموظفين في الدولة أو المؤسسات الخاصة، يستعيضون عن الزيارات الشخصية بالبطاقات التي تحمل أسماءهم فيرسلونها محملة بعبارات المجاملة المناسبة، إلى معارفهم وأندادهم من الأصدقاء في نفس المدينة أو خارجها وذلك بسبب اتساع البلد وترامي أحيائها وأطرافها، وكذلك بسبب العلاقات بين الأفراد وكثرتها بحيث لا يتمكن المرء أن يؤدي الزيارة الشخصية لكل من تربطه به صلة أو قرابة أو صداقة أو عمل.

معايدة الزعماء والرؤساء

والعيد في بيروت أصبح من المناسبات التي يستغلها الزعماء والنواب والرؤساء لإظهار نفوذهم بين مواطنيهم ومكانتهم في بلدهم لبلوغ مراكز سياسية يطمحون إليها، لذلك تراهم يعلنون في الصحف الدارجة عن استعدادهم لاستقبال التهنئة، ويفتحون بيوتهم طيلة أيام العيد لاستقبال الراغبين في زيارتهم، وشباب الأحياء لا يخيبون أيّ واحد من أهل الوجاهة والحكم والزعامة على ما بين هؤلاء من تفاوت أو تناقض أو خلاف، بل يزورونهم جميعا مجتمعين أو منفردين مرددين في كل بيت يدخلونه نفس العبارات أمام صاحبه، وكأنهم ينقلونها على شريط مسجل، وذلك حرصاً على مصالحهم أو حفاظاً لحسن العلاقة بينهم وبين من يزورونهم من هؤلاء الزعماء والوجهاء والرؤساء. وكانت العادة قبل مدة أن يتجمع أبناء كل محلة عند باب زعيمهم، شيخ الشباب، ويتبارون في إطلاق العيارات النارية من مسدساتهم الحربية بيد أن هذه العادة خفت اليوم بفضل وعي الناس وحزم السلطات المختصة.

العيد في المراسم الحكومية

والدولة في لبنان، حريصة على مشاركة المواطنين المسلمين في أعيادهم والإسهام في مجاملة رؤسائهم الدينيين والمدنيين في مثل هذه المناسبات.

وعلى هذا فإن الحكومة اللبنانية، تعلن في كل عيد عن منهاج رسمي تتولى تنظيمه وزارة الداخلية وتشرف على تنفيذه بواسطة قوى الأمن والشرطة المحلية.

ففي صبيحة يوم العيد تزين الطرقات المؤدية إلى الجامع العمري الكبير ودار الفتوى بالأعلام اللبنانية وسعف النخيل الأخضر، وتُنصب على بابي الجامع ودار الفتوى أقواس النصر وعليها لافتات التأييد والترحيب بعبارات جميلة وخط أنيق.

وفي موعد الصلاة يحضر إلى الجامع رئيس مجلس الوزراء، وهو عادة مسلم من أهل السنة والجماعة، وبعد أن يؤدي مع المصلين ما عليه من سنة العيد المؤكدة يتوجه في موكب رسمي إلى داره حيث يزوره رئيس البلاد، وهو عادة نصراني على المذهب الماروني ويتوجه الرئيسان في موكب حافل تحف بهما ثلّة من رجال الشرطة والجيش على الدراجات النارية وهم في حُلّة التشريفات الرسمية، إلى دار الفتوى الواقعة في محلة الزيدانية حيث يكون بانتظارهما سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية يحيط به العديد من نواب المدينة ورجال الدين ورؤساء

الجمعيات الإسلامية. وجرى التقليد مؤخراً بأن يكون مفتي الشيعة إلى جانب مفتي الجمهورية في هذه المناسبة إظهاراً لتضامن المسلمين ووحدتهم.

وبعد إلقاء الخطب المناسبة وتناول حلويات العيد والمرطبات ينصرف الجميع وسط جو حافل بالعواطف الوطنية الحميمة المتبادلة والمجاملات الاجتماعية الرقيقة.

النصارى يشاركون المسلمين

ومن المظاهر الوطنية الجميلة في العيد، أن اللبنانيين جميعاً على اختلاف مللهم ونحلهم يتشاركون في الإعراب عن عواطف المعايدة، فيأتي الرؤساء الروحيون للطوائف النصرانية بأثوابهم الدينية المهيبة إلى دار الفتوى ويؤلفون مع العلماء المسلمين وعلى رأسهم سماحة مفتي الجمهورية الاكبر، منظراً جميلا يعبر أصدق تعبير عن الوحدة الوطنية التي تجمع شمل المواطنين اللبنانيين في رباط وثيق من الحب والأخوة.

والجدير بالذكر أن نقابات التجار والعمال ،أصحاب الحرف والمهن الحرة الأخرى كانت تعمم جميعها على الأفراد المنتسبين إليها بضرورة التعطيل في أول أيام العيد ليتسنى للجميع، مسلمين وغير مسلمين، الاشتراك في مباهجه ولياقاته، وكما يحصل بمناسبة الأعياد الإسلامية، يحصل كذلك في مثله في أعياد النصارى وبنفس الروح والشكل.

العيد أيام زمان

ذكرنا فيما تقدم، كيف يعيد أهل زماننا حكوميًا وأهليًا، أما آباؤنا الأقربون، أي منذ حوالى أوائل القرن من هذا التاريخ، فقد كانوا يجتمعون في ساحة المصلى وباب السراي، وكانت هذه الساحة تقع إلى غربي سراي الحكومة، التي يقوم مكانها اليوم سوق سرسق، وشرقيها كانت الطريق المؤدية إلى محلة المدوّر على المرفأ، وجنوبها خان الوحوش وسهلات البرج (ساحة الشهداء حالياً). ويقال إن ساحة المصلى هذه كانت في الأساس جبانة المصلى استولى عليها نعيم أفندي أول من تولى إدارة الأوقاف الإسلامية في بيروت، فأخذ هذا أوقاف المساجد من نُظّارها وأنشأ فيها البنايات التي آلت فيما بعد إلى ملك خاص لبعض العائلات المعروفة.

فقد كان المسلمون في العيد، يقصدون ساحة المصلى المذكورة، التي تفرش بالحصر لعامة الناس، كما تُفرش لأرباب المقامات سجادات الصلاة، كلٌ بحسب رتبته وأهميته السياسية أو الاجتماعية، وكان يؤتى إليها بمنبر نقال، وبعد الصلاة والاستماع إلى الخطبة، يقبل الأهلون على معايدة بعضهم بعضاً، وكانت هذه المعايدة تقوم مقام المعايدة في المنازل، ويذهب العلماء وأهل الوجاهة لمعايدة والي الإيالة والقاضي والمفتي فقط.

وكانت العادة أن يعايد وجوه طائفة النصارى الوالي والقاضي والمفتي وأهل الوجاهة من المسلمين.

كما أن وجوه المسلمين كانوا يقابلونهم بالمثل، وكانوا يتبادلون المهاداة بـ«المعمول» والأقراص المحشوة بالجوز والتمر. ويزيد النصارى على أولئك بإهدائهم البيض المسلوق المصبوغ بالألوان الزاهية: هؤلاء في أعيادهم، وأولئك في أعيادهم.

ذبح الأضاحي مع التكبير

ومن جميل عادات آبائنا التي انقرضت مع الأسف، أنهم كانوا قُبَيْل حلول العيد الكبير (الأضحى) بأيام قلائل يواكبون رعاة الغنم مع أغنامهم في الأسواق وأصواتهم تجار بالتسبيح والتكبير والتهليل تظللهم رايات المساجد المعروفة بـ«السناجق» وبين أيديهم جوقات موسيقية من طبل وزمر وصنوج نحاسية رنانة، وهذه العادة ما تزال موجودة إلى حد ما في مدينة طرابلس في شمال لبنان وفي صيدا أيضاً في جنوبه.

حرش أيام زمان

أما المكان الذي كان مركزاً لتجمع الناس للهوهم وتسليتهم في أيام العيد، فإنه كان يقع في الأرض الفراغ خارج السور من جهة الجنوب، وهو المكان الذي عرفه آباؤنا باسم شيخ الشربة ويعرف اليوم باسم «ساحة رياض الصلح».

ومن الطريف أن جريدة «ثمرات الفنون» التي كان يصدرها المرحوم الشيخ عبد القادر القباني في بيروت في ذلك الحين كثيراً ما نقلت على صفحاتها شكوى أهل بيروت مما كان يحدث في شيخ الشربة أثناء العيد من تحد للآداب والأخلاق من بعض الجهلاء لافتة نظر السلطة إلى اتخاذ التدابير اللازمة لحماية المعيّدين من أهواء الفساد والمفسدين. وهو نفس ما كان يحدث في الحرش من أرذال أهل زماننا.

مدافع العيد

لعل الكثيرين من أبناء هذا الزمان يطربون لسماع دويّ المدافع في العيد دون أن يعرفوا بأن هذا المدافع سُنّة سنّها أحد النصارى الأوروبيين وهو الإمبراطور نابليون بونابرت، ذلك أن هذا القائد المشهور، حينما كان يحتل مصر أراد أن يقوم بعمل يرضي به أهل البلاد المسلمين الذين أثقلهم بوطأة احتلال جنوده

الغرباء، فأمر بأن تُنصب المدافع على قلعة القاهرة وتطلق منها قنابل البارود إيذاناً بحلول رمضان وإثباتاً للعيدين الصغير والكبير.

ومنذ ذلك الحين أصبحت المدافع في العيد تقليداً متبعاً أيام الدولة العثمانية وسار عليه الفرنسيون في بلادنا حينما كانوا منتدبين علينا من قبل عصبة الأمم، ولا تزال هذه العادة مرعية الإجراء حتى اليوم، بالرغم من أن وسائل الإعلام تطورت وأصبح من الممكن إعلام الناس بحلول رمضان والعيدين من خلال موجات الأثير بالراديو والتلفزيون.

على أنه لا بأس من بقاء «مدفع العيد» لما فيه من تراث جميل يعطي المناسبة التي يطلق من أجلها معاني تاريخية تبعث في النفس أجمل الذكريات وأغنى العواطف.

العيد على ألسنة المؤرخين

بعد أن أعطينا القارىء صورة واضحة عـن العيد في بيروت في أيامنا وأيام آبائنا الأقربين يجمل بنا أن ننقل إليه شيئاً مما كتبه المؤرخون في هذا الصدد لعله يجد في المقارنة بين عيد الأيام الماضية وعيد الأيام المعاصرة بعض المتعة والسرور.

يقول الشيخ عبد الجواد القاياتي في كتابه «نفحة البشام في رحلة الشام» عما شاهده في عيد بيروت عام ١٨٨٠م: «إن من عوائدهم (أهل بيروت) أن يُصلّوا ثم يرجعوا ويزور بعضهم بعضاً في بيوتهم، فيقدمون للزائر شيئاً من الحلواء على صينية صغيرة في يد الخادم، إمّا من الحلواء اليابسة الجافة فيتناول الضيف منها بيده قطعة أو قطعتين ويأمر الخادم بالانصراف، وإما من الحلواء الرطبة المسماة المربّى من الأترج أو السفرجل أو المشمش أو الإجاص أو غيرها موضوعة في أواني البلور ومعها الملاعق والشوك وكوبة الماء، فيأخذ المعيّد ملعقة أو ملعقتين أو جانباً يسيراً بالشوكة، وينصرف الخادم المسمى بالصانع، ويشربون القهوة وينصرفون، وهذه عاداتهم الآن (أي في أيام القاياتي قبل ما يزيد على القرن من أيامنا).

العيد قبل ٥٧٠ عاماً

وأما السائح الفرنسي بيروكيه الذي زار بلادنا حوالى عام ١٤٣٣ م فقد وصف العيد في بيروت قائلاً: «. . . . ورأيت في بيروت المسلمين يحتفلون بعيدهم على طريقتهم التقليدية: بدأ الاحتفال مساء عند الغروب فأخذت جماعاتهم تسير هنا وهناك فرحة بالعيد تهزج بالأناشيد، وأخذت مدافع القلعة تطلق قذائفها، وأخذ الناس يطلقون عالياً في الفضاء صواريخ يفوق حجم الواحد منها حجم أكبر فانوس عرفته.

وقد علمت أنهم يستخدمونها (أي الصواريخ) لحرق المعسكرات والقرى المؤلفة من بيوت خشبية كما يستخدمونها لإشعال النار في أشرعة السفن لأعدائهم وهي في عرض البحر، وبثّ الذعر بين خيول أعدائهم في الحرب وذلك لسهولة صنعها ويُسْر تكاليفها.

ولما كنت شديد الرغبة في الوقوف على سر صنع هذه المقذوفات، فقد أرسلت أحد الخدم إلى واحد ممن يصنعونها يطلب منه أن يوقفني على طريقة تركيبها، فاعتذر بأنه لا يجرؤ على ذلك لما يكتنف مثل هذا العمل من مخاطر إذا افتُضِح الأمر.

غير أنه بواسطة الرشوة فقد اطلعت على السر بعد أن نقدته دولة (عملة ذلك الزمان) ذهبت بمخاوفه وأعطاني قوالب لصنع الصواريخ والمواد التي تتركب منها ومواد أخرى لصنعها فحملتها معي إلى فرنسة»[١].

وهكذا انتهز هذا السائح الفرنسي مناسبة «العيد في بيروت» وسرق سر الصواريخ البيروتية وأطلع قومه على هذه الصناعة الحربية، وبذلك عرفت أوروبا صناعة البارود من العرب لتضربهم به فيما بعد.

(١) أغلب ظني أن السائح الفرنسي وصف عيد المولد في بيروت لأن أهل هذه المدينة لا يستعملون الصواريخ التي ذكرها في رحلته إلا في هذه المناسبة دون غيرها من بقية الأعياد ولست أعرف غير بيروت من المدن الإسلامية اليوم يستعملون الصواريخ لا في المولد ولا في غيره.

الفصل العشرون

انطلاقة بيروت التجارية في بداية القرن الماضي

الحديث عن الحركة التجارية في بيروت خلال القرن الماضي، هو في الواقع جزء من الحديث عن دخول هذه المدينة في «العصر الحديث» مع بداية القرن المذكور، فإن إرهاصات النشاط التجاري فيها كانت نتيجة طبيعية للتفاعل الحضاري الذي فرض نفسه بين القارة الأوروبية وبين بلاد الشرق العربي بصورة عامة. وذلك عندما أناخت جيوش نابليون بونابرت على التراب المصري وهي في طريقها إلى غزو شبه القارة الهندية سنة ١٧٩٨م.

وقد تواضع العلماء على اعتبار هذه الحملة الفرنسية العسكرية حداً فاصلاً بين العزلة الاجتماعية التي كانت تعيشها بلادنا تحت أقبية الماضي وتقاليده الموروثة وبين انطلاق هذه البلاد في دروب التطور والأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية على مختلف المستويات المادية والمعطيات العلمية والفكرية.

وإذا كانت حملة نابليون بونابرت لم تتمكن من تحقيق أغراضها العسكرية بسبب الهزيمة التي لحقت بها على يد الوالي العثماني أحمد باشا الجزار عند أسوار مدينة عكة فإن التواجد الأوروبي الذي رافق الحملة المذكورة إلى أرض الشرق قد حقق في الواقع تحوّلاً أساسيًّا في المجتمع الشرقي. وقد كان لمدينة بيروت بالذات نصيب كبير من هذا التحول، ذلك أن الخصومة المسلحة التي نشبت بين أحمد باشا الجزار وبين نابليون بونابرت حملت ذلك الوالي العثماني على مناصبة الفرنسيين العداء وعرقلة النشاطات التجارية لمن كان منهم في عكة أو في صيدا، الأمر الذي دفعهم إلى مغادرة هاتين المدينتين واختيار مدينة بيروت مركزاً لأعمالهم.

ومن ذلك الحين بدأت بيروت مسيرتها الأولى نحو التقدم والازدهار وذلك عن طريق استقطاب أصحاب الفعاليات الاقتصادية من الأجانب الذين انتقلوا إليها مع كل ما يملكون من خبرات وجهود وإمكانات.

ولما توفي أحمد باشا الجزار سنة ١٨٠٤ خلفه في كرسي إيالة عكة ولاة متساهلون خففوا من وطأة قبضة الدولة على الأجانب وأتاحوا لهم فرصاً أكثر لممارسة نشاطهم في هذه البلاد، لا سيما في حقل المبادلات التجارية بين الغرب وبين الشرق من خلال استقرار رواق الأمن والعدل الذي نشروه بين المواطنين، لا سيما في أيام ولاية سليمان باشا الذي اشتهر يومئذ بلقب «العادل».

بيد أن التجار الأجانب الذين اتخذوا من بيروت مقراً لمكاتبهم ومنطلقاً لمبادلاتهم التجارية من الغرب إلى الشرق وبالعكس، لم يكن يعنيهم يومذاك، أمر هذه المدينة وصالح سكانها إلا بالقدر الذي يعود عليهم بأكبر نسبة من الفائدة الشخصية ومضاعفة أرباحهم المادية دون أن يتبادر إلى ذهنهم أي تفكير بمصلحة عملائهم من التجار الوطنيين وسائر المستهلكين المحليين. وفي ذلك الحين، كانت التجارة تكاد تكون محصورة في أيدي قناصل الدول الأجنبية ورعايا هذه الدول الذين خوّلتهم القوانين العثمانية حقوقاً استثنائية ومنحتهم امتيازات خاصة لم يتوفر مثلها لأبناء البلاد الأصليين.

وقد توصل القناصل والتجار الأجانب بواسطة ما يملكون من الحقوق والامتيازات إلى الهيمنة الكاملة على أسواق التجارة داخل بيروت وخارجها وحصرها في أيديهم من غير أن يكون للحكام المحليين وموظفيهم أية سلطة عليهم، سواء لجهة الرقابة على أسعار البضائع التي يتعاطونها أو لجهة الرسوم المتوجبة على هذه البضائع، وبذلك كان القنصل أو التاجر الأجنبي يتمتع بحصانة كاملة، تقيه من الخضوع لطائلة أحكام القضاء الوطني أو تحمل الغرامات التي يتعرض لها الذين يخالفون القوانين المرعية من أبناء البلاد.

ونتيجة لهذه الحقوق والامتيازات الأجنبية فإن بيروت عرفت في ذلك الوقت سوقاً تجارية من نوع خاص وهي بيع رخص التجارة إلى البلاد عن طريق التراجمة الذين كانوا موظفين في القنصليات الأجنبية. ويحدثنا الرحالة الفرنسي فرانسوا ده فولنيْ الذي زار بيروت في ذلك الحين: أن التجار، وهم من الأجانب، كانوا يتخذون وكلاء لهم من الوطنيين، أصحاب الطقس اللاتيني، ويشركونهم في امتيازاتهم وبذلك لا يعود للحاكم وعماله سلطة عليهم ولا يستطيع تغريمهم، وإذا خالفوا قوانين البلاد فإنه ينظر في أمرهم القنصل الأجنبي الذي خولهم تلك الامتيازات.

وأولئك التراجمة كانوا يعرفون في الشرق باسم «تراجمة أصحاب براءة» والبراءة كانت تمنح من قبل السلطان للسفراء الأجانب المقيمين في الأستانة. وهؤلاء السفراء كانوا أول الأمر يعطون هذه البراءة إلى الوكلاء الوطنيين دون أي مقابل، إلا أنهم ما لبثوا أن استغلوا ما يمنح لهم من هذه البراءات طمعاً بالإفادة المادية، وصاروا يبيعونها لمن يطلبها من أبناء البلاد ويجنون من وراء ذلك أرباحاً لا بأس بها. ويقول فولنيْ الذي نقلنا عنه هذه المعلومات: إن ثمن البراءة الواحدة كان يتراوح بين ألفين وألفين وأربعمائة قرش من عِمْلة ذلك الزمان.

وكانت تلك البراءات مثل «الكوتا» التي كانت تعطيها وزارة الاقتصاد للتجار في زماننا. وكل سفير له الحق بخمسين براءة تمنح له ما دام معتمداً من قبل دولته لدى الباب العالي في اسطمبول، فإذا مات هذا السفير أو نقل إلى منصب آخر أصبحت هذه البراءات من حق الذي يخلفه في منصبه من نفس دولته.

وفي السنوات الأولى من القرن الماضي كان لفرنسا قنصل في بيروت اسمه هنري غيز. وقد وصف لنا هذا القنصل الوضع التجاري في المدينة إبّان ذلك الزمان فقال: «لم يبدُ لبيروت شأن كمدينة تجارية إلا منذ ثلاثين سنة تقريباً. وأؤكد أنني زرتها عامي ١٨٠٨ و١٨١٠، إنه لم يكن يعقد فيها إلا صفقات تجارية قليلة. وبما أني لم أبارحها إلا عام ١٨٢٨ بعد أن عدت إليها عام ١٨٢٤ فقد استطعت أن أتتبع ازدهارها خلال أربعة عشر عاماً في إبان نهضة صناعتها الحقيقية وتضخم ثروة سكانها».

ثم يذكر لنا غيز العوامل التي أهّلت بيروت لتبوء مركز تجاري ممتاز دون سائر المدن في الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ويحدد هذه العوامل بقوله: «تضافرت عدة عوامل على جعل بيروت المركز الأكثر أهمية على الشاطىء، منها موقعها المتوسط وقربها من الشام (دمشق) وجودة حرائرها، وهدوء خليجها، وأقول (الكلام لغيز) مع هذا، إن العامل الأشد تأثيراً هو مجاورتها للجبل (لبنان) الذي حافظ أمراؤه، حاكموه القدماء، على سلطانهم فيه..».

وبالإضافة إلى العوامل الخمسة المذكورة، فإن غيز لم يغفل الإشارة إلى عامل آخر، لا يقل عما ذكره أهمية وتأثيراً فيما ما تمتعت به بيروت من مركز تجاري ممتاز في تلك الأيام بين جاراتها من المدن الساحلية الأخرى ومن بينها عكة التي كان فيها كرسي الإيالة. وهذا العامل هو المتاعب السياسية والإدارية التي كانت تعيشها تلك المدن في ظل ولاتها المستبدين، وفي هذا المعنى يقول غيز: «وهكذا أثرت بيروت، بالرغم من تعنت السلطة وبؤس أساكل سورية الأخرى، لا سيما إسكلة عكة..»

وهنا، قد يكون من المفيد أن نذكر بأن التاريخ ما زال يكرر نفسه من خلال الأحداث الداخلية والخارجية التي تعصف اليوم بأقطار الشرق العربي المتاخمة لشاطىء البحر الابيض المتوسط، ذلك أن بيروت المعاصرة مدينة إلى حد كبير بما أدركته مؤخراً من نهضة تجارية كثيفة وازدهار اقتصادي متنامٍ إلى الظروف التي تمر بها الأقطار المذكورة في حياتها الداخلية وعلاقاتها الدولية. ولعلنا لسنا نبالغ في القول إذا أكدنا بأن هذه الظروف قد تركت على مدينتنا انعكاسات إيجابية جعلتها تحتفظ بمركز الصدارة على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط دون سائر جاراتها على هذا الشاطىء منذ أوائل القرن الماضي حتى اليوم.

قصة مياه بيروت في ماضيها وحاضرها

يرى بعض المؤرخين أن كلمة بيروت نفسها تعني مجمع الآبار مما يدل على أن البيروتيين القدماء كانوا يستعملون مياه هذه الآبار للشّرب وسقي الجنائن. غير أننا نستبعد هذا التفسير لأن كلمة بيروت فينيقية الأصل وهي تعني شجر الصنوبر أو السرو، وهو الرأي الذي اعتمده من قبلنا علماء اللغات السامية القديمة. ويؤيدنا في ذلك أن مدينة بيروت لم تكن في الماضي كثيرة الآبار، فقد ذكرت مجلة الهلال الصادرة في القاهرة يوم ٨ رجب ١٣١١هـ (١٥ يناير ١٨٩٤م) بالصفحة ٣١٥ من الجزء العاشر الخبر التالي:

«قرأنا في جرائد بيروت أنه حدث حريق هائل في خان الخواجات بسوق البياطرة، فتلف بسبب ذلك بضائع بقيمة لا تقل عن ٣ آلاف جنيه وكان سبب امتداد الحريق واتساعه خلو الخان وما جاوره من الماء إلا بئراً صغيرة «يعسر انتشال الماء منها».ا.هـ.

ويقول صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» إن مصدر مياه بيروت هو نبع العرعار من أرض كسروان (المتن الشمالي

اليوم: «وكانت مياهه تجري إلى المدينة في قناة من العمائر العجيبة».

وقد كتب ناشر الكتاب المذكور الأب لويس شيخو اليسوعي في حاشيته: «قيل إن أصل هذه المياه المجلوبة إلى بيروت من نهرها المعروف عند الأقدمين بنهر ماغوراس (Magoras) والأرجح أنها من نبع العرعار فوق قرية بعبدات من مقاطعة المتن الشمالي (الذي كان قديماً يدعى كسروان) في جهة الشمال الشرقي من القرية المذكورة النابع من الوادي الذي يسمى وادي العرعار إلى يومنا هذا، ولم تزل الآثار القديمة دالّة على جرّ المياه من النبع المذكور لجهة بيروت. على أن القبو الذي تخرج منه المياه وبقايا الحوض (الحاووز) وفضلات القناة إنما هي من الآثار القديمة جدًّا، ويوجد أنابيب حجرية وبعض أساسات القناة في محل يدعى الرويسة شمالي قرية بعبدات وغربي النبع المذكور. وآثارها شرقي قرية بعبدات في محل يدعى «القشي» جنب طريق العجلات الجديدة. ولها آثار أيضاً شرقي قرية برمانا في المحل المعروف بـ «الرصيف» وغربي القرية المذكورة بينها وبين قرية بيت مري بالمحل المعروف بـ«معصرة الحريق» قرب عمارة آدم. ولجهة الجنوب من قرية «بيت مري» مارة بدير القلعة. فهذه كلها دلائل تثبت أن ماء نبع العرعار المذكور كان مسحوباً قديما في هاته القنوات لجهة بيروت ماراً بدير القلعة والذي يرجح ذلك قول المؤرخ صالح بن يحيى أن بعد مسافة النبع عن بيروت اثنا عشر ميلاً، وهي عين المسافة بين بيروت ونبع العرعار..» (ص٩ ـ ١٠ من كتاب تاريخ بيروت).

والقناطر التي أشار إليها صالح بن يحيى، معروفة عند أهل بلادنا باسم قناطر زبيدة، والمشهور في التقاليد الشعبية المروية أن زبيدة المذكورة زوجة الخليفة هرون الرشيد هي التي شادت هذه القناطر. بيد أن ذلك ليس بالأمر المحقق وأغلب الظن أن زوجة هذا الخليفة إنما قامت بترميم هذه القناطر من أجل تزويد بيروت بالمياه. أما المؤرخون فيظنون أن الذي بنى هذه الآثار الفخمة العجيبة هو بطليموس أبيفانوس الذي تولى حكم سورية ومصر حوالى سنة ٢٠٤ قبل الميلاد. ويقول الأب لويس شيخو في حاشية كتاب تاريخ بيروت ص٩: «هذه القناة من عجائب الآثار القديمة وقد بقي منها بقايا ضخمة إلى اليوم، وهي المعروفة عند البعض بالجسر الروماني، والغالب عليها اسم قناطر زبيدة.. وقد زارها العلامة الأب ميشال جوليان اليسوعي ووصفها وصفاً مدققاً في جريدة البشير، بيّن في أثنائها أنه كان ينصبّ بالقناة في الثانية متر مكعب من الماء، أي أكثر مما تأتينا الآن آلات شركة نهر الكلب الإنكليزية بنحو خمس عشر مرة».

وقد ذكر داوود كنعان في الجزء التاسع من مجلة الجنان لمنشئها سليم البستاني، بتاريخ أيار ١٨٧١ ص ٣٣٣ وما يليها وبالجزء الحادي عشر، الصادر في أول حزيران ١٨٧١ وما يليها، أثناء حديثه عن بيروت تحت عنوان «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت»، أن ماء بيروت كان مقسوماً إلى قسمين: الأول، يأتيها شرقاً لمصنع ومنه يتجزأ كما يستدل من آثاره في محل القبيات والقسم الثاني يأتيها جنوباً ماراً بين الحدث وأراضي الشياح لمصنع هناك ومنه يتجزأ كما يتبين من بعض آثاره هناك.

وقد عقب إبراهيم نعوم كنعان على كلام داوود في حاشية كتابه «بيروت في التاريخ» ص١٢، فقال: «هذا شيء ثابت لوجود آثار هذه الأنابيب في الهيكل المذكور، أي دير القلعة، ولموقعه على أعلى رابية من بيت مري التي تشرف رأساً على بيروت وعلى معظم الساحل، لا سيما وأن احتياج الأقدمين للمياه في تلك المحلة يدعو إلى التأكيد بمرورها أولًا على الهيكل وحماماته المكتشفة حديثاً، حتى تعود فتنحني نحو بيروت مارة على حافة القناطر المار ذكرها الكائنة في أسفل الوادي على خط مستقيم لدير القلعة. وهذه القناطر المسماة بقناطر زبيدة، تعلو بيروت نحو التسعين متراً عن سطح البحر كما تعلو ضفتي النهر نحو الثلاثين، متصلة بنفق تحت شير هائل كانت تجري ضمنه مياه نبع نهر بيروت لري صحراء الشويفات وبساتين الساحل كما يستدل من فوهة هذا النفق الذي ظهر مؤخراً في المحلة المسماة الحمى في منتصف الطريق المؤدية من «الحازمية» إلى قناطر زبيدة، وهو مبني بهيئة قناة، مكلسة أرضها بعرض متر ومغلقة على شكل الهرم بأحجار منصوبة، طول الواحدة متر بعرض نصف المتر، مشدودة إلى بعضها بالكلس والبحص الناعم وعلو هذا النفق متر ونصف، يبتدىء من القناطر المار ذكرها منحنياً إلى الغرب ماراً بأرض «السحيما» حتى محلة «الحازمية» شمال شركة صنع الأجواخ في الحدث بين رابية الزيتون وخط السكة الحديدية إزاء نبع ماء الحازمية على الطريق العامة وعلى مسافة ١٥٠ متراً منها للغرب حيث لم تزل آثاره ظاهرة للعيان.»

ويتابع إبراهيم كنعان قوله: «ومما يؤكد صحة ري الساحل من نبع نهر بيروت وجود آثار القناة الممتدة من النبع إلى القناطر المذكورة، وقد عفا الدهر معظمها، كما أن وجود كثير من الغرف المنقورة في الصخور على شاطىء النبع وذات الأبواب الحجرية (بدرفة واحدة) يدل على استيطان تلك المحلة، إما لاستثمار الأرض القريبة منها المسماة الزيرة، ولعلها هي المعروفة بالتاريخ «بجزيرة ابن معن»، وإما لحماية تلك المياه والإشراف على توزيعها. غير أن شكل هذه الأقنية والقناطر يدل

على أنها رومانية وليس لزبيدة أو زنوبّة تدمر أقل صلة بها». ا. هـ

مياه بيروت في القرن التاسع عشر

بالإضافة إلى الآبار القليلة التي كانت موجودة في مدينة بيروت القديمة فإن البيروتيين كانوا يستخدمون المياه المتجمعة في البرك المعدة لهذا الغرض والتي كانت تجري إليها من الينابيع القريبة من المدينة، كمياه الكراوية ومياه الدركة.

فلقد ذكر المعلم إبراهيم العورة في كتابه «تاريخ ولاية سليمان العادل» صفحة ٢٥٢، ٢٥٣ المنشور سنة ١٩٣٦، أنه «في سنة ١٢٢٣ هجرية (١٨٠٨م) كان في بيروت رجل مسلم تاجر، وما كان له ولد، وفي هذه السنة إذ حان وقت وفاته عمل وصيته، ومن الجملة أمر بإعطاء اثنين وعشرين ألف قرش من مال تركته مصروفاً لجلب ماء الدركة لبيروت، وإذ توفي بدون وارث فالمتسلم اجتمع مع القاضي وفتحوا عليه بيته ومتروكاته وأعرضوا عن ذلك إلى سليمان باشا، وسليمان باشاأصدر أمره إلى متسلم بيروت بجمع متروكاته من كلّي وجزئي وعمل دفتر بها ممضي من الشرع الشريف وأرسل صك الوصية مع الدفتر لعكة. وإذ حضر المتسلم لضبط المتروكات واطلع على الوصية الموضوعة بين أوراقه، قدم الإعراض لسليمان باشا والتمس أمره بما يحُسن بذلك.

فسليمان باشا إذ فهم هذه الخيرية مال خاطره لإتمامها، وحالاً أصدر أمره لمتسلم بيروت والقاضي والمفتي والوجوه بأن يأخذوا المبلغ من أصل التركة ويبادروا لجلب المياه المذكورة للبلدة. وإذا صرفوا زيادة يعرضوا عليه ليصدر أمره بدفعه من الخزينة. وهكذا تم، ثم بادروا لجلب المياه إلى بيروت من مال الرجل وزاد المصروف عن المبلغ نحو ستة آلاف، قدموا دفتراً ممضياً من الحاكم الشرعي، وبموجبه صدر أمر بصرفه من الخزينة اشتراكاً بهذه الخيرية».

نقول، إن هذا السبيل كان مبنياً في محلة «درج خان البيض» الذي كان معروفاً من قبل بدرج رجال الأربعين وانقطعت مياه هذا السبيل بعد ذلك وكانت هذه المياه جارية من المحلة المعروفة رأس النبع ببيروت. وكان في مدينة بيروت عدد من المنشآت التي تمد الأهلين بحاجتهم من المياه، وقد ذكرنا في كتابنا عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام ص ١٣٤ وما بعدها أن الأتراك العثمانيين عندما دخلوا بيروت سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) بدأوا ببادرة تقرُّب من الأوزاعي، ففي عهد السلطان سليم أنشأ أحد كبار الموظفين سبيلاً تكريماً للإمام الأوزاعي نفسه ولأحد تلاميذه المتأخرين ابن عراق وذلك في سوق الطويلة حيث يقوم اليوم جامع الإمام الأوزاعي وحيث ما تزال قبة زاوية ابن عراق موجودة بمواجهة هذا الجامع حتى الآن. وقد نقل داوود كنعان نص الكتابة التي كانت منقوشة فوق هذا السبيل، وها نحن ننقلها بدورنا في كتابنا هذا.. جاء في النص المذكور: «بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا السبيل المبارك برسم الزاوية العمرية المعروفة بزاوية سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة، الشيخ عبد الرحمن الأوزاعي نفعنا الله ببركاته، أنشأه لوجه الله تعالى أحد العمدة الشريفة من المرحوم مولانا السلطان سليم خان تغمده الله برحمته. أنشأه أضعف العباد الصوباشي والكاتب ببيروت، تقبل الله، بإشارة الفقير إليه تعالى المستمد المدد من الشيخ الإمام العلامة الشيخ محمد بن عراق، تغمده الله برحمته ونفعنا ببركاته. وعمّر هذا السبيل بإشارة الفقير السيد الجليل الشريف الشيخ عبد الرحيم المرابط بثغر بيروت، تقبل الله ونفعنا ببركاته بتاريخ ثامن شهر ذي الحجة الحرام سنة ٩٣٥هـ الموافق ١٤ تموز ١٥٢٩ مسيحية».

ومدير مصلحة المياه كان يسمى في اوائل العهد العثماني، كما هو واضح من النص الذي أثبتناه هنا الصوباشي وهي كلمة تركية مركبة من صو أي الماء، وباشي أي الرئيس وقد استعملت هذه الكلمة فيما بعد كلقب لوظيفة عسكرية تقابل في أيامنا لقب مدير الشرطة.

ومن المنشآت المائية التي كان البيروتيون يستخدمونها سبيل الماء الذي أنشأه القاضي جلال الدين أفندي إسحاق قاضي بيروت سنة ٩٠٦هـ وقد عثرت في جامع الأمير منذر التنوخي ببيروت المعروف باسم جامع النوفرة على الرخامة التي كانت مثبتة فوق هذا السبيل ونصها كما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا السبيل المبارك مولانا شيخ الإسلام والمسلمين، شمس الملة والآفاق، جلال الدين أفندي إسحاق القاضي ببيروت وجعله سبيلاً محترماً في مكان مؤسس على تقوى من الله ورضوان في بنيانه فمن أعان على مصالحه فالله معينه وحفيظه ومن أراد به سوءاً أو مكروهاً فالله مكيده وحسيبه. وكان الفراغ في محرم ٩٠٦»[1].

وآخر ما عرفته بيروت من المنشآت المائية المماثلة السبيل الذي أقامته السلطات المحلية في المدينة تذكاراً لمرور ٢٥ سنة على ولاية السلطان عبد الحميد الثاني، وكان موضع هذا السبيل في ساحة «السور» المعروفة اليوم «بساحة رياض الصلح» وعندما

(١) راجع كتاب عبد الرحمن الأوزاعي، شيخ الإسلام وإمام أهل الشام، ص ١٩٨.

عزمت الحكومة اللبنانية على نصب تمثال المرحوم رياض بك الصلح في الساحة المذكورة، رفعت السبيل وأقامته حيث هو اليوم في حديقة الصنائع.

برك بيروت

وما يزال البيروتيون الذين أدركوا أواخر العهد العثماني في مطلع القرن الحالي، يذكرون البرك (الأحواض) التي كانت موزعة في أحياء المدينة القديمة لاستعمال الجمهور وهي البرك الست الآتية: (١) بركة المحافر، (٢) بركة ساحة الخبز (٣) بركة باب السراي (٤) بركة الحاووز (حوض الولاية) (٥) بركة الدحديلة (٦) بركة السوق.

وإلى جانب البرك الست المذكورة كان يوجد ببيروت حوضان للمياه المخزونة في قلب المدينة أحدهما؛ يدعى «ميّة الكراوية» وهو ما يزال في موضعه القديم الذي كان يقوم في حي الكراوية وهو اليوم في الجهة الشرقية من شارع بشارة الخوري جنوبي ساحة البرج، والآخر «ميّة الدركة» وهذا الحوض الأخير لم يعد له في أيامنا أي أثر. ولقد أدركنا شخصيًّا «ميّة الكراوية» التي حولتها بلدية بيروت إلى حديقة ساحة البرج قبل أن تلغى هذه الحديقة في المدة الأخيرة ليقام فيها نصب الشهداء.

مصلحة مياه بيروت الحالية

جاء في الكرّاس الذي نشرته مصلحة مياه بيروت في أيلول ١٩٥١، أن بيروت عرفت عام ١٨٧٠ أول مشروع منظم للمياه عندما منحت الدولة العثمانية امتياز جر وتوزيع المياه الصالحة للشرب إلى شركة فرنسية يرأسها المهندس تونان (M. Tewnin) وذلك لمدة ٤٠ سنة، غير أن حرب فرنسة وبروسية التي أعلنت بعد منح الامتياز بأشهر قليلة حالت دون تمكن الشركة المذكورة من تحقيق المشروع، فباعته إلى شركة إنكليزية تأسست تحت اسم (بيروت وتر ووركس) (Beirut Water Works) أي (أشغال مياه بيروت).

وفي عام ١٨٧١ باشرت هذه الشركة الإنكليزية أعمالها كما يلي:

أنشأت سدًّا على نهر الكلب، يبعد ١٨٠٠م عن مغارة جعيتا.

أنشأت قناة حجرية طولها ٤٦٠٠م لجر المياه إلى قرية ضبية.

أنشأت في ضبية حوضاً لترقيد عادي مع ٣ أحواض للتصفية ومجموعة مائية دافعة.

مدت قساطل من الفونت (الحديد المصبوب) قطرها ٤٥ سنتم على طول عشرة آلاف متر توصل المياه من ضبية إلى بيروت.

أقامت في بيروت خزاناً في محلة الأشرفية توزع منه المياه إلى سائر أنحاء المدينة.

وفي عام ١٨٧٣ أنجزت شركة «بيروت ووتر ووركس» جميع منشآتها وكانت توزع كمية من المياه لا تزيد عن ألفي متر مكعب في اليوم على سكان بيروت الذين كان عددهم يومئذ ٤٥ ألف نسمة فقط.

وفي عام ١٨٨٩ عين المسيو برس مارتندال مديراً للشركة (أشغال مياه بيروت) مع مدير ثانٍ كمفتش للحسابات هو أدوارد مون باكر، يعاونهما كاتب أول وهو باسيل أفندي نصر الله والخواجات فياض تويني وجان قوري مع مأموريْ تحصيل أحدهما نصر الله أفندي نصر والآخر أنطون أفندي دوماني.

وعام ١٨٩٧ عقدت الشركة المذكورة اتفاقية جديدة مع الحكومة العثمانية، مددت بموجبها امتيازها لمدة أربعين سنة من حين تاريخ انتهائه. فأصبح مجموع مدة الامتياز ثمانين سنة أي حتى عام ١٩٥٠. وفي عام ١٩٠٩، تحول هذا الامتياز مع ملكية الإنشاءات الخاصة به إلى «الشركة العثمانية لمياه بيروت» التي كانت مؤلفة من إلياس وإبراهيم صباغ.

وفي عام ١٩٢٤، بعد توقيع معاهدة لوزان، عدلت الشركة اسمها فأصبحت تعرف باسم «شركة مياه بيروت» ونالت من سلطات الانتداب الفرنسي تمديداً لامتيازها أربع سنوات أخرى بدلاً من سني الحرب (العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م) وبذلك أصبح امتياز الشركة لمدة ٨٤ سنة. وقد تحول رأسمالها إلى اللبنانيين وتولى العمل فيها اللبنانيون أنفسهم وبقيت كذلك إلى ما بعد نهاية الانتداب.

في عام ١٩٥١ وجدت الحكومة اللبنانية المستقلة أن الشركة أصبحت غير قادرة على تمويل الإنشاءات وصيانتها كما يجب فوضعت يدها عليها وأممت الشركة المذكورة قبل نهاية مدتها القانونية بثلاث سنوات واطلقت عليها اسم «مصلحة مياه بيروت» وعينت لها في ١٧ كانون الثاني مجلس إدارة مؤلفاً من عشرة أعضاء، مهمتهم استلام الشركة السابقة وتنظيم أمورها الفنية والإدارية والمالية، ووضعت تحت تصرف هذا المجلس الأموال اللازمة للمباشرة حالاً بتحقيق المشاريع الجديدة والإنشاءات اللازمة لزيادة كمية المياه وتوزيعها توزيعاً صحيحاً على بيروت والضواحي القريبة.

وقد وزع المجلس الإداري أعماله على ثلاث لجان فرعية:

إدارية ومالية وفنية، وقد باشرت المصلحة أعمالها على الفور.

ولم تكن إمكانيات شركة المياه عندما تسلمتها الدولة تكفي لجلب وتصفية وتوزيع أكثر من ٣٨ ألف متر مكعب يومياً وهي المياه الموضوعة تحت تصرف المصلحة من نبع «جعيتا - نهر الكلب» لا سيما في فصلي الصيف والخريف، لذلك عمدت الدوائر المسؤولة لسد العجز بصورة موقته إلى حصر الفائض من نبع «فوّار أنطلياس» ودفعه إلى معمل «ضبية» لتصفيته وجمعه مع مياه نهر الكلب، ثم استأجرت الطواحين القائمة على وطى نهر الكلب لهذا الغرض.

وبعد أن اصبح تعداد سكان بيروت يزيد على نصف مليون نسمة اليوم، فإن مصلحة مياه بيروت درست جلب كمية ٢٠٠ ألف متر مكعب يوميًّا من مشروع الليطاني. وقد قرر مجلس الليطاني تخصيص هذه الكمية عند وصول القناة من سد القرعون إلى أعالي الشويفات جنوبي بيروت.

وفي سنة ١٩٥٩ كان مجلس إدارة مصلحة مياه بيروت مؤلفاً على الوجه التالي:

الرئيس: إبراهيم عبد العال، ونائب الرئيس: أندريه تويني، والمدير العام: يوسف سالم. والأعضاء: خليل هبري، نقولا رزق الله، شفيق حاتم، الدكتور جميل عانوتي، الدكتور فوزي داعوق، سامي كنعان.

البدايات الأولى للتعليم بالمدارس العصرية

طلائع العصر الحديث

حتى أوائل القرن الماضي كانت مدينة بيروت تتابع دون أي ملل حياتها الرتيبة العادية تحت أقبية التقاليد المتوارثة منذ مئات السنين، ولا تحاول أو تفكر بالخروج إلى فضاء الحضارة الحديثة التي انتهت إليها الأمم الأوروبية بعد أن نفضت عن كاهلها أثقال التخلف الذي ناءت تحت وطأته خلال العصور الوسطى المظلمة.

ولعل أول احتكاك مباشر بين المجتمع البيروتي وبين الحضارة الأوروبية بعد الحروب الصليبية هو الذي تمّ بشكل عرضي ومحدود في أوائل القرن السابع عشر وذلك في أيام الامير فخر الدين المعني الذي استقدم بعض المهندسين والخبراء الزراعيين من توسكانة بإيطاليا لبناء قصوره، وتطوير الزراعة في لبنان، بالإضافة إلى البعثات الدينية النصرانية التي سمح لها بمزاولة نشاطها في بيروت على أثر عودته من إيطاليا التي اختارها لإقامته الاضطرارية خلال فترة الجفاء الذي حصل بينه وبين السلطات العثمانية. بيد أن الاحتكاك الحضاري الذي حصل بين البيروتيين وبين الأوروبيين يومذاك لم يكن عميقاً ولم تتجاوز مدته حياة الأمير المذكور. فلما أُعدم هذا الأمير سنة ١٦٣٤م في اسطمبول بتهمة التواطؤ مع الأجانب لاقتسام سورية بينها وبينه، والانفصال عن الدولة العثمانية، انقطعت الصلة المباشرة بين هذه المدينة وبين العناصر الأوروبية، وعاد البيروتيون للتقوقع في مدينتهم والاستسلام إلى غيبوبة الماضي والقناعة بما كانوا عليه من التقاليد والعادات التي ألفوها عن آبائهم وأجدادهم.

وهكذا، فإنه بعد عهد الأمير فخرالدين تقلص ظل الحضارة الأوروبية عن أفق الشرق العربي وانحسرت نهائيًا عن الحياة البيروتية موجة التفاعل مع الغرب دون أن تخلف وراءها أي أثر ظاهر لا سيما في الميدان العلمي على الرغم من رسوب بعض المؤسسات الكنسية الغربية في هذه المدينة التي أفادت من رحابة صدر الأمير المعني وبقيت تمارس طقوسها الدينية ولكن دون أن يتاح للمشرفين عليها أن يمدوا رواقهم الفكري بين البيروتيين.

على أن الاحتكاك الحضاري بين الشرق العربي وبين أوروبة ما لبث أن ذرّ قرنه مرة أخرى من جديد في سنوات الهزيع الأخير من القرن الثامن عشر للميلاد وذلك عندما حطت جيوش نابليون بونابرت رحالها في أرض مصر وهي في طريقها إلى بلاد الهند سنة ١٧٩٨م. وهذه الحملة العسكرية التي قادها هذا الإمبراطور الفرنسي المغامر على الشرق، لم تقف آثارها عند الوقائع الحربية فقط، بل إنها تجاوزت هذه الوقائع إلى مستويات أخرى بالنسبة إلى البلاد التي كانت ميداناً لرحى القتال في ذلك الحين. وإن العلماء الاجتماعيين يعتبرون الحملة الفرنسية المذكورة منطلقاً ومنعطفاً جديداً وحاسماً في تاريخ الشرق العربي، وبداية لحركة تغيير شاملة في حياة سكانه، وانتقال هؤلاء السكان من أجواء الماضي السحيق إلى مستقبل جديد بكل معطيات هذا الانتقال ومفاهيمه الحضارية من الناحيتين المادية والنفسية، وبكلمة أخرى فإن هؤلاء العلماء يصفون تاريخ الوجود العسكري الفرنسي في مصر بأنه تاريخ دخول الشرق العربي في العصر الحديث.

وبالفعل، فإن الاحتكاك العسكري المباشر بين القوى المتحاربة في مصر وسورية دفع أبناء هذين القطرين إلى الانخراط في معالم الحياة الأوروبية على وجوهها المختلفة، ذلك أن وجود الجيوش الفرنسية ومن رافقها من العلماء، في القطر المصري بشكل خاص، أدى إلى بزوغ نهضة متعددة الجوانب في هذا القطر وذلك من خلال الصحف التي أصدرتها

والمطابع التي أسستها والمنشآت الصناعية التي أقامتها. ولما انسحب نابليون بونابرت من مصر وسورية على أثر هزيمته النكراء في عكة على يد أحمد باشا الجزار ثم آل الحكم في هذين القطرين إلى محمد علي باشا وابنه إبراهيم باشا، اتسع إشعاع هذه النهضة بفضل هذين الحاكمين، فلقد بادر محمد علي باشا إلى إيفاد البعثات الدراسية إلى أوروبة، هذه البعثات التي أصبح أعضاؤها رواد حركة الترجمة والتأليف والتعليم ليس في مصر وحسب بل وفي الشرق العربي كله، كما أن ولده إبراهيم باشا بعث في سورية التي استمرت ولايته فيها من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٤٠ م حركة تنظيمية وعلمية كبيرة أصابت منها بيروت بالذات حظًا ملحوظاً.

وجدير بالذكر أن تداخل الحياة الأوروبية بالحياة الشرقية وتفاعلهما معاً بلغا في هذه الفترة حدًا بالغاً من التأثير في المجتمع العربي سواء في مصر أو في سورية، لا سيما إذا علمنا أن البعثة العلمية التي أرسلها محمد علي باشا إلى أوروبا كانت تضم الرعيل الأول من أبناء العرب الذين قصدوا هذه القارة في طلب العلم، بل إن أفراد البعثة المذكورة كانوا أول من وطئت أقدامهم أرض القارة المذكورة من أبناء القطر المصري في أي غرض من الأغراض. وقد ذكر العالم المصري جمال الدين الشيال «بأننا لا نعلم مصريًا زار أوروبا في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر».

ولتوضيح الصورة التي تمثل ملامح الحياة الجارية في الشرق العربي في أوائل القرن الماضي، فإننا لا نرى بأساً من أن نورد في هذه المناسبة ما قاله المستشرق الألماني الدكتور فريتز شتيبات في مجلة الأبحاث الصادرة عن هيئة الدراسات العربية في الجامعة الاميركية ببيروت (سنة ١٠ ج ١ - آذار ١٩٦٧ م) تحت عنوان «بدايات العصر الحديث في الشرق الاوسط».

قال المستشرق المذكور: «كانت الأحوال تبدو متشابهة في البلدين - مصر وسورية - في أوائل القرن التاسع عشر، فكنا لا نجد فيهما من وسائل الطب الحديث غير الأطباء الأجانب الذين جاء بهم التجار الأوروبيون، ولنأخذ مثلاً آخر قد يكون أغرب من الأول، هو عدم وجود أدوات نقل ذات عجلات في أي من البلدين، فعندما نذكر المركبات الحربية التي كان قدماء المصريين والحثيين والآشوريين يستعملونها، وكذلك شبكات الطرق المرصوفة التي كانت موجودة في أيام الرومانيين، وعندما ننظر اليوم إلى حركة السير في بيروت والقاهرة، يصعب علينا التصديق بأن المركبات لم تكن تستعمل في الشرق الأدنى في القرون الوسطى وحتى أوائل القرن التاسع عشر، بسبب عدم توفر الطرق الصالحة لها. كانت المدافع هي المركبات الوحيدة التي تسير على عجلات».

ويقول كلوت بك الطبيب الفرنساوي، الذي كان في خدمة الحكومة المصرية خلال النصف الأول من القرن الماضي، في حديثه عن المواصلات داخل القطر المصري في أيامه: «لا يوجد من المركبات بالقطر المصري إلا العدد اليسير. وإذا كان استعمالها، هي وعجلات النقل غير شائع فيها، فما ذلك الا لتعدد المواصلات بطريق الماء وسهولتها وقلة تكاليفها. وكانت المركبات وعجلات النقل مجهولة تقريباً من المصريين. إن قصارى ما يذكرونه من شأنها أن مركبة تلقاها إبراهيم بك أحد أمراء المماليك من فرنسا، وأنه كان لنابليون في أيام الحملة الفرنسية(١٧٩٨-١٨٠٢م) مركبة يجرها ستة من الخيل كان يجوب بها أضيق شوارع القاهرة وبولاق، وأن المصريين كانوا يرمقونها بعين الاستغراب والدهشة. وكان سموّ الوالي أول من استعمل المركبات بعد ذلك لنفسه ولحرمه، ثم تلاه إبراهيم باشا فجميع أفراد الأسرة الذين لم يلبثوا أن ألِفوا ركوب المركبات والانتقال بها من مكان الى آخر».

ويتابع كلوت بك كلامه قائلاً: «ولو لم يعط سمو الوالي بعض نظار حكومته، وأركان دولته جملة من المركبات هدية إليهم، لما انتشر فيما بعد استعمالها، ولظل الناس جامدين على سابق اعتقادهم أن ركوب المركبات أصبح وقفاً على أعضاء الأسرة الحاكمة. ولم يمضِ زمن عقب ذلك حتى تشبه لفيف من كبار الموظفين بالنظّار في اقتناء المركبات، فبلغ عدد ما يشاهد منها بالقاهرة ثلاثين مركبة على اختلاف طرازاتها. أما الإسكندرية فكان عدد المركبات فيها أكثر من ذلك إذ كانت ملكاً للقناصل الجنراليين وأكابر التجار الأوروبيين الكثيري العدد فيها»(١).

وهكذا يمكن القول بأن أول عربة شوهدت في مصر في الأزمنة الحديثة كانت تلك التي تسلمها إبراهيم بك، أحد أمراء المماليك في العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، والثانية كانت تلك التي استعملها نابليون بونابرت عندما كان على رأس حملته على مصر، والثالثة كان لمحمد علي باشا عزيز مصر في تلك الفترة.

وعليه فإن الحالة في سورية ومن ضمنها مدينة بيروت، لم تكن تختلف عما كانت عليه الحالة في مصر والقاهرة إذ أن الشرق العربي كان يحاكي بعضه بعضاً آنذاك من حيث التخلف الحضاري والتقني.

(١) Clot bey: Aperçu Général sur l'Egypte (Paris-1942)

وخلاصة القول، إن البلاد السورية، ومنها بيروت ولبنان، أصابت حظاً وافراً من النهضة التي بعثتها الحملة الفرنسية في الشرق العربي، فلقد انبثقت هذه النهضة أولاً في مصر نفسها ثم ما لبثت أن تأثرت بها بيروت خلال سنوات قليلة،وإن هذه المدينة عاشت في النصف الأول من القرن الماضي مرحلة تطور جذري شمل سائر مرافقها العامة، وكذلك أسلوب الحياة في المجتمع البيروتي وذلك نتيجة للتغيير الحضاري الذي مرت به أوروبا وهو التغيير الذي انسحب أثره الإيجابي الفعال على بلدان الشرق العربي سواء من خلال الحملات العسكرية أو من خلال الاتصالات التجارية التي قام بها الأفراد من الغرب إلى الشرق أو عن طريق المبادرات العلمية التي تمثلت بالبعثات الشرقية للدراسة في الغرب أو بالبعثات الغربية التي توسل بها المبشرون الأجانب لنشر مذاهبهم الدينية في الشرق.

بدايات المدارس والتعليم

إذا أردنا أن نتحدث عن التعليم في بيروت، كما كان عند بداية القرن الماضي، فلن نجد أفضل ولا أطرف من الصورة القلمية التي تركها لنا أحد أبناء هذه المدينة الرحالة أسعد يعقوب الخياط المولود سنة ١٨١١م الذي روى حكاية نشأته الأولى في مذكرات نشرها في لندن سنة ١٨٤٧م باللغة الإنكليزية تحت عنوان صوت من لبنان (A Voice from Leba-non) التي نقلها الدكتور فيليب حتى إلى العربية في مجلة الكلية الصادرة في الجامعة الأميركية بيروت (عدد ٤ المجلد ٨، شباط ١٩٢٣م) وقدم كاتبها أسعد الخياط المذكور على أنه «أعظم رحالة وأول مهذب سوري في القرن التاسع عشر».

فقد وصف أسعد يعقوب الخياط المدرسة التي دفعه إليها أبوه في بيروت وهو ابن خمس سنين والاستاذ الذي تولّى تعليمه في هذه المدرسة وأسلوب هذا الأستاذ في التدريس والغاية من الدراسة في زمانه. كل ذلك وصفه لنا الخياط بقوله:

«.. أما والدي فكان جُلّ اهتمامه مصوّباً نحو تهيئة الوسائل لتهذيبي وتثقيفي وكان المثل الأعلى الذي يتمنّاه لي أن اكتسب من العلوم ما يؤهّلني لدخول الدير، والاندماج في سلك رجال الدين أو من النزوح إلى بلاد الإفرنج والنجاة من الأخطار المحدقة بنا. وفي سبيل هذه الغاية أرسلني والدي إلى سليم باسيلا بائع الدخان، لأتعلم القراءة. وكان سليم يقضي النهار بطوله والغليون في فمه، وكان دخانه دوماً يكتنف وجهي فكأنماالرجل أراد تحويلي إلى لحم مقدّد من نوع «الهام»(Ham) أو الجانبون. ولو كانت السُّلطة عليَّ محصورة في معلمي سليم، لما كان في الأمر بأس ولكن امرأة سليم أيضاً كان لها عليّ بعض السلطة ـ بحق الشفعة ـ فكانت مراراً تبعثني لجلب المياه وإذكاء النار ومراقبة الطعام: دخان من تبغ المعلم في الدكّان، ودخان من طبخ المعلمة في البيت، تلك كانت خلاصة حياتي المدرسية»!..

إذن، الأستاذ في بيروت في بداية القرن الماضي كان بائع السجاير أو غير السجاير، والمدرسة كانت الدكان التي يعمل فيها هذا البائع. وعند اللزوم وغالباً ما كان هذا اللزوم وارداً، فإن زوجة صاحب الدكان أو أيّ واحدة من قريباته المسنّات، كانت تشكل معه ما يسمى اليوم بالهيئة التعليمية. أما منهاج الدراسة وطريقة التدريس في ذلك الزمان فإن ذلك الرحالة حدثنا عنهما في مذكراته بقوله:

«... جاء الغد، فتفرّست فيما أراد أن يكتبه ـ أي المعلم ـ فتمتم ما ملخصه:

ـ إن جاء خطي اليوم قبيحاً فغداً يتحسّن.

فسألته: أين الباء يا معلمي؟ فأجاب: قبل التاء.

ـوأين التاء..

ـ بعد الباء.

ـ إذن، أين الباء تاء؟ عندئذٍ انتهرني قائلاً: تلك مسألة عليك أن تحلها لنفسك، وانصرف!»

وبهذا الحوار بين أسعد يعقوب الخياط وبين أستاذه بائع الدخان سليم باسيلا عرفنا كيف كانت المدرسة والمعلم وطريقة التدريس عندما كانت بيروت ما تزال تغطُّ في غفوتها العميقة على وسادة التقاليد الماضية، قبل أن تهزها الحضارة الأوروبية بصدمتها العسكرية وتفتح عيون أبنائها الخمسة آلاف على وهج إشراقة المدنية الحديثة التي بزغت على ربوع الشرق العربي مع إطلالة السنوات الأولى من القرن التاسع عشر للميلاد.

وهنا، لا بد من القول بأن الدكّان وأمثال سليم باسيلا بائع الدخان وزوجه كانوا في ذلك الحين، يؤلفون ما نسميه اليوم المدرسة والأستاذ وسائر أفراد الهيئة التعليمية. وكان ذلك الوضع عاماً بالنسبة إلى المجتمع البيروتي يومذاك بسائر طبقاته الاجتماعية ومختلف طوائفه الدينية: المسلمون والنصارى في ذلك سواء بسواء.

وما قاله أسعد يعقوب الخياط الذى عاصر البدايات الأولى للتعليم العصري في بيروت قال مثله الأديب البيروتي حسن فروخ في محاضرته التي ألقاها سنة ١٩٤٧ في الندوة اللبنانية وموضوعها النهضة التعليمية في لبنان في مطلع القرن العشرين.

قال هذا الأديب وهو يتحدث عن بيروت في القرن الماضي:

«.. لقد كان التعليم فيها في مستهل القرن التاسع عشر قليلاً ومنحطًا جداً، إن ثمة بضعة مراكز للتعليم يقوم في كُلٍ منها رجل نصف أمّي يعلّم عدداً من الصبية حروفاً كانت تسمّى كتابة، وأرقاماً كان يقال لها حساب. وثمة أوراق من كتابة أولئك المتعلمين تلوح في مجموعة متنافرة من الحروف المتراكبة والأرقام الملتوية ولا حاجة إلى القول إنها مزيج من الأخطاء والأغلاط..».

وإننا نرجو أن لا نفاجىء أحداً من أبناء زماننا إذا ذكرنا بهذه المناسبة بأن هذا النوع من المدارس والمعلمين، بقي سائداً ومعروفاً في بيروت منذ ذلك الحين حتى أواخر العقد الثالث من القرن العشرين الذي نحن فيه. وهناك العديد من أبناء هذه المدينة الذين أدركوا هذا العقد، وكاتب هذه السطور منهم، قد تلقوا علومهم في نشأتهم الأولى، أو بلغة ذلك الزمان، فكّوا الحرف في تلك المدرسة (الدكان) على يد البائع(الأستاذ) وكانت تلك المدرسة تعرف باسم «الخوجاية» وذلك نسبة إلى مديرها وصاحبها الذي يدعى «الخوجا»، والخوجاية والخوجا كلمتان تركيتان تقابلهما باللغة العربية «الشيخة والشيخ» وهذا الاصطلاح باللغتين العربية والتركية بقي مستعملاً ودارجاً على ألسنة البيروتيين حتى عهد قريب.

والخوجاية أو الشيخة هي عبارة عن تلك الكتاتيب الصغيرة التي كان يفتحها أشباه المتعلمين الذين جعلوا من بيوتهم أو دكاكينهم التجارية مدارس بدائية يستقبلون فيها الصبيان حيث يلقّنونهم مبادىء القراءة والكتابة مع مبادىء أولية في علم الحساب إلى جانب الخط العربي. وإذا كان المعلم مسلماً ركز اهتمامه على تعليم صبيانه تلاوة القرآن الكريم وحفظه وإذا كان نصرانياً كان اهتمامه ينصب على تعليم هؤلاء الصبيان قراءة الإنجيل المقدس وحفظ بعض مزاميره.

أما الموسرون من البيروتيين الذين يرغبون في إعطاء أبنائهم المزيد من ألوان الثقافة والمعرفة فإنهم كانوا يرسلونهم إلى الأديرة إذا كانوا من النصارى، وإذا كانوا من المسلمين فإنهم يرسلونهم إلى القاهرة للالتحاق ـ أو المجاورة ـ بالجامع الأزهر الشريف حيث يطلبون العلم على شيوخ هذا الجامع الذي يعتبر أقدم المؤسسات التعليمية الإسلامية التي ما تزال باقية حتى الآن.

وفي تلك الحقبة من الزمان لم يكن العلم غاية في ذاته. فلقد رأينا كيف أن والد الرحالة أسعد يعقوب الخياط كان مثله الأعلى أن يتمكن ابنه من اكتساب بعض العلوم التي تؤهله لدخول الدير تمهيداً لانخراطه في جهاز الكهنة ليصبح في المستقبل في خدمة الكنيسة والذين يتعبّدون فيها من أهل ملّته أو أن يتعلم «لساناً» أجنبياً يستعين به إذا هاجر من بلده إلى بلاد الأجانب. وكذلك فإن الرجل المسلم كانت غاية أمله من تعليم ابنه أن يعدّه ليكون في مستقبل حياته شيخاً متعمِّماً يحظى باحترام المسلمين ويحصل على وظيفة دينية في أحد المساجد لأداء خطبة الجمعة وإمامة المؤمنين في صلواتهم الخمس. ولم يكن لأي بيروتي في ذلك الحين غاية وراء ذلك من قريب أو بعيد.

وفي ذلك الزمان، كان الرجل في بيروت إذا أسلم ولده إلى عهدة معلم الكتّاب في دكانه أو بيته، يلقي عن كاهله كل همّ يتعلق بهذا الولد الذي هو فلذة كبده، ويودّع المعلم قائلاً له بكل سذاجة واطمئنان: «هذا ولدي، قد وضعته تحت تصرفك وبين يديك فقد أصبح ابنك ولم يعد ابني وليس لي عندك وصية بشأنه إلا كلمة واحدة: خذ اللحم وأعطني العظم».

وبالفعل فإن معلمي الكتاتيب في تلك الفترة ما كانوا ليخُلفوا ظن الآباء في تنفيذ وصيتهم بأبنائهم. فلقد كانت العصا الطويلة في يد المعلم جاهزة لأن يُلهَب بها أكفّ الأولاد وأرجلهم وأقفيتهم كلما كان ذلك ضروريًا لإقناع هؤلاء الأولاد بالتفريق بين الباء والتاء ومعرفة عدد النقط ومكانها بالنسبة إلى كل حرف من حروف الهجاء المكتوبة أمامهم على لوح من الخشب أو الصفيح المدهون باللون الأسود.

أجل هكذا كانت المدارس في بيروت في القرن الماضي وحتى أوائل الحالي، وهكذا كان البيروتيون يتعلمون في ذلك الزمان.. ولقد أدركناهم وكنا لأكثر من ثلاثة عقود تتمة لهم في سجل التعليم البدائي في بيروت العتيقة..

بواكير المدارس الرسمية الحكومية

بقيت بيروت خالية من المدارس الحكومية في العهد العثماني إلى أن أُجلي المصريون عنها في سنة ١٨٤٠ بعد أن أخلاها إبراهيم باشا الذي أجبره التحالف العثماني الإنكليزي النمساوي على تركها بعد قصف المدينة من البحر والهجوم عليها من البر. فلما عادت هذه المدينة إلى السيادة العثمانية رأى المسؤولون الأترك أن الأجانب ومن إليهم من النصارى المحليين يكادون يتفردون بالسيطرة على مصادر الثقافة والتوجيه الفكري في هذه البلاد ويهددون بعزل الناشئة الإسلامية عن جو الدولة العثمانية ويبعدونهم عن التجاوب مع سياستها العامة، فبادرت اسطمبول إلى تنبيه الولاة الذين كانت ترسلهم إلى سورية بأن

يُولوا أمر التعليم في المناطق التي تحت إدارتهم العناية اللازمة، حرصاً على إبقاء الرأي العام العربي، لا سيما المسلم، داخل الإطار الفكري للإمبراطورية العثمانية، فاستجاب الولاة لهذا التوجيه الرسمي، وأخذت بيروت منذ ذلك الحين تحظى بحصة الأسد من المدارس الحكومية الرسمية التي كان أولئك الولاة يفتحونها باسم السلطان العثماني القائم وتحت شعار الدولة العثمانية وصولجانها. وهذا الاهتمام الذي ظهر من الدولة العثمانية بالنسبة لفتح المدارس في ولاية بيروت وغيرها من الولايات العربية، إنما كان نتيجة لملاحظات متكررة أبداها المسؤولون في تقاريرهم الرسمية.

من ذلك ما كتبه مدحت باشا الذي أرسل في هدا الموضوع تقريراً قال فيه: «ومع سابق معرفتي بهذه البلاد، فقد وجدت الحالة متغيّرة عن ذي قبل، فقد صبغت أحوال الولاية (بيروت) الاجتماعية والسياسية بصفة غير صفتها الأولى، لأن الإنكليز والفرنسيس يبذلون مساعيهم من أربعين سنة لتقوية نفوذهم في هذه البلاد، وقد أوصلوا جبل لبنان إلى حالته الحاضرة، وهم يحاولون ايصال بقية البلاد الشامية إلى ما وصل إليه الجبل، والدولة تنظر إليه بعين المقلّد. فالأميركان يريدون إعلان حمايتهم لجبل النصيرية فيفتحون المدارس ويشوّقون الأهالي لقبول الحماية الأميركية، والألمان يرسلون مهاجريهم إلى سواحل القدس لإسكانهم في القرى المجاورة، والخلاصة، كل دولة تريد أن تضع يدها على قطعة من برّ الشام، والخلل سائر في البلاد وليس ثمة اسم للعلاج. وجرائد أوروبا تكتب المقالات تلو المقالات مظهرة سوء المغبّة. فإن تعرضت لاستقلالنا دولة وافقها الرأي العام الأوروبي وقام المستعمرون الذين أنشأوا المدارس في برّ الشام طالبين الاشتراك في اقتسام السَّلَب!».

والجدير بالذكر، أنه لما قامت الدولة العثمانية بافتتاح المدارس في المناطق الإسلامية لتعميم العلم في أوساط المسلمين أظهر النصارى المحليون امتعاضهم لما سمّوه محاباة الدولة لأبناء دينها - أي المسلمين - ولما نقلوا احتجاجاتهم إلى مدحت باشا لعدم افتتاح المدارس في مناطقهم، أجابهم بأن النصارى يلاقون من أبناء ملتهم الأجانب الرعاية الكافية في هذا الميدان، أما المسلمون فليس لهم من يهتم بهم سوى الدولة. وأيًا ما كان، فإن تعليم المسلمين يخدم جميع الرعايا العثمانيين لأن ذلك يؤدي إلى ارتفاع المستوى العلمي لدى الجميع، وإن اختلفت مصادر التعليم بين أجنبية وعثمانية..

المدارس السلطانية

والمدارس التي أنشأتها الدولة العثمانية، سواء في بيروت نفسها أو في بقية المدن السورية كان يطلق عليها اسم «المدارس السلطانية» وذلك إشارة إلى أنها تابعة لصاحب العرش السلطان العثماني في اسطمبول الذي يمثل السلطة العليا في جميع الأقطار التي كانت تشكل الإمبراطورية العثمانية في ذلك الحين.

وكلمة «السلطانية» تقابلها في أيامنا كلمة «الرسمية» التي تطلق على المدارس التي تفتحها الحكومة وتتولى إدارتها والإنفاق عليها من الموازنة العامة وتطبق فيها المناهج التعليمية في حدود سياستها الثقافية الوطنية.

والمدارس السلطانية، في حقيقتها، لم تكن على غرار المدارس الخاصة التي كان ينشئها الأجانب أو الأهالي النصارى من حيث منطلقاتها العلمية أو مناهجها التنظيمية، إذ بينما كانت المدارس الأجنبية تهدف بصورة مبدئية إلى التبشير الديني عن طريق التعليم، والمدارس الأهلية النصرانية مثلها تحت ستار العلم بمفهومه الأوروبي الحديث، فإن المدارس السلطانية كانت لها غاية أخرى، وهذه الغاية هي تكوين جيل من الشبان العرب الذين يصلحون للعمل الإداري في المؤسسات الحكومية أو لخدمة العَلَم في الأجهزة العسكرية التابعة للجيش الهمايوني العثماني. ولذلك فإن المدارس التي خصّصتها الدولة لتخريج الموظفين المدنيين كانت تسمى «المدارس الإعدادية». أما المدارس التي خصّصت لتخريج العسكريين فإنها كانت تسمى «المدارس الحربية» أو «المدارس العسكرية».

ونظراً لطبيعة التعليم في هذه المؤسسات الحكومية والأهداف المحدّدة لها من قِبَل الدولة في اسطمبول فإن المنتسبين إليها كانوا، في الغالب، يمثلون طبقة اجتماعية معينة. فالمدارس الإعدادية كان طلابها في الغالب من أبناء الوجهاء والأعيان، والعائلات العريقة في مناطقهم لأن الدولة كانت ترى فيهم المقدرة على استخدام نفوذهم العائلي داخل مناطقهم من أجل تطبيق القوانين الحكومية بين مواطنيهم بالشكل الذي يساعد على اطّراد سير العمل الإداري بأقل ما يمكن من الاضطراب وأكثر ما يمكن من المرونة، بقدر الإمكان.

وأما المدارس الحربية أو العسكرية فإن المنتسبين إليها كانت الدولة تختارهم من بين أبناء العشائر البدوية، وأصحاب العصبيات الإقليمية والبلدية، ذلك أن اسطمبول كانت حريصة على ضمان ولاء هذه الأوساط للعرش العثماني وسياسته العمومية وترى أن زعماء العشائر ومن إليهم من الأعيان النافذين هم أقدر من سواهم على ضبط هذه العناصر بجعلها تحت الرقابة الدائمة للسلطة الحاكمة بحيث يتعذر عليها النشوز عن الطاعة أو إثارة الفتن والقلاقل في مناطقها.

والمدرسة الأولى التي أنشأتها الدولة العثمانية في بيروت كانت «الدار العسكرية» والذي أمر بإنشائها هو السلطان عبد المجيد الأول والد السلطان عبد الحميد الثاني رحمهما الله. وكان افتتاح هذه المدرسة سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٢ م). والذي حدا بالسلطان المذكور إلى إنشاء هذه المدرسة في بيروت آنذاك، هو رغبته في إظهار رضاه عن أهل هذه المدينة ومكافأتهم على ما أظهروه من تأييد وولاء للدولة العثمانية خلال صراعها مع محمد علي باشا. ونحن لا نعلم شيئاً عن المكان الذي بنيت فيه هذه المدرسة، كما أننا لا نعلم شيئاً عن مصيرها. والذي انتهى إلينا من المعلومات عنها أنه عندما صار افتتاحها نظم الشيخ ناصيف البازجي (اللبناني) أبياتاً في تأريخها على طريقة حساب الجُمَّل ورقمت هذه الأبيات على نقيشة وضعت في داخل البناء وهذه الأبيات هي:

مليك الورى عبد المجيد قد ابتنى
مقاماً لأنصار الجهاد مشيدا
على بابه خط المؤرخ قائلاً
سلام عليكم فادخلوا الباب سُجَدا

ونظم أبياتاً أخرى رقمت على نقيشة وضعت في خارج المبنى وهذه الأبيات هي:

شادها عبد المجيد المصطفى ... صاحب المُلْك أمير المؤمنين
فدعا تاريخنا أنفارها ... ادخلوها بسلام آمنين

المدرسة الرشدية الحربية

هذه المدرسة أنشأتها الحكومة العثمانية لنفس الاعتبارات التي أُنشئت من أجلها «الدار العسكرية» التي تحدثنا عنها من قبل. وهي الثانية من نوعها في بيروت خلال الثلث الأخير من القرن الماضي، وقد ذكرت جريدة الجنان لصاحبها سليم بطرس البستاني الصادرة في ٢١ تشرين الثاني ١٨٧٧ م أن الذي قرّر إنشاءها هو راشد باشا والي سورية آنذاك بالتعاون مع مجلس بلدية بيروت في عهد رئيسه أحمد أباظة. ، على أنها لم تستعمل للتدريس أول الأمر بل استخدم بناؤها لنزول المسافرين الذين يمرون في بيروت، ولما تعين رائف أفندي متصرفاً على هذه المدينة لأول مرة أخلاها من النزلاء وجعلها مدرسة حربية وخصص لها الأموال اللازمة من خزينة الحكومة ومن المجلس البلدي وصار افتتاحها يوم السبت ١٣ شوال ١٢٩٤ هـ (٢ تشرين الأول ١٨٧٧ م) وكان رئيس المجلس البلدي في ذلك الحين محيي الدين أفندي بيهم والد عمر بك بيهم الوجيه البيروتي. وجرى الاحتفال بافتتاحها بقراءة الفاتحة من القرآن الكريم ثم خطب كل من الشيخ إبراهيم أفندي الأحدب (الطرابلسي) جد السفير إبراهيم والمهندس فايز ثم توالى على الكلام عبد الرحيم بدران ونعيم قيقانو أعقبهما الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت وشيخ مشايخ الطرق الصوفية بالدعاء للسلطان أمير المؤمنين وكان يومئذٍ السلطان عبد الحميد الثاني، وكانت كلمة الختام للمتصرف رائف أفندي.

ونحن لا علم لنا عن المكان الذي بنيت فيه هذه المدرسة لأول مرة، فهذه المدرسة تغير مكانها وبنيت من جديد في المحلة التي تعرف اليوم باسم «حوض الولاية» الواقعة بآخر نزلة برج أبي حيدر باتجاه المدينة. وكان تدشين البناء الجديد في شهر محرم الحرام ١٣٠٣ هـ (تشرين الأول ١٨٨٥) على أن الشيخ عبد القادر القباني نشر في مجلة الكشاف البيروتية، المجلد الأول ١٣٤٥ هـ (١٩٤٧م) مقالاً جاء فيه أن افتتاح هذه البناية كان سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) وقد تبرع فخري بك رئيس المجلس البلدي آنذاك لهذه المدرسة بقطعة أرض موقعها في رأس بيروت تساوي قيمتها ٢٥ ألف غرش تركي.

هذه المدرسة ما تزال في الموضع الذي أُعيد بناؤها فيه في المحلة المعروفة اليوم باسم «حوض الولاية» وعرفت هذه المحلة بهذا الاسم لأنه كان يوجد فيها حوض يستقي منه أبناء بيروت التي أصبحت مركزاً لولاية مستقلة تحمل اسمها ابتداء من سنة ١٨٨٨ بعد أن كانت متصرفية تابعة لولاية دمشق. ولقد أدركنا هذه المدرسة في أيام الانتداب الفرنسي وكانت مشهورة عند الناس باسم «المدرسة العسكرية» كما كانت مشهورة كذلك باسم «مدرسة الحاووز» والحاووز هو اللفظ التركي لكلمة حوض العربية.

وفي مجلة الدستور البيروتية عدد ١٩٧٤/٥/٢٧ م حدثنا الصديق الأستاذ محمد كزما عن هذه المدرسة وذكرياته فيها يوم كان من تلامذتها سنة ١٩٢٤ م فقال رحمه الله: «خلال تلك المدة (١٩٢٤ - ١٩٢٨ م) التي قضيتها في «حوض الولاية» كتلميذ، كان هناك في الجهة الغربية من البناء بستان فيه بعض أشجار الصفصاف العالية والبرتقال الجميل والأكيدنيا يقابله في الجهة الجنوبية ملعب للتلاميذ كان يحدل يومياً ويرش بالماء قبل الظهر وبعده، لا سيما في الأيام الحارة وذلك لمنع تطاير الغبار المضر بصحة التلاميذ، وكانت غرف التدريس الواسعة غاية في النظافة».

ثم يذكر الأستاذ كزما عن والده أنه في سنة ١٨٩٦ زار «المدرسة العسكرية» مفتش تركي جاء خصيصاً من العاصمة اسطمبول «فرأى في زاوية إحدى الغرف عنكبوتاً فغضب غضباً شديداً على المدير وعزا إليه الإهمال، وبعد أسبوعين كان ذلك

المدير المسكين يتسلم قراراً رسمياً بعزله، وفعلاً أبدل بغيره...».

وهنا، نحب أن نذكر على سبيل المقارنة بين أيام الأتراك وبين أيامنا، ما حدثنا به الأستاذ حسن فروخ مدير هذه المدرسة في أوائل سنوات الاستقلال من أن أحد كبار مفتشي المعارف زاره في مكتبه بالمدرسة أثناء دورة تفتيشية. وما إن استقر به المقام في المكتب حتى طلب منه تجهيز نفس أركيلة «ليستمخ» به قبل القيام بمهمته الرسمية. فثار الأستاذ فروخ رحمه الله لهذه البادرة «الكيفية» وطلب من سعادة المفتش أن يعود أدراجه من حيث أتي!

في كل مدرسة رسمية مسجد للصلاة

ونعود إلى الكلام عن «المدرسة العسكرية» فنقول بأنه جرت التقاليد العثمانية بأن يفرد في كل مؤسسة حكومية مكان خاص لإقامة الصلاة التي جعلها الله على المسلمين كتاباً موقوتاً، وعلى هذا فإنه كان في هذه المدرسة بركة ماء واسعة بيضاوية الشكل مغطاة بقضبان حديدية أثبتت فيها صنابير نحاسية (حنفيات) حتى إذا حانت صلاة الظهر أثناء الدوام توضأ الطلاب المسلمون من هذه البركة وأقبلوا على صلاتهم يقيمونها في مسجد المدرسة الذي كان عبارة عن إحدى قاعاتها الفسيحة المخصصة لهذا الغرض، وكان يؤمهم في الثلاثينات من هذا القرن العلامة الشيخ أحمد عمر المحمصاني (المصري الأصل)، وأحياناً يؤمهم الشيخ راشد عليوان العالم اللغوي، وقد انتقل الشيخان المذكوران إلى جوار الله عز وجل، وإننا أدركنا الاثنين وتتلمذنا عليهما أثناء طلب العلم الديني في الكلية الشرعية في بيروت التي أصبحت تسمى اليوم «أزهر لبنان».

والجدير بالذكر أن هذه التقاليد الدينية بقيت متبعة في بيروت خلال عهد الانتداب الفرنسي فلما استقل لبنان سنة ١٩٤٣ م أبطلت بعد أن أهملت.

وهذه المدرسة التي تأسست قبل حوالى مائة سنة لتخريج صف الضباط العسكريين أو ما كان يسمى في ذلك الحين «كوجك ظابطان» أي الضباط الصغار أصبحت في أيامنا معهداً ثانوياً بمستوى شهادة البكالوريا اللبنانية وقد تخرج منها العديد من الأساتذة المرموقين الذين شغلوا في أيامنا مراكز هامة سواء في الحياة العامة أو في الأوساط التجارية والعملية.

صنائع مكتبي سي

هذا هو الاسم الرسمي للمدرسة التي عرفناها في أيامنا باسم «مدرسة الصنائع والفنون الجميلة» وهي اليوم «كلية الحقوق» التابعة للجامعة اللبنانية. وبالرغم من أن هذه المدرسة بنيت في العشر الأوائل من هذا القرن إلا أن فكرتها الأولى كانت من غرس مدحت باشا والي سورية في بداية عهد السلطان عبد الحميد الثاني، فلقد كان هذا الوالي عمرانياً محباً للترقي، وإليه يرجع الفضل في بواكير النهضة العلمية التي شهدتها مدينة بيروت في ذلك الحين. ومدحت باشا هو الذي أنشأ في هذه المدينة أول مدرسة للصنائع والفنون والعهدة في ذلك على مجلة الهلال التي قالت في مجلدها السابع عشر ص ٢٦٦ في أثناء كلامها عن هذا الوالي «.. فأنشأ مدرسة للصنائع والفنون وأخرى للأيتام» على أن المدرسة التي أنشأها مدحت باشا لم تكن حيث تقوم حالياً مدرسة الصنائع والفنون الجميلة الواقعة في المحلة المنسوبة إليها في الجهة الغربية من بيروت وإنما كانت بداخل بيروت القديمة ضمن السور ونحن لا نعرف مكانها بالضبط بعد أن تغيرت معالم هذه المدينة وتحولت إلى أسواق تجارية.

ولكن المدرسة التي أنشأها مدحت باشا طواها الزمن عندما طوى الموت صفحة حياة منشئها سنة ١٨٨٣. غير أن هاجس هذا المشروع المهني الجليل بقي يخامر الولاة العثمانيين الذين جاءوا من بعده. وفي أيام رشيد باشا والي بيروت سنة ١٨٩٨ صدرت جريدة ثمرات الفنون وفيها الخبر التالي «مما ترتاح إليه النفوس وتتحلى بذكره الطروس أن مجلس إدارة الولاية الجليلة قرر أخيراً تأسيس مكتب للصنائع في مدينتنا بيروت وهي لعمري أمنية طالما تمنيناها حباً بإحياء الصنائع الوطنية التي بها حياة البلاد وإيواء أولئك الصبيان الذين لا شغل لهم ولا عمل.. وقد بلغنا أن ملاذ الولاية رشيد باشا استأذن مقام الصدارة العظمى (رئاسة الحكومة في اسطمبول) بإنفاق الأموال اللازمة لهذا الأثر الجزيل الفائدة». وبالرغم من أن قرار تأسيس المدرسة اتخذ سنة ١٨٩٨ غير أن الإجراءات التنفيذية لهذا القرار تأخرت حتى سنة ١٩٠٥ على يد الوالي خليل خالد باشا. ففي سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠٣ م) صدر عن السلطان عبد الحميد الثاني «فرمان عالي شان» المؤذن بتفويض ولاية بيروت الجليلة لعهدة دولتلو خليل باشا» جاء فيه ما نقله هنا عن جريدة الإقبال الصادرة في ذلك الحين: «ليكن معلوماً أن من المطلوب والملتزم جدًّا لدى جنابي الملوكاني هو حسن إدارة ولاية بيروت وسرعة السعي وراء استكمال التدابير التي تعود بزيادة عمرانها وإنماء ثروتها وتقدم تجاراتها واستحصال كافة الأسباب والوسائل التي تستلزم تطمين بال أهاليها وسكانها وتأمين سعادتهم بحسب ما تستدعيه أهمية موقعها وقابليتها للعمران والترقي... صارفاً جُلّ المقدرة في استجلاب الدعوات الخيرية من كل فرد لجنابي الملوكاني المستجمع المجد والشرف غيوراً على القيام بكل ما تزداد به توجهاتي الملوكانية المقررة بحقك، وأن تعرض المواد اللازمة

الإنهاء لدار سعادتي تباعاً..».

وتنفيذاً لما جاء في هذا الفرمان العالي الشان من التوجيهات الملوكانية، على حد التعبير الذي جاء في هذا الفرمان (أي المرسوم) فإن الوالي خليل باشا جمع معاونيه في الإدارة وطلب إليهم البدء ببناء المدرسة باسم «صنائع مكتبي سي» أي المدرسة الصناعية، وكان الأتراك يطلقون كلمة «مكتب» على المدارس المدنية وأما كلمة «مدرسة» فكانوا يطلقونها على المدارس الدينية فقط.

باره يوك!

وعندما سمع رجال الإدارة بالولاية رغبة واليهم لم يسعهم إلا الموافقة على أنهم قالوا له «باره يوك». وهي عبارة تركية تعني بالعربية «لا يوجد نقود». ولكن جواب هؤلاء الموظفين لم يقنع الوالي خليل باشا بصرف النظر عن مشروعه بل إنه فكر وقدَّر ثم رد عليهم قائلاً بالتركية «باره بولوروم» أي «عليّ تأمين النقود». وبالفعل فإن هذا الوالي العمراني دعا أعيان البلد للاجتماع بديوانه وأسفر هذا الاجتماع عن تأليف لجنة تشرف على إنشاء المدرسة وكانت هذه اللجنة مؤلفة من الأشخاص الآتية اسماؤهم: فضيلتلو عمر أفندي خلوصي، نائب مركز الولاية (أي القاضي الشرعي)، سعادتلو عبد القادر أفندي القباني (مدير المعارف)، فضيلتلو محمد أفندي الكستي (رئيس كتبة المحكمة الشرعية)، فضيلتلو رشيد أفندي الفاخوري (محرر المقاولات)، عزتلو أمين أفندي حلمي (من خلفاء محاسبة الولاية)، عزتلو محمد أفندي اللبابيدي (مأمور الإجراء)، عزتلو الحاج محمد أفندي الطيارة، عزتلو نجيب أفندي طراد، عزتلو نجيب أفندي الهاني، عزتلو بشارة الدب (سر مهندس النافعة بالولاية وأمين البناء)، عزتلو صادق أفندي (سر مسوّد قلم مكتوبي الولاية). وكان النائب خلوصي رئيساً للجنة وصادق كاتبها.

ولم تبطىء هذه اللجنة بالعمل بل باشرت به فوراً فتبرع آل الطيارة بقطعة أرض من أملاكهم في محلة الرمل، حيث تقوم المدرسة حالياً، وأمن الوالي المال اللازم عن طريق ضريبة موقتة فرضها على المسافرين من بيروت والقادمين إليها مقدارها ريالان مجيديان على المسافر وأربعة على القادم. كما فرض على كل من يريد أداء فريضة الحج من المسلمين رسماً قدره ليرة ذهبية عثمانية. وما كادت السنة ١٩٠٥ تحل إلا وكان المال المطلوب لهذه المدرسة قد توفر. وفي الساعة الرابعة من يوم الجمعة في شهر جمادى الثانية ١٣٢٣هـ (آب ١٩٠٥م) صادفت ذكرى العيد السنوي للجلوس المأنوس (أي تولى السلطان أريكة العرش العثماني) وبهذه المناسبة جرى الاحتفال بوضع الحجر الأساسي للمكتب الصناعي والمستوصف الخيري الذي بجانبه وذلك بحضور «ملاذ الولاية الجليلة (خليل باشا) وأركانها ومأموريها الملكيين والعسكريين وبعض الأعيان والعلماء وقناصل الدول الأجنبية الموجودين في بيروت وذبحت القرابين، وفاه حضرة نقيب الأشراف عبد القادر أفندي النحاس بالدعاء بطول بقاء مولانا أمير المؤمنين وتأييد شوكته..».

وفي سنة ١٩٠٧ انتهى العمل في هذا المشروع المهني الضخم وكان يضم أربع منشآت متجاورة وهي: المدرسة، والمستوصف الخيري، والجامع المحاذي للمستوصف حيث تقوم بناية الاذاعة اللبنانية اليوم، والحديقة المواجهة للمدرسة، التي ما تزال موجودة إلى الآن.

وفي السنة المذكورة افتتحت المدرسة بحفلة رسمية توالى على الكلام فيها كل من الأعيان والعلماء. «عبد القادر أفندي الدنا رئيس البلدية، سعادتلو حسن أفندي بيهم، من أشراف بيروت، مكرمتلو عبد الرحمن أفندي سلام من علماء الثغر، رفعتلو أحمد أفندي اللبابيدي، وكان مسك الختام لفضيلتلو عبد القادر أفندي النحاس نقيب الأشراف الذي ختم الاحتفال بالدعاء للسلطان أمير المؤمنين».

بيروت في بداية مسيرتها مع التعليم العصري

مدرسة بيروت للإناث

بقيت بيروت خلال قرون طويلة خالية من أي مؤسسة علمية تستحق الاهتمام إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. وحتى ذلك الزمن، كان الراغبون في طلب العلم من البيروتيين قانعين «بفك الحرف» في الكتاتيب الصغيرة داخل الدكاكين التجارية التي كان يديرها أشباه المتعلمين، أو بالأصح « أشباه الأميين» وأكثرهم من المكفوفين، ومن كان ذا سعة من أولئك الطلاب، فإنهم كانوا يسافرون إلى الخارج، أو يلوذون بأروقة المعابد الدينية، كالمساجد والزوايا والأديرة والكنائس، حيث يلتمسون على أيدي الشيوخ والكهنة ما يروي ظمأهم إلى المزيد من الثقافة والمعرفة في حدود ما كان متداولاً من العلوم في ذلك الحين بما يؤهلهم لأن يكونوا في المستقبل أئمة في المساجد أو رهباناً في الكنائس دون أن يتطلّعوا إلى ما هو أبعد من ذلك.

وفي السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، بدأت بعض المؤسسات المدرسية تظهر في هذه المدينة. بيد أن هذه المؤسسات، لم يكن لأهل البلد يدٌ فيها من قريب أو بعيد، وإنما أنشأتها الهيئات الأجنبية التي قدمت من الأقطار الأميركية والأوروبية.

وجدير بالذكر أن الذي دفع بهؤلاء الأجانب إلى إنشاء المدارس في بيروت خلال تلك الفترة، هو رغبتهم في الدعوة إلى مذاهبهم الدينية بعد أن هيأت لهم الظروف السياسية والمتاعب المالية التي مرت بالإمبراطورية العثمانية، فرصة التسرب إلى الشرق العربي على أثر الوهن الذي أصاب هذه الإمبراطورية بسبب حروبها مع الروسيا، ومن بعدها حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ م، ثم الحركة الانفصالية التي قام بها إبراهيم باشا ابن عزيز مصر محمد علي باشا بين سنتي ١٨٣١ و١٨٤٠.

ولقد كان الاميركان أسرع من غيرهم في انتهاز الفرصة واستغلال الوضع السيّئ في الدولة العثمانية آنذاك، وبادروا إلى التحرك في الاتجاه الملائم لمصالحهم الثقافية وغير الثقافية معتمدين على الجمعيات الدينية في أميركا التي كانت متحمسة لنشر المذهب الإنجيلي، لا سيما في أوساط النصارى من أبناء الشرق العربي الذين كانوا موزعين بين المذهبين: الكاثوليكي الغربي والأرثوذكسي الشرقي.

في سنة ١٨١٩ حلَّ في بيروت قس أميركي اسمه بليني فسك (Pliny Fisk) موفداً من قبل «المجمع الأميركي للإرساليات الأجنبية» وكان فسك أول مرسل أوفدته الجمعيات التبشيرية في أميركا لكي يؤسس في هذه المدينة مدرسة تتولى تعليم أبناء البلاد اللغة الإنكليزية إلى جانب مهمتها الأساسية وهي نشر المذهب الإنجيلي بين المواطنين.

وبعد سنوات قليلة قدم من أميركا اثنان من زملاء فسك وهما إسحاق بيرد (Isaac Bird) ووليم غودل (William Goodell) وقد نزل الثلاثة في بيت أولهم الذي كان يقع في محلة زقاق البلاط التي كانت يومذاك خارج بيروت القديمة.

وفي ٢٣ تشرين الأول ١٨٢٥ مات فسك عن إحدى وثلاثين سنة ودفن في مقبرة الإرسالية الأميركية التي كانت وراء الكنيسة الإنجيلية الحالية التي كانت موجودة في الجهة الغربية من الساحة المعروفة اليوم باسم «ساحة رياض الصلح».

وفي سنة ١٨٢٥ افتتح القس إسحاق بيرد أول مدرسة تبشيرية في بيروت. وكانت نهارية خارجية وقد ضمت يومئذ ٨١ صبياً وفتاتين وهي أول مدرسة أجنبية عرفتها هذه المدينة في تاريخها الحديث. وكان موقعها في نفس المكان الذي بنيت فيه بعد ذلك المطبعة الأميركية التي كانت إلى جانب الكنيسة الإنجيلية التي أشرنا إليها من قبل، وقد أطلقت بلدية بيروت في أيامنا اسم

الكنيسة على الطريق المحاذي لها وأصبح يعرف باسم «شارع الكنيسة الإنجيلية». وفي سنة ١٨٣٠ أنشأت زوجة إسحاق بيرد مدرسة ثانية بالقرب من المدرسة التي أسسها زوجها، كما قامت زوجة وليم غودل بتأسيس مدرسة أخرى للبنات أيضاً في جبل لبنان.

ولم تكن المدرسة التي أسستها السيدة بيرد ذات بناء مستقل، بل كانت هذه السيدة تستقبل في بيتها بضع بنات وتقوم بتدريسهن.

وبعد بضعة اعوام حذت السيدة أليزا طومسن، زوجة القس وليم طومسن حذو السيدة بيرد وفتحت بيتها لاستقبال ثماني بنات كانت تدرسهن فيه. وبقي تعليم البنات على هذه الحال إلى عام ١٨٣٤. ففي هذا العام قدمت إلى بيروت السيدة سارة سمثّ زوجة القس الدكتور عالي(إيلي) سمثّ أحد مترجمي التوراة (العهدالقديم) إلى اللغة العربية. ولقد تولت السيدة المذكورة أمر تنظيم تدريس البنات في بناء مستقل وأنجزت هذا البناء سنة١٨٣٥ بالمال الذي تبرعت به سيدة إنكليزية اسمها «السيدة طود» فاعتبر عام ١٨٣٥ عام التأسيس، وعرفت المدرسة يومئذ باسم «مدرسة بيروت للإناث» وكان عدد تلميذاتها ٤٠ بنتاً.

وتذكاراً لبناء هذه المدرسة وافتتاحها رسمياً للتعليم قام المرسلون الأميركان سنة ١٨٩٤ بوضع نُصُب هو عبارة عن عمود نقشت عليه الكتابة التالية: «نصب هذا العمود سنة ١٨٩٤ في الموضع الذي بنت فيه السيدة طود الإنكليزية المدرسة الأولى للبنات في سورية سنة ١٨٣٥ للسيدة سارة سمثّ الأميركانية المعلمة الأولى في تلك المدرسة، والمؤسسة لمدرسة الأحد الاولى في المملكة العثمانية فأقيم تذكاراً لذلك».

هذه المدرسة كانت أول مدرسة لتعليم البنات في بيروت وفي سائر الولايات العثمانية. وأول مدرسة تعطي شهادة «الهاي سكول» في الشرق العربي، وهي البداية الأولى لما أصبح يسمى في أيامنا «جونيور كوليدج Junior College أو كلية بيروت الجامعية» وفي عام ١٩٥٩ انتقلت المدرسة من إشراف الإرسالية الأميركية إلى إشراف السينودس الإنجيلي الوطني في سورية ولبنان الذي بدّل اسمها إلى «مدرسة بيروت الإنجيلية للبنات» وفي إحدى غرف الطابق (الدّور) الثاني من هذه المدرسة كان يجتمع المرسلان الأميركان عالي سمثّ وكارنيلوس فانذايك ومعهما الشيخ ناصيف اليازجي (اللبناني) والشيخ يوسف الأسير (الصيداوي) والمعلم بطرس البستاني لترجمة التوراة إلى اللغة العربية، وهي الترجمة الأولى بهذه اللغة. وفي حوزة السينودس الإنجيلي (اليوم) نقيشة رخامية تشير إلى العمل الذي قام به هؤلاء الأشخاص، وقد رقمت فيها الكتابة التالية:

«شرع في هذه الغرفة في ترجمة التوراة إلى اللغة العربية الدكتور عالي سمثّ عام ١٨٤٨ واستمر إلى حين وفاته في كانون الثاني ١٨٥٧ ثم أخذ في إتمامها الدكتور كارنيليوس فانذايك في تشرين الأول ١٨٥٧ وفرغ منها في ٢٣ آب ١٨٦٤».

بقي أن نقول بأن بلدية بيروت هدمت مباني هذه المدرسة ومعها مبنى مكتبة الساعة التي حلت محلها فيما بعد، وذلك في سنة ١٩٧٤ عندما بوشر بفتح جادة فؤاد شهاب الممتدة ما بين بيروت (المدينة) وبين مبنى المدينة الرياضية في منطقة بير حسن. وعلى أثر هدم مباني المدرسة في بيروت، انتقلت المدرسة بمعلميها وتلميذاتها إلى مبانيها الجديدة في منطقة الرابية، وذلك في أوائل شهر تشرين الأول ١٩٧٤.

وفي سنة ١٨٣٥ جعل الدكتور وِليَم طومسن المدرسة التي أسسها بيرد يومية داخلية، وخصّصها للصبيان فقط. ولم يتجاوز عدد الذين أمّوها من الطلاب، أبناء البلاد، ستة أفراد. وكانت الدروس في هذه المدرسة تُعطى باللغة الإنكليزية، إلا إن القساوسة الأميركان الذين كانوا يشتركون مع وليم طومسن بالإشراف عليها أدخلوا فيها تعليم اللغة العربية مستعينين بأحد المواطنين من أبناء البلاد واسمه أسعد الشدياق الذي سبق له أن علّم بليني فسك اللغة العربية وانتحل مذهبه الإنجيلي في نفس الوقت. وكذلك كلف الأميركان اثنين من بيت ورتبات، وهما من الأرمن، كانا في خدمتهم، بأن يعلما زملاءهما في المدرسة اللغتين التركية والأرمنية، في حين تولى إسحاق بيرد تدريس اللغة الإيطالية التي كانت أكثر اللغات الأجنبية انتشاراً في بيروت آنذاك.

إلا أن هذه المدرسة، أقفلت أبوابها بعد افتتاحها بفترة وجيزة بسبب الظروف السياسية التي نشأت عن الحملة العسكرية التي قادها إبراهيم باشا ابن عزيز مصر بالتبني محمد علي باشا، عندما قام هذا الأخير بحركته الانفصالية ضد الإمبراطورية العثمانية التي أشرنا إليها قبل حين. ونتيجة لهذه الظروف الطارئة، توقف نشاط المرسلين الأميركان في بيروت، وانتقل هؤلاء إلى قرية عبيه واتخذوها مركزاً موقتاً لنشاطهم المزدوج في التعليم والتبشير في آن واحد.

وعندما أُخرج إبراهيم باشا من بيروت سنة ١٨٤٠ حضر إلى هذه المدينة فوج آخر من المرسلين الأميركان وهم مستر هبرد ومستر والكوت ومعهم الدكتور وليم طومسون، وقد أعاد هؤلاء الثلاثة فتح مدرسة بيروت من جديد وكان عدد تلامذتها يومئذ اثني عشر شخصاً من أبناء البلاد. وهم: يوحنا وكريكور ويعقوب من بيت ورتبات، وإسكندر ويوحنا من بيت أبكاريوس، وجميع

هؤلاء وأولئك من الأرمن، وناصيف وبشارة وأسعد من بيت الشدودي الكاثوليك، ونادر عقل وجبور جردي من الروم الأرثوذكس، بالإضافة إلى عبد الله الوتوات من أبناء الطائفة الدرزية. وهذا الأخير كان يملك البستان الذي تنسب إليه في أيامنا «محلة الوتوات» الواقعة بالقرب من مدرسة الصنائع والفنون الجميلة التي أصبحت في أيامنا في بعضها القصر الحكومي وفي بعضها الآخر مبنى كلية الحقوق والعلوم السياسية التابعة للجامعة اللبنانية.

وفي سنة ١٨٤٠ نزلت إلى بيروت فرقة المهندسين من بحارة الأسطول الإنكليزي الذي قاده الأميرال نابيا Charles Napier . لمساعدة الجيش العثماني في إخراج المصريين من المدينة. فأحتاج أفراد هذه الفرقة إلى من يترجم بينهم وبين الأهالي، فصادروا تلامذة المدرسة المذكورين الذين لم يكن في بيروت غيرهم يعرف الإنكليزية وذلك لاستخدامهم تراجمة لهم، مما أدى إلى إقفال المدرسة للمر ة الثانية.

ولما هدأت الأحوال في البلاد، بعد استقرارها في يد العثمانيين، قدم إلى بيروت في أوائل سنة ١٨٤٢ الدكتور هنري دي فرست مع زوجته ونزلا في بيت مواطنهما المرسل الأميركي الدكتور عالي سمـثّ. وفي نفس السنة عقد هؤلاء المرسلون الثلاثة اجتماعاً حضره معهم اثنان آخران وهما المستر بيدل والدكتور كارنيليوس فاندايك. وقد أسفر هذا الاجتماع عن اتفاق المجتمعين المذكورين على التوقف عن متابعة التعليم في مدينة بيروت والانتقال إلى قرية عبيه بجبل لبنان. وكلف الدكتور فاندايك بأن يؤسس في هذه القرية مدرسة تبشيرية لأن عبيه أكثر ملاءمة لهذا الغرض من بيروت لأسباب بيَّنها فانديك في مذكراته قال فيها« إن عبيه قرية كبيرة، عامرة وصحية وفيها أخلاط من الدروز والمارونيين والروم الأرثوذكس وبعض الكاثوليك، ولأنها كانت وسطاً بين بلاد الدروز وبين بلاد النصارى ويسهل اقتناء بيت فيها..»

ثم ما لبث الأميركان أن عادوا إلى بيروت لاستئناف نشاطهم التعليمي فيها بعد أن توفرت لهم الظروف المواتية لهذا النشاط. ففي سنة ١٨٥١ افتتحوا في هذه المدينة مدرسة جديدة على أن تكون مخصصة للبنات من دون الذكور، وكان من أساتذة هذه المدرسة الدكتور عالي سمـثّ، والدكتور وليم طومسون ومستر هويتن ومستر كايز، ومستر بيدل والدكتور هنري دي فرست، وجميعهم من المرسلين الأميركان ومعهم من الوطنيين المعلم بطرس البستاني، من قرية الدبية، أحد تلامذتهم القدماء الذي أسس المدرسة الوطنية في وقت لاحق، وأول فوج من التلميذات اللاتي تخرجن في هذه المدرسة هن: راحيل عطا الله التي صارت فيما بعد زوجه للمعلم بطرس البستاني المذكور، وماريا أيكاريوس شقيقة حنا ابكاريوس الأرمنيين وكرابيت وحنة ورتبات، شقيقتا الدكتور ورتبات الأرمن أيضاً، ورفقة وسعدى كريكور، ولولو التي تزوجها المعلم مخايل عرمان أحد معلمي مدرسة عبيه التي سبقت الإشارة إليها من قبل. وجميع هؤلاء المتخرجات كن، كما يلاحظ، من الأرمن أو من النصارى المحليين ومعهن اثنتان من أسرة الوتوات الدرزية.

وفي سنة ١٨٦٢ عُقد في أميركا مؤتمر ضم المهتمين بشؤون التعليم التبشيري برعاية «المجمع الأميركي للإرساليات الأجنبية» واتخذ المجتمعون قراراً بالموافقة على إنشاء كلية تبشيرية ببيروت. وفي ١٤ أيار ١٨٦٤ وافقت الحكومة الأميركية على هذا القرار وتشكل مجلس أمناء للكلية من البريطانيين والأميركان المقيمين في سورية ومصر، ومن بينهم قنصل بريطاني وآخر أميركي في بيروت . وكان دانيال بلسّ الموكل بجمـع الأموال لتنفيذ المشروع، وعندما عاد إلى بيروت في آذار سنة ١٨٦٦ كان مزوداً ببضعة الآف جنيه إسترليني، جمعها من الولايات المتحدة الأميركية ومن البلاد الإنكليزية. وفور وصوله إلى هذه المدينة استحصل من السلطات العثمانية المحلية على رخصة بتأسيس مدرسة أميركية فيها.

ولقد وقع في حينها الاختيار على دانيال بْلِسّ نفسه ليكون أول رئيس لما سُمي يومئذ «الكلية السورية الإنجيلية» واستمر في هذا المنصب من سنة ١٨٦٦ إلى سنة ١٩٠٢.

ودانيال بلسّ هو الذي تولّى شراء الأراضي التي أُقيمت عليها منشآت الكلية وبناياتها المختلفة. ولم تكن أثمان هذه لأراضي مرتفعة، وذلك بسبب بُعدها عن مركز المدينة وخلُوّها من السكان، حتى إن البيروتيين استغربوا كيف أن الأميركان اختاروا لبناء مدرستهم الأراضي البعيدة عن العمران والتي لا يسكنها إنس ولا جان، وإنما هي مأوى للثعالب.

ولكي يتصور أبناء زماننا كيف كانت الحالة حول الجامعة الأميركية عندما بنيت في السبعينات من القرن الماضي ننقل إليهم ما قاله الاستاذ جبرائيل جبور أحد أساتذة الجامعة الأميركية: دعيت مرة سنة (١٩٢٣) إلى العشاء في بيت الأستاذ سيلي الأميركي، ولما عدت في المساء لم أصادف أحداً في الطريق، ولم يكن هناك أي نور نستنير بضوئه، ولم يكن في أبنية الجامعة كهرباء في أوائل العشرينات، فكنا نستضيء في غرف النوم بقناديل الكاز، وكان على المرء إذا أراد قطع شارع عمر بن عبد العزيز إلى شارع جاندارك أن يعبر زقاقا ضيقاً لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار، كله منعطفات، وعلى جانبيه، شجر الصبير والتين، وفي وسطه مجرى لمياه الأمطار ولسيـر الدواب، وكان

أحدنا يضطر إلى القفز من جانب إلى جانب تجنباً للأوحال.

نقول: لو أن سكان رأس بيروت الذين استغربوا اختيار المرسلين الأميركان لمنطقتهم (ارض الواوية)التي نسيها العمران وزهد فيها السكان، لو أن أولئك الراحلين خرجوا من أجداثهم عائدين إلى الحياة من جديد في تلك المنطقة لوجدوها تضيق بما فيها من مؤسسات علمية ومكاتب تجارية ومنشآت عامرة برجال الأعمال من كل جنس ومن كل دين.. وقالوا: سبحان الذي يغيّر ولا يتغيّر، إنه مقدّر الأرزاق ومحدّد الأعمار!..

نقل السيد كمال جرجي ربيز مختار محلة رأس بيروت في كتابه اللطيف «رزق الله عهيديك الأيام يا راس بيروت» الصادر في بيروت سنة ١٩٨٦م، عن لسان الأستاذ جبرائيل جبور، أن دانيال بلسّ تحدث في مذكراته فقال: «مررنا بأراضٍ كثيرة في أنحاء مختلفة من بيروت حتى وصلنا إلى حيث الكلية الإنجيلية اليوم، وقد أحببنا تلك البقعة من الأرض منذ وقعت عليها أنظارنا، وقررنا لتوّنا أننا اهتدينا إلى أجمل بقعة في لبنان.. في شرائنا للأرض تعاملنا مع عدد من أهالي المحلة كوسطاء بيننا وبين الملاّكين، كان أحدهم السيد غرزوزي، وقد نصحني أن أترك الأمر له ولا أظهر رغبتي في الشراء، فهنا يجب أن تترك صاحب الأرض يعرضها عليك بنفسه وإلاّ وجدت صعوبة في الاتفاق معه على سعر مناسب. وقد غاب الغرزوزي فترة من الزمن قبل أن يأتي طالباً مني أن أفسح المجال لصاحب الأرض كي يلتقي بي بشكل طبيعي، وهكذا حصل. لأشهر عديدة بقيت أمر أمام دكانه أو أصادفه في الشارع من غير أن ألتفت إليه. وفي ذات يوم التقينا في الشارع المزدحم، ولم أمشِ خطوات قليلة حتى ناداني قائلاً: أخبرني السيد غرزوزي أنكم ترغبون في شراء أرض تبنون عليها مدرستكم، فأجبته: السيد غرزوزي وسيط في بيع الأراضي يفتّش عن عمولة، أُسعِدت صباحاً يا سيدي، وتابعت مسيري، ثم أسرعت لأخبر الغرزوزي بالأمر ففرح. وما كانت إلا أسابيع قليلة حتى تمت الصفقة، ونحن لم نقصد أن نستغلّ الرجل، وإنما أن نحول دون استغلاله لنا. وقد دفعنا ثمناً عادلاً ثمن الأرض كما أننا أتبعنا في كل معاملاتنا المثل القائل: كونوا حكماء كالأفعى وبعيدين عن الأذى كالحمام».

في بداية الأمر، قبل إنجاز منشآت الكلية، باشر المرسلون الأميركان تدريس طلابهم في بناية استأجروها في محلة زقاق البلاط من الحاج محيي الدين حمادة وفي هذه البناية نفسها أسست كلية الطب سنة ١٨٦٧ بسعي من الدكتور القس كرنيليوس فاندايْك الأميركاني والدكتور القس ورتبات الأرمني. وبهذه المناسبة نروي هنا حكاية طريفة وصلتنا عن لسان الحاج عبد الرزاق حمادة أحد وجهاء رأس بيروت والحكاية تدور حول مباسطة كلامية دارت بين والده الحاج محيـي الدين وبين بلسّ.

قال الحاج عبد الرزاق حمادة: «كنت في ميعة الشباب، في أواخر القرن الماضي (التاسع عشر للميلاد) لما رافقت المرحوم والدي إلى الكلية في المنارة (محلة رأس بيروت) لتهنئة رئيسها بعيدي الميلاد ورأس السنة. فاستقبَلَنا الدكتور دانيال بلسّ استقبالاً حاراً وضم والدي إلى صدره معانقاً، ثم جلسنا وراحا يتذكران السنين الماضية وكيف بدأت المدرسة في بيتنا في زقاق البلاط (محلة في بيروت) وكيف.. وكيف.. فسأله والدي: هل تذكر يادكتور لما نقدْتني إيجار البيت وكتبت لك الوصل؟ أجاب الدكتور دانيال بلسّ: أوف.. مالوم (معلوم) كيف لَكان..! قلتلك (قلت لك) لا تكتب اسمي بالألف حتى لا أصير إبليس» وكان الحاج محيي الدين يصر على ذلك، وحجته أنه ليس في العربية كلمة تبدأ بالساكن إلا التي أولها همزة وصل!..

وأول بناية في الكلية هي بناية الساعة، وعندما وضع دانيال بلسّ حجر الأساس لهذه البناية في سنة ١٨٧١ ألقى خطبة جاء فيها قوله: «إن هذه الكلية تفتح أبوابها لجميع التلاميذ على اختلاف ظروفهم وطبقاتهم دون أي اعتبار للون أو التابعية أو العِرق أو الدين، ويستطيع كل إنسان سواء أكان أبيض أم أسود أم أصفر، وسواء أكان نصرانيًّا أم يهوديًّا أم مسلماً أم وثنياً، أن يدخل هذه الكلية ويفيد من كل ما تقدمه له هذه المؤسسة من خدمات مدّة ثلاث أو أربع أو ثماني سنوات ويخرج منها وهو يؤمن بإله واحد أو بآلهة عديدين أو ملحداً لا يؤمن بإله. ولكن يستحيل على أي إنسان أن يقيم بين ظهرانينا على أرض هذه المدرسة مدة من الزمن دون أن يعرف الحقيقة التي نؤمن بها ودون أن يعرف الأسس والأسباب التي تدعونا إلى هذا الإيمان بالحقيقة..»

وعندما افتتحت الكلية السورية الإنجيلية أبوابها للدراسة يوم ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٦ كانت عبارة عن بناء مؤلف من أربع غرف فقط، وعدد تلامذتها من السكان المحليين ١٦ شخصاً معظمهم من جبل لبنان، ثم أخذ المنتسبون إليها يتضاعفون مع تعاقب السنين ففي السنة التالية لافتتاحها دخلها ٤١ شخصاً، منهم ٤ تلاميذ للعلوم الطبية، وفي سنة ١٨٧٣ أُنشيء فيها دائرتان: الدائرة العلمية والدائرة الطبية. ولما كانت هذه الكلية مسجلة لدى الحكومة الأميركية فإنها أُعطيت الحق بإعطاء المنتهين من الدراسة فيها رتبة بكالوريوس وشهادة الدكتوراه، وكانت يومئذ تشتمل على ثلاثة أقسام: القسم الاستعدادي، والقسم العلمي، والقسم الطبي وهذا القسم

الأخير كان من ضمنه فرع للصيدلة. وأول دفعة تخرجت من القسم العلمي في هذه الكلية كانت تلاميذ الصف المنتهي سنة ١٨٧٠ اشتهر منهم الدكتور يعقوب بن نقولا صرّوف المولود في قرية الحدث بلبنان الذي أنشأ مع زميله الدكتور فارس نمر مجلة المقتطف العلمية وجريدة المقطم، ثم استقل الاول بالمجلة والثاني بالجريدة. أما الدائرة العلمية في الكلية المذكورة فإنه قام على إنشائها أول الأمر القس كرنيليوس فانديك الأميركاني والقس يوحنا ورتبات الأرمني ثم انضم إليهما القسس الأمريكانيين جورج پوست، وآدون لويس، وريتشارد بركستك ووليم فانديك. وأول دفعة تخرجت منها في سنة ١٨٧١ ومن تلاميذها الدكتور شبلي شميّل المولود في بلدة كفرشيما بلبنان صاحب مجلة الشفاء التي أصدرها بالقاهرة.

وما كاد القرن التاسع عشر للميلاد يطوي في سجل الزمن آخر سنيه والقرن العشرون يستهل سنواته الأولى حتى نشطت الكلية السورية الإنجيلية من عقال الضيق في البناء والبرامج، وارتفع عدد طلابها الوطنيين فيها إلى ٨٧٦ شخصاً منهم ٢٠١ للعلوم و١١٧ للطب و٤٥٥ للقسم الاستعدادي (أي الثانوي) و٣٧ للصيدلة و٥٢ للتجارة و١٤ في قسم التمريض.

وفي سنة ١٩٢١ أجازت نظارة المعارف الأميركية للمرسلين الإنجيليين تحويل: «الكلية السورية الإنجيلية».. إلى جامعة، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه المؤسسة تحمل اسم «جامعة بيروت الأميركية» وفي سنة ١٩٦٦، احتفلت بيوبيلها الماسي أي بمرور ١٠٠ سنة على تأسيسها وأصدرت بهذه المناسبة كتاباً عنوانه «كتاب العيد» تضمن الجهود التي قامت بها في حقول المعرفة والفكر والاجتماع.

وإن هذه الجامعة تطورت بسرعة خلال سنوات قليلة، وأصبحت تشتمل على عدة كليات لتدريس العلوم العصرية على اختلاف فنونها النظرية والتطبيقية كالعلوم الطبيعية والطب والصيدلة والهندسة والزراعة. وفيها قسم للدراسات العربية والتاريخ. وهي اليوم، تقف على قدم المساواة مع أرقى المؤسسات التعليمية في العالم وينتظم في صفوفها آلاف من أبناء البلاد الوطنيين وأشقائهم العرب وعدد غير قليل من أبناء البلاد الأجنبية كذلك. وإن الأساتذة الذين ابتدأت بهم الدراسة في الكلية السورية الإنجيلية كانوا جميعاً من القساوسة البروتستانت الأميركان وهم يعتبرون بحق الرواد المؤسسين للتعليم العصري في بيروت، نذكر منهم المرسلين الأولين الذين أسسوها وتداولوا العناية بها وأشرفوا على تشييد مبانيها حيث هي اليوم، مثل:

كرنيليوس فانديك (Carnelius Van Dyk) المتوفى سنة ١٨٩٥ كان طبيباً يمتهن الطبابة ويدرسها. وكان متضلعاً باللغة العربية ويحرص على جعلها لغة العلوم التي تدرس في الكلية السورية الإنجيلية. له عدة كتب باللسان العربي، منها كتاب «النقش في الحجر» وكتاب «طب العين» وكتاب «أصول الكيمياء». وله معرفة واسعة بأسماء الكتب العربية ومؤلفيها. ومن كتبه في هذا الموضوع كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع». وتقديراً لخدماته احتفلت الطائفة الأرثوذكسية بنصب تمثاله في مستشفى الروم (الأرثوذكسي) في بيروت. وهي المرة الأولى التي ينصب فيها تمثال في هذه البلاد وكان ذلك سنة ١٨٩٩ وقد كان هذا التمثال هدية على نفقة الوجيه الأرثوذكسي آنذاك ميشال بسترس القبرصي الأصل، وعائلته معروفة عندنا وهي من أعيان المجتمع البيروتي.

جورج بوست (George Post) المتوفى سنة ١٩٠٩. كان أستاذاً في الكلية السورية الإنجيلية يُدرّس علم النباتات والطب الجراحي. والصيدلة، بالإضافة إلى اعتنائه بالآثار. وفي أيامه أُنشىء في الكلية المتحف الذي ما يزال في داخل الجامعة حتى اليوم. والذي بنى هذا المتحف هو المعماري نقولا طنوس ربيز. وللدكتور بوست عدة كتب باللسان العربي الذي كان يحسنه تكلماً وكتابة. ومن هذه الكتب، كتاب موضوعه «نباتات سورية ولبنان وفلسطين ومصر وبواديها» الذي أعاد طبعه بعد تنقيحه والإضافة إليه وتذييله بجدول يضم ١٥٠٠ اسم عربي بين فصيح وعامي لأعيان النبات. ولپوست أيضاً مجلة الطبيب باللسان العربي.

ويقول نجيب مصطفى الغرّ، من دروز بيروت الذين باعوا قسماً من أراضيهم التي أُقيمت عليها بنايات الكلية السورية قديماً «الدكتور پوست كان حكيم الدولة (أي طبيب شرعي بلغة زماننا) وقيل عنه يوم مات: «لا تقولوا پوست مات.. پوست راح يحكّم الأموات».

وسبب ذلك أن شاباً مات فدفنه أهله، وبعد مرور أربعين يوماً على وفاته استدعى الدكتور بوست أهل الميت إلى منزله، وإذا بالخادم الذي يقدم القهوة ولدهم الذي دفنوه بنفسه، الشاب الذي كان مصاباً بداء يلفّ حول معدته، وعندما علم الدكتور بوست بأمره أرسل من يعيد الجثمان من القبر وأجرى عملية مستعجلة للمريض فشُفي؟!

الدكتور غراهام (Graham)، ولقد أدركنا ترام بيروت الذي كان يتوقف لخدمة الركاب عند بعض المحطات وكانت إحداها تحمل اسم «محطة غراهام» وهي عند أول سور الجامعة من جهة الشرق. ويقول المعمرون البيروتيون إن أول سيارة أتت إلى

لبنان كانت سيارة الدكتور غراهام. لكنه لم يركب فيها وهو حي، وإنما حملت عليها جنازته وهو ميت.

استبدال الإنكليزية بالعربية للتعليم في الجامعة

لقد بدأت الكلية السورية الإنجيلية تدريس علومها باللغة العربية، فنشط أساتذتها إلى ترجمة الكتب إلى لغة أهل البلاد، وكان لكرنيليوس فانديك اليد الطولى في هذا المضمار وكانت هذه الكتب المترجمة إلى العربية تطبع بالمطبعة الأميركانية التي كانت خارج بوابة يعقوب عند أول شارع الكنيسة الإنجيلية اليوم. إلا أن المشرفين على هذه الكلية عدلوا بعد حين عن إعطاء الدروس باللغة العربية، وأحلوا اللغة الإنكليزية محلها بحجة أن العربية لا تستجيب لسرعة تطور الاصطلاحات العلمية الحديثة مما يعيق الطلبة عن استيعاب هذا التطور بمفرداته العلمية المستجدة. ولعلنا لسنا بحاجة إلى تفنيد هذا الادعاء الذي يستر وراءه رغبة الأجانب في وصم لغتنا القومية بأنها قاصرة عن التعبير، وهي وصمة تخالف الواقع إذ أن اللغة العربية التي كانت الجسر الذي عبرت عليه الفلسفة الهيلينية والعلوم القديمة في الماضي. لا يعقل أن لا تقوم اليوم بمثل ما قامت به بالأمس.. ولكن الغرض مرض.

المراحل في حياة الجامعة التأسيسية والتعليمية

- دانيال بلسّ هو مؤسس الجامعة الأميركية في بيروت وبقي رئيساً لها ٣٦ سنة.
- تعمل الجامعة قانونياً بالارتباط مع مجلس أمناء جامعة ولاية نيويورك بالولايات المتحدة الأميركية.
- عام ١٨٦٣ (٢٤ نيسان) رخص قرار صادر عن ولاية نيويورك بإنشاء الكلية الجامعة فيما بعد.
- عام ١٨٦٦ (٣ كانون الأول) تأسست كليتا الآداب والعلوم في منزل استؤجر لهذه الغاية في قلب مدينة بيروت. وكانت تضم في حينها ١٦ طالباً.
- عام ١٨٦٧ تأسست كلية العلوم الطبية مع مستشفى من ٤ أسرّة.
- عام ١٨٧٠ اشترى دانيال بلسّ الأرض التي تقوم عليها الجامعة حالياً.
- عام ١٨٧٠ تخرج أول صفّ وكان يضم خمسة رجال.
- عام ١٨٧٠ تأسست كلية الصيدلة.
- عام ١٩٠٠ تأسست كلية التجارة.
- عام ١٩٠٥ تأسس مستشفى الجامعة.
- عام ١٩٠٥ تأسست كلية التمريض.
- عام ١٩١٠ تأسست كلية طب الأسنان.
- عام ١٩٢١ وافق مجلس أمناء الجامعة في ولاية نيويورك على تغيير اسم الجامعة من الكلية السورية الإنجيلية إلى الجامعة الأميركية في بيروت، كما وافق على تغييرات في ميثاق الجامعة تسمح لها بالتطور مع التطورات السريعة في منطقة الشرق الأوسط:
- عام ١٩٢٤ سمح لأول مرة بقبول الفتيات في كلية الآداب والعلوم.
- عام ١٩٥١ تأسست كلية الهندسة والعمارة.
- عام ١٩٥٢ تأسست كلية العلوم الزراعية.
- عام ١٩٥٤ تم شراء مزرعة التجارب الزراعية.
- عام ١٩٥٤ أُنشئت كلية الصحة العامة.
- عام ١٩٧٠ افتتح المركز الطبي رسمياً.

الفرنسيون ومرسلوهم في بلادنا

إن الفرنسيين كانت عيونهم شاخصة إلى بلادنا منذ القرون الوسطى، ولطالما تحدث، زعماؤهم المعاصرون بروح الاعتزاز والفخر بأن غالبية الجيوش الصليبية التي وثبت على الشرق العربي في القرون الوسطى كانت من عساكرهم، وهذا صحيح إذ أن المؤرخين المسلمين وكذلك الرأي العام الإسلامي في ذلك الحين كانوا يطلقون على تلك الجيوش اسم «الفرنجة» الذي هو بمعنى «الفرانك» أي الفرنسيين دون الإشارة إلى الجنسيات الأخرى التي كانت من الإنكليز والألمان والنورمان (أبناء شمال أوروبة من الدانمارك والسويد والنرويج).

ومن خلال هذه الملفات التاريخية تعامل الفرنسيون مع طموحاتهم الاستعمارية الحديثة في بلادنا. وكان هذا الشعور يعتبر في فرنسة بمثابة مدخل لاهتمامها الحادّ والتقليدي وادعائها بأنها حامية الكثلكة في الشرق العربي. وإن فرنسة توسلت من أجل تحقيق آمالها وتنفيذ مطامعها بالموقع البارز الذي أحاطت نفسها به بوصفها الممثل الأول للغرب وللنصرانية في مواجهة الإسلام. وما كاد القرن السابع عشر للميلاد يطل بسنواته المائة على الشرق العربي حتى أحرزت هذه الدولة تمتعها باللقب الفخري الذي حلمت به وسعت إليه المتمثل بكونها «حامية الكاثوليكية اللاتينية» في الشرق العربي فضلاً عن أوروبة نفسها.

رسالة لويس الرابع عشر إلى البطريرك الماروني

ومن الوثائق التي لا تزال محفوظة بأصلها في خزانة وزارة

الخارجية الفرنسية بباريس تحت رقم ٣٩٢، رسالة بعث بها لويس الرابع عشر الملقب بـ «الملك الشمس» في السنة السادسة من تبوئه عرش فرنسة إلى بطريرك الموارنة في لبنان يوحنا الصفراوي بواسطة المطران إسحاق الشدراوي الذي قصد فرنسة من قبل البطريرك المذكور متوسطاً لتعيين الشيخ أبي نوفل الخازن قنصلاً لهذه الدولة في بيروت.

وفيما يلي النص:

«لويس بنعمة الله ملك فرنسة وناڤار لكل من يقف على كتابنا هذا سلام. نُعلم كل واقف على كتابنا هذا أننا لما كنا بعد استشارة الملكة سيدتنا الوالدة المحترمة قد أخذنا ووضعنا كما نأخذ ونضع بواسطة خطنا هذا الذي أمضيناه بيدنا تحت كنف حمايتنا الخصوصية السيد البطريرك السامي الاحترام وجميع الأساقفة والأكليروس والعوام من النصارى الموارنة الذين يسكنون خاصة في جبل لبنان فنحن نريد أن يستشعروا بمفعول ذلك في كل مناسبة تطرأ، ومن ثَمّ ننهي إلى عزيزنا الأمين السيد دي لاهاي فنتلي المستشار في مجلسنا وسفيرنا في الشرق، وإلى كل من يخلفه في مقامه، أن يسعفوهم عموماً وأفراداً ويشملوهم بعنايتهم وحمايتهم سواء كان ذلك لدى باب حبيبنا وصديقنا الأكمل السلطان الأعظم، أو في كل محل آخر حيث تقضي الضرورة بحيث لا تجري عليهم أقل معاملة سيئة. بل ينبغي أن يكونوا بعكس ذلك، قادرين أن ينجزوا أعمالهم ويتصرفوا بمقتضيات مراتبهم الروحية بكمال الحرية والاختيار. ونأمر قناصل ونواب قناصل الدولة الفرنساوية المقامين في الموانىء والأساكل في الشرق وغيرهم ممن يرفعون الراية الفرنساوية في الوقت الحاضر، وفي ما يأتي من الزمن، أن يساعدوا بكل مقدرتهم السيد البطريك المشار إليه وجميع الموارنة المذكورين سكان جبل لبنان، وأن يركبوا في المراكب الفرنسية أو غيرها الشبان وكل ماروني غيرهم يريد أن يأتي إلى بلاد النصارى إمّا لدرس العلوم أو لغاية أخرى، من غير أن يطلبوا منهم إلا النوْل الذي في وسعهم أن يدفعوه معاملين إياهم بما أمكن من الحلم والمحبة. ونلتمس من السادة العظام الفخام الباشوات، ومستخدمي الحضرة العالية السلطانية أن يسعفوا ويساعدوا حضرة رئيس أساقفة طرابلس وجميع الأكليروس والشعب الماروني ونعدهم من قِبَلنا أننا نسلك هذا المسلك مع كل رجل من أمتهم يصل إلينا في حقه كتاب وصاية منهم.

وصدر في سان جرمان في مدينة لاي في ٢٨ نيسان ١٦٤٩ وهي السادسة لملْكنا».

وهذه العاطفة الفرنسية الملكية كانت توازيها عاطفة الشعب الفرنسي نفسه. فلقد كان عامة الفرنسيين يعتقدون آنذاك، أن الموارنة في لبنان هم في الواقع فرنسيو الشرق، وجدير بالذكر أن مثل هذا الاعتقاد كان يساور الموارنة أنفسهم أيضاً. يقول ستيفن هامسلي لونغريغ في كتابه «تاريخ سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي (الترجمة العربية): «بالنسبة للموارنة والروم الكاثوليك فإن فرنسة كانت، دون سواها، الصديق والممدّن والحامي، وكان الحصول على الجنسية الفرنسية حُلُماً مفضّلاً..» وهناك من ينقل أن لويس التاسع المشهور باسم القديس لويس عندما وصل إلى عكة بعد الإفراج عنه حيث كان معتقلاً في بيت الطواشي صبيح بالمنصورة أرسل إلى أمير الموارنة بجبل لبنان رسالة بتاريخ ٢١ أيار ١٢٥٠ يقول له فيها: «.. أما نحن وأولئك الذين سيخلفوننا على عرش فرنسة، فإننا نجيز لأنفسنا أن نوفر لسموكم ولشعبكم الحماية ذاتها التي نوفرها للفرنسيين أنفسهم، كما أننا سنعمل دوماً ما ينبغي لتوفير سعادتكم».

أوائل المرسلين الفرنسيين في لبنان

أول المرسلين الفرنسيين في لبنان كانوا جماعة الفرنسيسكان المنسوبين إلى فرنسيس الأسّيزي، الراهب الذي أسس الرهبانية الفرنسيسكانية والذي مات سنة ١٢٢٦. وكان مركز هؤلاء المرسلين المذكورين كنيسة المخلص التي هجروها بعد عودة المسلمين إلى بيروت، ثم باعوا حجارتها فيما بعد الى بني الحمرا الذين بنوا بهذه الحجارة الزاوية المعروفة باسمهم في رأس بيروت في (شارع الحمرا اليوم).

ثم إن الفرنسيين أقاموا في بلادنا اثنتي عشرة محطة للإرساليات التعليمية في سورية الشمالية والوسطى وكانوا في غالبهم من الجنسية الفرنسية.

ثم أعقبهم اليسوعيون سنة ١٥٧٨ والكبوشيون سنة ١٦٢٥ واللعازاريون سنة ١٧٨٣. وفي العصر الحديث، وعلى خطى القساوسة الإنجيليين الأميركان، سار الرهبان اليسوعيون الفرنسيون الذين كان التعليم من بين الوسائل التي استخدموها لنشر الكثلكة واللغة الفرنسية في هذه البلاد، بيد أن العلاقات بين هؤلاء وأولئك في ذلك الحين، كانت غالباً ما تتسم بالسلبية والجفاء، لا سيما من قبل اليسوعيين الذين لم يكونوا يتحرّجون من قذف الإنجيليين بتهم أيسرها الهرتقة الدينية والخروج على التعاليم النصرانية الحقيقية.

وعندما وصل بعض أعضاء المجمع الإنجيلي للإرساليات الأميركية البروتستانتية إلى بيروت سنة ١٨٢٦. علق على ذلك الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه «بيروت: تاريخها وآثارها» قائلاً: «.. وقدم إلى بيروت بعض أعضاء جمعية التوراة (البيبلشتيين) سنة ١٨٢٦ وغايتهم نشر تعاليمهم البروتستانتية،

فتصدى لهم السيد بطرس كرم وفنّد أضاليلهم».

وفي بعض الأحيان، كان التنافس بين الفريقين الإنجيلي واليسوعي، يتجاوز ما أُلف من رجال الدين وأهل العلم من التزام السكينة والوقار، وضبط النفس عن مزالق الانفعالات العصبية. فقد قص علينا الدكتور كارنيليوس فانديك في مذكراته التي نشرتها مجلة الهلال مترجمة إلى اللغة العربية، أن تلاميذ المرسلين الأميركان، كانوا يُضطرون لملازمة أساتذتهم آناء الليل وأطراف النهار خوفاً على أنفسهم من أن يخطفهم أو يقتلهم اليسوعيون وأنصارهم رجال الأكليروس الماروني.

ويقول فانديك بالحرف الواحد: «.. في شتاء سنة ١٨٤٠ - ١٨٤١ كانت المدرسة الأميركية الأولى لا تزال عاملة، فجاءها شابان مارونيان من تلاميذ البطريركية المارونية في عين ورقة يطلبان اعتناق المذهب الإنجيلي والاشتغال، وهماالشيخ يوسف ابن انطون الخازن من غسطة، وبطرس البستاني من الدبّية، وكان هذا الأخير تلميذاً في المدرسة المذكورة (أي المدرسة الأميركية) ثم أستاذاً فيها، يعرف العربية وعلومها، وله إلمام بالسريانية، وكان قد ترشح للكهنوت. فاستخدمه المرسلون معلماً في مدرستهم حالاً. وأما الشيخ يوسف الخازن، فدخل تلميذاً ومعلماً معاً.. أماالشيخ يوسف فانقطعت علاقته بالمرسلين بغتة رغم إرادته بالكيفية الآتية: كان الأكليروس الماروني في ذلك الوقت قوياً ومستبداً، فلما اعتنق هذان الشابّان المذهب الإنجيلي اضطرا أن يلازما المرسلين خوفاً من الخطف أو القتل، فاتفق أن الخواجا هبّرد والخواجا وليم طمسن (الأستاذين بالمدرسة) وهما يحبان الأبحاث الجيولوجية، قد سمعا عن أسماك محجّرة في مغارة جعيته بكسروان، فسألا الشيخ يوسف عنها، فعرض نفسه أن يكون دليلهما. فساروا، ولم يبلغوا المكان المقصود حتى اجتمع عليهم جماعة من الأكليروس الماروني، وأوسعوا السائحين ضرباً واختطفوا الشيخ يوسف منهما!..»

وفي المعنى نفسه، فإن الدكتور فيليب حتي قال في كتابه لبنان في التاريخ: .. «وأما مقاومة الأكليروس لأعمال التبشير البروتستانتي فقد كانت عنيفة، فإنه عندما أعلن المعلم أسعد الشدياق الذي علم بليني فسك، أول المبشرين الأميركان، اللغة العربية، بروتستانتيته استُدعي إلى قنوبين (التي كانت مقراً للبطاركة الموارنة) وعندما عجز البطريرك (وكان يومئذ يوسف حبيش) عن رده إلى مارونيته، أُلقي في غرفة من غرف الدير حيث مات سجيناً - حوالى سنة ١٨٣٠ - وفي الحال أعلن المرسلون أن أسعد الشدياق كان «أول شهيد». والجدير بالذكر أن هذه الحادثة حملت فارس الشدياق، شقيق أسعد المذكور، على الهرب من لبنان والإقامة في تونس حيث استعمله باي تونس في خدمته وما لبث فارس أن اعتنق الإسلام وأضاف إلى اسمه اسم أحمد وأصبح يعرف باسم «أحمد فارس الشدياق» وهو صاحب جريدة «الجوائب» وغيرها من المؤلفات الانتقادية.

على أن التنافس المرير بين الإنجيليين وبين اليسوعيين، بالرغم من أعراضه السلبية، فإنه مع ذلك، لم يخل في ذلك الحين من بعض النتائج الإيجابية البناءة التي أفادت منها البلاد إذ أن وجود الأجانب أثار في أوساط المواطنين فضول التطلع إلى إعادة النظر في واقعهم الفكري والاجتماعي وأدى احتكاكهم بالحضارة الغربية إلى زعزعة قناعتهم بجدوى التقاليد الماضية التي كانت تكبح طموحهم إلى التطور والتغيير والانطلاق إلى حياة أفضل.

ومن أبرز النتائج الإيجابية، على الصعيد المحلي، حماس المتنافسين، الإنجيليين واليسوعيين لفتح المدارس الخاصة بهم في مختلف أنحاء البلاد. ومن الحكايات الطريفة التي رويت عن لسان البيروتيين الذين كانوا على اتصال بالدكتور كارنيليوس فانديك أنه كلما عزم على تأسيس مدرسة أميركية في بعض الجهات، كان يقول لمن حوله «أنا ذاهب لأفتح مدرستين» وذلك إشارة إلى أن اليسوعيين سوف يبادرون إلى اللحاق به حيث يذهب ويحذون حذوه في افتتاح مدرسة أخرى تابعة لهم.

وهكذا، فإن بيروت شهدت خلال النصف الأول من القرن الماضي حواراً من الصراع الحادّ بين الأميركان الإنجيليين وبين الفرنسيين اليسوعيين. واتخذ هذا الحوار شكل الحرب الباردة بينهما. وكانت المؤسسات التعليمية لكل من هؤلاء وأولئك ميداناً لتلك الحرب التي استهدفت، أولاً وآخراً، نشر ثقافتهم وإشاعة معتقداتهم المذهبية وساعدت على تدجين أهل البلاد على موالاة وخدمة السياسات الأوروبية والأميركية والتجاوب مع مخططاتها وأغراضها المبيتة في الوقت المناسب.

والتواجد التعليمي اليسوعي في بيروت ابتدأ في زمن لاحق للتواجد التعليمي الإنجيلي بحوالى عشر سنين تقريباً، وذلك عندما كانت هذه المدينة ما تزال في أيدي المصريين الذين تميزت سياستهم بالتسامح حيال الأجانب، لا سيما الفرنسيين، وكذلك مع النصارى من أهل هذه البلاد، مما أدى إلى إتاحة الفرصة لهؤلاء وأولئك أن ينشئوا فيما بينهم علاقات حميمة متبادلة على مختلف المستويات، وبصورة خاصة في المجالات الدينية والثقافية.

فبالنسبة إلى النصارى المحليين، لقد سمح إبراهيم باشا لهؤلاء أن يتحرروا من بعض القيود الاجتماعية التي كانت مفروضة عليهم للتمييز بينهم وبين مواطنيهم المسلمين. وسمح لهم أن يتبوّأوا مراكز حكومية عالية. ومن الأمثلة على ذلك أن

إبراهيم باشا عيَّن تابعه حنا البحري مديراً للخزينة المالية في سورية ومنحه لقب «بيك» وهو أول نصراني منح هذا اللقب التشريفي في السلطنة العثمانية.

وأما بالنسبة إلى النصارى الأجانب فقد سُمح لقناصل الدول الأورروبية في دمشق وبيروت أن يتخذوا المواكب الرسمية، وإن اهل دمشق رأوا قنصل إنكلترة يتنقل في شوارع مدينتهم وهو على صهوة الحصان، ولم يكن ذلك مألوفاً ولا مباحاً في السلطنة العثمانية قبل الحركة الانفصالية المصرية.

كلية القديس يوسف اليسوعية

وفي سنة ١٨٣٤ خلال الحكم المصري ، وصل إلى بيروت أول راهب يسوعي ، وكان صاحب النصارى في الكرسي البابوي بالڤاتيكان قد رفع الحظر عن اليسوعيين الذي فرض عليهم سنة ١٧٣٣ وسمح لهم بإعادة تنظيماتهم واستئناف نشاطهم. واسم هذا الراهب، ريمون أستاف الذي اشتهر بين اللبنانيين باسم «بونا سليمان». وفي سنة ١٨٣٩ لحق به زميل له من أصل بولوني اسمه مكسيميليان ريلو الذي اشتهر هو الآخر باسم «الأب منصور».

ولقد استغل ريلو تسامح المصريين مع النصارى واشترى أرضاً في ظاهر مدينة بيروت كانت مزروعة بشجر التوت (أصبحت هذه الأرض اليوم في قلب المدينة) وشرع ببناء دير في الجهة الشرقية من «باب السراي» أحد ابواب بيروت القديمة الذي كان يقع في اول شارع فوش الحالي (أزيل حوالى سنة ١٩٢٧) وفي رسالة بعث بها ريلو المذكور إلى رؤسائه في فرنسة وصف هذا الدير بأنه «كائن خارج باب المدينة الأكبر وقريب من قصر الحاكم» وهو القصر الذي بناه الأمير منصور عساف التركماني قرب الجامع المعروف باسمه سنة ١٥٧٢ وكان موقع هذا الدير في الحي الذي يعرف في أيامنا باسم «محلة الجمَّيزة» الكائنة في الجهة الجنوبية الشرقية من بيروت القديمة.

وكان الراهب ريلو يريد أن يفتح في الدير المذكور مدرسة مهنية يتعلم فيها أولاد النصارى المحليين الحِرف اليدوية المختلفة إلا أن استدعاءه إلى رومية من قِبَل الڤاتيكان حال يومئذ بينه وبين إتمام الدير. وفي سنة ١٨٤١ حَلّ مكان الأب ريلو زميله الأب بلانشيه مبارك، فقام هذا الأخير بإنجاز ما بدأ به سلفه وجعل فيه مدرسة خارجية لتعليم الأولاد النصارى أصول ديانتهم وإعداد الكهنة الذين يكلفون بالخدمة الروحية في الكنائس الكاثوليكية بلبنان. وفي سنة ١٨٤٣ جرى إلحاق الدير والمدرسة التي فيه بالمركز الرئيسي للرهبنة اليسوعية الذي كان مقره في إقليم ليون بفرنسا.

وفي سنة ١٨٧٤ قام الرهبان اليسوعيون بجولة في الأقطار الأوروبية جمعوا خلالها بعض الصدقات النقدية وأنفقوها على بناء دير جديد في بيروت نقلوا إليه معهدهم الذي انشأوه في قرية غزير بكسروان سنة ١٨٤٥. وهو المعهد الذي كتب فيه رينان الفيلسوف الفرنسي المعروف كتابه «حياة المسيح» سنة ١٨٦٠. وقد نقل اليسوعيون ذلك المعهد إلى بيروت لأن هذه المدينية على حد قولهم. «كبرت وأصبحت إسكلة (ميناء) لبنان وسورية ومركزاً تجاريًّا وأدبيًّا وسياسيًّا لهذه البلاد» وكذلك حذراً من ان تتسرب العقائد البروتستانتية إلى بقية النصارى، وكيما تصونهم من أضاليلها، على حد قول الأب لويس شيخو اليسوعي . أما معهد غزير فقد حولوه إلى مركز للآباء اليسوعيين ومصيفاً لرهبان بيروت وللتلاميذ الغرباء الذين كانوا فيه. ثم إن اليسوعيين اجتهدوا في الاعتناء بمدرستهم لمواجهة نشاط الإنجيليين الذين سبقوهم في إنشاء «الكلية الإنجيلية» ببيروت قبل عشر سنوات. ولما كان صاحب النصارى البابا پيوس التاسع في سدة الڤاتيكان أصدر في سنة ١٨٧٤ رقيماً بابوياً منح فيها المدرسة اليسوعية لقب «الكلية» ولما خلفه البابا لاوون الثالث عشر منحها امتيازات أخرى سنة ١٨٨١. ومن هذه الامتيازات اعتراف الڤاتيكان لها بشهادة خريجيها باللاهوت والحق القانوني والفلسفة.

وفي سنة ١٨٨٣ أصدر البابا رقيماً بتثبيت المدرسة اليسوعية كجامعة لتضاهي بمستواها العلمي ومناهجها التربوية المؤسسة الأميركية. وما لبثت الحكومة الفرنسية أن سوّت بين المتخرجين من المعهد اليسوعي في بيروت وبين المتخرجين من المعاهد الرسمية في فرنسا نفسها وجعلت الشهادة اليسوعية موازية للشهادة الرسمية الفرنسية.

وكانت العربية لغة التدريس بالجامعة اليسوعية في أول الأمر، إلا أن هذه اللغة عدل عنها فيما بعد إلى اللغة الفرنسية، كما حصل بالكلية السورية الإنجيلية عندما اعتمدت الإنكليزية واستغنت عن العربية في تدريس موادها العلمية.

ومن الغريب انه بالرغم من ان الثورة الفرنسية التي أطاحت بالملكية في فرنسا تنكرت للنصرانية وألغت جميع التنظيمات الدينية في داخل فرنسا وطاردت أعضاء هذه المنظمات، إلا ان زعماء هذه الثورة طلبوا من الحكومة العثمانية الاستمرار في تطبيق المراسيم والامتيازات التي كان يتمتع بها اليسوعيون في جميع أراضي السلطنة عندما كانت فرنسا تحت النظام الملكي وأكثر من ذلك، فإن وزارة المعارف في حكومة الثورة وافقت على منحة لليسوعيين من أجل فتح كلية للطب في مدرستهم بيروت، وما لبثوا أن أتبعوها بكلية للصيدلة.

وإن غامبيتا(Leon Gambetta) السياسي الفرنسي المتوفى سنة

١٨٨٢ الذي أعلن الجمهورية الفرنسية سنة ١٨٧٠ نادى بفصل الدين عن الدولة إلا أن له عبارة شهيرة يقول فيها: «إن العداء للكهنوت ليس بضاعة للتصدير». ولقد أشار قنصل فرنسي في حينها، إلى أن ذهابه إلى القدّاس في بلاده يجرّ عليه عواقب وخيمة بينما تكمن العواقب الوخيمة في عدم ذهابه إلى القدّاس في لبنان!..

ومنذ ان تحولت المدرسة اليسوعية إلى جامعة في سنة ١٨٨٣ وأصبحت تحمل اسم «جامعة القديس يوسف اليسوعية» أُحدثت فيها كليات جديدة للفلسفة من ضمن كلية اللاهوت. وفي سنة ١٩١٣ أضيفت إليها كليات أخرى للهندسة والحقوق وقد وضعتا يومئذ تحت رعاية جامعة ليون بفرنسا. وفي نفس السنة أُنشئت كلية لطب الأسنان بالإضافة إلى ما كان في الجامعة المذكورة من الاقسام الثانوية والابتدائية عندما تأسست لاول مرة.

وفي بداية النصف الثاني من القرن الحالي وُزّعت منشآت الجامعة اليسوعية في عدة مناطق من بيروت وجبل لبنان. ففي سنة ١٩٥٢ نقل القسم الثانوي إلى بناية حديثة شيدت في بلدة الجمهور قبيل بلدة عاليه في الطريق الذاهبة من بيروت إلى دمشق ، وفي سنة ١٩٦٨ نقل القسم الابتدائي إلى الجمهور أيضاً. وفي سنة ١٩٧١ دشن اليسوعيون البناية الجديدة لكلية الهندسة في محلة الدكوانة إحدى ضواحي بيروت. أما كلية الحقوق فقد أُلحق بها قسم للعلوم الاقتصادية وهي ما تزال في مكانها القديم ببيروت، وفي المدة الأخيرة أُنشىء في هذه الجامعة معهد لإدارة الأعمال ومركز للدراسات المصرفية وآخر لدراسات العمل ومعهد للآداب الشرقية الذي هو بمثابة كلية للآداب العربية والبحوث الإسلامية. وفي هذا المعهد الأخير فرع خاص للآداب الأرمنية. وفي سنة ١٩٦٢ أُنشىء في الجامعة المذكورة «المعهد العالي للشؤون الدينية» وغايته الثقافة الدينية على مستوى جامعي.

على أن اليسوعيين أخذوا يدركون أن الزمن تجاوز طبيعة نظامهم التبشيري الأكليريكي وهم الآن بصدد التخفيف من نشاطاتهم التعليمية ذات الصبغة الكهنوتية وقد بدأوا فعلاً بالتنازل عن بعض الفروع التي يدرسونها، من ذلك أنهم في سنة ١٩٧٢ نقلوا ملكية كنيستهم التي بالجامعة اليسوعية إلى كنيسة مار مارون المجاورة.

المدراس الأجنبية الاخرى

ثم إنه بعد المرسلين الإنجيليين والرهبان اليسوعيين أخذت الجمعيات الأوروبية الدينية توالي إرسال بعثاتها إلى الشرق العربي، متخذة من بيروت قاعدة لمراكزها ومنطلقاً لنشاطها في البلدان العربية المجاورة . وفي سنوات النصف الأول من القرن الماضي شهدت هذه المدينة أرتالاً عديدة من أفراد هذه البعثات رجالاً ونساءً تتقاطر عليها من مختلف الأقطار والجنسيات الأجنبية ، كان أحمد باشا الجزار قد اضطرها لمغادرة البلاد إبّان حكمه ، من ذلك الآباء اليسوعيون والمرسلون الإنجيليون كما ذكرنا قبل حين. والآباء الكبوشيون، وغالب هؤلاء من الإيطاليين، الذين بنوا في عهد رئيسهم زكريا فانشيولي-Zacka) (ria Fanciulli الكاتدرائية التي ما تزال موجودة في محلة «باب إدريس» وهي تحمل اسم وشعار ملك فرنسا لويس التاسع الذي أسره المسلمون في مدينة المنصورة بمصر وسجنوه في دار لقمان بعد أن كبله الطواشي صبيح بالأصفاد الحديدية وهلك هذا الملك بمرض التيفوس بعد ذلك سنة ١٢٧٠ خلال الغارة الفاشلة التي قام بها على تونس.

وفي سنوات العقد الثالث من القرن التاسع عشر قدم إلى بيروت الآباء اللعازيون واشتركوا مع راهبات المحبة اللاتي كانت ترأسهن الأخت جيلار في تأسيس المدرسة التي ما تزال موجودة حتى اليوم بشارع غورو في محلة الجميزة إلى الجهة الشرقية من ساحة البرج الحالية. كما قدمت في ذلك الوقت جمعيات الراهبات التي نشطت في تأسيس مدارس للبنات في مختلف أحياء المدينة. ففي سنة ١٨٤٦ جاءت إلى بيروت راهبات القديس يوسف قادمات من مرسيليا وشرعن بإنشاء مدارس داخلية وخارجية ومياتم ومؤسسات خيرية في هذه المدينة وصيدا وصور وحمانا وفي غيرها من المناطق اللبنانية. وفي سنة ١٨٤٧ قدمت راهبات القديس منصور إلى بلادنا وأنشأن مدرسة لهن.

وبسبب الفتنة الطائفية التي افتعلها الأجانب بين الدروز وبين النصارى سنة ١٨٦٠ في جبل لبنان تقلص نشاط البعثات التعليمية الأجنبية في بيروت، ولكن هذه البعثات استأنفت نشاطها بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على الموقف وأعادت الهدوء إلى المناطق المضطربة. ولما لاحظ الأجانب أن علاقتهم بأبناء البلاد بدأت تتسم بظاهرة الشك وعدم الثقة أوعزوا الى نفر من الوطنيين الذين تخرجوا من الإرساليات الأجنبية بأن يفتحوا مدارس أهلية . وكان أولئك الأجانب يضعون مناهج هذه المدارس ويحددون الكتب التي يدرسها التلاميذ ويشتركون في اللجان المشرفة عليها إلى جانب الوطنيين ليضمنوا إبقاءها في إطار التعليم التبشيري الذي قدموا إلى هذه البلاد من أجله، وبعد حين يعمدون إلى وضع أيديهم على المدارس المذكورة ثم يلحقونها بمؤسساتهم بصورة مباشرة.

ففي سنة ١٨٥٥ تألفت في بيروت لجنة خاصة من قنصلي أميركا وإنكلترة ومرسل إنجيلي من اسكتلندة بإنكلترة اسمه جون لوثيان وممثل عن المرسلين الأميركان ومعهم اثنان من الوطنيين وهما المعلم بطرس البستاني من الدبّية، عمل أمين سر لهذه اللجنة، والياس الصليبي من سوق الغرب. والأول كان مارونياً واعتنق البروتستانتية في مدارس الأميركان ببيروت والثاني كان أرثوذكسياً واعتنق البروتستانتية في مدارس الإنجيليين بإنكلترا. وقامت هذه اللجنة بفتح ست مدارس ببيروت بإدارة إلياس الصليبي المذكور، وكان التعليم في هذه المدارس باللغة العربية، واشتملت مناهجها على القراءة والنحو والخط والجغرافيا والحساب، ومن الكتب التي كانت تعطى للتلاميذ «كتاب الموجز في التعليم المسيحي» وكتاب «رحلة المؤمن» للكاتب الإنكليزي بانيان بالإضافة إلى التوراة والإنجيل الكتابين المقدسين عند النصارى اللذين جعلا مادة رئيسية في مناهج الدراسة.

ويحدثنا الدكتور كمال الصليبي في كتابه «تاريخ لبنان الحديث» عن وضع هذه المدارس ومصيرها بقوله: «إن عدد المدارس اللبنانية» لم يزد في حين من الأحيان عن أربع وعشرين أو خمس وعشرين مدرسة. وعلى أثر مغادرة جون لوثيان لبنان في سنة ١٨٥٨ ووفاته في إنكلترة بعد ثلاث سنوات، أحاطت بهذه المدارس ظروف حرجة، سببها النزاع بين مؤسسيها اللبنانيين وبين المرسلين الأميركان. فقيما كان هؤلاء على وجه العموم يميلون إلى الشك بإخلاص الإنجيليين الوطنيين وأمانتهم في العمل، كان الآخرون بدورهم يمتعضون مما أبداه المرسلون الأميركيون من مظاهر الكبرياء فلا عجب لذلك أن توترت العلاقات بين الجانبين مما جعل التبشير الإنجيلي يسير ببطء، فكان أن أهملت هذه المدارس ثم استولى عليها وأنماها المرسلون الأميركيون أو سواهم من المرسلين الإنجيليين الأجانب».

وكانت «المدرسة الوطنية» التي أسسها المعلم بطرس البستاني من جملة المدارس اللبنانية المذكورة، وانتهت بعد سنوات قليلة من افتتاحها إلى مثل ما انتهت إليه هذه المدارس فقد ألحقها المرسلون الأميركان بـ «الكلية السورية الإنجيلية» التي أنشأوها سنة ١٨٦٦.

وفي سنة ١٨٦٠ قدمت من إنكلترة بعثة تبشيرية وأسست في بيروت مدرسة لتدريب المعلمات على التبشير بالإنجيل، وكان اسمها «الإرسالية الإنكليزية السورية».

وفي تلك الفترة، فإن الألمان شاءوا أن يدلوا بدلوهم في محاولة لتأكيد حضورهم التعليمي إلى جانب الإرساليات الأجنبية التي سبقتهم إلى الاستقرار في سورية. فلما كانت سنة ١٨٦٠ قدمت إلى هذه البلاد «جمعية الراهبات البروسيانيات» وأسسن مركزاً لهن في صيدا. ولما هدأت الفتنة الطائفية بين الدروز وبين النصارى في لبنان نقلن هذا المركز إلى بيروت.

وما يزال بقايا المعمَّرين من أهل بيروت يتذكرون مع كثير من الشوق واللذة، أن ولهلهم الثاني قيصر ألمانيا الذي اشتهر عندنا باسم «غليوم» زار هذه المدينة سنة ١٨٩٨ وهو في طريقه إلى دمشق تلبية للدعوة التي تلقاها يومئذ من السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله. وفي تلك المناسبة قام بتدشين «المدرسة البروسيانية» التي كانت تقع أولاً في المكان الذي تشغله السفارة الفرنسية الآن، ثم نقلت هذه المدرسة فيما بعد إلى المكان الذي شيدت فيه مؤخراً بناية ستاركو المركز التجاري المعروف بالقرب من محلة «باب ادريس».

ومن الطريف أن شبان بيروت الذين استقبلوا الضيف الألماني العظيم أُعجبوا بشاربيه المعقوفين إلى الأعلى، وصاروا يقلدونه، وقد بقي الطراز «الغليومي» للشوارب رمزاً للرجولة والفتوّة عند البيروتيين حتى عهد قريب. وكان أهل ذلك الزمان يقولون لصاحب الشاربين المعقوفين، على سبيل الافتخار والمباهاة «له شاربان مثل الإمبراطور غليوم يقف عليهما النسر!».

والجدير بالذكر، أن اهتمام الألمان بالشرق وشؤونه جاء متأخراً عن اهتمام غيرهم من الدول الأوروربية الأخرى، ذلك أن البرنس بسمارك، صاحب ألمانيا في ذلك الحين لم يكن متحمساً للتدخل في الصراع الأوروربي حول اقتسام تركة «الرجل المريض» كما كانت تلقب الإمبراطورية العثمانية وهو ما كان يسمى بـ «المسألة الشرقية» فلما تربع ولهلم الثاني (غليوم) على عرش ألمانية، خالف رأي بسمارك وعمل على توثيق علاقة بلاده بالدولة العثمانية، وكذلك علاقته شخصياً بصاحب اسطمبول السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله الذي كان لا يقل عن القيصر المذكور رغبة في مبادلته عاطفته بمثلها. وقد أكد عبد الحميد هذه الرغبة وعبّر عنه بالجملة التي تمَّ نقشها على نصب أُقيم في خرائب بعلبك، وهذا نصها: «من السلطان عبد الحميد الثاني إمبراطور العثمانيين إلى صديقه المعظم غليوم الثاني إمبراطور ألمانية وملك بروسية وإلى الأمبراطورة أوغسطا فيكتوريا ذكرى صداقة متبادلة لا يغيرها الدهر». وأما القيصر غليوم، فإنه اختار للتعبير عن صداقته للسلطان وعاطفته نحو المسلمين إكليلاً من الذهب الخالص، كتب عليه بخط عربي جميل الآية «إن الله يحب المحسنين» وتحتها الجملة

التالية «من ولهلم الثاني إلى البطل صلاح الدين الأيوبي»، وذلك وفاء لهذا البطل الذي عامل خصومه الصليبيين أسلاف ولهلم بروح الفروسية عندما كان يستطيع استئصال شأفتهم يوم قضى على جيوشهم في معركة حطين بفلسطين، ردّها الله للعروبة والإسلام.

ومن المؤسف أن هذا الإكليل الثمين، سرقه الكولونيل لورنس، الجاسوس الإنكليزي بإيعاز من حكومته عندما دخل إلى دمشق في اليوم الأول من تشرين الأول سنة ١٩١٨ مع الشريف فيصل بن الحسين ملك سورية ثم العراق فيما بعد.

هذا، وفي سنة ١٨٦٨ قدمت من ليون جمعية راهبات الناصرة اللاتي أسسن سنة ١٨٧١ مدرسة دير الناصرة بمحلة ضهور الأشرفية المطلة على بيروت من الجهة الشرقية. وفي تلك الفترة وبعدها بقليل، قدمت إلى بيروت راهبات القلب المقدس، وراهبات العائلة المقدسة وراهبات محبة بيزانسون وراهبات مريم كلية الطهارة وجمعية أخوة المدارس المسيحية (الفرير) وجمعية الروح القُدُس. وجميع هذه الإرساليات الأجنبية، رجالاً ونساءً، كانت في الغالب من الفرنسيين وغايتها التبشير بالديانة النصرانية متوسلة بالتعليم تارة وبالخدمات الطبية والاجتماعية تارة ثانية مع الاهتمام في نفس الوقت بالتصدي لنشاط الإرساليات الإنجيلية الأميركية والإنكليزية.

وفي سنة ١٩٠٢ اجتمعت في باريس مجموعة من المفكرين الفرنسيين المدنيين تلبية لدعوة بيار ديشان (Pierre des Champs) المدير العام للتعليم في جزيرة مدغسكر الذي كان يدعمه الجنرال غالياني (Galliani) حاكم الجزيرة المذكورة يومئذ، وأسس هؤلاء المفكرون جمعية لنشر الثقافة الفرنسية عن طريق التعليم العلماني متجنبين المسائل العقائدية التي كانت محل اهتمام الإرساليات الدينية التي كان رجالها يحتكرون التعليم الفرنسي خارج فرنسة وفي مستعمراتها.

وفي ٢١ آب ١٩٠٧ أصدر رئيس الجمهورية الفرنسية مرسوماً اعترف بهذه الجمعية التي حملت يومئذ اسم «البعثة العلمانية الفرنسية» وقد جاء في نص هذا المرسوم «إن البعثة العلمانية الفرنسية تسعى إلى نشر التعليم العلماني وبهذه الوسيلة يمكن بسط النفوذ الفرنسي في الخارج». وبطلب من وزارة الخارجية الفرنسية، وجهت البعثة المذكورة اهتمامها إلى الشرق الأدنى وافتتحت أول مدرسة لها في هذه المنطقة بمدينة سالونيك في اليونان التي كانت يومذاك من أملاك الدولة العثمانية.

وفي سنة ١٩٠٩ افتتحت مدرسة أخرى في بيروت، وكان في هذه المدرسة عدة أقسام ابتداءً من روضة الأحداث حتى الفلسفة والرياضيات، واشتمل منهاجها على تدريس اللغة الفرنسية مع العناية بالثقافة العربية لغة وتاريخاً وحضارة.

وكانت هذه المدرسة في بناية «التباريس» الواقعة في شرقي المدينة، وفي سنة ١٩٢٢ نقلت إلى طريق الشام بمحلة الناصرة. وفي سنة ١٩٦١ نقلت مرة أخرى إلى مكانها الحالي بالقرب من نهر بيروت وأصبح اسمها «المعهد الفرنسي - اللبناني التابع للبعثة العلمانية الفرنسية». وهي ما تزال تحتوي على الأقسام التي أُنشئت فيها منذ البداية ابتداءً من روضة الأطفال حتى نهاية الدراسة الثانوية بفروعها الرياضيات والأدب والفلسفة، والتعليم فيها مختلط للذكور والإناث.

وللبعثة العلمانية الفرنسية مدرستان آخريان، الأولى في زقاق البلاط أُسست سنة ١٩١٩ وهي خاصة بالإناث ويطلق عليها ليسيه عبد القادر لوقوعها في شارع الأمير عبد القادر الجزائري، وقد بيعت عام ١٩٩٠ الى مؤسسة الحريري. والثانية في شارع فردان أُسست سنة ١٩٥١. وقد بيعت أيضاً للمؤسسة المذكورة.

وقبل أن نختم هذا الفصل، فإننا نرى من المفيد تقديم بعض الإحصاءات عن عدد المدارس الأجنبية التي أنشأتها الإرساليات الدينية في ولاية بيروت أو في بيروت نفسها وذلك حتى الهزيع الأخير من القرن التاسع عشر مع بيان الجنسيات التي تنتمي إليها هذه المدارس. يقول هنري جسب (Henry Jessup) أحد أساتذة «المدرسة الكلية السورية الإنجيلية» في بيروت في كتابه «٥٣ سنة في سورية»: «إن مجموع المدارس التي فتحها الأميركان في سورية (ومنها لبنان) حتى سنة ١٩٠٩ كان كما يلي:

في ولاية بيروت ٥٩ مدرسة من سنة ١٨٤١ حتى سنة ١٩٠٩.

في ولاية سورية ٤٨ مدرسة من سنة ١٨٤٤ حتى سنة ١٩٠٩.

في متصرفية جبل لبنان ٦١ مدرسة من سنة ١٨٥٨ حتى سنة ١٩٠٩. وإن مجموع التلاميذ الذين تعلموا في هذه المدارس كلها بلغ ١١٧ الف تلميذ منهم ٨ آلاف فتاة حتى سنة ١٨٩٧».

وفي دراسة للأستاذ محمد جميل بيهم المؤرخ البيروتي المعاصر عنوانها «لبنان يحمل علَم الطليعة» تناول أسباب تقدم لبنان بوضعه الراهن في جميع المجالات والنتائج التي أسفرت عن هذا التقدم عبر الأجيال. يقول الأستاذ بيهم رحمه اللّه: «نشرت إحدى صحف الآستانة في عام ١٨٩٤م خبراً مفاده أن عدد مدارس الأميركان في السلطنة (العثمانية) بلغ وقتئذ ٨١٢ مدرسة تضم ٤٣٠٣٧ تلميذاً، عشرون ألفاً منهم من الإناث».

وفيما يتصل بالمدارس الفرنسية في هذه البلاد، فإن الدكتور فيليب حتي، رئيس القسم الإسلامي بجامعة برنستون يقول في

كتابه «لبنان في التاريخ» إنها بلغت ٥٠٠ مدرسة تمثل عشرين مجتمعاً طائفياً، تضم بين جدرانها ٥٠ ألف تلميذ وتلميذة.

أما بالنسبة إلى المدارس الفرنسية التي كانت في بيروت نفسها حتى سنة ١٩٠٠م فإن الأستاذ أنيس زكريا النصولي رحمه الله ذكر في كتابه «أسباب النهضة العربية» نقلاً عن كتاب «القوى الأجنبية في الشرق/ Puissances Étrangères de Levant) أنها كانت كما يلي:

مدرستان عاليتان للذكور فيهما ٥٠٦ تلاميذ.

مدرسة ثانوية للذكور فيها ٢٣١ تلميذاً.

مدرسة ثانوية للبنات فيها ١٠٠ فتاة.

١٥٥ مدرسة ابتدائية للذكور فيها ٨٣٤٨ تلميذاً.

١٣ مدرسة ابتدائية للإناث فيها ٢٩٠٢ من الفتيات.

وفي هذه المناسبة، لا بد من الإشارة إلى أن هذه المدارس الفرنسية وما إليها من المؤسسات الثقافية المماثلة كانت محل اهتمام الحكومة الفرنسية دائماً. ففي أواخر عهد السلطان عبدالعزيز وأوائل عهد السلطان عبد الحميد الثاني رحمهما الله، اقترضت الدولة العثمانية مالاً من مؤسسة «أورلاندو وتوبيني وشركاهما» في اسطمبول، وفي سبيل استعادة هذا المال، احتلت العمارة الفرنسية جزيرة مدللي ـ ميتلين ووضعت يدها على جمرك هذه الجزيرة. واستغلت الحكومة الفرنسية هذا الحادث فقدمت إلى «الباب العالي» أي الحكومة العثمانية قائمة بالمدارس والمؤسسات الفرنسية التي كانت تعمل في السلطنة بدون رخصة رسمية. وطلبت تسوية أوضاعها معلقة جلاءها عن الجزيرة المذكورة على تلبية طلباتها. فلم يسع الحكومة العثمانية إلا النزول عند هذا الطلب.

وجدير بالذكر، أنه عندما فتحت فرنسة باب المفاوضات مع الحكومة السورية سنة ١٩٤٥ قبل الجلاء، حول الاتفاقية الثقافية التي كانت تريد فرضها على السوريين، فإن الفرنسيين أشاروا يومئذ إلى ما وصفوه بـ «الحقوق المكتسبة بموجب اتفاق مدللي» المشار إليه، ولكن السوريين رفضوا الاعتراف بهذه الحقوق بعد أن انسلخت سورية عن الإمبراطورية العثمانية التي أصبحت جزءاً من التاريخ الماضي.

وفي سنة ١٩١٣ ـ ١٩١٤ جرت بين الدولتين العثمانية والفرنسية مباحثات في اسطمبول للاتفاق على بعض الأمور وفي مقدمتها «المؤسسات والمدارس الفرنسية» الموجودة في أراضي السلطنة. ولقد انتهت تلك المباحثات إلى اتفاقية بين الطرفين العثماني والفرنسي، وقعها الصدر الأعظم سعيد حليم باشا وسفير فرنسة مسيو بومبار بالحروف الاولى من اسميهما.

ونصّت هذه الاتفاقية بالنسبة إلى المدارس والمؤسسات الفرنسية على ما يلي:

١ ـ إصدار الفرامانات (المراسيم السلطانية) والرخص اللازمة بدون أي رسم حكومي.

٢ ـ الإعفاء من جميع الرسوم والضرائب الحكومية والبلدية، بما في ذلك الرسوم الجمركية.

٣ ـ تسهيل ازدهار تلك المؤسسات والمدارس وعدم إقامة العراقيل في وجهها.

٤ ـ معاملة المعلمين فيها على قدم المساواة مع معلمي المدارس الحكومية، وكذلك المساواة بين تلاميذ المدارس الفرنسية وبين تلاميذ المدارس الحكومية.

٥ ـ إذا طلبت المدارس الفرنسية الاعتراف بشهاداتها مع معادلتها بالشهادات الحكومية، ليس من حق الحكومة العثمانية معارضة هذا الطلب.

٦ ـ إفادة حملة الشهادات الفرنسية من جميع الحقوق التي يتمتع بها حملة الشهادات العثمانية.

٧ ـ حق الحكومة العثمانية بمراقبة الامتحانات التي تجريها المدارس الفرنسية، على أن يكون ذلك بمساعدة القنصل الفرنسي.

وهنا، لا بد لنا من القول بأن إصرار فرنسا يومئذ على تأكيد «الامتيازات» بالنسبة للمدارس الفرنسية، إنما كان بسبب قلق الحكومة الفرنسية من استشراء النفوذ الألماني ـ الكاثوليكي في ممتلكات الدولة العثمانية. وهو نفس القلق الذي أثار اليسوعيين من تسرُّب النفوذ الأميركي «الإنجيلي» كما مر معنا من قبل.

فقد جاء في رسالة للقنصل الفرنسي ببيروت الفيكونت دو بيتيتفيل (Le Vicomte de Petiteville) مؤرخة في ١٠ نيسان سنة ١٨٨٨ موجهة منه إلى حكومته: «.. يجب علينا الحذر من جانب ألمانيا. فللمرة الأولى يظهر العنصر الكاثوليكي الألماني في سورية، فإن راهبات سان شارل بوروميه (st. Charles Borromée) أسسن لهن مركزاً بمساعدة حكومة برلين. وهن يأملن بأن يؤسسن مراكز في أنحاء مختلفة من منطقة الجليل، إن لم يكن في سورية ذاتها. فبالنظر إلى قيام هذا التنافس الذي يمكن اعتباره عملاً ـ غير ودّي ـ بالنسبة إلى فرنسا، لأنه يتناقض مع الاتفاقات الدولية الرسمية، فإنه يلزم علينا أن نحافظ على مؤسساتنا اكثر من أي وقت مضى».

وليس من شك في أن ما قاله الفيكونت دوبيتيتفيل في هذه الرسالة لا يتطلب منا كثيراً من التفكير حتى ندرك بأن البواعث التي حركت اليسوعيين الفرنسيين ضد الإنجيليين الأميركان، هي نفس البواعث التي حركت هذا القنصل ضد الكاثوليك

الألمان، والقاسم المشترك كان دائماً المصالح السياسية المتشابكة بين الدول المذكورة.

وما دمنا نتحدث عن المدارس الأجنبية في بيروت، فإننا نبادر إلى القول بأن هذه المدارس قد تضاعف عددها بشكل ملحوظ على أثر الدستور (المشروطية) الذي أعلنه السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله سنة ١٩٠٨ وما تلا ذلك بعد خلعه عن العرش في السنة التالية. وقد أشارت الى هذه الظاهرة مجلة «المقتبس» الدمشقية في مقال لها تحت عنوان «نهضة سورية» جاء فيه قولها: «ولقد كانت نعمة الدستور في السلطنة انتشار التعليم في كل بلد بقدر استعداد أهله. وكان من توفرت لهم ذرائع التعليم أكثر ركوضاً الى مناهل العلم، وليس في سورية مدينة استقام لها أمر التعليم كثغر بيروت الذي حمل إليه الإفرنج، ولا يزالون يحملون، علمهم وأموالهم ليربوا ناشئة الشرق ويخرِّجوهم على المنازع الغربية، مازجين تلقين المدنية بتلقين النصرانية».

وكلام «المقتبس» الدمشقية، كان في الواقع تكراراً لما قاله الشيخ عبد القادر القباني في جريدته «ثمرات الفنون» البيروتية سنة ١٨٨٢ وهو «أن أوروبة لم تتجشم المشاق وتصرف المصارف، رحمة بالشرق ولا رأفة بأهل الشام، وإنما رغبت أن تجعل لمشربها السياسي حزباً يتغذّى بمحبتها صغيراً، فإذا كبر وانتشر في البلاد، كان عوناً لها على مساعيها».

على أننا نبادر إلى القول، بدورنا، إن الإرساليات الأجنبية، بمختلف جنسياتها ومذاهبها الدينية، إن كانت قد نجحت فعلاً بتركيز ثقافة الغرب وفرضت علينا حضارته وأسلوب حياته، إلا أنها فشلت تماماً في إقناع المسلمين بالاستسلام للسيطرة الأوروربية او الأميركية كما فشلت في تحويل أي مسلم عن دينه ومعتقده وإيمانه إذ اقتصر نشاط الإرساليات في مجال التبشير على بعض النصارى الموارنة والأرثوذكس الذين اضطرتهم ضرورة العيش والرغبة في طلب العلم إالى اقتبال المذهب الإنجيلي المذكور، ومثلهم بعض أبناء الطائفة الدرزية الذين تحولوا إلى المذهب الإنجيلي خلال وجود إبراهيم باشا (المصري) في هذه البلاد (١٨٣١ ـ ١٨٤٠) وذلك تخلصاً من الخدمة العسكرية التي كانت السلطات المصرية تفرضها عليهم في ذلك الحين. وقد فعل أولئك الدروز ذلك على سبيل «التقية»، وليس على سبيل الاقتناع بأفضلية المذهب الإنجيلي على مذهبهم الديني الذي توارثوه عن آبائهم وأجدادهم.

وقد أشار الدكتور فيليب حتي في كتابه «لبنان في التاريخ» إلى هذه الحقيقة بقوله: «... إن الذين التحقوا بالطوائف التي تمثلها الإرساليات البروتستانتية كانوا مسيحيين، وبنوع خاص، من الكنيسة الأرثوذكسية، وعوضاً من أن يظلوا في كنائسهم القديمة المحترمة، ذات التقاليد القديمة كعامل جديد مثقف مستنير يعمل على إعادة الحيوية إلى هذه الكنائس، فإن المرسلين جمعوهم في بيروت سنة ١٨٤٨ في طائفة واحدة وأطلقوا عليه اسم «الكنيسة السورية الإنجيلية» أما التبشير الديني بين المسلمين، فلم يكن له أثر يذكر».

ومجمل القول، إن ساحة التعليم في بيروت، خلال القرن التاسع عشر لا سيما في نصفه الأول كانت مسرحاً يكاد يكون موقوفاً على المدارس الأجنبية فقط، التي خَلا لَها الجو لإرساء قواعد الثقافة الغربية قبل أن تتنبه السلطات العثمانية وتبادر إلى التعاون مع أبناء هذه البلاد في إنشاء المدارس الحكومية والأهلية كي لا يبقى المواطنون العرب عيالاً على الإفرنج في هذا الميدان الحساس.

وإذا لم يكن بد من كلمة أخيرة، تعكس رأينا الشخصي في الآثار التي ترتبت على وجود المدارس الأجنبية في بلادنا، فإننا لسنا نجد حرجاً من القول بأن هذه المدارس ينطبق عليها القول المأثور «ربّ ضارة نافعة» ذلك أن نشاط الإرساليات الأجنبية أثار في أوساط المسؤولين من الحكام العثمانيين وفي الزعماء المحليين على حد سواء، الشعور بخطر الغزو الثقافي الأجنبي وأيقظ فيهم الوعي القومي وحملهم على النزول إلى ساحة التعليم وإنشاء المدارس على أسس عصرية جديدة، كي يساعدوا المواطنين على الاحتفاظ بشخصيتهم الفكرية الأصيلة، واللحاق بركب المدنية الحديثة لمواجهة المستقبل مزودين بالثقة في أنفسهم والقدرة على التطور والتقدم.

وها نحن اليوم، نجني بنجاح، ثمرة التفاعل الذي تم بين الفكر الغربي وبين النفسية العربية وهو التفاعل الذي مكننا من استعمال الثقافة والعلم لخلق نهضة عربية قومية، قوامها العشرات بل المئات من الجامعات والمعاهد والمدارس الوطنية. من رسمية وأهلية، التي هيأت للمواطن العربي فرص الطموح العلمي على أعلى المستويات وأفضلها.

وأياً ما كان، فإننا، لا نبالغ إذا أكدنا، بهذه المناسبة، بأن المدارس الأجنبية نفسها قد تخلت، في غالبيتها، عن حوافزها التبشيرية القديمة التي جاءت بها من الغرب إلى الشرق، وإنها أخذت تكيف مناهجها المدرسية في حدود الهدف العلمي المجرد من كل العنعنات الدينية والمذهبية، وبذلك ساعدت أبناء البلاد على التحرر مما كان يلابس علاقتهم بها من مشاعر الحذر والارتياب وسوء الظن. وأصبحت المؤسسات الثقافية الوطنية ورصيفاتها الأجنبية تتعاون فيما بينها على تأمين لقاء علمي مشترك في مسيرة التقدم الإنساني على السبيل السويّ، من أجل السلام والازدهار والإخاء بين جميع البشر.

أوائل المدارس الأهلية أيام العثمانيين

بواكير المدارس الأهلية النصرانية

إن الطوائف النصرانية في بيروت وجبل لبنان تهيأ لها الاحتكاك بالحضارة الغربية الحديثة قبل المسلمين بزمن غير قليل. وكان ذلك أمراً طبيعياً ومنطقياً. ذلك أن بين نصارى الغرب ونصارى الشرق وحدة حال من الناحية الدينية وهذا الأمر أدى بصورة عفوية إلى وجود رابطة اجتماعية وثقافية بين الطرفين وهو ما أثمر على المستوى التعليمي إلى مبادرة النصارى المحليين إلى محاكاة نظرائهم في الدين الغربيين في أسلوب إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية العصرية. وأول مدرسة أهلية أنشأها النصارى في بيروت من هذا القبيل كانت المدرسة التي أنشأها الرحالة أسعد يعقوب الخياط في العقد الرابع من القرن الماضي على أثر استعادة الأتراك العثمانيين لمدينة بيروت بمعاونة حلفائهم من الإنكليز والنمساويين في أواخر أيلول سنة ١٨٤٠، وهذا ما أكده أسعد المذكور نفسه حيث قال في مذكراته التي نشرها سنة ١٨٤٧ وجعل عنوانها «صوت من لبنان» التي ترجمها من الإنكليزية إلى العربية ميخائيل صوايا: «استولى الإنكليز على بيروت.. فرجعنا إلى بيتنا.. فأسست مدرسة، وما كادت تفتح أبوابها حتى امتلأت. كان فيها خمسة وعشرون صبياً وسبع بنات، يتلقنون القراءة والكتابة والحساب والدين (يقصد الدين المسيحي) وكان بين هؤلاء أميرة درزية صغيرة (؟) وبعض الصبية من المسلمين (؟). لقد كانت مدرسة حرة، ولو ملكت الوسائل اللازمة لبلغ عدد تلاميذها المئة».

وفي الترجمة التي وضعها الدكتور فيليب حتي لهذه المذكرات ونشرها في مجلة «الكلية» في شباط ١٩٢٣ نقل عن أسعد خياط قوله، بصدد هذه المدرسة: «أول عمل باشرته (أي بعد عودته إلى بيروت على أثر اخراج المصريين منها سنة ١٨٤٠) هو تأسيس مدرسة مجانية للذكور والإناث كان يلازمها ٢٥ صبيًّا و٧ بنات. وسمحت لطالبين أن يقيما في بيتي الخاص وهما عبدالله بن عرمان وابن بشور وأرسل اليَّ صديق من دمشق ولدَيْ أخيه بطراجي زخريا وموسى طنّوس فقبلتهما في بيتي أيضاً.. ولكن اضطرب الأحوال ألجأنا إلى الجلاء عن بيروت فنزحنا إلى مار جرجس الحرف (من قرى المتن)».

ولم يكن أسعد الخياط يكتفي بتعليم تلاميذه في بيروت. بل هو أراد تخريج النابهين من هؤلاء التلاميذ في المدارس الأجنبية في البلاد الأجنبية نفسها من أجل التخصص. وبالفعل فإن أسعد الخياط نجح في إيفاد بعض تلاميذه إلى إنكلترة للتخصص في مدارسها العالية.. فهو يقول: «بفضل خطبي ومساعيّ تمكنت اللجنة من إبقاء نحو خمسة عشر طالباً في المدارس الإنكليزية إلى أن أنهوا دروسهم و٣٣ إلى أن نالوا شيئاً منها. ولكن الصعوبات كانت تزداد استحكاماً ولم يكن لي قِبَل على احتمال بعضها، فالرجل الذي تعهد بتهذيب أربعة من الطلبة السوريين على نفقته رفض البِرّ بوعده ما لم أدخل في جمعيته».

وسنداً لما جاء في مذكرات أسعد يعقوب الخياط، تكون بيروت قد عرفت أول مدرسة أهلية نصرانية هي تلك التي افتتحها هذا الرحالة سنة ١٨٤٠ يضاف إلى ذلك أن أول بعثة دراسية قصدت بلاد الإنكليز كانت مؤلفة من طلاب هذا الرحالة أيضاً. وجدير بالذكر أن أسعد يعقوب الخياط كان يعتبر إنشاء المدارس وتهذيب الناشئة من مبادئه التي يؤمن بها ويعمل على تحقيقها. ولا بدع، فهو يقول في مذكراته «مبادئي»:

وكانت مبادئي التي نشرتها ودعوت القوم لها تنحصر في نقاط أربع:

١ - إنشاء المدارس الوطنية لتهذيب أبناء سورية وترقيتهم.
٢ - تثقيف النساء وتربيتهن على أصول أدبية.
٣ - الاعتماد على الوطنيين - لا الأجانب - في نشر المعارف وتنمية العقول.

٤ - تعزيز فن الطب

ويشير الخياط في مذكراته إلى أنه زاد سروره «أن المطران أنشأ في بيروت مدرسة أخذت تعلم العربية واليونانية والفرنسية والإيطالية». ونحن لا ندري أي مطران هو الذي يعنيه الكاتب وربما كان المقصود مطران الروم الأرثوذكس، ويقصد بالمدرسة «مدرسة راهبات المحبة» للبنات التي تأسست في بيروت سنة ١٨٥٦ وكانت أول مدرسة فتحت أبوابها للإناث في هذه المدينة، أو مدرسة «مار يوسف الضهور» التي افتتحت في بيروت سنة ١٨٤٧ وكانت مخصصة للبنات أيضاً في أول أمرها.

المدرسة الوطنية لبطرس البستاني

لما حدثت الفتنة الطائفية التي افتعلها الأجانب بين الدروز وبين النصارى في جبل لبنان سنة ١٨٦٠ تمادت ذيول هذه الفتنة حتى عمت البلاد وبلغت مضاعفاتها الوخيمة أكثر القرى والدساكر اللبنانية التي تركها قسم كبير من سكانها وهبطوا إلى مدينة بيروت لائذين بحماها الهادىء المستقر. فنهض بطرس البستاني من أهالي الدبية بلبنان الذي اشتهر بين الناس آنذاك باسم «المعلم بطرس البستاني» وبادر إلى تأسيس مدرسة أهلية بمساعدة المبشرين الأميركان الذين لم يبخلوا عليه بخبرة رجالهم وسخاء أموالهم، وكذلك بالكتب المدرسية التي ترجموها أو ألفوها بما يتلاءم وأغراضهم التبشيرية وطبعوها له بمطبعتهم التي كانوا نقلوها من مالطة لبيروت حوالى سنة ١٨٣٤.

وشرعت هذه المدرسة الوطنية أبوابها لجميع أبناء الوطن دون تمييز في الدين أو في المنطقة أو في الطبقة الاجتماعية. وجعل برنامجها التعليمي محاكياً للمدارس الأجنبية الراقية. وكان التعليم فيها يشتمل على المواد التالية: العربية، والفرنسية، والإنكليزية بعلومها وآدابها، مع الخطابة والشعر، والرياضيات والترجمة والتاريخ والجغرافية.

وكان لهذه المدرسة «عمدة» للإشراف عليها وتنظيم سير العمل فيها. وهذه العمدة كانت بمثابة ما نسميه اليوم «مجلس الأمناء» وهي مؤلفة من الأعيان والعلماء في زمانهم، وفيما يلي أسماؤهم: سعيد شقير، إبراهيم الباحوط، سعدالله البستاني، عبد الله البستاني، شاهين سركيس، الشيخ خطار الدحداح، سليم البستاني، خليل ربيز، عبد الله شبلي، فضل الله غرزوزي، بطرس البستاني (رئيس العمدة) والشيخ يوسف الأسير. وهذا الأخير كان المسلم الوحيد في هذه العمدة. وربما كان اختياره بسبب الرابطة العلمية التي كانت تربطه بالمرسلين الأميركان الذين كانوا يكلفونه بتصحيح العبارة العربية للعهد القديم (التوراة) نظراً لتفوقه في علوم اللغة العربية بما يؤهله لتقويم الأسلوب العربي للترجمة التي عملوها لهذا الكتاب الديني. ولقد حرص البستاني على ضم الشيخ يوسف الأسير المسلم إلى عمدة مدرسته من أجل إضفاء الطابع الوطني عليها وإبعاد الصفة الطائفية عنها.

وكان الغرض من إنشاء بطرس البستاني لمدرسته في ذلك الحين معالجة الرواسب السلبية التي خلفتها فتنة ١٨٦٠ الطائفية في المجتمع اللبناني والبيروتي عن طريق التثقيف العلمي والتوجيه العلماني (الوطني).

في سنة ١٨٦٣ جرى افتتاح هذه المؤسسة تحت اسم «المدرسة الوطنية» وكان موقعها آنذاك في محلة زقاق البلاط خارج سور مدينة بيروت من الجهة الغربية. وقد علمنا في المدة الأخيرة، بأن الحكومة اللبنانية اشترت بناء هذه المدرسة قبل بضع سنين باقتراح من الأستاذ كاظم بك الصلح النائب بالبرلمان اللبناني، رحمه الله، واعتبرت هذا البناء من الآثار اللبنانية والتراث الوطني.

وبالفعل، فإن هذه المدرسة امتازت، في حينها، بحرية التعليم والدين وكانت صبغتها أهلية، أي وطنية حسب اصطلاح أهل زماننا، وأخرجت من صفوفها عدداً من حملة الأقلام في العالم العربي، وكانت مواد التعليم فيها تشتمل على اللغات الأجنبية: الفرنسية والإنكليزية، واليونانية، فضلًا عن اللغة العربية لغة أهل البلاد القومية. إلا أن تكاثر المدارس الطائفية، من محلية وأجنبية أضعف استقطابها للتلاميذ وأدى في النهاية إلى اغلاقها في سنة ١٨٧١. وانتقل مؤسسها بطرس البستاني إلى مشاركة القس كرنيليوس فانديك في تأسيس مدرسة في عبيه بلبنان حيث كان يعلم فيها مواد الصرف والنحو والمعاني والبيان والأنساب والعروض والمساحة وعلم الهيئة (أي الفلك) وغير ذلك.

وفي متناولنا قائمة بأسماء الأساتذة الذين تولوا التدريس في المدرسة الوطنية نشرها الدكتور شاكر الخوري المتوفى سنة ١٩١٣ في كتابه «مجمع المسرات» المطبوع ببيروت سنة ١٩٠٨ والدكتور المذكور كان من تلاميذ هذه المدرسة. وفيما يلي تفصيل أسمائهم مع بيان المادة العلمية التي كانت من اختصاص كل منهم:

الرئيس: المعلم بطرس البستاني، كان يعلم صفاً باللغة الإنكليزية.

نائب الرئيس: سليم البستاني ابن بطرس: كان يعلم الصف الأول في الإنكليزية.

الست سارة البستاني بنت بطرس: كانت تعلم صفاً في الإنكليزية أيضاً.

الشيخ ناصيف اليازجي، الشاعر المعروف: كان يعلم الصف الأول في العربية.

الشيخ إبراهيم اليازجي ابن الشيخ ناصيف: كان يحل محل والده إذا غاب.

الشيخ يوسف الأسير: كان يعلم اللغة العربية، مادة الصرف.

الشيخ خطار الدحداح: كان يعلم اللغة الفرنسية للصف الأول.

الشيخ قبلان الدحداح: كان يعلم اللغة الفرنسية للصف الثاني.

المعلم سعد الله البستاني: كان يعلم اللغة الفرنسية للصف الثالث.

المعلم أسبر شقير: كان معلماً للغة الفرنسية.

المعلم سعيد شقير: كان يعلم اللغة الفرنسية.

المعلم شاهين سركيس: كان يعلم العربية والحساب للصف الثاني.

المعلم يوسف الباحوط: كان يعلم العربية والحساب.

المعلم إبراهيم ناصيف: كان يعلم اللغة العربية.

المعلم خليل ربيز: كان يعلم الصفوف الابتدائية.

المعلم سليم تقلا: كان يعلم المبتدئين في اللغة العربية.

المدرسة السريانية

وفي سنة ١٨٦٤ أسس القس السرياني لويس الصابونجي «المدرسة السريانية» وهو صاحب أول مجلة عربية مصورة بكل معنى من معاني الكلمة «النحلة» التي صدرت في لندن بتاريخ ١٥ حزيران ١٨٧٧.

المدرسة البطريركية

وفي سنة ١٨٦٥ افتتحت في بيروت «المدرسة البطريركية» للروم الكاثوليك. وفي ظروف تأسيسها يقول عيسى اسكندر المعلوف، المؤرخ اللبناني المعروف: «أراد الخوري جرجس عيسى السكاف من رهبان دير مار يوحنا الصايغ في الشوير (لبنان) للباسيليين أن يؤسس مدرسة لرهبنته في بيروت، فسافر إلى إيرلندة، من جزر بريطانية سنة ١٨٦١ مأذوناً من البطريرك كليمنضوس بحّوث، ومن رئيس رهبنته، فطاف بعض عواصم أوروبية وعاد إلى وطنه بما جمعه من المال نحو سنة ١٨٦٤، فاستقدمه إليه البطريرك غريغوريوس يوسف الأول واتفق معه على أن يشيد مدرسة بطريركية مستعيناً بما جمعه الأب من المال ويقيمه رئيساً، فأختار البطريرك الرابية في محلة المصيطبة في مشارف بيروت، محل بيت الزند وكان قد ابتاعها البطريرك بحّوث وشيد فيها المدرسة.. ولما تم بناؤها فتحت أبوابها للطلبة في تشرين الاول ١٨٦٥.

ولليازجي شعر في تاريخها رقم على نقيشة فوق مدخلها وقد جاء في هذا الشعر قوله:

في ظل سلطاننا عبد العزيز بنى ... للعلم داراً إمام الفضل والكرم
أعني غريغوريوس راعي الرعاة لنا ... والبطريرك الكريم النفس والشيم
أقامها ويمين الله تعضُده ... منارة أشبهت ناراً على علم
فانظر ترى طيّها تاريخ مدرسة ... في أمة الشرق كالمصباح في الظُلم
(١٨٦٦)

ولماكانت سنة ١٩٢٨ جدد البطريرك كيرلّس التاسع أعمالها بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وقد أرخ خليل مطران احد تلامذتهاهذا التجديد في أبيات لطيفة قال فيها:

لكيرلّس المفضال راعي رعاتنا ... مناقب أعلام الهدى وأولي العزْم
تعهّد هذا الصرح بعد دثوره ... فجدده مستكمل الوضع والرسم
يطاول أبراج السماء وتنجلي ... بتاريخه شمس الفضيلة والعِلْم
(١٩٢٨)

وكما كنا ذكرنا من قبل، فإن أول رئيس لهذه الكلية هو الخوري جرجس عيسى السكاف، من زحلة بلبنان.

ولقد تعاقب على التدريس في الكلية البطريركية نخبة من العلماء المعروفين في زمانهم أمثال الشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ إبراهيم اليازجي، والشيخ إبراهيم الحوراني، والشيخ سعيدالشرتوني، والشيخ عبد الله البستاني، والشيخ إبراهيم المنذر، وهم من أدباء النصارى. وكان من بين المدرسين الشيخ يوسف الأسير الشاعر الصيداوي المعروف وهو من علماء المسلمين، والشيخ محيي الدين اليافي الذي تولى الإفتاء في بيروت.

وقد تخرج من هذه الكلية جمٌّ غفير من علماء لبنان وأدباء العرب، منهم: الفيكونت فيليب دي طرازي مؤسس دار الكتب الوطنية في لبنان وأول مدير لها، والشاعر أمين نخلة والأخوان الشقيقان التوأمان يوسف وإبراهيم سالم، من وزراء

الحكومة اللبنانية، وعبد الحليم الحجار محافظ طرابلس الشام ومؤسس حديقتها العامة التي ما تزال متنفساً للطرابلسيين حتى اليوم، وإبراهيم حيدر النائب البعلبكي في مجلس النواب اللبناني الذي كان الكونت دي مارتل المفوض السامي الفرنسي بلبنان يلقبه بـ«جبار البقاع» وإسحاق النشاشيبي الأديب الشاعر الناثر الفلسطيني الذي عرفته الأوساط الأدبية الراقية في بيروت في أكثر من مناسبة.

مدرسة الثلاثة أقمار

وفي سنة ١٨٦٦م نقلت «مدرسة الثلاثة أقمار» الأرثوذكسية من سوق الغرب بلبنان إلى مدينة بيروت. وكانت قد تأسست في الجبل سنة ١٨٥٢. وهي مدرسة تخص الطائفة الأرثوذكسية ومن أساتذتها كان الشيخ يوسف الأسير.

مدرسة زهرة الإحسان

وفي سنة ١٨٨٢ أنشأت الطائفة الأرثوذكسية، مدرسة «زهرة الإحسان» وكانت هذه المدرسة الوحيدة للبنات في أواخر القرن التاسع عشر الماضي وقد أسستها ثلة من كرائم السيدات الأرثوذكسيات برئاسة أميلي سعد، وتولت إدارتها الأخت الراهبة لبيبة جهشان. وكانت هذه المدرسة داخلية وخارجية في آن واحد وفيها كانت البنات يتعلمن اللغات العربية والفرنسية والإنكليزية والروسية واليونانية والأشغال اليدوية، بالإضافة إلى الديانة النصرانية على الطقس الأرثوذكسي.

المدرسة المسكوبية

وفي سنة ١٨٨٧ أنشئت أولى المدارس المسكوبية (الروسية) في بيروت. وجدير بالذكر أن المؤسسات الأرثوذكسية ببيروت والشويفات ودوما وأميون وكوسبا وزحلة وغيرها كانت تتلقى مساعدة من قبل الحكومة الروسية القيصرية التي خصصت في سنة ١٨٩٥ مليون فرنك فرنسي لمساعدة المدارس الأرثوذكسية سواء في بيروت أو في بقية الولايات العثمانية الأخرى.

مدرسة الحكمة

في سنة ١٨٧٥ أنشأ الإكليروس الماروني «المدرسة المارونية» بجهود المطران يوسف الدبس، مطران الطائفة المارونية في بيروت. واختير موقعها آنذاك في حارة النصارى الكائنة في الهضبة المطلة على بيروت القديمة من الناحية الشرقية حيث تم بناؤها سنة ١٨٧٦. وافتتحت للدراسة في هذا التاريخ. وكانت مواد التعليم تشتمل على العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية والتركية بالإضافة إلى علوم الحساب ومسك الدفاتر والجغرافية والتاريخ والفلسفة والطبيعيات والفقه.

وفي زمن لاحق استغنى عن اسمها القديم «المدرسة المارونية» وسميت «مدرسة الحكمة» وهو اسمها الحالي الذي أصبح في المدة الأخيرة «جامعة الحكمة» بعد أن تطورت برامجها التعليمية بما يوازي الدراسات الجامعية.

وجدير بالذكر أن هذه المدرسة سارت بسرعة في مدارج الرقي والشهرة، ليس فقط داخل بيروت ولبنان بل في البلاد الأجنبية أيضاً، فقد نقلت جريدة الإقبال عن جريدة الأهرام المصرية التي نقلت بدورها عن جريدة السعادة «أن الحكومة الإسبانية تهتم بتهيئة فرقة من شبابها لدرس اللغة العربية وآدابها في مدينة بيروت. وقد وقع اختيارها على مدرسة الحكمة المارونية حتى يتلقى فيها أولاد الأندلس اللغة العربية».

أبرز المعلمين في المدارس الأهلية النصرانية

تولى التدريس في المدارس الأهلية للنصارى في بيروت نخبة من كبار الأساتذة نذكر أشهرهم:

شاهين سركيس: كان من أساتذة المدرسة الوطنية للبستاني كما علّم وأدار المدرستين الأميركية والإسكتلندية في بيروت.

ناصيف اليازجي: علّم في المدرسة الوطنية للبستاني وفي المدرسة البطريركية والمدرسة السورية الإنجيلية للأميركان، وله مؤلفات مدرسية.

يوسف باخوس: علّم في مدرسة عينطورة بلبنان، ومدرستي المخلص والحكمة ببيروت.

بطرس البستاني: وقد مرّ ذكره أكثر من مرة في الصفحات السابقة.

الشيخ يوسف الأسير: علّم في مدارس الثلاثة أقمار، والمدرسة الوطنية للبستاني، وفي المدرسة السورية الإنجيلية للأميركان، وفي دار المعلمين العليا باسطمبول، وفي مدارس المقاصد ببيروت، وفي المدارس الاسلامية بطرابلس وصيدا.

حنا أبو صعب: تعلم الخط على يد المعلم بطرس كرامة (الحمصي) وصحب الأمير بشير الى اسطمبول حيث اتقن ما بدأ تعلمه من الخط العربي، وتعلم بعض اللغات، وهو واضع قواعد كتابة الخط العربي للمدارس الأميركية، ومن أشهر تلاميذه علاّم يوحنّا علاّم، ونجيب حبيقة، علّم بمدارس الحكمة، والقديس يوسف اليسوعية، والمدرسة العثمانية للشيخ أحمد عباس الأزهري، وأدار جمعية إخوان الفقراء المارونية، وهو مؤلف لبعض الكتب المدرسية.

الدكتور إلياس مطر: علّم في كليات الطب والحقوق والإدارة

في اسطمبول. واخيراً أصبح في منصب مفتش المدارس العليا في اسطمبول.

الدكتور لويس صابونجي: علّم اللغة اللاتينية في المدرسة السورية الإنجيلية (الأميركية) كما علّم التركية والإيطالية في المدرسة البطريركية، ودرّس بعض اللغات الشرقية في لندن وأنشأ مدرسة السريان في بيروت. وكان مدرّسا خاصاً لأنجال السلطان عبد الحميد الثاني، ومتصرف لبنان فرانكو باشا.

الشيخ خطّار الدحداح: أنشأ مدرسة في بيروت، كما تقدم، وعلّم في مدرسة الثلاثة أقمار، والمدرسة الوطنية للبستاني، والمدرسة البطريركية، ومدرسة الاتحاد الإسرائيلية والإعدادية الرسمية (الحكومية) وعين لهذه الأخيرة مديراً بالوكالة سنة ١٨٨٤.

عيسى إسكندر المعلوف: هو مؤرخ معروف وله عدة كتب في التاريخ والآثار والأنساب.

سليمان البستاني: الذي ساعد على إتمام دائرة المعارف التي بدأ بها المعلم بطرس البستاني. وسليمان هذا هو مترجم إلياذة هوميروس ومؤلف كتاب «عبرة وذكرى» (أو تاريخ الدولة العثمانية قبل الدستور).

يعقوب صرُّوف: صاحب المقتطف التي صدرت ببيروت ثم بمصر، وقد علّم بمدارس بيروت وطرابلس وصيدا الأميركية.

فارس نمر: زميل يعقوب صُروف في التعليم والصحافة.

الشيخ إبراهيم اليازجي: ابن الشيخ ناصيف اليازجي.

جرجي زيدان: منشىء مجلة الهلال، ثم دار الهلال للنشر والصحافة بمصر.

سعيد الشرتوني وأخوه رشيد.

أرسانيوس فاخوري: وكان من رجال الكهنوت تعامل مع الموفدين البابويين كمعاون لهم، ولزم مدة أعمال القضاء في لبنان ودرّس العلوم العربية والقوانين الفقهية لكثير من الطالبين للعلم. وله اشعار دينية وأخرى تعليمية.

المعلم الياس إده: كان رجلاً عاقلاً كثير الفهم محنكاً بالأمور محبوباً من الخاصّ والعام. وكان إذا قدم بيروت يخرج جموع من أهل البلدة لاستقباله. وكان علماء المسلمين يأنسون إلى حديثه، وأفردوا له موضعاً بقرب جامع النَّوفرة ليتباحثوا معه بالعلوم ويتناشدوا الأشعار.

بواكير المدارس الأهلية الإسلامية

تحدثنا فيما سبق عن دخول بيروت في عصر المدرسة النظامية الحديثة الذي بدأ بالمدارس التي أسسها الأجانب من المرسلين الأميركان البروتستانت واليسوعيين الفرنسيين الكاثوليك. وذكرنا أن هؤلاء وأولئك كانوا يتزاحمون بالمناكب على إنشاء هذه المدارس حتى إن المبشر الأميركاني كارنيليوس فانديك كثيراً ما كان يتندر عندما يشرع في افتتاح إحدى المدارس ويقول: أنا ذاهب لأفتح مدرستين، ملمحاً بذلك إلى أن اليسوعيين سيلحقون به ويبادرون إلى افتتاح مدرسة أخرى خاصة بهم. ثم عرجنا على المدارس الأهلية التي أسسها النصارى من أهل البلاد بمساعدة الأجانب أو بأنفسهم، وقبلها أتينا على تحسس الدولة العثمانية بالخطر الذي كان يتهدد مستقبل الناشئة الإسلامية من انفراد النصارى الأجانب والوطنيين بالساحة التعليمية ومبادرتها إلى إنشاء المدارس الرسمية لدرء هذا الخطر قبل فوات الأوان.

وها نحن الآن نتناول موضوع المدارس الأهلية التي أسسها المسلمون من أبناء بيروت الذين أرادوا اللحاق بهذه المبادرات التعليمية لكي يساهموا في تحصين ناشئتهم ضد الغزو الثقافي الذي أنشب أظفار الأجانب في عقول هذه الناشئة وأخذ ينفث سمومه التبشيرية فيهم.

الكتاتيب، مدارس المسلمين الأهلية الأولى

عندما تكلمنا من قبل عن بدايات التعليم بين المسلمين في القرن الماضي، قلنا بأنه كان في «الكتّاب» وهو ما كان في ذلك الحين يسمى «الخوجاية» أو «الشيخة» نسبة إلى الخوجا وهو والشيخ في معنى واحد، أولاهما بالتركية، والثانية بالعربية، والآن نقول إن أكثر الكتاتيب كانت بمثابة مدارس قرآنية لغاية تعليم القرآن فيها. وكان يعلم فيها ويديرها العميان من الشيوخ. الذين كانوا يعرفون عند الناس بالبصراء، ذلك أن العرب تسمي الأعمى بصيراً من باب التفاؤل والكلمة نفسها تحتمل المعنيين، وذلك معروف في اللغة العربية.

وكثيراً ما كان الموسرون من أبناء بيروت يستحضرون المشايخ البصراء إلى منازلهم ليعلموا أولادهم لا سيما إذا كان هؤلاء الأولاد من البنات وذلك مراعاة لتقاليد ذلك العصر التي كانت تقضي بعدم ظهورهن في خارج بيوتهن. ولقد أدركنا في سن الحداثة أحد هؤلاء البصراء وهو شيخ من آل شاتيلا كان يتردد على بيوت بعض الكبراء وهو على أتانٍ بيضاء، وكانت هذه الأتان تقوده بدلاً من أن يقودها. ومن الطريف أنها كانت تعرف البيوت التي يقصدها بنفسها فتقف عند هذه البيوت دون أن تخطىء أمكنتها، حتى إذا أنهى عمله عاد فامتطاها لتسير به وتقف مرة أخرى عند البيت المقصود، وهكذا، ولقد اشتهر أمر هذا البصير وأتانه البيضاء بين البيروتيين الذين كانوا يبدون دهشتهم من عمل هذه الأتان التي كانت دليلاً لا يخطىء

لصاحبها. ولعل بعض الناس يتساءلون اليوم عن سر اختيار المشايخ للحمير ابيض في تنقلاتهم فنجيبهم أن هذا الاختيار كان بسبب حرص هؤلاء المشايخ على تقليد النبي صلى الله عليه وسلم الذي كانت له أتان بيضاء اللون وهي التي جاءته من المقوقس (المصري) وكان اسم هذه الأتان «اليعفور».

ومن الذين اشتهروا من أصحاب الكتاتب في أواسط القرن الماضي الحافظ الشيخ إسماعيل الطنطاوي الذي امتاز كثير من تلامذته على أقرانهم أبناء سائر الكتاتيب، عقلاً ونباهة وأخلاقاً، وغيره من العلماء المجوّدين أمثال الشيخ النصولي، والشيخ الدسوقي، والشيخ محمد القباني (المصري) الذي كان يعلم تلامذته في جامع الباشورة (البسطة التحتا اليوم) وكان - كما يقول الشيخ عبد القادر القباني - حسن الأسلوب في التعليم العملي. ومنهم الشيخ محمد العبْد، الذي كان شديداً على تلامذته، وعندما توفي خلفته بنته في كتّابه، وبعدها تسلّم الكتّاب ابنها الشيخ جمعة، الذي يعرفه جيداً أبناء جيلنا. وقد أدركناه شخصياً، وتعلمنا عنده وكان كتّاب الشيخ جمعة يضم الجنسين من الأطفال: الصبيان والبنات.

أوائل المدارس الإسلامية الأهلية

ربما يفاجأ أبناء زماننا إذا أخبرناهم بأن أجدادهم من أهل القرن الماضي كانت مدارسهم في الحوانيت التجارية داخل أسواق بيروت القديمة وبعضها كانت إلى جانب أبواب المساجد، من ذلك كُتّاب الحاج محمد المكوك في دكانه بسوق العطارين حيث تقع اليوم القناطر المقابلة للباب الغربي للجامع العمري الكبير، ففي هذا الدكان كان يتعلم أولاد المسلمين الكتابة والقراءة ومبادىء الحساب وكان الحاج محمد المكوك في نفس الوقت يكتب الرسائل التي يكلفه بها التجار الذين كانت تسود فيهم الأمية، ويتولى تنظيم دفاترهم التجارية.

وأما الشيخ محمد اليافي الذي تولى إفتاء بيروت فإنه بدأ حياته، بعد قدومه من مصر معلماً للصبيان. وكان كُتّابه عند الجامع العمري الكبير بحذاء بابه الغربي وكان يعلم فيه تلاميذه الخط العربي والحساب إلى جانب مبادىء اللغة والآداب الدينية الإسلامية.

من تقاليد التعليم في ذلك الزمان

وما دمنا نتحدث عن الكتاتيب التي كانت مدارس ذلك الزمان فلا بأس من ترويح الأذهان في هذه المناسبة بذكر التقاليد «الفولكلورية» التي كانت من مستلزمات التعليم آنذاك، فقد كتب الشيخ عبد القادر القباني طرفاً من ذكرياته عن هذه التقاليد في مجلة الكشاف البيروتية، قال رحمه الله: «. . وكان بعض أصحاب هذه الكتاتيب لا همّ لهم إلا أن يختم الطالب القرآن الكريم ليتناولوا «المعلوم» - أي المكافأة التي كانوا يسمونها «الحلوانة»ونسميها نحن «البخشيش» من الوالدين، وكان أغلبهم يصطلحون على أن الطالب متى أنهى سورة «آل عمران» فقد ختم القرآن. فيعلمون أهله بذلك، فيرسل هؤلاء الكعك، ويرسل بعضهم مع الكعك النقل [أي المخلوطة] فتوزع على رفاق الطالب من أبناء كتّابه وكانت العادة أن يجلس التلميذ أمام شيخه فيومىء الشيخ إلى واحد من الطلاب أو اثنين أن يقفا إلى جانب الطالب حتى إذا تلا سورة «الحمد» - الفاتحة وأتبعها بسورة البقرة إلى أن يأتي على قوله تعالى ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ خطفا طربوشه وأسرعا عدواً إلى منزله ليبشرا أهله بأن ابنهم «ختم»، فتعطى لهما البشارة ويعاد الطربوش وقد ملىء بالملبس والنقل. ثم يتناول الشيخ طعام العشاء في منزل والد الطالب وتعاد التلاوة على النحو المذكور» ا. هـ.

ولقد بقيت هذه التقاليد «الفولكلورية» متبعة حتى عهد حداثتنا وكنا شخصيًّا من بين الذين ذاقوا مرارة خطف الطربوش وحلاوة الملبس والنقل، سقاها الله من تقاليد عشناها زمناً رغداً مع أيام الطفولة البريئة.

وجدير بالقول إن أهل ذلك الزمان من الذين لم يكونوا على مستوى مادي ميسور، كان أبناؤهم يتركون الكتاب بعد ختم القرآن ويلبون رغبة آبائهم في تعلم صنعة تكون لهم عوناً على احتمال ضرورات العيش، بل إن كثيراً من الأهل كانوا يؤثرون أن يرسلوا أبناءهم إلى العمل ويتركونهم دون تعليم لاعتقادهم بأن «صنعة في اليد أمان من الفقر» كما كانوا يقولون.

بداية التعليم الأهلي على الطريقة العصرية عند المسلمين

إذا كان لا بد من إرجاع الفضل إلى أصحابه فيما يتعلق بالتعليم الأهلي على الطريقة العصرية عند المسلمين في بيروت، فإننا نرجع هذا الفضل إلى رجلين اثنين كانا أول من فكر في هذا المشروع وأخرجاه إلى حيز التنفيذ بالعمل، وهما:

الشيخ عبد الله خالد الذي توفي يوم الجمعة في ٢٧ ذي الحجة ١٢٨٠ هـ (١٨٦٢ م). وكان الشيخ المذكور إماماً في جامع النوفرة الذي بناه الأمير منذر بن سليمان التنوخي المتوفى سنة ١٠٤٣ هـ (١٦٣٣ م) في سوق البازركان.

والثاني، الشيخ محمد الحوت الذي وُصف بأنه فريد عصره ووحيد دهره. توفي ليلة الأربعاء في ٨ ذي القعدة ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ م). كان الشيخ المذكور إماماً في الجامع العمري

الكبير، وهو من العلماء في تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه والعلوم الدينية والأدبية وله كتب تشهد بعلمه واطلاعه.

ولقد كان لهذين الشيخين اليد البيضاء في نشر العلم في بيروت وبث الثقافة الإسلامية في هذه المدينة. كما كانا مقصداً لطلاب العلم من المسلمين الذين كانوا يحضرون عليهما دروسهما في جامع النوفرة والجامع العمري الكبير، لا سيما التجار الذين نشأ جيل كبير منهم على مستوى رفيع من العلوم الشرعية واللغوية، نذكر منهم على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر الشيخ عمر الفاخوري والشيخ عبد الباسط الفاخوري وقد تولى الثاني منصب إفتاء ولاية بيروت، والشيخين محمد وعبد الرحمن ابني الشيخ محمد الحوت اللذين ذاع صيتهما في هذا البلد واشتهرا بالفضل والزهد. والشيخين عمر البربير وأخوه إبراهيم والشيخ عبد الرحمن النحاس الذي تولى نقابة الأشراف والحاج حسين بيهم الأديب والشاعر المعروف، والشيخ قاسم أبا الحسن الكستي والد الشيخ محمد الكستي الذي تولى منصب قاضي القضاة في بيروت وهو آخر من تولى هذا المنصب.

ومن الذين درسوا على الشيخين المذكورين محمد بك السجعان (الصقعان) الذي اشتهر بالفروسية وتولى المناصب الحكومية وكان في نفس الوقت شاعراً مجيداً وفارساً صنديداً وهو من آل الأنسي الذين منهم أيضاً عمر الأنسي صاحب «ديوان المورد العذب». ومنهم الشيخ إبراهيم الأحدب (الطرابلسي) وكان من الشعراء المشهورين، والشيخ محيي الدين اليافي الذي قدم من دمشق الشام وزاول التدريس في الجامع العمري الكبير، والشيخ يوسف الأسير (الصيداوي) والشيخ حسين الغزي من غزة بفلسطين - ردها اللّه للعروبة والإسلام - والشيخ عبد القادر الشريف من خليل الرحمن بفلسطين أيضاً جد صديقنا وزميلنا في الدراسة والطلب الشيخ محمد هاشم الشريف رحمه اللّه... وغيرهم.

أول مدرسة أهلية إسلامية عصرية

ذكرنا من قبل أن التعليم في المدارس على الطريقة العصرية بدأ على يد الإرساليات الأجنبية التي كان همّ رجالها الأول التبشير الديني عن طريق التعليم. وتبعهم بعد ذلك بعض النصارى المحليين الذين أنشأوا المدارس الخاصة بهم، ثم قفّى على آثارهم الولاة العثمانيون الذين افتتحوا المدارس الرشدية والإعدادية لتخريج المؤهلين لخدمة الجيش أو الدوائر الحكومية. أما المسلمون البيروتيون فلم يبدأوا بفتح المدارس على الطريقة العصرية إلا في أواسط القرن الماضي، وكان ذلك بهمة الشيخين محمد الحوت وعبد الله خالد، والذي حمل هذين الشيخين الفاضلين على التفكير بإنشاء المدارس بمفهومها الحديث وعدم الاكتفاء بالتدريس في المساجد أن بعض أبناء العائلات العريقة جاء إلى الشيخ عبد الله خالد ولفت نظره إلى خطر وقوع أولادهم تحت تأثير المبشرين في المدارس الأجنبية الذين كانوا يستغلون وجود هؤلاء الأولاد في مدارسهم لتحويلهم عن الديانة الإسلامية إلى الديانة النصرانية، وبعد أن استمع الشيخ المذكور إلى هذه الملاحظة بحضور بعض زملائه العلماء استصحب عدداً من هؤلاء العلماء ودخل بهم على والي الإيالة ولفتوا نظره إلى هذا الأمر وما يتولد عنه من سوء المغبة والخطر على دين الناشئة المسلمين، فاهتم الوالي بما سمع واتصل باسطمبول طالباً الترخيص لمسلمي بيروت بتأسيس مدرسة يتعلم فيها أبناؤهم ويستغنون عن المدارس الأجنبية. فاستجابت اسطمبول لهذا الطلب، وعلى الأثر عمد الشيخ عبد الله خالد إلى اختيار جامع النوفرة لهذا الغرض واتخذ من بعض الغرف الواقعة في الجهة الشرقية من هذا الجامع مكاناً للمدرسة التي كانت الأولى من نوعها عند مسلمين بيروت. وكان ذلك في أواسط القرن الماضي. وما تزال الغرف التي استعملت للتدريس باقية في مكانها القديم ويقع تحتها قبر الأمير ملحم بن شهاب الذي توفي ببيروت سنة ١١٧٥ هـ (١٧٦١ م) وقبر أخيه الأمير منصور اللذين توليا حكم بيروت على التعاقب.

ويقول الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله إن جهود الشيخ عبد الله خالد وإخوانه العلماء لم تسفر عن فتح مدرسة جامع النوفرة وحسب، بل إن هذه الجهود أسفرت كذلك عن مبادرة الحكومة العثمانية إلى فتح المدرسة الرشدية أيضاً وقد أتينا على ذكر هذه المدرسة من قبل.

أوائل المعلمين الذين تولوا التدريس في هذه المدرسة

إن الجهود التي قدمها في حقل التعليم المسجدي الشيخان محمد الحوت وعبد الله خالد قد أعطت ثمارها إذ هيأت للبلد مجموعة من الأساتذة الذين كانوا نواة للتعليم في مدرسة جامع النوفرة وهي المدرسة التي حضنت ناشئة المسلمين في بيروت وحصنتهم من الوقوع في شرك الإرساليات الأجنبية التي كانت تتخذ من مدارسها ذريعة لغسل أدمغة هؤلاء الناشئة من دينهم وتاريخهم وتراثهم الوطني. وكان الرعيل الأول من المعلمين الذين تعلموا في المدرسة الشيخ عبد الباسط الفاخوري والشيخ عبد الرحمن الحوت والشاعر عمر الأنسي والشيخ عمر خالد، واشتمل التعليم آنئذ على القرآن الكريم حفظاً وتلاوة وتجويداً وعلى اللغة العربية كتابة وقراءة مع ما يتصل بها من مواد الصرف

والنحو وعلوم العروض والقوافي وكذلك مواد الحساب والجغرافية والتاريخ.

نصراني يشارك علماء المسلمين في مجالس العلم

بالرغم من التناقضات الطائفية التي كانت تعيشها بيروت خلال الفترة التي شهدت ولادة مدرسة جامع النوفرة، فإن التلاقي بين علماء ذلك الزمان كان مستمراً لا سيما في مجالات المساجلات اللغوية والأدبية، وإن المدرسة المذكورة بالذات كانت من مراكز هذا التلاقي الفكري الذي كان يتجاوز الاعتبارات الطائفية، وينفتح فيه العلماء والأدباء بعضهم على بعض بالرغم من الفوارق الدينية فيما بينهم، من ذلك ما ذكرته مجلة المشرق اليسوعية في عددها الصادر سنة ١٨٩٩ الذي تضمن مقالاً بقلم الأب لويس شيخو عنوانه «المعلم إلياس إده الشاعر» قال فيه: «.. وكان المعلم إلياس إده رجلاً كثير الفهم محنكاً بالأمور، محبوباً من الخاص والعام، وكان إذا قدم بيروت يخرج جموع من أهل البلدة لاستقباله. وكان علماء المسلمين يأنسون إلى حديثه وأفردوا له موضعاً بقرب جامع النوفرة ليتباحثوا معه بالعلوم ويتناشدوا الأشعار».

نقول: والمعلم الياس إده كان من موظفي حكومة أحمد باشا الجزار، ولكن هذا تغير عليه حتى اضطره للهرب منه إلى جبل الدروز (أي جبل لبنان في هذه الأيام) وبعد وفاة الجزار عمل كاتباً عند الأمراء سليم وحسين وسعد الدين أولاد الأمير يوسف شهاب. وقد وصفه الأمير حيدر أحمد شهاب في كتابه «تاريخ أحمد باشا الجزار» الذي نشره الأب انطونيوس شبلي اللبناني والأب أغناطيوس عبده خليفة حيث قال «الحاج الياس إده الذي كان كاتباً بارعاً محنكاً بالسياسة».

مصير هذه المدرسة

ما زالت الغرف التي كانت تتألف منها هذه المدرسة موجودة في مكانها لم يطرأ عليها أي تغيير عما كانت عليه عند بنائها قديماً. وهي تقع في الناحية الشرقية الشمالية من الجامع ويصعد إليها بسلم من الحجر على ارتفاع نحو المتر من أرض صحن الجامع. وقد صنفت الحكومة جامع النوفرة ومعه هذه الغرف في جملة المباني الأثرية التي لا يجوز هدمها أو تغيير معالمها القديمة. وإن الأستاذ مختار خالد رحمه اللّه ابن الشيخ محمد توفيق خالد مفتي لبنان الأسبق قال لي بأن الأمير موريس شهاب، المدير العام للآثار اللبنانية كان يمازحه ويقول له «إن عمامة جدي مدفونة في تراب هذا الجامع». ومن يدري فلربما كانت هذه العمامة التي دفن صاحبها الأمير الشهابي في تراب المكان الذي أقيمت عليه المدرسة سبباً في حماية هذا المكان من معاول التهديم حتى الآن!.

بقي علينا القول بأن مدرسة جامع النوفرة تعطلت فيها الدراسة بعد أن تكاثرت المدارس الأهلية التي أسسها المسلمون في بيروت وتحولت غرف هذه المدرسة في السنوات الماضية إلى مركز للشيخ عبد الرحمن سلام الذي كان يتولى منصب أمين الفتوى في أيام المفتي الشيخ محمد توفيق خالد، إلا أن الشيخ عبد الرحمن سلام عندما تقدمت به السن وأصبح يتعب من ارتقاء سلم الجامع تركها. وفي المدة الأخيرة كان الشيخ محيي الدين دوغان رحمه الله يجلس في هذه الغرف ويعلم بعض تجار السوق قراءة القرآن الكريم وتجويده، ثم تحولت الغرف إلى مسكن يقيم فيه سادن الجامع وهي على هذه الحال إلى الآن. وكانت وفاة الشيخ محيي الدين دوغان سنة ١٣٩٥ هـ (١٩٧٥ م) وهو آخر من عرفنا في أيامنا من المدرسين في جامع النوفرة الذي يسمى اليوم جامع الأمير منذر.

جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية

إن المدرسة التي أُسست في جامع النوفرة قد حركت همم المسلمين من أجل تطوير المؤسسات التعليمية في بيروت ودفعها للّحاق بالمستوى الذي بلغته مدارس النصارى الأجنبية منها والأهلية. وقد شعر المسلمون في ذلك الوقت بحاجتهم إلى المزيد من المدارس نظراً لنمو عددهم في هذه المدينة، ولما كانوا يرونه من أن بقية مواطنيهم من الطوائف الأخرى سائرون في تحسين مدارسهم القديمة واستحداث مدارس جديدة مثل الثلاثة أقمار لطائفة الروم الأرثوذكس والبطريركية للروم الكاثوليك والحكمة للموارنة. وإلى هذا المعنى أشار البيان الأول لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت الذي صدر سنة ١٢٩٧ هـ بعنوان «الفجر الصادق» حيث يقول بعد التنويه بأعمال المدارس غير الإسلامية:

«.. أما الطائفة الإسلامية فإنها كانت غافلة عن ذلك نحو خمس عشرة سنة مقتصرة من المدارس على بعض زوايا مهجورة مملوءة بالعفونة والرطوبة مما يضر بصحة الأولاد العمومية، ومن المعلمين على المشايخ العميان الذين لا ننكر فضلهم لأنهم قاموا بواجباتهم على قدر استطاعتهم، ومن الأطباء على أناس من الحلاقين والحجّامين. وبقيت - أي الطائفة الإسلامية - محرومة من الفوائد التامة بالمدارس الملقبة بالعمومية لأن مبادىء تعليمها لا توافق المشرب الإسلامي من وجوه معلومة، كيف لا وقد يشترط في بعضها على التلامذة الخضوع لدين المدرسة.. الخ».

مقال في جريدة تركية حرك الهمم

إن الوضع الإسلامي الذي تحدث عنه «الفجر الصادق» كان

في الواقع استمراراً للحالة التي كان فيها المسلمون آنذاك. وقد حدث أن جريدة «البصير» التركية التي كانت تتمتع بمكانة عالية في اسطمبول نشرت فصلاً ذكرت فيه تقدم بيروت العلمي والأدبي وأسفت على أنه ليس للمسلمين نصيب منه، فلما اطّلع المسلمون في بيروت على هذه الجريدة وقرأوا ما كتبته عن تخلف مجتمعهم وتقدم غيرهم، قالت جريدة «ثمرات الفنون»:

«من المعلوم عند كثيرين أن الجرائد لا سيما الجرائد التركية أنّبت وندّدت بالأمة الإسلامية في سورية عموماً وفي بيروت خصوصاً. . لتقاعد الهمم وغير أمور لا يحسن ذكرها، فحركت الغيرة والحمية وقتئذ جناب المرحوم الحاج سعد الله أفندي حمادة، من أعيان بلدتنا بيروت، وكان رئيساً لمحكمة التجارة، وتباحث مع بعض إخوانه ممن يتوسم فيهم الغيرة على المصلحة العامة ودعاهم إلى عقد اجتماع في بيته (بزقاق البلاط) وفي هذا الاجتماع اتفق الحاضرون على تأليف جمعية باسم «جمعية الفنون» أعضاؤها عشرة جعلوا رئاستها للعالم الشاعر الشيخ يوسف الأسير ونظارتها لصاحب الفكرة الحاج سعد الله. وموضوع هذه الجمعية «نشر المعارف وعمل البر» عن طريق إنشاء مطبعة وإصدار جريدة وفتح المدارس المتطورة وفقاً لمقتضيات العصر الحديث. وما أن خرج المشروع من النظرية إلى التطبيق فاشتريت المطبعة وصدر العدد الأول من الجريدة باسم «ثمرات الفنون» في منتصف شعبان ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) حتى دهم المرض الحاج سعد الله حمادة وعاجلته المنية فأصيبت الجمعية بالشلل مما أدّى إلى انفراط عقدها. فقام الشيخ عبد القادر بشراء ممتلكاتها من المطبعة والجريدة وداوم على إصدار الجريدة تعاوناً مع العالم الطرابلسي الشيخ إبراهيم الأحدب الذي تولى تحريرها وتصحيحها.

عودة جمعية الفنون باسم «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية»

في سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) كانت مدينة بيروت ما تزال متصرفية تابعة لولاية دمشق حين أصدرت حكومة اسطمبول فرماناً شاهانياً بتعيين مدحت باشا والياً على ولاية دمشق ورائف بك أفندي متصرفاً على متصرفية بيروت، وكان هذا الإجراء الإداري من حسن حظ بيروت بصورة خاصة ذلك أن مدحت باشا ورائف بك أفندي كانا من أنصار الأفكار الحديثة ومن الغيارى على نشر المعرفة وإشاعة التعليم في البلاد. ومدحت باشا بالذات اشتهر بلقب أبي الدستور لأنه كان وراء الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني في أوائل عهده بعرش الخلافة والسلطنة. . وكان في بيروت يومئذٍ نائب أي قاضٍ اسمه الشيخ عبد الله جمال الدين وهذا الأخير لم يكن يختلف عن الوالي والمتصرف من حيث نزعته الإصلاحية وتطلعاته التعليمية، وهكذا تعاون الجميع على إعادة الروح إلى جمعية الفنون ولكن باسم جديد وهو «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية».

بدأت جمعية «المقاصد الخيرية الإسلامية» رحلتها التعليمية في العمر الطويل إن شاء الله ليلة غرة شعبان المعظم سنة ١٢٩٥ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل التحية عندما اجتمع من أعيان بيروت خمسة عشر شخصاً في بيت الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله «واتحدت الهمم الشبانية في بيروت على تأليف جمعية إسلامية خيرية فتم ذلك بالمساعدات الإلٰهية». . . هذا ما جاء في نشرة «الفجر الصادق» لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت ـ أعمال السنة الأولى طبع بمطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٧ هـ. وهنا نترك «الفجر الصادق» يروي لنا حكاية الجمعية التي بدأت بمدرسة واحدة تضم نحو مائة طالبة وأصبحت اليوم مسؤولة عن عشرات المدارس التي تضم عشرات الألوف من الطلاب والطالبات في جميع أنحاء لبنان بهمة الرجال الذين تولوا مسؤولية رئاستها منذ تأسيسها حتى اليوم. قالت «الفجر الصادق»:

«اجتمعنا نحن أعضاءها العجزة في منزل أحدنا السيد عبد القادر قباني وهنالك تلا علينا أحدنا الشيخ سعيد الجندي الأحاديث الشريفة النبوية الآمرة بلزوم الاتحاد لخدمة الأمور الخيرية فتعاهدنا على ذلك ووضع كل منا ما ألهمه الله به من النقود رأس مال لصندوقها وكتبنا لها تعليمات على شكل قانون لترتيب داخليتها واجتماعها ومذاكراتها وربط أمورها (أي النظام الداخلي للجمعية). وأُمضيَ منا بعد التعهد بإنفاذه ومراعاته وقدمنا بذلك عريضة لجانب الحكومة السَّنِيَّة واستدعينا مساعداتها ليحيط بعلمنا الخيري، كما أننا بادرنا لطبع تلك التعليمات وعرضها على الحكومة والأمة. وبعد القبول والاتكال على الله سبحانه وتعالى يُسِّر الخير وباشرنا الأعمال. . . الخ».

وما أن اكتسبت الجمعية الصفة القانونية حتى تألفت لجنة من أعيان البلد وعلمائها ضمت القاضي عبد الله جمال الدين والمفتي الشيخ محمد المفتي (حفيد الشيخ عبد اللطيف فتح الله الملقب بالمفتي) وتقدمت هذه اللجنة بـ «مضبطة» طالبت فيها بأن تعطى الجمعية الأوقاف التي يصرف ريعها على قراءة القرآن (عن أرواح المتوفين) وأموال الصدقة وإطعام الفقراء (أي الأوقاف غير المضبوطة) وما كان شرط واقفها لغير هذه الجهات يبقى على حاله.

وكان لهذه المبادرة النافعة صداها المستحب لدى الجمهور الذي عبرت عنه جريدة «ثمرات الفنون» في عددها الصادر يوم الاثنين ١٣ رمضان من نفس السنة أي ١٢٩٥ هـ الموافق في ٩ أيلول ١٨٧٨ م حيث قالت:

«. . قد سرنا أنا حصلنا على ما تمنيناه عند أبناء الطائفة الإسلامية في بيروت وذلك أنه تألفت جمعية من خمسة عشر «شابًا» من الأهالي انتخب منهم الرئيس وأمين الصندوق والكاتب وقد وُسمت بجمعية المقاصد الخيرية وموضوعها تفقد أحوال الفقراء بحسب الاقتدار وإيجاد مدارس للذكور والإناث بما يكون به سداد من عِوَز، وكل أمر خير دون المداخلة في الأمور السياسية. . وقد شاهدنا الغيرة التامة من هيأة هذه الجمعية بما يتعلق بأمورها فنثني على غيرتهم كما تشكر ممَّن يمد يد الإسعاف لمساعدتها إذ كانت غايتها النفع العمومي لا غير.»ا. هـ.

الأعيان والعلماء الذين أسسوا الجمعية

من حق الوفاء على المسلمين في بيروت أن يتذكروا أولئك الرعيل الذين كان لهم فضل السابقة في تأسيس «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» التي تضم تحت جناحها الوارف بالعلم والفكر والثقافة في أيامنا الآلاف من فلذات أكبادنا وشبابنا الناهض، ولذلك فإننا نسجل هنا أسماء هذا الرعيل الكريم ونقرأ على أرواحهم الطاهرة سورة الفاتحة لاستمطار شآبيب الرحمة والرضوان عليهم وهم من العائلات البيروتية العريقة التي ما زال أبناؤها في هذا البلد الذي يشغل فيه بعضهم المراكز المرموقة في الحياة الاجتماعية والعلمية والتجارية والسياسية. وهذي هي أسماؤهم كما وردت في نشرة «الفجر الصادق» التي أصدرتها الجمعية عن أعمالها في السنة الأولى من تأسيسها:

أحمد بدران، الشيخ أحمد عباس، حسن بيهم، الحاج حسن الطرابلسي، خضر الحص، راغب عز الدين، رسلان دمشقية، الشيخ سعيد الجندي، سعيد طربيه، سليم رمضان، الشيخ عبد القادر القباني، عبد الرحمن النعماني، عبد البديع اليافي، عبد اللطيف حمادة، عبد الله الغزاوي، عبد القادر سنو، محمد هاشم الجمال، مصطفى شبارو، محمد أبو سليم المغربل، الشيخ محمد الفاخوري، محمد بشير البربير. وهذي هي الجهات الوقفية التي شرطها واقفوها على البرّ والخيرات وسلِّمت للجمعية بمصادقة السلطات المسؤولة في اسطمبول:

وقف الجبانات، وقف التكية، وقف جل التين، وقف المرحومة فاطمة بنت المرحوم عبد القادر الجبيلي، وقف المرحومة الحاجة بدرة بنت المرحوم عبد القادر الجبيلي، وقف المرحوم الحاج محمد آغا الطرابلسي، وقف المرحومين بني الطيارة والحص، وقف المرحومين بني نجا وقريطم، وقف الشمع، أوقاف قفة الخبز، وقف المرحومة الحاجة طاهرة، وقف المرحوم يوسف حمود، وقف المرحوم حيدر آغا، وقف سبيل السراج، وقف المرحوم الحاج مصطفى الحلواني، وقف المرحوم أمين آغا رمضان، وقف سبيل السنطية، وقف المرحومة الحاجة كباسية، وقف والدة بديع أفندي اليافي، وقف سبيل المرحوم محمود بك، وقف المرحوم حسين آغا الكريدلي، وقف المرحوم الحاج حسن منيمنة، وقف السبيل الذي أمام جامع الكبير العمري، وقف دكانتين مجهول واقفهما تحت يد عبد السلام قرنفل، وقف قطعة أرض في رأس النبع.

ويضاف إلى ما تقدم أوقاف تبرع بها بعض المحسنين في ذلك الحين وهي التالية: دكان كائنة في باب الحكومة (السراي الكبير) وجُعل ريع هذه الدكان لتغطية نفقات جلب الماء لجامع الأشرفية الذي أنشأته الجمعية (حل محله جامع علم الشرق) هذا الوقف قدمته السيدة عائشة بنت المرحوم الحاج مصطفى آغا القباني وأضافت إليه مبلغ مائة غرش تدفع للجمعية كل سنة من ريع وقف آخر وهو بيت لها كان قرب المدرسة الرشدية في محلة الباشورة (مدرسة البنات اليوم).

وجميع هذه الأوقاف كانت واقعة في القطاع التجاري من بيروت الحالية التي كانت «بيروت القديمة». ومن سوء الحظ أننا نجهل المواطن التي كانت تقع فيها بعد أن تغيرت معالم بيروت أكثر من مرة بسبب التخطيط أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم بسبب الطرقات التي شقت في عهد الانتداب الفرنسي. وأخيراً جاءت الحرب الأهلية الحالية على ما تبقى من تلك المعالم بعد أن أصبحت «المَدِينة» أي بيروت القديمة مجموعة من الأنقاض والركام والأوساخ والنفايات.

رئيس وأعضاء الجمعية في المرحلة التأسيسية الأولى

حدد القانون الأساسي للجمعية عدد أعضاء مجلسها الإداري بـ ٢٤ عضواً غير الرئيس، وفيما يلي أسماء الرئيس والأعضاء الذين تولوا شؤون الجمعية في سنتها الأولى:

الرئيس ـ الشيخ عبد القادر القباني

الأعضاء ـ أحمد دريان، بشير البربير، بديع اليافي، حسن بيهم، حسن الطرابلسي، حسن محرم، خضر الحص، راغب عز الدين، سعيد الجندي، سعيد طربيه، طَه النصولي، عبد الله الغزاوي، عبد القادر سنو، عبد اللطيف حمادة، عبد الرحمن الناعماني، محمود خرما، محمد ديَّة، محمود رمضان، مصطفى شبارو، محمد الفاخوري، محمد اللبابيدي، مصباح محرم، محمد أبو سليم المغربل، هاشم الجمَّال.

المدرسة الأولى(للإناث)

وجه أعضاء الجمعية اهتمامهم بالدرجة الأولى إلى الإناث من ناشئة المسلمين لاعتقادهم بأن إعدادهن في حدود المبادىء الدينية الإسلامية والثقافة العربية من شأنه حفظ العائلة المسلمة في بيئة صالحة تؤمن للمجتمع الإسلامي انطلاقه منذ البداية في الطريق الصحيح عبر الأم التي تتمتع بعقيدة سليمة واخلاق قويمة. وفي هذا المعنى جاء في «الفجر الصادق» البيان الأول للجمعية «.. فأخذنا في أول الأمر نبحث عن الأشد لزوماً لطائفتنا فوجدنا أن أحسن وسيلة لنشر المعارف هو تعليم الإناث منها طرق التربية وما يحتجن إليه من العلوم والصنائع إذ هنّ المربيات الأُوَل وعلى تقدمهن المعول، فتذاكرنا بافتتاح مدرسة لهن..»

كانت هذه المدرسة تقع في المكاتب الموجودة في الزاوية الجنوبية الشرقية من جبانة السنطية التي شغلتها فيما بعد جريدة «البلاغ» لصاحبها محمد الباقر. وقد ابتدأ التعليم فيها بست معلمات ومدرّسة واحدة مع خادم وبواب. واشتمل برنامجها على المواد التالية: القراءة البسيطة، والقرآن الشريف، والعقائد، والتوحيد، وتهذيب الأخلاق، والآداب، والكتابة، والحساب. وذلك كما جاء في «الفجر الصادق»الصادر عن الجمعية في ذلك الحين.

المدرسة الثانية(للذكور)

ولما رأت الحكومة العثمانية نجاح الجمعية في مشروعها التعليمي الأول بادرت إلى مد يد المساعدة إليها لتتابع رسالتها في هذا الحقل المفيد الأمر الذي مكنها من افتتاح مدرسة ثانية خصصتها للذكور. وكانت هذه المدرسة تقع في سوق البازركان حيث توجد اليوم الحديقة الصغيرة تجاه جامع النوفرة وقد استعملت فيما بعد مكاتب للجمعية قبل انتقالها إلى البناية التي تشغلها اليوم تجاه مدرسة الشيخ عباس القديمة (في طلعة شحادة).

وقد ابتدأ التعليم في هذه المدرسة بثلاثة معلمين ومدرّسة واحدة مع خادم وكان عدد تلامذتها ١١٨ تلميذاً يتعلمون فيها المواد التالية: القراءة البسيطة، والقرآن الكريم، والعقائد، والتوحيد، والكتابة، والحساب، والصرف والنحو، وتهذيب الأخلاق والآداب..

أول بعثة أرسلتها الجمعية للتخصص في الخارج

وفي مدة قصيرة نجحت الجمعية في حمل الحكومة على الأعتراف بشهادة مدارسها وقبول طلابها في المدارس الحكومية العالية. ونالت من الحكومة منحاً دراسية لخمسة من طلابها النابهين أرسلتهم للتخصص في العلوم الطبية بمدرسة قصر العيني في القاهرة.

النكسة الأولى للجمعية

انطلقت جمعية المقاصد باسم الله مجراها ومرساها تحوطها عناية الله تعالى الذي قيّض لها في مدحت باشا والي سورية خير مؤازر في مسيرتها التعليمية، إلا أن رياح اسطمبول جاءت بما لا تشتهي سفن هذه الجمعية، إذ أن السلطان عبد الحميد الثاني تغير على هذا الوالي لأسباب سياسية وأصدر إرادته السنية بعزله من الولاية السورية ونقله إلى ولاية إزمير ومنها نفاه إلى مدينة الطائف بالحجاز. ويقال إنه أرسل إليه هناك من أزهق روحه بالضغط على خصيتيه. وبموت مدحت باشا فقدت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ناصرها الرئيسي وبدأت بالتراجع الذي وصل بها إلى حد صدور الأمر بحلها وإلحاقها بالدولة تحت اسم«شعبة المعارف» بدلاً من اسمها الذي وضع لها عند تأسيسها لأول مرة.

ومما ساعد على هذا التحول الجذري في وضع الجمعية أن الدولة عينت شخصاً اسمه نعيم أفندي باسم ناظر الأوقاف(وهو لقب عمال الأوقاف في الولايات ثم أُبدل باسم محاسبجي ثم باسم مأمور ثم مدير كما هو اليوم) وكان هذا الشخص يمتّ بصلة القربى إلى شيخ الإسلام، فأخذ يناوىء الجمعية ويستغل منصبه للتصرف الكيفي بأوقافها والأوقاف الأخرى التي كانت تحت نظارته مستهدفاً القضاء على هذا المشروع الإسلامي النافع، لولا أن الله حال بينه وبين غايته عن طريق أحمد حمدي باشا الذي تعين والياً في دمشق محل مدحت باشا. وكان هذا الوالي مطلعاً على نشاط الجمعية المشكور في خدمتها للمسلمين فرأى قطعاً لدابر الوشايات أن يلغي اسمها التأسيسي وتسميتها «شعبة المعارف» وإبقاء رئاستها للقاضي جمال الدين وإسناد نيابة الرياسة إلى واحد من أبناء البلد مع إبقاء أعضائها أعضاء في الشعبة الجديدة. وفيما يلي نص القرار الذي أصدره الوالي بتحويل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت إلى « شعبة المعارف» وأسماء أعضاء اللجنة التي ألفت يومئذ لإدارة الجمعية ونشاطاتها التعليمية. وقد نشرت جريدة « ثمرات الفنون» في عددها الصادر يوم ١٦ محرم ١٣٠٠هـ(٢٧ تشرين الثاني ١٨٨٢م) هذا القرار كما يلي:

«صدر أمر حضرة ملجأ الولاية الأفخم أن يشكل في بيروت شعبة لمجلس المعارف تقوم مقام الجمعية الخيرية الإسلامية وفوّض بحسب النظام الجديد رياستها الأولى لحضرة صاحب

الفضيلة السيد عبدالله جمال الدين أفندي نائب بيروت، وانتخب أبهته إلى رياستها الثانية عزتلو محيي الدين أفندي حماده والى أعضائها كل من: عزتلو عبد القادر أفندي الدنا، وفضيلتلو الشيخ سعيد أفندي الجندي، وعزتلو عبد القادر أفندي القباني، وأصحاب الرفعة محمد أفندي بيهم، ومصباح أفندي محرم، ومحمود أفندي رمضان وصاحب المكرمة رشيد أفندي الفاخوري، والشيخ محيي الدين أفندي طبارة، والحاج محمد المغربل، وحسن أفندي بيهم، وعزتلو حسن أفندي محرم، ورفعتلو محمود أفندي الخوجا، ومكرمتلو أحمد أفندي القباني، ورفعلتو بشير أفندي البربير، والحاج حسن أفندي الطرابلسي».

إنشاء المدرسة السلطانية

في تلك الفترة تنفست الجمعية الصعداء واستأنفت جهودها في نشر العلم وقد توجت هذه الجهود بافتتاح المدرسة السلطانية القائمة في محلة قبر الوالي، (وهي اليوم «كلية النبات» التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت) يوم الجمعة ٦جمادى الثانية ١٣٠٠هـ الموافق في ١٠ نيسان ١٨٨٣م. وكما تقول جريدة «ثمرات الفنون» الصادرة ببيروت في ذلك الوقت. «.. فقيض اللّه تعالى لها ـ وللّه الحمد والشكر ـ من مدّ لها يد العناية والإسعاف وهو صاحب الأُبهة أحمد حمدي باشا، والينا الأفخم، فتقرر إنشاؤها في محل المكتب (أي المدرسة باصطلاحنا اليوم) السلطاني حيث كان الموقع قريباً مرتفعاً بني لهذا المقصد الحسن.. فأخذت شعبة المعارف وفي مقدمتها فضيلتلو العالم العلامة السيد عبد اللّه جمال الدين أفندي نائب بيروت رئيس الشعبة الأولى في إعداد اللوازم والأدوات. وجرى الاحتفال بافتتاح هذه المدرسة بحضور متصرف بيروت ومأموري العسكرية والملكية والعلماء ووجوه البلد من جميع الطوائف، فتليت الخطب الفائقة من العربية والتركية والفرنسية بما يناسب الموضوع ويحضّ على تحصيل المعارف واللغات. وكانت الخطبة الأولى للشيخ أحمد عباس الأزهري، وكان هذا الشيخ العلامة من بين المولّجين بإعطاء الدروس في المدرسة آنذاك.

وكانت خاتمة الاحتفال قصيدة ألقاها الشيخ إبراهيم الأحدب أنهاها ببيت من الشعر التأريخي قال فيه:

بها نيسان جاء ربيع خير   بدت بالسعد أرّخ فيه غرّة
١٣٠٠

وقد حضر حفلة الافتتاح نصوحي بك أفندي متصرف بيروت آنذاك وكبار الموظفين العسكريين والمدنيين وأعيان البلد من مختلف الطوائف. وكان لافتتاح هذه المدرسة في ذلك الحين صدى ارتياح وأمل كبير، ورنة من الفرح الشعبي العميم.

النكسة الثانية

مرة أخرى تأثرت الجمعية عندما نقل المتصرف نصوحي بك أفندي والقاضي عبدالله جمال الدين إذ أن نعيم أفندي الذي بقي مأموراً للأوقاف الإسلامية استأنف دسائسه ضدها وتمكن من إقناع المسؤولين بأن يستبدلوا بأعضائها أشخاصاً آخرين وأُبعد الأعضاء السابقون إلى وظائف خارج بيروت، فنقل حسن محرم من رئاسة كتّاب مجلس إدارة المتصرفية إلى وظيفة قائمقام طول كرم بفلسطين ـ ردها اللّه للعروبة والإسلام ـ والشيخ سعيد الجندي المدعي العام لدى محكمة بيروت لمثل وظيفته في محكمة حماة، ومحمود رمضان من كتّاب الديون العمومية إلى رئاسة الديون العمومية في طرابلس الغرب (ليبيا) وأحمد دريان معاون ترجمان المتصرفية إلى وظيفة مستنطق في حلب، ومحمد مصباح محرم رئيس كتّاب محكمة بداية بيروت عيّن مدعياً عاماً في القدس، وكانت القدس آنذاك مرتبطة من الوجهة القضائية بسورية، وكلف الشيخ عبد القادر القباني بوظيفة قائمقام صور ولكنه اعتذر واستقال من عضوية الشعبة.

وفيما يلي تفصيل هذا التبديل والتغيير والأسباب التي تذرعت بها الدولة لتبرير تصرفها كما ورد في جريدة« ثمرات الفنون» الصادرة في ٢٨ رمضان ١٣٠١هـ (تموز ١٨٨٤م) قالت الجريدة: «.. بناء على ما بلغ أبهة الوالي الأفخم من وجود اختلاف بين أعضاء شعبة المعارف، اصدر أمره الكريم أن تكون في حكم الملغاة وأن يصير تشكيلها بقالب آخر مع تحديد وظائفها وصلاحيتها، بعد أن جرى انتخاب الأعضاء للشعبة وجرى تصديق أبهته أصدرت التذاكر(المذكرات او القرارات) من سعادة متصرف بيروت الأكرم(نصوحي بك أفندي) بتعيين الأفنديّة الآتي بيان أسمائهم أعضاء لشعبة معارف بيروت وهم: فضيلتلو مفتي أفندي(الشيخ عبد الباسط الفاخوري)، سعادتلو أحمد عزت بك أفندي العابد، عزتلو عمر أفندي الغزاوي، عزتلو عبد القادر أفندي الدنا، عزتلو الأمير مصطفى أرسلان، عزتلو عبد القادر أفندي القباني، عزتلو حسن أفندي بيهم، رفعتلو محرم بك(مصباح أفندي)، رفعتلو مصطفى بك (مدير المكتب العسكري الرشدي). والوجاء: الحاج إبراهيم أفندي الطيارة، محمود أفندي درويش، ومحمود أفندي الخوجا، ومحمود افندي رمضان، وبديع أفندي اليافي، وعثمان أفندي بيهم، وأحمد أفندي دريان، والشيخ طَه النصولي وأبو سليم أفندي المغربل..»

المدرسة السلطانية في عهدها الأول

بدأت المدرسة السلطانية عهدها الأول في عهدة نخبة فاضلة من العلماء الذين كانوا طليعة النهضة العلمية الإسلامية في بيروت، فلقد أُسندت إدارتها للشيخ حسين الجسر علامة زمانه((والد العلامة الشيخ عبد اللّه النديم الجسر مفتي طرابلس والشمال ووالد شقيقه الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس النواب اللبناني في عهد الانتداب الفرنسي) وعين الشيخ أحمد عباس الأزهري ناظراً للسلوك مع التدريس فيها (وقد تركها فيما بعد وتولى رئاسة الكلية العثمانية ثم الإسلامية التي أسسها بالتعاون مع الشيخ عبد القادر القباني الذي تولى تمويلها عند البداية).

الإمام الشيخ محمد عبده بالمدرسة السلطانية

في سنة ١٨٨٢م قام الجيش المصري بمحاولة انقلاب ضد الخديوي محمد توفيق باشا قادها ضابط اسمه أحمد عرابي باشا واتُّهم الإمام الشيخ محمد عبده وبعض العلماء والأعيان بالتحريض على هذه المحاولة التي باءت بالفشل وأدت إلى احتلال الجيش الإنكليزي لمصر بحجة حماية السراي الخديوية ومحاكمة أصحاب هذه المحاولة من العسكريين والمدنيين ورجال الدين والحكم عليهم بعقوبات مختلفة. وكان نصيب الإمام الشيخ محمد عبده الحكم عليه بالنفي خارج القطر المصري والإقامة الجبرية في ولاية بيروت. قال عبد الباسط فتح الله(والد المرحوم مصطفى فتح الله وأخويه محمد وزهير) وهو يتحدث عن سيرة الأستاذ الإمام في بيروت: «.. ودَرَى بمقدم الأستاذ الإمام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فأقبلوا عليه فعمَّهم عبق فضله وبهرهم نور علمه. وإذ كانوا بحاجة إلى أستاذ يدرّس في «المدرسة السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلائم روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة، ذكروا له حاجتهم ورغبوا إليه أن يتسلى عن غربته بخدمة مليَّة هو أعرف الناس بجليل فائدتها، فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ. ولم يكن فيها من تلك العلوم إلا مبادىء النحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة. فوضع جدولاً جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والإنشاء والتاريخ الإسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي وذلك للصف الأول والثاني، حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الأيام ساعات النهار بتمامه».. وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكره في مقدمة «رسالة التوحيد» وأماليه يلقيها على الصفوف كلٌ بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وإن لم يعهد تداوله، ما عدا فقه المعاملات فإنه كان يقرأ فيه كتاب «مجلة الأحكام العدلية» التي كان يُحكم بموجبها في المحاكم العثمانية.

ثم إن الشيخ الإمام لما دخل المدرسة السلطانية أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله، يدخل مرؤوساً فيكون في الواقع رئيساً، كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه الذي ألّفه في سيرته. وأصلح هذا الإمام العلاَّمة إدارة المدرسة بالاتفاق مع مديرها الشيخ حسين أفندي الجسر (الطرابلسي) ووضع قانوناً جديداً للدروس. وكان يدرِّس مادة الإنشاء بنفسه ويكلف تلاميذ هذه المادة حفظ شيء من نهج البلاغة المنسوب للإمام علي بن أبي طالب، وديوان الحماسة للبحتري، وكتاب الألفاظ الكتابية ويشرح لهم ما فيها. ولما تفتقت أذهان التلاميذ وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسماً من إشارات ابن سينا وكتاب تهذيب المرام في تحرير المنطق والكلام.

أول محاضرة علمية أُلقيت في المدرسة السلطانية

وفي أثناء الإحتفال بنهاية السنة الدراسية قام أحد الحاضرين وطلب من الشيخ الإمام محمد عبده أن يحاضرهم في موضوع يختاره هو بنفسه ويلقيه عليهم ارتجالاً فاستجاب للحال وألقى في الحضور محاضرة قيمة بعنوان «علة تأخر الشرق مع وجود بعض الأسباب لتقدمه في الظاهر».

هذا، وكانت للإمام المذكور على المدرسة السلطانية غيرة كبيرة. وإذا اتفق له أن مرَّ بها ليلاً لا يغادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها- وكانت ذات نظام داخلي - حتى إنه، حرصاً منه على الإقامة بقربها، ترك منزله في «برج أبو حيدر» وسكن في منزل بالقرب منها في محلة «زقاق البلاط» وذلك ليسهل عليه التردد عليها كلما دعت الحاجة آناء الليل وأطراف النهار.

والطلاب الذين تخرّجوا من المدرسة السلطانية على يد الشيخ الإمام محمد عبده كانوا النواة التي تفتحت منها براعم النهضة الثقافية والقلمية في بيروت وآتت ثمارها الجنيَّة فيما بعد بسائر أنحاء لبنان.

جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في مطلع القرن الحالي

إن عمل الإمام الشيخ محمد عبده في المدرسة السلطانية لم يطل كثيراً لأنه تركها عندما سمحت له السلطات المصرية بالعودة إلى بلاده ومغادرة بيروت. وكان تركه لهذه المدرسة نذير اضطراب أمرها، وبداية الاختلاف بين العاملين فيها، وبين جماعة «العسكرية» في بيروت. وقدأدى هذا الوضع الجديد إلى استقالة الشيخ أحمد عباس الأزهري منها. وكان هذا الشيخ من أسباب قوتها، كما كانت استقالته من أسباب ضعفها. فلقد جاء

بعده من غيّر وبدّل في نظامها ومناهجها التعليمية، «فضلّت نهجها القويم وغايتها المثلى وغُلّت يد الجمعية عن العمل» وبعد فصل بيروت عن سورية سنة ١٨٨٨م وجعلها ولاية باسمها لعبت الأيدي «بشعبة المعارف» وبالجمعية نفسها التي تحولت إلى هيئة يقتصر عملها على إدارة العقارات الموقوفة عليها وإدارة المدرسة السلطانية لا أكثر ولا أقل.

واستمرت الجمعية شبه معطلة إلاّ من بعض الأعمال الإدارية العادية حتى إعلان المشروطية (الدستور) سنة ١٩٠٨م فلقد انتهزت الجمعية حالة الحرية التي وفرّها الدستور للبلاد العثمانية وقامت بإلغاء اسم «شعبة المعارف» وأعادت الاسم القديم وهو «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» وفي ذلك الوقت أُعيد تنظيم الجمعية من جديد وانتخبت ثلاث لجان لبعث نشاطها ودفعها إلى غايتها الأساسية التي أُنشئت من أجلها وهي التعليم والخدمات الاجتماعية للمحتاجين إليها من أبناء المسلمين في بيروت. وقد تألفت اللجان المذكورة على الوجه التالي كما جاء في جريدة الإقبال لصاحبها عبد الباسط الأنسي بتاريخ رمضان ١٣٢٦ هـ (تشرين الأول ١٩٠٨ م):

اللجنة الاولى: الشيخ عبد الرحمن الحوت، والشيخ محمد الكستي، والشيخ محيي الدين الخياط، وأحمد مختار بيهّم، وعمر الداعوق، وحسن طبارة.

اللجنة الثانية: الشيخ أحمد عباس، والشيخ رشيد الفاخوري، والشيخ عبد الباسط الأنسي، وسليم علي سلام، وعبد الحميد الغندور، وبدر دمشقية.

اللجنة الثالثة: الشيخ حسن المدوَّر، والشيخ أحمد حسن طبارة، والشيخ مصطفى الغلاييني ، وعمر نجا. إلا أن هذه اللجان الثلاث، بالرغم من أهمية أعضائها، فإنها أضاعت وقتها بالاختلافات التي استحكمت بهؤلاء الأعضاء نظراً لأفكارهم المتباينة ومشاربهم المتناقضة، على حدّ قول جريدة الإقبال الصادرة في ربيع الثاني ١٣٢٧(نيسان ١٩٠٩)، فاستقر الرأي على انتخاب أعضاء جدد للجمعية متفقي المشارب، على أن يكون الناظر فيها فضيلة المفتي الشيخ مصطفى نجا والرئيس فضيلة نقيب الاشراف الشيخ عبدالرحمن الحوت. وتقرر انتخاب الأعضاء الآتية أسماؤهم: الشيخ طَه النصولي، والشيخ عبد الباسط الأنسي، والشيخ محيي الدين الخياط، والشيخ محمد توفيق خالد، والشيخ عبد القادر القباني، وسليم البواب، وكامل علي سلام، وبدر دمشقية، وعمر الداعوق، وعمر نجا، ومحمد الفاخوري، وعثمان رمضان، ومحمد جميل بيهم، وراشد طبارة، وحسن طبارة، وعبد الحميد الغندور.

الجمعية في فترة الحرب العالمية الأولى

إن تبديل الأعضاء لم يغيّر من واقع الجمعية السيّء شيئاً لأنه صادف نشوب الحرب العالمية الأولى التي دامت أربع سنوات استقطبت خلالها كل النشاطات الأهلية والحكومية للأغراض العسكرية. وفي جملتها نشاط جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية بالذات. ولما وضعت الحرب أوزارها كانت المدارس التابعة لهذه الجمعية متروكة، وأدواتها مفقودة، وجلّ أوقافها مهدومة، وبعضها استملكته البلدية. والذي لم تستملكه البلدية كان مغلقاً لا يعطي أي ريع، وكان كل ما استطاعت محاسبة الجمعية حصره من أموالها مبلغ تسعماية وقرشين مصري وهي الديون المستحقة على بعض المستأجرين فقط ليس غير. (راجع بيان الجمعية الصادر سنة ١٣٣٧ - ١٣٣٨هـ).

انبعاث الجمعية في أعقاب الحرب المذكورة

عندما دخلت البلاد في حوزة الاحتلال الفرنسي تحركت الجمعية لالتقاط ما تبقى لها من أنفاس الحياة فلقد دعا الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت ذوي الشأن من العلماء والأعيان إلى داره وجرى في هذا الاجتماع انتخاب مكتب ومجلس إدارة للجمعية على النحو التالي: هيئة المكتب: الشيخ مصطفى نجاالرئيس، وسليم علي سلام، نائب الرئيس، وعبد الباسط فتح الله وكيل الإدارة، ومحمد عمر نجا الكاتب العام، وحسن قرنفل أمين الصندوق. أعضاء مجلس الإدارة: الشيخ أحمد عباس، وأمين بيهم، وحسن الأسير، والحاج رشيد اللاذقي، وراشد طبارة، والحاج سليم أحمد البواب، وشريف خرما، وعمر الداعوق، وعبد القادر القباني، وعبد الباسط الأنسي، وعبد الحميد الغندور، والشيخ محمد هاشم الشرْيف، والشيخ محمد عمر البربير، والحاج محمد ابراهيم الطيارة، ومحمد اللبابيدي، ومحمد الفاخوري، ومحمد حمادة، ومحمد المخزومي، ومحمد أبو الخير القصار، ونجيب العيتاني.

وقد أُطلق على هؤلاء يومئذٍ اسم: «مؤسسو النشأة الثانية للجمعية».

وقوف الجمعية على رجليها من جديد

قدمنا قبل حين أن خزينة الجمعية كانت في نهاية الحرب العالمية الأولى خالية الوفاض بادية الأنفاض إلا من تسعماية وقرشين مصري هي عبارة عن ديونها المستحقة على مستأجري عقاراتها المغلقة.. ولكن هذه الأزمة لم تفتَّ بعضُد الأعضاء الجدد «مؤسسي نشأتها الثانية» وكان أول ما فعله رئيسهاالشيخ مصطفى نجا رحمه الله أنه كتب إلى سلطات الانتداب لتسليم الجمعية أملاكها وأوقافها وموجوداتها التي هي ملك الطائفة

الإسلامية. فاستجابت السلطات المذكورة لهذا الطلب بموجب رسائل تبادلها الطرفان بصورة رسمية وما تزال هذه الرسائل محفوظة لدى الجهات المختصة. وفيما يلي نص الرسالة التي وجهها الجنرال ويغان المفوض السامي الفرنسي إلى الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت وفيها يؤكد الحاكم الفرنسي احترامه لحقوق المسلمين في أملاكهم العامة وأوقافهم الخاصة وعدم تفكير فرنسا بجعل هذه الأملاك والأوقاف تحت إشرافها. قالت الرسالة:

«لقد تبين لي بعد الاستعلام من وكيل المفوضية لدى مراقبة الأوقاف أنه لا صحة من أنه يوجد تدابير صار تصورها أو اتخاذها من مراقبة الأوقاف سواء بالتشديد بالقوانين الحالية المتخذة نحو الجمعيات الخيرية الإسلامية أو بضم هذه الجمعيات إلى الأوقاف. وإني أثبت لكم بكتابي هذا الاطمئنان الشفاهي الذي أبديته سابقاً فسيمكنكم إذن أن تبطلوا كل انفعال بين أبناء الطائفة من هذه المسألة. وإني أرى فرصة مناسبة لتحذيركم من تصديق الأخبار المقلقة بسهولة. أخبار لا ثقة بها ولا يقصد بها إلا إزعاج الرأي العام. واقبلوا احتراماتي الفائقة.

١٤ تشرين الثاني ١٩٢٣

الشريف فيصل

وفي ١٣ كانون الثاني ١٩٢٠ وصل الشريف فيصل بن الحسين إلى بيروت على البارجة الفرنسية «والدك روسو» فاستقبله البيروتيون بمظاهرات شعبية لم يسبق لها مثيل. وحدث في تلك الأثناء أن فترت العلاقة بين الشريف الهاشمي وبين الوجيه البيروتي سليم علي سلام ثم سرعان ما سُوّيت الأمور بينهما وتقرر أن يقوم الشريف بزيارة مجاملة لأبي علي في دارته بالمصيطبة فأحب الشيخ أحمد عباس الأزهري انتهاز هذه المناسبة ورغب إلى أبي علي سلام توجيه نظر الشريف لإعادة مدرسته «الكلية الإسلامية» بمبلغ من المال يساعدها على استئناف مسيرتها التعليمية. وبالفعل فإن الشريف تبرع آنذاك بمبلغ ألف ليرة إنكليزية للمشاريع الإسلامية في بيروت، بيد أن أبا علي رحمه الله حصر هذا المبلغ بجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية لتتمكن من إبراز أعمالها النافعة إلى حيز الفعل. أماالرغبة التي أبداهاالشيخ أحمد عباس فقد صرف أبو علي النظر عنها وتجاهلها لاقتناعه بأن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية أولى بالمساعدة من أي مشروع آخر في ذلك الظرف الحرج الذي كانت تجتازه. وهذا الكلام أُسجله هنا كما سمعته حرفياً وشخصياً من الرئيس صائب سلام في مكتبه بمقر الجمعية في بيروت.

والجدير بالذكر أن الجمعية استغلّت مبرّة الشريف فيصل بن الحسين في أعمالها العمرانية وسجلت شكرها لصاحب هذه اليد على لوحة رخامية علقتها بصدر بنايتها الأولى في محلة الحرج التي كُتب عليها «بناية فيصل الأول».

وبعد أن انتعشت مالية الجمعية بدأت تتطور من حسن إلى أحسن وهي في هذا الطريق مستمرة حتى الآن ولله الحمد والمنة.

مصير المدرسة السلطانية

إن المدرسة السلطانية ـ كلية البنات اليوم ـ كادت تفلت من يد جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية وتصبح من الأملاك العامة للحكومة اللبنانية لولا الجهود المكثفة التي بذلها الشيخ مصطفى نجا ورجالات المسلمين في بيروت لدى سلطات الانتداب الفرنسي إلى أن أقنعوا هذه السلطات بأن هذه المدرسة لم تكن في جملة أملاك الدولة العثمانية وإنما هي قد بنيت من التبرعات المالية التي جمعت من مسلمي بيروت. وقد بدأت هذه الجهود منذ بداية الاحتلال الفرنسي واستمرت نحو ست سنوات. وفي النهاية نجحت الجمعية باسترجاع ما كان يسمى «المكتب السلطاني» آنذاك وتسلمت سنداً بملكية هذا البناء بموجب قرار من المفوض السامي الفرنسي أصدره تحت رقم ٣٠١٠ بتاريخ ٤ آذار ١٩٢٥ م، وأمر نظارة المالية(وزارة المالية) المؤرخ في ٩ تموز ١٩٢٥ عدد ف/ ٥٤٧ .

وقد أُعطي هذا السند إلى الجمعية.

وفي يوم السبت ١٦ تشرين الأول ١٩٢٦ عند الساعة العاشرة قبل الظهر، حفلت قاعة «المدرسة السلطانية» بجمهور كبير من الرجال الرسميين والأعيان والعلماء وعامة الناس وفي مقدمتهم جميع أعضاء جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية يتقدمهم رئيس الجمعية الشيخ مصطفى أفندي نجا مفتي بيروت، وبعد تلاوة آي الذكر الحكيم افتتحت المدرسة باسم «مدرسة البنات الكبرى لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية».

جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في أيامنا

عندما أطلق مؤسسو الجمعية اسم «المقاصد الخيرية» عليها فإنهم لم يفعلوا ذلك بمحض الصدفة أو عن طريق عفو الخاطر، بل هم فعلوا ذلك بعد إمعان النظر وتمحيص الفكر، إذ وجدوا في هذا الاسم تعبيراً عما كان يخالج نفوسهم من الانطلاق بمؤسستهم على دروب الأعمال التي تندرج تحت معنى: المقاصد الخيرية، سواء في ميدان التعليم أو في غيره من الميادين التي تعود بالنفع العام لمواطنيهم عامة وأبناء طائفتهم الإسلامية خاصة، ويتبين هذا الاتجاه من العبارات التي أوردوها في بيانهم الأول(الفجر الصادق) الذي نشروه ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩

م) حيث تضمنت عبارات هذا البيان قولهم «فتوجهت خواطرنا لجعل أعمالنا الخيرية عمومية يقتنع بها عموم أبناء الوطن إلا أن ضيق ماليتنا وقلة وارداتنا، وغنى بقية الطوائف عنا، وشدة احتياج طائفتنا، ومثل ذلك من الملاحظات جعلتنا نقتصر الآن على العمل بالقول الصادق «إبدأ بنفسك» راجين منه تعالى أن يمكننا من إظهار النيات الإسلامية التي هي محض محبة لخير الناس عموماً، فأخذنا في أول الأمر نبحث عن الأشد لزوماً لطائفتنا، فوجدنا أن أحسن وسيلة لنشر المعارف فيها هو تعليم الإناث منها طرق التربية وما يحتجن إليه من العلوم والصنائع إذ هن المربيات الأُوَل وعلى تقدمهن المعوّل..»

ومن خلال هذه العبارات يتبين أنه كان في ذهن أولئك السلف الصالح من أمتنا أن يجعلوا جمعيتهم ذات أهداف تبدأ بالتعليم ثم تتوسع فيما بعد لتشمل الإصلاحات الاجتماعية والخدمات الإنسانية بما يتيح الإزدهار والتقدم لأكبر عدد ممكن من أبناء الوطن.

وجدير بالذكر أن هذه الأهداف لم تغب عن أذهان جميع الأشخاص الذين تداولوا رئاسة الجمعية وعضويتها في مختلف المراحل التي توالت على الجمعية من حين تأسيسها حتى اليوم. وإذا نحن رجعنا إلى الأعمال التي قامت الجمعية بها أو ساهمت بقيامها فإننا نجد أن هذه الأعمال وتلك لم تكن قاصرة على التعليم وحسب، بل هي تجسدت في أكثر من مشروع وظهرت في أكثر من مبادرة مما يتصل بالمصلحة العامة للبلاد سواء في حقل البر والإحسان، أو في حقل الصحة العامة، أو في حقل التوجه الاجتماعي، أو في حقل النشاط الوطني والتحرر القومي، أو في حقل الإعداد المهني والتقني. وهذه المشروعات تستهدف أولاً وأخيراً النهوض بالواجبات التي تتطلبها المصلحة العامة للأمة والوطن في مختلف المرافق والأغراض. ذلك أن كل مشروع منها لا يمكن أن يؤتي ثماره الإيجابية إلا إذا كان متكاملاً من المشروعات الأخرى. باعتبار أن الجسم الاجتماعي، مثله كمثل الجسم البشري إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

المقاصد بين تراث الماضي ومآثر الحاضر

وإذا نحن أردنا أن نصل بين ما كان لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية من التراث الغابر، وبين ما حققته من المآثر في هذا الوقت الحاضر، فإننا نكتفي بالإشارة الموجزة إلى المنجزات التي تمت على يد هذه الجمعية مباشرة والتي كانت من ثمار مساعداتها المادية أو الأدبية. من ذلك:

١ ـ بدأت المقاصد بمدرسة واحدة للإناث، واليوم لها في بيروت وحدها ٢٤ مدرسة وفي سائر المناطق اللبنانية ٤٧ مدرسة والمجموع ٧١ مدرسة.

٢ ـ بدأت المقاصد بـ ٢٦ تلميذة في بيروت، واليوم لها في هذه المدينة ١٥٦٨٩ تلميذاً وتلميذة، ولها في سائر المناطق اللبنانية ٩٤١٧ تلميذاً وتلميذة والمجموع في لبنان كله ٢٥١٠٦ ينهلون العلم في مدارسها.

٣ ـ بدأت المقاصد بـ ٦ معلمات ومدرّسة واحدة مع خادم وبواب، واليوم يبلغ عدد أفراد الهيئة التعليمية فيها في بيروت ٧٠٥ معلمين وفي المناطق اللبنانية ٣٢٥ معلماً، المجموع مع بقية الموظفين في الإدارات والمؤسسات المقاصدية ١٩٠٣ ما بين معلم ومعلمة وغيرهم من الإداريين والفنيين.

٤ ـ بدأت المقاصد ببعثة دراسية من خمسة أشخاص لتعلم الطب تخرج منهم اثنان فقط، واليوم فإن المقاصد تقدم منحاً دراسية في مختلف جامعات لبنان والخارج للتخصص العالي. وهي ١٠٤ منح موزعة على العلوم التالية: الهندسة، الطب، الصيدلة، الآداب الأجنبية، العلوم الطبيعية المختلفة، إدارة الأعمال، التمريض، الشريعة الإسلامية، التربية والتعليم..

٥ ـ بدأت المقاصد بميزانية سنوية قدرها ١١٣٥٦٨,١٠ قرشاً عثمانياً، واليوم تبلغ ميزانيتها السنوية العادية ٥ مليارات ليرة لبنانية، وميزانيتها السنوية غير العادية (للتربية والإنماء) ٤٠ مليون ـ المجموع ٧٠ مليون ليرة.

٦ ـ بدأت المقاصد بعقار وقفي واحد، واليوم لدى المقاصد من الموجودات الثابتة، أملاكاً تقدر قيمتها بمليارات الليرات اللبنانية.

٧ ـ وبدأ المستشفى الذي بدأ بناؤه سنة ١٩٣٠م وتم افتتاحه ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) بطابقين وأصبح اليوم يضم ٢٠٠ سرير، ومركز لغسل الكِلَى هو الأكبر في لبنان، وفيه من الأطباء ٧٨ و١١٦ مساعد ممرض و٦١ ممرض مجاز، و٣٤ طبيباً متمرناً و٢٤٩ إداري وفنيّ. وإلى جانب المستشفى. مدرسة لأعمال السكرتاريا، وأخرى للتمريض، وثالثة لإدارة الأعمال. ورابعة لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين الإسلامي.

وفي سنة١٤٠٢هـ(١٩٨٢م) تم افتتاح «المعهد العالي للدراسات الإسلامية» بكلمة ألقاها الدكتور هشام نشابه عميد التربية والتعليم في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت الذي عُيّن مديراً لهذا المعهد. ويتناول برنامج الدراسة في المعهد موضوعين أساسيين: الأول، قضايا المجتمع الإسلامي المعاصر مع التركيز على قضايا المجتمع الإسلامي الفكرية والاجتماعية في لبنان والعالم العربي، والثاني، الفكر التربوي عامة ومشكلات التربية المعاصرة في البلاد العربية.

وفي أواخر العام الهجري ١٤٠١ (١٩٨١ م) صدر العدد الأول (التمهيدي) من مجلة «المقاصد» التي أصدرتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، وهي مجلة شهرية لأن «من حق شباب المقاصد الإسلامي وشاباته وجميع العاملين فيها أن تكون لهم أداة كريمة يتعاونون من خلالها على توثيق الاتصال فيما بينهم، ويشدّدون بواسطتها روابط الصلة القائمة بينهم وبين مجتمعهم العربي والإسلامي الواسع».

وقد توقفت هذه المجلة الآن عن الصدور بعدما تكبدّت تراجعاً مالياً مؤلماً بسبب آثار الحرب الأهلية (١٩٧٥ ـ ١٩٩١) التي كان لبنان مسرحاً لها.

وفي خطوة تالية قامت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت بافتتاح محطة إذاعية خاصة باسم: صوت الوطن، تغطي مساحة كبيرة من الإعلام الإخباري المحايد، بالإضافة إلى برامجها التي تركز على الفكر الإسلامي والتراث العربي، وكذلك تهتم بإبراز دور مدينة بيروت في العصور القديمة والعصر الحديث.

الولايات العثمانية العربية تحذو حذو بيروت

إن ما قام به أهل بيروت من تأسيس «جمعية المقاصد الخيرية الأسلامية» ترك صداه الإيجابي في بقية المدن والولايات العربية في السلطنة العثمانية. فلقد أخذ أبناء تلك المدن والولايات ينشطون بدورهم في تأسيس جمعيات تعليمية مماثلة وبنفس اسم جمعية بيروت. فأصبح اسم «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» علماً على كثير من الجمعيات المدرسية في صيدا والنبطية وطرابلس وكذلك في دمشق وبغداد وحتى في القاهرة المعزية عاصمة الديار المصرية. بيد أن هذه الجمعيات ما لبثت أن طواها الزمن في غمرة أحداثه المتعاقبة ولم يثبت منها إلا جمعية واحدة وهي جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في مدينة صيدا حاضرة محافظة جنوب لبنان التي ما زالت حتى اليوم تحمل مشعل الحركة التعليمية في هذه المدينة بفضل همة العاملين فيها وإخلاصهم في خدمة الناشئة الإسلامية.

* * *

أما بعد،

فإننا بدأنا مع المقاصد وهي مدرسة صغيرة للبنات وقد سرنا مع هذه الجمعية عبر مائة وعشر سنوات وهي تتنقل بنا من حسن إلى أحسن إلى أن وصل بنا المطاف إلى ما هي عليه اليوم من تقدم وتطور وازدهار بحيث تقترب لأن تصبح جامعة تضم الكليات من كافة العلوم والفنون. وإذا كان لنا ما ندعو الله تعالى به، فهو أن يحفظ هذه المؤسسة الإسلامية التي حفظت كيان الإسلام والمسلمين في هذا البلد وأن يجزي القائمين عليها بما هم له أهل من الكرامة والرضوان وأن يجعلهم حيث يطمئنون من التوفيق والصحة والحياة الطويلة اللائقة. . إنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المدارس الأهلية الإسلامية الخاصة

إلى جانب المدارس التي أنشأتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت قامت مدارس أخرى أنشأتها جمعيات ألفها أهل بيروت بقصد نشر التعليم في هذه المدينة بالإضافة إلى المدارس التي كانت ثمرة جهود فردية لبعض العلماء الذين افتتحوها لحسابهم شخصياً وجعلوها مؤسسات خاصة تؤمن لهم مورداً كريماً للارتزاق، بالإضافة إلى إسهامها في تنشيط التعليم الإسلامي بشكل عام، وكان ذلك خلال الثلث الأخير من القرن الماضي.

وقبل أن نتناول الكلام في موضوع المدارس التي أنشأتها بعض الجمعيات الإسلامية لأغراض البر والإحسان والتعليم. فإننا نبدأ في الحديث عن بعض المدارس الفردية التي اشتهرت أسماؤها في السنوات التي انطوى بها القرن الماضي أو ابتدأ بها القرن الحالي، من ذلك:

١ ـ روضة المدارس

هذه المدرسة كانت تحت إدارة شخص يدعى محمد محمود أفندي كان افتتاحها حوالى سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١م). وقد ورد ذكرها في جريدة النجاح لصاحبها يوسف الشلفون المتوفى سنة ١٨٩٦ م في عددها الصادر يوم ٤ تموز ١٨٧٢ م(ربيع الآخر ١٢٨٩ هـ) حيث قالت تحت عنوان «إعلان من روضة المدارس»: نعلن أنه لما كان من تزايد التلامذة في مدرستنا يوماً بعد آخر ما ضاق به المكان الحاضر، لم نر بُدًّا من استئجار حارة الخواجا أبيلا المطلّة من طريق الكرّوسة تجاه السور بين بوابة الدركة وبوابة يعقوب».

ويستفاد من هذا الإعلان أن مدرسة «روضة المدارس» المذكورة كانت تقع في ساحة رياض الصلح الحالية لأن بوابة الدركة كانت في رأس شارع اللنبي (المعرض) تجاه سينما التياترو الكبير. وبوابة يعقوب كانت في أول شارع الكنيسة الإنجيلية لجهة ساحة رياض الصلح في الوقت الحاضر. وأما طريق الكروسة فهي اليوم الطريق الذاهبة من الساحة المذكورة باتجاه محلة البسطة فالحرج.

٢ ـ المدرسة القادرية

هذه المدرسة انشأها المشايخ إبراهيم البربير وحسن البنا وعبد القادر الخوجا سنة١٨٧١ ولم يكتب لها البقاء طويلاً. فهي قد أقفلت بعد سنة من إنشائها. ويقول الشيخ عبدالقادر القباني إن الشيخ عبدالرحمن النحاس والشيخ حسن البنا تلقيا على إمام طابور العسكرية حسن الخط ففتح كل منهما كُتّاباً لتعليم القرآن وحُسن الخط. وكان ذلك بداية إنشاء المدارس الإسلامية في بيروت.

٣ ـ المدرسة الأدبية

هذه المدرسة أنشأهاالشيخ حسن شاهين ومصباح شبقلو سنة ١٨٩٥.

٤ ـ مدرسة الترقي الوطنية

هذه المدرسة أنشأها الشيخان عيسى قاسم كَتّوعة ومحمود فرشوخ، سنة١٨٩٥. وقد اشتهرت باسم «مدرسة الشيخ عيسى» وكانت تقع في سوق الصريماتية وهو اليوم يقع في محاذاة الجهة الجنوبية من الجامع العمري الكبير.

٥ ـ المدرسة العباسيّة

يمكن القول بأن هذه المدرسة كانت الوحيدة من بين أمثالها من المدارس الخاصة التي استطاعت أن تفرض نفسها على الساحة التعليمية في بيروت أطول مدة ممكنة، وأدركت حظًّا بعيداً من الشهرة والتوفيق والنجاح حتى إنها تفوقت على كل المدارس الإسلامية الأخرى التي عاصرتها، وفي جملتها المدارس التي أسستها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. وهذه المدرسة كما يدل عليها اسمها مدينة بوجودها إلى الرجل الأول فيها وهو الشيخ أحمد عباس (الأزهري) المصري الأصل البيروتي الموطن والسكن.

ويرجع سبب تأسيس هذه المدرسة إلى أن مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تحولت في السنوات الأخيرة من القرن الماضي إلى «معمل للموظفين» لتلبية حاجة الدولة العثمانية إلى أشخاص متعلمين يسدون ما تحتاج إليه من المناصب العسكرية والإدارية، فوجد المسلمون أنفسهم حيارى لا يدرون أي سبيل يسلكون، ولا أي منهل يردون لارتشاف العلم الصحيح الذي يؤمن لهم المعرفة الصافية المجردة من أي غاية أخرى، وشعروا بحاجتهم إلى وجود معهد علمي يعوضهم عن مدارس «شعبة المعارف» التي حلت محل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في تلك الفترة. فنهض الشيخ أحمد عباس بهذه المهمة وترك تجارة الكتب التي كان يتعاطاها لكسب قوته، وكاشف صديقه الشيخ عبد القادر القباني برغبته في إنشاء المدرسة التي يتوق إليها المسلمون في هذا البلد، وطلب منه إمداده بالمال اللازم لتحقيق هذه الرغبة. فوجد لدى هذا الصديق أذناً صاغية وحصل منه على المساعدة المالية المطلوبة وكان ذلك في سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م). هذا ما قالته مجلة المنار في الجزء الخامس من المجلد ٢٨ عندما ترجمت لحياة الشيخ أحمد عباس.

إلا أن جريدة «لبنان» لصاحبهاإبراهيم بك الأسود الصادرة في ذلك الوقت قالت: «إن الشيخ عبد القادر القباني هو الذي أسس «مدرسة عثمانية إسلامية وجعل مديرها جناب العلامة المدقق الشيخ أحمد أفندي عباس الأزهري» (عدد ١٤ ربيع الثاني ١٣١٣هـ /تشرين الأول ١٨٩٥م) على أن الأقرب للصحة باعتقادنا هو ما قالته مجلة المنار. وفي سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م) جرى افتتاح هذه المؤسسة التعليمية باسم «المدرسة العثمانية» وكانت أول الأمر معهداً علمياً صغيراً نهارياً ضم نحواً من ٤٠٠ تلميذ تولى تدريسهم حوالى ٤٠ معلماً ومدرساً. وكان هؤلاء المعلمون والمدرسون ينتمون إلى مختلف الطوائف وبعضهم من الفرنسيين المختصين باللغة الفرنسية وآدابها.

وبقيت «المدرسة العثمانية» نهارية حتى السنة السادسة من تأسيسها، وفي سنة ١٣١٨ هـ(١٩٠٠ م) أُنشيء فيها فرع داخلي «ليأوي إليه من تناءت بلاده وبعد مسكنه» فجاءها التلاميذ من أغلب أنحاء سورية والحجاز واليمن والأناضول وبغداد وتونس ومراكش ومسقط والبصرة وحتى من إسطمبول عاصمة السلطنة العثمانية.

ولقد جرت «المدرسة العثمانية» على نظام عصري في الإدارة والتدريس لم يعهد بمثلها من المدارس التي يتفرد بتدبيرها شخص واحد في حينها. ثم إنها تطورت وتوسعت في إنشاء فروع متعددة تنتظم بها مراحل الدراسة على مختلف المستويات العلمية ضمت أقسام التعليم الثلاثة: الابتدائي والإعدادي (التكميلي) والعلمي(الثانوي) بالإضافة إلى قسم خاص بالأطفال تحت اسم «روضة الأطفال».

وفي سنة١٣٢٩ هـ(١٩١١ م) أصبحت هذه الأقسام تشكل الهيكل التنظيمي العام للمدرسة العثمانية. ولذلك رأى المشرفون على هذه المدرسة تحويلها إلى كلية باسم «الكلية العثمانية الإسلامية». وقد أصدر عمدتها قراراً بهذا التغيير والاسم الجديد، وهذا نصه كما نشر في البيان السنوي لـ «الكلية العثمانية» لعامها الثامن عشر وطبع بالمطبعة العثمانية في سوق الطويلة ببيروت لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري نفسه.

«قررت عمدة المدرسة العثمانية» في جلستها يوم الأربعاء في

١١ جمادى الأولى ١٣٢٩ هـ الموافق ١٠ مايس ١٩١١م أن تكون «المدرسة العثمانية» كلية ويطلق عليها اسم: «الكلية العثمانية الإسلامية» وأن يزاد على مقرر التعليم المدرسي كل العلوم والفنون التي تتطلبها درجة البكالوريا في الآداب والعلوم وأن يزاد على مدة الدراسة سنتان باعتبار مدة الكلية العثمانية الإسلامية عشر سنوات، وهذه أقسامها: القسم الابتدائي مدته سنتان، القسم الاستعدادي مدته ٤ سنوات، القسم العلمي مدته ٤ سنوات.

وتمنح الكلية العثمانية منتهي القسم الاستعدادي شهادة تخولهم الدخول في القسم العلمي. وإذا أتمّ الشاب القسم العلمي ينال إجازة الأدب والعلوم(أي البكالوريا) وتُعطى له الشهادة المبينة لذلك، والمصادق عليها من الولاية وإدارة المعارف. أما القسم الابتدائي فالمنتهي منه يعطى إجازة تخوله دخول القسم الاستعدادي».

وهكذا ارتفع مستوى المدرسة إلى مستوى كلية وأصبحت شهادتها النهائية معترفاً بها من قبل الحكومة. وإكمالاً للفائدة التاريخية فإننا ننشر بهذه المناسبة أسماء البيروتيين الأفاضل الذين كانوا يشكلون عمدة الكلية في ذلك الحين وهم:

رئيس شرف الكلية: والي الولاية نورالدين بك.

رئيس العمدة والكلية: الشيخ أحمد عباس الأزهري.

الأعضاء: الشيخ أحمد طبارة، وأحمد مختار بيهم، والطبيب بشير القصار، وحسن القاضي، وحسن قرنفل، ورياض الصلح، وطَه المدوَّر، وعارف دياب، وعمر الداعوق، وعبد الرحمن بيهم، وعبدالغني العريسي، ومحمد الفاخوري، والحاج مصطفى الغندور، والشيخ مراد العريس، وتوفيق الزهار، ومسيو فردينانتو.

اما فيما يتعلق بالقسم الديني في الكلية فقد كان الشيخ أحمد عباس يتضايق من التباين في الرأي بين بعض تلامذة المدارس العصرية وبعض طلبة العلوم الدينية لجهل كل من الفئتين بعلم الفئة الأخرى، وساوره الخوف على الجهود المبذولة في سبيل نهضة الأمة إذا فشا وعمّ هذا التباين لتأثيره السيّء في وحدة كلمة المسلمين ولأنه بالتالي يعطل الغاية المقصودة من الجهود المبذولة في التعليم، فحاول استدراك هذه النتيجة السلبية على الناشئة الجديدة، لذلك فإنه استصدر من العمدة قراراً بإنشاء قسم ديني - علمي ليخرِّج للطائفة «طلبة علم متنورين متعلمين يقرنون العلوم الدينية بالعلوم العصرية» وقد اشترط في الراغبين بهذا التخصص أن يكونوا حائزين على شهادة البكالوريا وذلك لكي تتوفر فيهم المقدرة على الملاءمة بين الأصالة الإسلامية عبر تراثها المجيد وبين الثقافة الحديثة عبر معطياتها العلمية الجديدة. ولما كانت الواردات المالية للكلية لا تقوم بنفقات هذا القسم فإن الشيخ أحمد عباس سافر إلى اسطمبول حيث اجتمع بشيخ الإسلام الذي نقل رغبته في المساعدة إلى أنور باشا، رجل الدولة العثمانية في ذلك الحين، ولقد تجاوب أنور باشا مع هذه الرغبة ونفح الشيخ أحمد عباس هبة نقدية من جيبه الخاص مقدارها ٥٠٠ ليرة عثمانية ذهباً وأوعز للدوائر المختصة بأن تقرر للكلية العثمانية مساعدة سنوية دائمة مقدارها ١٢٠٠ ليرة عثمانية ذهباً كذلك تدفع بواقع ١٠٠ ليرة كل شهر، وكان ذلك سنة ١٩١٣ م. إلا أن نشوب الحرب الكونية الأولى في السنة التالية (١٩١٤ م) حال دون الاستمرار بدفع هذه المساعدة التي لم يصل منها الآ قسط السنة الفائتة، وفي نفس الوقت تغيرت الدولة على الشيخ أحمد عباس بسبب اشتراك بعض تلامذته في النشاط المعادي لها فأصدرت أمراً بإقفال الكلية وأبعدت الشيخ نفسه إلى اسطمبول حيث وضعته في الإقامة الجبرية تحت المراقبة الدقيقة.

* * *

مرت سنوات الحرب الكونية الأولى كلها على الشيخ أحمد عباس وهو في المنفى وعلى الكلية العثمانية الإسلامية وهي مقفلة. فلما وضعت الحرب أوزارها عاد الشيخ إلى بيروت وبعودته استأنفت الكلية رسالتها التعليمية ولكن تحت اسم جديد وهو «الكلية الإسلامية» على أنها عرفت عند الناس باسم «الكلية العباسية» نسبة إلى صاحبها ومؤسسها الذي كان اسمه من الأعلام التي ارتبطت بالنهضة العلمية في تاريخ هذه البلاد. واستمرت الكلية في أداء رسالتها التعليمية بإدارة المربي المعروف الدكتور بشير القصار الى أن توقف قلب الشيخ أحمد عباس عن الخفقان في نيسان ١٩٢٧ م. وبتوقف هذا القلب الكبير انتهت الكلية العباسية بعد أن سلمت رسالتها إلى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي كانت خير خلف لخير سلف.

وجدير بنا أن نقفل الكلام عن الشيخ أحمد عباس وصرحه العلمي الشامخ الذي صمد للعواصف السياسية والمالية زهاء نصف قرن، جدير بنا أن نقفل هذا الكلام بما قاله عبد الباسط فتح الله رحمه الله في مجلة المنار وهو يعتذر عنه لعدم تركه أي كتاب من تأليفه وهو العالم التحرير والمفكر الكبير: «إن للأستاذ الخالد أثره الخالد، وتأليفه الحي النامي الذي أبدعته عزيمته الماضية، وتعاهدت تنسيقه وتنميقه قواه العقلية والبدنية تعضدها مزاياه النفسية، من حزم وثبات وإخلاص، ذلك الأثر الذي اتخذ له من عقول النابتة وقلوبها صحائف حساسة أودعتها ما شاء أدبه وشاءت الوطنية والمدنية من كل علم وفضيلة، ثم هو لم يفعل

بها فعل المؤلفين يجمعون صحفهم بين دفتين، بل فرقها في الآفاق تشع النور والعرفان وتنمو وتكثر ما تعاقب الملوان، وأضاء النيِّران(عنيت المدرسة). ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

* * *

وإذا كان لا بد من مسك نختم به موضوع «الكلية الإسلامية» فإننا نجعل مسك الختام قائمة بأسماء أول جمعية للمتخرجين من هذه الكلية الذين تركوا وراءهم أعطر الذكريات عن الخدمات التي قدموها في حياتهم من أجل حياة أمتهم، وهم الذين كانوا يسمون جمعيتهم «جمعية أبناء العثمانية» وفيما يلي الأسماء والأعمال التي كانوا يتعاطونها سنة ١٣١٧هـ عند تأسيس الجمعية.

بدر دمشقية: تاجر في بيروت، بشير الأسير: طبيب أسنان في بيروت، بشير القصار: طبيب في بيروت، توفيق غندور: تاجر في بيروت، حسن قباني: طبيب في بيروت، سعيد فتح الله: في محل أوروذي باك وعمر أفندي في بيروت، عبدالقادر الغندور: تاجر في بيروت، فوزي رمضان: طبيب أسنان في بيروت، توفيق عيتاني: تاجر، حسن فاخوري: تاجر، زكي فاخوري: تاجر، سعد الله عيتاني: في محل أحمد مختار بيهم وعبد الله بيهم في بيروت، سليم سعادة: تاجر، عارف الناطور: محاسب في دائرة البلدية، مصباح الطيارة: تاجر.

٦ ـ مدارس لم تعمر طويلاً

وفي سنة ١٣١٧ هـ(١٨٩٩ م) تألفت في بيروت جمعية باسم «الجمعية الخيرية العلمية الإسلامية» برئاسة الشيخ عبد الرحمن الحوت، عالم بيروت وصالحها وبركة أهل زمانه في بلده. وهذه الجمعية اهتمت بإنشاء المدارس المخصصة لتعليم البنات المسلمات

وفي سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٣م) تألفت «لجنة التعليم الإسلامية» من كل من الشيخ محمد زيدان، والشيخ رضى القباني، والشيخ منير الدنا، وافتتحت هذه اللجنة «المدرسة الحميدية» نسبة للسلطان العثماني في ذلك الوقت عبد الحميد الثاني.

وفي سنة١٣٢٠ هـ(١٩٠٣ م) تأسست في بيروت جمعية إسلامية خيرية لتعليم البنات المسلمات برئاسة الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت لاحقاً، وافتتحت مدرسة باسم «مدرسة ثمرة الإحسان» وكان الشيخ مصطفى نجا رحمه الله يتولى بنفسه تعليم التلميذات ترتيل القرآن الكريم وعلوم الدين. ولقد تخرجت منها بنات شغلن في عصرهن مراكز اجتماعية مرموقة.

وفي سنة ١٩٠٤م أسس الشيخ سليم محمد المغربل في بيروت مدرسة أهلية إسلامية وسماها «المدرسة السورية الإسلامية» وكان موقعها شرقي المدرسة السلطانية (كلية البنات التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية اليوم في المحلة المعروفة باسم: محلة قبر الوالي) الا أن هذه المدرسة ماتت بموت مؤسسهاالشيخ سليم المغربل في نفس السنة التي أُنشئت فيها. وبعد سنوات قليلة سلّمت هذه المدرسة إلى الشيخ محمد هاشم الشريف الشهير بالخليلي.

وفي سنة ١٩٠٩م أسس الشيخ عبد الرحمن سلام «مدرسة السلام» وقد أشارت إليها مجلة النبراس لصاحبهاالشيخ مصطفى الغلاييني بقولها: «اهتم بعض الشبان من أهل الغيرة والحمية بافتتاح مدرسة لفقراء الأيتام برئاسة الأستاذ الشيخ عبدالرحمن أفندي سلام، ومنذ أيام افتتحوا أبوابها باحتفال حضره بعض أهل العلم والوجاهة وخطب رئيسها خطاباً نفيساً بيّن الغاية من المدرسة. وقد تبرع بعض الحضور».

مراكز تواجد المدارس الإسلامية أيام العثمانيين

في القرن الماضي كانت بيروت مدينة أو بالأصح بلدة صغيرة طولها حوالى ألف متر وقريباً من نصف ذلك عرضها. يحيط بها السور الذي بناه أحمد باشا الجزار.

وكانت المدارس الإسلامية الأهلية لا تتجاوز نطاق السور، وبقي الأمر كذلك حتى انطلق العمران إلى خارجه بعد انتصاف القرن الماضي. ويمكن القول إن المدارس المذكورة كانت موزعة في الأحياء التالية: السور، المرفأ، المزرعة، زقاق البلاط، الرمل(رمل الصنائع) البسطة التحتا، ميناء الحصن وكانوا يسمونها «مينة الحسن».

الافتاء في بيروت بين الماضي والحاضر

الفتوى لغةً واصطلاحاً اسم وأصله من الفتى، وهو الشاب الحدث القوي. وكأنّ الفتوى الجواب على سؤال بما يقوّي بيانه ويصيّره حكماً. وتفاتى الناس في أمرٍ ما إلى شخص ما تحاكموا إلى هذا الشخص لاعتماد فتواه أي حكمه.

والفتوى اصطلاحاً، هي الجواب الذي يعطيه المفتي، أو العالم، في بيان وجه الشرع حول الموضوع الذي يتضمنه السؤال المطروح عليه.

والمفتي هو العالم الذي يفتي في الأمور الدينية ويردّ على السائلين فيما يتعلق بالشرع لجهة الحلال والحرام.

أوائل المفتين في الإسلام

ذُكر أن حوالى مائة وثلاثين صحابياً، ما بين رجل وامرأة، كانوا يقومون بالفتوى بين الناس في فجر الإسلام، إلا أن الذين اشتهروا بهذا الأمر منهم لم يتجاوزوا السبعة، وهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر.

ولم يكن الإفتاء آنذاك عملاً رسميًا، كما لم يكن المفتي موظفاً حكوميًا، بل كان الإفتاء تطوّعاً اختيارياً. والمفتي هو الذي يستفتيه الناس في شؤونهم الدينية نظراً لعلمه واطلاعه على حكم الشرع في هذه الشؤون.

أول من حمل لقب «مفتي» في دولة الإسلام

كان ذلك في أوائل العهد العباسي بعد أن أصبح الإفتاء وظيفة حكومية يصدر بها مرسوم يوقعه ولي الأمر - أي الخليفة - وبموجب هذا المرسوم يعتبر المفتي المفسّر الرسمي للشريعة الإسلامية، وبالتالي تكون الفتوى التي يصدرها الشخص المعين في هذا المنصب حُكماً ملزماً وفقاً للقوانين المرعية. ومن ذلك الوقت جرت العادة أن يخصّص لكل قطر أو مدينة مفتٍ معيّن من قِبَل الحاكم المسؤول.

وأقدم الكتابات التي تشير إلى منصب المفتي ترجع إلى الدولة العباسية وهي نقيشة أثرية (épigraphie) وجدت على قبر الليث بن سعد بالقاهرة وفي هذه النقيشة الكتابة التالية: «الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن سعد بن عبد الرحمن أبو الحارث المصري مفتي أهل مصر».

كان هذا المفتي كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب (أي الحاكم) من تحت أمره ومشورته. والليث بن سعد المذكور ولد سنة ٩٤ وتوفى سنة ١٧٥هـ (٧١٣ - ٧٩١م).

ألقاب المفتي في العهود الإسلامية المتقدمة

كثيراً ما كان السلاطين يخاطبون متولي منصب الإفتاء بألقاب تكريمية ما لبثت أن أصبحت جزءاً من النعوت المتصلة بهذا المنصب، مثل: مفتي المسلمين، ومفتي الأنام، ومفتي الشرق، ومفتي الشرق والصين، ومفتي الفِرَق، ومفتي السنّة. وتفتتح الكتابة إليه بـ «الجناب العالي».

وهذه الألقاب وجدت مرقومة على شواهد قبور أصحابها. وقد عُرفت في أيام المماليك وظيفة مستقلة باسم «مفتي دار العدل» وهذه الوظيفة استُخدمت في عواصم الأقطار التابعة للمماليك مثل القاهرة ودمشق وحلب. وكان موضوعها الجلوس بدار العدل (أي ما يعرف في أيامنا باسم «قصر العدل») حيث كان السلطان، أو نائبه، يجلس لفصل الخصومات والإفتاء فيما لعله يطرأ من الأحكام بدار العدل. وكان مفتي دار العدل يجلس

في نفس المكان الذي يجلس فيه القضاة الأربعة على المذاهب الأربعة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي ومن في معناهم. وكانت وظيفة مفتي دار العدل رتبتها في الدرجة الثالثة بين الوظائف الدينية وتأتي قبلها وظيفة قاضي القضاة، وقاضي العسكر وتأتي بعدها وكالة بيت المال، والحسبة.

وفي أيام المماليك كان بكل من القاهرة ودمشق أربعة مفتين، لكل مذهب من المذاهب الأربعة المذكورة مفتٍ مستقل به لوحده. وهذه الطبقة من المفتين يعيّنون بمرسوم سلطاني صادر عن السلطان نفسه. أما المفتون بدار العدل في دمشق وحلب فيجري تعيينهم بقرار يصدره نائب السلطان في هاتين المدينتين. وكذلك الحال في بقية عواصم الأقطار.

الشروط المطلوبة في المفتي

كان الإفتاء في الماضي موزعاً بين مفتٍ مستقل ومفتٍ غير مستقل. المفتي المستقل هو المجتهد المطلق الذي يستقل بالأدلة في تحديد فتواه دون أن يقلد سواه أو يتقيد بمذهب أحد أصحاب المذاهب دون غيره.

والمفتي غير المستقل هو الذي يقلد غيره من المجتهدين ويتقيد بمذهب واحد لا يتعداه في تحديد فتواه.

وقد وضع الأصوليون شروطاً محددة لمن يتطلّع إلى شغل منصب الإفتاء. بعض هذه الشروط تقنية، حسب اصطلاحنا اليوم، وبعضها الآخر خلقية وذهنية واجتماعية. قال هؤلاء الأصوليون: «.. وموضوع هذا الاسم - أي المفتي بشكل عام - لمن قام للناس بأمر دينهم، وعلم مجمل علوم القرآن وخصوصه وناسخه ومنسوخه، وكذلك السنن والاستنباط ولم يوضع لمن علم مسألة واحدة وأدرك حقيقتها. فمن أدرك هذه المرتبة سموه بهذا الاسم - أي مفتي - ومن استحقه أفتى فيما استفتي. وزاد بعضهم، على سبيل التركيز والحصر «المفتي من استُكمل فيه ثلاث شرائط: الاجتهاد والعدالة والكفّ عن الترخيص والتساهل. والمفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدّة، ولا يميل بهم الى طرف الانحلال».

وبالنسبة للمفتي المستقل، أي الذي لا يقلد سواه ولا يتقيد بمذهب واحد، فقد أضافوا شروطاً أخرى، يمكن اعتبارها شروطاً توضيحية للشروط المتقدمة. منها: أن يكون فقيهاً بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس وما التحق بها على التفصيل، وقد فصّلت في كتب الفقه فيسّرت. وأن يكون عالماً بما يشترط في الأدلة ووجوه دلالتها وبكيفية اقتباس الأحكام منها، وعارفاً من علوم القرآن والحديث والناسخ والمنسوخ، والنحو واللغة والصرف واختلاف العلماء واتفاقهم بالقدر الذي يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها، ذا دُرْبة وارتياض في استعمال ذلك، عالماً بالفقه، ضابطاً لأمهات مسائله وتفاريعه، فمن جمع هذه الأوصاف فهو المفتي المطلق المستقل الذي يتأدى به فرض الكفاية، وهو المجتهد المطلق.

أما بالنسبة للشروط الخلقية والذهنية والاجتماعية التي يجب توفرها بشخص المفتي فقد حددوها كما يلي حيث قالوا: «ينبغي أن يكون المفتي ظاهر الورع، مشهوراً بالديانة الظاهرة، والصيانة الباهرة، وأن يكون ثقة مأموناً منزّهاً عن الفسق وخوارم المروءة، عفيف النفس، سليم الذهن، رصين الفكر، صحيح النظر والاستنباط، متيقظاً، سواء فيه الحرّ والعبد والمرأة والأعمى والأخرس إذا كتب أو فهمت إشارته. وأن يكون كالراوي في أنه لا يؤثر فيه قاربة وعداوة وجرّ نفعٍ ودفع ضرٍّ وإذا نابز المفتي في فتواه شخصاً معيناً، صار خصماً معانداً فتُردّ فتواه...»

منصب المفتي في العهد العثماني

في العهد العثماني، عند بدايته، كان «قاضي العسكر» أهم موظف ديني في الدولة. وقاضي العسكر، وظيفة أنشأها المماليك للفصل بين الجند والتحدث في الأحكام أثناء تنقلاتهم، ولما انتقلت الدولة من المماليك إلى العثمانيين أبقى هؤلاء على هذه الوظيفة بعد أن اعتبروا شاغلها بمثابة «قاضي القضاة». وفي فترة لاحقة أصبح لقبُ قاضي العسكر «شيخ الإسلام» وبقي الأمر كذلك حتى نهاية الإمبراطورية العثمانية في آخر الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م).

كان مقر «شيخ الإسلام» في اسطمبول عاصمة الدولة ومركز الخلافة الإسلامية. أما في حواضر الولايات والمدن التابعة لها، فكان لكل من هذه الحواضر والمدن «مفتي» يتم تعيينه بفرمان (مرسوم) يصدره السلطان بناء على اختيار علماء بلد المرشح وموافقة شيخ الإسلام على هذا الاختيار.

المفتون في بيروت

الشيخ احمد البربير (البيروتي)

لسنا نملك معلومات دقيقة أو كافية عن تاريخ الإفتاء في لبنان، والمعلومات التي بين أيدينا حول هذا الموضوع تقف عند الزمن الذي كان جبل لبنان فيه تحت حكم الأمير يوسف

الشهابي، أي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. فلقد كانت بيروت آنذاك من المدن التابعة لهذا الأمير. ويقول المؤرخون إن الأمير المذكور أقنع الشيخ أحمد البربير (البيروتي) بتولي الإفتاء والقضاء في بيروت ولبنان. وبذلك يكون الشيخ أحمد البربير أقدم المفتين الذين وصلت إلينا أخبار توليهم لهذا المنصب في ذلك الحين على أن البربير لم يستمر طويلاً في منصبه إذ أنه طلب من الأمير إعفاءه من الإفتاء والقضاء ونزل الأمير فعلاً عند طلبه. وكانت وفاة الشيخ أحمد البربير في دمشق سنة ١٢٢٦هـ (١٨١١م).

وكان الشيخ أحمد البربير كما وصفه أهل زمانه «الشيخ العالم، الفاضل، الأديب، الشاعر، المجيد، المفلق، الناظم، الناثر، المتفنّن الأوحد». وكنيته «أبو الفيض». وقد ترك عدة كتب من تأليفه، أشهرها «القول الجلي في شرح بيتي الموصلي» الذي أعاد طبعه الدكتور نسيب البربير، من أعيان بيروت رحمه الله، الذي يمت إليه بصلة النسب.

الشيخ عبد اللطيف فتح الله

(الملقب بالمفتي) خلف الشيخ أحمد البربير في منصب مفتي بيروت.

وقد وصفه الذين ترجموا له بأنه «كان لا يضاهى، وله شعر رائق». عاش هذا المفتي في أيام أحمد باشا الجزار والي إيالة عكة، وله في هذا الوالي مدائح كثيرة عبر فيها عن محبة أهل بيروت له وتقديرهم لأعماله ودفاعه عن البلاد التي كانت تحت ولايته. وكانت وفاة الشيخ عبد اللطيف فتح الله المذكور في بيروت سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م).

الشيخ أحمد الأغر

تولى منصبيْ الإفتاء والقضاء في بيروت خلفاً لسلفه الشيخ عبد اللطيف فتح الله. وكان أحياناً يجمع بين هذين المنصبين وأحياناً يتولى أحدهما دون الآخر. كان من أهل الطريقة الشاذلية الصوفية المعروفة. ترك مجموعة من الفتاوى التي تحكي وقائع زمانه، وله ديوان شعر فاق به نظراءه في زمانه، كانت وفاته في بيروت سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م).

الشيخ محمد الحلواني

تولى منصب الإفتاء في بيروت بعد سلفه الشيخ أحمد الأغر واشتهر باسم «الشيخ محمد المفتي» إلا أنه ليس بينه وبين أسرة آل المفتي البيروتية نسب عائلي وإنما لُقِّب بالمفتي لتوليه لمنصب الإفتاء.

لم تطل مدة الشيخ محمد الحلواني في إفتاء بيروت إذ أنه عزل من منصبه لحادثة وقعت له مع النصارى. ترجمه بعض المؤرخين في «مجموع الزيارات (أي المزارات الدينية) الدمشقية» فقال: «هو الشيخ الإمام، علامة الزمان، وفريد العصر والأوان، البحر الزاخر، وصاحب المكارم والفاخر محمد ابن أحمد الحلواني الشهير بمفتي بيروت» كان عالماً، عاملاً، ورعاً، تقيًّا لا تأخذه في الحق لومة لائم.

كانت وفاته في دمشق سنة ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م).

الشيخ محيي الدين اليافي

هو مفتي بيروت خلفاً للشيخ محمد الحلواني، على أنه لم يبق طويلاً في منصبه، فقد فصل عنه بعد مدة من توليه. فانتقل إلى دمشق حيث تولى الوعظ والإرشاد وتقدم أهل الطريقة الخلوتية الصوفية وكانت له حلقة للذكر في الزاوية المعروفة باسمه في جامع بني أمية بدمشق.

وكانت وفاته بدمشق سنة ١٣٠٤ هـ (١٨٨٦م).

الشيخ محمد فتح الله (المفتي)

هو حفيد الشيخ عبد اللطيف فتح الله (المفتي). تولى إفتاء بيروت، وبقي في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة. وكانت وفاته في بيروت سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٩م). إننا لا نعرف شيئاً عن سيرة حياة هذا الشيخ المفتي بالرغم من أنه شغل منصب إفتاء بيروت مدة طويلة جدًّا.

الشيخ عبد الباسط الفاخوري

تولى منصب الإفتاء في بيروت خلفاً للشيخ محمد فتح الله (المفتي) سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٩م) وبقي في هذا المنصب إلى حين وفاته في بيروت سنة ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥م).

امتاز الشيخ عبد الباسط الفاخوري بالعلم واشتهر بالتقوى. وله على النهضة الإسلامية المعاصرة في بيروت يدٌ امتدت إلى إنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية والإنسانية، وقد قال فيه، مواطنه ومعاصره الشيخ عبد القادر القباني رحمه الله: «كان الشيخ عبد الباسط الفاخوري خير كفء لمنصب الفتوى الجليل».

والشيخ عبد الباسط الفاخوري كان من أهل الطريق (أي متصوفاً) وهو آخر من حمل في بيروت لقب «شيخ مشايخ الطرق الصوفية».

ترك الشيخ عبد الباسط الفاخوري كتباً كثيرة بعضها في العلوم الدينية وبعضها في التاريخ الإسلامي، وكان ينظم الشعر الحسن. وقد نظم قصيدة عنوانها «النبوت في رأس أهل بيروت» وهي في انتقاد البيروتيين الذين انحرفوا عن جادة الأخلاق الحسنة وانجرفوا في ممارسة الأعمال المخالفة لروح الدين الإسلامي.

الشيخ عبد الرحمن الحوت

لم يتولَّ منصب إفتاء بيروت بالأصالة، بل كلف به بالوكالة، خلال الفترة التي امتدت أربع سنين بعد وفاة المفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري. وسبب توكيله بهذا المنصب، أن علماء بيروت اختلفوا على اختيار خلف للمفتي المتوفى، بعضهم مال إلى الشيخ أحمد عباس الأزهري، وبعضهم مال إلى الشيخ مصطفى نجا، مما حمل السلطات في اسطمبول على إرجاء تعيين مفتٍ جديد لبيروت إلى أن يتفق علماء هذه المدينة على اختيار مفتيهم الأمر الذي تم سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩م).

وكانت وفاة الشيخ عبد الرحمن الحوت في بيروت سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٦م).

وكان الشيخ عبد الرحمن الحوت موضع ثقة مواطنيه المسلمين واحترام المواطنين النصارى. وكان رحمه الله محل اعتقاد البيروتيين الذين كانوا ينظرون إليه على أنه من أولياء الله الصالحين، وأن دعاءه مستجاب عند ربه، ولذلك كان الناس يزورونه للتبرك ويطلبون منه الدعاء لهم بالصحة والنجاح في أعمالهم. قال شيخنا العلامة المحدث المسنَد الشيخ محمد العربي العزوزي: «ممّن اجتمعنا إليه، وتبرّكنا به، علم البلاد اللبنانية، بل والسورية، وصالحها وابن صالحها (يعني الشيخ محمد الحوت الكبير) سيدي عبد الرحمن بن محمد الحوت العلوي (أي من آل بيت علي بن أبي طالب الأشراف) البيروتي، زرته مراراً في بيته وتبركت به ودعا لي بما نرجو قبوله من الله تعالى».

الشيخ مصطفى نجا

هو الشيخ مصطفى بن محيي الدين نجا، نشأ عاملاً في حقل التجارة إلى جانب والده محيي الدين نجا، وطلب العلم في مدرسة جامع النوفرة (الأمير منذر اليوم) التي أسسها الشيخان خالد والحوت في الجامع المذكور سنة ١٨٦٢. عرفه أهل زمانه بالصلاح والتقوى. فلما توفي الشيخ عبد الباسط الفاخوري اتجهت الأنظار إليه لخلافة الشيخ الفاخوري في إفتاء بيروت، ونتيجة لاختلاف العلماء بينه وبين الشيخ أحمد عباس الأزهري، مؤسس الكلية الإسلامية في بيروت، تأخر اختياره لمنصب الإفتاء حتى سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩م). وفي هذا التاريخ وافقت السلطات العثمانية على تعيينه في هذا المنصب الذي ساعده على الوصول إليه أعيان بيروت آنذاك وفي مقدمتهم الوجيهان رضا بك الصلح، والد الزعيم رياض بك الصلح وسليم بك سلام (أبو علي) والد الرئيس صائب سلام.

عندما زاره الجنرال غورو في بيته عقب الاحتلال سنة ١٩٢٠م عرض عليه لقب مفتي دولة لبنان الكبير بدلاً من مفتي بيروت، ولكن الشيخ مصطفى نجا اعتذر عن عدم الموافقة على هذا اللقب مؤثراً الاحتفاظ بلقب مفتي بيروت الذي صدر عن السلطان محمد رشاد بوصفه صاحب الحق الشرعي في الشؤون الإسلامية، وأن الحاكم الأجنبي لا يملك حق التدخل في هذه الشؤون، ولذلك بقي الشيخ مصطفى نجا مكتفياً بلقب مفتي بيروت إلى حين وفاته، سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢م). وقد جمع أحد أفراد عائلته أخباره في كتاب صدر بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته عنوانه «ذكرى العلامة الجليل الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت».

عمل الشيخ مصطفى في حقل الخدمات الخيرية والتعليمية. وبوصفه مفتي بيروت كان رئيسا فعليًّا لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، وهذه الجمعية مدينة له في نهضتها من كبوتها بعد الاحتلال الفرنسي وذلك بالجهود التي بذلها لدى سلطات الاحتلال لاسترجاع المدرسة السلطانية (كلية البنات في البسطة التحتا) وغيرها من العقارات الوقفية التي كانت تخصها وكادت تضيع منها وتخسرها.

ترك الشيخ مصطفى نجا عدداً من الكتب التي تناول فيها موضوعات دينية، وبعضها في التصوف لأنه رحمه الله كان من أهل الطريقة الصوفية المعروفة باليشرطية الشاذلية وله شعر امتاز بالطابع الروحي.

الشيخ محمد توفيق خالد

هو الشيخ محمد توفيق ابن السيد عمر خالد، جده العلاّمة الشيخ عبد الله خالد، ولقد أخبرني رحمه الله بنفسه أن أسرته تنتمي إلى عرب الفضل التي ترجع بنسبها إلى الفضل بن العباس بن عبد المطلب (ابن عم النبي صلّى الله عليه وسلم).

ولد الشيخ محمد توفيق خالد في بيروت سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٤م)، تلقى دروسه الأولى بالمدرسة الرشديّة التي عرفت بالعسكرية ثم بـ«حوض الولاية» في أيامنا، ثم أخذ بطلب العلم على كبار علماء زمانه، منهم خاله التقي الورع الشيخ عبد

الرحمن الحوت. والمفتي الشيخ عبد الباسط الفاخوري، والعلّامة الشيخ يوسف علايا والد المفتي السابق الشيخ محمد علايا.

بدأ الشيخ محمد توفيق خالد حياته العملية في حقل التعليم فاشتغل مدرساً للعربية والدين في «المدرسة الوطنية» ببيروت. وفي سنة ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) انشأ مدرسة باسم «مدرسة التوفيق الإسلامية» ويقوم في مكانها اليوم مستشفى نجله الدكتور محمد خالد رحمه الله. بعد الانقلاب الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩م) التحق بالمحكمة الشرعية في بيروت بوظيفة كاتب ثم تدرَّج إلى أن أصبح رئيساً للكتبة ثم نائباً للقاضي. وفي أثناء عمله في المحكمة كان مدرّساً في الجامع العمري الكبير وخطيباً لصلاة الجمعة في جامع البسطة الفوقا. وبقي على ذلك إلى حين انتخابه لإفتاء بيروت خلفاً لسلفه الشيخ مصطفى نجا وكان ذلك في سنة ١٣٥٠ هـ (١٩٣٢م).

جرى انتخاب الشيخ محمد توفيق خالد في بيت الشيخ محمد الكستي بحضور حوالى ٣٦ شيخاً من علماء بيروت الذين كانوا يشكلون الهيئة الانتخابية للإفتاء في ذلك الحين ونال الشيخ محمد توفيق خالد آنذاك أكثرية الأصوات، وبقية الأصوات توزعت بين الشيخ محمد الأنسي ٦ أصوات، والشيخ سعيد أياس صوتان، والشيخ محمد سعيد أياس صوتان، والشيخ مصطفى الغلاييني ٣ أصوات، والشيخ محمد عمر البربير صوت واحد. وعلى الأثر أرسل الشيخ محمد الكستي محضراً بنتائج الانتخاب إلى رئيس الجمهورية وكان يومذاك شارل دباس . وقد حمل المحضر إلى الرئيس كل من سليم الطيارة، نائب رئيس بلدية بيروت وناجي الفاخوري، عضو مجلس الإدارة. وبعد قليل ورد على قاضي القضاة مرسوم جمهوري بتعيين الشيخ محمد توفيق خالد مفتياً لمدينة بيروت وتولى الشيخ محمد علايا تلاوة المرسوم على الحاضرين. وتجدر الإشارةَ إلى أن الشيخ محمد الكستي كان له دور كبير في تأمين الأكثرية للشيخ محمد توفيق خالد.

وعندما توفي الشيخ محمد الكستي سنة ١٣٥١ هـ (١٩٣٢م) أُلغيت رتبة قاضي القضاة التي كان يشغلها الشيخ المذكور. وأصبح أكبر مرجع ديني في لبنان مفتي بيروت الشيخ محمد توفيق خالد. وفي أيام أميل إده رئيس الجمهورية اللبنانية صدر مرسوم جمهوري بتسمية مفتي بيروت «مفتي الجمهورية اللبنانية» فكان الشيخ محمد توفيق خالد أول من حمل هذا اللقب في لبنان. وفي عهد أول حكومة استقلالية ألفها رياض بك الصلح، أصدرت هذه الحكومة قراراً بأن يكون مفتي الجمهورية اللبنانية المفتش العام للمحاكم الشرعية في لبنان.

بقي الشيخ محمد توفيق خالد في منصبه إلى حين وفاته رحمه الله في بيروت سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م) وتم دفنه بمقبرة الأوزاعي.

بالرغم من أن الشيخ محمد توفيق خالد كان من العلماء المشهود لهم بسعة الاطلاع والأصالة بالعلوم الدينية التقليدية فإنه لم يقم بتأليف أي كتاب في الموضوعات التي يتقنها، إلا انه كان يعتبر فَرَضياً كبيراً، وإليه يرجع الناس في علم الفرائض (أي علم المواريث والتركات والوصايا)، كما ترك بصماته العميقة على تاريخ الحركة الوطنية في هذا البلد وذلك من خلال تعاونه الوثيق مع الزعيم الوطني رياض بك الصلح الذي يدين له لبنان بتحرره من الانتداب الفرنسي واعتراف العالم باستقلاله على أثر أحداث سنة ١٩٤٣.

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها الشيخ محمد توفيق خالد تأسيس الكلية الشرعية في بيروت التي شاء أن تكون ذكرى للشيخين الكبيرين عبد الله خالد ومحمد الحوت (الكبير) وهذه الكلية التي تحمل اليوم اسم «أزهر لبنان» ينفق عليها من الأوقاف التي حبسها الوالي العثماني نصوحي بك بتاريخ ٩ ذي القعدة ١٣١٢ هـ باسم «وقف العلماء» لمساعدة طلبة العلم الديني البيروتيين أثناء دراستهم في بيروت أو متابعة الدراسة في الجامع الأزهر بمصر. ومن هذا المعهد تخرج العديدون من الطلاب اللبنانيين الذين أهلّتهم كفاءاتهم العلمية والخلقية لتولي المناصب العالية في القضاء الشرعي وكذلك في المؤسسات الجامعية وغير ذلك من الأعمال الحكومية وبقية المرافق المفيدة في مختلف مجالات النشاط الاجتماعي والتجاري والثقافي.

الشيخ محمد علايا

هو الشيخ محمد بن يوسف علايا. ولد في بيروت في ٤ شعبان ١٣٠٦ هـ (١٨٨٨م) نشأ في وسط عائلي كريم برعاية والده الشيخ يوسف علايا الذي كان من كبار العلماء في هذا البلد. وتلقى الشيخ محمد علومه الأولى في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت لا سيما في المكتب السلطاني، وأخذ علوم الشريعة والتفسير والحديث والفقه عن والده الشيخ يوسف وعن الشيخ عبد الرحمن الحوت والشيخ مراد العريس والشيخ حسن المدوّر، كما أفاد من لقائه بالعلّامة المغربي الكبير سيدي محمد جعفر الكتاني عندما كان بالمدينة المنورة.

كان الشيخ محمد علايا أول من أسس في بيروت مدرسة ليلية لتعليم أبناء المسلمين المبادىء الدينية والأخلاق الإسلامية. وتولى في مدارس المقاصد، تدريس علوم العربية والسيرة النبوية والتاريخ. وفي سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠م) عين كاتباً في المحكمة الشرعية أيام قاضي القضاة الشيخ محمد الكستي. وقد تدرج في المحاكم الشرعية الى أن اصبح رئيس محكمة الاستئناف. وأثناء عمله في المحاكم الشرعية كان يشغل وظيفة إمام وخطيب في جامع البسطة التحتا، خلفا لوالده الذي كان يشغل قبله هذه الوظيفة ثم انتقل إلى الإمامة والخطابة في جامع عين المريّسة القريب من بيته.

وعندما توفي الشيخ محمد توفيق خالد اختاره العلماء وأهل الحل والعقد لخلافة المفتي السابق. ولما شعر في أُخريات عمره بأن صحته لم تعد تساعده على الوفاء بحق هذا المنصب الإسلامي الخطير قدم استقالته، وما لبث غير قليل حتى وافاه الأجل. وكانت وفاته رحمه الله ببيروت يوم الأربعاء في ٢٣ جمادى الثانية ١٣٨٧ هـ (٢٧ أيلول ١٩٦٧م) وتم دفنه في مقبرة الأوزاعي بجوار ضريح سلفه المفتي السابق الشيخ محمد توفيق خالد.

الشيخ حسن خالد

هو الشيخ حسن بن سعد الدين خالد. ولد في بيروت سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) بدأ علومه الأولى في مدرسة عمر الفاروق التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. بعد حصوله على شهادة الدروس الابتدائية التحق بالكلية الشرعية في بيروت (أزهر لبنان اليوم) وبقي فيها إلى أن تخرج منها سنة ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠م). بعد تخرجه من الكلية المذكورة كلفته المديرية العامة للأوقاف الإسلامية بوظيفة خطيب في بعض مساجد بيروت، ثم أرسله مفتي الجمهورية اللبنانية مع بعض زملائه إلى الجامع الأزهر في مصر لمتابعة تخصصه العالي في العلوم الدينية. فالتحق بكلية أصول الدين التي بقي فيها إلى أن تخرج منها حاملاً شهادتها النهائية في سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٦م). على أثر عودته الى بيروت عُيِّن كاتباً في المحكمة الشرعية ببيروت ثم ترقّى إلى درجة رئيس القلم. وعندما أجرت الحكومة امتحانات لاختيار قضاة لبعض المحاكم الشرعية اشترك في الامتحان ونجح فعينته الحكومة قاضياً في محكمة عكار الشرعية ومنها نقل إلى محكمة شحيم. وفي أثناء عمله في المحاكم الشرعية كان يمارس التدريس في أزهر لبنان وإلقاء خطبة الجمعة في بعض مساجد بيروت، كما كان يعمل قبل التحاقه بالمحاكم المذكورة. وعندما استعفى الشيخ محمد علايا من منصب الافتاء بسبب الشيخوخة بادر الشيخ حسن خالد إلى ترشيح نفسه لملء هذا المنصب كما فعل مثل ذلك الشيخ عبد الله العريس. إلا أن أهل الحل والعقد من المسلمين أقنعوا هذا الأخير بأن المصلحة تقضي بعدم المنافسة بين المرشحين لمنصب الإفتاء لكي ينعقد الإجماع على انتخاب مفتي البلد إبقاءً على مظاهر التضامن والاتحاد بين المسلمين في الظروف التي يعيشونها بلبنان. فانسحب الشيخ عبدالله العريس وأصبح الشيخ حسن خالد المرشح الوحيد لمنصب الإفتاء وتم انتخابه بالإجماع من قبل الهيئة الناخبة، وأصدرت الحكومة اللبنانية مرسوماً باعتماد هذا الانتخاب، وقعه شارل حلو رئيس الجمهورية وعبدالله اليافي رئيس الوزارة وفقاً للقوانين المرعية.

كان الشيخ حسن خالد يتمتع بثقافة دينية أهلته لها دراساته الأزهرية ومن خلال هذه الأهلية قام بتأليف عدد من الكتب في الموضوعات المتصلة بثقافته المذكورة، منها كتابان أحدهما في المواريث والآخر في موضوع الأحوال الشخصية عند المسلمين وشاركه في تأليف هذين الكتابين المحامي عدنان نجا وللشيخ حسن خالد كتب أخرى تتضمن الآراء والمواقف التي رآها صالحة لمعالجة المشكلات المطروحة على الساحة الإسلامية والوطنية سواءً في داخل لبنان أو في خارجه وله كتاب يتضمن البيانات والتصريحات الصادرة عن دار الفتوى خلال الحرب الأهلية في لبنان. كما أن له كتاباً باسم «الشهيد» صدر عن دار العلم للملايين. كان للشيخ حسن خالد علاقات وثيقة بالمنظمات الإسلامية العالمية، وعيِّن عضواً مؤسساً في عدد منها مثل رابطة العالم الإسلامي والمجلس الأعلى العالمي للمساجد اللتين لهما مقر دائم في مكة المكرمة.

وخلال السنوات التي مرت على المفتي الشيخ حسن خالد في منصبه منذ انتخابه حتى وفاته قام بزيارة العديد من البلدان في القارات الثلاث : آسيا وإفريقيا وأميركا بعض هذه البلدان زارها تلبية لدعوة رسمية من حكوماتها وبعضها الآخر كانت زيارته لها بتكليف من رابطة العالم الإسلامي في إطار النشاطات التي تقوم بها هذه المنظمة من أجل التعرف على أحوال المسلمين في العالم والعمل على إيقاظ وعيهم الديني وشدهم بعضهم إلى بعض في عروة وثقى من التآزر والتعاون لمواجهة التحديات التي يتعرضون لها من قبل الدول الطامعة في أرضهم أو الضالعة في تدمير عقائدهم الدينية وكياناتهم الاجتماعية والقومية.

هذا وقد توفي الشيخ حسن خالد يوم الثلاثاء في ١١ شوال سنة ١٤٠٩هـ (١٦ أيار سنة ١٩٨٩) عندما انفجرت بقرب سيارته سيارة ملغومة بمواد ناسفة وذلك في محلة عائشة بكار

ببيروت. وقد تم دفنه بمقبرة الأوزاعي في اليوم التالي لوفاته.

منصب الافتاء اليوم

على أثر وفاة الشيخ حسن خالد اجتمع المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بكامل أعضائه وأصدر القرار رقم (١) تاريخ ١٣ شوال ١٤٠٩هـ - (١٨ أيار سنة ١٩٨٩م) باعتبار أمين الفتوى في الجمهورية اللبنانية الدكتور الشيخ محمد رشيد رضا القباني ابن الشيخ راغب القباني رحمه الله، أنه يقوم حكماً مقام المفتي الراحل إلى حين انتخاب مفتٍ جديد.

طريقة انتخاب المفتي أيام العثمانيين

في العهد العثماني كانت طريقة انتخاب المفتي في بيروت تختلف عما هي عليه اليوم. ففي أيام العثمانيين كانت عملية الانتخاب قاصرة على العلماء المتعمِّمين الذين يشكلون رجال السلك الديني في البلد، وهم في العادة: القضاة الشرعيون والمكلفون بالمهمات المسجدية مثل التدريس والإمامة والخطابة. يضاف إليهم الأعضاء المسلمون السنّيون في المجلس البلدي والمجلس الإداري في الولاية.

وكان هؤلاء الناخبون يختارون ثلاثة مرشحين ويقدمون أسماءهم إلى والي الولاية وهذا بدوره يحيل أسماء هؤلاء المرشحين الثلاثة إلى مشيخة الإسلام في اسطمبول التي لها حق استنساب أحدهم للإفتاء واستصدار ما كان يسمى «فرمان عالي شان» أي مرسوم من السلطان، بتعيين الشخص الذي يستنسبه شيخ الإسلام، ذلك أن تعيين المفتين في حواضر الولايات العثمانية كان يقتضي صدور الأمر بهذا التعيين من قبل السلطان نفسه بوصفه الخليفة الأعظم أمير المؤمنين.

ولقد استمرت هذه الطريقة مرعية الإجراء أيام الانتداب الفرنسي ولكن من الناحية الشكلية فقط، أما عملياً، فلقد كان المرسوم الجمهوري يصدر باسم الشخص الذي يحرز أكثرية أصوات الهيئة الانتخابية، وفي العهد الاستقلالي صرف النظر نهائياً عن تثليث الترشيح للإفتاء واكتفى الناخبون بتقديم اسم المرشح الفائز بأكثرية أصواتهم إلى المراجع الحكومية التي تلتزم بإصدار مرسوم تعيين هذا المرشح بصورة رسمية ونهائية.

طريقة انتخاب مفتي الجمهورية اللبنانية في أيامنا

نظراً للمفارقات الطائفية المهيمنة على المجتمع اللبناني، فإن منصب مفتي الجمهورية اللبنانية يتأثر بما يقابله من المناصب الدينية الرئيسية لدى الطوائف الدينية الأخرى، مع فارق إجرائي بالنسبة للبطاركة الكاثوليك الذين يتسلمون ما يسمى عند النصارى بـ «درع التثبيت» من أمير الكنيسة الكبير بابا رومية صاحب السدة الفاتيكانية. وليس للحكومة أي دخل في تعيين البطاركة المذكورين في حين أن انتخاب مفتي الجمهورية اللبنانية والمفتين في المدن والملحقات يعتبر شأناً لبنانيًا محليًا، ومراسم هذا الانتخاب يحكمها المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ المتعلق بالإفتاء والأوقاف الإسلامية الصادر بتاريخ ١٣ كانون الثاني ١٩٥٥ مع التعديلات المقررة على بعض مواده من قبل المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى بموجب القرار رقم (٥) تاريخ ٢١ ذي القعدة ١٣٨٦ هـ الموافق ٢ آذار ١٩٦٧م والمنشور في الجريدة الرسمية عدد ٢٢ تاريخ ١٩٦٧/٣/١٦.

وهذا المرسوم جعل الهيئة الانتخابية التي تقترع لانتخاب مفتي الجمهورية اللبنانية مؤلفة من الشخصيات المدنية ذات الحيثيات الرسمية والاجتماعية القضائية بالإضافة إلى المتعممين الذين يقومون بوظائف دينية، وغير هؤلاء وأولئك من المسؤولين النقابيين وحملة الشهادات الدينية والمعترف بها في لبنان.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن العناصر المدنية أُعطيت في المرسوم المذكور حق الاشتراك مع العناصر الدينية في عملية انتخاب المفتي على نفس المستوى والفعالية التي أعطيت للفريق الآخر مع العلم بأن المفتي في الأساس «هو الرئيس الديني للمسلمين وممثلهم بهذا الوصف لدى السلطات العامة» كما تقول المادة الثانية من المرسوم المذكور.

ويقال في تعليل هذه الظاهرة، أي إدخال المدنيين في انتخاب رئيس السلك الديني، بأنّ منصب الإفتاء في لبنان أصبح في العرف العام والممارسة الفعلية مركزاً تمثيليًا للزعامة الروحية عند المسلمين، أكثر منه رئاسة عليا للأجهزة الدينية والعاملين في إطاراتها من الموظفين الإداريين ومن إليهم من المتعممين العاملين في القضاء الشرعي والوظائف المسجدية كالإمامة والخطابة والتدريس.

الصفة الرسمية لمفتي الجمهورية اللبنانية وصلاحياته

المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ حدد الصفة الرسمية لمفتي الجمهورية اللبنانية كما يلي: «مفتي الجمهورية اللبنانية هو الرئيس الديني للمسلمين وممثلهم بهذا الوصف لدى السلطات العامة وله ذات الحرمة والحقوق والامتيازات التي يتمتع بها أعلى الرؤساء الدينيين بلا تخصيص ولا استثناء».

هذا هو الوصف الرسمي لمفتي الجمهورية اللبنانية. وهذه الصفة تجعله على نفس المستوى لكل من بطاركة المذاهب

النصرانية المختلفة ورئيس المجلس الشيعي الأعلى، وشيخ عقل الطائفة الدرزية، وجاثليق (كاثوليكوس) الأرمن على المذهبين الأرثوذكسي والكاثوليكي.

وبمقتضى هذه الصفة تعامله الدولة اللبنانية وكذلك الدول الأجنبية لجهة علاقاتها الرسمية به والمظاهر المتصلة بمراسم التشريفات (البروتوكول) في المراسم الدينية والمناسبات الطارئة المختلفة وفي أثناء تنقلاته التي تحمل الطابع الرسمي في داخل البلاد وخارجها.

وقد حدث في الماضي أن شرطة السير تعرضت للمفتي الشيخ محمد توفيق خالد أثناء نزوله من الجبل إلى بيروت لجهلها شخصيته الدينية وصفته الرسمية، فلجأ نجله الأستاذ مختار خالد إلى وضع علم على سيارة أبيه للتعريف به كتبت عليه الآية الكريمة: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾ وذلك منعاً لتكرار تلك الحادثة. ومنذ ذاك اليوم أصبح وضع علم على سيارة مفتي الجمهورية اللبنانية تقليداً متبعاً، وما لبث الرؤساء الروحيون أن قلدوه في هذا العمل ووضع كل منهم العلم الذي يتميز به على سيارته. وبالرغم من أن القوانين المرعية تحدد مواصفات الأشخاص الذين يحق لهم وضع العلم على سياراتهم، فإن الدولة غضت النظر عن هذه البادرة مراعاةً لخاطر الرؤساء المذكورين. وهكذا أصبح العلم على سياراتهم جزءاً من امتيازاتهم البروتوكولية. أما بالنسبة للصلاحيات التي أعطاها المشترع اللبناني للمفتي فإنها على نوعين: أحدهما عمومي يتعلق بالإشراف على أحوال المسلمين ومصالحهم الدينية والاجتماعية في مختلف مناطق الجمهورية، والثاني خصوصي ويتعلق بسلطته الفعلية المباشرة على جميع الأجهزة المرتبطة بمؤسسة الإفتاء سواء في الإدارة أو في المرافق الدينية. (الإمامة والخطابة والتدريس في المساجد والتعليم الديني في المدارس الرسمية، والوعاظ الدينيون).

مكتب المفتي في بيروت

أيام العهد العثماني لم يكن للإفتاء جهاز إداري كما هو الحال الجاري اليوم. بل كان منصب الإفتاء قاصراً على شخص المفتي بالذات ولذلك لم يعرف عن المفتين في العهد المذكور أنهم اتخذوا لأنفسهم مكاتب خاصة لمزاولة أعمالهم على نحو ما هو معروف الآن، بل كان المفتي آنذاك يلازم بيته حيث يستقبل أصحاب الحاجات كما لو كانوا من الزوار العاديين.

وعندما تعين المفتي الشيخ مصطفى نجا بقي مزاولاً لأعماله التجارية في محله بسوق العطارين الذي كان موقعه تحت القناطر في الجهة الغربية من الجامع العمري الكبير بجانب الباب. وبعد مدة انتقل إلى الدكان الصغيرة التي شغلها فيما بعد رجل من آل محرم ويستعملها لبيع القرطاسية وما إليها من الأدوات المدرسية والمكتبية. ولم تعد هذه الدكان موجودة في أيامنا. وكان موقعها في الجهة الغربية من الجامع العمري الكبير بجانب مدخله الرئيسي المطل على شارع المعرض، وبقي المفتي نجا في المكان المذكور إلى حين انتقاله إلى جوار ربه.

فلما انتهى الإفتاء إلى الشيخ محمد توفيق خالد جعل مكتبه في الغرفة التي تحولت فيما بعد إلى ما سمي بالبهو - أي الصالون - وما زال هذا البهو موجوداً حتى اليوم. وكان المفتي خالد يداوم فيه كما كان يستعمله لاستقبال كبار الزوار الذين كانوا يجاملون المسلمين في المناسبات الدينية مثل عيديْ الأضحى والفطر وذكرى المولد النبوي الشريف ورأس السنة الهجرية.

وفي سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٨م) قام الشيخ محمد توفيق خالد ببناء العمارة التي أصبحت تعرف اليوم باسم «دار الفتوى» في محلة عائشة بكار مستعيناً بالأموال التي قدمها لهذا الغرض رياض بك الصلح رحمه اللّه ومقدارها (٢٢٢،٥١٦،٨٠) (مئتان واثنان وعشرون ألفاً وخمسمائة وست عشرة ليرة لبنانية وثمانون قرشاً) وهذا المبلغ هو مجموع المال الذي تكلفه البناء الذي أُعد يومئذ ليكون داراً للإفتاء في الجمهورية اللبنانية. وكان من المتفق عليه بين المفتي الشيخ محمد توفيق خالد وبين رياض بك الصلح أن يلحق بهذا المبنى جناح لسكَن مفتي الجمهورية اللبنانية على تعاقب الأيام.

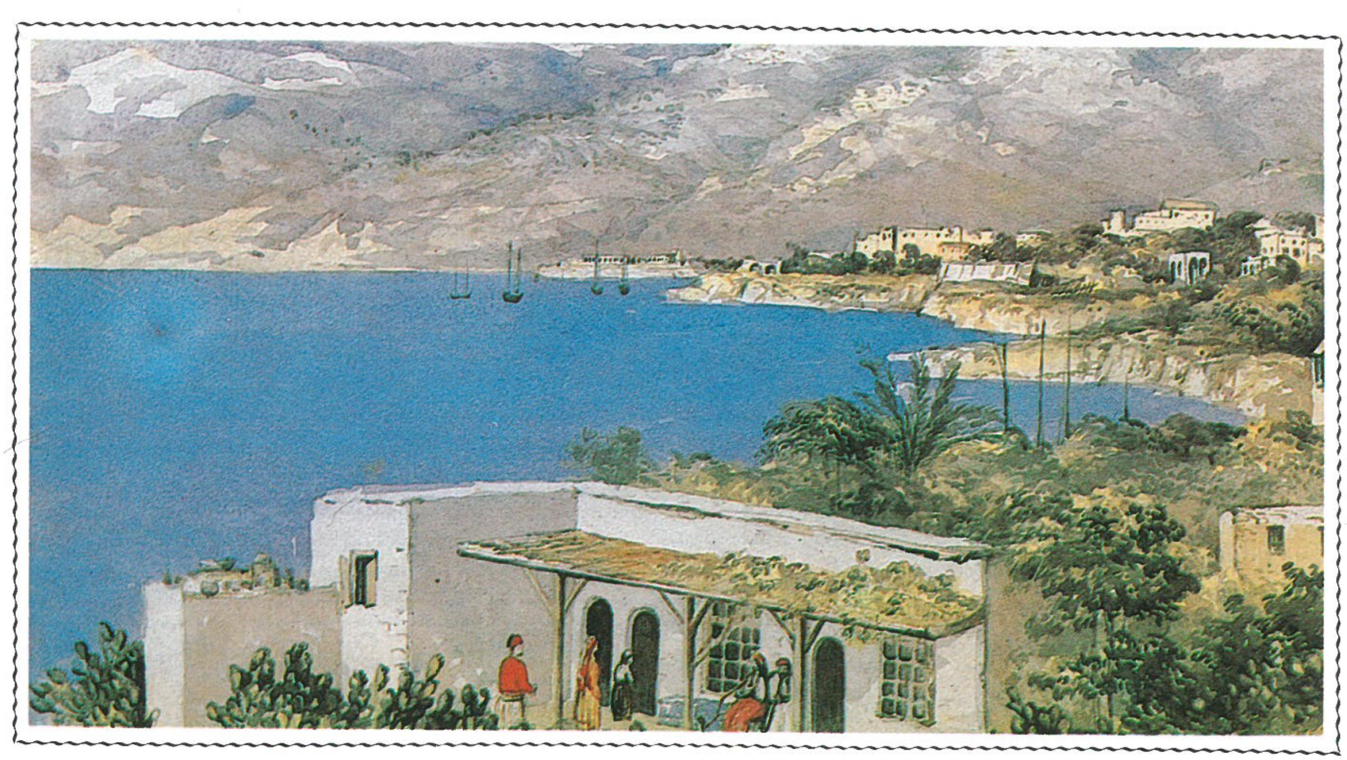
ولكن هذه الفكرة لم تتحقق بسبب وفاة الرجلين صاحبي هذا المشروع. وفي سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠م) تم إنجاز البناء المذكور وأصبح صالحاً ليكون مكاناً رسمياً لدائرة الإفتاء، وقد انتقل الشيخ محمد توفيق خالد إلى هذا البناء حيث اتخذ من إحدى غرفه الأرضية مكتباً له.

وما زال هذا المبنى يستعمل حتى اليوم كمركز يضم جميع الأشخاص العاملين في دائرة الإفتاء وعلى رأسهم المفتي نفسه.

ولقد خطر ببال الشيخ محمد توفيق خالد رحمه اللّه أن يبني مجمّعاً من عدة أبنية في محلة الأوزاعي يضم دار الفتوى والمحاكم الشرعية وكذلك بيوتاً يسكنها العلماء العاملون في هاتين المؤسستين، ولكن وفاة المفتي ورياض الصلح كانت قبل تنفيذ هذا المشروع فصرف النظر عنه.

وفي أيامنا خطر في بال مفتي الجمهورية اللبنانية السابق الشيخ حسن خالد أن يبني مجمّعاً بالقرب من دارته في عرمون يضم دائرة الفتوى والمحاكم الشرعية وأزهر لبنان بالإضافة إلى مسجد تقام فيه الصلاة الجامعة. إلا أن الأستاذ شفيق الوزان، رئيس الحكومة اللبنانية آنذاك أقنعه بصرف النظر عن نقل دار الفتوى والمحاكم إلى خارج بيروت لأن تفريغ هذه المدينة من المنشآت الرسمية الإسلامية سيؤدي في النتيجة إلى تفريغها من المسلمين كذلك. لذلك اكتفى المفتي بنقل أزهر لبنان إلى عرمون وبقيت دار الفتوى والمحاكم الشرعية حيث هي اليوم، وأعيد الأزهر لمكانه القديم ببيروت.

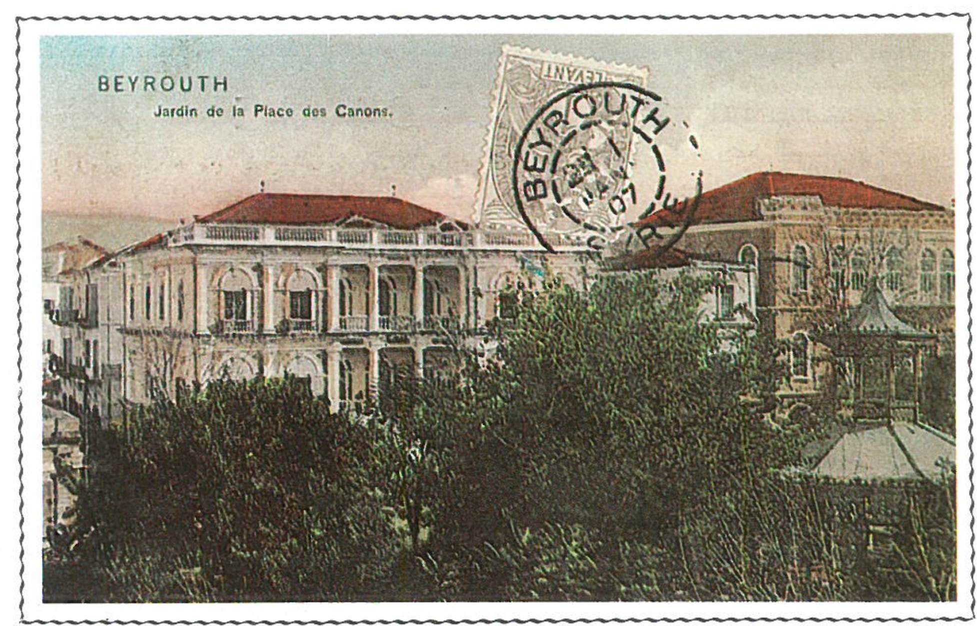
معالم بيروت في صُوَر



بيروت: البحر والجبال المطلّة عليها في القرن التاسع عشر

مرفأ بيروت وأرصفته



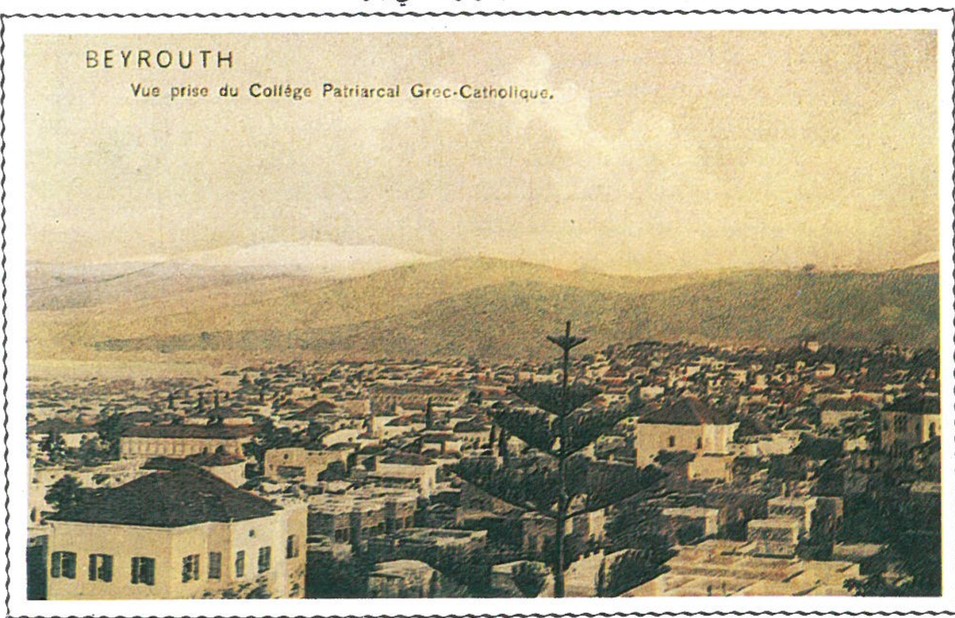


ساحة الشهداء وحديقتها

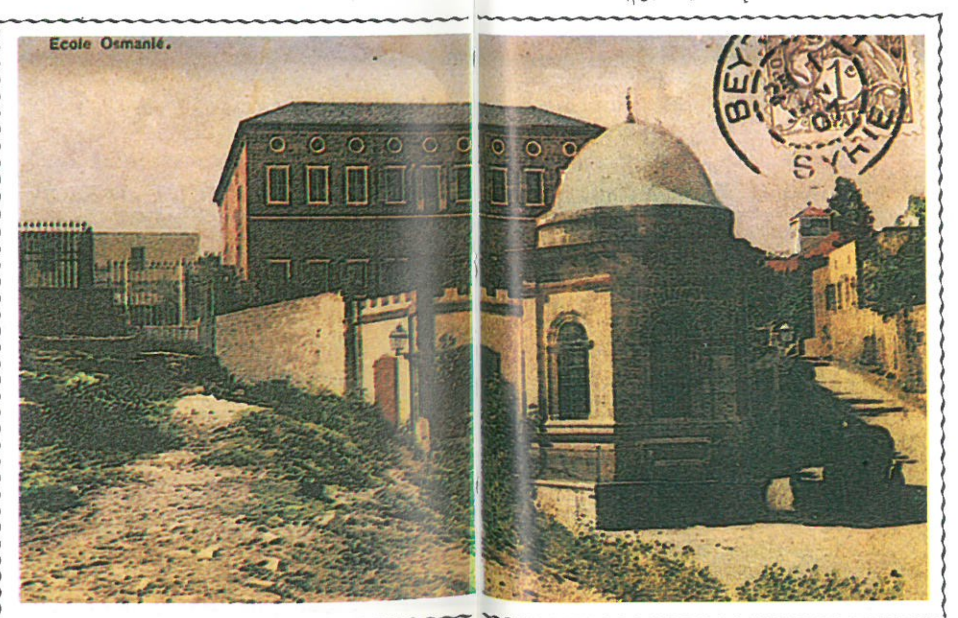


الجامعة الأميركية في بيروت

الكلية البطريركية في بيروت



الكلية العثمانية (كلية البنات التابعة
لجمعية المقاصد الإسلامية اليوم)





بيروت من جهة مصنع الغاز

ساحة السور (عصور)





منطقة الروشة



ساحة الشهداء



منطقة الفنادق في بيروت

ساحة النجمة ومبنى البرلمان وساعة العبد



بلدية بيروت وشارع ويغان





جامع السرايا وشارع ويغان





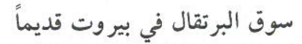
سوق الهال في عصور



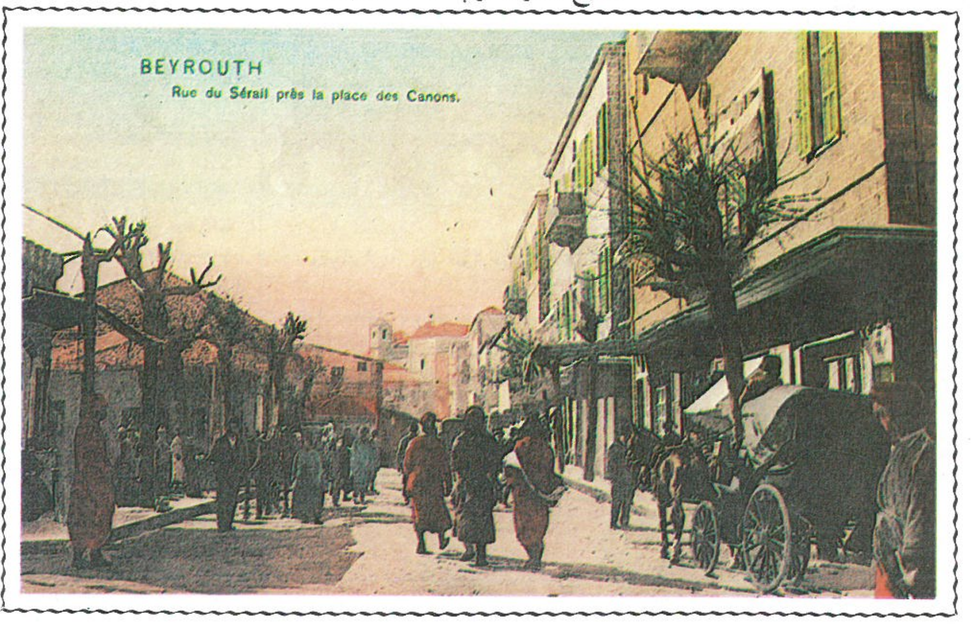
ساحة المدافع (ساحة الشهداء اليوم)



شارع اللنبي



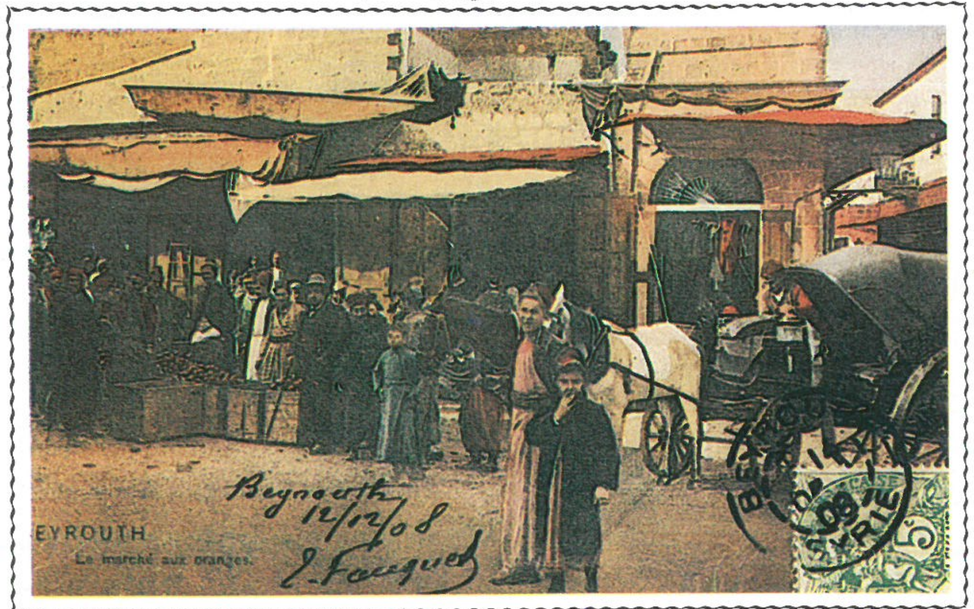
شارع السرايا قرب ساحة الشهداء



شارع في بيروت باتجاه محطة السكة الحديدية



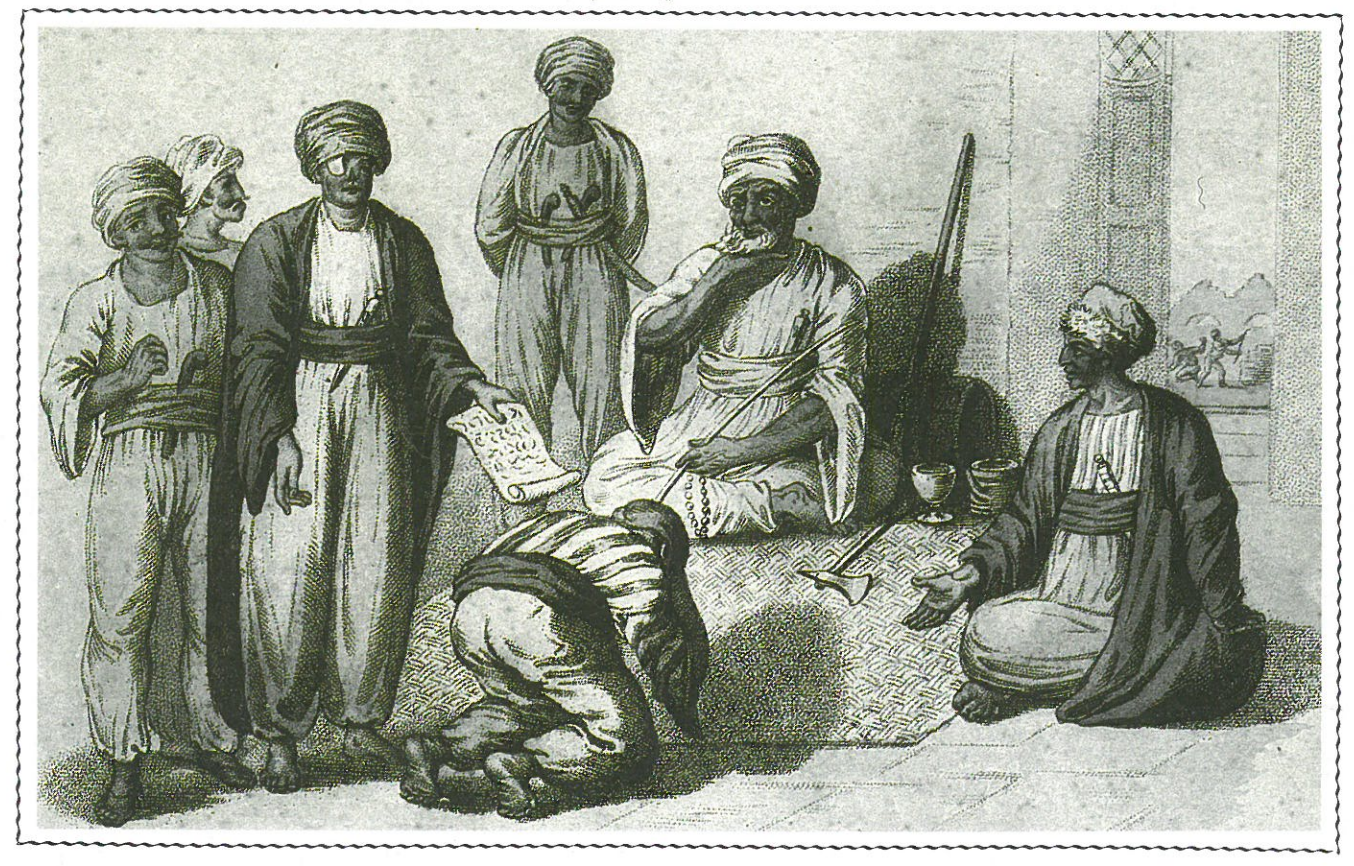
سوق البرتقال في بيروت قديماً





عزمي بك والي بيروت باللباس العسكري، يحيط به وقوفاً من اليمين: عبد الحميد غندور، حسن قرنفل، عارف دياب، إبراهيم عودة، حسن القاضي. وجلوساً مصطفى عز الدين وعمر الداعوق

أحمد باشا الجزار والي عكا في جلسة محاكمة





حازم بك والي بيروت

أدهم بك والي بيروت





عبد الغني سني بك مكتوبجي ولاية بيروت

عزمي بك والي بيروت الذي بُني قصر الصنوبر في عهده





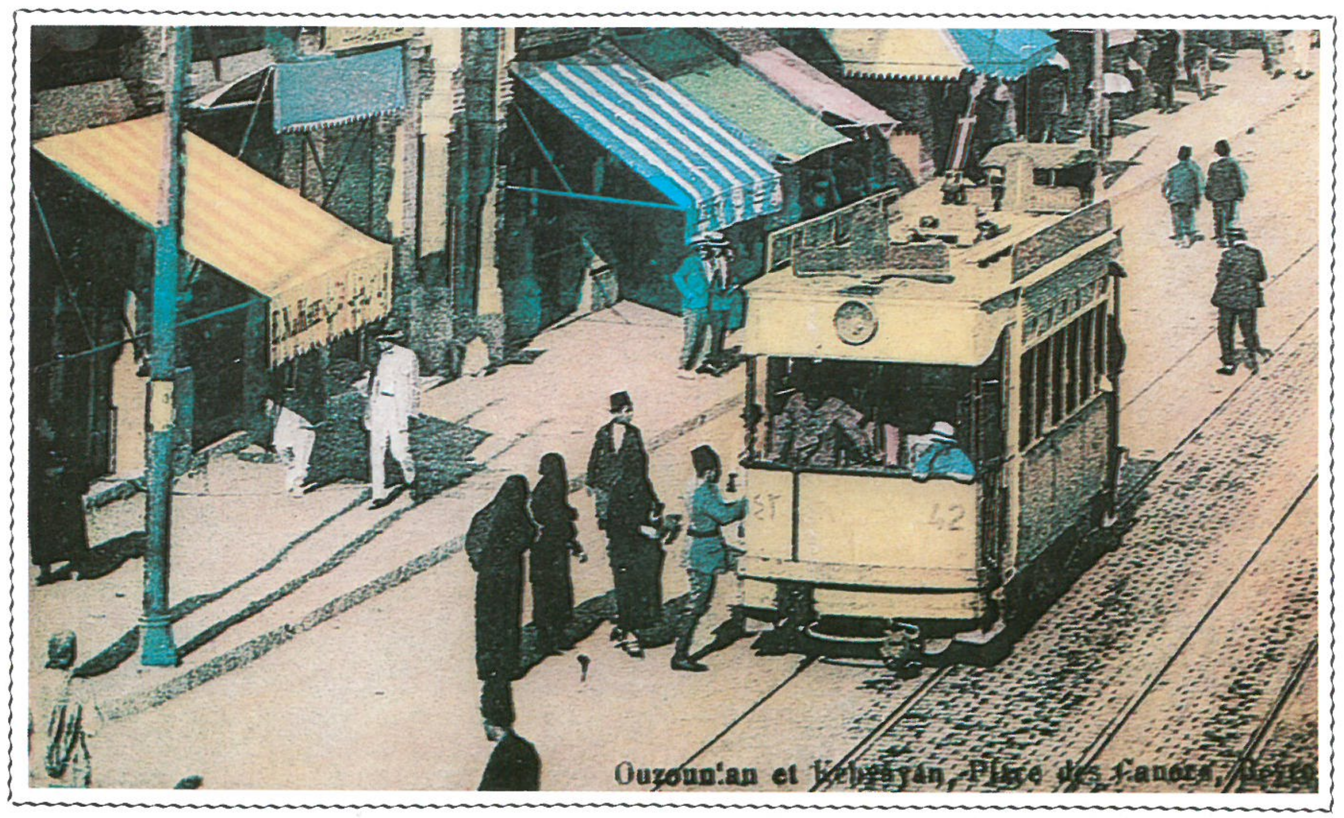
أدهم بك والي بيروت

إسماعيل حقي آخر الولاة العثمانيين في بيروت





ناظم باشا والي بيروت

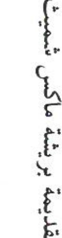


الترام يمرّ في ساحة الشهداء

تجمّع الحمالين







بيروت القديمة بريشة ماكس شميت



سيدة بيروتية



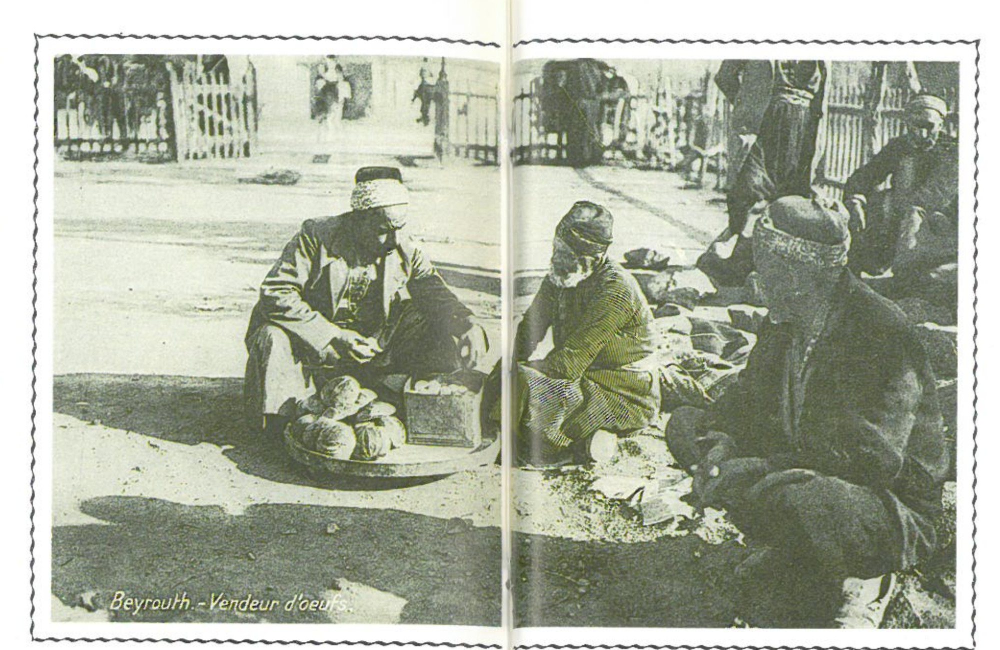
تاجر بيروتي

سوق الهال والسبيل الحميدي



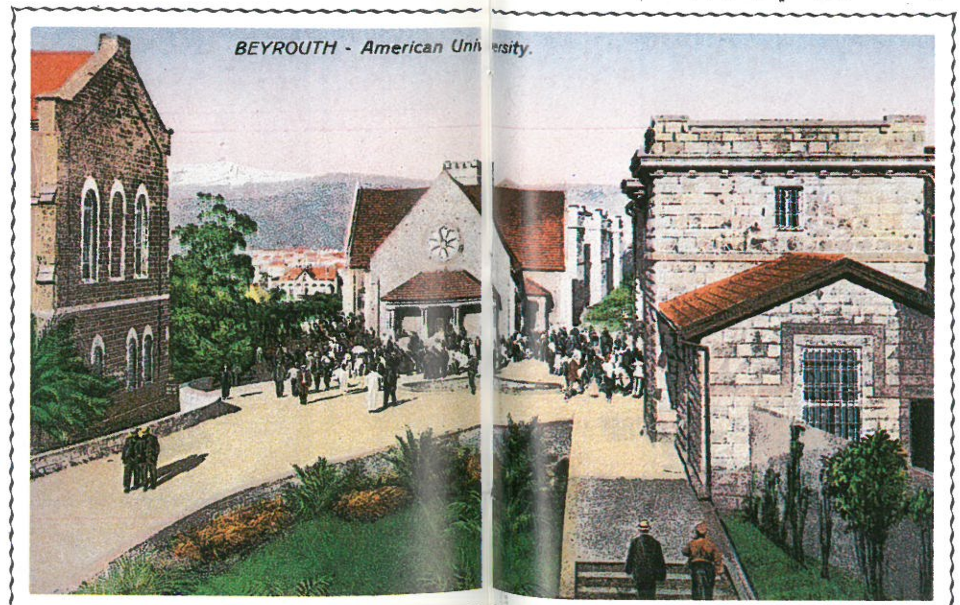


أحد الأسواق القديمة



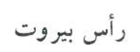
بائع البيض

ميناء الحصن


الجامعة الأميركية في رأس بيروت




السراي الصغيرة

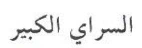

رأس بيروت




الجنرال غورو الذي أعلن دولة لبنان الكبير

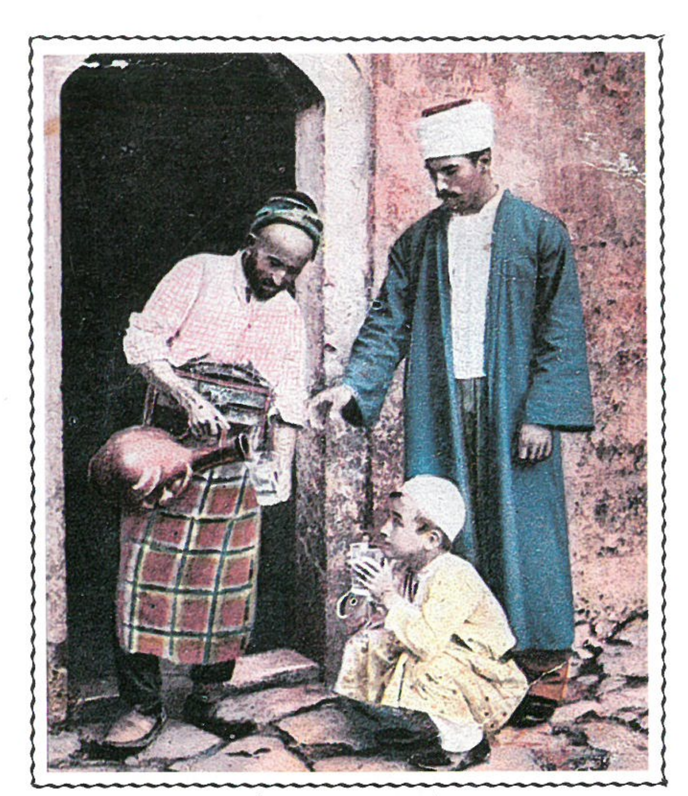


تاجر مجوهرات يعرض بضاعته على إحدى السيدات



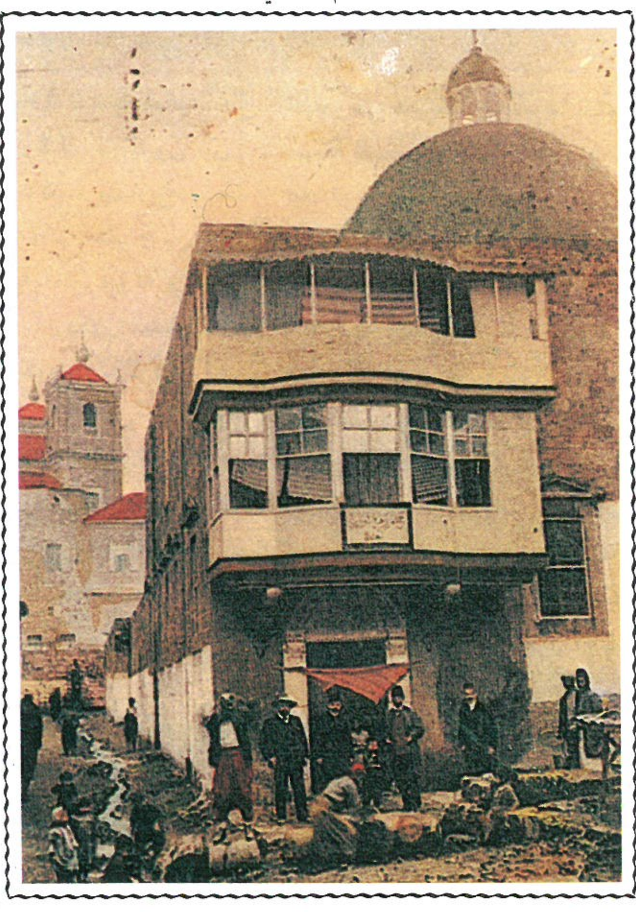
السراي الكبير





السقّاء في بيروت قديماً

حمّام عمومي





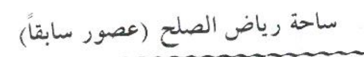
خان أنطون بك

منظر آخر لمرفأ بيروت





سوق الطويلة



ساحة رياض الصلح (عصور سابقاً)



أعيان العلماء في بيروت

الإمام عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام

هو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحمِد، واشتهر بلقب الأوزاعي في حياته وبعد مماته. وكان يكنّى «أبا عمرو» وليس للأوزاعي ولد بهذا الاسم. ولكنه تكنّى باسم أبيه، وتلك تقاليد ما زال العرب يأخذون بها من قديم الزمان وحتى اليوم.

ولد في مدينة بعلبك في حدود سنة ٨٨هـ (٧٠٧م) وهو الراجح.

مات أبوه عمرو وتركه صغيراً يتيماً فنشأ في حضانة والدته التي كانت تنتقل به من بلد إلى آخر سعياً وراء لقمة العيش لتتمكن من القيام بأمر تربيته. وانتهى بها المطاف وهو معها في بلدة الكرك، من أعمال البقاع في لبنان اليوم. وفي هذه البلدة انصرف إلى طلب العلم حتى أصبح قادراً على تعاطي صناعة القلم. فكان يستخدم هذه الصناعة في العمل عند من يكلفه بها لقاء أجر معين. ثم انتقل إلى خدمة الحكومة التي عيّنته في الديوان للإجابة على ما يَرِدُ إلى الولاة من رسائل أصحاب الحاجات.

ومن الكرك تحول الأوزاعي إلى اليمامة في جزيرة العرب حيث عمل كاتباً لدى أحد العلماء، الأمر الذي أتاح له المزيد من الثقافة الدينية. ومن اليمامة قصد بلاد العراق للاجتماع بعلماء هذا القطر، ومن العراق اتجه صوب دمشق.

إقامته في بيروت

كانت بيروت في أيام الأوزاعي، بلدة صغيرة، لا تتجاوز المنطقة التجارية الحالية، وقد سكن الأوزاعي في بيت متواضع داخل السوق الذي يعرف اليوم باسم «سوق الطويلة» وقد تحوّل هذا البيت بعد وفاة الأوزاعي إلى مزار يقصده الناس للتبرك، ثم أصبح دكاناً تجارياً. وفي أواسط القرن الماضي شيّد فوق هذا البيت مسجد صغير بهمة جماعة من آل بيهم، من أعيان بيروت المعروفين. وما زال هذا المسجد قائماً حتى اليوم وقد أطلق عليه اسم «جامع الإمام الأوزاعي».

وعندما استقر المقام للأوزاعي في بيروت أسندت إليه وظيفة مؤذن وإمام جامع بيروت. وفي هذا الجامع كان الأوزاعي يلقي دروسه على الطلاب الذين كانوا يطلبون عليه العلم.



عبد الرحمن الأوزاعي كما تخيله المؤلف

وبقي الأوزاعي يزاول عمله في الجامع إلى حين وفاته. وكانت خاتمة حياته سنة ١٥٧هـ (٧٧٧م) وعاش نحو ٧٠ سنة، وقد اتفقت كلمة المؤرخين أنه توفي مختنقاً بغاز الكربون أثناء وجوده في الحمام.

ويذكر أحد معاصريه في سبب وفاته: أنه اختضب (أي صبغ

رأسه ولحيته بالحنّاء) ودخل الحمام وأدخلت امرأته إلى الحمام، كانوناً فيه نار لتدفئته، وأغلقت باب الحمام، فلما هاج الفحم واشتدت النار، ضاق نفس الأوزاعي ولم يقوَ على فتح الباب فوقع مغشيًّا عليه ثم ما لبث أن مات.

وقد اتفق جميع المؤرخين على أن الأوزاعي دفن في القبر المعروف به اليوم. وهو القبر المشهور عند الناس باسم «مقام الأوزاعي» وهذا القبر يقع في ضاحية بيروت الجنوبية عند ساحل البحر. وكانت هذه الضاحية تعرف قديماً باسم قرية «حنتوس» وقد زالت معالم هذه القرية ولم يبقَ منها سوى المقام المذكور والجامع الملاصق له، على أن عمران بيروت امتد إلى هذه الضاحية وهي الآن منطقة مأهولة بالسكّان وتحمل اسم «محلة الأوزاعي» نسبة للإمام المدفون فيها.

وأصبح هذا المقام مزاراً يقصده أهل بيروت وغيرهم، مسلمين وغير مسلمين، ويتبركون به ويقدمون له الهبات والأوقاف والنذور، وإن الكثيرين من المسلمين يوصون بأن يدفنوا في المقبرة المجاورة للمقام اعتقاداً منهم بالمكانة الروحية السامية التي يتمتع بها صاحب هذا المقام. وإن عدداً من الشعراء نظموا قصائد مطولة في مدح الإمام الأوزاعي وبعض هذه القصائد ما تزال معلقة داخل الحجرة التي يوجد فيها قبر الإمام، الذي يقع ضمن بناء قديم العهد وقد بني هذا القبر في الجهة القبلية من جامع حنتوس القديم وقد أحيط بقفص خشبي مزخرف، وهو مبني بالرخام الأبيض وفوقه شارات من الحرير الأخضر، وهذه الشارات يضعها المسلمون على قبور صلحائهم وذلك وفقاً لتقاليد قديمة ما زالت متبعة حتى اليوم.

ويقال إن «محمد» ابن الأوزاعي قد دفن أيضاً في نفس هذا القبر. وكان محمد المذكور من الأشخاص المشهود لهم بالتقوى والصلاح.

مذهب الأوزاعي

يعتبر الإمام الأوزاعي أحد الأئمة المجتهدين في التشريع الإسلامي، ولقد كان لاجتهاداته التشريعية في الفقه الإسلامي أتباع يعملون بها. ويتبين من كلام المؤرخين أن «مذهب الأوزاعي» كان سائداً في سورية نحواً من مائتي سنة كما كان سائداً في الأندلس حوالي نصف القرن، إلا أن العمل بهذا المذهب توقّف وتلاشى لأن الإمام الأوزاعي لم يحظَ بأشخاص حافظوا عليه كما حصل بالنسبة لأئمة المذاهب الأربعة المعمول بها الآن وهي: المذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنفي.

وكانت سيرته حافلة بالأعمال المجيدة، وكان مؤمناً جريئاً في الحق، وكان ثقة في رواية الحديث وكان مذهبه أقرب إلى مذاهب أهل الحديث منه إلى مذاهب أهل الرأي.

وفي باب الأحكام السلطانية، أي قواعد القانون العام، وقف الأوزاعي موقف المؤمن بمبادىء المساواة والحريات العامة، وأخصها الحرية الشخصية وحرية العقيدة. فكان يشير على الخلفاء والولاة بالتقرب من الرعية، وبلزوم معاملتهم بالعدل والمساواة من دون تفريق لجهة الدين أو اللون أو النسب.

وقد اشتهر الأوزاعي بفتاويه الرحيمة في تطبيق الحدود، خصوصاً بسقوطها بالشبهات عملاً بقاعدة تفسير الشك لصالح المتهم، وبسقوطها أحياناً بالتوبة وبالشفاعة قبل وصولها إلى القضاء.

ومن طريف ما يروى أنه لما خرج إبراهيم ومحمد من آل البيت على الخليفة أبي جعفر المنصور طلب الخليفة من أهل الثغور مساعدته، لكنهم أبوا ذلك فنقم عليهم. ثم لما وقع في يد الروم ألوف الأسرى من المسلمين، رغب ملك الروم أن يفادى بهم، فأبى أبو جعفر.

عندئذ لجأ الناس إلى الأوزاعي فكتب هذا إلى الخليفة المنصور يذكر له ما يتكبده الأسرى من إهانة وغلبة وطلب إليه أن يرحمهم بقبول افتدائهم ثم قال له: «أما بعد، فإن الله تعالى استرعاك أمر هذه الأمة، لتكون فيها بالقسط قائماً... فليتقِ الله أمير المؤمنين، وليبتغ بالمفاداة بهم من الله سبيلاً».

ولما تسلم الخليفة ذلك الكتاب أمر بالفداء المطلوب.

وإذا كان الأوزاعي قد توسط الأسرى المسلمين لدى الخليفة بأن يفاديهم عند ملك الروم ونجح في هذه الوساطة بسبب منزلته العلمية والدينية والاجتماعية، فإنه قد نجح أيضاً، ولنفس السبب عندما استجار به نصارى لبنان ليصرف صالح بن علي العباسي والي هذه البلاد عن تعميم غضبه على سائر أهل المنيطرة من هؤلاء النصارى عندما قرر إجلاءهم عن مناطقهم دون التفرقة بين طائعهم وعاصيهم. وما تزال حتى اليوم محافل اللبنانيين تتناقل مع تقاليدها المأثورة قوله للوالي المذكور: «وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان من لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يُخرَجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أن ﴿لا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وهو أحق ما وُقف عنده واقتُدي به. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله ﷺ. فإنه قال: «من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه» وهو القول الذي كَفْكَف من غرب صالح بن علي العباسي وكبح جماح غضبه وراض حكمه على

ما يُرضي الشرع الإسلامي كما بينه الأوزاعي له.

إن هذه الوقفة الشجاعة التي وقفها الأوزاعي أمام الوالي العباسي من أجل رد غائلة الظلم عن عموم النصارى بسبب انجراف بعضهم في تيار سياسة الروم المعادية للعرب ودينهم، إن هذه الوقفة هي التي جعلت المؤرخ الأميركي الجنسية اللبناني الأصل الدكتور فيليب حتي يقول، بعد حوالى ثلاثة عشر قرناً: «إنه - أي الأوزاعي - كان يشدد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلق بالرعايا غير المسلمة. إنا لا نرى فقيهاً من فقهاء المسلمين أظهر من قبل من العاطفة ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوّة الإنسانية. ولا شك أن روح التحرر والتساهل التي تظهر في مذهب الأوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحية» أ. هـ.

وقديماً قال فيه علماء زمانه: «الأوزاعي، إنه قد جمع العبادة والعلم والقول بالحق» والذين يزورون قصر العدل، حيث يتحاكم الناس إلى القضاء في بيروت يجدون في صدر هذا الصرح: قال الإمام الأوزاعي: «ساعة عدل خير من عبادة ألف سنة».

من مؤلفاته

١ - كتاب السير (بضمن كتاب الأم للشافعي).
٢ - مسند الإمام الأوزاعي (في الحديث).
٣ - كتاب السنن (في الفقه)

وله كتب أخرى احترقت عند حدوث الزلزلة في بيروت.

الشيخ عبد اللطيف فتح الله

لم يذكر خير الدين الزركلي رحمه الله في «أعلامه» تاريخ ولادته مكتفياً بذكر سنة وفاته ومثله فعل من قبل عيسى اسكندر المعلوف في مقاله عنه. إلا أن العلامة الدمشقي محمد جميل الشطي المتوفى سنة ١٣٠٧هـ ترجم الشيخ عبد اللطيف في كتابه الذي ألفه بعنوان «أعيان دمشق» في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر (١٢٠١ ـ ١٣٥٠هـ) الذي قدم له الشيخ محمد بهجت البيطار ونشره المكتب الإسلامي سنة ١٩٧٢م وقال إنه ولد سنة ١١٨٢هـ في مدينة بيروت.

هو عبد اللطيف بن علي بن عبد الكريم بن عبد اللطيف بن زين الدين بن محمد فتح الله الحنفي البيروتي ثم الدمشقي الشهير بمفتي بيروت. وعلى هذا يكون المترجم له قد اشتهر بالبيروتي لأنه أقام بهذه المدينة على أثر توليه منصب الافتاء فيها ثم اشتهر بالدمشقي بعد أن انتقل إليها وأقام فيها شطراً من حياته في دمشق الشام وكان يلازم الحضور في المدرسة الباذرائية حيث كان طلاب العلم يختلفون إليه ويفيدون من معارفه في الفقه واللغة وغير ذلك من الفنون والآداب. ومن طلابه الذين انتفعوا بعلمه في هذه المدرسة الشيخ عبد القادر الخطيب العالم المحدث المتوفى سنة ١٢٨٨هـ والشيخ أبو السعود الغزي العامري الدمشقي الشافعي عضو مجلس الشورى بالشام المتوفى سنة ١٢٨٢هـ والشيخ قاسم دقاق الدودة الشافعي الدمشقي العالم الفلكي المتفنن صاحب «كتاب أسنى الهبات لمعرفة الأوقات» المتوفى في حدود سنة ١٢٦٠هـ. والشيخ العلامة محمود شهاب الدين الآلوسي (البغدادي) الذي كان خاتمة المفسرين ونخبة المحدثين الذي ألّف ما يزيد عن ٢٢ كتاباً من بينها «روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني» وهو أعظم مؤلفاته وأجلها قدراً. وقد تقلد الإفتاء في بغداد سنة ١٢٣٨هـ وكانت وفاته في ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٨٠هـ في بغداد ودفن بالقرب من الشيخ معروف الكرخي وقبره مشهور يزار.

* * *

كانت العلاقة بين أهل بيروت وبين أهل جبل لبنان في الماضي مشوبة بالتوتر والاضطراب وفي أيام أحمد باشا الجزار بالذات، أي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر للميلاد. كان البيروتيون يعتمدون على هذا الوالي البشناقي الذي كانت بيروت تابعة له في كبح أطماع الجبليين وردهم عن العدوان على مدينتهم وكان الجبل آنذاك في عهدة الأمراء الشهابيين الذين منعهم الجزار من الإقامة في بيروت أو التوطن فيها. وكان صاحب الترجمة الشيخ عبد اللطيف فتح الله المفتي مقرباً من الوالي المذكور وعلى هواه السياسي بالنسبة للأمراء الشهابيين ومواطنيهم أهل الجبل ولذلك رأيناه يكثر من نظم الأشعار في القصائد الطوال بمدح هذا الوالي والإشادة بمواقفه الحازمة من الشهابيين ومواطنيهم الجبليين. وعندما أرغم الجزار الإمبراطور نابليون على التراجع عن عكة وألحق به الهزيمة التي كانت نهاية بدايته في الشرق العربي، نظم الشيخ عبد اللطيف فتح الله المفتي قصيدة مدح بها الجزار وأشاد بانتصاره على أعظم قائد حربي في ذلك الزمان وقد جاء في هذه القصيدة:

يا سور عكا إذ رفعت منارها   والغيل ترفع قدره الآساد
يا فخر عكا في البلاد فإنها   تاج البلاد وسورها وعماد
وبك احتمت أموالنا وبلادنا   ورجالنا والعرض والأولاد

إلى أن قال:

يا أيها الجزار أعناق العدى   يا من هو السادات والأمجاد
هم أهل بيروت الذين تزينت   منهم بدر عطائك الأجياد
وملكتهم وودادهم لك صادق   بما إن لهم فيمن سواك وداد
لا نقص فيه، ولست فيه مشاركاً   بل فيك دوماً لم يزل يزداد
ولقد قدمتك مادحاً بقصيدة   ومديح مثلك في الأنام رشاد

وما كان أحمد باشا الجزار ليجحد للشيخ عبد اللطيف فتح الله المفتي محبته له، بل هو عرف له هذه العاطفة وأثابه عليها بأن استحصل من الباب العالي في اسطمبول على فرمان عالي شان (مرسوم سلطاني) بتعيين هذا الشاعر العالم في منصب إفتاء مدينة بيروت، وهو المنصب الذي أعطاه منذ ذلك الحين لقب «المفتي» وهو اللقب الذي انسحب من بعده على عائلته حتى اليوم وأصبحت تعرف به بعد أن تخلت عن اسم فتح الله.

ولم يكتفِ الجزار بتكليف صاحب الترجمة بفتوى بيروت بل هو ضم إليه القضاء في نفس الوقت فأصبح الشيخ عبد اللطيف فتح الله مفتي بيروت وقاضيها في آن واحد خلال أيام الوالي المذكور ولكن الشيخ لم يكن مرتاحاً لما أسنده إليه الجزار في هذين المنصبين الرفيعين، بل على العكس فإنه وجد فيهما قيداً نفسياً يسبب له المتاعب والأحزان وراح ينظم الأشعار التي عبر فيها عن تبرمه بهذا القيد ويطلب من ربه أن يصرف عنه ما اعتبره بلاء ومحنة له، ويرجو أن يتخلص من هذه الأعباء التي سببت له الحرج والضيق، وراجع ولي الأمر لإعفائه فلما يئس من استجابة الحاكم لرجائه راح ينظم الأشعار التي عبر فيها عن حالته النفسية مما حل به من بلاء الفتوى والقضاء، وهكذا، فإن هذا العالم الشاعر الأديب كان على مذهب أستاذه وشيخه الشيخ أحمد الغر البيروتي الذي كان هو الآخر يحرص على تجنب الابتلاء بمنصب الفتوى والقضاء لما كانا يجدانه في هذا المنصب من مغبة الوقوع في شرك مصانعة الحكام ومحاذير الوقوع في مظالم الناس من أصحاب المصالح أو تسخير الضمير فيما لا يرضي الله ويتفق مع الشرع الحنيف.

* * *

عاش صاحب الترجمة الشيخ عبد اللطيف فتح الله المفتي دهراً طويلاً حتى أدركته الشيخوخة المكللة بالتقوى والصلاح والسمعة الأدبية العاطرة وقد ملأ عصره بفيض لا ينضب من العلم والشعر والنشاط الاجتماعي النافع، وترك من بعده ذرية صالحة واشتهر من عائلته الشيخ محمد المفتي الذي خلفه في منصب الإفتاء في بيروت.

وكانت وفاة صاحب الترجمة سنة ١٢٦٠هـ (١٨٤٤م) في بيروت ودفن في مقبرة سيدنا عمر في هذه المدينة وهي المعروفة اليوم باسم «جبانة الباشورة» الواقعة بمحلة البسطة التحتا وقد أرخ وفاته الشيخ يوسف الأسير الصيداوي نزيل بيروت بأبيات نظمها على طريقة حساب الجمَّل (بتشديد الميم) التي تدل حروفها على الأرقام المطلوبة وفقاً للتاريخ المقصود وقد نقشت هذه الأبيات على شاهد قبر صاحب الترجمة وهي التالية:

هذا ضريح ضمنه سيد   لآل فتح الله، يتمى شريف
في عصره قد كان علامة   صاحب فضل، ومقام منيف
والآن أصبح في برزخ   ضيفاً لمولاه، ونعم المضيف
يرجى له رضوانه دائماً   لأنه هادٍ، تقي عفيف
وعن لسان الحال أرخ يفي   في جنة الفردوس عبد اللطيف
(١٢٦٠)

الشيخ أحمد الأغر

الشيخ السيد[1] أحمد أفندي ابن الشيخ مصطفى ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ إبراهيم ابن الشيخ علي ابن الشيخ إبراهيم ابن الشيخ أحمد أفندي، قاضي بيروت الأسبق، ابن الشيخ عمر الغرّ البيروتي.

ولد يوم الأحد الواقع في اليوم الثاني والعشرين خلت من شهر ربيع الثاني سنة ١١٩٨هـ (١٧٨٣م) من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتحية، وربي يتيماً، ولما بلغ مبلغ الرجال تعاطى التجارة في البيع والشراء.

تولى القضاء بمدينة بيروت في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام الثلاثاء ختام سنة ١٢٢٤هـ (١٨٠٩).

ثم تنزل عن القضاء المذكور، لأمر اقتضى ذلك، في نهار الإثنين الثامن عشر من ذي القعدة الحرام سنة ١٢٣٧هـ سنة (١٨٢١م)، ثم صدر مرسوم من دولة درويش باشا، والي إيالة الشام، أمر بنفيه إلى اللاذقية وذلك في نهار الجمعة الواقع في ٢٢ شهر ذي القعدة المذكور. . وقد توجّه حسب الأمر المذكور في ذلك اليوم بعد الغروب بحراً.

ثم صدر له مرسوم شريف من دولة والي إيالة صيدا وتوابعها السيد عبد الله باشا بالرجوع إلى بلدته بيروت وأن يكون حاكماً شرعياً كما كان، فرجع إليها في غرة شهر رمضان المبارك سنة ١٢٣٨هـ (١٨٢٨م).

ثم في ١٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) وأُسندت إليه وظيفة الإفتاء في بيروت وأن يكون حاكمها الشرعي. وفي أواخر سنة ١٢٤٩هـ، عزل من وظيفة القضاء من بيروت وبقي بها مفتياً. وفي سنة ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م) عزل من وظيفة الإفتاء وبقي مدة وجيزة ثم تعين عضواً في مجلس إيالة صيدا في بيروت، ثم تعين مفتياً في المجلس الموما إليه.

ثم وفي أواخر شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٠م)، صار نفيه إلى طرابلس الشام لأمر اقتضى ذلك بموجب فرمان عالي شـان من جانب الدولة العلية العثمانية في مدة المرحوم المغفور له السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود ابن السلطان عبد الحميد خان وأقام في طرابلس نحو أربعة أشهر، ثم رجع إلى بيته ببيروت بموجب فرمان عالي شان أيضاً.

وأيضاً، لما بلغ من العمر نحو اثنتين او ثلاث وعشرين سنة، قرأ على افتخار العلماء الكرام، العالم الفاضل، المرحوم والمغفور له السيد الشيخ عبد اللطيف أفندي فتح الله المفتي ابن المرحوم الشيخ علي أفندي مفتي بيروت رحمهم المعيد المبدي، المعقول والمنقول، وتلقى عنه جل العلوم من منطوق ومفهوم.

كما أنه تلقى، أكثر ذلك عن مشايخه الذين منهم، السيد محمد أمين أفندي، ابن عثمان الاسلامبولي قاضي دمشق الشام، وهو من أفاضل رواة الحديث الشريف، وأجازه بذلك بموجب إجازة منه مؤرخة في ٢٢ من جمادى الثانية، يوم السبت سنة ١٢٣٤هـ (١٨١٨م).

أخذ الشيخ أحمد الطريقة القادرية عن المرحوم السيد الشيخ أبي الحسن علي أفندي ابن الشيخ عمر أفندي الكيلاني، شيخ السجادة القادرية في البلاد الإسلامية عموماً، وتخلّف (أي أصبح خليفة على الطريقة من بعده) عليه بها، بموجب إجازة منه له بذلك، وألبسه الخرقة (العباءة) القادرية.

وله مشايخ غير ما ذكر.

وله رحمه الله تعالى، فتاواه الشهيرة، والحاوية لوقايع زمانه وهي جمة ضخمة، فيها ما سئل عنه من أقاصي البلاد. وله ديوان مطوّل من الشعر، فاق به أهل زمانه.

وكانت وفاته رحمه الله، في اليوم الحادي عشر، السبت من شهر رمضان المبارك سنة ١٢٧٤هـ (١٨٥٧م) وقت الغروب. ودفن في اليوم الثاني عشر من الشهر المذكور، يوم الأحد، بعد صلاة الظهر في جبانة السنطية الشهيرة في بيروت.

(١) إن لقب السيد كان خاصاً بالذين يرجعون بنسبهم إلى البيت النبوي الكريم فقط، مما يدل على أن المترجَم له كان منهم.

الشيخ أحمد البربير

هو أحمد بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد البربير، كنيته: أبو العباس، هكذا ورد في ترجمته بقلم الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي[1]. أما خير الدين الزركلي فقال إن كنيته: أبو الفيض[2]. وعرفه البيطار بالشامي البيروتي، وأضاف الزركلي أنه من آل البيت النبوي الطاهر عن طريق الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وقال إنه حسني، في حين أن يوسف اليان سركيس[3] جعل نسبته في هذا البيت إلى الحسين بن علي بن أبي طالب وقال إنه «الحسيني». وكانت ولادة المترجم له في مدينة دمياط بمصر سنة ١١٦٠هـ الموافقة لسنة ١٧٤٧م، وحينما قال البيطار إن البربير شامي بيروتي، فإنه ربما يكون قد لحظ أن أصل هذه العائلة من دمشق ثم انتقلت منها إلى بيروت.

وكانت نشأة البربير الأولى في مصر، وبمدينة دمياط بالذات، حيث كانت ولادته. ولقد بقي في هذه المدينة حتى بلغ سنّ الشباب، وفيها تلقى علومه الأولى، فحفظ القرآن الكريم قبل أن يتم الثانية عشرة من عمره، ولما بلغ هذه السن كان قد حفظ ألفية ابن مالك في النحو والصرف وحضر شرحها على أستاذه الشيخ فتح الله.

وفي سنة ١١٨٣هـ (١٧٦٩م) شد البربير رحال السفر من دمياط قاصداً بيروت موطن آبائه وأجداده، على أنه قبل أن يستقرّ بها ألقى عصا النوى في دمشق التي لم يلبث فيها غير فترة محدودة ثم استحث مطيته إلى غايته بيروت التي كانت يومئذٍ في عهدة الأمير يوسف الشهابي.

ولما أن استقر به المقام في بيروت تطلع إلى إنشاء عائلة له فاتخذ زوجة من آل حنتس، على أن زواجه لم يكن موفقاً، على ما يبدو، لأنه ما لبث مع زوجته هذه مدة حتى انفصل عنها بالطلاق دون أن ينجب منها أحداً من البنين أو البنات.

ونظراً لما لقيه المترجم له من المتاعب العائلية وسوء الحظ في بيروت، فإنه أطلق شعره في التعبير عن خيبة أمله في هذه المدينة، من ذلك قوله في إظهار ندمه على الإقامة فيها وتركه موطنه دمياط:

لـقـد غـرَّني إبـليسُ قـومي بـقـولـه ... تـغـرَّب عن الأوطـان في طلب المـجـدِ
كـمـا غـرَّ إبـليسُ الـشـيَّـاطـيـن آدمـاً ... أخـرجـه بـالـمـكـر مـن جـنـة الـخـلدِ

لقد كان الباعث الذي حمل الشيخ أحمد البربير على ترك دمياط والقدوم إلى بيروت، رغبته في طلب العلم على مشايخها من العلماء، بيد أنه عندما أقام فيها زمناً واتصل بهؤلاء المشايخ ألفاهم دون المستوى الذي توقعه فيهم مما خيب آماله التي علقها عليهم وحمله على أن يرسل على المدينة وعلى علمائها وأهلها وابلاً من سخطه. إلا أن رأي البيروتيين فيه كان على النقيض من ذلك تماماً، فإن هؤلاء لم يبخسوه حقه ولم ينكروا عليه مكانته الأدبية والعلمية ولم يغمطوه ما كان يتحلى به من المزايا الخلقية وأهليته في تولي المناصب العالية. لذلك فإن الأمير يوسف الشهابي، وقد كانت بيروت في جملة عمالته الإدارية، حرص على الاتصال به وأراده على تولي الفتوى والقضاء في هذه المدينة، ولما أعرب الشيخ عن إعراضه عن قبول هذا المنصب، راوده الأمير على الموافقة حتى استطاع إقناعه بالنزول عند رغبته في النهاية. إلا أن الشيخ البربير ربط موافقته على قبول المنصب بأشراط قاسية بقصد تعجيزه وطلب من الأمير التزامها تحت طائلة الاستعفاء من عمله إذا هو أهملها أو أخلّ بواحد منها ولم ينفذها بتمامها، ومن هذه الشروط التي حددها للأمير:

١ - أن لا يتصدى للدعوى بعد أن يكون فصلها بمجلس قضائه، وأن يأمر بتنفيذها دون تلكؤ.

٢ - إذا كانت الخصومة بين الأمير (أي السلطة الحاكمة) وبين أحد من المواطنين العاديين، وكان الحكم ضد الأمير، فإن هذا عليه أن يأمر بتنفيذ ما أمر به الشرع الحنيف.

٣ - أن يبعث الأمير من قِبله أحد أتباعه ويجلس في المحكمة لتحصيل ما على الدعوى من الرسوم المقررة بين القضاة.

ثم إنّ الشيخ أضاف إلى ما تقدم شرطاً لا يخلو من الطرافة والتحرر، وهو أن لا يلزمه الأمير بارتداء الزي المقرر للقضاة

(١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (الهجري) تأليف الشيخ عبد الرزاق البيطار (١٢٥٣ - ١٣٣٥هـ) ج١ ص١٢٧ وما بعدها وحققه ونسقه وعلق عليه حفيده محمد بهجة البيطار من أعضاء المجمع العلمي بدمشق وطبع سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦١م).
(٢) الأعلام لخير الدين الزركلي ج (١) طبعة ثانية ص ١٦٨.
(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة لمؤلفه يوسف اليان سركيس طبع بمطبعة سركيس بمصر سنة ١٣٤٦هـ (١٩٢٨م) ج (١) ص ٥٤٥.

الذي كان متعارفاً عليه في زمانه، وهو العمامة والفرجيّة[1].

وبالفعل، فإن الأمير الشهابي نزل عند رغبة الشيخ وتعهد له بالتزام الشروط التي طلبها كي لا يحرم البلد من كفاءات هذا العالم الكبير في مجالات العدالة والقضاء والفتوى.

* * *

ولقد تكررت منظومات البربير في الاعراب عن شكواه من المنصب الذي حمل عليه بالرغم منه، دون أن يلقى أدناً صاغية من ولي الأمر، مما اضطره آخر الأمر لأن يوجه إلى الأمير يوسف الشهابي مباشرة، قصيدة مطولة، طواها على رجائه ألحّ الرجاء في أن يستجيب لتوسلاته بقبول إعفائه من القضاء.

فلما أن اطلع الأمير يوسف الشهابي على هذه القصيدة، بادر من توّه إلى إصدار أمره بإعفاء الشيخ البربير من حمل هموم القضاء وأقاله من بلواه في هذا المنصب الذي فرض عليه وهو له كاره. واكتفى بأن عين له مرتباً يستعين به على تلبية مطالب الحياة وتأمين ضرورات العيش الكريم.

إن إقامة الشيخ البربير في مدينة بيروت لم تدم طويلاً، ذلك أنه بعد أن أعفي من عمله في القضاء وأصبح حراً من القيود الرسمية انصرف إلى إشباع هوايته في التدريس، فافتتح مكتباً لتعليم الأولاد، وفي هذه الأثناء حدث أن تعرضت بيروت في سنة ١١٩٥هـ (١٧٧١م) إلى عدوان مسلح قام به قراصنة روس كانوا يعيثون فساداً في شواطىء البحر الأبيض المتوسط مما أدى إلى اضطراب حبل الأمن في هذه المدينة وحمل أهاليها على النزوح عنها إلى حيث يجدون الأمن والطمأنينة على أنفسهم وأموالهم، وأما الشيخ البربير فإنه وجد أن يترك بيروت نهائياً وقصد إلى دمشق حيث نزل فيها معززاً مكرماً بضيافة أحد علمائها الأفاضل الشيخ خليل المرادي صاحب كتاب: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (الهجري) الذي أكرم مثواه وشمله ببره وأحاطه بما يليق بأمثاله من الرعاية والتكريم. ثم انتقل الشيخ البربير بعد ذلك إلى سكن خاص به في محلة الصالحية في نفس المدينة.

وفي دمشق أراد البربير أن يجرب حظه في الزواج مرة ثانية لعله يرزق بولد صالح يدعو له، فاتخذ زوجة من آل الصلاحي الدمشقيين، إلا أن حظه من هذه الزوجة لم يكن خيراً من حظه في زواجه الأول من حيث الانجاب فبقي رحمه الله عقيماً من أي ولد.

وقد كان أول مقامه في دمشق ـ كما ذكرنا ـ في بيت مفتي الشام ونقيب أشرافها الشيخ محمد خليل المرادي.

وفي هذا البيت الكريم وجد الشيخ أحمد البربير من مضيفه الشيخ المرادي ما ألهم لسانه بالثناء والحمد لجميع أهل الشام من خلال مكارم مفتيهم ونقيب أشرافهم، وأتيح له أن يتصل بالمجتمع الدمشقي على أعلى مستوياته العلمية والاجتماعية. وهذا ما ساعده على مبادلة الدمشقيين حياتهم الفكرية ونشاطاتهم في ميادين الأدب والمعارف المختلفة، ومن ثم فإنه ارتبط معهم في أثناء ذلك، بصداقات حميمة تركت ظلالها الواضحة في كتابه التحفة «الشرح الجلي على بيتي الموصلي»، كما تركت هذه الصداقات آثارها في أشعاره التي نظمها وهو بدمشق في مناسبات مختلفة.

* * *

ذكرنا سابقاً أن المترجم له، كانت نشأته الأولى حيث ولد في مدينة دمياط، ففي هذه المدينة تلقى علومه الأولى في العربية والفقه وحفظ القرآن الكريم.

وكان من أساتذته وشيوخه في هذه المرحلة الأولى من حياته: الشيخ قاسم بن داود الذي علمه القرآن الكريم حتى اتقنه حفظاً وترتيلاً وتجويداً، كما أخذ الفقه عن جماعة من علماء عصره بمصر في ذلك الحين أمثال: الشيخ المسمى بالشمس الدنجيهي، والشيخ عبد السلام أبي النصر، والشيخ مصطفى المحلّي الشهير بالسقا، والشيخ أحمد البستاني (الدمياطي).

أما عن شيوخه من علماء بيروت فإن ما بين أيدينا من المصادر التي رجعنا إليها في هذه الدراسة ليس فيه ما يعيننا على معرفة الشيء الكثير عن الشيوخ الذين درس عليهم البربير خلال الفترة التي قضاها ببيروت. وإذا نحن رجعنا إلى ما قاله رحمه الله عن هذه المدينة في شعره ونثره، فإننا ننتهي إلى الملاحظة بأنه لم يجد فيها العالم الكفء الذي هو جدير بأن يتلقى العلم عليه.

أما شيوخه الدمشقيون الذين تتلمذ عليهم أو نال إجازاتهم في بعض الفنون والعلوم بعد انتقاله إلى دمشق وإقامته فيها، فكانوا عديدين. وكلهم من أكابر الشيوخ الذين لمعوا في بلدهم وأصابوا حظاً وافراً من المعرفة وضروب الثقافة اللغوية والدينية التي كانت سائدة في زمانهم.

وكان لقاؤه بهؤلاء الشيوخ، على فترات متفاوتة، سواء في بيت الوجيه الدمشقي الشاب محمد بك العظم أو في بيت مضيفه الشيخ محمد خليل المرادي مفتي الأحناف في الشام أول نزوله بدمشق، كما أشرنا إلى ذلك من قبل.

(١) إشارة إلى الحديث الشريف: «من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه»

ومن هؤلاء الشيوخ والعلماء الدمشقيين، محدثا دمشق: الشيخ محمد الكزبري والشيخ أحمد العطار، ومنهم كذلك الشيخ حسن المدرِّس الشهير بالعطار والشيخ مصطفى الصلاحي. كما اتصل وهو في دمشق بالشيخ مصطفى الرحمتي، والشيخ محمد البخاري، أحد أعلام المحدثين، نزيل نابلس بفلسطين ـ ردها الله للعروبة والإسلام ـ وقد نظم البربير في مدح هذا العالم بيتين من الشعر قال فيهما:

شعـرْي لِحافِظِ عَصْـري   بـالمَـدْحِ، أمْسَى يُتَـرجَمْ
فـانْقُـلْ حـديثَ البُخـاري   عـنِّي، إلى كُـلِّ مُـسْلِمْ

وكانت مكانة البربير العالية في الآداب العربية والعلوم الشرعية تستهوي إليه وإلى مجالسه المفيدة أفئدة طالبي العلم والراغبين بأسباب الثقافة والمعرفة، فكان هؤلاء وأولئك يقصدونه في بيته أو مكتبه لينهلوا من معين ثقافته وغزير أدبه. وكثيرون من هؤلاء الذين طلبوا العلم على يديه، تقلدوا في بلدهم أعلى المناصب الدينية والحكومية، ونالوا أسنى المراتب الفكرية. نذكر من ذلك: الشيخ عبد اللطيف فتح الله الذي تسلم الفتوى ببيروت مدة طويلة حتى غلب عليه لقب «المفتي» وأصبح هذا اللقب علماً عليه وعلى عائلته من بعده حتى اليوم[1]. ومثله تلميذه الشيخ أحمد الأغر (الغر) الذي تولى أيضاً منصب الفتوى بهذه المدينة تارة، وقضاءها تارة ثانية، كما جمع له هذان المنصبان في بعض الأحيان بآنٍ واحد.

وممن تتلمذ على البربير أثناء وجوده في بيروت عدد من أعيان جبل لبنان وأبنائهم مثل الشيخ شاهين تلحوق والشيخ قاسم بن الشيخ بشير جنبلاط من زعماء العائلات الإقطاعية الدرزية.

(١) ما تزال عائلة فتح الله المفتي موجودة في بيروت.

الشيخ محمد الحلواني

لعل المصدر الوحيد الذي يساعدنا على الوصول إلى ترجمة حياة الشيخ محمد الحلواني هو الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» ونسارع إلى القول بأن الذي حمل المؤلف الدمشقي على التنويه بالمفتي البيروتي هو أن هذا المفتي قد اختار لحياته الصاحلة أن تنتهي في دمشق وأن يكون مثواه الأخير في ترابها الطاهر.

وفيما يلي ما جاء في كتاب: حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحت عنوان:

«الشيخ محمد بن أحمد الحلواني مفتي ثغر بيروت». قال الشيخ عبد الرزاق البيطار: «شيخ الإسلام مفتي الأنام، التقي الزاهد، والهمام الماجد، نخبة الأئمة الكرام وعمدة السادة الأعلام، المتقن المحقق والمتفنن المدقق، الجامع بين طرفي المعقول والمنقول، والمتضلع في معرفة الفروع والأصول. أخذ عن الفضلاء الأفراد، وشاع ذكره في الأمصار والبلاد، ثم ترك الإفتاء وقدم إلى الشام، واشتغل في الإفادة والطاعة، والصلاة والصيام والقيام ولقد قرأ على سيدي الوالد وتلقى عنه العلوم والفوائد. مات رحمه الله تعالى سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ودفن بجبانة باب الصغير قرب ضريح سيدنا أوس الثقفي رضي الله عنه» أ. هـ.

ولخص الشيخ محمد جميل الشطي الكلام السابق في كتابه المسمى «روض البشر في أعيان القرن الثالث عشر» ثم زاد عليه قوله:

«كان ـ أي المترجَم له ـ عالماً ورعاً تقياً لا تأخذه في الحق لومة لائم. وُلي إفتاء ثغر بيروت، وعزل عنه لحادثة وقعت له مع النصارى، وقد أخذ العلم عن كثيرين، من أجلّهم محدث الديار الشامية الشيخ عبد الرحمن الكزبري. وقد انتفع به جمع كثير وجم غفير» أ. هـ.

نقول، هذا كل ما وقع تحت أيدينا من كلام المؤلفين في طبقات الرجال عن ترجمة حياة هذا الشيخ الجليل الذي تواضعت أراء الناس باتقان الكلمة على ما كان يتحلى به من طول باعه في العلم وقوة شكيمته في الحق ونزوع نفسه إلى الترفع عن مطامع الدنيا والزهد في غرور الحياة.

* * *

كما نود، لو أن أحد الكتّاب من معاصري الشيخ محمد الحلواني. ترك لنا ما يفيدنا عن مكانة هذا العالم البيروتي الذي شغل منصب الإفتاء في بلده مدة غير قليلة ثم اضطر إلى تقديم استقالته من هذا المنصب الكبير والنزوح إلى دمشق حتى نهاية حياته. وما ذكره الشطي في «روض البشر» من أن المترجم له أجبر على اعتزال منصبه بسبب حادثة وقعت له مع النصارى، يحملنا على التساؤل عن حقيقة هذه الحادثة التي كدرت علاقته بهذه الطائفة من مواطنيه، في حين أننا نجد الشاعر الشيخ ناصيف اليازجي، وهو نصراني، قد خصصه بعدة قصائد تناوله فيها بالمدح والثناء والإشادة بعلمه ونزاهته والتزامه جادة الحق والعدالة في سيرته. من ذلك قصيدة مطولة قالها هذا الشاعر، جاء في مطلعها:

عتبتْ سعاد ولم أكن بالمذنب
وعرفتُ عادتها، فلم أتعتب
شيم الغواني أن تدل إذا رأت
صبًّا يذل لها بقلب طيب
فأمرت لواحظها الفتى فأطاعها
ودعت، فلبى الشيخ غير مكذب

إلى أن يقول:

ولقد تأملت الزمان وحكمه
فبليت منه بعجمة لم تعرب
عار علي وشيخنا المفتي له
رأي يخلص بين بكر وتغلب
هو كوكب في الشرق يسطع نوره
ويلوح فضل شعاعه في المغرب
يجلو الخطوب وينجلي لك وجهه
تراه، في الحالين، أفضل كوكب
حسن الإصابة عند كل ملمة
بادي البشاشة عند سخط المغضَب
متواضع لجليسه من لطفه
حتى كأن جليسه ذو المنصب
ريان في كأس الحقيقة لم يدع
إلا ثمالتها، التي لم تطلب
لم يعشق الدنيا، فلم يجزع إذا
ولّت، وإن هي أقبلت لم يطرب

الشيخ محمد الحوت (الكبير)

هو أبو عبد الله محمد بن درويش الحوت. اختلف في تحديد سنة ولادته، لكن الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي قال في الترجمة التي وضعها في أول كتاب «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب» إنه ولد في بيروت سنة تسع بعد المائتين والألف من الهجرة، وقال الشيخ عبد الرزاق البيطار في كتابه «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» إنه ولد سنة ١٢٠٣. بينما الزركلي في أعلامه لم يشر أصلاً إلى تاريخ ولادته.

وعائلة الحوت من الأُسر البيروتية القديمة ويرجع نسبها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فإن الشيخ درويش الحوت والد المترجم له كان من أكابر العلماء متضلعاً من المعقول والمنقول، جامعاً بين العلم والزهد. وولداه الشيخ محمد والشيخ عبد الرحمن كانا من أهل العلم والصلاح والتقوى.

وقد ترجم للشيخ محمد الحوت (الكبير) تلميذه الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي فقال إنه كان شافعي المذهب وهو حافظ لكتاب الله تعالى عن ظهر القلب، متضلعاً من المعقول والمنقول، جامعاً بين العلم والزهد وله اليد الطولى بتعليم العلوم الدينية، جليل القدر، مسموع الكلمة يعزه أهل زمانه لعلمهم بتقواه وفضله، له مروءة تامة بعمل الخير والسعي فيه، يرغب الألفة بين العموم، محافظاً على حقوق الإنسانية متصفاً بعلو الهمة ومكارم الأخلاق، يقول الحق ولا يخشى لومة لائم. وكان مكسبه من التجارة رغبة بالاستغناء عن الاحتياج للناس، ومتقشفاً بملابسه إعراضاً عن زهوة الدنيا، صوفي المشرب.

بدأ دروسه في بيروت فقرأ على مفتيها في زمانه الشيخ عبد اللطيف فتح الله وحفظ القرآن الكريم اتقاناً واستظهاراً وترتيلاً على الشيخ علي الفاخوري والد الشيخ عبد الباسط الفاخوري، وسمع علوم التوحيد على العلامة الشيخ محمد المسيري الإسكندري الذي توطن بيروت في آخر عمره كما درس عليه شرح الخلاصة النحوية وغيرها من العلوم.

انتقل المترجَم له إلى دمشق في طلب العلم وذلك سنة ١٢٢٨هـ وقرأ فيها على جملة من علمائها الأفاضل، منهم الشيخ محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم بن نجم الدين بن محمد صلاح الدين الشهير بعابدين المعروف بابن عابدين صاحب كتاب «رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار» ويعرف بحاشية ابن عابدين (في الفقه الحنفي) ومنهم الشيخ محمد بن الشيخ عبد الرحمن الكزبري، وكان يحضر عليه تحت قبة النسر في جامع بني أمية ويسمع عليه الحديث الشريف، كما حضر على أبيه الشيخ عبد الرحمن الكزبري تحت القبة المذكورة وسمع عليه الحديث الشريف أيضاً.

وعندما استشرى خطر الإرساليات الأجنبية في البلاد في أواسط القرن الماضي وتعرض ناشئة المسلمين للوقوع تحت سلطان الغزو الفكري في دينهم وثقافتهم نهض المترجَم له لدرء هذه الغارة التبشيرية والحد من أذاها في الأوساط البيروتية بالتعاون مع الشيخ عبد الله خالد وعدد من علماء المسلمين واستحصلوا على رخصة فتح مدرسة نظامية للتعليم في جامع الأمير منذر بن سليمان التنوخي (النوفرة) الذي ما زال قائماً في سوق البازركان بالقرب من باب إدريس، وأدخلوا فيها مناهج التعليم العصري بالإضافة إلى العلوم الدينية والعربية.

واعتنى الشيخ محمد الحوت شخصياً بأمر هذه المدرسة حتى تكللت جهوده بالنجاح وتخرج على يديه فيها الرعيل الأول من رواد النهضة الفكرية المسلمين في هذه المدينة مثل الشيخ عبد الباسط الفاخوري والشيخ مصطفى نجا اللذين تعاقبا على الفتوى، والأديب الحاج حسين بيهم والشاعر عمر الأنسي وغيرهم من الذين شغلوا أحسن المناصب العلمية والحكومية في زمانهم.

وإلى جانب اهتمامه بشؤون مدرسة جامع الأمير منذر فإنه لم ينقطع عن مداومة التدريس في الجامع العمري الكبير من حين عودته من دمشق إلى سنة ١٢٣٦هـ، ويقوم بتأليف الكتب المفيدة في مختلف الموضوعات اللغوية والدينية حتى نهاية حياته.

وكانت وفاته في بيروت سنة ١٢٧٦هـ (١٨٥٩م) وفي بعض الأقوال سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦٠م) ودفن بجبانة سيدنا عمر الشهيرة بالباشورة.

وعند وفاته حزن عليه الناس من قريب وبعيد ورثاه العلماء والأدباء من المسلمين والنصارى فقد جاء في المقالات التي نشرها تباعاً في مجلة الجنان المؤرخ النصراني داوود كنعان تحت عنوان «جواهر ياقوت في تاريخ بيروت» قوله:

«إنه (أي المترجَم له) كان فريد عصره ووحيد دهره. وكان إماماً في الجامع العمري الكبير وعالماً في التفسير والحديث

والفقه والعلوم الدينية والأدبية، وله فيها تآليف شهيرة. وقد رثاه الشاعر الشيخ ناصيف اليازجي بقصيدة طويلة قال فيها:

قف فوق رابية تجاه المسجد ... وقل السلام على ضريح محمدِ
واتل الفواتح فوق تربته التي ... حفت بأملاك، تروح وتغتدي
هذا صفي الله، خير عباده ... وأبرّ كل موحد متعبدِ
ما زال يسعى كل يوم باحثاً ... في يومه عما يحاسب في غدِ

إلى أن يقول:

يا أيها الميْت الذي يبقى له ... في أرضنا ذكر ليوم الموعدِ
قد متَّ في الدنيا كأنك لم تمت ... والبعض مات، كأنه لم يولدِ

بعض مؤلفاته

ترك الشيخ محمد الحوت (الكبير) أثراً عميقاً في الحياة الفكرية والدينية في بيروت وأضاف للمكتبة الإسلامية عشرات الكتب والرسائل في الفقه والحديث والتفسير واللغة العربية، وفيما يلي قائمة بأشهر هذه المصنفات:

١ ـ أسماء رجال الإمام البخاري.

٢ ـ كتاب في الوضاعين وما وضعوا. (وهو في الأحاديث التي نحلها الوضاعون عن لسان النبي ﷺ وهي ليست كذلك، وقد رتب المؤلف هذا الكتاب على حروف المعجم. وقد بقي مخطوطاً ولم يطبع.

٣ ـ كتاب «أحسن الأثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر».

٤ ـ حاشية على شرح ابن حجر (المكي الهيثمي) للأربعين النووية وهو «الفتح المبين في شرح الأربعين».

٥ ـ موجز في الميراث.

٦ ـ رسالة في الحساب.

٧ ـ تاريخ الصحابة.

الشيخ إبراهيم الأحدب

آل الأحدب من الأسر المشهورة في طرابلس الشام. وما زالت هذه الأسرة تقيم في هذه المدينة حتى اليوم، على أن بعض أفراد منها انتقلوا إلى بيروت واتخذوها دار إقامة لهم بسبب اشتغالهم في الدوائر الحكومية.

والأحدب، كنية هذه العائلة، من أسماء السيف، وإلى ذلك أشار الشاعر بقوله في رثاء الشيخ إبراهيم الأحدب:

بطلعة «الأحدب» الماضي لقب ... ورأيه قد حكى بالفضل معناه

وليس فيما عندنا من المصادر التاريخية ما يدلنا على أصل هذه الأسرة أو مواطنها الأولى غير أن اللواء الركن الحاج عزيز الأحدب، قال لي إن أصل عائلته من مصر وإن أحد أفرادها انتقل إلى طرابلس ومنه تفرعت هذه العائلة سواء في طرابلس أو في بيروت.

وعندما ترجم الفيكونت فيليب دي طرزي في كتابه «تاريخ الصحافة العربية» حياة الشيخ إبراهيم الأحدب قال إن نسبه يرجع إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وبذلك يكون آل الأحدب من البيت النبوي الطاهر. ولقد اشتهر من هذه الأسرة في العصور المتقدمة عدد من الأعلام مثل «الأحدب المزوِّر» ذكره القاضي شمس الدين ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» وقال إن هذا الرجل اشتهر بقدرته على تقليد خطوط الكتّاب حتى اشتهر باسم «الأحدب المزوِّر» لأنه كان يكتب خط كل أحد، فلا يشك المكتوب عنه أنه خطه. وكانت وفاته في سنة ١٣٠٨ هجرية ١٨٩١م.

المترجم له، الشيخ إبراهيم الأحدب هو ابن الشيخ علي الأحدب، وكانت ولادته في طرابلس الشام سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م). وبعضهم قال إن ولادته تأخرت سنتين عن هذا التاريخ. ابتدأ دراسته بتعلم القرآن الكريم فأتقن قراءته وتجويده وهو ابن تسع سنين، وتابع طلب العلم في مدينة طرابلس الشام، فقرأ أولاً على الشيخ عرابي بمدرسة الشيخ سقرق المعروفة اليوم بالسقرقية، ثم قرأ على الشيخ عبد الغني الرافعي (الفاروقي) في المدرسة الطواشية. وبرع في علوم الحديث وأصول الفقه وعلم الكلام والفرائض والصرف والبيان والنحو والمعاني والبديع والعروض والمنطق وغير ذلك من علوم زمانه.

وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره تصدى للتدريس في بلده وقصده الطلاب في المدارس الدينية التي كان يداوم فيها.

وسافر إلى اسطمبول حاضرة الخلافة الإسلامية. واجتمع هناك بالعديد من أركان الدولة العثمانية وأعيانها. وخلال وجوده في اسطمبول نظم قصيدة في مدح السلطان عبد المجيد مطلعها:

بنصرة دين الله وافت لنا البشرى ... فأوْلت إلى الإيمان من نشرها بشرا

وسنة ١٢٦٧هـ (١٨٥٢م) دعاه سعيد بك جنبلاط حاكم مقاطعة الشوفين بلبنان ليكون مستشاراً له في القضايا الشرعية المستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف. فأقام بالمختارة في قصر الحاكم المذكور، وبقي عنده حوالى ثماني سنوات. ولما ثارت الفتنة التي افتعلتها الدول الأجنبية بين الدروز وبين النصارى سنة ١٢٧٦هـ (١٨٦٠م) وهي الحوادث الطائفية التي عرفت يومئذٍ بالطوشة ترك المترجَم له المختارة وعاد إلى بلده طرابلس. وفي أثناء إقامته بطرابلس رغبت إليه الحكومة العثمانية بتولي القضاء بصنعاء، إلا أنه اعتذر عن قبول هذا المنصب لبُعد صنعاء عن وطنه. وفي سنة ١٢٧٧هـ (١٨٦١م) عُيّن في منصب رئيس الكتَبَة في محكمة بيروت الشرعية، وانتدب لتأمين فصل الدعاوى في المحكمة المذكورة لمدة سنة أي إلى حين وصول القاضي الأصيل المعين من قبل دار الخلافة باسطمبول. وبقي المترجم له رئيساً للكتَبَة حوالى ثلاثين سنة من غير انقطاع.

وفي سنة ١٨٧٢م سافر المترجم له إلى القاهرة، واجتمع هناك بأعيان المصريين وعلمائهم وأنشأ معهم صداقات شخصية حميمة، لا سيما مع الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري الذي كان يلقب بقاموس اللغة العربية، لسعة اطلاعه وتمكنه في هذا الفن. وكان الشيخ الأبياري آنذاك يتولى منصب مفتي المعيَّة الخديوية في بلاط محمد توفيق باشا عزيز مصر. وعندما عاد المترجم له إلى وطنه، اتصلت بينه وبين الشيخ المذكور المراسلات الإخوانية التي جمعها الأبياري فيما بعد في كراس مستقل.

وعندما أُنشئت ولاية بيروت سنة ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م) عُيّن المترجم له عضواً بشعبة المعارف في هذه الولاية، فقام بأعمال جليلة في حقل التعليم، لا سيما في المدرسة السلطانية التي

هي الآن كلية البنات التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت.

وفي أثناء إقامته ببيروت كان الشيخ إبراهيم الأحدب يواصل التحرير في الجرائد اليومية والمجلات الأدبية مثل المقتطف لصاحبها الدكتور يعقوب صروف، والجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق، وجريدة ثمرات الفنون لصاحبها الشيخ عبد القادر القباني. وكانت أكثر كتاباته في هذه الجريدة الأخيرة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه كان شغوفاً بمطالعة الكتب القديمة وإذا عثر على شيء نادر وثمين منها فإنه كان لا يتوانى عن نقله بكامله بخطه الظريف. ويقول الفيكونت فيليب دي طرزي في كتابه تاريخ الصحافة العربية «إن الشيخ إبراهيم الأحدب نقل بخطه ما ينوف عن ألف كتاب ورسالة». هذا، وإن الأعمال الحكومية والاهتمام بنسخ الكتب القديمة أو تأليف الكتب الجديدة لم يشغل المترجم له عن مواصلة الكتابة إلى أصدقائه من العلماء والأدباء والأعيان سواء داخل البلاد السورية أو خارجها، فكان يراسل هؤلاء الأصدقاء وينظم القصائد المطولة في مدح أُمراء العرب ووزرائهم، مثل المجاهد الإسلامي الكبير بطل الجزائر الأمير عبد القادر ومحسن صادق باشا باي تونس الذي أحسن جائزته، ومصطفى باشا كبير وزراء تونس الذي أهداه حلية مرصعة بالماس عليها رسمه بالألبسة الرسمية واسمه منقوشاً عليها بالأحجار الكريمة. وعندما أعلن حسين باشا وزير المعارف في تونس عن مباراة لأحسن مقال تحت عنوان «لا سلامة من الخلق» اشترك المترجم له بهذه المباراة ونال جائزتها الأولى وقدم له الوزير المذكور سبحة من العنبر مع رسالة خطها بيده إعراباً عن إعجابه وتقديره.

وعندما احتفل راشد ناشد باشا والي سورية بختان ولده كلف المترجَم له بأن يعلم رواية «الإسكندر المكدوني» التي كتبها لفرقة من الممثلين وأن يرافقهم إلى دمشق لأجل تمثيلها، وعندما رجع إلى بيروت قدم له الوالي المذكور خاتماً مرصعاً بالماس ونفحه منحة مالية قدْرها مائة ليرة عثمانية ذهباً.

وقد لفت المترجَم له الأنظار إلى خصوبة بداهته الشعرية، ذلك أنه كان ينظم القصيدة في سبعين بيتاً خلال جلسة واحدة في مدة قصيرة دون تكلف ولا صعوبة. وكثيراً ما تكون المبيضة هي عين المسوّدة. ويقال إنه نظم في حياته ما يقارب ثمانين ألف بيت من الشعر في مختلف الأغراض والفنون، حتى إنه استعمل الشعر في صياغة بعض الأحكام الشرعية.

وفي السنة الأخيرة من حياته أُصيب بداء الفالج لمدة قصيرة وما كاد يبرأ منه حتى عادت إليه عوارض هذا المرض فلزم داره حوالى ثمانية شهور ولكن دون أن يفقد القدرة على استقبال زواره من العلماء والأدباء والتحدث إليهم في الشؤون العلمية والشرعية. إلا أن وطأة الداء اشتدت عليه فأدركه الأجل المحتوم ليلة يوم الثلاثاء في ٢٢ رجب الفرد سنة ١٣٠٨هـ (٢ آذار سنة ١٨٩١م) وقد جرى دفنه ظهر اليوم المذكور في جبانة سيدنا عمر المعروفة بالباشورة في بيروت، وسار في موكبه مفتي المدينة وقاضيها ونقيب الأشراف واعتبرت الحكومة وفاته مأتماً رسمياً شاركت فيه بثلة من العساكر الشاهانية والدرك والشرطة بالإضافة إلى كبار الموظفين في حكومة ولاية بيروت.

وفي المقبرة تبارى الشعراء والخطباء في تأبينه والإعراب عن لوعة الأمة بفقده وكان من بين المتكلمين آنئذ الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي والشيخ مصطفى نجا ومحمد اللبابيدي وأحمد اللبابيدي وسليم الجارودي والشيخ محيي الدين الخياط ومحمد يحيى طبارة وفيما يلي أبيات من القصيدة التي ألقاها الشيخ الكستي:

أفقيد هذا العصر يا من قضى نحباً
على أهله قد أوجب الحزن والندبا
فمثلك من يُبكى عليه لنفعه
وذو النفع من مولاه يكتسب القربا
عجبت لتابوت يضمك حجمه
وكنت تعمّ الشرق بالفضل والغربا
وإنا عهِدْنا بك ما يوجب الرضا
ويورثك العزّ المؤيد في العقبى

وقد نقشت فيما بعد على قبره الأبيات التالية:

هذا ضريح توارى فيه ذو شرف
قد كان يملأ عين الدهر مرآه
كنز المعارف إبراهيم من شهدت
له بحُسن التّقى والفضل دنياه
بطلعة الأحدب الماضي له لقب
ورأيه قد حكى بالفضل معناه
تكفّلت خدمة الشرع الشريف له
بأنه سوف يُعطى ما تمنّاه
وبشّرتنا بأن الله عامله
بالعفو أرّخ والإكرام أرضاه
سنة ١٣٠٨ هجرية

حتى إنه كان يلقب بأبي حنيفة الصغير. وقد نوه به الشيخ إبراهيم اليازجي الشاعر اللبناني وأشار إلى إحاطته بأحكام الشريعة الإسلامية لا سيما في علم الفرائض وذلك في قصيدة منها هذان البيتان:

فضّاض مشكلة، خوّاض معضلة
روّاض مسألة من كل مُلتبِس
لا يصطلي نار إبراهيم مجتهد
ولا تنال عداه كف ملتمِس

بعض منظوماته في مختلف الأبواب

حفلت كتب الأدب ومجاميع تراجم علماء القرن الماضي بأخبار المترجم له، وأفرد له المؤلفون فيما كتبوه الصفحات الكثيرة ونقلوا خلاصات، مقتطفات عديدة من ثمرات قلمه وشذرات معارفه سواء في الكتابة المرسلة المنثورة أو القصائد الشعرية الموزونة، ونحن ننقل فيما يلي بعض الأبيات التي اجتزأناها من قصائده التي نظمها في مناسبات مختلفة، بعضها في الحكم والأخلاق وبعضها في الغزل والنسيب وغير ذلك من أغراض الشعر التي كانت مطروقة في زمانه.

من ذلك قصيدته التي سماها «بائية العرب» التي نحا فيها نحو قصيدة «لامية العجم» للطغرائي:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل
وحلية الفضل زانتني لدى العطل

قال الأحدب في مطلع قصيدته البائية:

ورْدُ المعاني بما يصفو من الأدب
يقضي براح الصفا في أرفع الرتب
إن الثناء بنظم الدر ليس يُرى
إلا بمنسوج ما أسديت من ذهب
وما الشمائل قد رقت نوافلها
تطيب إلا بمنثور من الأدب
فذاك أنفس ذخر عزّ صاحبه
عن الكتائب، يغني المرء بالكتب

ومنها قوله:

آخ الصديق إذا أصفاك خلّته
ولم يَشُب صدقه شيء من الكذب
ولا تمُل عن وفاء ما وفى لك إنْ
رأيت حبل هواه غير مقتضب
واهجره هجراً جميلاً إن رأيت له
قبيح وصل لأهل الزيغ والرِّيب
والعرض صنه إذا أعرضت عنه فلا
تقدح بساق له في مورد أشِب

إلى أن يقول في ختام هذه القصيدة:

هذي بدائع قد أودعتها نِكتاً
من المعاني، نَبتْ عن سمع كل غبي
جرى إليها يراعي محرزاً قصباً
فأطرب السمع في معناه بالقصب
«لاميّة العجم» استعلت بنسبتها
وهذه دعيت «بائية العرب»

وقال في مدح الأمير عبد القادر بطل حرب التحرير في الجزائر ومطلعها:

عقود ودادي نظمها ليس يفسح
وشرح غرامي محكم ليس يُنسخ
نشأت بخمر الحب نشوان فهو لي
إذا شئت تِرْب يا أبا الفضل أو أخ
أذل لمن أهوى وكم ذل عاشق
أشمّ له أنف إلى المجد أشمخ
تمدّ خدود القيد قلبي بنارها
فمهما جرى دمعي فلا يتبوَّخ
ولم تكتحل عيني بميل من الكرى
وكم بين من أهوى وبيني فرسخ
أروّح قلبي بالمنى وهي قد قضت
فهل بوفا يدري بها الروح تنفخ

ومنها:

فتى الفضل عبد القادر الذي
يجيب ندى من أمَّة وهو يصرخ
وذو النسب السامي الذي نَشْر طيبه
هو المسك مع طول المدى ليس ينسخ
محط رحال المقدمين وقصدهم
فنجب الرجا في باب علياه نوَّخ
تضم به العلياء طول مهابة
بطلعته الغرّاء تسمو وتشمخ

ومنها:

شمائل، ما للمسك في الشَّم طيبها
بأنفاسها برد الشمال مضّمخ
له الكلم اللاتي بها السمع يزدهي
وتعنو لها شُمُّ العلا وهي شمّخ

ومن أبياته في الغزل:

كلفت بفاتن عذب الثنايا
فؤادي في محبته تعذبْ

جميع جوارحي تصبو إليه ... نسجها قد كان من غزل الرياح
لذلك مدمعي فيه تصبَّبْ ... فلذا تكسو الفتى ثوب ارتياح

ومن قصائده في فن الموشحات الأندلسية قوله:

في سما الأفراح يد السعد لاح
فأجل شمس الراح واترك قول لاح
قد وفى وصل الصفا فصل الربيع
شاكراً فضل الأيادي للربيع
وغدا يبدي مقامات البديع
عندليب في فروع الدمع صاح
داعياً سكران حبٍّ غير صاح
وزهت بالحس للورد خدود
قد حلا فيها لعشاق وُرود
والحيا قد حاك للروض برود

من مؤلفاته

١ ـ فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق.
٢ ـ فرائد اللآل في مجمع الأمثال.
٣ ـ تفصيل اللؤلؤ والمرجان في فصول الحِكم والبيان.
٤ ـ نشوة الصهباء في صناعة الإنشاء.
٥ ـ الرسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية.
٦ ـ تفصيل الياقوت والمرجان في إجمال تاريخ دولة بن عثمان.
٧ ـ كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان.

وله شعر جميع في ثلاثة دواوين.

الشيخ يوسف الأسير

هو يوسف بن عبد القادر بن محمد الحسيني. والأسير، لقب اشتهرت به عائلته لأن أحد أجداده أسره الفرنج بمالطة ولما عاد إلى صيدا عرف بين مواطنيه باسم «الأسير». ويرجع نسب هذه العائلة إلى البيت النبوي الطاهر عن طريق سبط النبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

ولد المترجَم له في مدينة صيدا بلبنان في شهر ذي القعدة سنة ١٢٣٠هـ (١٨١٥م) وقيل بعد هذا التاريخ بسنتين.

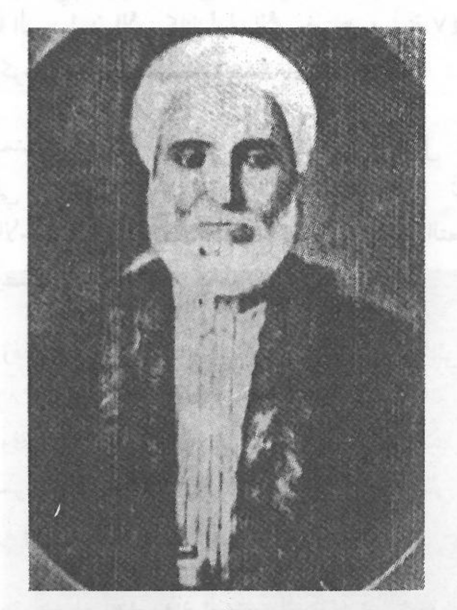
بدأ نشأته الأولى في صيدا وأخذ علومه الأولى في هذه المدينة. ومن شيوخه في هذه الفترة الشيخ إبراهيم عارفة الذي علمه القرآن الكريم مع الشيخ علي الديربي، وقد كان عندما أتقن القرآن الكريم قراءة وتجويداً في السابعة من عمره. وبقي نحو خمس سنين يتتلمذ على الشيخ علي الشرنبالي الذي لقنه مبادىء العلوم العربية والدينية.

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره انتقل إلى دمشق ومكث بها نحو ستة شهور من سنة ١٢٤٧هـ يدرس في المدرسة المرادية التي أسسها الشيخ مراد الحسيني المتوفى سنة ١١٣٢هـ وكانت تعرف باسم «أزهر دمشق»، ولما توفي والده ترك دمشق وعاد إلى صيدا حيث حلّ مكان أبيه في إعالة أسرته ورعاية شؤونها..

ثم ما لبث أن عاوده الحنين لطلب العلم فتوجه إلى الأزهر الشريف بمصر وجاور به نحو سبع سنين. وكان من شيوخه في الأزهر الشيخ محمد الشبيني، والشيخ محمد الطنتدائي (الطنطاوي) والشيخ محمد الدمنهوري، والشيخ محمد الباجوري والشيخ أحمد الدمياطي، وأدرك في هذه المرحلة العلامتين الشيخ حسن العطار والشيخ حسن القويسني اللذين تعاقبا على مشيخة الأزهر آنذاك.

وفي أثناء إقامته بمصر أصيب بداء الكبد فاضطر للعودة إلى وطنه صيدا حيث انصرف إلى إلقاء الدروس الدينية واللغوية في مساجدها. وما لبث أن دُعي لمنصب رئيس الكتَبَة في المحكمة الشرعية بطرابلس الشام وبقي في هذا المنصب نحو ثلاث سنين كان خلالها مقصداً لطلاب العلوم العربية من المسلمين والنصارى، ومن هؤلاء الأخيرين يوحنا الحاج الذي سمي بطريركاً للطائفة المارونية بلبنان في ٢٩ نيسان سنة ١٨٩٠م، والخوري يوحنا الحبيب مؤسس جمعية المرسلين المارونية.

ومن محكمة طرابلس نُقل المترجَم له إلى مثل وظيفته في المحكمة الشرعية ببيروت. وفي بيروت اتصل به المرسلون الأميركان وكلفوه بتصحيح لغة «الكتاب المقدس» الذي ترجموه إلى العربية وطلب إليه القس إيلي (عالي) سمث والقس الدكتور كارنيليوس فانديك إعطاءهما دروساً في اللغة العربية، وفي أثناء ذلك طلب منه المبشرون الأميركان نظم بعض الترانيم الدينية لتلاوتها في كنائسهم الإنجيلية وتعليم اللغة العربية لطلابهم في المدرسة السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية اليوم).



ثم دُعي المترجَم له لوظيفة مفتي مدينة عكا بفلسطين ـ ردها الله للعروبة والإسلام ـ ولما أصبح جبل لبنان متصرفية ممتازة بموجب البروتوكول الذي وقعته الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية سنة ١٨٦٤م، طلبه داود باشا الأرمني أول المتصرفين للقيام بوظيفة النائب العام في حكومته، وفي نفس الوقت كلفه برئاسة تحرير الجريدة الرسمية التي أصدرها المتصرف المذكور باسم «لبنان».

ومن حكومة جبل لبنان انتقل المترجَم له إلى اسطمبول حيث كلف بتدريس اللغة العربية في دار المعلمين الكبرى وبعدها عُيّن في وظيفة رئيس مصححي اللغة العربية في نظارة المعارف العمومية في حاضرة السلطنة العثمانية. وفي أثناء وجوده في اسطمبول كان يقصده كبار الموظفين العثمانيين لإعطائهم دروساً في اللسان العربي، ومن هؤلاء الموظفين رشدي باشا شرواني الصدر الأعظم، وأحمد جودت باشا ناظر المعارف ووصفي أفندي رئيس كُتّاب مجلس شورى الدولة، وذهني أفندي رئيس

مجلس المعارف والخواجا بوريه سفير فرنسا بالآستانة، وغيرهم كثيرون..

على أن المترجم له تضايق من شدة البرد في اسطمبول مما أثر في صحته فآثر العودة إلى وطنه واستقر في مدينة بيروت منصرفاً إلى التعليم في مدارسها، من ذلك مدرسة الحكمة (المارونية) التي أسّسها يوسف الدبس، مطران الموارنة في بيروت سنة ١٨٦٥م، والمدرسة الوطنية التي أسسها المرسلون الأميركان سنة ١٨٦٣ م وأشرف عليها من طرفهم المعلم بطرس البستاني أحد تلامذتهم القدامى. ومدرسة الثلاثة أقمار للروم الأرثوذكس التي أنشئت أول الأمر في سوق الغرب بلبنان ثم نقلت سنة ١٨٦٦م إلى بيروت، والمدرسة السورية الإنجيلية التي أسسها المرسلون الأميركان أول الأمر في عبيه سنة ١٨٤٧م ثم نقلوا مركزها إلى بيروت سنة ١٨٦٦م.

وكان المترجَم له من بين أدباء المسلمين القلائل الذين انخرطوا في الجمعيات العلمية التي شجع على تأليفها المرسلون الأجانب في البلاد لاستدراج المواطنين إلى التعاطف معهم وترويضهم على الأخذ بحضارتهم وأفكارهم.

وكانت وفاة المترجَم له يوم السبت في ٥ ربيع الثاني سنة ١٣٠٧هـ (٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨٨٩م) ودفن بجبانة سيدنا عمر المعروفة باسم الباشورة في بيروت بعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير حيث توالى الخطباء والشعراء على تأبينه وتعداد مآثره وفضائله.

وكان المترجَم له أحد رواد النهضة الفكرية في هذه البلاد، وهو يعتبر في طليعة العلماء الأعلام الذين ابتدأت بهم طلائع الحركة الثقافية في القرن الماضي. ولقد تخرج عليه الجم الغفير من الطلاب، سواء في المدارس الأجنبية والوطنية وسواهم ممن كانوا يرتادون حلقاته التي كان يعقدها في مساجد بيروت وطرابلس وصيدا.

وكان طلابه والمفيدون من علمه وأدبه مزيجاً من الأجانب والوطنيين.

هذا وقد أجمع الذين تحدثوا عنه أو كتبوا سيرة حياته على التنويه بالمكانة العالية التي تبوأها في مجالات الخدمات الحكومية أو المجامع الثقافية والفكرية. فقد قال فيه الشيخ عبد الرزاق البيطار «إنه شيخ فاضل وعالم كامل، ذو أسلوب حسن، وبلاغة ولسن، وقريحة جيدة، وفكرة لما تبديه مجودة، قد سار ذكره مسير المثل، واشتهر أمره اشتهار الأثل، وانتفع به عدد وافر، وأذعن لفضله أعيان الأكابر». وقال الدكتور يعقوب صرّوف في مجلة المقتطف «إنه كان واسع الرواية، دقيق الانتقاد، تفقه بالعلوم العربية والفقهية، يرى فائدة في العلوم الطبيعية الحديثة ويحث على دراستها وإتقانها».

وكان الشيخ الأسير أسمر اللون، أسود الشعر، كث اللحية، شاب فَوْده ولم يشب فؤاده، صادق الوعد، قوي الذاكرة، يسأل كل مجيب بكل علم، ويراجع العويص فيرده إلى الفهم.

وقد ترك الشيخ يوسف الأسير كثيراً من المؤلفات والرسائل والمقالات، تناول فيها مختلف الموضوعات اللغوية والفقهية، وعدداً من المراسلات الإخوانية التي تبادلها مع أصدقائه من العلماء والأعيان، إلا أن أكثرها أتلفته النار في حريق أصاب مكتبته في آخر حياته وضاعت أُصولها من غير أن نعرف عنها شيئاً.

من مؤلفاته

١ ـ شرح رائض الفرائض (في الميراث)
٢ ـ شرح كتاب «أطواق الذهب» للزمخشري
٣ ـ سيف النصر (رواية تمثيلية)
٤ ـ رد الشهم للسهم.
٥ ـ الروض الأريض (ديوان شعر).
٦ ـ شرح المجلة (القضائية).

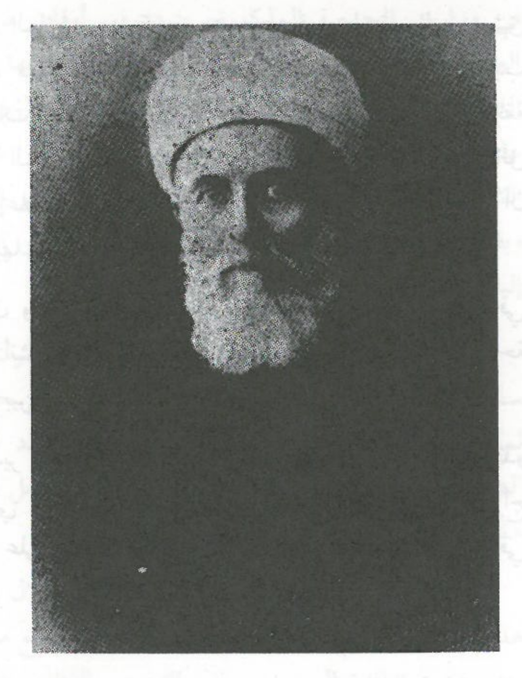
الشيخ عبد القادر القباني

هو عبد القادر بن مصطفى آغا القباني. وكلمة آغا المضافة إلى اسم والده من الألقاب التشريفية التي كانت شائعة في أيام الدولة العثمانية. وكثيراً ما كان الجيل الذي سبقنا يطلقها على الشخص الذي يشتهر بالفتوة ويتمتع بشيء من النفوذ الاجتماعي في بيئته بسبب شجاعته وشدته وهمته في الدفاع عن أهل محلته وجيرانه للحفاظ على أموالهم وصيانة أعراضهم وملاحقة مصالحهم في الدوائر الحكومية.

تنقلت الأسرة القبانية في الماضي من بلاد العراق إلى مدينة جبيل على الساحل اللبناني. ومن جبيل ألقت عصا التسيار واستقر بها النوى في مدينة بيروت ما خلا فترة قصيرة قضتها في جزيرة قبرص عندما نفيت إليها بأمر إبراهيم باشا الذي انتقم منها بسبب رفض مصطفى آغا والد المترجَم له التعاون مع مصر ضد الدولة العثمانية. وبعد عودة هذه الأسرة من منفاها إلى بيروت ولد المترجَم له عبد القادر القباني وكان ذلك سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) وكانت مساكن هذه الأسرة تقع في محلة زقاق البلاط.

بدأ عبد القادر القباني دراسته الأولى في الكتاتيب الإسلامية التي كانت شائعة في زمانه ومن هذه الكتاتيب انتقل إلى المدرسة الوطنية التي أنشأها المعلم بطرس البستاني في أواسط القرن الماضي. وبالإضافة إلى ذلك فإنه تلقى علومه الدينية والعربية على الشيوخ المعروفين ومنهم الشيخ محيي الدين اليافي الذي تعاطى التعليم في بيروت بعد قدومه من دمشق والشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي الذي كان من العلماء المبرّزين في الفقه والأدب واللغة. كما كان من أساتذته العالم الشاعر الشيخ يوسف الأسير من صيدا. ففي ذلك الحين دفعت الحمية الدينية والخبرة الوطنية الحاج سعد الله حمادة رئيس محكمة التجارة إلى التباحث مع نخبة من أهل البلد الذين توسم فيهم الهمة والإقدام وألف منهم جمعية للنهوض بالمسلمين باسم «جمعية الفنون الإسلامية» وكان الحاج سعد الله نفسه ناظراً لهذ الجمعية والشيخ يوسف الأسير رئيسها. وكان أعضاء هذه الجمعية يحضرون درس الرئيس في منزله ليلاً ليتم لهم العمل عن علم، وذلك بإرشاد الناظر المذكور. وقد بدأت الجمعية عملها بتأسيس شركة مساهمة من أعضائها ونشر جريدة تنطق باسمها باسم «ثمرات الفنون» وقد سجل امتياز الشركة والجريدة باسم عبد القادر القباني الذي تولى إصدار الجريدة وكان أول أعدادها بتاريخ ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢هـ (نيسان ١٨٨٥م).

إلا أن الجمعية المذكورة لم يكتب لها الاستمرار طويلاً ذلك أن صاحب فكرتها ومؤسسها الحاج سعد الله حمادة اعتراه المرض الذي أودى بحياته فانحلت هذه الجمعية فقام الشيخ عبد القادر بشراء جميع أسهم المطبعة التابعة لها وانفرد بإصدار جريدتها «ثمرات الفنون» التي استمرت في عهدته خمسة وثلاثين عاماً. وكانت «ثمرات الفنون» في مواسم الامتحانات لتلامذة المدارس تنشر ما ينبه الأفكار ويثير الغيرة في صدور المسلمين وتدعوهم إلى العمل على جعل المدارس تعوض عليهم ما فقدوه من العلم والعرفان، وكانت لا تترك فرصة دون أن تحضّ على فتح المدارس ونشر العلم.



بالإضافة إلى جريدة «ثمرات الفنون»، فإن الشيخ عبد القادر القباني أرسى في المجتمع البيروتي قواعد الانطلاق العصري لتعليم الناشئة الإسلامية في مدارس تنتظمها مناهج الدراسة التي تستجيب لهذا الانطلاق. وفي منزله كانت بيروت تبدأ خطواتها الثابتة في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي أصبحت اليوم الحاضنة الرؤوم لعشرات المدارس الإسلامية سواء في بيروت نفسها أو في بقية أنحاء الجمهورية اللبنانية العتيدة. كان ذلك سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) حين اجتمع رهط

كريم من أعيان المسلمين وعلمائهم وقرروا البدء في رحلة تأسيس المدارس، هذه الرحلة التي ما زالت مستمرة حتى اليوم بنفس الحرارة التي شحنت بها عندما بدأت خطواتها الأولى قبل نحو القرن من الزمان.

وفي سنة ١٨٨٨م قام أهل بيروت بحركة انفصالية عن ولاية دمشق التي كان واليها ناشد راشد باشا، فاستجاب السلطان عبد الحميد لهذه الحركة وأعلن فصل بيروت عن دمشق وإنشاء ولاية مستقلة بها باسم «ولاية بيروت» ومرة أخرى كان الشيخ عبد القادر القباني محل ثقة الدولة التي عينته عضواً في محكمة الاستئناف بهذه الولاية حيث بقي في هذا المنصب القضائي لمدة عشر سنوات متوالية كان خلالها مثالاً كريماً لرجل القضاء النزيه.

وبالنظر لتمرس الشيخ عبد القادر القباني بالقضاء، على مستوى الكرامة والحياد والنزاهة، فإن أهل بيروت انتخبوه رئيساً للمجلس البلدي في مدينتهم حاضرة الولاية التي تحمل اسمها.

وفي مدة رياسة المترجم للبلدية زار الإمبراطور غليوم، إمبراطور المانيا، مدينة بيروت وهو في طريقه إلى دمشق والقدس، فلفتت هذه المدينة نظر الإمبراطور الألماني بسبب الاصلاحات العمرانية والإدارية التي كانت نتيجة للجهود الفائقة التي كان المترجَم له يبذلها لتكون بيروت في المستوى اللائق بها بعد إعلانها ولاية مستقلة الأمر الذي حدا بالإمبراطور أن يطلق عليها لقب «الدرة في تاج سلاطين آل عثمان».

وخلال وجود المترجَم له في رياسة المجلس البلدي في بيروت، أنشأ من أموال البلدية برج الساعة في وسط الساحة التي تقع بين سراي الحكومة وبين قصر العدل قديماً.

والجدير بالذكر أن بلديات طرابلس وحلب ويافا حذت حذو بيروت في بناء أبراج مماثلة للساعة المذكورة وهذه الأبراج صممت على نفس الشكل الذي صمم به برج الساعة في بيروت.

وبقي الشيخ عبد القادر القباني رئيساً للمجلس البلدي في مدينة بيروت طول المدة المقررة بموجب الأنظمة المرعية مشمولاً بتقدير السلطات المسؤولة وباحترام مواطنيه، الذين عرفت مدينتهم في عهده عصراً زاهياً في تطور عمرانها وانتظام شؤونها البلدية والاجتماعية والتعليمية.

وبعد انتهاء المدة القانونية لرياسته المجلس البلدي في بيروت تعين المترجَم له بإرادة سلطانية مديراً للمعارف في ولاية بيروت، وفي هذه الأثناء قدم إلى المراجع المختصة العديد من اللوائح التنظيمية لتطوير التعليم الرسمي والأهلي في هذه المدينة بما دل على بُعد نظره وكفاءته العلمية في مجالات التربية والتعليم.

بقي الشيخ عبد القادر القباني مديراً للمعارف في ولاية بيروت إلى أن وقع الانقلاب الذي قامت به جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩م. ففي ١٣ آب من هذه السنة، أبلغه الاتحاديون نبأ إقالته من هذه الوظيفة دون أي مبرر قانوني وذلك بسبب ما كان يظهره من ميل للسلطان المذكور. وبالرغم من مراجعة المترجَم له للقضاء من أجل إبطال هذه الإقالة، إلا أن الحكام أصروا على موقفهم بالرغم من ظهور نظافة كفه من كل مخالفة قانونية واكتفوا بإعطائه تعويضاته عن خدماته السابقة مع شهادة حسن سلوك تتيح له العمل في الدوائر الرسمية إذا شاء. إلا أن المترجَم له آثر الابتعاد نهائياً عن المناصب الرسمية وألف مع بعض إخوانه شركة للقيام بالمشاريع العمرانية العامة لا سيما استخراج الحديد واستنباط البترول في أراضي ولاية سورية.

في سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) انتهت رحلة الشيخ عبد القادر القباني في هذه الدنيا بعد عمر ناهز التسعين عاماً قضاها في الأعمال النافعة التي تركت له أحسن الذكر في تاريخ هذا البلد ودفن بجبانة الباشورة في الأرض التي وهبها كل ما آتاه الله من الهمة والنشاط والمعرفة والحب الأكيد.

الشيخ محيي الدين الخياط

جميع الذين ترجموا للشيخ محيي الدين الخياط، أجمعوا على أنه من الأشراف، آل البيت النبوي الطاهر، فهو ينتمي بنسبه من جهة أبيه إلى سبط النبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

اسم أبيه السيد أحمد وجده السيد إبراهيم. وعائلة الخياط في صيدا من الأُسر المغربية التي نزحت من المغرب العربي على أثر النكبات العسكرية والسياسية التي حلت بالمسلمين هناك. فقد نزلت أكثر هذه الأسر المغربية في المدن الساحلية من بلاد الشام واختارت عائلة المترجَم له مدينة صيدا.

أما من جهة أمه فإن الشيخ محيي الدين الخياط ينتمي إلى العنصر الارناؤوطي، وكانت أمه ابنة الحاج إبراهيم أفندي أحد الضباط الألبان في الجيش الهمايوني العثماني. وفي مدينة صيدا إبصر المترجَم له نور الوجود وذلك في ٢٢ رجب الفرد ١٢٩٢هـ (١٨٧٥م) وفي هذه المدينة العريقة في القدم، كانت نشأته الأولى حيث ارتشف أولى قطرات العلم. أدخله أبوه في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية فيها، حتى إذا بلغ من عمره السنة السادسة كان قد ختم القرآن الكريم وجوّده، وأتقن مبادىء اللغة العربية، قراءة وكتابة وإملاءً.

وفي سنة ١٢٩٩هـ، تعرضت أسرته لضائقة مالية خانقة مما اضطر أباه إلى بيع أملاكه في صيدا والانتقال مع جميع أفراد عائلته إلى بيروت سعياً وراء العمل وانتجاعاً للرزق.

وفي بيروت فَقَدَ الشيخ محيي الدين والده، فتعهدته أمه بالحب والرعاية، ويسرت له الدخول في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في هذه المدينة لمتابعة علمه وتحصيله. ويقول صاحب الترجمة عن نفسه في هذه المرحلة من عمره: «وأتممت فيها (أي في مدارس جمعية المقاصد المذكورة) الدروس حسب خطتها (منهاجها)، وكنت في كل السنوات رأس الصف) أي الأول بين زملائه الطلاب.

وبقي الشيخ محيي الدين في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ببيروت مدة خمس سنوات، درس خلالها العلوم التي كانت مقررة في هذه المدارس وهي: النحو والصرف، والفقه، والتوحيد، والجغرافيا، والحساب، والخط العربي بالإضافة إلى اللسان التركي الذي أدخله الاتحاديون إلى جميع مدارس المملكة العثمانية بعد أن خلعوا السلطان عبد الحميد الثاني ووثبوا على الحكم في اسطمبول سنة ١٩٠٩م.

كان ذلك والمترجَم له في الرابعة عشرة من عمره. ونظراً لما أظهره، رحمه الله، من النجابة والتفوق في دراسته، فإن جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تعاقدت معه، رغم صغر سنه، وانتدبته للتعليم في مدارسها التي سبق له أن تعلم فيها، ولعل الشيخ محيي الدين الخياط هو أصغر من مارس التعليم في هذه السن المبكرة، فيما انتهى إلينا من هذا القبيل.

إن عمل الشيخ محيي الدين في التعليم بمدارس جمعية المقاصد الخيرية، لم يحل بينه وبين طموحه الفطري ورغبته في متابعة الحياة العلمية، وطلب المزيد من أسباب المعرفة والثقافة على علماء بيروت في عصره. فكان خلال قيامه بمهمة التدريس في مدارس الجمعية المذكورة، يتردد في أوقات فراغه على العلماء يطلب العلم بين أيديهم. ولما كان ميله متجهاً إلى آداب اللغة العربية وعلومها وإلى التفقه بالدين، فإنه لازم الحضور على مواطنه الصيداوي الشيخ يوسف الأسير علامة زمانه وعلى الشيخ إبراهيم الأحدب (الطرابلسي) الناظم الناثر المشهور، وبقي ينهل من معينهما حتى ارتوى وبلغ الشأو الذي كان يسعى إليه في اللغة والأدب والتاريخ والفقه الإسلامي.

وإن ملازمته لهذين العالمين الكبيرين استمرت خمس سنوات، أما عمله في التدريس فإنه استغرق من حياته زهاء ثمانية عشر عاماً، تخرج خلالها على يديه العدد الجمّ من الطلاب الناجحين الذين أصبحوا فيما بعد نخبة أهل الفكر في هذا البلد.

لم تكثر سنوات الشيخ محيي الدين الخياط خلال رحلته في هذه الدنيا. فإنه لم يكد يقترب من نهاية العقد الرابع من عمره، حتى دهمته وافدة الحمى بمرض التيفوس القاتل، في الثالث من أيام شهر جمادى الأولى ١٣٣٢هـ، وفي غضون عشرة أيام من نفس الشهر ونفس السنة، وافاه اليقين بريب المنون إذ وضع الموت حداً نهائيًا لحياته وانتزعه القدر المحتوم من بين قومه وبلده، تاركاً في مكانه الفراغ الكبير الذي لم يستطع سواه أن يملأه..

ولم يكد يصدع الأسماع خبر افتقاده، وتنتشر الفجيعة به بين الناس، حتى بكته، كما يقول الشيخ عبد الباسط الأنسي، عيون

الأدب بدموع غزار وتقاطر العلماء والسراة إلى داره يشاطرون آله وذويه الأسى والأسف، وضجت بنعيه إلى الملأ هامات المآذن في مساجد بيروت عبر أصوات المؤذنين(١) الذين اتجهوا إلى الله ضارعين متوسلين بأن يجزي فقيد بيروت عما قدّم لأمته ووطنه بما هو أهل من المثوبة والرحمة والرضوان.

من مؤلفاته

١ ـ دروس في التاريخ الإسلامي (في أربعة أجزاء).

٢ ـ دروس في الفقه (في أحكام الدين والعقيدة).

٣ ـ شرح ديوان الرصافي وترتيبه وتبويبه بالاشتراك مع الشيخ مصطفى الغلاييني.

---

(١) مما جرت به تقاليد أهل بيروت في الماضي، أنهم كانوا إذا اخترمت المنية أحد علمائهم. قصد المؤذنون إلى المآذن وأعلنوا منها وفاة العالم بكلمات تعبر عن حزنهم وألمهم للمصاب الذي حلّ بهم ضارعين إلى الله تعالى بأنه يعوض البلد عما فقدته وأن يشمل المتوفى بسابغ رحمته وجميل عفوه في دار القرار والخلود.

الحاج حسين بيهم العيتاني

هو الحاج حسين ابن السيد عمر ابن السيد حسين بيهم العيتاني. وإن اقتران كلمة «السيد» باسم أبيه وجده المذكورين يبدو مقصوداً، وهو يعني أن هذه الأسرة من طبقة الأشراف الذي يمتّون بصلة النسب إلى البيت النبوي الكريم.

ولد الحاج حسين بيهم سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م) في بيروت. وفي هذه المدينة نشأ وترعرع وسط بيئة عائلية تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة جمعت، إلى كرم المحتد الوجاهة والثروة المالية التي اكتسبتها من خلال نشاطها التجاري الناجح. ولقد بدأ المترجَم له حياته بمزاولة التجارة مع أبيه وعمومته في محلهم التجاري، ولكن هذه المرحلة من حياته كانت قصيرة إذ أنه ما لبث أن استجاب لما كان يعتلج في نفسه من توق إلى ورود مناهل العلم والأخذ بأسباب الثقافة، ففعل ما كان يفعله نظراؤه من تجار زمانه الذين لم تكن همومهم التجارية لتمنعهم من حضور مجالس العلماء في بيوتهم أو الاشتراك في حلقات التدريس التي كان هؤلاء العلماء يعقدونها حول أسطوانات مساجد البلد، لا سيما في الجامع العمري الكبير.

يقول الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه: تاريخ الصحافة العربية (ج ١ ص ١١٧) في أثناء كلامه عن الحاج حسين بيهم «.. وكان منذ حداثته كَلِفاً بتحصيل المعارف والاجتماع بأهل الأدب والفضل فقرأ على جهابذة زمانه، كالشيخ عبدالله خالد، والشيخ محمد الحوت..».

إن العلوم التي حضرها الحاج حسين بيهم على الشيخين المذكورين هي: تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف، والفقه وأصول الدين الإسلامي، وقرأ على الشيخ محمد الحوت كتبه التي ألفها وهي التالية:

١ ـ كتاب: أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب.

٢ ـ كتاب حسن الأثر فيما فيه ضعف واختلاف من حديث وخبر وأثر.

٣ ـ الدرة الوضيَّة في توحيد رب البرية.

وبالإضافة إلى هذه العلوم التي يغلب عليها الطابع الديني فإن الحاج حسين بيهم نزع إلى الفنون الأدبية وعلوم اللغة العربية ونظم الشعر. ويقول الفيكونت فيليب دي طرازي إن المترجَم له «نظم الشعر فصارت له به ملكة راسخة بحيث كان يقوله ارتجالاً في محافل الوزراء والكبراء والأدباء فيأتي بالنادرة الغريبة التي كانت تسير سَيْر المثل. وكان يصح له نظم التواريخ الشعرية بما يطرب ويعجب...» وقد وصف المترجَم له بأنه من صفوة أدباء بيروت نظراً لعلو كعبه في هذا الميدان. ولقد كان الحاج حسين بيهم واحداً من اثنين ولدت «الجمعية العلمية السورية» على يديهما، والثاني هو الأمير محمد أمين أرسلان. وكلاهما من أهل السنة والجماعة في بيروت. وكان الأمير الأرسلاني أول رئيس لها، والحاج حسين تولى رئاستها في سنة ١٢٨٦هـ (١٨٩٦م) واستكمالاً للفائدة نذكر هنا أسماء بعض الحكام والأعيان والعلماء والأدباء الذين تألفت منهم هذه الجمعية، وهم في كثرتهم الكاثرة من الرعايا العثمانيين ما عدا سفيري العجم وبلجيكا. ولم يكن الحاج حسين بيهم في «الجمعية العلمية السورية» عضواً يكتفي منها باللقب الذي أعطى له، بل إنه كان عضواً فاعلاً متحركاً. وقد عبر عن هذه الفاعلية والحركة عن طريق إنشاء صحيفة دورية تصدر عن هذه الجمعية سماها «مجموع علوم» وقد ذكرها الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه «تاريخ الصحافة العربية» بهذا الاسم كما ذكرها أيضاً باسم «مجموعة علوم» وقد شاركه في إنشاء هذه المجلة المركيز موسى دي فريج أحد أعضاء الجمعية. وفي ١٥ كانون الثاني ١٨٦٨م صدر العدد الأول منها بعناية الجمعية المذكورة. وكانت دورية شهرية ظهر منها عشرة أعداد في السنة الأولى وسبعة أعداد في السنة الثانية وتوقفت عن الصدور في ٢٥ أيار ١٨٦٩.

* * *

إن انتماء الحاج حسين بيهم إلى عائلة مرموقة، والمكانة الشخصية التي كونها لنفسه عن طريق أعماله التجارية، والسمعة الأدبية التي حصّلها في ميدان الثقافة والعلم، كل ذلك جعل الدولة العثمانية توليه ثقتها وتكلفه بمهمات إدارية وقضائية عليا. ويقول الفيكونت فيليب دي طرازي إن الحاج حسين «اشتهر بالصلاح ومناصرة العلماء وإغاثة المحتاجين من أي مذهب كانوا» ولما حدثت الفتنة الطائفية بين الدروز وبين النصارى عام ١٨٦٠ قام المترجَم له وأفراد آل بيهم بإغاثة العائلات النصرانية التي لفحتها نار هذه الفتنة ووفروا لها الحماية أثناء لجوئها إليهم.

وفي سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٨م) أصدر «الباب العالي»، فرماناً ـ أي مرسوماً ـ بتقسيم البلاد السورية إلى وحدتين إداريتين

مرتبطتين مباشرة بالإدارة المركزية في اسطمبول وأطلقت على كل واحدة منهما اسم «إيالة» وهما إيالة الشام، وإيالة صيدا، على أن التقسيمات في كلتا الإيالتين لم تستقر تماماً إلا في السنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٦م).

وجعلت الدولة في كل إيالة مجلساً أعلى لإدارتها والعناية بشؤونها وتأمين مرافقها العامة. ولما كان العثمانيون يعتمدون في إدارة البلاد التابعة لهم على أهل الحيثيات الاجتماعية في قومهم، للإفادة من نفوذهم الأدبي في استقرار الأمن وحسن تصريف الأعمال في مناطقهم، فإنها اختارت الحاج حسين بيهم ليكون عضواً في «مجلس إيالة صيدا الكبير» ثم إنها في فترة لاحقة عينته فيما كان يسمى آنذاك «قوميسيون فوق العادة» وهو أعلى هيئة قضائية في حينه داخل الإيالة وأحكامه تستأنف في اسطمبول عند الضرورة، وبعد ذلك عُيّن المترجَم له في «محكمة استئناف التجارة».

في سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) أعلن السلطان عبد الحميد (الثاني) رحمه الله القانون الأساسي (أي الدستور في اصطلاح زماننا) وهو الدستور الذي وضعه السلطان بإلحاح من وزيره (الصدر الأعظم) مدحت باشا، الملقب بأبي الدستور، وبموجب هذا الدستور أجريت على الأثر في بلاد المملكة العثمانية انتخابات نيابية لاختيار أعضاء المجلس النيابي العثماني الذي كان آنذاك يسمى «مجلس المبعوثان» وكان النائب فيه يسمى «مبعوث» فاختار البيروتيون الحاج حسين بيهم مبعوثاً لهم في هذا المجلس الذي عقد أول جلسة له في ١٩ آذار سنة ١٨٧٧م داخل قاعة الاستقبال الكبرى في قصر «ضولمة بغجه» باسطمبول.

ويقول الفيكونت فيليب دي طرازي عن الكفاءة التي أظهرها المترجَم له في أثناء نيابته «وظهر اقتداره، خصوصاً لما انتدبه سكان وطنه ليمثلهم عام ١٨٧٧ في مجلس النواب العثماني لأول مرة، فذهب إلى الآستانة ونال حفاوة كبرى لدى وزراء السلطنة وأعاظم رجالها».

إلّا أن عمر «مجلس المبعوثان» لم يكن طويلاً إذ أن السلطان عبد الحميد ما لبث أن أصدر في ١٤ شباط ١٨٧٨م إرادة سنية بحل هذا المجلس وأمر بتعليق الدستور الذي أعلنه قبل سنتين، فعاد المترجَم له إلى موطنه بيروت، وقرر اعتزال الوظائف الإدارية والابتعاد عن معترك الحياة السياسية مؤثراً الانقطاع إلى خدمة أمته وبلده في المجالات الاجتماعية، وفي هذه الأثناء كانت له مآثر تذكر وتشكر ومنها الاشتراك مع الشيخ عبد القادر القباني وغيره من أفاضل المسلمين في بيروت في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية التي ما تزال حتى اليوم تؤدي أعظم الخدمات للبنان في حقل التربية والتعليم والتوجيه الوطني السليم.

في ٢٤ من شهر صفر ١٢٨٠هـ (٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٨١م) أغمض الحاج حسين بيهم عينيه لآخر مرة وطواه ريب المنون في ذمة ربه الكريم ففقدت الآداب أحد أركانها في بيروت كما يقول الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه، «الآداب العربية في القرن التاسع عشر» ولا غرو، فإن الدكتور كمال اليازجي في كتابه عن إبراهيم الحوراني اعتبره من أركان الرعيل الأول في النهضة العلمية بلبنان.

وإن بيروت التي حملت الحاج حسين بيهم العيتاني في حياته إلى ما هو أهل له من المناصب الإدارية والمكانة الأدبية حملته عند وفاته في مشهد حافل لم تشهد هذه المدينة مثيلاً له من قبل، وتم دفن جثمانه الطاهر في ضريح والده عمر بن حسين بيهم في جبّانة السنطية الواقعة بالقرب من البحر شمالي بيروت.

الشيخ عبد الباسط الفاخوري

هو الشيخ عبد الباسط ابن الشيخ علي الفاخوري. ولد في بيروت سنة ١٢٤٠هـ (١٨٢٤م) وكان أبوه الشيخ علي من العلماء أهل الطريق. وقد تلقى الشيخ عبد الباسط العلوم والفنون على مشايخ الثغر (أي بيروت) وقتئذٍ ثم اختص بعلامتي عصرهما الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد الكبيرين عليهما الرحمة والرضوان فقرأ عليهما الفقه والتوحيد والحديث والأصول والتفسير وغير ذلك من المعقول والمنقول وبرع فيها كلها.

كان المترجَم له مشاركاً لأبيه في الأعمال التجارية، على أن انهماكه في هذه الأعمال لم يحل دون مواظبته على طلب العلم على عادة تجار ذلك الزمان الذين كانوا يحرصون على حضور الدروس الدينية في المساجد على العلماء بعد أداء الصلاة. فلقد كان المترجَم له حريصاً على متابعة الدروس التي كان يلقيها الشيخ محمد الحوت الكبير في المسجد العمري لا سيما دروس الفقه والحديث حتى برع فيهما وأحاط بأسرارهما وكان له فيهما اليد الطولى والرسوخ التام، وأصبح عالماً كبيراً في الشريعة الغراء مما حدا بشيخه الشيخ محمد الحوت أن يمنحه الإجازة بإعطاء الدروس وهو دون الخامسة والعشرين من عمره، فكان رحمه الله يجمع بين معاطاة التجارة وأداء الدروس في آن واحد، إلا أنه انصرف أخيراً عن الاشتغال بأسباب التجارة والتفت إلى مواصلة التدريس دون أن يتناول على عمله هذا أجراً مادياً وإنما كان يفعله طمعاً في حسن المثوبة عند الله وحرصاً على تفقيه الناس في أمور دينهم وتبصيرهم بدقائق الإسلام ومزاياه التشريعية.

وكانت بيروت في تلك الأيام تواجه غارة تبشيرية مسعورة قادها المرسلون الأميركان والأوروبيون من قساوسة البروتستانت وكهنة اليسوعيين، فقد أسس هؤلاء وأولئك المدارس في جبل لبنان ومدينة بيروت وجعلوا منها مصيدة لأبناء المسلمين الراغبين في العلم العصري بغية افتراس إيمانهم وتحويلهم عن دينهم أو على الأقل تشكيكهم بعقيدتهم الإسلامية وزعزعة ثقتهم بتراثهم وتاريخ رجالهم.

وأمام هذه الغارة المركزة التي شنتها الصليبية العالمية من أجل تهديم الإسلام من داخله عن طريق الغزو الفكري المسلح بكل وسائل الدعاية والإغراء من الأموال والرجال، نفرت طائفة من علماء المسلمين وأعيانهم في بيروت واجتمعت في بيت الشيخ عبد الله خالد بدعوة منه حيث تدارس الجميع أمر مجابهة المدارس التشيرية من أميركية ويسوعية وقر رأيهم على إنشاء مدارس إسلامية تستوعب ناشئة المسلمين وتبعث فيهم يقظة فكرية على أسس حديثة وتسلحهم بالعلوم العصرية على أسس دينية لتقيهم شر الانزلاق في طريق التبشير المقنع بالشعارات العلمية.

وكان ذلك حوالى سنة ١٢٨٠ أو سنة ١٢٨١هـ (١٨٦٤ - ١٨٦٥م) إذ اصطحب الشيخ عبد الله خالد عيون المشايخ إلى والي الإيالة حيث ظفروا منه بالترخيص لإنشاء مدرسة إسلامية على الأساليب الحديثة، وبالفعل فإن هذه المدرسة ظهرت إلى الوجود وكان مقرها جامع الأمير منذر بن سليمان التنوخي الذي كان معروفاً باسم جامع النوفرة.

وتألفت الهيئة التعليمية الأولى في المدرسة المذكورة من الشيخ عبد الباسط الفاخوري والشيخ عمر الأنسي، والشيخ عبد الرحمن الحوت والشيخ عمر خالد وكانت المواد التي كلف هؤلاء الشيوخ بتدريسها مشتملة على الصرف والنحو والفقه والتوحيد. ثم إن الوالي راجع الآستانة مستأذناً بفتح مدرسة أخرى عرفت يومها بالمدرسة الرشدية وكان ذلك سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) كما فتح الشيخ عمر البربير، في بيروت مدرسة أخرى باسم المدرسة القادرية.. وقد تخرج من هذه المدارس عدد كبير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد باكورة علمية وتولوا المناصب الرفيعة في دوائر الدولة الدينية والمدنية.

تابع الشيخ عبد الباسط الفاخوري مهمة التدريس في مدرسة جامع الأمير منذر (النوفرة) في بيروت وقد أظهر رحمه الله في هذه المدرسة كل حمية للدين وإخلاص في التعليم، وأبدى من الكفاءة والمقدرة ما جعل أبناء بلده يحيطونه بكل مظاهر الإجلال والتوقير. فلما توفي الشيخ محمد المفتي (حفيد الشيخ عبد اللطيف فتح الله (المفتي) في ١٨ رجب سنة ١٢٩٦هـ (تموز ١٨٧٩م) الذي شغل منصب الإفتاء حوالى ثلاثين عاماً، اجتمع أهل الحل والعقد من علماء بيروت وكبرائها وأعيانها وذوي الرأي فيها، وقر رأيهم بالإجماع على اختيار الشيخ عبد الباسط الفاخوري لمنصب الفتوى في هذه المدينة خلفاً للمفتي الراحل. وقد وافقت اسطمبول على هذا الاختيار وتم تعيينه في هذا المنصب يوم ٢٥ رجب الفرد سنة ١٢٩٦هـ (١٨٧٦م).

والجدير بالذكر أن الشيخ عبد الباسط الفاخوري، صاحب

الترجمة، وصل إلى أريكة الفتوى دون أن يرشح نفسه لهذا المركز الديني المرموق. ذلك أن أهل بيروت وفي مقدمتهم العلماء هم الذين أرادوه له ولم يتقدم أحد من الشيوخ لترشيح نفسه وذلك احتراماً لهذا العالم الفاضل الذي كان بنظرهم أجدرهم بالفتوى وأكثرهم لياقة للقيام بأعباء هذه الرسالة التي تناط بمن تلقى على عاتقه تبعات الشؤون الدينية وأعباء التوجيه الروحي في قومه. فلقد كان الشيخ عبد الباسط رحمه الله يمتاز بسعة العلم وصدق التقوى واستقامة الأخلاق والصلاح الكامل.

ولقد بقي الشيخ عبد الباسط الفاخوري يشغل منصب مفتي بيروت من حين توليته فيه إلى حين وفاته في ٢ صفر الخير ١٣٢٣هـ (نيسان ١٩٠٥م).

يمكن القول إن جميع الأشخاص الذين كانوا من طلاب المدرسة الإسلامية الأولى التي أسسها الشيخان عبد الله خالد ومحمد الحوت في جامع الأمير منذر (النوفرة) هم في الواقع من تلاميذ المترجَم له الشيخ عبد الباسط الفاخوري، إذ أنه رحمه الله، كان، كما ذكرنا من قبل، أحد أعضاء الهيئة التعليمية الذين اختيروا للتدريس في المدرسة المذكورة. وبالإضافة إلى طلابه في هذه المدرسة فإنه كان له كذلك عدد من الطلاب الذين كانوا يترددون عليه في بيته أو يلازمون حلقاته التي كان يعقدها للوعظ والإرشاد والتعليم سواء في الجامع العمري الكبير في بيروت أو في غير هذا الجامع من مساجد المدينة، ومن أبرز الأشخاص الذين كانوا يلازمونه في حلقاته المسجدية للإفادة من فضله وعلمه، الشيخ مصطفى بن محيي الدين نجا أحد التجار المعروفين في زمانه الذي أصبح مفتي بيروت خلفاً لصاحب الترجمة أستاذه.

والجدير بالذكر أن هؤلاء الطلاب الذين نهلوا العلم في حلقات الشيخ عبد الباسط الفاخوري سواء في بيته أو مدرسته أو في المساجد المختلفة، جميعهم قد بلغوا في بلدهم وبين قومهم منزلة رفيعة وأصبحوا في زمانهم من أعيان لبنان وأعلام العلماء وأسندت إليهم المناصب الحكومية السامية وكانوا بدورهم حلقة ذهبية في سلسلة عناوين النهضة الفكرية الحديثة في هذا البلد.

عندما ترجم خير الزركلي حياة الشيخ عبد الباسط الفاخوري في «أعلامه» لم يشر إلى سنة ولادته وحدد سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) تاريخاً لوفاته، وقال في حاشية هذه الترجمة: «لم تذكر المصادر تاريخ وفاته، فعرفته من أحد أحفاده في بيروت» على أنني بالاطلاع على جريدة ثمرات الفنون البيروتية لصاحبها الشيخ عبد القادر القباني قرأت في هذه الجريدة أن وفاة المترجَم له كانت يوم الجمعة في ٢ صفر الخير سنة ١٣٢٣هـ (نيسان سنة ١٩٠٥م) ولما كانت الجريدة المذكورة تصدر في ذلك الحين فإن ما جاء فيها في هذا الصدد هو المعتمد، ففي عصر اليوم المذكور وافى الشيخ عبد الباسط اليقين وانتقل رحمه الله إلى جوار أكرم الأكرمين..

من مؤلفاته

١ - كتاب تحفة الأنام (مختصر تاريخ الإسلام).
٢ - المجالس السنية (في الوعظ والإرشاد).
٣ - هدية الطالبين وهداية المسترشدين.
٤ - كتاب في عقيدة الدروز (لم يطبع).
٥ - النبْوت في رأس أهل بيروت (كتاب في نقد أهل بيروت).

الشيخ مصطفى نجا

إن سيرته الذاتية في جوانبها العامة، هي في الواقع جزء من تاريخ بيروت في نهضتها الحديثة ما بين نهاية القرن الماضي وبين بداية القرن الحالي. ونحن لا نستطيع أن نتحدث عن هذه النهضة دون أن نفرد للشيخ مصطفى نجا الكثير من الصفحات المشرقة التي كانت مآثره من عناوينها البارزة في مختلف الحقول العلمية والميادين الاجتماعية والإنسانية، وغير ذلك من البوادر التي كان لها أثرها الكبير في المجتمع البيروتي.

هو مصطفى بن محيي الدين بن مصطفى بن عبد القادر محمد نجا. ولد في بيروت فجر يوم الجمعة في ٧ رمضان ١٢٦٩ (١٨٥٢م).

عُرفت أسرته بالتقوى واشتغل أفرادها بالتجارة، وكان والده محيي الدين يتعاطى تجارة العطارة في سوق العطارين ببيروت.

قرأ القرآن الكريم على الحافظ الشيخ حسن شومان البيروتي، وأتقن التجويد على شيخ القراء بالديار الشامية الشيخ حسين موسى المصري الأزهري نزيل بيروت ودمشق، والمتوفى في بيروت سنة ١٣٢٧هـ.

من بواكير النشاطات التي مارسها المترجَم له في حياته العامة، الدعوة إلى إنماء روح التعلم بين مواطنيه المسلمين الذين كانوا آنذاك ما يزالون في بداية الطريق إلى التطور العلمي الحديث، فلقد لمس رحمه الله، حاجة هؤلاء المواطنين إلى من يشجعهم ويأخذ بيدهم في هذا السبيل الذي سبقهم إليه إخوانهم في الوطن من النصارى الذين عاونهم الأجانب على إنشاء المدارس العصرية الخاصة بهم ورفدوهم بما يحتاجون إليه من الأموال والرجال لإنجاح هذه المدارس.

ففي سنة ١٣٢٠هـ (١٩٠٢م) ساهم الشيخ مصطفى في تأسيس مدرسة ثمرة الإحسان التي أُنشئت يومئذ لتعليم البنات المسلمات بعد أن لاحظ أن الإرساليات الأجنبية ركزت اهتمامها بصورة رئيسية على فتح مدارس الإناث ليقين هذه الإرساليات بأن الاستحواذ على عقل المرأة يساعد على إدخال الثقافة الغربية إلى صميم العائلة البيروتية، لأن المرأة تلتصق بحياة العائلة ولها تأثير فعال على رب البيت من خلال غرائزه البشرية وعلى أولادها من خلال أمومتها والوشائج العاطفية التي تشدهم إليها.

وقد اختارت اللجنة المشرفة على المدرسة المذكورة صاحب الترجمة رئيساً لها، فاستجاب صاحب الترجمة رئيساً لهذه الدعوة وظل قائماً بأعباء الرئاسة مدة سبع سنوات متواصلة. وكان لا يكتفي بإدارة اللجنة بل إنه كان يتولى بنفسه تعليم البنات وأساتذتهن قراءة القرآن الكريم بالإضافة إلى العلوم الدينية الأخرى. وقد آتت جهوده أُكلها وأعطت أفضل النتائج من النواحي العلمية والدينية والخلقية فتخرج من المدرسة المذكورة رعيل كريم من المعلمات اللاتي أُسندت إليهن فيما بعد إدارة كثير من المدارس الرسمية والأهلية والتعليم فيها داخل بيروت وخارجها.

وفي أثناء عمله في رياسة لجنة مدرسة ثمرة الإحسان كان عضواً في لجنة الأوقاف الإسلامية، إلا أنه في سنة ١٣٢٥هـ (١٩٠٧م) قدم استقالته من هذه اللجنة فأخذ مكانه فيها الشيخ محمود محرم. ولم تبين لنا جريدة ثمرات الفنون التي نشرت خبر هذه الاستقالة السبب الذي حمل المترجَم له على التخلي عن عضوية اللجنة المذكورة.

ولكن استقالته من الأوقاف لم تمنعه من متابعة الاهتمام بشؤون المساجد والمساهمة بعمارتها وصيانتها والتدريس فيها، وكانت له حلقة دائمة في الجامع العمري الكبير، كان يلقي فيها الدروس على المصلين فيفقههم في دينهم ويفسر لهم القرآن الكريم ويشرح الحديث الشريف ويحضهم على الاعتصام بحبل الله المتين والاستمساك بعروة التضامن الأخوي والتآزر في مجالات التعاون والتزام الأخلاق الإسلامية السمحة، ويدعو إخوانه المسلمين إلى أن تكون علاقتهم بمواطنيهم من أبناء الملل والنحل الأخرى نابعة من الشعار الإنساني الذي رفعه النبي ﷺ بقوله «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

في شهر صفر سنة ١٣٢٣ (نيسان ١٩٠٥) حزنت بيروت بوفاة مفتيها الشيخ عبد الباسط الفاخوري فتطلع العلماء إلى اختيار الرجل الكفؤ من أجل تقديمه إلى الباب العالي في اسطمبول كي يصدر السلطان إرادته السنية بتكليفه بهذا المنصب الجليل. ولم تكن مهمة أولئك العلماء بالأمر السهل لأن المرشح الذي يقدمون اسمه إلى اسطمبول يجب أن يتحلى بالصفات العلمية والمزايا الخلقية التي تجعله قادراً على أداء رسالته بالمستوى المطلوب حتى يطمئن الناس إلى رئاستهم الروحية على الوجه

الأكمل، في مدينة مثل بيروت تتعدد فيها الطوائف والأقوام من كل جنس ومن كل دين.

وكان الصالحون لشغل منصب مفتي بيروت كثيرين ولكل منهم من يدعمه ويحبذه في العائلات البيروتية الكبيرة والأوساط الاجتماعية والسياسية النافذة. وهذا ما جعل موضوع الفتوى في هذه المدينة يراوح مكانه حوالى أربع سنوات دون أن يتمكن العلماء من الإجماع على اختيار واحد منهم لملء المنصب الشاغر.

على أنه لا بد من الإشارة إلى أن الشيخ مصطفى نجا رحمه الله كان يصر على البقاء خارج حلبة المتنافسين على هذا المنصب جرياً على ما أخذ نفسه به من العزوف عن التطاول إلى المراكز الرسمية والاكتفاء بخدمة إخوانه المسلمين عن طريق مساهمته بالمؤسسات التعليمية وإلقاء العظات والدروس الدينية في المسجد العمري الكبير وغيره، مع بقائه في ميدان العمل الحر بتجارة العطارة في محل والده بسوق العطارين لتأمين حاجته وحاجة عائلته من الرزق الحلال بكد عينيه وعرق جبينه. وكان يقول لمن يرشحونه للفتوى «ذروني في شغلي أسعى لرزق عيالي وأريحوني من متاعب هذا المنصب فقد تغير الزمان وأهله ولست من الذين إذا وسّد لهم هذا الأمر ينصرفون إلى الراحة بل لا بد لي من القيام بحقه من كل وجه والقيام بمصالح عباد الله، وهي في ذمتي إذا قصرت عنها».

بيد أن تعفف المترجَم له عن المنصب الذي تهافت الطامحون على الوصول إليه، لم يمنع أهل الفضل من العلماء والأعيان من أن يتجهوا بأفكارهم إلى شخصه وأن يقرروا اختياره ليكون خلفاً للمفتي الراحل. وخلال السنوات الأربع التي مرت بعد وفاة الشيخ عبد الباسط الفاخوري، حدثت تطورات سياسية هامة في السلطنة العثمانية أدت إلى إعلان الدستور وإنشاء مجلس المبعوثان. وقد مثل بيروت في هذا المجلس رضا بك الصلح والد الزعيم العربي رياض بك الصلح الذي تولى رياسة الحكومة اللبنانية وحقق استقلال لبنان سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٣م) وكان رضا بك الصلح على رأس المتحمسين لاختيار الشيخ مصطفى نجا في منصب مفتي بيروت خلفاً للشيخ عبد الباسط الفاخوري وقد تولى هو وسليم علي سلام (أبو علي) رحمهما الله العمل من أجله في الأوساط الرسمية والأهلية معاً.

وعندما أعلن الطاغية الفرنسي الجنرال غورو الكيان اللبناني، بحدوده الحالية، يوم أول أيلول سنة ١٩٢٠م أراد أن يسترضي المسلمين كي يقبلوا بتجزئة البلاد السورية والموافقة على هذا الكيان الذي فرض عليهم بالرغم من إرادتهم. فزار (أي غورو) المترجَم له في داره وعرض عليه لقب «مفتي دولة لبنان الكبير» بدلاً من لقب «مفتي مدينة بيروت» واعتقد الطاغية أن هذا اللقب الفضفاض سيفتح شهية المفتي على التعاون مع السلطات الفرنسية ويغريه بالسير في ركاب الانتداب، وبذلك يسهل استدارج المسلمين إلى سلوك نفس الطريق، بيد أن تفاؤل غورو لم يكن في محله إذ أن الشيخ مصطفى نجا اعتذر يومئذ عن عدم قبوله بما عرض عليه لأنه صادر عن سلطة أجنبية غير إسلامية وتمسك بلقب «مفتي بيروت» الذي حصل عليه من قبل السلطان العثماني محمد رشاد صاحب السلطة الشرعية بوصفه الخليفة الأعظم أمير المؤمنين.

هذا، وإن الشيخ مصطفى نجا الذي أبى الاستسلام لمغريات اللقب الكبير والمال الكثير، كاد يدفع فيما بعد ثمن إبائه من حريته الشخصية عندما رفض الاشتراك بالاحتفال الذي أقامه الجنرال غورو بقصر الصنوبر في بيروت يوم أعلن إنشاء «لبنان الكبير»، فإن الجنرال غورو هدده بالنفي إلى جزيرة كورسيكا إن هو أصر على الرفض، الأمر الذي حمل وجهاء المسلمين على إقناعه بالحضور حرصاً على راحته وتجنباً للمضاعفات الخطيرة التي كانت ستحصل لو أصرّ كل من الطرفين على موقفهما.

خلال سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) انحسرت جميع النشاطات الأهلية في بيروت ومثل ذلك حصل في بقية أملاك الدولة العثمانية. ولأن بيروت بالذات كانت هدفاً لأن يتسرب إليها جواسيس الحلفاء ويستغلوا أوضاعها الطائفية لإثارة المتاعب في وجه الدولة فإن السلطات العسكرية اتخذت بعض الإجراءات التي أدت إلى توقف حركة التعليم في هذه المدينة بالنسبة إلى المدارس الأجنبية، وعلى الرغم من أن هذه الإجراءات لم تشمل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية إلا أن هذه الجمعية اضطرت لإقفال مدارسها بسبب استدعاء أغلب أساتذتها للخدمة العسكرية وبسبب شح مواردها المالية التي كانت تعتمد على مساعدة الأهلين. وقد توقفت هذه المساعدة أو كادت نتيجة للأزمة التي استحكمت بالبلاد آنذاك.

ولما وضعت الحرب أوزارها، ودخلت البلاد في حوزة الاحتلال الفرنسي، بادر الشيخ مصطفى نجا إلى بعث الجمعية من جديد، فوجه كتاباً إلى سلطات الاحتلال طلب فيه إعادتها إلى سابق عهدها وتسليمها جميع منشآتها العقارية وأوقافها الخيرية والترخيص لها بافتتاح مدارسها التي أُغلقت خلال الحرب. ولقد استجاب الحاكم الفرنسي لهذا الطلب وأصدر في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ قراراً بإعادة الجمعية وتسليمها جميع ما كانت تملكه من عقارات وأوقاف والترخيص لها باستئناف العمل في مدارسها.

وعلى أثر صدور هذا القرار، دعا الشيخ مصطفى إلى داره أعيان المسلمين وعلماءهم حيث جرى انتخاب هيئة جديدة للجمعية مؤلفة من الشخصيات التالية:

الشيخ مصطفى نجا، سليم علي سلام، الشيخ أحمد عباس، الشيخ عبد القادر القباني، الشيخ عبد الباسط الأنسي، الشيخ محمد هاشم الشريف، الشيخ محمد عمر البربير، أحمد مختار بيهم، الدكتور حسن الأسير، راشد طبارة، سليم أحمد البواب، شريف خرما، عمر الداعوق، عبد الحميد الغندور، الحاج محمد إبراهيم الطيارة، محمد اللبابيدي، محمد الفاخوري، محمد حمادة، محمد أبو الخير الرحيلي (القصار)، نجيب عيتاني، عبد الباسط فتح الله، محمد عمر نجا، حسن قرنفل، واختار هؤلاء من بينهم أعضاء مكتب الجمعية وهم:

الرئيس: الشيخ مصطفى نجا، نائب الرئيس: سليم علي سلام، وكيل الإدارة: عبد الباسط فتح الله، الكاتب العام: محمد عمر نجا، أمين الصندوق: حسن قرنفل.

وفي ربيع الثاني سنة ١٣٣٨هـ (كانون الثاني ١٩٢٠) فرغت هيئة الجمعية من إعداد قانونها الأساسي الذي نص في المادتين السادسة والسابعة على أن يكون مفتي بيروت رئيساً طبيعيًّا لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية ما دام مفتياً مع تحديد سلطاته التنفيذية وطبيعة عمله.

صباح يوم الخميس الواقع في ٢٠ رمضان المبارك سنة ١٣٥٠هـ (كانون الثاني ١٩٣٢م) شعر الشيخ مصطفى نجا بأن صحته لا تمكنه من مزاولة أعماله العادية، وكان الجو بارداً، فلزم داره، على أن صحته لم تتحسن وأصابته نوبة من ضيق التنفس، عاودته أكثر من مرة، فاستدعى أهله الطبيب لمعالجته والعناية به. وبالرغم من أن الطبيب طمأن أهله بأن ما يعاني منه عارض صحي بسيط لن يلبث أن يزول، فإن العلة اشتدت بالشيخ مصطفى، وفي اليوم التالي حاول التغلب على الوهن الذي أصابه واستقبل، وهو على فراش المرض وفداً من السواقين واستمع إلى شكواهم من سوء معاملة الحكومة لهم، فوجد أنهم على حق في شكواهم وتناول القلم ليكتب إلى المسؤولين من أجل تحقيق مطالبهم وإنصافهم. وبينما كان يكتب ازداد ضيق صدره بتنفسه، فطلب إلى الشيخ رضا القباني الذي كان إلى جانبه أن ينوب عنه بمرافقة السواقين إلى دار الحكومة وأن يتوسط في شأنهم باسمه.

وبعد انصراف وفد السواقين ارتاح قليلاً، وفي أثناء الليل بدا وكأنه استعاد نشاطه وعافيته، فاقبل على أفراد عائلته يسامرهم ويتبادل معهم الأحاديث المختلفة ثم استسلم إلى النوم. إلا أن فجر اليوم التالي كان يحمل مع انبثاقه النبأ المفجع، وهو انتقال الشيخ مصطفى نجا إلى الرفيق الأعلى. فتبين حينئذ أنه عندما عجز رحمه الله عن مواصلة كتاب التوصية بمساعدة السواقين كان في الواقع يعاني آلام الاحتضار وفي الساعات الأخيرة من حياته، وهكذا، أسلم الشيخ مصطفى نجا روحه الطاهرة إلى بارئها فجر يوم الأحد في ٢٣ رمضان المبارك سنة ١٣٥٠ (٣١ كانون الثاني ١٩٣٢م) وكان آخر عمله في هذه الدنيا قبيل وفاته بساعات قليلة، خدمة مواطنيه وقضاء مصالحهم.

وفي صبيحة اليوم المذكور، أفاق أهل بيروت على النبأ العظيم، نبأ انتقال مفتيهم الكبير إلى جوار أكرم الأكرمين عن عمر بلغ ٨١ سنة، وقرأ البيروتيون نشرة النعي التالية:

سبحان الحي الذي لا يموت

ولا يدركه ريب المنون، سبحانه وتعالى، له الحكم وإليه ترجعون.

يا أيها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

فجر هذا اليوم «الأحد» لبى دعوة المولى الرحيم إلى جوار ربه الكريم بقية السلف الصالح العلامة الجليل الشيخ مصطفى نجا مفتي بيروت الأكبر. وسيصلى عليه عصر غد «الاثنين» في الجامع العمري الكبير ويدفن بمدفن العائلة في جبانة الباشورة. إنا لله وإنا إليه راجعون.

الطائفة الإسلامية - آل نجا

من مؤلفاته

١ - كشف الأسرار لتنوير الأفكار (وهو شرح للطريقة اليشرطية الشاذلية).
٢ - مظهر السعود في مولد سيد الوجود.
٣ - مشروعية الحجاب (رسالة).

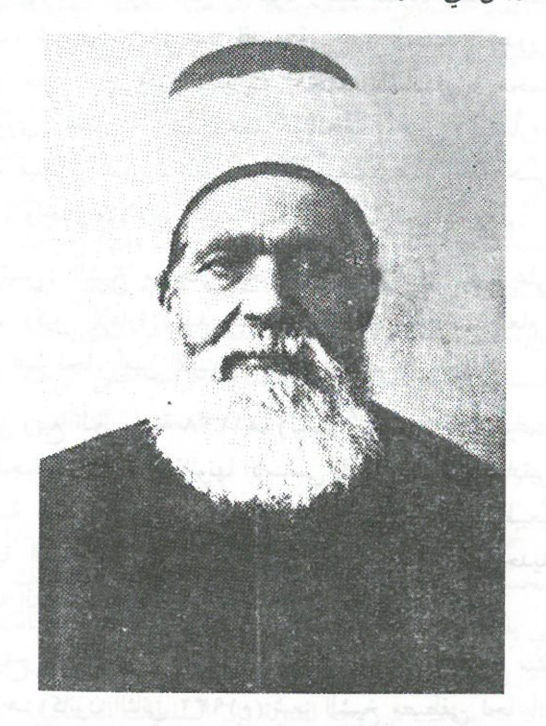
الشيخ أحمد عباس الأزهري

في سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) تقدم إبراهيم باشا بقواته المسلحة باتجاه بلاد الشام حيث دارت بينه وبين الجيش العثماني معارك متواصلة تمكن على أثرها من احتلال هذه البلاد لمدة عشر سنوات اضطر بعدها للانكفاء منسحباً بقواته باتجاه مصر التي انطلق منها.

بعض عساكر الجيش المصري آثروا البقاء في بيروت. من هؤلاء كان العباس بن سليمان الذي تزوج بيروتية من آل الشامي ورزق منها أولاداً عدة، أحدهم أحمد صاحب الترجمة وكانت ولادته في بيروت سنة ١٢٧٠هـ (١٨٥٣م).

عندما بلغ الشيخ أحمد السنة الخامسة من عمره أسلمه والده إلى الكتّاب على عادة أهل زمانه حيث قرأ القرآن الكريم، واستظهر بعض أجزائه على الشيوخ المجودين آنذاك مثل النصولي والدسوقي والحافظ إسماعيل الطنطاوي، وفي السنة العاشرة من عمره دخل المدرسة التي أنشأها الشيخ حسن البنا حوالى سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) وهي أول مدرسة على النمط العصري في بيروت وقد سماها صاحبها «المدرسة الرشدية» نسبة إلى راشد ناشد باشا والي سورية في ذلك العهد، وهي سبقت المدارس التي أنشأتها الدولة بهذا الاسم فيما بعد.

في مدرسة الشيخ حسن البنا «الرشدية» تعلم الشيخ أحمد تجويد الخط العربي والحساب ومبادىء اللغة العربية وكان من شيوخه فيها الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي الذي كان علامة زمانه في مادة الفقه الإسلامي. في تلك الفترة تحركت همة عالمَيْ بيروت الشيخ محمد الحوت (الكبير) والشيخ عبد الله خالد، لإيجاد مشروع تعليمي يجابه نشاط الإرساليات التبشيرية وبادرا إلى تأسيس مدرسة عصرية جعلاها في جامع النوفرة (الأمير منذر الآن) حيث كانا يدرّسان فيها العلوم العصرية إلى جانب العلوم الدينية التقليدية. ورغبة منهما في توسيع دائرة نشاطهما رأيا انتخاب طائفة من تلاميذ النوفرة والرشدية لإعطائهم دروساً إضافية عصرية توسع مداركهم من علوم الدين وتزيدهم معرفة بمبادىء اللغة العربية. وبالفعل جرى اختيار عدد من نابهي المدرستين المذكورتين لهذه الغاية وزعوهم على الشيوخ فيهما، وكان صاحب الترجمة الشيخ أحمد عباس من نصيب الشاعر المشهور الشيخ عمر الأنسي، فلزم المترجم درس هذا الشيخ العالم الذي وجد في تلميذه النجابة والحرص على تحصيل العلم. فزاد من عنايته به حتى فاق أقرانه من التلاميذ وصار يذاكرهم دروسهم عندما كان أُستاذه يتغيب عن الحضور إلى المدرسة بسبب انشغاله بتجارته عن مواصلة التدريس في الأوقات المحددة له.



وذات يوم صادف الأمير محمد أرسلان الشيخ عمر الأنسي في السوق ومعه تلميذه الصغير الشيخ أحمد فسأله عنه، فقدمه الشيخ عمر إليه منوهاً بذكائه ونباهته، فأقبل الأمير محمد أرسلان على التلميذ أحمد يباحثه في بعض مسائل النحو. وإذ أحسن المترجَم له الإجابة على الأسئلة التفت الأمير إلى الشيخ عمر وقال له: جدير بتلميذك هذا أن يدخل الأزهر - يقصد الجامع الأزهر الشريف بمصر - فلقي هذا الأمر استجابة لدى الشيخ الأنسي. وبعد قليل أُرسل الشيخ أحمد في بعثة إلى الجامع الأزهر برفقة أحد زملائه الشيخ خضر خالد. غير أن إقامته في مصر كانت تنقطع بعض الوقت لحاجة أبيه إليه في بيروت لمساعدته على العمل في متجره. كان هذا لانقطاع يضايق الشيخ أحمد فيستنجد بأستاذه الشيخ عمر الأنسي لإقناع والده بالاستمرار في الأزهر دونما انقطاع، فيقول له أُستاذه: رويدك، إنه لا يصبر على الأزهر إلا كل ضامر مهزول، فيجيبه: وهل أنا إلا ذلك الضامر المهزول؟..

ولما علم العالم الأديب الوجيه البيروتي الحاج حسين بيهم بأسباب انقطاع أحمد عباس عن متابعة دراسته في الأزهر نفحه

بمساعدة مالية تدفع له شهريًا، وبالتعاون مع عالم بيروت وزاهده الشيخ عبد الرحمن الحوت أقنعا والده بالفائدة من دراسة ولده بالجامع الأزهر، فتجاوب معهما وأذن له بالسفر إلى مصر، وفي نفس الوقت فرض له في نفسه مبلغاً من المال يضاف إلى منحة الحاج حسين بيهم، وولى الشيخ أحمد وجهه شطر الأزهر وكان ذلك سنة ١٢٨٥هـ (١٨٦٨م). وفي الأزهر تلقى الشيخ أحمد عباس علوم العربية وآدابها على خواص مدرسيها في ذلك الوقت كالشيخ المرصفي والاشرافي، والإبياري والبابي الحلبي، وأخذ علوم الفقه الإسلامي على مذهبي الإمام الشافعي والإمام أبي حنيفة عن أعلام علماء هذه المادة، كالأشموني والعز والرافعي ومنقارة، واضطلع بالعلوم العقلية والفلسفية والصوفية بين يدي جهابذة هذه العلوم مثل جمال الدين الأفغاني الذي كان يلقب بحكيم الشرق، والشيخ أحمد البابي الحلبي، وجد أسرتنا الشيخ محمد الولي الطرابلسي. وكان إذا قدم إلى بيروت في إجازته يقضي هذه الإجازة بالتردد على علامة بيروت الشيخ يوسف الأسير ليتزود من علومه ودروسه في المنطق والأدب.

بعد أن قضى الشيخ أحمد خمس سنوات يطلب العلم في الأزهر الشريف فوجىء بوفاة والده وقد سببت له هذه المفاجأة انقطاع المعونة التي كان يتقاضاها من والده. المتوفى، فانقطع عن متابعة دراسته في بدء السنة السادسة وقصد الإسكندرية حيث حلَّ ضيفاً على نزيلها الثري السوري سعد الله بك حلاّبة الذي ما إن سمع منه شرح حالته العائلية والمادية حتى قدّم له مبلغاً من المال يوازي ما كان يقدمه له أبوه طوال السنة، وطلب إليه العودة إلى متابعة تحصيله في الأزهر الشريف، فعاد الشيخ أحمد إلى الأزهر الشريف وبقي فيه إلى أن نال إجازات التدريس من شيوخه في العلوم التي درسها وكان تمام تحصيله في الجامع المذكور سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م).

بعد أن أتم الشيخ أحمد عباس تحصيله العلمي في الجامع الأزهر، يمّم وجهه شطر بيروت، فبادر المعلم بطرس البستاني إلى الإفادة من علمه في «المدرسة الوطنية» التي كان قد أنشأها في هذه المدينة سنة ١٨٦٣، وكلفه بتدريس الدين الإسلامي للتلامذة المسلمين فيها. وبقي المترجَم له في هذه المدرسة لنهاية سنة ١٢٩٤هـ (١٨٧٧م) حيث صرفت المدرسة تلامذتها وأقفلت أبوابها بسبب انتشار الهواء الأصفر (الكوليرا) فتعطل عن العمل وتعرض لضائقة مالية أربكت حياته المعيشية الأمر الذي ألجأه إلى فتح دكان لبيع الخضار والفواكه دون أن يدفعه ذلك إلى التخلي عن زيه الديني، وهو الجبة والعِمّة. وحدث أن مرّ به الوجيه البيروتي الحاج محيي الدين بيهم والد عمر بك بيهم من الأعيان في زماننا، فعزّ عليه أن يرى الشيخ بعمته وجبته يحترف بيع الخضار في دكان كسائر عامة الناس، فدنا منه وقال له: «أرى أن هذا غير لائق بك» فأجابه الشيخ أحمد: «أرى أن هذا أليَق من التسوّل للقيام بأود الأهل».

لم تطل مدة تعاطي الشيخ عباس لبيع الخضار في دكانه ذلك أنه في سنة ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) رأى الأمير مصطفى أرسلان أن يفيد من علمه فدعاه إلى التدريس في المدرسة الداودية التي أنشأها داود قرابيت أرتين أول متصرف على جبل لبنان بعد سنة ١٨٦٤، فلبى المترجَم له رغبة الأمير المذكور وبقي في تلك المدرسة مدة ثلاث سنوات كان آخرها سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) وكان من تلاميذه فيها عباس حميّة، والشيخ محمود تقي الدين، وسامي كجك العماد، وتامر العماد، وفرحان بك حمادة وغيرهم من أعيان الدروز.

وفي سنة ١٢٩٨هـ (١٨٨٠م) ترك المترجَم له المدرسة الداودية عندما دُعي لتولّي إدارة مدرسة «المقاصد الخيرية» التي تأسست في بيروت سنة ١٢٩٩هـ (١٨٨١م) بعناية والي سورية مدحت باشا وصديقه رائف باشا متصرف بيروت آنذاك. ثم وقع عليه الاختيار لتدريس العلوم العربية والدينية في المدرسة الرشدية العسكرية التي تأسست في بيروت سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٢م). وهذه المدرسة هي التي تدعى اليوم «مدرسة حوض الولاية» وقد عرفناها نحن في أيامنا باسم «المدرسة العسكرية» وهي ما تزال قائمة مكانها القديم حتى اليوم.

ولما افتتحت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية المدرسة السلطانية (ثانوية المقاصد للبنات اليوم، في محلة قبر الوالي) سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٤م) دعته لأن يتولى نظارة السلوك والتدريس فيها. كما دعت علامة سورية آنذاك الشيخ حسين الجسر الطرابلسي إلى تولي إدارتها. فقام بهذه الوظيفة مع محافظته على التدريس في المدرسة الرشدية العسكرية دون أن يعطي نفسه فرصة للراحة.

وبسبب ما اعتور إدارة المدرسة السلطانية من تأثير السياسات المختلفة استقال الشيخ أحمد عباس من خدمتها سنة ١٣٠٤هـ (١٨٨٦م) وانصرف إلى مسؤولياته المادية بتعاطي تجارة الكتب لكي يبقى في الجو العلمي الذي أحبه وارتضاه. ففي السنة المذكورة أسس «المكتبة العثمانية» متأسّياً بأستاذه أحمد البابي الحلبي صاحب المطبعة والمكتبة المنسوبة إليه في القاهرة، بيد أن عمله في تجارة الكتب لم يمنعه من إلقاء الدروس في الجامع العمري الكبير ببيروت على عادة أمثاله من العلماء في زمانه الذين كان لهم في الجامع المذكور حلقات حافلة بأبناء بيروت من التجار وغيرهم.

ولما كان المترجَم له ذا ميل إلى التصوف فإنه، على أثر

عودته من مصر، سلك الطريقة الشاذلية على يد العالم المتصوف الشيخ علي نور الدين اليشرطي الذي شذّله وأسند إليه وظيفة مقدم الطريقة اليشرطية وأجاز له تسليك المريدين فيها. وبقي المترجَم له يتعاطى تجارة الكتب في المكتبة العثمانية طوال ثماني سنوات. ولما رأى أن عمل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية اعتوره القلق والاضطراب وأصبحت مدارس الجمعية أضعف من أن تؤدي رسالتها في نهضة الناشئة الإسلامية في بيروت، على الوجه المطلوب آنذاك تخلى عن تجارة الكتب سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٤م) وكاشف صديقه الشيخ عبد القادر القباني برغبته في التعاون معه على إنشاء مدرسة تفي بالمطلوب في ميدان تعليم الناشئة الإسلامية فوجد عند هذا الصديق الفاضل استعداداً لما اقترحه عليه لمشاركته له نفس الشعور حتى إن القباني بادر إلى مشاركته في رأس المال المطلوب في المشروع. ويقول الشيخ أحمد عباس حول ما لقي من مؤازرة صديقه في هذا العمل: «.. ودعاني إلى ما أحب من الخدمة فلبيت وسعدت بمؤازرته زهاء عشرين سنة».

وكان افتتاح المدرسة، باسم «المدرسة العثمانية» سنة ١٣١٣هـ (١٨٩٥م). وكان افتتاحها كمعهد علمي صغير يضم عدداً قليلاً من أبناء المسلمين، مقتصرة على الدوام النهاري الذي كان يحضره نحو ٤٠٠ تلميذ يعطي دروسهم نحو ٤٠ من الأساتذة والمربين والمدربين.

على أنه سرعان ما ازدهرت هذه المدرسة وانتشرت شهرتها في الآفاق فأتاها الطلبة من أقصى البلاد الإسلامية فضلاً عن الأرجاء السورية. ثم اتسعت دائرة التعليم فيها بحيث اشتملت على الأقسام الثلاثة: الابتدائي والاستعدادي والعلمي بالإضافة إلى روضة الأطفال. وبهذا الاتساع صارت كلية تُقبل شهاداتها في جامعات بيروت وأوروبة، وكان المتخرجون فيها يدخلون عالم الصحافة والطب والصيدلة والحقوق وما إلى ذلك من المراتب العلمية العالية. ولقد تنبه الشيخ أحمد عباس في وقت مبكر إلى حاجة المسلمين إلى علماء قادرين على مواجهة الإرساليات الدينية الأجنبية بسلاح العلم المقارن الذي يستلزم نخبة من الطلاب الذين يتمتعون بأهلية ثقافية تتيح لهم المقدرة على إيضاح الدين الإسلامي من منظور فكري متطور، ولأجل هذه الغاية أدخل في مناهج الدراسة في الكلية العثمانية العلوم الدينية من فقه وتوحيد. وأضاف إليها درساً في علم الأصول ثم حاول إنشاء قسم خاص لمن يريدون الاختصاص في هذه العلوم وشرط أن لا يقبل في هذا القسم إلا من اضطلع بالعلوم العصرية وأحرز إجازة البكالوريا. ولما كانت ميزانية الكلية لا تتحمل تغطية هذا القسم رأى أن يستنجد بالمشيخة الإسلامية فسافر إلى اسطمبول سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وعرض على شيخ الإسلام هذا الوضع الذي وجد قبولاً حسناً ونفذت المشيخة الإسلامية الطلب الذي تقدم به الشيخ أحمد إلى رجل الدولة العثمانية آنذاك أنور باشا فحبذ الباشا ما سمع وقرر تقديم ألف ومائتي ليرة عثمانية تدفع مشاهرة لمعاونة القسم الإسلامي المذكور، غير أنه لم يدفع من هذا المبلغ إلا القسط الأول لأن الحرب الكونية اندلعت نيرانها، وأصيبت الكلية بالمضايقات التي انتهت بإقفالها ونفي صاحبها الشيخ أحمد عباس إلى اسطمبول حيث وضع تحت المراقبة للاشتباه به من قبل السلطنة واتهامه بالتحريض على إهاجة العواطف العربية القومية والتعاون مع أصحاب هذه الدعوة.

على أنه ما كادت الحرب الكونية الأولى تضع أوزارها حتى أنهض المترجَم له كليته من كبوتها وأعاد افتتاحها ولكن هذه المرة تحت اسم «الكلية الإسلامية».

هذه الكلية بقيت تؤدي رسالتها على خير وجه طوال السنوات التي كانت فيها في عهدة مؤسسها إلى أن اختاره الله إلى جواره الكريم يوم الثلاثاء في ٩ شوال ١٣٤٥هـ الموافق سنة ١٩٢٦م.

الشيخ عبد الرحمن سلام

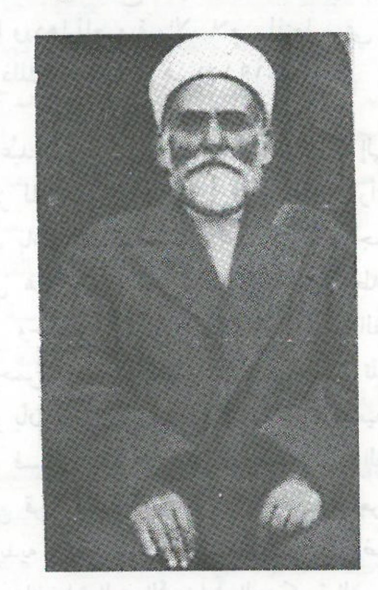
كان الشيخ عبد الرحمن سلام واحداً ممن ملأوا زمانهم وشغلوا أهل ذلك الزمان بنشاطه الأدبي واللغوي ومشاركته المثيرة للحياة العامة في أواخر العهد العثماني وطوال عهد الانتداب الفرنسي الذي تلا العهد السابق. فمن هو هذا الرجل الذي أدركناه مع جيلنا يوم كنا نطلب العلم الديني في الكلية الشرعية التي أنشئت في بيروت سنة ١٩٣٣م ذكرى للشيخين عبد الله خالد ومحمد الحوت أبرز علماء المسلمين في بيروت إبان القرن التاسع عشر الميلادي.

وكانت ولادة الشيخ عبد الرحمن سلام في بيروت، وقد اختلفت الأقوال في تعيين سنة ولادته وذلك لعدم التدقيق في هذا الموضوع آنذاك فمنهم من جعل ولادته سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) ومنهم من جعلها سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) والقول الثاني هو الراجح. وكعادة أهل ذلك الزمان فإن الشيخ عبد الرحمن سلام نشأ في بيئة عائلية صالحة أتاحت له فرصة الإفادة من جوها الديني فأكد على قراءة القرآن الكريم في حضرة والده. وكعادة أبناء جيله ألحقه أبوه بالشيخ رجب جمال الدين.

وبقي الشيخ عبد الرحمن سلام في عهدته حتى بلغ الثانية عشرة من عمره فانقطع عن هذا الشيخ ولم يلتحق بأي مدرسة أخرى بل أطلق العنان لسجيته الفكرية وميوله النفسية وراح يلازم حلقات الشيوخ في المساجد ويتابع رواد اللغة العربية وآدابها. ولقد كان لهذه اللغة جاذبية خاصة استحوذت عليه فما لبث أن وقف عليها مواهبه وشد رحال هواه إليها وشد عقله وهمته وبصره إلى الكتب والمراجع في هذه اللغة من «الآجرومية» لمحمد بن محمد بن داود الصنهاجي، واطلع على كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام النحوي و«مختصر القدوري في فروع الحنفية» وكتاب «الفرائد السراجية» في أحكام الارث للإمام سراج الدين أبي طاهر محمد بن محمد عبد الرشيد السجاوندي الحنفي، من علماء القرن السابع للهجرة، و«المفتاح في المعاني» للشيخ عبد القاهر بن عبد الله الجرجاني.

وألح الشيخ عبد الرحمن سلام على دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام وحفظ الكثير منها ولم تخل مطالعاته من كتب التصوف التي تأثر بما فيها من حكم وإشارات لأهل الطريق. وبالإضافة إلى ذلك فإنه تعلم اللسان التركي وأتقن الكلام بهذه اللغة.

وعندما أصبح في الخامسة والعشرين من عمره دُعي لتولي القضاء الشرعي في مدينة قلقيلية بفلسطين - جبرها الله وردها للعروبة والإسلام - فقصد هذه المدينة، وأثناء عمله فيها اتخذ خادمة لخدمته حيث كان وحيداً من دون أهله، فراقت هذه الخادمة له وكانت ذات صباً وجمال مما جعله يتزوجها وكانت هذه الخادمة تدعى سعدى البدوية من قرية عرعرة وهي أولى زوجاته وهن كثيرات. وقد دامت إقامته في قلقيلية خمس سنوات انتقل بعدها إلى رئاسة الكتّاب في المحكمة الشرعية ببيروت، بيد أن عمله في هذه المحكمة لم يدم طويلاً، ذلك أنه استقال منه على أثر مشادة كلامية بينه وبين القاضي التركي.



في سنة ١٩١٢ شد الشيخ عبد الرحمن سلام رحاله منتقلاً من بيروت إلى دمشق ومعه زوجتاه سعدى البدوية وبنت النحاس وأولادهما منه. وفي دمشق فتح دكاناً لبيع الكتب المخطوط منها والمطبوع وكانت هذه الدكان في سوق الخجا مقابل باب القلعة الغربي.

في هذه الدكان تعرف الشيخ عبد الرحمن إلى طبقة من العلماء الدمشقيين الذين رأوا فيه شخصية علمية يمكن الإفادة منه في العمل المدرسي فعرضوا عليه أن يكون معلماً للغة العربية في الكلية الوطنية في مدينة حمص التي كانت بإدارة مجموعة التملّي. فانتقل الشيخ عبد الرحمن إلى عمله في حمص ومعه زوجته بنت النحاس (أم محيي الدين) بينما بقيت سعدى البدوية في دمشق إلى حين وفاتها.

في سنة ١٩١٥، والعالم يصطلي أتون الحرب الكونية الأولى أمر أحمد جمال باشا قائد الجيش العثماني باستعادة المدرسة الصلاحية في القدس التي كان الأتراك تنازلوا عنها في القرن التاسع عشر الميلادي للآباء الفرنسيين مقابل وقوف فرنسا إلى جانبهم في حرب القرم، وكانت هذه المدرسة في الأساس تحمل اسم كنيسة القديسة حنة، ولما حرر صلاح الدين الأيوبي القدس سنة ٥٨٣هـ وجعلها مدرسة لعلماء المذهب الشافعي. ولقد أعاد إليها أحمد جمال باشا اسمها القديم (أي المدرسة الصلاحية) وجعلها لتعليم العلوم الدينية الإسلامية. ولما احتل الإنكليز القدس سنة ١٩١٧ سلموا هذه المدرسة إلى «الآباء البيض» الذين جعلوها مدرسة لاهوتية نصرانية وجعلوا منها متحفاً وكنيسة لهم.

ولقد اختار أحمد جمال باشا الشيخ عبد الرحمن سلام ليكون من بين أساتذتها فلبى الشيخ أمر القائد العثماني وانتقل إلى القدس - جبرها وردها للعروبة والإسلام - للتعليم في المدرسة المذكورة وكان ذلك سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٦م).

بقي الشيخ عبد الرحمن في المدرسة الصلاحية إلى ما قبل احتلال الإنكليز للقدس سنة ١٩١٧ وفي حينها رأى القائد العثماني جمال باشا الصغير الذي خلف أحمد جمال باشا منصبه أن يغلق هذه المدرسة وتسفير أساتذتها وطلابها إلى خارج فلسطين. وحدث أن اشتبه القائد جمال باشا الصغير بأن الشيخ عبد الرحمن نظم مع بعض تلاميذه جمعية تدعو لقيام دولة عربية فأمر بأن يُبعد إلى دمشق ماشياً على قدميه مخفوراً وموثوق اليدين. فسيق الشيخ على نحو ما طلب ذلك القائد حتى إذا ما وصل إلى قرية «العفولة» رآه القائمقام فيها فعرفه، وأمر بفك القيد عن يديه وأكمل تسفيره إلى دمشق حيث وُضع سجيناً في قلعتها. وسرعان ما توالت الأحداث العسكرية التي أدت إلى انسحاب القوات العثمانية من دمشق وسائر المناطق السورية.

ولما دخل الشريف فيصل بن الحسين العاصمة السورية سنة ١٩١٨ أطلق سراح الشيخ عبد الرحمن. وحدث آنذاك أن قدمه ساطع الحصري أول وزير للمعارف أيام الشريف فيصل بن الحسين إلى الشريف المذكور الذي أُعجب بحماسته العربية وبهرته براعته الخطابية فسأله عن العمل الذي يريده فأجابه بأنه يرغب في تأسيس «النادي العربي» وأن يكون خطيباً فيه فاستجاب الشريف فيصل لطلبه هذا. وما يزال النادي العربي موجوداً في دمشق من ذلك الحين حتى اليوم. كما عينه مديراً للأوقاف في جميع البلاد السورية واتخذه مستشاراً له. وعندما عُقد مؤتمر العلماء (المسلمين) بدمشق انتخب نائباً لرئيس هذا المؤتمر في سورية ولبنان.

وفي سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) تعيّن الشيخ عبد الرحمن سلام أستاذاً للغة العربية وآدابها ولعلم البلاغة في مكتب عنبر وفي مدرسة التجهيز ودار المعلمين في دمشق وظل قائماً بتدريس هذه المواد حتى سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٩م).

ولقد بقي في دمشق حتى سنة ١٣٤٤هـ (١٩٤٤م). ففي هذه السنة غادر العاصمة السورية عائداً إلى موطنه بيروت بسبب إلحاح زوجته بنت النحاس عليه لأنها كانت ترغب في الإقامة ببلدها الأم بين أهلها وذويها.

في بيروت لم يلق الشيخ عبد الرحمن سلام ما لقيه في دمشق من تقدير أهلها له وإفادتهم من علمه وأدبه فبقي حتى عام ١٩٣١م دون أي عمل يغطي نفقات حياته اليومية ومسؤلياته العائلية. وقد ذكر لي الشيخ أحمد العجوز العالم البيروتي حفظه الله أن الحرج المادي الذي عاشه الشيخ عبد الرحمن ألجأه إلى تعاطي بيع الخضار في سوق الخضار ببيروت مما جعل جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية تلتفت إليه وتعينه مدرساً في مدرستها بالحرج لتخفف عنه من ضيق ذات يده.

في سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م عين الشيخ عبد الرحمن سلام أميناً للفتوى في بيروت، وكان مكتبه في جامع النوفرة ثم اتخذ مكتباً له الغرفة التي كانت موجودة في الجهة اليمنى من مدخل الجامع العمري الكبير في بيروت وعندما شغر منصب الإفتاء سنة ١٣٥١هـ (١٩٣٢م) بوفاة الشيخ مصطفى نجا رحمه الله تعالى اتجهت الأنظار إليه ليخلف المفتي الراحل إلا أنه اعتذر عن الموافقة ورشح لهذا المنصب الشيخ محمد توفيق خالد رئيس كتبة المحكمة الشرعية آنذاك، وهذا ما تم الاتفاق عليه وبقي الشيخ عبد الرحمن في منصب أمين الفتوى إلى حين انتقاله إلى جوار أكرم الأكرمين سنة ١٣٦٠هـ (١٩٤١م).

من مؤلفاته

١ - دفع الأوهام لابن سلام (في بيان مغالطات الشيخ إبراهيم اليازجي اللغوية).
٢ - خزانة الفوائد (في الفقه).
٣ - النظم المفيد في علم التجويد.
٤ - كتاب «الصافي في علميّ العروض والقوافي».
٥ - غاية الأماني في علم المعاني.
٦ - شرح ديوان النابغة الذبياني.
٧ - شرح ديوان الرصافي.

الشيخ أحمد عمر المحمصاني

هو الشيخ أحمد بن عمر بين محمد غنيم المحمصاني. أصل عائلته من مصر حيث اشتهرت باسم آل الغنيمي، والمحمصاني هو الاسم الذي اشتهرت به هذه الأسرة في بيروت.

ولد المترجَم له في بيروت حوالى سنة ١٢٩٠هـ (١٨٧٣م) في بيت علم ودين. كان والده الشيخ عمر المحمصاني يتعاطى تجارة الكتب في المكتبة الحميدية التي كان هو صاحبها. وكانت هذه المكتبة بمثابة منتدى لأهل العلم من الشيوخ والأدباء والشعراء. وكان روادها هؤلاء يتخذونها مجمعاً ليتبادلوا ألوان الأحاديث العلمية، والطرائف الأدبية وللتناظر في المسائل الفقهية وغير ذلك من أخبار السلف وطبقات العلماء والصلحاء من رجال الإسلام.

ولقد أفاد الشيخ أحمد عمر المحمصاني من ذلك الجو العلمي الذي كان ينشر رواقه على مكتبة أبيه، ومالت نفسه للاندماج في البيئة العلمية التي كان أبوه واسطة عقدها في مكتبته. فكان حريصاً على ملازمة أهل العلم في مجالسهم. ولما قدم عالم مصر الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية إلى بيروت حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية بسبب علاقته بالثورة التي قادها أحمد عرابي باشا، ضد عزيز مصر الخديوي محمد توفيق باشا سنة ١٨٨٢ لازم الشيخ أحمد مجالس هذا العالم المصري الكبير التي كان يعقدها في المكتب السلطاني والجامع العمري الكبير وتتلمذ عليه وأخذ عنه مقتبسات علمية كثيرة.

في سنة ١٣١٥هـ (١٨٩٧م) أرسله والده إلى القاهرة حيث التحق بالجامع الأزهر الشريف. وأثناء وجوده في مصر تعرف المترجَم له على العالم المغربي الكبير الشيخ محمد محمود ابن أحمد بن محمد التركزي الشنقيطي، نسبة إلى شنقيط (موريتانيا اليوم) علامة عصره في اللغة والأدب، المتوفى سنة ١٣٢٣هـ (١٩٠٤م). وقد تبادل الشيخان العلم وتحقيق بعض كتب التراث الديني.

وعندما كان الشيخ أحمد عمر المحمصاني يطلب العلم في الجامع الأزهر الشريف استرعى الأنظار بعلمه وفضله وإحاطته بأسماء الكتب وموضوعاتها فجرى تعيينه أميناً للمكتبة الأزهرية (مكتبة الجامع الأزهر الشريف). ولما عاد إلى بيروت استقبلته هذه المدينة بالترحاب والتكريم وبادرت الحكومة العثمانية إلى تعيينه مدرساً في مكتب الحقوق العثماني، حيث تولى شرح مجلة الأحكام العدلية، وإلقاء المحاضرات في علم أُصول الفقه الإسلامي، وكان ذلك سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) وعندما أنشأت الحكومة اللبنانية المجمع العلمي اللبناني سنة ١٩٢٩ اختارته ليكون من أعضائه وأسندت إليه رئاسة لجنة المخطوطات في هذا المجمع. وكان المترجم له من أعضاء جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت حتى آخر حياته وقد اسندت له الجمعية رياسة لجنة المدارس فيها.

أخبرني السيد خليل هبري رحمه الله أن المترجَم له كان صديقاً للقسّ الأميركاني كارنيليوس ڤانديك أحد أساتذة الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية اليوم) وكان هذا يتلقى عليه دروساً في اللغة العربية والفقه الإسلامي، كما كان يعقد معه ومع رئيس الكلية المذكورة الدكتور هوارد بلسّ جلسات يتبادلون خلالها أبحاثاً في اللاهوت وفلسفة الشرائع والأديان، ونتيجة لتوطد أواصر الصداقة بين المترجَم له وبين هٰذين الأميركيين. فإن إدارة الكلية المذكورة كانت تقيم في كل سنة حفلة خطابية في ذكرى المولد النبوي الشريف وتكلفه بإلقاء محاضرة عن النبي ﷺ والدين الإسلامي في هذه المناسبة. وبقي الشيخ أحمد عمر المحمصاني مداوماً على إلقاء هذه المحاضرة حتى أخريات أيامه.

بالإضافة إلى ثقافة الشيخ أحمد عمر المحمصاني الدينية فإن كان يعتبر من أكثر علماء الأنساب وأصول العائلات الإسلامية من أهل بيروت وغيرها في البلدان السورية. وقد علمت بأن له كتاباً ضخماً في هذا الموضوع، وهذا الكتاب ما يزال مخطوطاً وهو الآن في مكتبته التي يحتفظ به ابنه الأستاذ محمد المحمصاني في بيته. والشيخ أحمد عمر المحمصاني كان يتمتع بموهبة خطابية ملحوظة وهو قد استعمل هذه الموهبة في إثارة حماس المسلمين للدفاع عن كرامتهم الدينية والذّب عن حياض أوطانهم. وعندما ضرب الأسطول الطلياني بيوت سنة ١٩١٢ وأغرق في بحرها الطرادين العثمانيين عون الله وأنقرة. وقف في الناس خطيباً وحثهم على الثبات في وجه العدوان الطلياني الآثم والدفاع عن حرمة الدين وحرية الوطن. وفي سنة ١٣٥٦هـ (١٩٣٨م) عندما احتشد أهل بيروت في جامع البسطة التحتا للمطالبة بالوحدة السورية ألقى المترجَم له خطاباً سياسيًّا وطنيًّا رائعاً، ألهب عواطف الناس وجعلهم يتدفقون في تظاهرة عارمة إلى ساحة البرج وهم يهتفون ضد تقسيم البلاد وضد

سلطات الانتداب الفرنسي. ولقد كنت شخصياً من المشتركين في هذه التظاهرة وأُصبت يومئذٍ برصاصة أقعدتني في المستشفى الإسلامي زهاء أسبوعين للتداوي من جراحي، ومن المستشفى نقلتني السلطة إلى السجن حيث أُبقيت فيه مدة طويلة قبل الإفراج عني.

كانت وفاة الشيخ أحمد عمر المحمصاني في بيروت سنة ١٣٧١هـ (٣٠ تموز ١٩٥١م).

* * *

كان للشيخ أحمد عمر المحمصاني مشاركات فعلية في العديد من المؤسسات اللغوية والمجامع العلمية..

ولما أسس الشيخ محمد توفيق خالد مفتي الجمهورية اللبنانية الكلية الشرعية في بيروت سنة ١٣٥٣هـ (١٩٣٤م) عين المترجَم له أُستاذاً لمادة تفسير القرآن في هذه الكلية.

وكان الخطيب الراتب وإمام الجمعة في الجامع العمري الكبير ببيروت.

من مؤلفاته:

١ ـ «خلاصة النحو».

٢ ـ «تحذير الجمهور من مفاسد شهادة الزور» (رسالة مطبوعة كتبها سنة ١٣٢٨هـ = ١٩٠٩م).

٣ ـ «شرح أحكام المجلة» (مجلة الأحكام العدلية التي أصدرتها الحكومة العثمانية في أواخر عهدها).

٤ ـ «تفسير سورة الفاتحة».

ومن الكتب التراثية التي حققها واعتنى بنشرها الكتب التالية وهي:

ـ «شرح المعلقات السبع» لأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني المتوفى سنة ٤٨٦هـ (١٠٩٣م).

ـ «الإنصاف في التنبيه على أسباب الخلاف» وهو كتاب يبحث في الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم. ألفه أبو محمد البطليوسي النحوي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) وقد عني الشيخ أحمد عمر المحمصاني به بالتعاون مع الشيخ أحمد بن محمود الشنقيطي عندما اجتمع به في مصر وقام بطبعه سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م).

ـ «اللؤلؤ النظيم في رَوْم التعلّم والتعليم» لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا بن محمد بن أحمد الأنصاري السنيكي، ثم القاهري الشافعي المتوفى سنة ٩٢٥هـ (١٥١٩م) وهو يذكر أصناف العلوم وحدودها وبذيله تعريف الألفاظ الاصطلاحية في العلوم. طبع بمطبعة الموسوعات سنة ١٣١٩هـ. القاهرة.

ـ «مختصر جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله». تأليف الإمام المجتهد حافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبد البرّ النَّمري القرطبي الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وفي صفحة غلافة: اختصار أحمد بن عمر المحمصاني البيروتي الأزهري.

ـ كتاب «حجج القرآن». لمؤلفه أحمد بن محمد بن المظفر الرازي الحنفي (كان موجود سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣م) وهو في علم التفسير، طبع بمطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢هـ.

ـ «كتاب فصيح ثعلب»، طبع هذا الكتاب في مجموعة الطرق الأدبية لطلاب العلوم العربية بمصر سنة ١٣٢٥هـ.

ويقول الفيكونت فيليب دي طرازي في كتابه خزائن الكتب العربية في الخافقين (ج١ ص٢٦١ وما بعدها) تحت عنوان «الخزانة المحمصانية»:

«أنشأها الشيخ أحمد المحمصاني الذي تخرج في جامعة الأزهر واشتغل ردحاً من زمانه في دار الكتب المصرية، وقد ورث محبة الكتب عن والده السيد عمر المحمصاني صاحب «المكتبة الحميدية» التي كانت ملتقى أدباء بيروت وعلمائها، فاجتمع لديه بتوالي الأعوام خزانة بحثية انطوت على زهاء ١٦٠٠ مجلد في شتى العلوم والفنون بينها ١٢٠ مخطوطاً لا تخلو من النوادر».

هذا ما وصل إلينا عن عالم أهل بيروت وخطيبها المفوّه سواء فيما يتصل بالكتب التي ألفها بنفسه أو تلك التي قام بتحقيقها أو طبعها ونشرها. وليس لدينا ما يعرّفنا عن اهتمامه بنظم الشعر سوى بعض أبيات في الحض على العلم والتمسك بالأخلاق الكريمة، إلا أن خير الدين الزركلي حين ترجم له في كتابه «الأعلام» قال: «وله نظم».

الشيخ مصطفى الغلاييني

هو مصطفى بن محمد سليم بن محيي الدين بن مصطفى الغلاييني ولد في بيروت سنة ١٣٠٢هـ (١٨٨٥م) وتنتمي أسرته إلى الفوايد، وهي من قبيلة الحويطات، منازلها بين العقبة والوجه من أرض الحجاز، ومنها أفخاذ تضرب في وادي النيل.

وعلى غرار الناشئين من أبناء زمانه في أواخر القرن الماضي فإنه كان يلازم حلقات العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس في الجامع العمري الكبير في بيروت، وقد تلقى المترجم له علومه الأولى على الشيخ محيي الدين الخياط الذي قرأ عليه العربية والجغرافية والتاريخ والشيخ عبد الباسط الفاخوري الذي قرأ عليه الفقه الإسلامي وعلم الكلام وأصول التوحيد، والشيخ صالح الرافعي (الطرابلسي) الذي قرأ عليه مادة الأدب العربي والشعر وفن المقامة. وفي حديث له مع جريدة المعرض الأسبوعية، عدد آذار سنة ١٩٣٠م قال إنه في الثالثة عشرة من عمره كان تلميذاً في المدرسة الوطنية التي كان يديرها الشيخ محمد زيدان وهو الذي ألبسه العمامة.

ومن بيوت علماء بيروت وحلقاتهم في الجامع العمري الكبير انتقل الغلاييني إلى مصر حيث التحق بالجامع الأزهر الشريف يطلب العلم في حلقات العلماء المصريين عند سواري هذا الجامع الجامعة وكان من شيوخه في هذه المرحلة سيد بن علي المرصفي المرجع في علوم العربية آنذاك.

لم يمكث في مصر سوى ستة شهور نشر خلالها في جريدة الأهرام عدة مقالات فيما يراه من أوجه إصلاح البرامج التعليمية في الجامع الأزهر الشريف ثم قفل عائداً إلى مسقط رأسه بيروت حيث اتخذ له حلقة للتدريس في الجامع العمري الكبير، كما التحق بجهاز المعلمين في الكلية العثمانية لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري أستاذاً لمادة اللغة العربية وآدابها.

وإذا كان الغلاييني تواقاً لاستخدام ما يمتاز به من حيوية ونشاط في حقل الحياة العامة فإنه وجد في جمعية الاتحاد والترقي التي تأسست في اسطمبول وأطاحت بعرش السلطان عبد الحميد الثاني ما يرضي اندفاعه وطموحه فأعلن انتسابه إلى هذه الجمعية ومعه من أهل بيروت: حيدر بك، أمين حلمي، الشيخ أحمد طبارة، عبد الغني العريسي، رزق الله أرقش، شارل دباس. إلا أن الأعيان المذكورين وفيهم الشيخ مصطفى الغلاييني ما لبثوا أن انقلبوا على الجمعية المذكورة عندما تبينوا اختلاف مراميهم الوطنية عن مقاصدها السياسية، بعضهم دفع حياته ثمناً لهذا الاختلاف وبعضهم استعصم بالهرب إلى خارج السلطنة وبعضهم كان نصيبه الإقامة الجبرية في بلاد الأناضول.



أما الغلاييني نفسه فإنه لم يشأ أن يغادر البلاد وآثر البقاء في بيروت منصرفاً إلى تلبية تطلعاته الثقافية والوطنية عبر مجلة أنشأها في ٢٢ كانون الثاني ١٩٠٩ تحت اسم «النّبراس» وهي كما جاء تعريفها في عددها الأول: «مجلة تبحث في الاجتماع والعمران والعلم والآداب والتاريخ والانتقاد والسياسة». وكانت تصدر مرة كل شهر. وقد داوم الغلاييني على إصدارها مدة سنتين (١٩٠٩ ـ ١٩١٠) في مجلدين اثنين ثم توقفت بعد ذلك عن الصدور.

وعندما أوجس المسلمون في بيروت خيفة من سوء مغبة الحركة التي كان النصارى اللبنانيون يقومون بها عبر الحكومة الفرنسية في باريس خافوا أن تستغل الأكثرية المارونية في جبل لبنان هذه الحركة وهي ملتزمة بالتعاطف مع هذه الدولة لأسباب تاريخية معروفة. فبادروا لتلبية الصوت الذي ارتفع في مصر بالدعوة إلى الإصلاح في السلطنة العثمانية على أساس اللامركزية، واجتمعوا بالوالي العثماني يومئذ واسمه أدهم بك وأبلغوه رغبتهم في إدخال الإصلاحات المرغوبة في عريضة مفصلة تضمنت مطالبهم الإصلاحية باسم «الجمعية الإصلاحية في بيروت».

ولقد رأى الغلاييني أن هذه المبادرة تستدعي انضمامه إلى الجمعية المذكورة فأعلن ذلك، وبقي في جمعيتها إلى حين

إلغائها في أوائل الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) بعد أن ظهرت أمارات النزاع بين الدولة وبين الحلفاء.

وفي سنة ١٩١٠م أجرت نظارة المعارف في ولاية بيروت مباراة لاختيار أساتذة للتدريس في المكتب السلطاني (حيث ثانوية المقاصد الخيرية الإسلامية للبنات في بيروت اليوم) فاشترك الغلاييني بهذه المباراة ونجح. فأصدرت النظارة آنذاك مرسوماً بتعيينه في المكتب المذكور أستاذاً للغة العربية وآدابها.

في ذي الحجة ١٣٣٢هـ (تشرين الأول سنة ١٩١٤م) أعلنت الدولة العثمانية الدخول في الحرب إلى جانب الدولة الألمانية ضد دول الحلفاء، فبادر رعايا الدولة إلى تلبية داعي الجهاد وكان الشيخ مصطفى الغلاييني في جملة المتطوعين تحت الراية العثمانية فعينه أحمد جمال باشا قائد الجيش الهمايوني الرابع واعظاً وخطيباً في هذا الجيش. وعندما تقدم الجنود العثمانيون في صحراء سيناء لاجتياز ترعة السويس وتحرير مصر من الإنكليز كان الغلاييني إلى جانب هؤلاء الجنود يعظهم ويثير حميتهم الإسلامية ويلهب مشاعرهم الوطنية ضد أعداء الدولة الذي هم في الوقع أعداء الإسلام والمسلمين.

وفي ذلك يقول:

«لبست العمامة في الثالثة عشرة من عمري. وكنت يومئذٍ تلميذاً في المدرسة الوطنية التي كان يديرها المرحوم محمد زيدان. وقد بقيتُ مدة بعد التعمم وأنا مثابر على تلقي الدروس وبقيت مثابراً عليها حتى سنة ١٩١٧. وكان عمري إذ ذاك ٣٢ سنة، ثم خلعت العمامة واستبدلت بها الطربوش. السبب في ذلك ـ كان وطنياً تؤلمني ذكراه، وذلك أنه قُرع بابي ذات ليلة بعد منتصف الليل فأفقت وإذا أنا أمام بضعة شرطيين يدعونني لمواجهة مدير الشرطة محيي الدين بك، الذي انتحر فيما بعد. فسألتهم عن السبب الداعي إلى ذلك فعلمت أن الغرض من ذلك هو كتابة وصايا الشهداء الذين أعدموا في صباح تلك الليلة. فامتنعت عن الذهاب فشددوا عليَّ فلم أُلبِّ الطلب وقلت لهم أخبروه أن في البلد شيوخاً يتقاضون أجوراً على الوظائف الدينية فليتخذ أحدهم لهذا الغرض، فذهبوا ثم عادوا وألحّوا عليّ بالذهاب معهم، فقلت لهم أخبروه أن هذه عمامتي حاضرة فليأخذها ولا أريد أن أكون شيخاً بعد اليوم، فذهبوا ولم يرجعوا، وعلى ذلك نزعت عمامتي».

على أثر انحسار الحكم العربي عن بيروت وانتشار قوات الاحتلال الفرنسي فيها اتجهت عواطف البيروتيين صوب المملكة العربية الناشئة في دمشق كما اتجهت إليها جموع الرعيل القومي الناشط من النابهين فيها. وكان الشيخ مصطفى الغلاييني في مقدمة هذا الرعيل واختار أن يكون متطوعاً في جيش الشريف فيصل الذي كان يعتبر في ذلك الحين جيش التحرر القومي للأمة العربية.

ولما احتل الفرنسيون سوريا بقيادة الجنرال غورو ذهب عدد من ضباط جيش الأمير فيصل إلى بلاد ما وراء الأردن عند الأمير عبد الله. فعينهم الأمير في مناصب مختلفة، والذي وصل إلينا أن الشيخ مصطفى الغلاييني قد عُيِّن عند الأمير عضواً في الديوان العرفي العسكري.

وانتهز الأمير عبد الله وجود الغلاييني في بلاده فرغب إليه بأن يعطي ولديه طلال ونايف دروساً في اللغة العربية وآدابها وأن يتولى الإشراف على تربيتهما وفق المبادىء الدينية والأخلاق العربية التراثية الأصيلة.

لم تطل إقامة الغلاييني في عمان، فلقد استبدّ به الشوق إلى لقاء أهله والعيش في بلده بيروت، فعاد إلى عائلته وموطنه بعد حوالي سنتين من غربته ليتابع جهوده الأدبية وجهاده الوطني وفي سنة ١٩٢٢م عاشت بيروت أحداثاً سياسية نجمت عن مقتل أسعد بك خورشيد مدير داخلية لبنان آنذاك. وسبب مقتل هذا الموظف أنه وافق على طلب حكومة الانتداب بأن تكون العطلة الاسبوعية يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة، الأمر الذي أثار اعتراض المسلمين، ويومئذ اتّهم الغلاييني بأنه كان مع الذين قاموا بهذا الترتيب والتحريض على قتل الرجل، فاعتقلته السلطة الفرنسية في سجن بيت الدين بلبنان ثم أبعدته إلى خارج البلاد.

وعندما خفف الانتداب الفرنسي من وطأته على البلاد رأى الغلاييني أن يشد رحاله إلى بيروت لإبراد غليل ظمئه إلى لقاء الأهل والولد.

ولكن تفاؤله وحسن ظنه بالفرنسيين كان في غير محله. إذ أنه ما كاد يلقي عصا النوى ويستقر به المقام في بلده حتى ألح عليه زبانية الانتداب بالإحراج والمضايقة إلى أن انتهى بهم الأمر أخيراً إلى اعتقاله من جديد وزجه في قلعة جزيرة أرواد للمرة الثانية طوال سبعة شهور، ولما أُفرج عنه سافر من أرواد إلى عمان مرة ثانية ومنها اتخذ سبيله إلى بيروت دون ترخيص من سلطات الانتداب التي كانت له بالمرصاد وقبضت عليه فور وصوله وزجته في السجن العسكري داخل حجرة ضيقة (زنزانة) ذرعها طولاً ١٧٥ سنتم وعرضاً ١٦٠ سنتم.

بقي الغلاييني في هذا السجن العسكري بين جدران زنزانته الضيقة خمسة عشر يوماً وبعدها قذفته السلطة إلى خارج الحدود اللبنانية فاختار حيفا دار إقامة له لسابق عهده بها ومعرفته لأهلها.

من حيفا بفلسطين ـ جبرها وردها للعروبة والإسلام ـ سافر الغلاييني إلى بيروت وفيها كانت إقامته الدائمة حيث استقبله إخوانه ومحبوه وقادرو فضله وعلمه بما هو أهل له من التجلّة والإكرام. وبالرغم من أنه عاد إليهم وعلى رأسه طربوش من غير عمامة، فإنهم انتخبوه رئيساً للمجلس الإسلامي الشرعي الأعلى في لبنان.

وإذ كان علماء بيروت وإخوانهم علماء الأقطار العربية حريصون على أن يكون الغلاييني متوجاً بالعمامة شعار العلم والدين عند المسلمين فإنهم تنادوا للاشتراك جميعاً للقيام بهذه البادرة التكريمية بالشكل الذي يليق بمكانه المحتفى به بمناسبة مرور ثلاثين سنة على جهاده في حقل التعليم والتبتّل لخدمة اللغة العربية وآدابها وتراثها.

وفي اليوم الثامن عشر من شهر حزيران سنة ١٩٣٢ امتلأت رحاب الكلية العباسية (الكلية الإسلامية سابقاً) بكبار العلماء من بيروت ودمشق والقدس وبغداد والموصل حيث تم الاحتفال بوضع العمامة على رأس الغلاييني وسط ترحيب أكثر من عشرين خطيباً تكلموا منوهين بشخصية المحتفى به ومكانته العلمية وجهاده الصادق في سبيل مجد العرب ووحدة أمتهم واستقلال بلادهم وقد تولى مفتي دمشق ومفتي الموصل ومفتي بيروت تتويجه بالعمامة، وكان عمره إذ ذاك ٤٧ سنة.

وبعودة الشيخ الغلاييني إلى «نادي المتعممين» دُعي إلى سدة القضاء الشرعي في بيروت ليمارس مهمة العدالة الدينية وراء قوس المحكمة الشرعية وبقي متوسداً هذا المنصب بضع سنين ثم نقل منه إلى منصب المستشار في المحكمة الشرعية العليا التي كان يرأسها العالم الكبير الشيخ محمد علي الأنسي رحمه الله تعالى.

كانت المحكمة الشرعية العليا في بيروت المرحلة التي مر بها وهو في طريقه إلى نهاية مطافة في هذه الدنيا، فلقد حدث أثناء عمله في هذه المحكمة أن ابتلاه الله بمرض جلدي انتشر في سائر بدنه ولم تنفع بهِ الأدوية المعروفة في أيامه. ثم إن هذا المرض تتطور إلى نوع من السرطان الجلدي الذي أدّى إلى إنهاك جسده وإن الزعيم رياض بك الصلح تبتّل للاهتمام به بكل ما وسعه الجهد ولم يبخل عليه بألوان المعالجات الطبية في داخل لبنان وخارجه ولكن استشراء المرض كان أقوى من رغبة محبيه بإنقاذه والإبقاء على حياته، فانتقل رحمه الله تعالى إلى جوار ربه ورحمته في ١٧ شباط (فبراير) ١٩٤٤. وتم دفن جثمانه الطاهر في جبانة الباشورة في بيروت.

من مؤلفاته

١ ـ أريج الزهر.
٢ ـ الإسلام روح المدنية.
٣ ـ اللورد كرومر.
٤ ـ الثريا المضيئة في الدروس العروضية.
٥ ـ القواعد العربية.
٦ ـ رجال المعلقات العشر.
٧ ـ عظة الناشئين.
٨ ـ لباب الخيار في السيرة المختار.
٩ ـ نظرات في الأدب والفقه.
١٠ ـ نظرات في السفور والحجاب.

محمد جميل بيهم

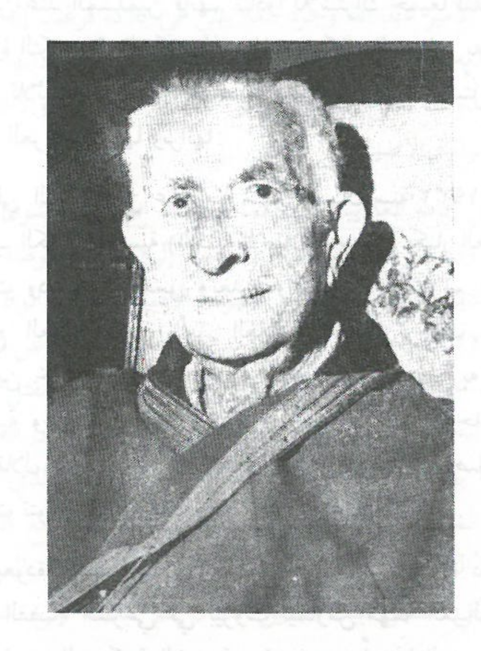
آل بيهم من الأسر القديمة في بيروت والمعمرون من هذه الأسرة يقولون بأن أجدادهم كانوا من أهل الأندلس. ومنها انتقلوا إلى المغرب، ثم قدم بعضهم إلى بيروت التي أصبحت موطناً لهم ولأبنائهم من بعدهم.

إن آل بيهم هم في الواقع يرجعون إلى عائلة العيتاني البيروتية. وحتى عهد قريب كانوا يعرفون باسم آل بيهم العيتاني. وكان عبد الله بيهم العيتاني جد هذه الأسرة من كبار التجار في بيروت في القرن الماضي وله محل تجاري كان يتبادل التعامل تصديراً واستيراداً مع أشهر المحال والبيوت التجارية في أوروبا وأميركا.

صاحب الترجمة محمد جميل بيهم هو ابن محمد بن مصطفى بن حسين بيهم بن ناصر العيتاني. كانت ولادته في بيروت سنة ١٨٨٧م في وسط بيئة عائلية جمعت مكانتها الاجتماعية من خلال تاريخ رجالها الذي ضربوا بسهم وافر من الوجاهة والثراء والثقافة الدينية والأدبية، وما يزال أهل القلم يتحدثون حتى اليوم عن حسين بيهم الذي كان شاعراً مبدعاً وأديباً مُجيداً ورائداً مرموقاً في النهضة العلمية التي بدأت بواكيرها في البلاد ما بين القرنين الماضي والحالي. كما أن سدة الحكم في لبنان عرفت في عبد الله بيهم واحداً من أركانها خلال الحقبة التي مرت على لبنان في أوائل عشر الثلاثين من هذا القرن.

بدأ صاحب الترجمة دراسته في نشأته الأولى في الكلية العثمانية التي أنشأها الشيخ أحمد عباس الأزهري، ومن هذه الكلية انتقل إلى مدرسة أوليفيا الفرنسية التي كانت نواة لمدرسة البعثة العلمانية الفرنسية في بيروت (اللاييك). وإن نزوع محمد جميل بيهم إلى التزود بالعلم رافقه من سن الحداثة إلى ما بعد تقدمه في السن إلى عهد الكهولة. ففي خريف عام ١٩٢٨م قدم إلى معهد الآداب بجامعة باريس أُطروحة لنيل درجة الدكتوراه عنوانها «الانتداب في العراق وسورية» وكان المشرف على هذه الأطروحة الأستاذ دو مومبين: (Gaudefray de Monbynes). وجدير بالذكر أن هذا الوجيه الكاتب ظل حتى يوم وفاته في ٨ أيار (مايو) ١٩٧٨. أي على مدى واحد وتسعين عاماً بكامل أيامها وشهورها حريصاً على اكتساب العلم من مناهله العربية والأجنبية وفي نفس الوقت كان أيضاً حريصاً على نشره عبر آلاف الصفحات من مؤلفاته.

وبسبب معاصرة المترجم له العهد العثماني ودراسته في الكلية العثمانية ثم في مدرسة أوليفيا الفرنسية فإنه استطاع اتقان اللغات الثلاث: التركية والعربية والفرنسية.



على أنه لا بد من التذكير بأن هذا الوجيه العالم كان إلى جانب اهتمامه بالفكر والثقافة يزاول مهنة التجارة التي كانت الميدان الذي خاضته أسرته آل بيهم وتوارثه أفراد هذه الأسرة أباً عن جد. وجدير بالذكر أن مزاولة المترجَم له للتجارة كانت مناسبة لتعدد أسفاره في أقطار المعمورة من أجل توسيع علاقاته مع الجهات التجارية التي يتعامل معها، وإن هذه الأسفار أتاحت له في آن واحد المكاسب المادية والاتصال بالعديد من العلماء الذين كان يصادفهم في البلاد التي كان يتنقل فيها.

في سنة ١٩١٣ تزوج محمد جميل بيهم من زينب عبد الرحمن بيهم، ثم تزوج للمرة الثانية سنة ١٩٢٩ من السيدة نازك العابد ابنة مصطفى باشا العابد من أعيان سورية الذي تولى متصرفية الكرك وولاية الموصل في أواخر العهد العثماني.

إن الفترة التي تزامنت مع حياة محمد جميل بيهم كانت من المراحل الفاصلة في تاريخ العرب الحديث، وهذا ما جعله وثيق الاتصال بالأحداث التي عاشتها الأمة العربية في هذه الفترة

التي امتدت من أواسط القرن الميلادي الماضي وما تزال متمادية حتى أيامنا الحاضرة. ولما كان صاحب الترجمة متابعاً لمجرى تلك الأحداث فإنه لم يحجم عن خوض غمارها لاسيما عندما خفر الخلفاء ذمة عهودهم التي قطعوها للعرب حتى أهاجوهم للثورة على الدولة العثمانية. ففي سنة ١٩١٩ كان محمد جميل بيهم المندوب الذي اختاره البيروتيون لتمثيلهم في المؤتمر العربي الأول الذي أعلن المملكة العربية السورية وانتُخب الشريف فيصل بن الحسين ملكاً لهذه المملكة، ولقد انبعثت عن هذا المؤتمر «لجنة الاحتجاج» على فصل لبنان عن سورية وعلى توكيل بطريرك الموارنة الياس الحويك عن لبنان للذهاب إلى باريس. وكان محمد جميل بيهم في عداد هذه اللجنة التي كان من أعضائها أيضاً، الأمير أمين أرسلان، ومظهر بك رسلان، وسعيد بك طليع، ورشيد بك جنبلاط، وإبراهيم بك هنانو، وتوفيق أفندي مفرج، والشيخ عبد القادر الخطيب.

وبعد أن حُمّ قضاء الله وأصبحت بيروت تابعة لدولة لبنان الكبير الذي أعلنه الطاغية الفرنسي الجنرال غورو في أول أيلول ١٩٢٠م جرت انتخابات نيابية سنة ١٩٢٢ لتختار كل طائفة من الطوائف الدينية التي يتألف منها الشعب اللبناني نائباً عنها، ترشح محمد جميل بيهم للنيابة عن مسلمي بيروت، ولكنه ما لبث أن سحب هذا الترشيح بعد أن تأكد له بأن الفرنسيين لن يمكنوه من الفوز بالنيابة.

وفي سنة ١٩٢٣ عندما تعين الجنرال ويغان مفوضاً سامياً في سورية ولبنان كان محمد جميل بيهم بين الزعماء الذين اعترضوا على إلحاق بيروت بالدولة اللبنانية «... طالبين بكمال الإخلاص من عدالة الجمهورية الفرنساوية الفخيمة إجابة طلبنا الانفصال عن لبنان والالتحاق بالوحدة السورية على قاعدة اللامركزية».

وفي سنة ١٩٢٨ انتمى محمد جميل بيهم إلى حزب الإصلاح السوري الذي كان يرأسه أحمد الداعوق من أعيان بيروت (الذي تولى رئاسة الحكومة اللبنانية فيما بعد) ومن خلال وجوده في هذا الحزب تصدى للداعين إلى إحلال اللهجة اللبنانية العامية محل اللغة العربية الفصحى وقدم للدكتور أبو الروس وزير المعارف آنذاك مذكرة جاء فيها قوله:

«يعز عليّ أن يتناسى أهل لبنان أن اللغة العربية ليست هي لغة الإسلام فحسب، وإنما هي لغة العرب كافة استعملها المسيحيون والمسلمون سواء، وفاخروا بها وحجوا لسماع معلقاتها وما أحرى اللبنانيين أن يكونوا أصحاب غيرة على لغة أجدادهم كما هم إخوانهم في سائر سورية».

وفي سنة ١٩٢٩، يوم كان شارل دباس رئيس الجمهورية اللبنانية واميل إدة رئيس الوزارة ونجيب عبد الملك وزير المعارف، صدر مرسوم جمهوري بإنشاء المجمع العلمي اللبناني وكان محمد جميل بيهم من بين أعضائه وهم بالإضافة إليه: الشيخ إبراهيم المنذر، وأسد رستم، ويوسف الخوري، والشيخ عبد الرحمن سلام، والشيخ علي الزين والخوري يوسف عبود، والقاضي جرجي صفا، والمطران جرجي سبيتي، والشيخ منير عسيران، والشيخ أحمد عمر المحمصاني والمحامي وديع عقل، والدكتور الياس فياض والشيخ أمين تقي الدين..

في سنة ١٩٢٩ تنادى أعيان المسلمين في بيروت لتأليف جمعية اتحاد الشبيبة الإسلامية لتهتم بشؤونهم وتطالب بحقوقهم في شتى الحقول التربوية والاجتماعية والسياسية وكان لهذه الجمعية نشاط بارز في إقناع المسلمين بأن يتسجلوا في الإحصاء الذي جرى بلبنان سنة ١٩٣٢، وقد كانوا آنذاك يرفضون حمل الهوية اللبنانية لعدم موافقتهم على الكيان اللبناني.

في سنة ١٩٤٣ دعا محمد جميل بيهم عدداً من المهتمين بالقضايا العامة واتفق معهم على تأليف «الكتلة الإسلامية» التي أخذت على عاتقها إظهار وجهة نظر المسلمين في النواحي الحكومية والسياسية والتربوية. وقد تابعت هذه الكتلة مساعيها من أجل تأمين العدالة والمساواة لسائر المواطنين اللبنانيين دون التمييز بينهم بسبب أديانهم ومناطقهم.

في سنة ١٩٤٤ دعا محمد جميل بيهم لتأليف «اتحاد الأحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية»، وتم انتخاب الهيئة الإدارية لهذه المنظمة برئاسته لمكافحة الصهيونية وحضهم على الدفاع عن عروبة فلسطين وحق العرب الشرعي فيها.

هذه بعض الملامح من حضور محمد جميل بيهم في الحياة الوطنية والقومية سواء داخل لبنان أو في البلاد العربية وغيرها من الأقطار الأجنبية.

أما في ميدان الكتابة والتأليف وإلقاء المحاضرات في حقل الاجتماع والتاريخ فإن لمحمد جميل بيهم آثاراً مطبوعة ومخطوطة تدل على وفرة عمله وبعد نظره وعمق تفكيره. ولقد بدأ حياته بتأليف الكتب في المرأة. وأول هذه الكتب أصدره سنة ١٩٢١ تحت عنوان «المرأة في التاريخ والشرائع». وفي سنة ١٩٢٧ صدر له كتاب بعنوان «المرأة في التمدن الحديث». وفي سنة ١٩٥٢ أصدر كتاب «فتاة الشرق في حضارة العرب». وفي سنة ١٩٦٢ وهي السنة التي أُعلنت «عاماً دولياً للمرأة» انتهز المناسبة وأصدر كتاباً بعنوان «المرأة في حضارة العرب والعرب في حضارة المرأة».

إن هذا الاهتمام بموضوع المرأة أعطاه لقب «نصير المرأة» ولكن اندفاعه في الدفاع عن المرأة وحقوقها سرعان ما خفت حدته عندما لاحظ بأن النساء في بلادنا بالغن في تقليد النساء الأجنبيات لجهة التبرج الفاضح والبروز غير المتحفظ في المحافل العامة والشوارع، الأمر الذي حدا به إلى القول: «لقد ناصرت المرأة ودعوت إلى حريتها حينما كانت المرأة غارقة في تقاليد تسيء إلى كرامة مجتمعها، ولكن حين أصبح الجيل الذي طلبت له الحرية يتبع تقاليد طائشة بلا وعي وبلا توقف عند حد، تحوّلت إلى مجابهة المرأة في ذلك حباً بالمرأة نفسها».

وإلى جانب كتبه في المرأة فإن له عشرات الكتب الأخرى التي احتوت صفحاتها على دراسات تاريخية يمكن اعتبارها بحق من الوثائق التي لا يستغني عنها الباحثون المهتمون بمتابعة التطورات التي عاشتها الأمة العربية لا سيما في الفترة الواقعة بين أواخر العهد العثماني وأوائل العهود الاستقلالية التي أدركها وحلل ملابساتها وخلفياتها بعقل الناقد البصير.

ولعل كتابة «فلسفة التاريخ العثماني» الذي أصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٥ والثاني سنة ١٩٥٤ يعتبر من أفضل ما كتب عن أسباب نجاح السلطة العثمانية وأسباب سقوطها. وجدير بالذكر أنه في هذا الكتاب تناول سيرة سلاطين آل عثمان وأعمالهم السياسية والعسكرية بأسلوب موضوعي بحيث جاء هذا الكتاب بدراسة تحليلية للعهد العثماني من بدايته حتى نهايته دون أن تشوبها شائبة من جموح العاطفة الشخصية، ذلك أن المؤلف انتقد ما يجب انتقاده برصانة العالم المدقق ولم يبخل على السلاطين الأتراك في إظهار مزاياهم عندما كانت هذه المزايا تلوح له في ثنايا تاريخهم.

وبعد،

لقد كان محمد جميل بيهم تراثاً بيروتياً لا يمكن لأي قلم يكتب تاريخ بيروت إلا أن يقف عند اسمه ويقدمه في موكب الخالدين من أبناء هذه المدينة التي كرمته بحفل ضم الجم الغفير من قادري فضله وعلمه ومكانته الذين اجتمعوا يوم ٢٠ جمادى الآخرة ١٣٩٩هـ الموافق ١٧ أيار ١٩٧٩م لمناسبة مرور سنة على استئثار خالقه به يوم الاثنين الواقع في الأول من جمادى الآخرة ١٣٩٨هـ الموافق ٨ أيار ١٩٧٨م وذلك ليستمعوا إلى نخبة من علماء لبنان والبلاد العربية الذين أموا دار الفتوى ببيروت وتعاقبوا على الكلام عنه.

مصطفى فروخ

هو مصطفى بن محمد بن صالح بن عبد القادر بن محمد فروخ. ولقد سمعت من سعد الدين فروخ رحمه الله أن أسرتهم أخذت اسمها من الفقيه المجتهد ربيعة بن فروخ التيمي بالولاء، وإنه من حق كل إنسان أن ينمي أُسرته إلى من يعتقد بأنه أصل هذه الأسرة ومن هذا المنطلق فإننا ننقل ما سمعناه من سعد الدين فروخ والعهدة فيما ننقله عليه، بيد أننا نعتقد أن كلمة فروخ ليست عربية وإنما هي هندية ومعناها بالعربية «محمود» وقد شاعت كلمة فروخ في أسماء الهنود قديماً وحديثاً على حدٍّ سواء.

كانت أُسرة مصطفى فروخ من العائلات البيروتية ذات المستوى الاجتماعي المحترم، ولكنها لم تكن تتمتع بالثراء المادي، محمد والد مصطفى كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان، كما يقول الدكتور عمر فروخ، حافظاً للأخبار والأشعار والقصص والأمثال، حسن الحديث، حاضر النكتة، يستعين على تغطية معيشته وعائلته بممارسة مهنة «المُبَيِّض» وهي مهنة تقوم على معالجة الأواني النحاسية المنزلية بطلاء القصدير. هذه المهنة غابت منذ أن تحوّل الناس إلى استعمال الأواني المصنوعة من الألمونيوم والبلاستيك وأهملوا الأواني النحاسية القديمة.

والدة مصطفى اسمها أنيسة بنت حسن سميسمة من أهل بيروت وسكانها، هذه العائلة خف عدد أفرادها في أيامنا وكانت من قبل أكثر عدداً. والدة مصطفى فروخ كانت كأكثر نساء زمانها أُميّة لا تقرأ ولا تكتب لأن أهل ذلك الزمان كانوا يفضلون بقاء بناتهم ونسائهم داخل بيوتهم مكتفيات بخدمة أزواجهم والعناية بتربية أولادهن. ولم يكن تعليم المرأة أمراً مرغوباً آنذاك.

ولد مصطفى فروخ في محلة البسطة التحتا ببيروت، وقد اضطربت الأقوال في تحديد سنة ولادته لعدم توفر الإحصاءات الرسمية في ذلك الحين، إلا أن الدكتور عمر فروخ، وهو قريب له رجح بأن ولادته كانت سنة ١٩٠٠م.

عندما بلغ مصطفى فروخ الخامسة من عمره أرسله والده إلى «الكُتّاب» الذي كان يديره الشيخ جمعة وذلك من أجل تعليمه وتحفيظه القرآن الكريم وتلقينه مبادىء اللغة العربية والحساب.

وفي سنة ١٩٠٨ انتقل صاحب الترجمة إلى «المدرسة الابتدائية» لصاحبها طاهر التنّير. إلا أن هذه المدرسة أغلقها صاحبها وأصدر مجلة باسم «المصوّر» وإذ وجد في مصطفى فروخ موهبة فنية فإنه طلب منه البقاء معه لمعاونته في رسم بعض الصور اللازمة للمجلة.

بعد مدة توقفت مجلة المصور عن الصدور، فاستأنف مصطفى فروخ متابعة دروسه في مدرسة «دار العلوم» التي أسسها في بيروت الشقيقان الهنديان عبد الجبار خيري وعبد الستار خيري اللذان أسسا حركة الكشاف المسلم سنة ١٩١١ وهذه الحركة ما تزال مزدهرة حتى اليوم وتؤدي رسالتها التربوية على خير وجه.



لم يبق مصطفى فروخ في مدرسة «دار العلوم» أكثر من ستة شهور من عام ١٩١٢، انتقل بعدها إلى الكلية العثمانية لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري وبقي في هذه الكلية إلى حين إغلاقها خلال سنوات الحرب الكونية بسبب اعتقاله من قبل السلطات العثمانية لاتهامه بإثارة النعرة القومية العربية بين الطلاب الذين كانوا فيها.

في عام ١٩١٩، بعد أن وضعت الحرب الكونية الأولى أوزارها سنة ١٩١٨ دخل مصطفى فروخ المدرسة الإيطالية لأنه

كان راغباً في تعلم اللغة الإيطالية ليكون قادراً على متابعة دروسه في الرسم في إيطالية.

في سنة ١٩٢٤ سافر مصطفى فروخ من بيروت إلى روما بالباخرة وقد وصف لنا في مذكراته «طريقي إلى الفن» العقبات التي واجهها لحمله على العدول عن السفر فقال:

«وقد دخلت يوماً البيت فوجدت بعض النسوة من الجيران، وأنا ما كان لي علاقة بإحداهن يوماً، وقد جلسن إلى والدتي. ومنذ أن دخلت وسلمت بادرنني قائلات: «شوف يا ابني انتَ بعدك صغير ما بتعرف شو في بالدنيا. شو بدَّك بالسفر لبلاد ما بتعرفها. أُمك مرا كبيرة، أحسن هالمُصريات ما تصرفهم بالسفر، ما إلو عازة، عمّر بيت فيهم أو شوف لك بنت حلال إتزوّجها».

.. فأجبتهنّ بإيجاز: هذا شيء يخصني وحدي، وأنا ما كلّفت أحداً بالتدخل في شؤوني، لا سيما والمال مالي، فأنا حرّ في التصرف به، وأنا أعرف متى أتزوج ومتى أبني بيتاً...».

ويذكر ومصطفى فروخ أن الذي شجّعه على السفر إلى إيطالية حبيب سرور أُستاذ الرسم في المكتب السلطاني، وهو رسام كبير توفي سنة ١٩٣٨ ويقول: «إنه هو، أي حبيب سرور، الذي شجعني على السفر إلى إيطالية لإكمال دروسي الفنية فيها».

في سنة ١٩٢٧ غادر روما قاصداً باريس في طريق عودته إلى بيروت ولما استقر به النوى في بلده أقام سنة ١٩٢٨ معرضاً خاصًّا لرسومه في بيت الوجيه أحمد أيّاس الذي كان عند محطة غراهام قبيل الجامعة الأميركية، وهو ما يزال قائماً حتى اليوم. في ذلك الحين أقام أيضاً معرضاً آخر لرسومه في الصالة الخضراء من منتدى وست هول بالجامعة المذكورة.

في سنة ١٩٢٩ سافر مرة ثانية إلى باريس لينال مزيداً من تعلم فن الرسم ولقاء كبار أهل هذا الفن من الفرنسيين، وقد توج إقامته في العاصمة الفرنسية عندما قبلت إحدى لوحاته في «صالون باريس» وهو المعرض الدولي الخاص بالفن، ولا تقبل في هذا الصالون إلا الرسوم البارعة المبتكرة المعبرة عن اتجاه فني. كما وفق سنة ١٩٣١ إلى عرض رسومه في معرض الفنانين الفرنسيين في باريس.

لم تطل إقامة مصطفى فروخ في باريس هذه المرة، فهو قد غادرها سنة ١٩٣١ عن طريق إسبانية. وزيارة إسبانية أو الأندلس كما نسميها نحن العرب كانت تداعب خياله وتشده بالشوق إلى التعرف على أجداده العرب من خلال تراثهم الفني وآثارهم المعمارية التي تجذب بقاياها ملايين السياح الذي يقصدون إسبانية كل سنة بالرغم من أن هذه البقايا غدت أشبه ما تكون بالأنقاض الدارسة بعد الدمار الذي حل بها على أيدي ملوك هذه البلاد ورهبانها عندما أنشبوا بها أظفار تعصبهم الديني في الحروب التي خاضوها ضد الذين شادوها وسكبوا فيها روحهم الحضارية وروائعهم الفنية.

وفي تشوق مصطفى فروخ إلى زيارة الأندلس يقول في كتابه «رحلة إلى بلاد المجد المفقود»:

«كانت تمر الأيام وهيامي بالأندلس ينمو والرغبة تشتد لزيارتها والحجّ إليها. وكلما تراءت لي باحة الأسود وأعمدتها الرشيقة، وأروقة جامع قرطبة المهيبة، وزهراء إشبيلة الرائعة، كانت تثور أشجان نفسي، وتزكو نار حبي لزيارة أرض المجد، ومهبط الفن، ووددّت لو تنزل قوة من السماء تحملني إلى تلك الأرض التي طالما حنت إليها روحي واشتهت شم [illegible]ذى تربتها الزكية نفسي!».

وجدير بالذكر أن زيارة مصطفى فروخ لإسبانية استحقت منه أن يسجل أيامه فيها، وما وقعت عليه عيناه من آثارها العربية في قرطبة وإشبيلية وغرناطة في كتاب لطيف، صغير الحجم قليل الصفحات عنوانه «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» يمكن وصفه بأنه من أغزر ما كتب عن هذه البلاد بالنسبة للعاطفة العربية الإسلامية التي نضح بها قلم المؤلف وذلك بالنسبة لنفاذ بصيرته الفنية وهو يستعرض شوامخ المنشآت الدينية والقلاع الحربية والقصور الملكية التي ما زالت الأمة العربية ترثيها وتبكيها حتى اليوم.

ولكي نضع الإطار الصحيح للعاطفة التي عاشها مصطفى فروخ خلال زيارته للأندلس فإننا ننقل هنا الكلمات التي عبر بها المؤلف نفسه عن أحاسيسه القومية والوطنية وهو يهدي كتابه:

«إلى الفن الأندلسي الراقي الذي أوحى إليّ هذه السطور.

إلى أرواح أولئك الفنانين الذين أغفلهم التاريخ وخُلِّدت آثارهم الناطقة.

إلى محبي الفن والجمال، أقدم كتابي هذا».

وقد وصف عمر فاخوري الأديب البيروتي المتوفى سنة ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) هذا الكتاب في رسالة قدمه بها سنة ١٩٣٣ يقول فيها: «هو أول كتاب من نوعه في لغة العرب، فإذا لم تكن الطرفة من مزاياه، بل من حلاه، فأين الطرافة تكون؟».

ونحن نضيف إلى هذه الشهادة المنصفة لمصطفى فروخ في كتابه هذا، شهادة أخرى منا وهي أن كتاب مصطفى فروخ «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» قد رفع مؤلفه إلى مستوى كبار الرحّالين

الذين نقلوا انطباعاتهم عن زيارتهم للبلاد الأندلسية في كلمات حرَّى تتدفق فيها عبارات الإعجاب بحضارة العرب وتقدير الثروة التراثية الأثرية التي ترجموا بها هذه الحضارة على الأرض في صميم القارة الأوروبية يوم كانت هذه القارة ما تزال تتسكع في دياجير الجهالة والتخلف إبان عصرها المظلم في القرون الوسطى.

في عام ١٩٣٥ اختار مصطفى فروخ المبادرة في تأسيس عائلة يركن إليها في حياته فتزوج السيدة ثريا بنت أحمد تميم، ولقد وفق في هذا الاختيار لأنه حظي بشريكة لحياته وفرت له الإفادة من وقته كله من أجل إرضاء نزعته الفنية وذلك بتغاضيها عن المباهج التي كانت هدفاً لأترابها من النسوة اللاتي كانت تستهويهم النزهات وإقامة الاحتفالات والتنافس في ارتداء أحدث الأزياء.

وفي سنة ١٩٣٦ رزق الله مصطفى فروخ صبياً أطلق عليه اسم هاني، وذلك إعجاباً بهانىء بن مسعود الشيباني زعيم المعركة التي انتصر فيها العرب على العجم (الفرس) يوم ذي قار الذي قال فيه النبي محمد ﷺ: «هذا يوم انتصف فيه العرب من العجم».

إن مصطفى فروخ حين اختار لمولده البكر اسم ذلك البطل العربي إنما عبر عما كان يجيش في أعماقه من حسٍّ قومي يشدّه إلى جذوره العربية الأصيلة.

وهاني اليوم أصبح من رجال الأعمال المهتمين بخدمات النقليات والسفريات العالمية. وقد برَّ والده بنشر كتبه وإعادة طبع لوحاته التي أصبحت اليوم من التحف الفنية الراقية التي يحرص عليها لبنان ويتباهى بها أهل الفن في مختلف أنحاء العالم.

لم تخلُ حياة مصطفى فروخ من الهزات الصحية التي استطاع أن يتغلب عليها ويتجاوزها بعض الوقت، ولكن صراعه معها أنهكه أخيراً عندما دهمه داء اللوكوميا (سرطان الدم)، ويبدو أن هذا الداء الخبيث قد تحكم في جسمه منذ عام ١٩٥٣. وبالرغم من معالجة نفسه من مرضه طوال أربع سنين تقريباً فإن هذا المرض الوبيل تغلب على معالجيه في مستشفى جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت فأدركه ريب المنون في المستشفى المذكور صباح يوم السبت في ١٦ شباط سنة ١٩٥٧. فبكاه أهل بيروت والعاملون في حقل الفكر والثقافة والفن الذين كانوا يرون فيه واحداً من أبرز أسياد الرسم اليدوي في العالم.

بعد أن قدمنا الكلام في السيرة الحياتية لمصطفى فروخ من يوم ولادته سنة ١٩٠٠ إلى يوم وفاته ١٩٥٧، لا بد لنا من الكلام في المسيرة الفنية لهذا الإنسان النابه الذي يمكن اعتباره أول مسلم في بيروت اخترق جدار تحريم التصوير عند مواطنيه المسلمين الذين كانوا ما يزالون حيث تركوا أجدادهم عند هذا الجدار. ولكن كيف تمكن مصطفى فروخ من اختراق هذا الجدار. إنه هو نفسه يجيبنا على هذا السؤال في مطلع كتابه «طريقي إلى الفن» حيث يقول:

«بينما كنت أقوم بتجاربي - في الرسم - كان يستوقفني نفر من المشايخ أو من المتمشيخين الذين يتظاهرون بالدين، ثم يقولون لي: يا ولد حرام الصور، الله سيحرقك بنار جهنم يوم القيامة.. وكذلك كنت أسمع كثيراً من هذا الوعظ في البيت، ولكن كنت أتساءل: ما معنى الحرام، القيامة، نار جهنم؟ ماذا جنيت وماذا ارتكبت ومن آذيت حتى أُلقى في النار؟

وأخيراً أخذت هذه الكلمات والتهديدات تحتل مكانها من نفسي وعقلي الطري. فانقطعت عن الرسم. وكان قد توفي والدي يوم كان لي من العمر خمس سنوات أو ست. وبعدها أُدخلت مدرسة أعلى كان على رأسها مدير متعلم ذو ثقافة أجنبية. هو طاهر التنّير (صاحب كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ومجلة المصور التي انتقلت ملكيتها فيما بعد إلى الكاتب جرجي زيدان). هنا ظهر أثر رسمي لأن طاهر التنير كان يفهم نوعاً ما بالرسم، فأخذ يشجعني إلى أن قابلني نفر من المتحذلقين في الدين وأخافوني من جديد من النار ومن جهنم. فتوقفت. واتفق أن كُلِّفت بإلقاء كلمة في حفلة المدرسة، ولما انتهيت أوقفني الشيخ مصطفى الغلاييني (الشاعر والقاضي الشرعي المتوفى سنة ١٩٤٤م) قائلاً: كيف الرسم عندك اليوم؟ فأجبته بسذاجة الولد: أبطلته فقال: ولماذا؟ قلت: قالوا لي إني سأضطر يوم القيامة إلى أن أخلق لرسومي أرواحاً وإلا أُلقيت في جهنم. فضحك ثم قال: طيّبْ صورها وأنا أضع لها أرواحاً. ومنذ ذلك اليوم وأنا أصور.. والشيخ الغلاييني يضع الأرواح!».

وقد ذكر مصطفى فروخ بالثناء الطيب بنت جول لاند، وهذا كان يدير محلاً للتصوير الفوتوغرافي في محلة الزيتونة ببيروت الذي جمع بينه وبين جول المذكور طاهر التنير لسابق معرفة بينهما، وفي مجلة المصور لصاحبها طاهر التنير الصادرة سنة ١٩١٢ صورة يظهر فيها مصطفى فروخ وهو طفل لا يزيد عمره عن عشر سنوات وهو يتلقى درساً في الرسم من الآنسة لاند وتحت الصورة الكتابة التالية:

«لقد نبغ أحد تلامذة دار الأيتام الإسلامية التي أقفلت أبوابها منذ مدة، وهو ولد يتيم اسمه مصطفى أفندي فروخ وعمره عشر

سنوات، في فن الرسم لدرجة تفوق التصور وقد تعهّدت الآنسة جاترود لاند المصورة البارعة تعليمه وهي تقول إن هذا الولد سيكون له شأن عظيم في فن التصوير، وترى لو أن البيروتيين يرسلونه إلى أوروبة بعد بضع سنوات حتى يتمم فترة الرسم فيها، ونحن نشكرها لخدماتها نحو هذا اليتيم، والله لا يضيع أجر المحسنين!».

هكذا بدا مصطفى فروخ رحلته في عالم الفن، وكانت هذه الرحلة غنية بالنجاحات التي أحرزها هذا الفنان البيروتي الذي كانت ريشته تقوده في دروب المجد وتقدمه إلى المعارض العالمية التي يتطالُ للمشاركة فيها أساطين الرسم الفنّي في زمانهم الذين ربّعتهم ريشتهم على أرائك المجد والخلود ونقشت أسماءهم على مفرق الزمن لوحاتهم الفنية التي عبروا بها عن عبقريتهم الفذّة التي انفردوا بها دون سائر البشر.

لقد اشترك مصطفى فروخ عبر لوحاته الغنيّة بالأصالة الفنية في أكثر من أربعين معرضاً داخل وطنه لبنان وخارجه واستحق التنويه بشخصيته المتميزة من قبل أعاظم الفنانين الوطنيين والأجانب.

إن آلاف الرسوم التي تحمل بصمات ريشته العملاقة هي في الواقع التجسيد الفنّي لحياته القصيرة في سنواتها، الطويلة في خلودها. وبالإضافة إلى عطاء ريشته فإنه ترك لنا ثروة أدبية ممتعة من عطاء قلمه سواء في كتابه «طريقي إلى الفن» الذي هو عبارة عن يومياته التي كان الفن القاسم المشترك معها، أو في كتابه «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» الذي نقلنا عبر صفحاته إلى ماضينا العربي المجيد الذي أصبح اليوم الشاهد الذي لا يطاله البِلَى على أننا أمة لها في حضارة الإنسان سجل مشرق الصفحات لن تقوى عاديات الزمان على طمسها والتعتيم عليها.

رحمك الله يا أبا هاني إنك كنت في بيروت قبساً من أنوار الفنون الجميلة التي أضاءت تاريخنا الحديث بشعلة وهاجة من عصارة قلبك الذي كان على الدوام يخفق بالإخلاص للعروبة والإسلام.

الدكتور صبحي المحمصاني

في بيروت أكثر من عائلة تحمل اسم المحمصاني بيد أن هذا الاسم لا يربط جميع حامليه بصلة من القرابة أو النسب، فأسرة الدكتور صبحي أصلها من مدينة طرابلس الشام، وقد وُلد في بيروت، ولكن تاريخ ولادته مختلف فيه فبينما يقول الدكتور عدنان خطيب وهو يترجم له في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (مجلد ٦٣، ج٤) إن ولادته كانت سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م) فإن جوزيف نصر الذي نعاه في جريدة النهار البيروتية (١٣ أيلول سنة ١٩٨٦م) يقول إنه ولد عام ١٩١١م. ولعل ما قاله الدكتور عدنان الخطيب هو أدنى إلى الصحة لأنه يعتمد على المذكرات الشخصية التي تركها صاحب الترجمة عن نفسه.

بدأ المترجم دراسته في الكتاتيب التي كانت منتشرة في بيروت أيام نشأته الأولى، والقرن العشرون ما يزال في أوائل سنواته عندما اشتجرت دول العالم آنذاك في الحرب الكونية التي استمرت من سنة ١٩١٤ حتى أواخر سنة ١٩١٨م.

وعندما وضعت الحرب أوزارها دخل صاحب الترجمة مدرسة رأس بيروت التابعة للكلية السورية الإنجيلية التي أسسها المبشرون البروتستانت الأميركان في بيروت ١٨٦٣م.

في سنة ١٩٢١م أصبح اسم هذه المدرسة «الجامعة الأميركية في بيروت». وقد تخرج المحمصاني منها سنة ١٩٢٤م حاملاً شهادة الدائرة الاستعدادية بتفوق كبير إذ كان معدل علاماته في جميع الدروس ٩٢٪ وكان الأول بين أترابه في الجامعة وكلف بإلقاء كلمة الاحتفال السنوي للمتخرجين منها باللغة الإنكليزية.

من الجامعة الأميركية في بيروت انتقل صبحي المحمصاني إلى فرنسة حيث التحق بجامعة ليون ونال منها الإجازة (الليسانس) ثم الدكتوراه عام ١٩٣٢م في القانون الخاص والاقتصاد. ومن جامعة ليون في فرنسة توجه إلى إنكلترة حيث التحق بجامعة لندن وتخرج منها سنة ١٩٣٥م حاملاً شهادة «بكالوريوس» في الحقوق.

أثناء الدراسة كان صبحي المحمصاني يتابع تحصيله في كل من فرنسة وإنكلترا وهو يعمل في القضاء اللبناني حيث أسندت إليه المناصب التالية:

١ ـ قاضي محكمة صور.

٢ ـ حاكم صلح الشوف.

٣ ـ مستشار في محكمة الاستئناف المختلطة (الفرنسية اللبنانية).

٤ ـ رئيس غرفة محكمة الاستئناف والتمييز في بيروت (من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٤٦م).



في عام ١٩٤٧ ترك الوظائف الحكومية وانصرف لتعاطي المحاماة وإلقاء المحاضرات في الجامعة الأميركية وجامعة بيروت العربية وجامعة القديس يوسف اليسوعية ببيروت وكذلك في معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة. وموضوع محاضراته كان دائماً يدور حول مادتَيْ القانون والحقوق.

في سنة ١٩٤٥ كلفته الحكومة اللبنانية ليكون المستشار القانوني لوفدها عندما وضعت جامعة الدول العربية ميثاقها في القاهرة. وفي نفس السنة عُيِّن في منصب المستشار القانوني لوفد لبنان الذي شارك في وضع ميثاق الأمم المتحدة في سان فرنسيسكو.

وإضافة إلى ذلك فإن الدكتور صبحي كان عضواً بمحكمة التمييز الدولية وعضواً أو رئيساً لعدد من لجان التحكيم الدولية ورئيساً للجنة العلوم في المحكمة المذكورة.

تطلع الدكتور صبحي المحمصاني لخدمة المجتمع اللبناني

عبر الندوة النيابية فرشح نفسه ليكون نائباً عن مدينة بيروت عام ١٩٦٤ فاستجاب الناخب البيروتي لهذا الترشيح الذى رأى بالدكتور المحمصاني المؤهلات الخلقية والعلمية والوطنية التي ترتفع بالمستوى النيابي إلى درجة راقية من الممارسة الديمقراطية الحضارية. وبالفعل نجح المترجَم بتمثيل بيروت في مجلس النواب اللبناني للمرحلة التي استمرت من عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٦٨ وخلال هذه الفترة اختير الدكتور صبحي وزيراً للاقتصاد الوطني في الحكومة اللبنانية سنة ١٩٦٦، غير أن التجربة السياسية كانت على غير ما يشتهي، كما يقول هو نفسه في سيرته الذاتية فاستقال وآثر العمل مجدداً في حقل التأليف والبحث والتحقيق في عدد من الموضوعات الإسلامية والفقهية والقانونية والتشريعية.

بعد حياة حافلة بالنشاط الفكري والتأليف العلمي والمساهمة في المجامع العلمية والمؤتمرات والمحافل الدولية والعالمية استأثرت العناية الإلّهية بهذا الإنسان الذي استقطب احترام مواطنيه وإعجاب المتصلين به وانتقل إلى جوار أكرم الأكرمين عندما كان في باريس لمعالجة صحته التي أنحى عليها مرض لم تنفع فيه محاولة الأطباء في العاصمة الفرنسية وأدركه ريب النون هناك يوم الجمعة ١٤ محرم سنة ١٤٠٥هـ (١٠ أيلول سنة ١٩٨٦). ونقل جثمانه الطاهر إلى بيروت حيث نعاه إلى الأمة كل من مجلس النواب والحكومة اللبنانية ومجلس القضاء الأعلى بالإضافة إلى عائلته وأهله، ودفن مأسوفاً عليه في اليوم التالي لوصوله في جبانة الباشورة. وعندما نعاه صديقه ورفيق عمره الدكتور عمر فروخ رحمه الله إلى مجمع اللغة العربية في دمشق الذي هو أحد أعضائه قال يذكره ويتذكره: «دخلت أنا وصبحي المحمصاني سنة ١٩١٩ إلى القسم الثانوي في مدرسة رأس بيروت التابعة للجامعة الأميركية، ونلنا شهادة الدائرة الاستعدادية في الجامعة الأميركية سنة ١٩٢٤م (المقابلة للبكالوريا). . كان صبحي المحمصاني يتمتع بذكاء كبير، وفيما يتعلق بحفظ مفردات العلم خاصة، وقد ساعده ذلك في حياته المدرسية. ثم في حياته العامة في المحاماة وفي التأليف. . إن صبحي المحمصاني لمعرفته باللغتين الإنكليزية والفرنسية ولحسن اطلاعه على الشرع الإسلامي، ثم على القوانين المدنية في البلاد العربية وفي البلاد الأجنبية أصبح مرجعاً في القضايا القانونية الدولية رحمه الله وجزاه خيراً عما قام به من الخدمة الجلّى في دراسة الشريعة الإسلامية ومن التأليف فيها. .».

ولا بد لي وأنا أُقدم الدكتور صبحي المحمصاني على أنه أحد المعالم التي تزدهي بها بيروت في تاريخها الحديث، أجد من حق الوفاء له في ذمتي أن أختم هذا التقديم بما كنت قد كتبته عنه بمناسبة إهدائه لي كتابه القيِّم «الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية والقانونية» الصادر عن دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٧٨م. كتبت يومئذٍ:

«. . إن هذا المفكر الكوثر يحمل اسماً قد تجاوز في سمعته العلمية الفياضة بالمعارف الشرعية والقانونية الآفاق الإقليمية والقومية وفرض لنفسه مكاناً في طليعة أعلام هذه المعارف أينما كانوا من كل جنس ومن كل لسان. سواء كانوا في القصيّ المترامي من أطراف المعمورة أو في القريب الأدنى من خضمّها. حتى ليُمكن القول بأنه حيثما ضرب العلم أطنابه في خزائن الخافقين كان للدكتور صبحي المحمصاني ركن من هذه الخزائن يزدان بمؤلفاته القيّمة التي حوت طيّ صفحاتها التي أربت على الآلاف، عطاء عقله الرصين وتضمنت من الدراسات والأبحاث والتحقيقات ما فيه الكفاية والغناء لكل ناهد إلى المعرفة أو تائق إلى الاستزادة من مناهلها. وإنه ليمكننا التأكيد، ونحن مطمئنون بأن المؤلفات التي صنّفها هذا العالم الحجة في حقل اختصاصه بمادة التشريع والفقه والقانون المقارن أخذت مكانها المتألّق إلى جانب المصادر الثابتة والمراجع الجامعة التي لا بد منها لأي كاتب أو دارس، مهما كان لسانه أو موطنه عندما يأخذ نفسه بالاطلاع الجدّيّ على المبادىء التي أرسى الإسلام قواعدها، والتي عبرت عن منطلقاته الخلقية ومعطياته التشريعية في حدود الأسس والتنظيمات القضائية على اختلاف أغراضها واحتياجات الناس إليها.

إن الدكتور صبحي المحمصاني أخذ نفسه بتقديم المفاهيم الإسلامية في الأخلاق والتشريع والنظم القانونية والاجتماعية للتأكيد على أن الإسلام قدم للإنسان في كل زمان ومكان الحلول الناجحة والمبادىء الناجعة لخيره وسعادته في هذه الدنيا وفي الدار الآخرة.

وفيما يلي ثبت بأسماء المؤلفات التي دبجتها يراعته المعطاءة وصدرت عن دار العلم للملايين في بيروت:

١ ـ فلسفة التشريع في الإسلام، ترجم الكتاب إلى الأوردية في لاهور (باكستان) سنة١٩٥٥ وإلى الإنكليزية في لايدن بهولندا) سنة ١٩٦١ وإلى الفارسية في طهران (إيران) سنة ١٩٦٨.

٢ ـ النظرية العامة للموجبات والعقود في الشريعة الإسلامية (جزءان) وترجم الكتاب للفارسية في طهران سنة ١٩٦٣.

٣ ـ الأوضاع التشريعية في الدول العربية.

٤ ـ المبادىء الشرعية والقانونية (الحجر والمواريث والوصية).

٥ ـ الدستور والديمقراطية.

٦ ـ مقدمة في إحياء علوم الشريعة.

٧ ـ محاضرات في آثار الالتزام والأوصاف المعدّلة لآثار الالتزام وانتقال الالتزام.

٨ ـ القانون والعلاقات الدولية في الإسلام.

٩ ـ الدعائم الخلقية للقوانين الشرعية.

١٠ ـ أركان حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي.

١١ ـ الأوزاعي وتعاليمه القانونية والإنسانية.

١٢ ـ المجاهدون في الحق.

١٣ ـ المجتهدون في القضاء.

١٤ ـ في دروب العدالة.

١٥ ـ تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء.

وله في اللغتين الفرنسية والإنكليزية الكتب التالية:

١٦ ـ Les idées économiques d'Ibn Khaldoun, Lyon, 1932.

١٧ ـ The Principles of International law in the Light of Islamic Doctrine, Recueil of The Hague Academy, Leiden, 1966.

وبالإضافة إلى هذه الكتب، فإن الدكتور صبحي المحمصاني نشر العديد من الأبحاث والتحقيقات والدراسات في مجلات المجامع العلمية العربية وفي الدوريات العلمية العربية والعالمية بما يمكن أن يتجاوز آلاف الصفحات.

الدكتور عمر فرّوخ

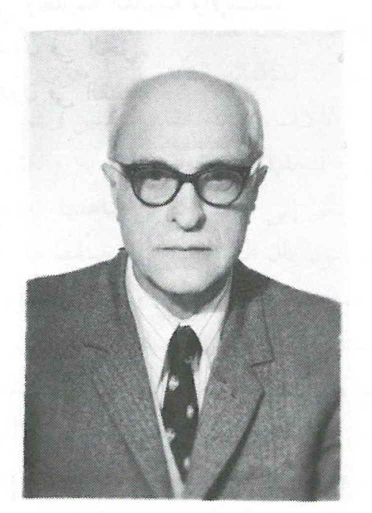
ليس من شك أن أفضل ما يُكتب في ترجمة حياة أي شخص هو ما يكتبه المترجَم له نفسه عن نفسه، وهذا ما كان يفعله بعض أسلافنا من المؤلفين والعلماء الذين تركوا في آخر مؤلفاتهم بضع صفحات لتقديم أنفسهم إلى قرائهم، وبذلك يوفرون على من يليهم عبء تتبع أخبارهم في كتب الطبقات وملاحقة أبنائهم أو أحفادهم أو غير هؤلاء وأولئك ممن يُظن أن عندهم علم أو بعض علم عنهم.

وعمر فروخ كفانا مؤونة معرفة أحواله وتحولاته من غيره وذلك في الصفحات التي سجل فيها ما سماه «الواقعات من حياتي» يوم السبت ٢٩ صفر ١٤٠٧هـ/١ تشرين الثاني نوفمبر ١٩٨٦م، ونقلها الدكتور حسّان حلاق الذي قدم وجمع وحقق الكتاب الذي أصدرته «لجنة تكريم العلامة الدكتور عمر فروخ» ونشره مجلس أمناء وقف البر والإحسان في جامعة بيروت العربية في بيروت سنة ١٤٠٨هـ (١٩٨٨م).

يقول عمر فروخ إنه ولد في بيروت في مطلع سنة ١٣٢٢هـ (ربيع عام ١٩٠٦م) عندما كانت هذه المدينة ما تزال صغيرة الرقعة، وكان معظم أهلها لا يزالون يسكنون في «المَدينة» بتسكين الميم في أول الكلمة. وكان البيت الذي ولد فيه يقع غرب السراي الكبير (التي كانت تعرف عند عامة البيروتيين باسم القشلة).

ويقول المترجَم له: إن نشأته الأولى كانت في بيئة على شيء كثير من العلم بالنسبة لذلك الزمان. والده اسمه عبد الله (١٨٧٢ - ١٨٤٩) كان يتقن ثلاث لغات: العربية والتركية والفرنسية، وربما عرف غيرها لأنه كان موظفاً في مكتب البريد النمساوي في خان أنطون بك، شرق المرفأ. كما كان عمّاه حسين (نحو ١٨٨٥ - ١٩٣٦) وحسن (نحو ١٨٩٢ - ١٩٦٦) يعرفان اللغتين العربية والتركية معرفة جيدة، وكان جده لأبيه عبد الرحمن بن سعد الدين بن عمر فروخ (نحو ١٨٤٥ - ١٩١٧) أول أمره نجاراً ثم عمل قواصاً في القنصلة الألمانية. وفي عام ١٨٨٨ لما جاء إمبراطور ألمانية ويلهلم (غليوم الثاني) إلى بيروت ثم زار دمشق كان جده هذا في معيته.

أما والدته فهي شفيقة بنت سليم المكداشي (نحو ١٨٨٠ - ١٩٥٧) فكانت أمّية لا تقرأ ولا تكتب ولكنها ذات حكمة وسعي مفيد. وبالإضافة إلى البيئة العلمية لأفراد أسرة المترجَم له فإن البيت الذي نشأ فيه كان يتردد عليه طائفة من علماء بيروت المعروفين منهم: الشيخ عبد الرحمن الحوت (١٨٤٦ - ١٩١٦) فقيه بيروت في أيامه. ثم الشيخ أحمد عمر المحمصاني (؟ - ١٩٥١) عالم بيروت وخطيب محافلها الدينية والاجتماعية. وجميل العظم، عالم دمشق وأديبها وجامع أخبار المؤلفين المكثرين وتراجم النابهين (١٨٧٣ - ١٩٣٣).



وإذ كان في كنف جده فإنه تعلم منه الصلاة وقراءة القرآن والسباحة والاعتماد على نفسه بشراء حاجات البيت من السوق. يقول المترجَم له حول بداية تعلمه في المدارس:

«دخلت المدارس باكراً «مدرسة الشيخة حليمة الفيل» (في زقاق البلاط) وكنت صغيراً جداً فلا أدري أني تعلمت فيها شيئاً، ثم مدرسة لجنة التعليم (١٩٠٩) ثم دار العلوم (١٩١٠) ثم سكزنجي نمّونة (المدرسة الابتدائية النموذجية الثامنة) التابع للمكتب السلطاني (ثانوية المقاصد للبنات اليوم في البسطة التحتا (١٩١٣) ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فدخلت مدرسة لا أذكر اسمها اليوم للشيخ يوسف الحلواني (برأس بيروت قرب السفارة الألمانية اليوم) وفيها تعلمت أشياء كثيرة: القرآن الكريم، واللغة العربية، والحساب، والخطّ وأشياء من الدين والتاريخ».

في سنة ١٩١٩ دخل المترجَم له المدرسة الابتدائية التابعة بمناهجها للكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية اليوم). وفي سنة ١٩٢١ انتقل إلى الصف الثالث الثانوي في الجامعة المذكورة. وفي سنة ١٩٢٤ تخرج في الدائرة الاستعدادية،

وسنة ١٩٢٨ تخرج في الدائرة العلمية برتبة بكالوريوس علوم في نفس الجامعة.

في سنة ١٩٢٨ مارس التعليم في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس وفي السنة التي بعدها عاد إلى بيروت وارتبط بالتعليم في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية واستمر على ذلك حتى سنة ١٩٨٢. وخلال هذه السنوات تابع دراسته العالية في ألمانية وفرنسا (١٩٣٥ - ١٩٣٧) حيث درس فصلاً في جامعة برلين وفصلاً في جامعة ليبزغ وفصلين في جامعة أرلنجن وتخرج فيها برتبة دكتور في الفلسفة.

في سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ استدعي للتعليم في دار المعلمين العليا ببغداد وعُين أستاذاً للتاريخ الأموي والعباسي.

وفي سنة ١٩٤٠ تزوج آمنة بنت أمين حلمي من بيروت وله منها خمسة أبناء أسامة ومروان ومازن (استشهد برصاصة طائشة خلال أحداث لبنان) ولينة ولميس.

وما بين سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٦٠ كان أستاذاً زائراً في جامعة دمشق لمادة تاريخ المغرب والأندلس وتاريخ العلوم عند العرب.

من سنة ١٩٦٠ حتى وفاته سنة ١٩٨٧ كان أستاذاً محاضراً في جامعة بيروت العربية لمادة التاريخ العربي في جانبه الحضاري وتاريخ العلوم عند العرب.

كانت نهاية المطاف في الرحلة الدنيوية لعمر فروخ ليلة يوم السبت في السادس عشر من أكرم الربيعين (ربيع الأول) ١٤٠٨ هـ (٧ تشرين الثاني ١٩٨٧) فودعته بيروت، المدينة التي أحبها وأحبته ووقف عليها قلبه وعقله ولسانه وقلمه ومشت وراء سريره بأعيانها وحكامها وعلمائها وجموع عامتها من مختلف الطبقات الاجتماعية والطوائف الدينية داعية إلى الله عز وجل بأن يحله دار الخلد في جواره الكريم مع النبيين والصديقين والشهداء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه من عباده المصطفين الأخيار.

كان لعمر فروخ مكانه المرموق في داخل مجتمعه المحلي البيروتي كما كانت له مشاركة فعالة في المحافل العلمية داخل لبنان وخارجه. يقول عمر فروخ وهو يتحدث عن واقعات حياته: «إنني كنت أعاني الصِّلات بالمجتمع، كنت عضواً في جمعية اتحاد الشبيبة الإسلامية وفي المجلس الإسلامي فيما بعد، كما كنت في أثناء ذلك عضواً في نقابة المعلمين (بيروت) أما المؤتمرات التي حضرتها في بيروت وفي خارج بيروت في العالم الإسلامي من شنقيط (موريتانيا) إلى باكستان الشرقية (بنغلادش) فلا عداد لها. هذا إلى أنني أصبحت عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق، وجمعية البحوث الإسلامية في بومباي، (الهند) سنة ١٩٤٨، ثم عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٦١، وفي المجمع العلمي العراقي».

ويتميز عمر فروخ بملامح نفسية ومعطيات فكرية يمكن أن نلاحظها بوضوح عندما يكون هذا العالم الموسوعي موضوع بحث أو دراسة لتحديد دوره أو مكانته في عالم الثقافة والفكر والأدب، ذلك أنه استطاع أن يستقطب عاطفة الجماهير الشعبية واحترام أهل القلم والنخبة العلمية معاً، فلقد كان له في هاتين الطبقتين، على ما بينهما من تفاوت في النظرة إلى البارزين من الرجال أسباب من القبول والرضى جعلته محجة ثقافية كما جعلته في نفس الوقت مرجعاً شعبياً حتى ليمكن القول بأنه كان لعمر فروخ في الشارع والأوساط الأهلية مكانة لا تقل عن مكانته لدى الخاصة من العلماء والنابهين. وإذا كانت مكانته عند أنداده من رموز الحياة الثقافية ناتجة عن حجمة الضخم في هذه الحياة، فإن شعبيته العارمة في الأوساط الأهلية ناتجة من غير شك عن معالجته للقضايا العامة التي تتصل بهذه الأوساط فيما كان يكتبه حول هذه القضايا دفاعاً عن طموحات الناس في شؤونهم الوطنية والدينية والاجتماعية، أو تصدياً للتحديات التي كانوا يواجهونها في معاناتهم الحياتية اليومية. فلقد كان عمر فروخ من ذلك النوع من الرجال الذين سخروا طاقاتهم الفكرية والعلمية لأغراض أمتهم، ما كان يتصل من هذه الأغراض بقيمها الحضارية أو يتصل بمقوماتها الحياتية.

إن لعلم عمر فروخ أثراً في كل ميدان من ميادين التحرك التي كان يرى لنفسه دوراً توجيهياً فيها. وإذا كان التدريس العمود الفقري لجهاده وجهوده من أجل إعداد جيل يؤمن بما كان هو نفسه يؤمن به من المعطيات الدينية والوطنية فإن ما آخذ به نفسه من الاندغام والاندماج والانسجام مع التطلعات الشعبية نحو الأفضل قاده إلى اقتحام كل الفرص والمناسبات ليدلي برأيه من خلال صدى صوته أو صرير قلمه لإخراج هذه التطلعات من نطاق الرجاء إلى حيّز الواقع.

وجدير بالذكر ونحن نتحدث عن ملامح الشخصية الفكرية والشعبية لعمر فروخ أن لا ننسى بأنه كان يتحسس بإلحاح وباستمرار القضايا المتصلة بالمؤسسات الدينية الإسلامية ونشاطاتها. لذلك فإنه كانت له جولات متعددة، عبر مقالاته ومحاضراته، في الدِّراسات الفقهية والاجتهادات التشريعية والتوجيهات التنظيمية لمؤسسة الإفتاء ودوائر الأوقاف وأجهزة القضاء الشرعي. وإن كتاباته ومحاضراته في هذا الميدان كانت تعكس بصورة واضحة طبيعية نفسيته القائمة على الصدق والصراحة والجرأة، حتى إن بعض الذين تناولوا بأقلامهم سيرة حياته لم يتورعوا عن اتهامه بالتزمت الفكري والتعصب الديني،

وإنه، يشهد الله، براء من هذا الاتهام، وكل ذنبه أنه كان صادقاً مع نفسه، يؤمن بما يقول، ويقول بما يؤمن. وقليل من هم أمثاله من الرجال.

وإذا شئنا الكلام عن عمر فروخ في آثار قلمه فإن مثل هذه الصفحات من تاريخ بيروت لا تتسع لتعداد جميع هذه الآثار والمترجَم له كان مع القلم والورق قواسم متلازمة لا يكاد يفترق واحدها عن الآخر حتى قيل إن عمر فروخ ترك هذه الدنيا وهو مكب على مكتبه، وهو ممسك بقلمه فوق الورق الذي كان يكتب عليه.

ويمكن تقسيم المصنفات الي ألّفها عمر فروخ إلى خمسة ألوان لكل لون منها طابع يتميز به وهذه الألوان الخمسة هي:

١ - كتب ثقافية عامة: في الأدب العربي، والعلوم عند العرب، والفكر العربي، والتبشير والاستعمار في البلاد العربية، والأسرة في الشرع الإسلامي، وإنهاض المسلمين على أسس إسلامية سليمة وصحيحة.

كتب ذات طابع مع فكري نظري (فلسفي) وفكري عملي (علمي): في الحضارة العربية. والعلاقة بين الفلسفة العربية والفلسفة اليونانية، والحضارة الإنسانية ودور العرب فيها. وأثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى إلى التصوف في الإسلام، وعبقرية اللغة العربية، وغير ذلك.

٣ - كتب ذات طابع فكري اجتماعي: القومية الفصحى، الإسلام والتاريخ، الإسلام منهج حياة، دفاع عن العلم، دفاع عن الوطن.

٤ - كتب في التاريخ: موجز في المذاهب المختلفة في فهم التاريخ، تاريخ الجاهلية (العرب قبل الإسلام) العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، تاريخ صدر الإسلام، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط، باكستان دولة ستعيش، غبار السنين (لمحات من حياة المترجَم له)، عمر فروخ وجهوده الثقافية في أربعين عاماً (١٩٣٠ - ١٩٧١).

٥ - كتب ذات طابع أدبي: خمسة شعراء جاهليون، الكلمة في نهج البلاغة، الحجاج بن يوسف الثقفي. حياته وشخصيته الفكرية والإدارية، وكتب أخرى في الشعراء الجاهليين والإسلاميين في العصور الأموية والعباسية، وكذلك في الشعراء المعاصرين كأحمد شوقي، وإبراهيم طوقان، وأبي القاسم الشابي.

وللمترجَم له كتب مدرسية (للمراحل الابتدائية والثانوية) وله كتب ألّفها باللغة الألمانية التي كان يتقنها نتيجة دراسته في ألمانية.

يقول عمر فروخ إن له ديواناً يحتوي على مختارات من الأشعار التي نظمها منذ سنة ١٩٢٤. وإن اهتمامه عند النظم كان بالموضوعات وبالمعاني أكثر منه بالألفاظ. عنوان هذا الديوان «فجر وشفق» طبعه سنة ١٩٨١. من الأبواب التي طرقها المترجَم له في هذا الديوان: من ثنايا التاريخ، أحاديث نفس، أبيات متفرقة، من حدائق الأدب، وفيه مقطعات منقولة من الشعر الأجنبي (الانكليزية، والألمانية والفارسية) إلى النظم العربي، كما أن فيه أيضاً شيئاً من الأشعار التي نظمها المترجَم له لأغراض مدرسية (مع العلم بأن المترجَم له جمع أشعاره المدرسية في ديوان مستقل).

وجدير بالذكر أن عمر فروخ لم يكن من أنصار ما يسمى اليوم بالشعر الحديث وفي رأيه أن ما يسمى الآن الشعر الحديث ليس شعراً ولا هو حديث، إنه فعل متصف بالتحرر من الوزن والقافية، ومن شروط اللغة ومن قيود الأخلاق. ثم هو محاولة لتغطية العجز عن النظم الصحيح وعن الالتزام بقواعد المنطق، ويبدو - كما يقول المترجَم له - إن لكل واحد من هؤلاء الذين يسمون أنفسهم «شعراء حديثين» قصة نفسانية يحاول الترويج عنها بجعل الشاذّ في الحياة قاعدة، وبإلباس الفساد لباس الصلاح!.. جاء هذا الكلام في كتابه «هذا الشعر الحديث» المطبوع سنة ١٩٨٣.

ومن هنا ونحن نتحدث عن عمر فروخ ومنظوماته في ديوانه فلا علينا إذا نحن أثبتنا في هذه المناسبة قصيدته التي نظمها عندما كان معلماً في مدرسة النجاح بنابلس بعيداً عن موطنه بيروت التي برحه الشوق إليها وإلى لياليها التي كان قلبه مشدوداً إلى ذكرياتها، هذه القصيدة عنوانها «ليالي الهوى ببيروت» وقد نقلناها من كتاب «بيروت في الشعر العربي» كما نشرتها مجلة الكشاف الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٩ (١٣٤٦هـ) المجلد (٣) العدد (١و٢) لشهري كانون الثاني وشباط (رجب وشعبان).

وفيما يلي القصيد بتمامها:

لا الهوى راجع ولا ليلاته   بعد أن فارق الشجيّ ثقاته
كل يوم من الدهر برها   ن على غدره وتلك صفاته
ما على مُذْنف تذكر بيرو   ت ففاضت من الجوى عبراته
أي أرض أحق بالذكر منها   وفيها أصدقاؤه ولِداته
كلما حاول التسلّي عنها   روّعته إذا خلا ذكرياته
وإذا أمّ مسجداً لصلاةٍ   ذكّرته عهد الشباب صلاته
وإذا ما أراد نافلة   الفجر تُقطعُ ترتيله حسراته

حسنات الزمان تمحى ولكن   ليس تمحى إذا عُدّت سيئاته
لا تَلُمْ دهرك الظَّلُوم فقد تحكم في ظلمه الفريض رواته
رُب إلفٍ يربك ما شدَّ يوماً   منه أضْعاف ما ترى عاداته
إنما يحرز التجارب شخص   كثرت في حياته عثراته

• • •

باليالي الهوى ببيرو   ت هل ترجع الهوى لنا ليلاته
يا زمان الصبا ببيرو   ت ما أنصفت في هجرنا ظبياته
رُب ظبي تركته عند بيرو   ت ولكنّ في مهجتي لحظاته
إن قلبي وإن تراه جليداً   ليس تخلو من الهوى نزعاته

* * *

إن أعباء التدريس، ومعاناة التأليف، وإلقاء الخطب والمحاضرات، والمشاركة في مزدحم اللقاءات والندوات، كل هذه المشاغل، لم تصرف عمر فروخ عن خوض غمار الصحافة الأدبية ليكون رأيه مشاركاً لأهل القلم في دنيا الإعلام الأدبي والفكري. في سنة ١٩٣٨ وحتى سنة ١٩٤١ ظهرت في بيروت مجلة «الأمالي» التي أصدرها عمر فروخ بالاشتراك (في أول الأمر) مع الدكتور محمد خير النويري والأستاذ عبد الله المشنوق، والأستاذ عارف أبو شقرا، والدكتور زكي النقاش، والشاعر محمد علي الحوماني، وجميعهم الآن في جوار أكرم الأكرمين تحت رحمته. وكان أول من تخلى عنها الشاعر محمد علي الحوماني. هذه المجلة أخذت اسمها من كتاب «الأمالي» لأبي علي القالي البغدادي المتوفى سنة ٣٥٦هـ. وقد كانت مستقلة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، وكنا، ونحن نطلب العلم في الكلية الشرعية ببيروت من المداومين على مطالعتها إلى جانب مجلتيْ الرسالة لأحمد حسن الزيات والثقافة لأحمد أمين اللتين كانتا تصدران آنذاك في مصر. وقد استقطبت مجلة «الأمالي» أقلام نخبة مرموقة من الأدباء العرب والمستشرقين الأجانب الذين كانوا يمدونها بمقالاتهم دون أي مقابل.

إن عطاء عمر فروخ في مجالي الفكر والأدب وتلبيته لنداء الخير والإصلاح والوطنية والدين كان الزرع الذي جنى منه هذا الإنسان الملتزم الوفاء والتقدير عند وطنه ومواطنيه حكاماً ومؤسسات وشعباً. فلقد نال في وطنه من حكومته:

١ - وسام المعارف من الدرجة الأولى.

٢ - وسام الأرز الوطني من رتبة فارس (١٩٧١).

٣ - وسام الأرز الوطني من رتبة ضابط (١٩٨٦).

ونال من المؤسسات العلمية في بلده:

١ - جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية التي تمنحها جمعية أصدقاء الكتاب (ببيروت) على مجموع آثار مؤلف لبناني تميّزت بالجودة وصدرت باللغة العربية (١٩٧٠).

٢ - الوسام المذهب من جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت (١٩٨٠).

٣ - دكتوراه فخرية من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية (١٩٨٣).

ونال من الدول الشقيقة والصديقة:

١ - وسام نجم باكستان من رتبة قائد أعظم (١٩٦٨).

٢ - وسام الاستحقاق (أمور بنيانية من رتبة ضابط (١٩٧٧).

٣ - وسام محمد إقبال (باكستان) ١٩٧٩.

٤ - شهادة تقدير من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي «تاريخ الأدب العربي» ١٩٨٥.

وأطلقت بلدية بيروت اسمه على أحد الشوارع الرئيسية في بيروت (بمحاذاة جامعة بيروت العربية في محلة الطريق الجديدة).

أما بعد،

وقد رافقنا علامة بيروت الموسوعي عبر كلمات أوجزنا فيها سيرة عمر فروخ الذاتية ومسيرته الفكرية فإننا نرى أن ننهي هذه الدراسة بالكلمات الوفية التي قدمه بها بُعيد وفاته زميله الدكتور هشام تشابه عميد التربية والتعليم في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت وذلك حيث قال: «لقد كان عمر فروخ، رحمه الله، قبل كل شيء إنساناً مؤمناً، آمن بالإسلام إيماناً لم تزعزعه موحيات الإلحاد والتغريب التي تعرض لها جيله. وكان مواظباً على صلاته، وصام صيام العابدين والزهاد. وزكّى عن عمله وماله، وحجّ إيماناً واحتساباً، وجاهد جهاد الأبطال بفكره وقلمه عن أمته وقومه وعشيرته وأهله في بلده وتحت كل سماء... رحمه الله وطيّب ثراه».

أجل رحمك الله يا عمر فروّخ، يا صاحب الجنان النابض بالقرآن والبيان الساطع بالإشراق والإيمان، واللسان الذي لم يفتر يوماً في الدفاع عن الحق ومكافحة العدوان والبهتان.

إنك اليوم وأنت في أحشاء ثرى بيروت تعيش مخلّد الاسم في ضمير أهلها، وهم أهلك، الذين أعطيتهم الحب المقيم وأنت في جوارهم ورحابهم، وهم قد أعطوك الوفاء العميم وقد أصبحت في عليين في جوار أكرم الأكرمين.

رحمك الرحمن الرحيم يا أبا أسامة وإنك طبت حيًّا وطبت ميتاً يا سامي الذكر في سجل الخالدين.

عمر الزعنّي

هو عمر بن الشيخ محمد بن عمر الزعنّي، أعطاه أبوه الشيخ محمد اسم جده عمر على عادة أهل بلادنا بأن يعطوا الولد البكر من أبنائهم اسم جده وفاءً لذكراه وحفاظاً على توالي أسماء الأجداد في نفس العائلة.

أُسرة الزعنّي من أصل مصري، وكان الشيخ محمد والد عمر صاحب متجر للحبوب في محلة ميناء القمح في مرفأ بيروت. هذه المحلة لم تعد موجودة على أثر التغييرات التي طرأت على المدينة بعد العهد العثماني.

والدة عمر هي السيدة بهية المغربل من عائلة بيروتية معروفة بالتدين ولها مكانة اجتماعية محترمة في بيروت.

وكانت ولادة عمر في محلة زقاق البلاط ببيروت سنة ١٣١٦هـ (١٨٩٨م). نشأ في كنف عائلة متمسكة بالقيم الإسلامية وتقيم وزناً كبيراً لمبادىء الدين الإسلامي الحنيف. وكان الشيخ محمد، والد عمر على مستوى مقبول من العلم الشرعي ويتعبد الله على الطريقة الشاذلية ذات الجم الغفير من المريدين في العالم الإسلامي. وثقافته الدينية جمعت حوله كثيرين من أبناء بيروت ليفقههم في الدين ويعاونهم على حل مشاكلهم الحياتية.

بدأ صاحب الترجمة حياته عند نشأته الأولى في تلقي القرآن الكريم ومبادىء اللغة العربية في حضور الحلقات الخاصة التي كانت تنعقد في بيت المربي الشيخ أحمد عباس الأزهري أحد أعلام النهضة التعليمية في بيروت يومذاك. وعندما بلغ عمر الثامنة من عمره أدخله أبوه الكلية العثمانية لصاحبها الشيخ أحمد عباس الأزهري. وكانت هذه الكلية في محلة برج أبي حيدر حيث يقوم خزان مياه بيروت اليوم، وذلك قبل انتقالها إلى محلة الزيدانية ثم إقفالها فيما بعد.

من زملاء عمر في الكلية المذكورة، الأديب عمر الفاخوري، والشاعر عمر حمد، والأخوان محمد ومحمود المحمصاني، ومحمد عزالدين، وعبد الله المشنوق، ورياض الصلح، وعبد الغني العريسي، والدكتور مليح سنو.

وفي سنة ١٩١٤ تخرج من الكلية العثمانية حائزاً على شهادة البكالوريا أو ما يعادلها في ذلك الزمان.

منذ الحداثة ظهر ميل عمر للمطالعة، والكتابة. حتى إنه كان يلجأ إلى الاستعانة بـ«بفانوس» البلدية للقراءة في الليل عندما كانت والدته تحتاج إلى قنديل الكاز الأمر الذي أثّر على عينيه وأحوجه فيما بعد إلى استعمال النظارة الطبية.



بعد تخرج عمر من الكلية العثمانية سنة ١٩١٤ جند في الجيش العثماني وأُدخل في الكلية الحربية في حمص حيث تخرج منها بعد ستة شهور برتبة ضابط إداري أو ملازم، وعين مديراً للإعاشة الخاصة بالجيش في الشام. وبقي في هذا العمل طيلة الحرب (١٩١٤ ـ ١٩١٨) متنقلاً من الشام إلى القدس إلى بئر السبع في فلسطين، جبرها الله وردها للعروبة والإسلام ـ ولم يشترك طوال هذه المدة في المعارك الحربية.

بعد أن وضعت الحرب أوزارها عاد إلى موطنه بيروت حيث ساعد والده في تحمل الأعباء العائلية بأن مارس التعليم في عدة مدارس أهلية ومنها الكلية العثمانية التي كان من تلاميذها. ومن المدارس التي علم فيها، المدرسة التوفيقية التي أسسها الشيخ محمد توفيق خالد، مفتي الجمهورية اللبنانية فيما بعد، والمدرسة الأهلية لصاحبتها الآنسة ماري كسّاب.

أثناء وجوده في الكلية العثمانية مارس هوايته في نظم الشعر وكتابة الروايات المسرحية، وعمل على تأليف فرقة من هواة التمثيل كان يمارس معهم هذه الهواية على مسرح الكلية المذكورة ومنذ ذلك الحين أولع الزعني بالعزف على البُزق (وهو نوع من العود صغير الحجم طويل الساق) وكان ينظم الأغاني

الشعبية ويلحنها بنفسه وكذلك يغنيها هو نفسه أيضاً.

وفي سنة ١٩٢٢ عمل عمر موظفاً كمساعد قضائي في محكمة بيروت البدائية. وفي هذه الأثناء انتسب إلى كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية ببيروت مستعيناً بمنحة دراسية قدمتها له جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. في هذه المرحلة من حياة عمر الزعني نضجت نزعته إلى نظم الشعر والأناشيد والأغاني التي توحي بها الأحداث الجارية في البلاد والتطورات الاجتماعية التي عاشها المواطنون لا سيما في بيروت. وكان يشجعه في هذه النزعة الأديب البيروتي الشيخ رائف الفاخوري المتوفى سنة ١٩٥٤ الذي ألّف رواية مسرحية بعنوان «جابر عثرات الكرام». وقد مثلت هذه الرواية في مسرح الكريستال في بيروت، وشارك عمر في هذا التمثيل ببعض القصائد الاجتماعية والوطنية.

ولما كان عمر في ذلك الحين موظفاً في بلدية بيروت، والقوانين تحظر على الموظفين الكتابة والنشر في الصحف، فإنه آثر حجب اسمه عن القصائد التي كان ينشرها واستبدل به اسم أحد الشعراء الذي عاش ما بين العهدين الأموي والعباسي وهو حُنَيْن بلوع الحيري الذي كان مثله في نظم الشعر وغنائه. ومنذ ذلك الحين ظهر العدد الثاني من السنة الأولى من مجلة الكشاف وفيها الكلام التالي:

«وعد شاعر الشعب حُنَيْن بنشر أغانيه في «الكشاف» قبل طبعها على حدة، وهي بشرى نزفها إلى قرائنا الذين سيجدون في كل عدد من هذه المجلة آية من آيات شاعرنا الموسيقي المتفنّن».

وكانت أول قصيدة نشرتها له المجلة المذكورة تحت عنوان: «ما عاد في الدنيا صغير».

ولازمتها:
مصيبة كبيرة وهَمّ كبير
ما عاد في الدنيا صغير
حتى ولا مُقَمّط بالسرير.

وفي سنة ١٩٢٦ دُعي عمر الزعني لإنشاد إحدى قصائده في مسرح سينما الكريستال ببيروت بدعوة من نقابة الصحافة آنذاك، فأنشد قصيدة يصور فيها تدهور قيمة الوحدة النقدية الفرنسية «الفرنك» بعنوان «حاسب يا فرنك» وقد وجدت فيها سلطة الانتداب ما أزعجها وهزّ مكانتها وسخر من قيمة عملتها، فأوعزت إلى الحكومة المحلية بنقله من وظيفته في بيروت إلى وظيفة أخرى في البترون البعيدة عن مكان إقامته كما أشارت إلى عمدة كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية أن يحرمه من دخول الامتحانات.

والواقع أن عمر الزعني كان يرى في مقاومة الانتداب الفرنسي وما يتصل به من مؤسسات ومسؤولين محليين هدفاً للانتقاد اللاذع في شعره وأغانيه مما كلفه صدمات كثيرة في حياته وحرية تفكيره.

بعد أن رسخ الانتداب الفرنسي جذوره السياسية في المؤسسات الحكومية، وجدت تقاليد الإفرنج طريقها إلى بعض الأوساط الاجتماعية، ومن هذه التقاليد القبعة الأوروبية على الرأس. فلقد استبدلها بعض المواطنين بالطربوش، وكانت هذه الظاهرة باعثاً على نفور الفئة المحافظة من أهل البلد، وكان لعمر الزعني موقف في شعره وغنائه عبر به عن الضجة التي أثارتها تلك القبعة التي تسمى بالعامية البيروتية (البرنيطة) فنظم قصيدة عبّر فيها عن المغزى الذي ترمز إليه البرنيطة سواء بالنسبة للابسها من المواطنين أو بالنسبة للفرنسيين الحكام الفعليين للبلاد. يقول الزعني في هذه القصيدة:

ما بدها عيطة   ولا بدها شيطة
وقع المقدّر يا عيني   ولبسنا البرنيطة
العين بتبكي   والقلب بيشكي
ومين قادر يحكي   غير البرنيطة!؟..

في سنة ١٩٣٩ انفجرت القذائف المدفعية بين الحلفاء وبين دول المحور، وكانت عواطف العرب، ومنهم اللبنانيون، مع المحور (المانية وإيطالية وحلفائهما) ضد الحلفاء (إنكلترة وفرنسا وحلفائهما) ولقد عبر عمر الزعني عن هذه العواطف بقصيدة لا تخلو من روح الشماتة بالحلفاء الذين مُنوا انذاك بهزائم عسكرية، لا سيما على الجبهة الليبية المصرية فراح يقول:

يلا مسيو، يلا مستر (أي بلا فرنسا وبلا انكلترة)
يلّا برّا هيْدي سكتر (تعبير تركي بمعنى اخرج).
المجد في السما لألله
وعلى الأرض المجد لهتلر (وهتلر هو المستشار الألماني).

هذه القصيدة شاع ترددها وذاع وملأ الأصقاع والأسماع وأصبحت على كل لسان داخل البيوت وفي الشوارع وتحت أروقة المنتديات في جميع أنحاء البلاد.

في سنة ١٩٤٢ التقى عمر الزعني في مستشفى الدكتور محمد خالد بالسيدة بهية ضياء الحمزاوي فوجد فيها المرأة التي تصلح زوجة له وسرعان ما تم الزواج بينهما على الرغم من أنه يكبرها بخمس وعشرين سنة وقد رزق الله الزعني من زوجته بولد

سماه محمداً على اسم جده (أي جد المولود) وبنتاً سماها دلال.

ولقد وجد عمر الزعني في محطة الشرق الأدنى التابعة للإذاعة البريطانية اهتماماً بقيمته الأدبية والشعرية، فتعاقد معها على إذاعة منظوماته وأغانيه، وبالإضافة إلى عمله في هذه الإذاعة فإنه كان يلبي طلبات الفنادق السياحية في بيروت والجبل التي كانت تقيم له الحفلات المتعاقبة لإثارة الناس إلى أن يقصدوها مفيدة من مكانته لديهم وتشوقهم إلى الاستماع لأغانيه وأناشيده الانتقادية اللاذعة التي كانت في بعض الأحيان سبباً في غضب الحكام وإحالته إلى المحاكم وأحياناً الحكم عليه بالسجن.

وأخيراً كانت خاتمة رحلة عمر الزعني في هذه الحياة الدنيا يوم السبت ١١ شباط (فبراير) سنة ١٩٦١ (١٣٦١هـ) عندما كان في مستشفى الدكتور محمد خالد ببيروت للمعالجة من الداء الذي ألمّ به، رحمه الله وأحسن إليه في أخراه بقدر ما أحسن إلى أمته ودينه وبلده عبر قصائده وأناشيده وأغانيه وأدبه.

إن غياب عمر الزعني عن أهل زمانه وبلده لم يجعل للنسيان سبيلاً إليه. فلقد كان بالنسبة لبيروت ودمشق والقاهرة «شاعر الشعب» وهو اللقب الذي رافقه حيًّا حاضراً وميتاً غائباً. وتوالت الأقلام على الكتابة عنه، والتنويه بأسلوبه الشعري الذي كان تعبيراً جريئاً وصريحاً ولاذعاً للأوضاع السياسية والاجتماعية في زمانه. صحيح أن عمر الزعني غلبت عليه نزعة الانتقاد التي كانت في الواقع تعكس مشاعر التشاؤم التي كانت تتحكم به وتغلب عليه، إلا أنه لم يكن في بعض الأحيان يبخل على أهل الفضل والوطنية والإحسان والإصلاح بالقصائد التي تنوّه بهم وتشيد بمزاياهم وجميل سجاياهم.

وخلاصة القول فيه أنه كان وطنيًّا يؤمن بالعروبة وتعمر قلبه روح الإيمان بشريعة الإسلام. وإن عمر الزعني، على أي حال، كان اللسان البليغ الذي صور هموم الناس ومتاعبهم، وكشف الستار عن الخلفيات السلبية لبعض المتوسدين أرائك السلطة، من الأجانب والوطنيين، ولم تغب قصائده عن الأحداث والوقائع التي عاشها العرب في صراعهم الصامد للقوى الاستعمارية التي جثمت على حياتهم وحريتهم وأوطانهم.

رحم الله أبا محمد عمر الزعني، القيثارة الشعبية التي صدحت أوتارها بآلام الناس وآمالهم حتى الرمق الأخير من حياته.

الشيخ عبد الله العلايلي

خلافاً للعادة المألوفة التي يلتزم فيها الكتاب أن لا يتناولوا ترجمة النابهين وهم على قيد الحياة، فإننا رأينا أن نقدّم لأهل زماننا والذين سيلونهم من بعدهم في الأزمنة القادمة الشيخ عبد الله العلايلي الذي شد اهتمام أبناء عصره له وأخذ يُجمع انتباههم لما يصدر عن لسانه من قول أو يراعه من رأي. وما تكاد ندوة للفكر تجتمع عروتها على نخبة من العلماء إلا ويكون الشيخ عبد الله العلايلي واسطة عِقدها بشخصه أو موضوع بحثها حول دراساته ومؤلفاته.

وإذ كان اسم الشيخ عبد الله العلايلي قد رافق اسم بيروت التي أنجبته وعايشته في معارج ارتقائه إلى سدة إمامة اللسان العربي واطمئنانه المكين على أريكة البيان المشرق في هذا اللسان، فإنه من حق هذا العالم المفرد علينا أن نقدمه في كتابنا عن بيروت بأنه أحد المعالم التراثية في هذه المدينة حيًّا في حاضرها، وخالداً في مستقبلها. وإن اسمه، سيبقى دائماً كما هو اليوم عنواناً مشرقاً بأمجد المزايا العلمية في سجل التاريخ الثقافي لأمة العرب في عصرها الحاضر. وفيما يلي السيرة الذاتية للشيخ عبد الله العلايلي ونحن اعتمدنا في بعضها على ما خطه بيمينه عندما تكرم به علينا يوم طلبناها منه قبل سنوات، وأثبتنا فيها ما عرفناه عنه من خلال أحاديثه معنا وما كتبه عنه الآخرون ممن عُنوا بسيرته وعلمه وأحواله.

قال حفظه الله في مقدمة ترجمته لنفسه وهي بخطه عندنا:

«في محلة من مدينة بيروت «العتيقة» كانت تعرف باسم «الثكنات» وهي القسم الواقع اليوم بين بناية البريد المركزي والسراي (مقر الحكومة اللبنانية سابقاً) ولدتُ سنة ١٩١٤.

وأسرة العلايلي قديمة العهد ببيروت، فهي ترقى إلى القرن الحادي عشر الهجري كما تثبت شواهد القبور التي عُثر عليها اتفاقاً في حفريات منطقة الريفولي (حيث كانت مقبرة الخارجة) وهي محفوظة لدى المترجَم له، كما لديه بحث مستفيض عن أصل الأسرة ومصدر اسمها ومسارات انتقالاتها وفروعها هنا وهناك.

ويغلب على ظننا أن أُسرة العلايلي أخذت اسمها من نسبة أجدادها إلى بلدة علايا الكائنة بالأناضول (تركية) والمعروف أن الأتراك يضيفون إلى آخر اسم البلد المقطع «لي» للنسبة إليه فتكون أسرة العلايلي قد حملت اسمها من نسبة أجدادها إلى البلدة المذكورة التي قد يكونون من أهاليها بالأصل، وآل العلايلي من الأسر القديمة والعريقة في بيروت لها حيّز مرموق في الأوساط التجارية، وقد ساهم بعض أفرادها في عمارة المساجد من هؤلاء الحاج علي العلايلي عم المترجَم له الذي وقف أرضاً له في محلة رأس النبع الشرقي وهي التي بُني عليها جامع الحسنين المعروف بجامع العبيد أو الجامع الأبيض. وللشيخ مختار العلايلي شقيق الشيخ عبد الله مكانة دينية محترمة وكان رحمه الله أميناً للإفتاء في لبنان حتى آخر عمره ولقد أدركناه شخصياً وكنا من تلاميذه في الكلية الشرعية في بيروت.



بدأ الشيخ عبد الله العلايلي نشأته الأولى. كما يقول، في مدارس كانت أشبه بالكتاتيب. من ذلك كُتّاب المعلم عيسى كتوعة وكان قرب الجامع العمري الكبير، ومنه انتقل إلى كُتّاب الشيخ نعمان الحنبلي التي عرف أيضاً باسم المدرسة السورية وكان في محلة الخندق الغميق. وانتقل بعده إلى كُتّاب الشيخ مصطفى زهرة في منطقة زقاق البلاط. وفي سنة ١٩٢٠ التحق بمدرسة الحرج الابتدائية التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية وكانت أبرز المدارس الإسلامية الأهلية آنذاك. وظل في هذه المدرسة حتى سنة ١٩٢٣. وفي سنة ١٩٢٤ توجه قاصداً إلى الجامع الأزهر الشريف في القاهرة برفقة شقيقه الشيخ مختار وظل يتابع الدراسة في هذا الجامع حتى سنة ١٩٣٥. وأخذ عن الجلّة من الشيوخ أمثال: الدسوقي العربي، ومحمد نجيب المطيعي، ويوسف الدجوي، وسيد علي

المرصفي، والسملّوطي، وأحمد عيسى الشرقاوي، ومحمد العربي. وعفيفي عثمان. وعلي محفوظ، إلى كثرة كاثرة من عيون علماء ذلك العصر.

في سنة ١٩٣٦ عاد الشيخ عبد الله العلايلي إلى بلده بيروت وانصرف للوعظ والإرشاد في الجامع العمري الكبير، وداوم على ذلك حوالى ثلاث سنوات. وكان في أثناء ذلك يطرح آراء حول قضايا إصلاحية في رسائل مثل: المفتي والفتوى، والأوقاف، والمحاكم الشرعية. وخلال دوامه على إلقاء الدروس في الجامع المذكور، انصرف إلى إعداد كتابه المتميز «مقدمة لدرس لغة العرب» الذي استقبلته أوساط العاملين في فقه اللغة العربية باهتمام كبير لما تضمنه من طروحات تنم عن تمكن المترجَم له من ناصية اللسان العربي والقدرة على تطوير مفردات اللغة العربية وفق ما تقتضيه علوم العصر وتقنياته المستحدثة.

إن المخاضات السياسية والوطنية والقومية التي عاشتها البلاد العربية خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وما بعدها كانت لها انعكاساتها في فكر الشيخ عبد الله العلايلي وعلى قلمه، وكذلك كانت حافزاً له على دخول معترك الحياة الحزبية في بلده، لذلك ظهرت له عدة رسائل توجيهية واجتماعية وسياسية تحت عنوان «إني أتهم»، كما ساهم في وضع لوائح الأحزاب التي ظهرت آنذاك، مثل: النجادة، والحزب التقدمي الاشتراكي، وحزب البعث العربي الاشتراكي وغيرها.

ولقد لفت الشيخ عبد الله نظر المؤسسات العربية ومجامع اللغة العربية التي رأت الإفادة من علمه وفكره ونشاطه. ففي سنة ١٩٥٢ انتدبته جامعة الدول العربية كمستشار عند طرح موضوع «الزكاة في الإسلام» وبدعوة من لجنة الثقافة التابعة للجامعة المذكورة برئاسة الدكتور طه حسين عين الشيخ عبد الله العلايلي عضواً في اتحاد مجامع اللغة العربية الذي انعقد في دمشق.

وفي سنة ١٩٥٦ انتدبه اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش اللبناني للمساهمة في وضع المعجم العسكري (للمصطلحات العسكرية) وهي المهمة التي لازمها من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٨، وكانت حصيلتها أربعين ألف كلمة، وقد تولى الجيش اللبناني طباعة هذا المعجم الذي اعتمدت عليه جامعة الدول العربية عندما أرادت توحيد المصطلحات العسكرية لجيوش الدول العربية الأعضاء فيها.

وللشيخ عبد الله العلايلي العشرات من الكتب التي ألّفها في موضوعات مختلفة، بعضها في فقه اللغة العربية، وبعضها في المعاجم اللغوية، وكتب أخرى كثيرة تناول فيها شؤون المجتمع العربي اللبناني من خلال توجهاته الوطنية والسياسية. وإنه يمكن القول بأن هذه الكتب يمكن أن تعتبر لوحدها مكتبة قائمة بذاتها لتنوع مادتها وتعددها وكثرتها. ولو أردنا إحصاء جميع ماألّف المترجَم له في هذه الدراسة لاقتضانا ذلك الصفحات ذوات العدد. على أنه إذا أعجزنا هذا الإحصاء فإنه لا بد لنا من التنويه ببعض الكتب التي استقطبت اهتمام أهل القلم، سواء في لبنان والبلاد العربية أو في الأوساط الأجنبية.

من ذلك:

- «مقدمة لـدرس لغة العرب» طبع هذا الكتاب في المطبعة العصرية في صيدا سنة ١٩٣٨. وقد تداولته بالبحث والتعليق والنقد أهم الصحف آنذاك، من يومية وأسبوعية وشهرية كالأهرام والمصري والبلاغ والدستور والرسالة والمقتطف والهلال ومجلة التربية الحديثة واهتم به اهتماماً خاصاً المستشرق الألماني الدكتور فيشر والمستشرق التشكوسلوفاكي الدكتور پاول كراوس والباحث العراقي الأب أنستاس الكرملي وإسماعيل مظهر والشيخ عبد العزيز البشري وعلي الجارم إلى جمهرة أخرى من كبار العلماء الباحثين في ميدان فقه اللغة العربية وآدابها.

- «دستور العرب القومي» طبع هذا الكتاب المكتبة العصرية في مصر لصاحبها إلياس أنطون إلياس، وكان مصدراً لكثيرين من عُنوا ببحث القومية العربية، من عرب وأجانب.

- «المعجم الكبير» طبع مطبعة الريحاني في بيروت سنة ١٩٥٤ وهو يتألف من أربعة وعشرين مجلداً، كل مجلد يتألف من ستة أقسام، على أنه لم يصدر منه سوى أربعة أقسام من المجلد الأول فقط.

- «المرجع» وهو معجم وسيط طبع دار المعجم ببيروت سنة ١٩٦٣.

- «المعرّي، ذلك المجهول»، طبع هذا الكتاب مجلة الأديب لصاحبها ألبير ديب، وذلك سنة ١٩٤٤.

- «الحزب بوتقه تصنع الأمة»، طبع مطبعة بعيون في بيروت سنة ١٩٤١.

- «تهذيب المقدمة اللغوية» بعناية الدكتور أحمد علي، منشورات دار النعمان ببيروت سنة ١٩٦٨.

وهناك كتب أخرى صنفها المترجَم له لم تزل مخطوطة مثل كتاب «مدخل لتفسير القرآن (الكريم)» وهو في جزءين كبيرين.

لم يكن للشعر سلطان مهم في الحياة الأدبية للشيخ عبد الله العلايلي، لذلك لم نعرف له ديواناً يضم منظوماته من القصائد

على نحو ما هو مأثور عن الشعراء التقليديين الذين يلتزمون عمود الشعر في قصيدتهم وقافيتهم. إلا أن إنساناً في إهاب هذا الأديب الكبير والعالم الفذّ لا بد له من لفتات حرّى تعبر عما يجيش به صدره من آلام قومه وآمالهم، لذلك نجد الشيخ عبد الله العلايلي يطلق بعض القصائد الوجدانية التي أخذت سبيلها إلى الظهور في مجموعتين اثنتين لا ثالث لهما. وهما:

١ - «رحلة إلى الخلد»: وهي ملهاةً على نسق المعراج، تقع في نحو ألف وخمسمائة بيت ترجم قسماً منها بالفرنسية المستشرق إميل درمنغهام صاحب كتاب «حياة محمد».

٢ - قصائد دامية الحرف بيضاء الأمل تحت عنوان «من أجل لبنان» نشرها سيمون عواد عند مؤسسة أ. بدران وشركاه للطباعة والنشر في بيروت، وقد قدمها الناظم بكلمة عاطفية ضمنها قوله:

«وإن كان «رد الفعل على قدْر الفعل» فأحداث لبنان الفانية كان رد فعلها عندي. هذه القصائد، على أني لست بشاعر وما ينبغي أن أكون لولاها...»

والمقصود بأحداث لبنان الحرب الأهلية التي عصفت بهذا البلد من سنة ١٩٧٤ حتى سنة ١٩٩١.

والشيخ عبد الله العلايلي حفظه الله تعالى لم يقعده تقدم السِّنّ عن الإمساك بعنان الكتابة، فهو حتى اليوم يمد الصحف والمجلات التي تتلقى حصاد شباة قلمه وعصارة زبدة فكره بمزيد من العناية والاهتمام. وتحل أبحاثه ومقالاته محل الصدارة في صفحاتها الأولى.

وإن غزارة علم الشيخ عبد الله العلايلي وكثافة دراساته المنشورة جعلته مصدراً حيًّا لا يستغني عنه الباحثون والمحققون في زماننا. ونظراً للدور الريادي لمصنفاته القيمة فإنه حاز جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية التقديرية لأحسن المؤلفين سنة ١٩٦٢. كما منح وسامَيْ الأرز الوطني أحدهما من رتبة فارس سنة ١٩٥٤ وثانيهما من رتبة ضابط سنة ١٩٦٣.

وقبل أن نرفع القلم عن سيرة الشيخ عبد الله العلايلي ومسيرته حريّ بنا أن نجعل خاتمة كلامنا فيه الإشارة إلى أن هذا العالم البيروتي قد جعل من فتوحاته اللغوية ومبادراته الأدبية وتوجّهاته الوطنية والاجتماعية أجنحة ارتفعت بها مدينته بيروت إلى السماك الأعلى في محافل الفكر الإنساني حيث كان لهذا الفكر مقام واهتمام. وفي كلمة كتبها الكسندر سميرنوف المستشرق الروسي في الكتاب الذي أصدره اتحاد الكتاب اللبنانيين تحت عنوان «الشيخ عبد الله العلايلي مفكراً ولغوياً وفقيهاً» يقول هذا المستشرق:

«يأتي اسم الشيخ العلامة عبد الله العلايلي في طليعة العلماء العرب المعاصرين الذين يستند إلى أبحاثهم ومؤلفاتهم الباحثون السوفيات في حقل الاستعراب... إن المستعربين السوفيات إذ يتابعون بشغف كل عمل جديد من أعمال العلايلي، يتمنون له عمراً مديداً ومزيداً من الإبداع والعطاء العلمي في خدمة تقدم الشعوب العربية والتعارف المتبادل بين الشعب السوفياتي والأصدقاء العرب.

ومن أفضل ما شهد به العلماء المعاصرون على أهمية الشيخ عبد الله العلايلي وتأثيره في إحياء اللغة العربية وتجديد حضورها في أمة العرب تلك الشهادة التي أثبتها الدكتور رمزي البعلبكي عند كلامه على «النظرية اللغوية عند العلايلي» حيث قال:

«من منن الله على العربية أنه سبحانه وتعالى، لا يفتأ يبعث من يحيي هذه اللغة الشريفة في نفوس أبنائها، وينهض بها لتستقيم في معترك البقاء على نقاوة في التشذيب ولدانة في التخيّر واندفاع في التوثب. ولا جديد في القول إن الشيخ العلايلي هو محيي العربية على رأس هذه المائة، «فهو المقدمة» وهو «المرجع» ومنه الفكر والنظر والاقتراح والبرهان».

بهيج عثمان

إن حياة بهيج عثمان هي نموذج للإنسان الذي توأم بين قلبه وعقله وجعلهما في خدمة موطنه ومجتمعه والقيم الأخلاقية والدينية والإنسانية التي راض عليها نفسه ومصيره. وجدير بهذا النموذج من الرجال أن نقدمه للذين يريدون التعرف على بيروت في تاريخها وحضارتها وعمرانها على أنه صورة ناطقة بأصالة انتمائه إليها. وبكلمة أخرى، إن بهيج عثمان كان في حياته جزءاً لا يتجزأ من هذه المدينة التي عانقته بحنانها وحبها إبان حياته وطوقته بتقديرها ووفائها بعد أن ودعته وأصبح وديعة في جوار خالقه أكرم الأكرمين. فمن هذا هو البيروتي العريق.

بهيج عثمان: ولد سنة ١٩٢١ في بيروت.
والده: سليم عثمان.
والدته: بدرية المصري.
زوجته: صَدُوف كمال.
أبناؤه: طارف وسيما.

أبصر النور في بيئة عائلية من أوساط الناس ولم يكن لهذه البيئة ما يدل على أن المترجَم له سيؤتى حظاً بعيداً من النباهة والإبداع وقوة الشخصية كما حصل له بالفعل في مستقبل حياته.

بدأ بهيج عثمان علومه الأولى في مدارس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت وبقي في هذه المدارس حتى بلغ فيها الصف الثالث الابتدائي. وهنا نترك الكلام للدكتور عمر فروخ ليحدثنا عن المنعطف الرئيسي لانتقال المترجَم له من مدرسة الحرش (الحرج) التابعة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية إلى الكلية الشرعية، المدرسة الدينية الإسلامية الأولى من نوعها في بيروت.

يقول الدكتور عمر فروخ تحت عنوان (حياة رجل):

«... في العام المدرسي (١٩٣٢ - ١٩٣٣) جاء إليّ الشيخ محمد توفيق خالد (مفتي الجمهورية اللبنانية) في ثانوية الحرج (المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت) وقال لي إنه يريد إنشاء مدرسة للعلوم الدينية تعد الطلاب لدراسة الفقه، لأن المسلمين في لبنان في حاجة إلى نفر من «المشايخ الفقهاء». في ذلك الحين اتفق أنه كان في الصف الثالث الابتدائي من ثانوية الحرج نفر من التلاميذ النجباء... وقفت قليلاً أتساءل: أي الخيارين أكثر نفعاً للأمة: إخلاء هذا الصف من تلاميذه النجباء في سبيل إعدادهم ليكونوا مشايخ فقهاء، أو الإبقاء عليهم حيث هم! لقد وجدت أن «الشيوخ الفقهاء» أكثر نفعاً. فقلت للشيخ محمد توفيق خالد: قارب التلاميذ الموجودين في الصف الثالث الابتدائي».



وكان بهيج عثمان في جملة التلاميذ النجباء الذين وقع عليهم الاختيار ليكونوا طليعة «المشايخ الفقهاء». وشكل هؤلاء التلاميذ الرعيل الأول من طلاب الكلية الشرعية، التي تحولت فيما بعد إلى كلية فاروق الأول الشرعية ثم إلى ما يسمى الآن «أزهر لبنان». في هذه الكلية، وفي سنة ١٩٣٤ بالضبط بدأت رحلة بهيج عثمان مع الدراسة الدينية وعلى رأسه العمامة وعلى عاتقه الجبة الزي الديني التقليدي. وكان أساتذته في هذه المرحلة أعيان العلماء الذين انتقلوا جميعهم إلى رحمة ربهم وهم:

الشيخ محمد توفيق خالد: رئيس الكلية (مفتي الجمهورية)
الأستاذ محمد عمر منيمنة: المدير
الشيخ مصطفى الغلاييني: أستاذ التفسير
الشيخ عبد الرحمن سلام: أستاذ التوحيد
الشيخ أحمد عمر المحمصاني: أستاذ السيرة النبوية
الشيخان حسن المكي وتوفيق البابا: للقرآن الكريم (تلاوة وحفظاً)
الشيخ رائد عليوان: أستاذ قواعد اللغة العربية

الأستاذ منير غندور: أستاذ اللغة الفرنسية
الشيخ رائف الفاخوري: أستاذ الأدب العربي
الشيخ صلاح الدين الزعيم: الناظر والمربّي

وجميع هؤلاء الأساتذة من بيروت ما عدا الشيخ صلاح الدين الزعيم فهو من دمشق.

وكانت غاية الكلية كما حددها الشيخ رائف الفاخوري: أن تنشىء «النمط الأوسط» من رجال الدين المسلمين الذين يجمعون بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وذلك بالإضافة إلى تخريج نفر من «المشايخ الفقهاء» كما كانت غاية مؤسسها الشيخ محمد توفيق خالد رحمه الله.

السنوات الأربع التي أمضاها بهيج عثمان في الكلية الشرعية وهو يتعثر بثوبه الديني الفضفاض أصبحت في ذمة الماضي عندما انتقل المترجَم له إلى مصر حيث اختار متابعة الدراسة في كلية الآداب (قسم اللغة العربية) في جامعة فؤاد الأول التي أصبح اسمها بعد الانقلاب الناصري سنة ١٩٥٢ «جامعة القاهرة». وبدلاً من تخرّجه من الجامع الأزهر كما كان مفروضاً فإنه تخرج من جامعة فؤاد الأول حاملاً إجازة كلية الآداب بامتياز من هذه الجامعة سنة ١٩٤٢، وعاد إلى بيروت لينخرط في جوها الأدبي مبتدئاً رحلته في عالم الوظيفة الحكومية مذيعاً في الإذاعة اللبنانية وكان اسمها في ذلك الحين راديو الشرق. وترك العمل في هذه الإذاعة بعد حوالى سنة من دخوله فيها - في آب ١٩٤٣ لأن السلطة الفرنسية التي كانت تشرف عليها اعتقلت أعضاء الحكومة اللبنانية وعلى رأسهم الزعيم رياض بك الصلح ورئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري.

وانسجاماً مع تطلعاته الأدبية عمل في الصحافة الأدبية سكرتيراً لتحرير مجلة الأديب التي أنشأها الأستاذ ألبير أديب.

وفي سنة ١٩٤٥ آثر الاستقلال في ميدان النشاط الأدبي فأنشأ مع فريق من إخوانه داراً للنشر باسم: «دار العلم للملايين» ومجلة أدبية باسم «الآداب».

وفي خلال تمرسه بالعمل في دار النشر وفي المجلة لبى رغبة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد توفيق خالد بالتدريس في الكلية الشرعية بالإضافة إلى الكلية الداودية في عبيه، وفي كلية الآداب بالجامعة اللبنانية حيث كان يدرس في هذه المعاهد المذكورة مادة الأدب العربي.

وفي سنة ١٩٥٢ أصدرت الحكومة اللبنانية مرسوماً بتعيين المترجَم له رئيساً لمصلحة الدوائر الإدارية بوزارة التربية الوطنية إلا أنه اعتذر عن قبول هذا المنصب الحكومي مؤثراً الاستمرار في ممارسة عمله الحر في التدريس والاهتمام بمجلة «الآداب» إلى جانب عمله مع زميله ورفيق دربه الأستاذ منير البعلبكي في مؤسسة دار العلم للملايين.

وعندما قرأ في الصحف نبأ تعيينه رئيساً لمصلحة الدوائر الإدارية في وزارة التربية الوطنية بادر على الفور إلى إعلان رفضه لهذه الوظيفة بالبيان التالي:

«قرأت في التشكيلات الحكومية الجديدة نبأ تعييني رئيساً لمصلحة الدوائر الإدارية في وزارة التربية الوطنية وإني إذ أشكر صديقي الدكتور سليم حيدر (وزير التربية الوطنية) والدكتور نجيب صدقة (مدير الوزارة) على حسن ظنهما فيّ، أعتذر عن قبول أي منصب من المناصب الحكومية التي أراني زاهداً فيها كل الزهد. وخاصة إذا كان هذا المنصب يختلف عن نوع اختصاصي وطبيعة عملي.

وعلى كل حال إذ أواصل العمل في دار العلم للملايين أؤدي رسالة لعلها لا تقل خطراً وأثراً عن وزارة التربية الوطنية فيما تنشر الدار من كتب ومجلات. وما يلتقي على صفحاتها من قراء ينهلون أطيب ألوان المعرفة وأنضجها ثمراً وأصدقها توجيهاً».

وقد لبت الحكومة رغبته وصرفت النظر عن تكليفه بالوظيفة التي اعتذر عن قبولها.

ولقد رأى فيما بعد أن يتخلى نهائياً عن ممارسة التدريس سواء في الكلية الشرعية في بيروت أو المدرسة الداودية في عبيه أو كلية الآداب في الجامعة اللبنانية لينصرف كليًّا إلى إدارة «دار العلم للملايين» والتعاون مع بعض نظرائه من العلماء والأدباء في إصدار بعض المؤلفات المدرسية، وقد كان له عدة مؤلفات في هذا الميدان أصدرها بالاشتراك مع الأستاذ منير البعلبكي والأستاذ شفيق جحا، ومن أهم هذه المؤلفات كتاب «المصور في التاريخ» في أحد عشر جزءاً. وهذا الكتاب اعتمدته وزارة التربية الوطنية ليدرس بصورة رسمية في المدارس الحكومية.

لقد كان لبهيج عثمان التفاتة ملحة نحو العمل الاجتماعي من خلال نزعته الإنسانية النابعة من ضميره الديني.وكانت مؤسسات الرعاية الاجتماعية التي أسسها ورأسها رجل البر والخير الدكتور محمد خالد الميدان الذي اطمأن إلى العمل فيه ولم يترك هذا الميدان إلى أن ترك الحياة الدنيا. وإن من يقلب نظره في سجل الأعمال الإنسانية والخيرية لهذه المؤسسة فهو يجد فيها البصمات الدالة على جهود المترجَم له في مسيرتها وهي تؤدي رسالتها البارّة في خدمة الذين هم في حاجة إلى هذه الخدمة.

وفي ذلك يقول زميله ورفيق دربه منير البعلبكي وهو يبكيه بعد وفاته..

«. . . وفي مجال الخدمة العامة، سلخت نحواً من أربعين عاماً في خدمة الإنسان في لبنان. فكفكفت دموع اليتامى وبلسمت جراح المنكوبين، وخففت آلام المعذّبين في الأرض. وإن في كل ركن من أركان مؤسسة الخدمات الاجتماعية، وكل زاوية من زواياها أثراً يدل عليك وانطباعة تذكّر بك».

أما الكتاب، فإن بهيج كان من أفضل المبتكرين لسدانته ورعايته في ميدان طبعه ونشره وتسويقه. وعلى الرغم من أن هذا الميدان كان يكتظ باللاهين وراء الثراء المادي الذي وجدوا فيه ما يجرض له لعاب طمعهم إلى المال بصرف النظر عن القواسم المشتركة بين موضوع الكتاب نفسه وبين رسالة هذا الموضوع وفائدته للصالح العام، خلافاً للمترجَم له الذي كان عمله في مؤسسة دار العلم للملايين تجسيداً صادقاً لإيمانه الوطيد بأن هذه المؤسسة ليست دكاناً تجارية تهدف إلى إنماء ثروة أصحابها وإنما هي وسيلة شريفة لخدمة مثلثة الجوانح والجوانب، خدمة المؤلف الموثوق بعلمه وقيمة كلمته وخدمة الكتاب النافع بمادته وموضوعه وخدمة القارىء الذي ترتفع به ثقافته إلى مستوى المعرفة المحصنة بالأخلاق الفاضلة والفكر الناضج.

هذا هو البرزخ الذي عاشه بهيج عثمان منذ أن أسس مع رفيق عمره ودربه الأستاذ منير البعلبكي دار العلم للملايين سنة ١٩٤٥ حيث سلخ أربعين عاماً في خدمة الكتاب العربي، فوفّق بجهده الذي لا يتعب إلى أن يجعل من هذه الدار صرحاً شامخاً من صروح المعرفة والثقافة، وحقّق ما كان يحلم به من صيرورة الكتاب العربي عالمي السِّمات مشعًّا كمثل ضياء الشمس، في كل صقع من أصقاع الدنيا.

وهنا لا بد للحق والانصاف من قولة نسجلها لمؤسسة «دار العلم للملايين» في أنها غدت من معالم بيروت في الوثبة العصرية لهذه المدينة الدهرية، ذلك أن هذه المؤسسة بمستوى التأليف الذي بلغت إليه كتبها وبالانتشار الذي لقيته تلك الكتب في العالم العربي، باتت من أكبر دور النشر العربية وفي طليعتها أثراً، وإن هذه المكانة التي ارتفعت إليها دار العلم للملايين كانت راجعة أولاً بالذات، إلى الاحترام المتبادل بين صاحبيها بهيج عثمان ومنير البعلبكي وبين الأدباء والعلماء الذي يعهدون إلى مؤسستهما بما يؤلفونه من كتب وهم مطمئنون إلى حسن الرعاية لها وأمانة التعاون معهم.

كان بهيج عثمان في مؤسسة «دار العلم للملايين» ناقداً للكتاب أكثر مما كان متاجراً به، ولذلك كان يتلهف لنشر الكتاب الجيد، ويحنق على الرقيب الحكومي الذي يحرم منه القارىء هكذا وصفة زميله في الدراسة ورفيقه في دروب الفكر والعلم والأدب الدكتور حسن صعب رحمه الله.

وإذا كنا ننقل ما كتبه الآخرون عن علاقة بهيج عثمان بالكتاب ومؤلفه ومادته فلا علينا أن ننقل أيضاً، ومن باب اولى، ما قاله هذا الناشر النصوح عندما سأله أحد الصحافيين: ما هو دور الكتاب العربي بالنسبة إلى المثقف العربي. فكان جوابه:

«من المفروض أن يؤدي الكتاب العربي الرسالة التي تؤديها أي قناة من أقنية الثقافة المعروفة، وهي في رأيي دفع الإنسان العربي المؤهل لأن يعيش عصره الحالي، الذي هو عصر العلم والتكنولوجيا، وعصر حضارة الكمبيوتر، ولكن هل يقوم الكتاب اللبناني في الوقت الحاضر بأداء هذه المهمة أداءً صحيحاً كاملاً، الجواب على ذلك: لا، لأن هناك عوائق كثيرة تحول بينه وبين تنفيذ مهمته، أول هذه العوائق هو الرقابة الموجودة في البلاد التي يذهب إليها الكتاب اللبناني، وثانيها، أن القارىء العربي نفسه ليس مستعداً حتى الآن لتقبّل الكتاب الهادف الذي يحمل إليه رسالة علمية محددة، بل ما يزال يؤثر عليه ويفضل الكتاب الذي يحمل إليه المتعة والتسلية، أو الذي يحمل إليه برنامجاً من برامج الدراسة التي تساعد هذا القارىء على اجتياز الامتحان. . .»

وعلى هذا الأساس من الأخلاق المناقبية كان المترجَم له أحد مؤسسي نقابة الناشرين في لبنان التي اختاره أعضاؤها نقيباً لهم عام ١٩٧٥ حيث تخلّى عن هذا اللقب مختاراً لينصرف إلى أعماله في ميدان البرّ والنشر، ملازماً الدكتور محمد خالد في جميع أعماله الخيرية، لا سيما المؤسسات الاجتماعية. وقد منحته الحكومة اللبنانية وسام الاستحقاق اللبناني من رتبة فارس تقديراً لخدماته في حقلي التعليم والنشر، وفي مجالات الخير والمبادرات الاجتماعية والإنسانية النافعة، كما حاز على وسام المعارف من الدرجة الأولى لدوره البناء في خدمة أهل العلم والارتفاع بالكتاب اللبناني إلى مراتب الاهتمام والتقدير في العالم العربي.

واليوم إذ شرع يراعي بالكتابة عن واحد من ألمع حبات العقد الثمين من لداتي ورفاق مدرستي. فإني أحسّ بالفراغ الكبير الذي تركه بهيج عثمان في غيابه السريع عن عطائه السّخيّ في محيطه الإسلامي وبيئته البيروتية ومؤسسته الثقافية، ذلك أنه، وسعته رحمة ربه، كان في هذه المجالات كلها، ومعها ما يتصل بها من روادف الخير والبرّ والإصلاح والإنماء دائم الحضور بلا تردّد ولا تأفف ولا فتور، سواء بيده، أو بذهنه، أو بماله؛ أو بحنانه أو بلسانه أو بعلمه، ذلك أنه رحمه الله كان يعيش تطلعات أمته ويتحسّس هموم بلده مدركاً أن حاضر المسلمين يمر في مخاض التحدي التاريخي وأن مستقبلهم رهين باستجابتهم لهذا التحدّي بكل ما يملكون من قُدُرات على

جميع المستويات المتاحة في صفوف النخبة منهم.

عليك يا أبا طارف من الله الرحمة والرضوان كفاء ما قدمته في حياتك لأمتك من الإحسان، وما أعطيته من ذوب مهجتك من أجل بلدك بيروت ووطنك لبنان.

أما بعد. . .

إن الشعلة الوضاءة بالعطاء الخيِّر والجهد الدؤوب من أجل الحفاظ على مستوى الكتاب في لبنان والبلاد العربية انطفأت على حين فجأة نتيجة نوبة قلبية حادة أصابت بهيج عثمان وهو في جزيرة قبرص حيث أدركه ريب المنون في ١٥ آب سنة ١٩٨٥ وتم دفنه في تراب البلد الذي بادله الحب والوفاء بيروت مشيَّعاً في مأتم مهيب شارك فيه جمهور كبير من أهل العلم والأدب والهيئات الاجتماعية والإنسانية الذين افتقدوا فيه واحداً من أبرز رموز النهضة الثقافية في هذا البلد.

منير البعلبكي

إن من يكتب تاريخ بيروت لا سيما في عصرنا الحاضر يرى لزاماً عليه أن يفرد بعض صفحات هذا التاريخ للكلام عن ثلة كريمة من أعلام علمائها الذين أصبحت أسماؤهم رموزاً لنهضتها الفكرية، كما أصبحوا هم بما أنتجوه من آثار أقلامهم شهوداً على دورها الطليعي إمداد المكتبة العربية بثروة كبيرة من المصنفات الغنية بمادتها العلمية وموضوعاتها ذات الطابع المرجعي والصفة المصدرية.

من هذه الثلّة المتميزة بعطائها الثقافي منير البعلبكي الذي أصبح اسمه واحداً من الصوى التي تحدد معالم حركة التأليف المعجمي والموسوعي في آفاق المعرفة المقارنة باللغتين العربية والإنكليزية.

ولكي لا نظلم الحقيقة ونحن نشير إلى الحضور الموسوعي البارز لمنير البعلبكي فإننا نقول، ونحن مطمئنون، بأنه إلى جانب هذه الميزة نذكر أيضاً العشرات من الكتب المؤلفة من آلاف الصفحات التي سالت بها شباة قلمه ناقلة إلى اللغة العربية العديد من الكتب الأمهات باللغة الإنكليزية.

على أننا قبل أن نُعرِّف بالدور الثقافي لمنير البعلبكي، فإن علينا أن نقدمه في سيرته الذاتية من خلال الأحوال والتحولات التي تعاقبت عليه وهو في طريقه إلى المكانة العالية التي يتبوأها اليوم بين أنداده ونظرائه من العلماء في وطنه لبنان، وكذلك في العالم العربي كله من أدناه إلى أقصاه.

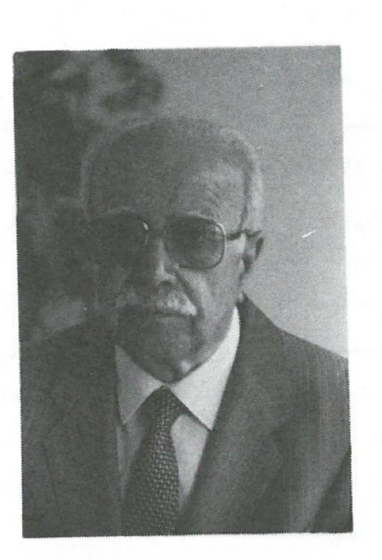
العائلة التي نشأ منير البعلبكي فيها من الأسر البيروتية المعروفة. ولقد ذكر لي المترجَم له أن هذه العائلة كانت قديماً مشتهرة باسم آل عبد الساتر التي كانت تقيم في مدينة بعلبك ولما انتقل أحد أجدادها إلى بيروت اشتهر باسم البعلبكي لقدومه من المدينة المذكورة وهو الاسم الذي ما زال علماً عليها حتى اليوم.

والده هو عبد الحفيظ البعلبكي وكان يعمل في مهنة الخياطة لتغطية مسؤولياته العائلية، وبالإضافة إلى ذلك فإنه لبّى رغبة جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في تعليم بعض تلامذتها هذه المهنة وكانوا يُختارون من بين التلاميذ المحتاجين الذين لن يتمكنوا من متابعة دراستهم. ولقد كانت لنا معرفة شخصية مباشرة بعبد الحفيظ البعلبكي لأنه كان ووالدي محمد الولي رحمهما الله متزاملين بنفس المهنة حيث كانا متجاورين في محل عملهما بسوق سيّور (سوق الخياطين) ببيروت.

ولد منير البعلبكي سنة ١٩١٨ في بيروت وهو متأهل من السيدة روحية حقّاق، وقد رزقه الله منها بثلاثة أبناء وهم الدكتور روحي والدكتور رمزي وشقيقتهما السيدة سحر.

وجدير بالذكر أن عائلة المترجَم له من أوساط بيروت الاجتماعية وتتمتع بمكانة مرموقة في هذه المدينة.

بدأ منير البعلبكي حياته المدرسية في الجامعة الأميركية في بيروت وتابع دراسته في هذه الجامعة إلى أن تخرج منها سنة ١٩٣٨ حائزاً على شهادة بكالوريوس في الأدب (قسم الأدب العربي والتاريخ الإسلامي).



ونظراً لتفوقه في هذه المادة عينته الجامعة المذكورة أستاذاً لمادتي الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. ثم انتقل لتدريس الأدب العربي والتاريخ الإسلامي في كلية الملك فيصل ببغداد والكلية العلمية الوطنية في دمشق وكلية البنات الأهلية في بيروت وكذلك في كلية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت.

في سنة ١٩٤٥ ترك المترجَم له التدريس واختار العمل في ميدان طباعة الكتب ونشرها وتسويقها في لبنان وخارجه، فأنشأ مع زميله الأستاذ بهيج عثمان رحمه الله مؤسسة باسم «دار العلم للملايين» التي سرعان ما أخذت مكانها الوطيد في ميدان الاهتمام بالكتاب، على اختلاف الموضوعات واللغات،

واحتلت المرتبة الأولى بين دور النشر الأخرى سواء تلك التي هي في داخل لبنان أو في بقية الأقطار العربية. ومنذ مدة قريبة توفي الأستاذ بهيج عثمان رحمه الله وآثر المترجَم له حفظه الله أن يتخلى عن عمله المباشر في المؤسسة المذكورة تاركاً إدارتها في عهدة ولديه الكريمين الدكتور روحي والدكتور رمزي والأستاذ طارف نجل الأستاذ بهيج الذين يتابعون رسالة والديهم في خدمة الكتب ومؤلفيها ويحافظون على دورها الطليعي بالمستوى الخلقي والعلمي الذي حققته واستمرت عليه منذ تأسيسها سنة ١٩٤٥ حتى اليوم.

إن كُل اهتمام منير البعلبكي بمؤسسة «دار العلم للملايين» ما كان ليصرفه عن متابعة نهجه العلمي عن طريق تأليف الكتب أو ترجمتها من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية وهو ما يزال مستمراً في هذا النهج منذ أربعين عاماً إلى اليوم بحيث بلغ ما صدر له من تأليفه شخصياً أو من ترجماته عن اللغات الأجنبية عشرات الكتب في أبواب متعددة من أغراض الثقافة والفكر والأدب والتاريخ.

ولدى مراجعتنا لقائمة الكتب التي اهتم بها وترجمها من اللغة الإنكليزية إلى اللغة العربية نجدها متوزعة بين قاسم مشترك يجمع بينها اتجاه المترجَم له نحو الموضوعات التي يعيش العرب والمسلمون همومها في شعوبهم وأوطانهم. ولا بدْعَ فإن منير البعلبكي كان وما يزال دائم الاتصال والتحسس بالقضايا التي تحيط به سواء من الناحية الوطنية القومية أو من الناحية الروحية الدينية. نريد أن نقول بأن الكتب التي حملت على غلافها اسمه سواء كانت من تأليفه أو من ترجمته هي في الواقع انعكاس لما هو في عقله وقلبه من ارتباط وثيق مع الأحداث التي يعانيها العرب والمسلمون في حاضرهم والمصير الذي ينتظرهم في مستقبلهم.

وفي الواقع إن منير البعلبكي حاضر بكل ما في كلمة الحضور من معنى سواء عبر الهيئات والمؤسسات الأهلية والعربية العامة أو عبر المحافل والمجامع التي تعاني الدراسات والأبحاث اللغوية والثقافية بشكل عام. ومن حظ بيروت، المدينة التي أقلّته على أديمها المبارك عند ولادته الميمونة وأظلته سماؤها الصافية وما تزال في مسيرته الفكرية المعطاءة، أنها وجدت بشخصه سفيراً لها في تقديم اسمها إلى أهل القلم من المؤلفين والكتّاب متوجاً بالهالة التاريخية التي عرفت بها منذ أقدم الدهور والعصور تحت عنوان «بيروت ظئر المعارف والعلوم».

أجل، إن في حياة منير البعلبكي، أطالها الله له وباركها، سجلاً من المبادرات الحافلة بالقيم العلمية والإنسانية والوطنية التي جعلته يحتل المكانة السامية في بلده وكذلك في وطنه العربي الكبير وهي المكانة التي عبّرت عن نفسها من خلال انتماءاته العلمية والتنويه الذي كان المترجَم له يلاقيه لدى النخبة المصطفاة العاملين في الميدان الثقافي محليًّا وعربيًّا وفي البلاد الأجنبية.

وأمامي الآن، وأنا أكتب عن سيرة منير البعلبكي الذاتية ومسيرته الفكرية ثبت بالنشاطات التي مارسها والمؤتمرات الأدبية والندوات الفكرية التي شارك فيها في بيروت والقاهرة وبغداد والكويت ودمشق وباريس. فلقد شارك المترجَم له في جميع هذه المدن المحافل التي تناول المجتمعون فيها الشؤون الثقافية العربية وما إليها من الأبحاث التي تتصل باللغة العربية بصورة خاصة.

وفي سنة ١٩٨٢ انتخب منير البعلبكي عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

أما البادرات التي عبرت عن مكانة منير البعلبكي في دنيا الفكر وميدان الأبحاث اللغوية فإننا نذكر منها في هذه العجالة:

أ - جائزة «أصدقاء الكتاب» (وهي جمعية أهلية تهتم بتشجيع الكتب ومؤلّفيها من اللبنانيين) وهذه الجائزة أُعطيت له مكافأة لترجمته كتاب «رواد الفكر الاشتراكي» للبروفسور كول.

ب - جائزة سعيد عقل، التي وضعها صاحبها سعيد عقل المفكر اللبناني لأحسن كتاب يظهر في لبنان لمؤلف لبناني.

ج - جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، مكافأة له على تأليفه «موسوعة المورد» التي هي في الواقع عبارة عن دائرة معارف شاملة ومحيطة هي بالنسبة لكل مثقف دليل يساعد من يرجع إليه في تتبع أهم الشخصيات العالمية في الماضي والحاضر ومعرفة أخبارهم وأحوالهم وآثارهم بإيجاز غير مخلّ وتقديم غير مملّ.

وفي ما يلي أسماء بعض الكتب التي ألفها والتي ترجمها:

- قاموس المورد «إنكليزي - عربي» وهو يقع في أحجام خمسة.
- «موسوعة المورد» وهي دائرة معارف عامة تقع في أحد عشر مجلدات كبيرة تغطي مختلف فنون المعرفة الإنسانية
- مجموعة كبيرة من الكتب المدرسية لطلاب المدارس الابتدائية والثانوية
- قصة تجاربي مع الحقيقة، للمهاتما غاندي
- الإسلام والعرب، لروم لاندو

تاريخ الشعوب الإسلامية، لكارل بروكلمان (بالاشتراك مع الدكتور نبيه أمين فارس)

- دفاع عن الإسلام، لفاغليري
- حياة محمد ورسالته، لمولانا محمد علي
- البؤساء، لفيكتور هيجو (في خمسة مجلدات)
- قصة مدينتين، لتشارلز ديكنز
- كوخ العم توم، لهرييت بستاو
- المواطن توم بين، لهوارد فاست
- الشيخ والبحر، لأرنست همنغواي
- قصة اللاعنف في جنوب أفريقيا، للمهاتما غاندي
- رواد الفكر الاشتراكي، للبرفسور ج. د. هـ. كول
- كيف تفكر، للدكتور جبسون

وبعد.. فإن منير البعلبكي حفظه الله، قدّم لبلده بيروت ما تزدهي به وتفاخر من كرامة السمعة العلمية العالية بمشاركته في المجامع اللغوية وما إليها من المحافل والهيئات العاملة في حقول الفكر العربي على اختلاف فنونه وألوانه ومفاهيمه.

وجملة القول فيه أنه اليوم هو شاهد عصره في التأليف الموسوعي المتميز بالدقة والصبر على التحقيق مع حُسن الانتقاد والاختيار.

وختام ما نقوله في تقديمنا لأهل زماننا وبلدنا بيروت عالمنا الموسوعي المنير، الدعاء إلى الله عز وجلّ أن يديمه رمزاً للعطاء العلمي الخيّر في دنيا العروبة والإسلام.

الدكتورة سهيلة سعادة

كانت المبادرة الأولى في اختراق التقاليد القديمة التي تحبس المرأة في دور الحريم، هي تلك التي قامت بها الآنسة سهيلة سعادة، وذلك حين ألقت إزارها عن كاهلها وأسفرت عن وجهها وأقدمت على دراسة أصول التمريض وعلم التوليد في بيروت ولندن ودخلت في التاريخ كأول سافرة من بنات الحجاب في لبنان، على حد قول جرجي باز الذي قدمها لقراء مجلة الكشاف الصادرة في كانون الثاني ١٩٢٨.

وعندما صدر الجزء الرابع في المجلد الرابع عشر من مجلة «العرفان» لصاحبها الشيخ أحمد عارف الزين نقل عن مجلة «المرأة الجديدة» ما كتبته صاحبتها جوليا طعمة دمشقية تحت عنوان: تعليم الفتيات في بيروت «الدكتورة الآنسة سهيلة سعادة، هي أول فتاة مسلمة عربية سافرت لبلاد الغرب وتخصصت في فن التوليد في أكبر جامعات إنكلترا ومستشفياتها، وهي بيروتية».

والآن، وقد مرّ على مبادرة المغامرة لسهيلة سعادة ما يزيد على سبعة عقود من السنين فإننا نقدم لأبناء زماننا سيرة قلمية لهذه الآنسة التي يصح فيها القول بأنها صانعة البارود الذي فجّر الانطلاقة الأولى للفتاة البيروتية المسلمة في طريق الانخراط مع الرجال في الحياة الاجتماعية على درجة المساواة المطلقة والتعادل الكامل.

هي ابنة خليل بن عثمان سعادة، أصل عائلته من تونس، وأمه سعدى دبوس، بيروتية عاشت أكثر من مائة سنة، عمل والدها ٥٢ سنة في مستشفى البروسيا (مكان بناية ستاركو اليوم) تسع سنوات في أيام الانتداب الفرنسي، والسنوات السابقة في العهد العثماني، وكان يشغل وظيفة محاسب وكان أميًّا ولكنه يتكلم اللغة الألمانية؛ وعندما جاء غليوم إمبراطور ألمانيا إلى بيروت سنة ١٨٩٨م أهداه وساماً يوم استقبله في المستشفى المذكور كما نال وساماً آخر بمناسبة احتفال المستشفى بيوبيله الذهبي وذلك تقديراً لخدماته فيه.

وأمها: مباركة بنت أحمد بدرشاني، من أصل مصري، والدها عمل ترجماناً سياحيًّا، ودرست على شيخ أعمى عادة ذلك الزمان، فحفظت القرآن الكريم غيباً وكانت تحسن القراءة وتروي القصائد الصوفية لعمر بن الفارض.

وأخواها الشقيقان: الدكتور عثمان، طبيب تخرّج من الجامعة الأميركية، والأستاذ فؤاد مارس التعليم في مدرسة كنيسة اسكتلندا (بيروت) ثم استُخدم في مكتب مطبعة الأميركان وكان موقعها غربي ساحة السور.

وولدت سهيلة سعادة في بيروت في أوائل هذا القرن وبدأت علومها الأولى بمدرسة عين المريّسة التي كانت في عهدة أليس إدلبي. في هذه المدرسة فكّت الحرف وختمت القرآن الكريم ودرست مبادىء اللغتين العربية والتركية وكانت زميلتها في هذه المرحلة إحدى رائدات النهضة النسائية في الشرق العربي نازك العابد زوجة المؤرخ محمد جميل بيهم فيما بعد.



ثم انتقلت سهيلة إلى مدرسة كنيسة اسكتلندا (بيروت) وبقيت في هذه المدرسة خمسة أعوام تخرجت بعدها حاملة شهادتها النهائية بعد أن أتقنت اللغتين العربية والإنكليزية ومبادىء اللغتين العبرية والفرنسية.

المعلمات اللاتي درّسن سهيلة في هذه المدرسة هن حنّة أبو الروس، وظريفة متّى، وبهيّة دشّة، وأستاذها الدكتور مكّي؛ من زميلاتها في هذه المدرسة الدكتورة سنية حبوب التي حذت حذو سهيلة ودرست الطب في جامعة أكسفورد والتوليد بولاية أوهايو في أميركة.

ومن مدرسة كنيسة اسكتلندا انتقلت سهيلة إلى مدرسة البروسيا حيث مكثت فيها أربع سنوات وتخرجت منها حاملة شهادتها النهائية بعد أن أتقنت جيداً اللغات الثلاث الإنكليزية والألمانية والفرنسية مع غيرها من العلوم وكذلك فنّ الرسم. وكانت معلمتاها في اللغة العربية في هذه المدرسة حنّة أبو الروس وأمينة الخوري.

دعيت سهيلة للتعليم في بعض المدارس الأهلية ولكنها اعتذرت وفضلت الانصراف إلى متابعة دراسة فنّ التمريض معتمدة على نفسها واستعارت أحد كتب هذا الفن الذي مارسته فعلاً، في بداية الأمر داخل بيتها، واتصلت خلال ذلك بالسيدة دايل الأميركية، رئيسة مستشفى الجامعة الأميركية آنذاك. وإذ كانت سهيلة دون السن التي تخولها دخول الجامعة فإن السيدة دايل أجّلت قبولها حتى تدرك السن المطلوبة.

إن سهيلة لم يثنها صغر سنها عن الإصرار على دخول الجامعة الأميركية ودراسة الطب فيها. متأثرة بسيرة فلورنس نيتنكايل الممرضة الإنكليزية التي كانت كثيرة الإعجاب بها. حتى إنها كتبت وهي في المدرسة سيرة هذه الممرضة، وأقبلت سهيلة على دراسة فن الطب والتمريض على نفسها إلى أن سُمح لها أخيراً بدخول الجامعة الأميركية وعملت مع ممرضات مستشفى الجامعة سنة ١٩١٧، وبقيت تمارس هذا الفن علميًا وعمليًا ثلاثة أعوام حازت بعدها الشهادة النهائية الرسمية سنة ١٩٢٠م وكانت زميلاتها عندما تخرجت من الجامعة ماري بجاني وزاهية سوسو وإبريز حداد وسعاد كنعان.

بعد أن تخرجت سهيلة سعادة من الجامعة عينتها جمعية الصليب الأحمر الأميركية مع زميلتها ماري بجاني ممرضتين لعيادة المرضى في بيوتهم للعناية بهم وتعليم أهليهم مبادىء التمريض المنزلي. كما زاولت سهيلة وزميلتها ماري فنّ التمريض والعناية الصحية للأطفال في مركز الجمعية المذكور. وفي هذه الأثناء ترجمت كلتاهما رسالة في علم الصحة موجهة إلى الأمهات وقامتا بتوزيع هذه الرسالة على الأمهات بدون مقابل.

في سنة ١٩٢٢ تعينت سهيلة سعادة مديرة لمصح الشبانية (بجوار قرية حمانا بلبنان) حيث بقيت تديره مدة ثلاثة أعوام وفي هذه الأثناء كانت تتردد على العمل في مستشفى الجامعة الأميركية ببيروت.

في صيف سنة ١٩٢٦م سافرت سهيلة سعادة إلى أوروبا وانتسبت إلى مستشفى الملكة شارلوت في لندن حيث درست فن التوليد نظريًا وطبّقته عمليًا لمدة ستة شهور اقتبلت خلالها ثلاثة وتسعين مولوداً. هذا المستشفى كان من أهم المنتجعات الطبية والصحية في زمانه. كانت سهيلة التلميذة الغريبة الوحيدة فيه. وتخرجت منه بشهادة نهائية برتبة جيد جدًا، الأمر الذي جعل إدارة الصحة العمومية في لندن تجيز لها ممارسة مهنة التوليد في جميع البلاد البريطانية والمستعمرات التابعة للتاج البريطاني في حينه.

عندما تأثرت صحة سهيلة أثناء وجودها في أوروبا بسبب الإجهاد وبرودة الجو، بادرت بالعودة إلى بيروت. وفي طريق العودة مرت بباريس حيث تقلّبت في المستشفيات الفرنسية وكان في صحبتها آنذاك السيدة عنبرة سلام، رحمها الله شقيقة الرئيس صائب سلام وزوجة المرحوم الدكتور أحمد سامح الخالدي. أخيراً ألقت سهيلة عصا التسيار واستقر بها النّوى في موطنها الأم مدينة بيروت حيث أسست عيادة خاصة للتوليد ومعاينة النساء الحوامل، كما مارست التوليد في المنازل ولم تتوقف عن إلقاء المحاضرات في نادي التعاون (البيروتي) إلى أن دعاها الأجل المحتوم إلى جوار أكرم الأكرمين. رحمها الله وأجزل ثوابها.

الخاتمة

في صدر هذا الكتاب قدمنا فاتحته في الكلام عن العوامل التي حفزتنا على تناول مدينة بيروت من خلال تاريخها السحيق عبر نشأتها الأولى في القرون الخالية قبل حوالى ما يزيد عن أربعة آلاف سنة قبل زماننا، وطوينا صفحاته مع توالي السنين والعهود والأحداث كما شاءت الأقدار أن تتعاقب على هذه المدينة بما كانت تحمله لها من أيام النعيم والازدهار، ومن أيام الشقاء والانحدار، وها نحن أولاء الآن، وقد أنهينا ما أخذنا نفسنا به من الحديث عن ماضيات السنين والعهود والأحداث، نجد من الحريّ بنا أن نجعل خاتمة ما قدمناه في الكلام عن حاضر بيروت، كما هي اليوم بعد خروجها من نفق الحرب الأهلية التي أناخت عليها بكلكلها الوبيء الوبيل بما زاد عن ستة عشر من الأعوام الحسوم التي تركت عمرانها أنقاضاً وسكّانها أشلاءً وكيانها ريشة لا حول لها ولا طول في مهبّ رياح الأهواء الهوج التي دهمتها من كل حدب ومن كل صوب وجعلت كل ما فيها من تراث طارف وتليد كأمس الدابر ينعب على خرائبه غراب البين تارة وبوم الشؤم تارة ثانية.

أجل، في خاتمة هذا الكتاب، نطوي صفحاته الأخيرة على ما أدركناه في مدينتنا بيروت من آثار الفتنة الأهلية، ولا نقول الحرب، لأن ما عانته هذه المدينة من الويلات والمتاعب والآلام في عمرانها وسكانها تتقزز منه النفوس، وتتبرأ منه تقاليد الحروب كيفما كانت وأينما كانت. ولسنا ندري بأي لهجة وبأي كلام سيتحدث المؤرخون عن هذه الفتنة ضمن صفحات كتبهم في آتيات الأيام إذا أرادوا تسجيل واقعاتها وتفصيل ما اقترفه أولئك القتلة الذي سمّوا أنفسهم مقاتلين من ألوان العبث الوحشي بحقها دون أن يراعوا في هذا الحق لله إلاًّ ولا ذمة، ولم يرفعوا بغيهم عنها إلا وهي مثخنة بجراح عدوانهم الآثم ثم طريحة تحت ركام البيوت المدمرة والمؤسسات المحترقة والأموال المنهوبة تلهث بأنفاسها المختنقة تحت عبء أولئك البغاة الذي تقنعوا بشعارات الوطنية والمذهبية والحزبية، وتسللوا في ظلال هذه الشعارات إلى تكديس المغانم لأشخاصهم ومضاعفة الآلام لأبناء أمتهم ومواطنيهم.

إن في صفحات التاريخ حكايات عن نكبات أخنت بكلكلها على عواصم أقطار عربية ولم تتركها إلا وهي خاوية على عروشها بعد أن أتت على ما فيها من معالم الحضارة والعمران في مبانيها وآثارها وتراثها ومكتباتها. ولا تزال هذه النكبات تثير في نفوس العرب والمسلمين أصداء ذكرياتها المؤلمة كلما عادوا إلى الماضي بين بعيده وقريبه. ولسنا نحسب أن واحداً من العرب أو المسلمين يستطيع أن يحبس الدموع في عينيه أو الزفرات في رئتيه وهو يقرأ في كتب المتقدمين كيف أحالت محاكم التفتيش في أسبانيا أجساد المسلمين رماداً تذروه رياح التعصب الكنسي عبر حطام المساجد في قرطبة وطليطلة وإشبيلية وغرناطة. وكيف اسودّت مياه دجلة يوم اجتاح هولاكو بغداد وأغرق تراثها العلمي والثقافي في تلك المياه. وكيف أصبحت البصرة مضرب المثل في الخراب الذي ألحقه بها الزطّ إرواءً لأحقادهم المذهبية.

واليوم، ها هي بيروت في زماننا، تمر على طريق الأحزان التي مرت عليها من قبل أخواتها من المدائن التي ذكرنا. وتسلمها الأقدار إلى الأيدي الحاقدة عليها من الخارج وأيدي العابثين فيها من الداخل. فإذا بهذه المدينة التي تربعت على عرش الجمال والكمال والحضارة والنضارة في القرن العشرين يتقوض عرشها تحت وطأة قنابل الاجتياح اليهودي الذي زلزل مبانيها وجعلها قاعاً صفصفاً وأحرق غابتها الصنوبرية وجعلها كهشيم المحتظر، وما عفا عنه الاجتياح اليهودي دهمته قطعان الرعاع التي تبادلت من فوقها ومن خلالها نيران أسلحتها القاتلة والحارقة والمدمرة، بحيث لم يدع ذلك الاجتياح وهذا السلاح بيروت إلا وهي مجلببة بسواد الحرائق ومضرجة بدماء الضحايا، وما كان فيها من معالم التقدم والازدهار تحول إلى أطلال دارسة تعلوها بعد التقدم والازدهار قترة الخراب وغبرة الدمار. أجل، إن بيروت الحضارة والنضارة خرّت صريعة تحت وطأة الغارة اليهودية التي تبعتها وطأة الفتنة الأهلية. وما آلت إليه بيروت عبر السنوات الحسوم في الزمن الرديء من سنة ١٩٧٤ حتى سنة ١٩٩١ قد وصفه شاعرها الشعبي عمر الزعني في قصيدة عنوانها «يا ضيعانك يا بيروت» ولما كانت كلمات هذه القصيدة تكاد تكون صورة صادقة عن حالة بيروت كما تركتها الأحداث التي مرت عليها خلال هذه السنوات الحسوم بالرغم من أنها قيلت قبل خمسين سنة، فإننا نثبتها بنصها في خاتمة هذا الكتاب لعلّها تكون عبرة وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. قال الزعني:

يا ضيعانك يا بيروت

يا مناظر غشاشة — يا خداعة وغشاشة
يا عروس بخشخاشة — يا مصمودي بالتابوت

يا ضيعانك يا بيروت

الخواطر مكسورة — والنفوس مقهورة
والحرية مقبورة — والكلام للنبّوت

يا ضيعانك يا بيروت

الجهال حاكمين — والأرذال عايمين
والأنذال عايشين — والأوادم عمّا تموت

يا ضيعانك يا بيروت

الخامل حامل نيشان — والسافل له قدر وشان
والجاهل شبعان روْيان — والعالم لايِبْ عالقوت

يا ضيعانك يا بيروت

ما في هيبة ولا وقار — بالأحكام استهتار
وين ما مشيت لعب قمار — في النوادي والبيوت

يا ضيعانك يا بيروت

الغريب بيتمخطر — والقريب بيتمرمر
واللي بفوت ما بيضهر — واللي بيضهر ما بيفوت

يا ضيعانك يا بيروت

بيروت زهرة في غير أوانها — بيروت ما أحلاها وأحلى جمالها
بيروت، يا حيْنها يا ضيعانها — تذبل على أمها وتموت بيروت

على أن الخطوب والأرزاء التي حاقت ببيروت خلال كبوتها التي فرضها الأقربون والأبعدون لا تفرض علينا اليأس من قدرة أبنائها على العودة بها إلى سابق مجدها وعزها وها هي بوادر الأمل تترافق مع العمل، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل. وإننا نسأل الله العلي القدير أن يوفق العاملين من أجل إنهاض بيروت من كبوتها وإنقاذها من جوائح العادين عليها وإقالتها من عثراتها وغدرات الزمان بها، وأن يحفظها ويبقيها ظئراً للعروبة والإسلام بجاه محمد خير الأنام عليه الصلاة والسلام.

وأسأله عز جل أن يجعل كتابي هذا في ميزان حسابي حين مآبي «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم».

أما بعد،

فإني إذ أنهي كتابي هذا بخاتمته، بعد أن أنفقت في إعداده الأعوام ذوات العدد من عمري وفكري وجهدي واجتهادي فإنني أجعل في آخر صفحاته بيتين من الشعر قالهما مؤلف مرَّ في هذه الدنيا قبلي وأنا أُرددهما من بعده وهما:

أموت، ويبقى كل ما قد كتبته — فيا ليت من يقرا الكتاب دعا ليا
لعل إلّهي يعفُ عني بفضله — ويغفر زلّاتي وسوء فعاليا

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

كان الفراغ من تصنيف هذا الكتاب وإنجازه صبيحة يوم الجمعة ٢٦ جمادى الأولى ١٤١٣هـ الموافق في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٢م.

* * *

كلمة لا بد منها

إن هذا الكتاب «بيروت في التاريخ والحضارة والعمران» هو ثمرة رغبة كريمة أبداها لي الأستاذ طارف عثمان وثنّى على هذه الرغبة وأكدها الدكتور روحي البعلبكي مديرا مؤسسة «دار العلم للملايين». ولقد لقيت هذه الرغبة قبولاً حسناً في نفسي وبادرت إلى تحقيقها بكل اندفاع وتصميم.

وإذ وفقني الله عزّ وجل إلى إنجاز هذا الكتاب، فإنني أتوجه إلى الأستاذين السيد طارف والدكتور روحي بالغ الشكر وجزيل الامتنان على اعتماد طبعه ونشره في مؤسستهما الزاهرة «دار العلم للملايين» التي تحملت أعباء تمويله وتسويقه خدمة لمدينة بيروت ودورها الحضاري الرائد في دنيا العروبة «الإسلام، جزاهما الله كفاء ما هما أهل له من الخير وحسن الختام.

وإنه من حق الوفاء للأستاذ مصطفى القصاص، المشرف على إخراج الكتب التي تنشرها «دار العلم للملايين» أن أمحِّضه تقديري للعناية التي أحاط بها كتابي هذا في مراجعته وتنسيقه وإصداره بما يليق به من الدقة والذوق وسلامة الطباعة.

الشيخ طه الولي

الشيخ طه الولي

مؤلف هذا الكتاب



* محمد طه الولي، وشهرته الشيخ طه الولي ولد في طرابلس عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١ ميلادية.

* بدأ الشيخ طه الولي الدراسة في «الخوجاية» وهو الاسم الذي كان يطلق على المدرسة الأهلية لتعليم القرآن الكريم ومبادىء الدين واللغة العربية ثم انتقل إلى مدرسة التوفيق التي أسسها الشيخ محمد توفيق خالد مفتي الجمهورية اللبنانية في أوائل العقد الثالث من القرن الحالي. ومن مدرسة التوفيق انتقل المترجَم له إلى «مدرسة الحرش» وهي المدرسة التي أنشأتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت للصبيان في محلة حرج بيروت فنسبت إلى هذه المحلة.

* بعد الانتهاء من مرحلة الدراسة الابتدائية في مدرسة الحرش أدخله والده في الكلية الشرعية في بيروت لطلب العلم الديني. وبقي في هذه الكلية التي عرفت فما بعد باسم «كلية فاروق الأول الشرعية» إلى أن نال شهادتها النهائية وتخرج منها «شيخاً» سنة ١٩٤٠م.

* وفي سنة ١٩٤٨م انتقل إلى القاهرة حيث التحق بكلية أصول الدين في الجامع الأزهر وتخرج من هذه الكلية ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول التي أصبح اسمها اليوم «جامعة القاهرة».

* بعد أن تخرج من الكلية المذكورة حاملاً شهادة الحقوق عاد إلى بيروت وانتسب إلى كلية الحقوق بجامعة القديس يوسف اليسوعية وتخرج منها حاملاً شهادة ليسانس في الحقوق اللبنانية.

* وفي سنة ١٩٦٨م التحق بالمكتبة الوطنية العامة في فيينا عاصمة النمسا ونال منها شهادة في «علم المكتبات».

* بعد التخرج من الكلية الشرعية في بيروت عينته الحكومة اللبنانية مساعداً قضائياً في المحكمة الشرعية في بيروت. ثم بعد مدة نقلته بناء لطلبه إلى دار الكتب الوطنية حيث شغل منصب رئيس قسم الصحافة، وبقي في دار الكتب الوطنية حتى سنة ١٩٧٢م، ففي هذه السنة قدم استقالته من هذه الوظيفة تلبية لطلب حكومة جمهورية تشاد التي عينته مستشاراً ثقافياً وصحافياً بسفارتها في بيروت. وهذه السفارة كانت تغطي بيروت وأنقرة ودمشق وعمان في آن واحد. وفي سنة ١٩٧٦م تعطل العمل بالسفارة التشادية بسبب الحرب الأهلية في لبنان ولنفس السبب في بلاد تشاد التي صليت بالحرب الأهلية أيضاً.

* ألف الشيخ طه الولي المترجَم له العديد من الكتب بعضها طبع والآخر ما زال مخطوطاً.

* من أبرز الكتب المطبوعة:

١ ـ الإسلام والمسلمون في ألمانية بين الأمس واليوم (وهو دراسة عن اهتمام المستشرقين بالدراسات العربية والإسلامية) سنة ١٩٦٦م.

٢ ـ عبد الرحمن الأوزاعي شيخ الإسلام وإمام أهل الشام (وهو ترجمة حياة هذا الإمام مع ذكر المؤسسات والأوقاف المتصلة باسمه في بيروت).

٣ ـ التراث الإسلامي في بيت المقدس وفضائله الدينية (وهو تعريف موجز بالمساجد والزوايا والخوانق والرباطات، الموجودة في مدينة بيت المقدس، جبرها الله وردها للعروبة والإسلام).

٤ ـ القرامطة (وهو دراسة للحركات الباطنية في تاريخ المسلمين وصلة هذه الحركات القديمة ببعض الحركات الحزبية في الوطن العربي).

٥ ـ المساجد في الإسلام، وهو كتاب يقع في نحو ألف صفحة بالحجم الموسوعي، يتناول موضوع مؤسسة المسجد في تاريخ الإسلام والمسلمين منذ أن كان سقيفة متواضعة في المدينة المنورة إلى أن أصبح اليوم تحفة فنية يتنافس في بنائه أكابر المهندسين ويشكل تراثاً معمارياً عند المسلمين بالإضافة إلى دوره في إعداد المجتمع الإسلامي وتوجيه المسلمين إلى ما فيه خيرهم في الدين والدنيا معاً.

* وللمترجَم له مئات المقالات والبحوث التي نشرتها له الصحف والمجلات في العالمين العربي والإسلامي. وغالب هذه الأعمال يتناول موضوعات التاريخ الإسلامي وتراث العرب المسلمين سواء من الناحية العمرانية أو من الناحية العلمية والأثرية.

* دخل المترجَم له معترك الحياة الوطنية والسياسية وهو دون الحلم وبسبب محاربته للانتداب الفرنسي ومطالبته بالوحدة السورية زجه الفرنسيون في السجن وعمره نحو ١٤ سنة ثم توالى عليه السِّجْن نحو اثنتي عشرة مرة. وآخر أيام سجنه كانت سنوات ثلاثاً قضاها في معتقل قلعة راشيا الوادي بلبنان عندما اعتقله الإنكليز عقب دخولهم إلى بيروت سنة ١٩٤١م.

* يملك المترجَم له ثروة لا بأس بها من الكتب في اللغتين العربية والفرنسية وهي في الغالب: تاريخية، وطبقات رجال وتراجم ـ تفسير وحديث ـ وفي الفقه على مختلف المذاهب مع جناح خاص بالمؤلفات الخاصة بلبنان عامة وبيروت خاصة. وفي المدة الأخيرة قام المترجَم له بوقف هذه المكتبة على المعهد العالي للدراسات الإسلامية التابع لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت. وقد سجل هذه الوقفية في محكمة بيروت الشرعية التي قامت بإحصاء مفردات الكتب وسجلتها في فهرس خاص تحت اسم «مكتبة الشيخ طه الولي الموقوفة لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت» وجدير بالذكر أن هذه الوقفية لم يقابلها من قبل الواقف إلا شرط واحد وهو إباحتها لمن يريد مطالعتها مع رجاء المطالعين بأن يقرأوا الفاتحة ويهدوا ثوابها لروح الواقف.

الفهرس

الفصل الأول
بيروت في التاريخ

الفصل الثاني
ألقاب بيروت

الفصل الثالث
المنعطفات الرئيسية في تاريخ بيروت

الفصل الرابع
دراسة إحصائية عن سكان بيروت

الفصل الخامس
بيروت كما رآها الرحالة الأجانب

الفصل السادس
بيروت وراء أبوابها السبعة

الفصل السابع
السور من عماره إلى دماره

الفصل الثامن
الولاة العثمانيون في بيروت

الفصل التاسع
أربعمئة سنة من عمر ساحة الشهداء

الفصل العاشر
غابة الصنوبر (حرج بيروت)

الفصل الحادي عشر
نكبات بيروت في ماضيها وحاضرها

الفصل العشرون
انطلاقة بيروت التجارية في بداية القرن الماضي

الفصل الحادي والعشرون
البدايات الأولى للتعليم بالمدارس العصرية

الفصل الثاني والعشرون
بيروت في بداية مسيرتها
مع التعليم العصري

الفصل الثالث والعشرون
أوائل المدارس الأهلية أيام العثمانيين

الفصل الرابع والعشرون
الإفتاء في بيروت بين الماضي والحاضر

الفصل الخامس والعشرون
أعيان العلماء في بيروت